الحسن الشاهدي

أدب الرحلة بالمغرب

في العصر المريني

الجزء الأول

منشورات عكاظ

الحسن الشاهدي

أدب الرحلة بالمغرب

في العصر المريني

الجزء الأول



شكر وتقدير

تمت مناقشة هذه الرسالة بكلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط في 13 دجنبر 1985 ، من طرف لجنة مكونة من الأساتذة السادة محمد بنشريفة رئيسا ، ومحمد بن تاويت مشرفاً مقرراً ، ومحمد بنشقرون عضواً

وبذلك نال صاحبها دبلوم الدراسات العليا في الأدب العربي بميزة حسن جدا واغتنم هذه المناسبة لتجديد الشكر إلى أعضاء هذه اللجنة العلمية الموقرة وعلى الاخص استاذي المشرف العلامة محمد بن تاويت الذي تعهدني بالتوجيه والارشاد في كل خطوات التحضير والبحث بعطف أبوي وصبر علمي ، جزاه الله عني أحسن الجزاء .

كما أتقدم بشكري إلى كل من ساهم في تذليل العقبات التي واجهتني وأنا بصدد إنجاز هذا العمل .

فإلى الجميع شكري وامتناني .

تقديم

بقلم الاستاذ العلامة محمد بن تاويت

دراسة عامرة ، عكف عليها صاحبها بضع عشرة سنة؛ مستجمعا شرائطها ، مستخلصاً عناصرها ، منظما عقودها ، مستنتجاً من أمشاجها ، عارضا ومناظراً بين أنماطها ، فأتى بما لم تأت به الأوائل ، بكراً في لداتها ، عروباً في حسن قيامها ، فيها الجدّة وفيها الطرافة والمتعة ، تجعل القارىء يشعر وهو يواجهها ويقلب صفحاتها ، كأنه يتنقل في روضة غناء ، من مشهد إلى منظر ، لا يغادره إلا ليلتقي بآخر يزيده اعجابا، وينفث فيه سحراً واغرابا.

هذه الدراسة الفريدة لو ناداها كل فن من فنون هذا العصر المريني للبَّت نداه ، فأغنت وأثرت ، ووجد رُوادها فيها ما يفيدهم ولا يملهم ، ويزودهم ولايرهقهم ، لأن الدارس الفاضل ، حمل دونهم كل مشقة وآثرهم باللبن المحض الخالص ، بعد مقاساته الشدائد والأهوال ، صابراً محتسباً، غير منقطع عن مزاولة رسالته التعليمية بالمغرب والجزائر ، مما أكسبه خصالاً نُجِلُّها ولا نبوح بكنهها ، وهو يدركها كل الادراك، شاكراً الله قساوتها التي شحذته وما أضوته، وأصلتت منه مناضلا لا ينبو عضبه ، وشهاباً لايخبو نيّره .

هذه الدراسة كلفته مصاحبة المخطوطات القاتمة والأضابير العارمة ، ولاشك أنه قضى في هذه وحدها نصف الزمان الذي فرضته هذه الدراسة ، أو يزيد حقبا ، فجنى من ذلك ماطالعنا به ، فكانت المتانة في المضمون والجَنَى الذي يبعث على مراجعة الدروس .

هذه الدراسة ، كما أو مأنا ، لايستفيد منها الأدب وحده ، وإن كان الهدف الأول ، بل يستفيد منها تاريخ العلوم ، منقولها ومعقولها ، والتاريخ السياسي والحضاري على أوسع نطاق ؛ عملت فيه الأفكار ومذاهبها والعقائد ومخلفاتها .

هذه الدراسة سجل حافل بالتراجم التي لها نكهتها ، كما يقول الدارس ، وهي صادرة عن رحالين ؛ لايغادر أحدهم صغيرة أو كبيرة إلا أحصاها ، عن مشاهدة منه وصدق من ذكره .

ونلاحظ أنه يذكر أول الباب الأول أن الرحلة عند المغاربة أنشط منها عند الأندلسيين الذين هم دونهم اهتماما بها ، فيجب أن نفهم أنهم دونهم اهتماما لا وجوداً، وإلا فالأندلسيون أشد مناً رحلة وأسبق، وما وجود الغزال في العراق، وهو يعاصر أبا نواس، إلاَّ دليلا صارخاً على سبقهم إلى هذا، ثم نجد ابن عبد ربه من الرحالين إلى المشرق، يذكر في العقد بعض مشاهداته بالحرم المكي، واستمر اهتمامهم حتى هذا العهد الذي نجد فيه البلوي يؤلف رحلته التي يعرض إليها ابن الخطيب. نعم إن الظرف الذي بدأ فيه المغاربة يسجلون رحلاتهم كان غير الظرف الذي يواتي الأندلسيين في هذا النشاط، كيف والدولة تفضل على الحج الجهاد لأعداء الاسلام، وتعلل ذلك بأن الحاج نفعه قاصر عليه، أما الجهاد فيعم المسلمين نفعه فهو أحق بالتلبية في ظرف كان أطفال الكتاتيب يحرضون على القتال للنصارى المحدقين ببلادهم، والعابثين بمقوماتهم، والهاتكين لأعراضهم بسبي النساء وبيعهم رقيقاً بأسواق نخاستهم (كما نجد ذلك يتردد صداه بريحانة الكتاب لابن الخطيب)، بل إن الأندلس عرفت مبكراً أوائل القرن الثالث رحلات جماعية إلى الشرق وغيره، فقد توجه جماعة من الربضيين إلى الاسكندرية وما مكثوا طويلا حتى غادروها إلى جزيرة كريت فعمروها ، وإن كان ابن جبير لم يتول تأليف رحلته فإن كاتبها أندلسي، ولا غرو في هذا فرحلة ابن بطوطة كاتبها أندلسي.

وفي الفصل الثاني من هذا الباب تعرض لدوافع الرحلة ، كولوع المغاربة بها أو للحج وطلب العلم ونحوه ، وساق نص ابن خلدون في المقدمة في كون المغربي يشعر بتفوق المشرقي عليه ، وختم ابن خلدون قوله «وليس كذلك» فجعلت الدارس يطرب لهذه الكلمة ويحاول أن يثبت العكس ، فيجعل المذهب المالكي مثلا قد انتقل إلى مصر عن طريق القاصدين المغاربة إلى الاسكندرية ، وهذا خطأ فمصر عرفت المالكية في حياة مالك و لم تأتها الشافعية إلاَّ وقد برَّز في المالكية رجال ونساء

لدرجة الاجتهاد[1] .

من دوافع الرحلات كانت السفارات الرسمية ، وفي هذا الصدد وَرَدَ ذكر أبي الحسن الصغيّر الزرويلي سفير سليمان إلى الأندلس . فمن «سليمان» هذا ؟ لقد علق عليه بكونه مذكوراً في الاحاطة ، ولم نعثر عليه بها .

وفي الفصل الثالث ذكر ضمن العوامل التي أثرت في فتور الرحلات الازدهار العلمي بالمغرب ، كأن المغرب ماكان رجاله يرحلون الا بدافع الاحتياج إلى غيرهم في التعلم ، مع أنه سبق أن ذكر عوامل أخرى كان فيها التضلع في العلم أساسا ، وهو حق كما أن غيره كذلك . وربما كان الازدهار أقوى في هذا الاتجاه .

وفي الفصل الثاني من الباب الثاني لاحظ ملاحظة هامة وهي كون المغاربة لو يكونوا يسجلون مايشاهدونه بالمغرب ، وهذا طبعي لكون المغرب بالنسبة للمغاربة معروفاً ، بالفرض ، أو عموما ؛ بخلاف غيره ، بل حتى رجاله لم ينالوا اهتماما بقدر ماناله غيرهم (إذ أزهدُ الناس في العالم قومه) .

نعم إن الحوادث والكوارث الكبار ، كانت تنطقهم كما حصل من أبي مروان اليحانسي وهو يصف الجوع الذي خيّم على المغرب وصفاً مفجعاً بحيث انتهى الناس وفتّاكُهم إلى ذبح بعضهم وأكلهم : (انظر تحفة المغترب ببلاد المغرب التي جمع أخبارها القشتالي رفيقه)

ونقل لنا في «فيض العباب» لابن الحاج النميري ، ما صور شخصية أبي عنان ، وماكان يتوفر عليه من عدد الجيوش المنظم تنظيما عجيباً . ومما يسجل للنميري استفادته مما يكتب على شواهد القبور ، واعتباره من قصصها ان كانت بها ، ومن المعالم التقليدية التي مازالت تعايشنا قراءة القرآن بالمساجد قبل صلاة الجمعة مما أمر به لأول مرة أبو عنان .

وفي رحلة ابن الخطيب بالمغرب ، وخصوصا «نفاضة الجراب» استوفاها حقها وأطال فيها .

وفي تعرضه لرحلة عبد الباسط المصري يذكر «بوادر التدخل الاجنبي في الشؤون الداخلية» يريد احتلال البرتغال لسواحل المغرب بعد احتلال الاسبان لمليلية . وهذا في الواقع لايعد تدخلا أجنبياً في شؤون البلاد ، بل احتلالا لأطرافها

---

(1) أنظر مجلة الايمان حيث تجد بحثنا في هذا الصدد

بالقوة وليس تدخلا في الشؤون الداخلية . فهناك فرق بين المدلولين ، حيث إن التدخل غالبا مايكون سلميا متسربا .

وفي الفصل الثالث كان ضمن ما تعرض له ، وتقدمت الاشارة إليه ، دقة الرحالين في وصفهم ، وهي ملاحظة قيمة ، فهم في تراجمهم – مثلا – يأتون بالأخبار التي يتأكدون منها، ويسجلون ما يلاحظونه على مترجمهم. يقول ابن رشيد في هذا الصدد عن نفسه :

«وكذلك من وصفته من شيوخنا وأصحابنا بصفة ، أو حليته بحلية ، فلم أتجاوز في أوصافهم ، بل جئت بما هو أقرب إلى انصافهم ، وأسلك في بعضها على عادة أهل الادب من الشعراء والكتاب ، فما قلت إلا بما علمت بعد ، ويشهدلهم بذلك ماهم من السؤدد والمجد ، ولم أذكر منهم مالعله ينقم علي ذكره ، إلا النادر ممن عرف أمره ، ولم أورد عنه الا شيئاً من نظمه ، أو ما أنشده لي من غيره ، وأشرت إلى التنبيه على أحوالهم من غير إفصاح ، وذلك مغن عن الايضاح»

هذا الذي قاله ابن رشيد يصح أن نعممه في باقي الرحلات كلها ، وآخرها رحلة ابن بطوطة ، ولا التفات لمن يدعي غير هذا في مواقف من رحلته ، فالرجل كان نهاية في دقة وصفه ، وعمدة في الأخذ من مشاهداته .

وأخيرا نرجو أن يكون الدارس قد تنبه إلى بعض الأخطاء الطباعية والعروضية فتلافى كل ذلك مشكوراً.

مقدمـــة

بسم الله الرحمٰن الرحيم.

كانت النية أن يكون موضوع الرسالة هكذا «النثر المغربي في ظل بني مرين» وتحت هذا العنوان قبل تسجيل الرسالة بكلية الآداب والعلوم الانسانية.

إلا أنني أدركت بعد أن اقتربت من المادة، وقطعت أشواطا في البحث واطلعت على المصادر المختلفة، بأن مجالات هذا النثر متشعبة كثيرة، وميادينه فسيحة، نظرا إلى أن الفترة المرينية عرفت نهضة في مجالات الكتابة المختلفة. فدراسة مثل هذه تبقى قاصرة عن استيعاب كل فنون النثر وأبوابه، فضلا عن طموحها إلى التحليل والتقويم.

وبناء على هذه الصعوبات المنهجية التي واجهتني في هذا الصدد، قدمت بإشراف أستاذي، طلبا ألتمس فيه توجيه ميدان البحث إلى موضوع أكثر تحديدا، تنصب الدراسة فيه على «الرحلة في العصر المريني»، فقبل التعديل تحت هذا العنوان.

والرسالة في صيغتها الحالية تتوخى غايتين، أولاهما محاولة الاسهام في الكشف عن زوايا من الفكر والثقافة والأدب بالمغرب في العصور الوسطى. فالحديث عن الرحلة في نظري حديث عن الجوانب المختلفة ثقافية كانت أو علمية، أو فقهية، أو أدبية، أو اجتماعية، أو سياسية...

وثانيتهما محاولة التعريف برحلات هذه الفترة المرينية التي تعتبر أزهى العهود لهذا الفن الأدبي، والبحث يكتسب مشروعيته من كوننا لا نتوفر ـــ لحد الآن ـــ على دراسة شاملة لهذه الرحلات، فاهتمام الباحثين في هذا المجال لم يتعد تحقيق بعض النصوص المخطوطة أو تقديم بعضها الآخر، فلم تتناول هذه الرحلات مجتمعة بالدراسة أو التعريف أو التحليل والمقارنة واستخلاص النتائج، مع العلم أن كثيرا

من نصوص الرحلة التي ارتكزت عليها هذه الدراسة لم يقع التعريف بها ــ لحد الآن ــ كما أن بعضها الآخر ما زال مخطوطا لم ير النور بعد.

ومن هنا فإن المنهج الذي اتبع في الدراسة استفيد فيه من المنهج الوصفي والتاريخي والتحليلي، لأن الهدف هو تقديم النصوص وأصحابها ثم محاولة النفاذ إلى ما تشتمل عليه من أفكار ومعلومات مع تحليلها ومقارنتها بغيرها إن أمكن.

فالرغبة في تقديم ما يتعلق بنصوص الرحلة وأصحابها هي التي وجهت البحث، ورسمت معالمه، وحددت مراحله. وهكذا تم تناول الدراسة والبحث فيها بالشكل التالي :

التمهيد وقع الاطلال من خلاله على البيئة العامة التي انطلقت منها الرحلة أو إليها من التعرف على الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية.

ثم انتقلت إلى صلب الموضوع حيث أمكن البحث في فن الرحلة والتعرف على ميادينه واتجاهاته ورواده، وذلك من خلال تقسيم الدراسة إلى بابين يشتمل كل منهما على ثلاثة فصول، وخاتمة.

الباب الأول خصص للرحلة ودوافعها في العصر المريني.

تم النظر فيه إلى الرحلة بصفة عامة، فخصصت الفصل الأول للبحث فيما لاحظناه من ميل المغاربة إلى الرحلة في مختلف العصور على العموم وفي عهد بني مرين على الخصوص. ثم تناولت في الفصل الثاني دوافع الرحلة وبواعثها، فأرجعتها إلى دوافع دينية وعلمية وسياسية، ورصدت في الفصل الثالث فترات ازدهار وفتور الرحلة في هذا العهد محاولا إبراز عوامل الانتعاش والازدهار وأسباب التقهقر والفتور.

الباب الثاني أفردته للبحث في «الرحالين وفن الرحلات». وانصب الاهتمام فيه على تقديم النصوص وأصحابها عن طريق التعريف بالرحالين، والنفاذ إلى مضمون رحلاتهم وشكلها.

وهكذا خصصت الفصل الأول للرحلات المنطلقة من المغرب، عرفت فيه بالرحلات المغربية التي اتجهت إلى بيئات ومناطق أخرى كالبلاد المشرقية والسودان والأندلس... فسايرت الرحالين في جولاتهم وتنقلاتهم، وتوقفت مع ما دونوه من إفادات، وما أثبتوه من حكايات، وما أوردوه من نصوص. ودرست على هذا المنوال رحلات كل من ابن رشيد والعبدري والتجيبي وابن بطوطة وأبي يعقوب البادسي.

أما الفصل الثاني فقد خصصته للرحلات الداخلية، وأعني بها تلك الرحلات التي كانت البيئة المغربية هي القصد والهدف فيها، سنواء قام بهذه الرحلات مغاربة أو غيرهم.

وهكذا اقتضت طبيعة البحث تقسيم هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث، خصصت الأول منها للرحلات الصوفية المتمثلة في رحلة ابن قنفذ، ورحلة زروق، وتحفة المغترب. وتحدثت في المبحث الثاني عن الرحلات الرسمية، فدرست في هذا المبحث مذكرات النميري، وفيض العباب للنميري أيضا، ورحلة الكفيف الزرهوني، واهتم المبحث الثالث بالرحلات العلمية والسياحية. وهكذا تناولت فيه نفاضة الجراب لابن الخطيب، ورحلة المقري، والتعريف بابن خلدون، ورحلة عبد الباسط.

وكان الفصل الثالث والأخير مخصصا للنظر في الرحلة من حيث المضمون والشكل، حاولت فيه استخلاص أهم ما تشتمل عليه الرحلات المدروسة جميعها من مضامين، مركزا بصورة خاصة على المضمون الأدبي شعرا ونثرا ونقدا. ثم حاولت استخلاص أهم عناصرها الفنية وذلك بالوقوف على مناهجها، والأساليب التي اصطنعها الرحالون فيما دونوه، مشيرا في كل ما تقدم إلى ارتباط فن الرحلة بالأجواء الأدبية التي عرفها العصر وما كان لها فيه من تأثر أو تأثير.

خاتمة : أشرت فيها إلى خلاصة البحث وأهم نتائجه وفوائده.

وأخيرا لا أدعي أنني وصلت إلى منتهى الكمال في هذا البحث، ولكنني أؤكد أنني بذلت كل ما في وسعي ليكون هذا العمل إضافة جديدة في ميدان البحث العلمي والتعريف بالتراث المغربي.

أرجو أن أكون قد وفقت في تحقيق هذه الغاية والله من وراء القصد وهو ولي التوفيق.

تمهيد

- الحياة السياسية،
- الحياة الثقافية،
- الحياة الاجتماعية والحضارية.

الحياة السياسية :

من الصعب تحديد العصر المريني المدروس بدقة نظرا إلى أن بني مرين قد ظهروا على مسرح الأحداث السياسية بالمغرب منذ بداية القرن السابع الهجري، إلا أن ظهورهم في هذه الفترة لم يوجه السياسة المغربية وجهة جديدة ولم يؤثر في الحياة الثقافية أو الاجتماعية ذلك الأثر الذي نحس معه بالانتقال من عصر إلى عصر، صحيح أن المرينيين عقب ظهورهم في المغرب، وإعلان رغبتهم في الاستيلاء على الحكم بعد هزيمة العقاب التي تكبدها الموحدون سنة 609 هـ بدوا وكأنهم المنقذ للبلاد، والوارث المقتدر للموحدين[1]، خصوصا وقد بدت معالم سقوط الحكم الموحدي تتضح للعيان، فلقد أعلن المامون على الملا تبرؤه من العقيدة الموحدية[2] كما نشب الصراع بين الموحدين أنفسهم على الحكم، فتوالت هزائمهم أمام الجيش المريني، وكان هناك في المقابل تألق لنجم بني مرين انتهى بقتل أبي دبوس والقضاء على كل فلول الموحدين، ففتحت لأبي يوسف يعقوب المريني أبواب مراكش وبالتالي لم يعد في سماء المغرب من ينازع الحكم المريني أو يطعن في شرعيته لذلك أصبح يعقوب المريني يلقب بأمير المسلمين وذلك سنة 668هـ / 1269م[3] ومن هذا التاريخ تبدأ

---

(1) الذخيرة السنية ص 26ـ27 الأنيس المطرب ص 281، تاريخ ابن خلدون : 7 : 438، تاريخ الدولتين للزركسي ص 19. مجلة المناهل عدد ؟ ص 189 وما بعدها.

الاعلام للمراكشي : 9:3

(3) الذخيرة السنية ص 118، تاريخ افريقيا الشمالية جوليان 2 : 217.

مرحلة جديدة هي التي تتسم بالاهتمام بأمن المغرب وتوفير حياة الاطمئنان والرغد، والدفاع عن سيادة البلاد، بل وصد هجمات العدو والوقوف أمام أطماعه في الاستيلاء على ما بقي من الأندلس، يقول ابن خلدون متحدثا عن أبي يوسف المريني : «ولما كملت له نعم الله في استيساق ملكه وتمهيد أمره انصرف أمله إلى الغزو وإيثار طاعة الله بجهاد أعدائه واستنقاذ المستضعفين وراء البحر من عباده»[4]، وفي الحقيقة ان الانصراف إلى الجهاد كان رغبة كثيرا ما ظهرت في سلوك أبي يوسف المريني حتى قبل أن يتم فتح مراكش، نلمح ذلك في موقفه لما هوجمت سلا سنة 657هـ / 1260م[5] أما وقد تم له بسط النفوذ على كل مناطق المغرب فلم يعد هناك ما يمنعه من الدفاع عن المسلمين المضطهدين بالأندلس والذود عما بقي من أراضي الاسلام هناك، ولارجاع الثقة إلى النفوس والثار لواقعة العقاب المشؤومة[6] وهكذا كان جيشه المقيم بالأندلس، الدرع الحصين إلى أن توفي بالجزيرة الخضراء في جوازه الرابع إليها سنة 684هـ / 1285م[7].

وكان يعقوب هذا قد وفق إلى حد كبير في إخماد الفتن والتغلب على الخصوم وطرد العدو عن كثير من المواقع والثغور الاسلامية[8] ولقد استمرت الحملات الجهادية في عهد كل من يوسف (ت 706هـ) وأبي سعيد المريني (ت 731هـ) إلا أن عصر أبي الحسن كان حقا عصر القوة والازدهار، إذ استطاع تحقيق ما عجز عنه غيره، فاستعاد رقعة الامبراطورية الموحدية بكاملها، وأصبحت مملكته تضم المنطقة الواقعة بين السوس الأقصى ومسراته قرب الحدود المصرية زيادة على امتدادها إلى رندة بالأندلس[9] يقول ابن مرزوق واصفا عهد أبي الحسن «فقد امتد ملكه زائدا على ملك من قبله من الجهات الأربع وضم من الجيوش ما لم يضمه غيره ودخل في طاعته من المالك، (كذا) والممالك ما لم يتقدم لغيره فقد خطب له على منابر المغرب على الولاء وكثير من منابر قواعد الأندلس، وامتد ملكه من آخر

---

(4) تاريخ ابن خلدون 7 : 389.

(5) تاريخ افريقيا الشمالية 2 : 216.

(6) الذخيرة السنية ص 144.

(7) الأنيس المطرب ص 407، الاستقصا 3 : 65.

(8) الذخيرة السنية ص 98.

(9) تاريخ ابن خلدون 7 : 562.

المعمور بالمغرب إلى حدود برقة ووقف علمه على جبل عرفة وجهر له الخطيب في الموقف بالدعاء، ودعي له على المقام وكثرت في دولته العمارات وامتدت الآمال ولكن قدر الله غالب»[10].

ورغم ما يكون في قول ابن مرزوق من مبالغة يستدعيها وفاؤه لأبي الحسن، فإن الذي تناقله المؤرخون هو أن المغرب عرفت مكانته لدى الشرق والغرب في هذه الفترة، واسترجع هيبته ونفوذه، وصار ملاذا يحتمي به وخاصة من لدن جيرانه في الأندلس «فلا تمر سنة إلا وله فيها تجهيز أسطول وتجهيز غزاة رجالا وركبانا»[11] بل كان حصاره وجهاده يستمران أعواما دون ملل أو عياء، فابن مرزوق يذكر بأن الجيش قضى حولين كاملين بسبتة لمواجهة العدو ومحاصرة الجزيرة[12] ولهذا «عظم قدره وطال ذكره وشاعت أخباره في الآفاق»[13] فأرسل أعظم ملوك السودان في عصره وفدا للتهنئة وإظهار التقدير والامتثال والطاعة...[14].

فعهد أبي الحسن إذن كان بإمكانه أن يعطي دفعة جديدة للدولة المرينية وأن يستثمر رصيده من الاحترام شرقا وغربا، وخاصة في الأندلس، لولا أن هناك عوامل تسببت في إضعاف كيان الدولة وإرهاقها سياسيا وعسكريا واجتماعيا وتتلخص في هزيمة وقعة طريف سنة 741هـ / 1340م[15] التي بددت خوف النصارى وأزالت هلعهم وتجرأوا على مناوشة المسلمين والاستيلاء على المواقع الستراتيجية هناك، فلم يفكر المغاربة بعدها في العبور إلى محاربة النصارى بالأندلس، وهناك هزيمة أخرى تكبدها أبو الحسن وكانت بداية إفشال لتحقيق وحدة المغرب العربي هي هزيمة القيروان أمام القبائل العربية هناك[16]، إضافة إلى إصابة البلاد بوباء خطير سنة 749هـ / 1348م فكان لذلك الأثر السيء اقتصاديا وبشريا واجتماعيا.

---

(10) المسند الصحيح ص 305.304 تاريخ ابن خلدون 7 : 562.

(11) المسند الصحيح ص 562:258.

(12) نفسه ص 263—264.

(13) الاستقصا 3 : 151.

(14) معلمة الصحراء ص 128.

(15) الاستقصا 3 : 134—137.

(16) نفسه 3 : 160—161.

وتصل أخبار الفجيعة إلى المغرب، فينقض أبو عنان علي السلطة، للاستئثار بملك أبيه دون غيره من الطامعين[17]، ولقد كان أبو عنان مهيأ لكي يقود البلاد بحنكة ودهاء ومعرفة، وكان أول ما فكر فيه بعد استتباب الأمور وانتهاء الصراع مع أبيه، وتثبيته لهياكل الدولة، وإنشائه لما يلزم من المدارس والزوايا، هو أن يعمل على إعادة تحقيق وحدة المغرب العربي التي فشل أبوه في الابقاء عليها، فلم تأت سنة 758هـ / 1357م حتى تحركت جيوشه من فاس في حشد كبير[18] ولقي التوفيق في طريقه في كل من تلمسان وقسنطينة، وتقدم إلى افريقية مكللا بالنصر، تنقاد له البلاد، وأوشك أبو عنان أن ينتصر في كل بلاد افريقية لولا أن جيشه ضاق ذرعا بالغربة ومجابهة الأخطار فانفض من حوله، فكر راجعا إلى عاصمة ملكه فاس في غرة دي الحجة من نفس السنة[19]، وكأن القدر أعجله ليلقى حتفه إذ قتله وزيره مخنوقا، فدشن بذلك عهدا من الاغتيالات والمؤامرات والنزاعات بين الطامعين في الحكم أو المدفوعين إلى هذا النزاع من أطراف لها مصلحتها في ذلك، فلقد بدأ ملوك غرناطة لهذه الفترة يتدخلون بشكل سافر في توجيه السياسة المغربية، وإزاحة كل من لم يسر وفق الخطط المرسومة من لدن غرناطة ولم يكن ذلك ممكنا إلا بمبايعة ملوك صغار وأحيانا رضع ليكونوا دمى في أيديهم يحركونهم كيف يشاؤون وإلى أي وجهة يريدون، وهكذا فإن أغلب من ولي في هذه الفترة مورس عليهم الحجر من طرف الوزراء، باستثناء قلة من هؤلاء الملوك استطاعت فرض احترام الوزراء، وأعني بذلك أبا سالم، وأبا فارس عبد العزيز، وأبا العباس أحمد حيث أعادوا الاعتبار إلى المغرب، ولم يطلقوا يد ابن الأحمر في التصرف بمصير الحكم المغربي ومستقبله، وباستثناء هؤلاء الملوك لم يستطع أحد غيرهم في هذه الفترة من الذين كانت لهم شرعية الحكم أن يحافظ على الأمن والسيادة لهذه البلاد ففقد المغرب احترامه وكيانه، واستمرت الأحوال من سيء إلى أسوأ إلى أن سقطت الدولة بمقتل عبد الحق آخر ملوكهم سنة 869هـ/1465م[20] بل كانت نهاية الدولة في رأي كثرين تتحدد باغتيال أبي سعيد عثمان الثالث (ت 823هـ /1420م) فلقد أصبح في

---

(17) تاريخ ابن خلدون 7 : 578. الاستقصا 3 : 181ـ183.

(18) فيض العباب ص 83.

(19) فيض العباب ص 348، تاريخ ابن خلدون 7 : 519.

(20) الاستقصا 4 : 99 ورقات للأستاذ المنوني ص 11.

رأي جوليان أن «الحكم يمارسه في الواقع أحد أفراد عائلة بني وطاس رغم أن الخليفة الشرعي كان ابن القتيل عبد الحق وهو طفل لم يتجاوز سنه عاما فإذا أردنا أن نقوم بكشف عن آثار بني مرين وجب حينئذ أن نقف حسب رأينا عند سنة 1420م»[21] وإذن فهناك خلاف في تحديد نهاية الدولة كما هو الأمر بالنسبة لبدايتها، ولهذا فعلى ضوء ضعف الدولة أو قوتها يمكن التفريق بين ثلاث مراحل[22] تدرجت فيها الدولة المرينية :

الأولى : مرحلة التأسيس والنشأة ومساحتها الزمنية تمتد من ظهور بني مرين على مسرح الأحداث المغربية سنة 610هـ/1213م إلى أن استولى المنصور على مراكش سنة 668هـ/1269م ويمكن أن نعد هذه الفترة انتقالية لم يتأت فيها التأثير المريني وإن لم تخل من أعمال عمرانية وجهادية.

الثانية : مرحلة القوة والعظمة وهي الفترة التي ظهرت فيها الأعمال الجليلة للمرنيين لأنها شهدت عظماء ملوكهم، فهذا يعقوب أول ملوك هذه المرحلة «خطب له على جميع منابر المغرب وهو أول ملك من بني مرين حمي الاسلام وشتت الصلبان وغزا الروم فدوخهم وقهر ملوكهم وحصرهم وأعز الله تعالى به الدين ورفع بدولته منار المسلمين»[23] .

وفي هذه المرحلة نجد أبا سعيد ومواقفه الجهادية والعلمية المشرفة، وأبا الحسن، وابنه أبا عنان اللذين حققا فكرة وحدة المغرب العربي وتم على يدهما تركيز الأسس العلمية والفنية والعمرانية لبني مرين، وتنتهي هذه المرحلة بخنق أبي عنان سنة 759هـ/1357م.

الثالثة : تقودنا إلى نهاية الحكم المريني، وربما لا نقف عند قتل عبد الحق سنة 869هـ/1464م، لأن الكثير من الباحثين يعتبر بني وطاس ذيلا للمرينين، إذ هم «فرقة من بني مرين»[24] كانوا وزراء وحجابا استبدوا بالأمر، فممارسة حكمهم

---

(21) تاريخ افريقيا الشمالية 2 : 243.

(22) أكثر الباحثين يتبعون هذا التقسيم انظر مثلا :
— المغرب عبر التاريخ لابراهيم حركات 2 : 57.30.
— ورقات لمحمد المنوني ص 129. 181...
— تاريخ افريقيا الشمالية لجوليان 2 : 212 —246

(23) الأنيس المطرب ص 299.

(24) الاستقصا 4 : 118.

لم تكن بإعلانهم للدولة لذلك لانلاحظ فرقا يذكر بين العهد الأخير من الدولة المرينية ودولة بني وطاس التي تنتهي سنة 961هـ/1553م.

وأهم ما يميز هذه الفترة تعرض الكثيرين من الملوك للحجر من طرف الوزراء والكتاب وتدخل بني الأحمر في السياسة الداخلية للمغرب، ووقوع أطراف كثيرة من البلاد تحت الاحتلال الأجنبي[25] ودخول البلاد في مرحلة الصراعات والمؤامرات على السلطة.

وإذا تساءلنا عن السياسة[26] التي رسمها المرينيون واتبعوها في تسيير البلاد وتنظيم شؤونه ؟ فإن أول ما يتراءى للدارس الفرق الكبير بين دولة بني مرين والدولة التي حكمت المغرب قبلهم، فالدولة المرينية لم تتبن، أثناء قيامها، شعارات دينية، ولم تروج قصصا وحكايات ولم يستند مؤسسها على شرعية دينية، وخوارق وكرامات، كما هو الأمر مثلا بالنسبة للموحدين... إلا أننا من تتبعنا لما اتبعه ملوكها الأقوياء في السياسة والتدبير نستنتج أن سياستهم تقوم على أمور :

أ ــ **توجيه** مقدرة البلاد وإمكانياتها إلى مقاومة الغزو المسيحي والتسلط الأجنبي وجعل الجهاد من الأولويات والأسبقيات، فالمنصور المريني يتنازل ليغمراسن عن أمور كثيرة، مقابل تركه يخوض غزواته بالأندلس، وأبو الحسن رابط لحماية الثغور الأندلسية، وهكذا وجهت إمكانيات البلاد وطاقاتها نحو الجهاد في الأندلس[27].

ب ــ **تحقيق** فكرة المغرب العربي، بعد أن تفككت أوصال هذه الوحدة مع بداية القرن السابع الهجري بقيام دويلات صغيرة، اختصت كل واحدة بمنطقة معينة فظهرت على المسرح السياسي دولة بني حفص، ثم دولة بني عبد الواد وبني مرين بالاضافة إلى دولة بني الأحمر في العدوة الأندلسية.

وبمجرد استتباب الأمر لبني مرين اتجهت همة ملوكهم إلى إظهار هذه الرغبة إلى أن تم تحقيقها على عهد أبي الحسن[28].

---

(25) مسلسل هذا الاحتلال في الاستقصا 4 : 110.

(26) التعريف بالمغرب ص 47 ابن الاحمر ص 41 ملحق جريدة المغرب عدد 3 سنة 1938 ص 67 مقال محمد الفاسي.

(27) نظم السلوك ص 27 ملحق المغرب عدد 3 سنة 1938 ص 67.

(28) المسند الصحيح الحسن ص 304ــ305 النبوغ 1 : 179 تاريخ افريقيا الشمالية 2 : 224.

ج ــ **بسط** ظلال الأمن في البلاد ولا يتأتى ذلك إلا باستئصال شأفة الاعراب المفسدين بناء على فتوى العلماء بوجوب قتالهم(29).

د ــ **رعاية** الفكر والعلم في مختلف مراحل الدولة وحالاتها سلما وحربا فكانت بحق دولة العلم والمعرفة بما انشأت من مؤسسات علمية وما احتضنته من علماء ومفكرين من المغرب وغيره.

(29) ملحق المغرب عدد 3 سنة 1938 ص 36 مقال الأستاذ محمد الفاسي.

الحياة الثقافية

وإذا أردنا رسم صورة للثقافة في العصر المريني بكل اتجاهاتها وألوانها وما عرفته من صنوف المعرفة وفروعها فإننا سنكون عاجزين عن استيعاب كل ما كانت تعج به الحياة الثقافية في هذا العصر، ففي عهد المرينيين ازدهرت الثقافة واشتد الاقبال على الدرس والتحصيل وأعملت الرحلة من أجل الطلب وعلو السند، وانتشرت المدارس في كل المناطق والجهات وكثرت الحلقات والمجالس العلمية، وتعددت المراسلات والفتاوى في القضايا العلمية والاجتماعية والفقهية، مما جعل الثقافة المغربية، بكل ذلك، تتأصل وتتميز بشخصيتها وملامحها المغربية، بعد أن كانت من قبل لابسة الطابع الشرقي تارة والأندلسي أخرى، فلم يبق المغرب في هذا العصر «عالة في نهضته العلمية على سواه بل إن أبناءه أصبحوا قدوة غيرهم في الدراسات العلمية المختلفة وقبلة انظار طلاب المعرفة من جميع الجهات»(30).

والحقيقة أن علماء المغرب أصبح لهم شأن في عالم الفكر(31) فآراؤهم تلقى الاستحسان وسط علماء كل الحواضر والمناطق الاسلامية آنذاك، ومن هنا لا

---

(30) النبوغ المغربي 1 : 202.

(31) ويتحدث ابن زمرك اثراياباه إلى وطنه من رحلة العدوة عن مستوى العلماء المغاربة كما جاء في الافادات والانشادات للشاطبي، روضة الاعلام رقم 4436 بالخزانة الحسنية — وفي رسالة من النباهي إلى ابن الخطيب يقول «وأنتم قد انتقلتم إلى جوار أناس اعلام قلما تجوز عليهم — حفظهم الله — المغالطات» النفح 5 : 127، الأزهار 1 : 219.

نستغرب ما سوف نلاحظه من التكريم الذي يلقاه علماء المغرب في كل من الشرق والأندلس وتونس، ومن التقدير الذي يحظون به أينما حلوا وارتحلوا، بل إن المغرب عامة وفاس على الخصوص كان مقصد طلاب المعرفة والرأي والفتوى، فهؤلاء علماء الأندلس حينما اختلفوا في شأن التصوف هل يصح سلوكه تعلما من الكتب فقط، أم لابد من شيخ يأخذ عنه المريد ؟ ولم يزل حيرتهم هذه إلا ما افتى به علماء فاس وفقهاؤها(32)، وهذا ابن عرفة التونسي يصغي إلى نقد القباب ــ أحد علماء فاس ــ حول تلخيصه للمدونة، وكذلك الأمر بالنسبة لكثير من علماء المغرب في المشرق، فكل المغاربة يجدون حظهم من التقدير والاجلال، والأمثلة كثيرة مع ابن رشيد والعبدري وزروق وغيرهم...

ومن مظاهر هذا الازدهار الفكري تعدد المراكز الثقافية وكثرة العلماء في هذا العصر الذي ندرسه.

1 ــ المراكز الثقافية :

أما بالنسبة للمراكز الثقافية فالظاهرة التي تستحق التسجيل أن مراكز الثقافة لم تعد محصورة في أكبر الحواضر المغربية بل عمت كل مناطق المغرب بما فيها القرى والمراكز البدوية المختلفة(33) فبالاضافة إلى مدينة فاس التي زادت إشعاعا بعد أن نقل المرينيون إليها عاصمة الحكم ووفروا فيها كل وسائل تطوير الثقافة بما أنشأوه من مدارس علمية بجانب القرويين، وبما أقاموه من خزانات يرجع إليها الطلبة في شحذ الهمم، وإشباع النهم العلمي، كل ذلك هيأ جوا مناسبا للازدهار الفكري، وفي الحقيقة أن اهتمام المرينين بفاس جذب إليها أهم العلماء، فكانت الرحلة في الغالب إليها ولم تكن منها إلا بعد التخرج والدراسة(34) ومن هنا إذا أردنا تعداد علمائها فإننا لا نبعد عن الحقيقة إذا قلنا بأننا سنضطر إلى ذكر علماء المغرب العربي بالمفهوم الواسع.

---

(32) فتوى ابن خلدون في شفاء السائل ص 110.
المعيار للونشريسي 11 : 117، 12 : 293.

(33) جامع القرويين 2 : 402، ورقات 200ــ207.
دراسة رحلة ابن رشيد للحدادي رسالة جامعية بكلية الآداب، فاس. 1 : 21.

(34) فاس في عصر بني مرين ص 179 جامع القرويين 2 : 403 ورقات ص 328.

وفي شمال المغرب نجد سبتة التي كانت مركزا علميا مرموقا لا يقل عن فاس في نشر العلم والمعرفة بفضل أسرة العزفيين العلمية، فسبتة هي التي انجبت فطاحل العلماء في ذلك العصر من مستوى ابن أبي الربيع، وابن المرحل، وابن رشيد، والتجيبي وغيرهم...[35] ومرا كش رغم أن العاصمة السياسية نقلت منها، إلا أنها بقيت محتضنة للثقافة وحلقات الدروس، فيها تخرج ابن البناء المراكشي، وفيها درس الابلي التلمساني الذي أصبح «أعلم خلق الله بفنون المعقول»[36].

ويمكن أن نصادف نفس الازدهار في باقي مناطق المغرب، فالخريطة الثقافية تنتظم المغرب كله كمكناس، وتازا، وبادس، وطنجة، والقصر الكبير، وسلا، وآسفي، وأنفي... إلى غير ذلك من المدن والمناطق، يتبين ذلك مما يذكره على التوالي كل من صاحب أنس الفقير، والوزان الفاسي، وإن كان هذا الأخير يذكر مشاهداته وقد انقضى العصر المريني، إلا أن الأوضاع الثقافية التي يذكرها مقارنا بين ماضيها وما شاهده، تثبت الازدهار الثقافي الذي كان قد انتظم المغرب كله، بالاضافة إلى أنه لم يحدث تغيير كبير على الثقافة والفكر كما ألمحنا إلى ذلك من قبل.

2 ـــ كثرة العلماء

من مظاهر هذا الازدهار الثقافي أيضا، هذا الحشد الهائل من العلماء الذين عرفهم العصر، وكل منهم قد برز في ميدان علمي معين، نعثر على ذلك في كل كتب التراجم والتواريخ ككتب ابن الأحمر، وابن خلدون، وابن مرزوق... وغيرهم، ويكفي أن نشير إلى أن حركة أبي الحسن المريني إلى افريقية ضمت عددا كبيرا من العلماء اختلف في تقديره، وإن اتفق الجميع على أنهم نخبة العلماء وجها بذة الفقهاء والمفكرين يقول ابن خلدون عنهم : «وكان في جملة السلطان أبي الحسن جماعة كبيرة، من فضلاء المغرب وأعيانه هلك كثير منهم في الطاعون الجارف بتونس، وغرق جماعة منهم في أسطوله لما غرق وتخطت النكبة منهم آخرين إلى أن استوفوا ما قدر من آجالهم»[37].

---

(35) بلغة الامنية مجلة تطوان عدد 9 ص 173ـــ193.
اختصار الاخبار مجلة تطوان عدد 3ـــ4 ص 73ـــ95، الاستقصا 3 : 113
تاريخ سبتة للأستاذ ابن تاويت ص 110. 163، المناهل 22 : 82.
المعجب ص 504، فاس في عصر بني مرين ص 10.

(36) التعريف بابن خلدون ص 36، الجذوة 1 : 304.

(37) التعريف بابن خلدون ص 45.

ولقد كان موكب أبي عنان في حملته إلى إفريقية شبيها بموكب أبيه بما كان يضمه من علماء وأدباء وشعراء، احتلوا الحيز الكبير في كتاب «فيض العباب» الذي احتفظ بتفاصيل رحلة أبي عنان.

فما هي عوامل هذا الازدهار الثقافي ؟

إذا اعتبرنا أن الاستقرار السياسي الذي ساد فترة مهمة من الحكم المريني أول هذه العوامل وأهمها، فإن العامل الثاني يكمن في الملوك والأمراء ورجال الدولة أنفسهم بما كانوا يمتازون به من مستوى علمي رفيع، وذوق فني ممتاز، وإحساس شعري رائع من مثل مستوى أبي عنان صاحب الفضل في إظهار رحلة ابن بطوطة، وأبي فارس الذي أهدى له ابن خلدون كتابه : «العبر» ومن هنا تذكر لهم آراء علمية وفقهية وحديثية وإسهامات شعرية بل إن بن الأحمر يخصهم بفصل كامل من كتابه إلى جانب الشعراء في عصره(38) فلا غرابة إذا كان هؤلاء الملوك حماة للثقافة وأهلها، عاملين على تشجيعها، وتوفير الجو العلمي المناسب، على النحو الذي يصفه ابن مرزوق أو ابن خلدون..

وتمثل هذا التشجيع في جملة أشياء :

1 ـــ إنشاء المدارس العلمية : لسكنى الطلبة وعقد بعض حلقات الدروس ولقد انتظمت هذه السلسلة من المدارس الخريطة المغربية بكاملها كفاس، وتازة، وسلا وشالة ومكناس، ومراكش وتلمسان، وقسنطينة(39). وفي فاس وحدها انشئت إحدى عشرة مدرسة كلها تعتبر قمة في الاتقان والابداع، شكلت حول القرويين ما يشبه الحي الجامعي الآن. ولهذا وقع الاقبال على طلب العلم بفاس وغيرها بعد أن توفر بهذه المدارس وما اوقف عليها كل ما يلزم لانجاح العملية التربوية فلا غرابة إذا أبدى الطلبة والعلماء ارتياحهم على نحو قول قاضي فاس محمد ابن أبي حاج الجزولي المتوفى سنة 755هـ/1354م(40) :

---

(38) نثير الجمان ص 67ـــ75، بيوتات فاس ص 64. النفح 5 : 261. 366.
أزهار الرياض 2:323.316. السلوة. 3 : 224ـــ226، البستان ص 106
انظر أيضا الوافي بالأدب العربي في المغرب 2 : 410ـــ411.

(39) المسند الصحيح الحسن ص 73. أنس الفقير ص 50 معلمة المدن والقبائل ص 282. وصف افريقيا 1 : 178، ملحق جريدة المغرب أعداد 12.8.3.

(40) الجذوة 1 : 229، درة الحجال 2 : 240.

سكنى المدارس عز والدرس فيها معز
فادرس هديت كثيرا فإنه لك كنز

ولعل هذه الظروف الحسنة انتهت بنهاية المرينيين، فالوزان الفاسي يصف ما كانت عليه الحالة الثقافية مقارنا في ذلك بين عهد المرينيين وعصر الوطاسيين فيذكر بأن كل طالب كان «في الزمن الماضي معفى من مصاريفه ولباسه مدة سبع سنوات أما الآن فلم يبق له غير السكن... ولعل هذا أحد الأسباب التي أدت إلى انخفاض القيمة الفكرية ليس في فاس وحدها ولكن في جميع مدن إفريقيا»(41) فقل عدد طلبة العلم، وضعف مستوى المدرسين، فمدرسة القصبة بمراكش التي كان يقصدها عدد كبير من الطلبة، أصبح عدد طلابها لا يتجاوز الخمسة «مع أستاذ جهله بالفقه فاحش»(42).

2 ـــ وإلى جانب انتشار المدارس، عمل المرينيون على توفير الكتاب بتعميم نظام المكتبات في المساجد والمدارس بما «حبس في جلها من أعلاق الكتب النفيسة والمصنفات المفيدة»(43)، إلا أن أهم مكتبة هي التي كانت نواتها تتمثل في ما بعثه الملك سانشو عام 684هـ/1285م طبقا لشروط صلحه مع الملك يعقوب المريني، نظرا لكثرة هذه الكتب وتنوع فنونها ومواضيعها(44)، ولعل هذه الخزانة هي التي زادت ضخامة وتنظيما على عهد أبي عنان، فأصبحت محتوية «على أنواع من علوم الأديان والأبدان والأذهان واللسان، وغير ذلك من العلوم على اختلافها وشتى ضروبها وأجناسها»(45).

وكما أن إنشاء المدارس لم يختص به ملك دون آخر من المرينين، فإن خزانات الكتب أيضا كانت تلقى العناية انطلاقا من يعقوب المريني إلى أبي العباس الوطاسي(46) بل إن الاسر الحاكمة زمن المرينيين كان لها الاهتمام نفسه، فالعزفيون

---

(41) وصف افريقيا 1 : 179.

(42) وصف افريقيا 1 : 104.

(43) المسند الصحيح الحسن ص 73.

(44) الأنيس المطرب ص 363.

(45) زهرة الآس ص 76

(46) نور الكتب للأستاذ المنوني مخطوط الخزانة الحسنية رقم 258 ص 68. وما بعدها.

بسبتة في صدر العهد المريني انشأوا الخزانات وملأوها بالكتب كما يذكر صاحب اختصار الأخبار[47] وبصفة عامة عمل الملوك والحكام على توفير الكتاب وإيصاله إلى طالب العلم في السفر والحضر، فمن خلال «فيض العباب» نتبين أن موكب أبي عنان، وهو متوجه إلى إفريقية، لم يكن يحرص على حمل الأسلحة فقط وإنما كان مكتبة متنقلة فيها كل أصناف الكتب، يرجع إليها الملك العالم، والجم الغفير من العلماء والشعراء والأدباء معه.

وفضيلة جمع الكتب لم تكن خاصة بمن بيدهم الأمور بل تنافس في ذلك العلماء والأفراد على السواء، فهذا عبد المهيمن الحضرمي كانت خزانته تزيد على ثلاثة آلاف سفر في مختلف العلوم[48] ولاشك أن الكثير من علماء عصره لهم نفس الاهتمام بالكتب والحرص على جمعها للاستفادة، والدراسة.

3 ــ أما الجانب الآخر، الذي يبدو فيه تشجيع الحركة العلمية والفكرية هو إشراف الملوك أنفسهم على سير الدروس، وتدخلهم لتوجيهها، وانتقاء الأساتذة للقيام بهذه المهمة، ولعل خير ما نمثل به هو مجلس أبي عنان العلمي الذي انتقى له اعلم علماء العصر في الغرب الاسلامي، وهم كثير يضيق عددهم عن الحصر، فالجاديرى في شرحه للبردة يذكر ثمانية وعشرين منهم معتذرا عن الاستيفاء بقوله «وغير ذلك مما تركنا ذكره، ويطول به الكتاب»[49]، ويكفي أن يضم المجلس أمثال المقري الجد، والفشتالي، وابن مرزوق الخطيب، وابن بطوطة، وابن الصباغ... وأمثالهم لندرك مستوى النقاش والمذاكرة ولنتبين الميادين المتنوعة التي تكون محور هذا النقاش تبعا لتنوع ميادين هؤلاء واهتماماتهم.

وفي هذا الاتجاه فقد عرف عن المسؤولين المرينيين عملهم على تصحيح الأخطاء وإذكاء روح المنافسة بين العلماء والمثقفين، ليدفعوهم إلى مزيد من البحث وإعمال النظر، استوى في ذلك الملوك والأمراء والوزراء، والأسر المشهورة، وقصة أبي عنان مع أحد أعضاء مجلسه على الصرصري كافية للتدليل على هذا المنحى[50]. ومن هنا

---

(47) مجلة تطوان عدد 3ــ4ــ ص 82 وما بعدها.

(48) التعريف بابن خلدون ص 20.

(49) مخطوط خزانة القرويين رقم 643/40،
الخزانة العلمية ص 26ــ27.

(50) أزهار الرياض 3 : 27ــ28.

كانت مكافآتهم للمتفوقين والمبدعين والمجيدين تتجاوز الحد في السخاء[51].

4 ــ ويمكن أن نضيف إلى كل هذه العوامل، البيئة الفكرية الجديدة، وهي بيئة مفتوحة على الشرق والأندلس معا، مما جعلها تستقبل وفود القادمين عليها إما للدراسة والأخذ عن العلماء الذين كانت تعج بهم فاس ، وأغلبهم مغاربة أصلا ونشأة، أو مغاربة بالنشأة والتكوين، كما أن الطريق أصبح مأمونا لفترة طويلة فنشطت الرحلة من المغرب أيضا إلى كل من الأندلس والمشرق، وإن كانت الرحلة إلى هذا الأخير أمل كل عالم بل كل مسلم بهذه الديار، فيعود الرحالة وقد اكتسب منهجاً جديداً يكون إضافة إلى الفكر المغربي[52].

مجالات الثقافة والفكر في عهد بني مرين

وإذا حاولنا تصنيف هذا الفكر لمعرفة المجالات والميادين التي كان يرتادها فإن أول ما نلاحظه هو تنوع هذا الفكر وتعدد أنماطه وخصوبة مضامينه ويمكن أن نختصرها في المجالات التالية :

1 ــ المجال الديني : وحينما نتحدث عن الثقافة الدينية أو الفكر الديني، فإننا لا نبالغ إذا قلنا إن كل ما انتجه الفكر المغربي أو الاسلامي عامة يدخل ضمن هذا الاطار ولايتعداه، خصوصا في هذه الفترة التي اتسمت بالجهاد والذود عن الملة الحنيفية في بر العدوة الأندلسية، مما جعل الحياة الفكرية تنطبع بالطابع الديني وتجلى ذلك فيما يلي :

1 ــ 1 ــ العودة الى المذهب الأشعري، في المعتقدات والمالكي في الفقهيات وإعلان العودة إلى المذهب الأشعري الذي لا يحيد عن السنة والجماعة وأهل الحديث لم يكن رغبة شعبية فقط، ولكنه كان موقفا رسميا دعا إليه الملوك، وحرصوا على إظهاره أمام الخاص والعام، يروى ابن مرزوق في المسند[53] أن أبا الحسن كان يقرأ بين يديه كتاب الارشاد لامام الحرمين، وكان يصغي لما يلقى إليه من أدلة أهل السنة والأشاعرة، حتى إذا عرضت عليه المذاهب المناهضة لاهل السنة يقول «دعوا هذا»، وأما في الجانب الفقهي فإنهم قد دشنوا حكمهم بإحياء الفروع الفقهية[54]،

---

(51) زهرة الآسى ص 63، المسند الصحيح الحسن ص 205

(52) ترتيب المدارك مقدمة المحقق ص يا.

(53) المسند الصحيح الحسن : الباب الأول .

(54) الديباج ص 12 تاريخ الجزائر العام 2 : 86 التيارات الفكرية ص 45.

وإرجاع الاعتبار للفقهاء بعد أن تعرض الفقه المالكي ورجاله إلى محن في عهد الموحدين بإحراق كتبه على مرأى ومسمع الجميع(55) إلا أنه في العهد المريني اهتم الفقهاء بتدوين ما أحرق من هذه الكتب الفقهية، فكتبت المدونة وغيرها من حفظ كثير من العلماء(56)، وسواء أكانت عودتهم الى المذهب الأشعري والفقه المالكي بدافع التنكيل بأسلافهم الموحدين، وتعويض النقص المذهبي في دعوتهم ؟ أم أن عودتهم إلى المذهب كانت لتوافق بينه وبين عقيلتهم ومزاجهم لاعتماد المذهب المالكي على النص والتثبت في النقل، وعدم المبالغة في استعمال الفلسفة والمنطق والقياس ؟ . فإن المذهب المالكي تطور في الاتجاه المرن، فلم يعد متصلبا جامدا، ولكنه استفاد من محنته، «وطرح نفسه وقضاياه من خلال مقاييس جديدة تحاول التوفيق بين النظرية الشرعية أو الحكم الشرعي من جهة وبين الواقع وتطوره من جهة ثانية»(57).

1 ــ 2 ــ انتشار الزهد في الحياة، وترويض النفس على هجران الماديات والتمسك يالروحيات، فانتشر التصوف ومال اليه الكثيرون على اختلاف مستوياتهم وطبقاتهم وكان اهتمام الشيوخ والمتصوفة منصبا على السلوك والممارسة مما جعل تصوفهم سنيا عمليا لا يغرق في التهويمات والبدع والطقوس التي جردت التصوف من معناه، وانحرفت به إلى مزالق فلسفية، فتطور ــ كما يقول لوتورنو ــ «في إطار من الرصانة على خلاف ما عرف في مناطق أخرى من العالم الاسلامي من شك وقلق»(58). ولعل هذا الاعتدال الطبيعي هو الذي جعل المتصوفة لا يتجاوزون السنة في ممارستهم الصوفية وعبادتهم الروحية، ويعتبرون ما عدا ذلك بدعة(59)، مما جعل الكثيرين يقبلون عليه، ويميلون إلى الاقتداء بهذا السلوك التربوي، فعرفت البيئة المغربية متصوفة لا يقلون عن الحلاج وغيره، من مثل ابن عاشر السلاوي وابن عباد الرندي، وأحمد زروق... والشيء الذي جعل التصوف يزدهر هو ما كان يحظى به أصحابه من تقدير واحترام وتكريم من لدن الملوك أنفسهم، حيث كانوا

---

(55) بيوتات فاس ص 19. 53.

(56) بيوتات فاس ص 19 تاريخ الجزائر العام 2 : 86.

(57) أبو الربيع سليمان الموحدي ص 48.

(58) فاس في عصر بني مرين ص 206.

(59) المدخل لابن الحاج 3 : 119.

يقصدونهم مرارا من أجل أن يتبركوا بهم ويستمعوا لنصائحهم ويحظوا بدعواتهم الصالحة، ومن هنا عرف العصر نشاطا كبيرا في بناء الزوايا والمنشآت الدينية، مع الانفاق بسخاء على الفقراء والمريدين، فوقع الاقبال على التصوف، وكثرت المناظرات والمناقشات والفتاوى التي عالجت التصوف من مختلف نواحيه، فشغل بذلك حيزا كبيرا من الاهتمام الفكري والثقافي لهذا العصر، ولذلك حفل العهد المريني بمؤلفات كثيرة تناولت التصوف ورجاله، مثل المقصد الشريف، وانس الفقير، ومؤلفات زروق ورسائل ابن عباد التي بسطت التصوف حتى قيل : مثل ابن عباد في تقريب الشاذلية كابن رشد في تقريب المالكية[60].

2 ـ **إصلاح التعليم وتطويره** : وإذا كان المناخ الديني هو سمة العصر كما أظهرنا، فإن المواد التعليمية في تلك الفترة تسير في هذا الاتجاه، ومن هنا كانت موضوعات التدريس تتمحور حول ما نطلق عليه العلوم الدينية في أغلبها، أي ما يضبط العبادات والمعاملات بالاضافة إلى العلوم اللغوية، ولعل إحداث المنشآت التعليمية الجديدة كالمدارس والمكتبات، قد عمل على تطوير التعليم كما وكيفا، فتعددت الكراسي العلمية إذ بلغ عددها في فاس وحدها حوالي أربعين ومائة كرسي علمي[61] واتجه التعليم نحو ما يشبه التخصص في عصرنا هذا[62]، فمدرسة للقراءات السبع بعدوة الأندلس، ومدرسة أخرى بطالعة فاس يدرس فيها المقري صحيح مسلم[63] والصرصري كتاب التهذيب[64] بينما كان القباب يدرس هو الآخر التهذيب بفاس الجديد[65]، وعبد الرحمان المكودي يقرىء كتاب سيبويه بمدرسة العطارين[66]. ولقد مس التطور أيضا الطرق والمناهج الدراسية، فإذا كان المغاربة قد تميزوا بالحفظ المتقن والاعتماد عليه أكثر من غيره، حتى تعودنا في كتب التراجم وصف العلماء المغاربة بالحفظ والضبط، فإننا نصادف في هذه الفترة من

---

(60) مقتطفات من رسائل ابن عباد مخطوط الخزانة العامة رقم 1717 نص ورقة 288 ب.

(61) جامع القرويين 2 : 402.

(62) فاس في عصر بني مرين ص 175.

(63) بيوتات فاس ص 64 ورقات ص 28.

(64) أزهار الرياض 3 : 27.

(65) ورقات ص 28.

(66) السلوة 1 : 187.

انتقد الاعتماد الكلي على الحفظ في التلقين والتعليم ودعا إلى نبذه والتخلي عنه في العملية التربوية، بعد إدراك قصور الذي يعتمد على الحفظ فقط، ومن الذين تنبهوا إلى هذا أبو عبد الله السطي حينما حضر درس ابن عبد السلام بتونس فقال مخاطبا السلطان أبا الحسن : «ياعلي كذا يكون التحصيل، وكذا يقرأ الفقه، ولو لم يكن بتونس إلا هذا الامام لكان بها كل خير ! فلابد من ملازمة هذا لهذا المجلس حتى ينتفع به أصحابنا وننتفع بطريقته»(67).

ولقد كان هناك تطور آخر لصالح اللغة العربية، فلقد أضحت في هذا العصر أداة التعبير والادارة المرينية دون منافسة لهجة أو لغة أخرى، بعكس الموحدين الذين «كانوا لا يقدمون للخطبة والامامة إلا من يحفظ التوحيد باللسان البربري»(68) لكن في العهد المريني أعيد الاعتبار إلى العربية، فلم يكن ممكنا أن يخطب أحد أو يؤلف إلا بها وحتى الذي كتب من قبل بالبربرية، أصبح يترجم ما كتبه إلى العربية(69).

3 ـ ازدهار التأليف العلمي والأدبي، ومن أهم ما تميزت به الحياة الفكرية أيضا من خصوبة وإبداع، جرأة العلماء المغاربة في هذا العصر على التأليف في الفنون والموضوعات المختلفة وربما يتصدى مؤلف واحد للتأليف في كل الاختصاصات والاتجاهات المختلفة، ونجد أمثلتنا في أغلب علماء هذا العصر وإن كنا نرى أن أقرب من يمثل هذا النوع من الموسوعية والاحاطة هو ابن البناء العددي الذي ألف حوالي ثمانين كتابا خصصها لأغلب علوم العصر من رياضيات، ولغة، وأدب، وفقه، وفرائض وفلك وموسيقى... وابن رشيد هو أيضا تميزت تآليفه العديدة بهذا التنوع...

وأهم ما يمكن أن يلاحظه الباحث هو أن المغاربة اكتسبوا دربة في التأليف المحكم، وقدرة على طرق الموضوعات ببلاغة ودقة يدل على ذلك الملاحظات التي أبداها كل من القباب، وابن ميمون الغماري في شروط التأليف الناجح المفيد(70).

---

(67) أزهار الرياض 3 : 28ـ32.

(68) زهرة الآس ص 56. يستأنس برواية الجزنائي بالرغم من كونه متأخرا عن الموحدين.

(69) المنهاج الواضح ص 16.

(70) نيل الابتهاج ص 73، كتاب بيان غربة الاسلام لابن ميمون مخطوط الخزانة العامة رقم 2123.

وإذا أردنا إلقاء نظرة على أهم المجالات التي خصها المغاربة بالتأليف والتي اتجه إليها أغلبهم، فإننا سنكون عاجزين عن الالمام بكل ما ألفه هؤلاء العلماء في هذه المجالات لأنها تنتظم الدراسات الدينية واللغوية والعلوم الانسانية والآداب شعرا ونثرا.

ففي العلوم الدينية تعددت الكتب والمؤلفات والرسائل والشروح الفقهية ونظرا لكثرتها نحيل على اللائحة المطولة التي أثبتها الأستاذ عبد الله كنون[71] في كتابه النبوغ المغربي.

أما في اللغويات فالتآليف أيضا كثيرة ويكفي أن تكون الكتب اللغوية التي ظل المغاربة يتدارسونها ككتب مقررة إلى عهد قريب، ترجع إلى العهد المريني مثل الأجرومية والمكودي وأمثالهما مما لا ينكر فضله في الحفاظ على الاستعمال السليم للعربية في هذه البلاد، وهكذا حفل العصر بالشروح والمؤلفات اللغوية والبلاغية والنقدية، ويمكن ضرب المثل بمؤلفات ابن أبي الربيع وابن المرحل وابن هانىء، وابن البناء، والسلجماسي، وأبي القاسم السبتي... وغيرهم.

وبالنسبة للعلوم الانسانية فإننا لا نعدم في هذا الحقل المعرفي تآليف جديدة كل الجدة تناولت التاريخ وعلم الاجتماع والرحلة والسياسة والموسيقى... ومن العسير الالمام بهذه التآليف ويكفي أن نضرب أمثلة بمؤلفات ابن أبي زرع، وابن الأحمر، وابن مرزوق، والنميري، وابن خلدون، وابن الدراج، وابن رشيد، والتجيبي، والعبدري، وابن بطوطة... وغيرهم ممن أثروا المكتبة المغربية بروائع ما كتبوه وألفوه.

وفيما يخص الأدب فإن العصر شهد نهضة أدبية في الشعر والنثر، وازدهارا من حيث الكم والكيف، بعد أن تهيأ الجو المناسب وتوفر التشجيع اللازم.

ففي النثر نجد أن الكتابة غزت كل ميادين فأصبحت أداة طيعة يعبر بها الكتاب عن كل ما يعن لهم من قضايا وموضوعات وأغراض ويصورون بها ما يجول في أذهانهم ويتجاذب عواطفهم فلم يعد النثر مقصورا على فروعه التقليدية البسيطة كالرسالة والخطبة والوصية بل اتسعت دائرته لتشمل فنونا أخرى أوسع وأخصب، كأدب الرحلة والمقامة، والتهنئة والتعزية، والوصف، والمناظرة، والفتوى... وغيرها، مع اعتقادنا بأن ما وصلنا يعتبر قليلا من كثير.

---

(71) النبوغ المغربي 1 : 215—218.

والشعر أيضا عرف الازدهار الكبير والانتشار الواسع غزا كل المحافل وعبر عن كل الأحوال واستعمل في كل المناسبات حتى صارت تقاليد المراسلات الاخوانية والديوانية معا تفرض أن يزاوج الكاتب بين الشعر والنثر، والكاتب الكفء هو القادر على استعمال الاداتين بحكمة ودراية[72].

---

(72) لم تكن هذه الظاهرة مقصورة على هذا العهد ولكننا وجدنا مثيلا لها في عصور سابقة انظر مثلا كتاب الذيل والتكملة، السفر الأول ص 55—57
السفر الرابع ص 108—120، 121—124.
السفر الخامس ص 327—369، مراسلات عديدة.
السفر السادس ص 224—227،270 — 272

الحياة الاجتماعية والحضارية

ليس بوسعنا أن نقدم وصفا كاملا للمجتمع المغربي زمن بني مرين، ونرسم صورة مفصلة واضحة المعالم، بينة القسمات، تتضح معها الملامح والسمات لهذا المجتمع الذي عرف تطورا بينا، أو تتميز بها الحضارة التي شهدت رقيا لا يمكن تجاهله أو إنكاره، ولكن بإمكاننا تقريب الصورة في الملاحظات التالية :

1 ـ الانفتاح الاجتماعي : لم يبق المجتمع المغربي منغلقا على نفسه، وإنما سمح في الفترة المرينية بدخول عناصر أجنبية وتعايشها ضمن الحكم المريني، فلقد أصبح المغرب في عهدهم غاصا بالكثير من الأجناس واللغات المختلفة والأشكال والألوان المتنوعة في اللباس والعادات والأطعمة(73)، ولعل سبب ذلك يكمن في الحروب الكثيرة التي خاضها المرينيون في الأندلس، والتي كانت تتوج غالبا بانتصارات باهرة يحرز فيها المسلمون على أسرى وغنائم، كما أن هيبة الدولة المرينية وسمعتها دفع الكثيرين إلى أن ينتقلوا للعيش في المغرب إما للتجارة أو للاشتغال بالحرف والصنائع.

---

(73) وجدنا بعض مظاهر الانفتاح الاجتماعي أيضا في العصر المرابطي.
ففي البيان المغرب أن يوسف بن تاشفين اركب سنة 463هـ الرجال الكثيرة وجند الاجناد، وأخذ في جمع الجيوش من البربر والاحتشاد.
وكان جيشه في الجواز الثاني للأندلس سنة 481 يضم بداخله من الروم ألف فارس واثني عشر ألف راجل.
البيان المغرب 4 : 142.22. الحلل الموشية ص 69.

وتمثل هذا التمازج في كثرة حالات التصاهر والزواج بين المغاربة وغيرهم من الأجناس ليس على المستوى الشعبي والجنود فقط، بل يلاحظ أيضا على المستوى الرسمي، فالملوك أغلبهم تزوج بأجنبية وأنجب منها أمراء صاروا ملوكا، وهكذا يشير المؤرخون إلى أن كثيرا من ملوك بني مرين، أمهاتهم من النصارى في الأصل، أو عربا، أو برابرة، فأبو الحسن أمه حبشية، وأم أخيه أبي علي من العلوج النصارى، كما كانت هناك مصاهرة بين بني مرين وبني حفص من جهة، وبينهم وبين بني الأحمر من جهة ثانية.

ومن مظاهر هذا التمازج والاختلاط داخل المجتمع المغربي آنذاك طبيعة تكوين الجيش المريني إذ لم يكن مقتصرا على الجنود المغاربة فقط، بل كان الجيش يضم طوائف، وأجناسا، وألوانا وفرقا كثيرة، فجيش أبي عنان في حملته لتوحيد المغرب العربي يضم «الاعلاج الرومية، والممالك الزنجية، والأجناد الأندلسية والطوائف التركية والططرية، والأفاريق العراقية، والمصرية، والشامية، واليمنية، والهندية وسائر التركمانية، منتظمة جموعهم على قوادهم المختلفين في إقامة الترتيب»(74) كما برز هذا التنوع والتمازج في تشكيلة الأطر المرينية، فإلى جانب المغاربة وجد موظفون من بقية أقطار المغرب العربي، والأندلس، والمشرق(75).

وهناك عنصر آخر ظهر أثره بشكل بارز في هذا العصر، ووجه في بعض الأحيان، الأحداث، ونشط في الميادين التجارية والعلمية والادارية، هو العنصر اليهودي، وهذا العنصر وإن كان موجودا ضمن المجتمع المغربي منذ القدم، إلا أنه في هذا العصر عرف بروزا قويا، وحرية في التحرك، واعتبارا من طرف الملوك، بل وتجبرا واستبدادا بالسلطة في بعض الفترات من الحكم المريني، فمن خلال المصادر التاريخية يتبين بأن اليهود كانوا منتشرين في كل المناطق لا يقتصر وجودهم على الحواضر الكبرى، مما يدل على التسامح الديني والتعايش بين طوائف وأفراد المجتمع في هذه الفترة ولقد عدد الحسن الوزان كثيرا من المناطق المغربية التي لاحظ فيها نشاطا يهوديا في التجارة والصناعة(76)، والحقيقة أنهم كانوا نشيطين في الصناعات الدقيقة كالصياغة وغيرها، إلا أن خبثهم وحيلهم وما اشتهروا به من

---

(74) فيض العباب ص 294–295، الذخيرة السنية ص 148.

(75) ورقات ص 113.

(76) وصف افريقيا ج 1 صفحات 219.129.120.112.95.93.88.84.80.78.

دسائس، وبث الفتنة، وغش في الصناعة والبضاعة كثيرا ما كان يعرضهم إلى نقمة الشعب عليهم، فلقد قامت العامة عليهم بفاس سنة 674هـ/1275م، فقتلوا منهم أربعة عشر ألف يهودي[77]، كما تعرضوا إلى حدث مشابه في نهاية الدولة المرينية بعد أن تجبر اليهود وعبثوا بالشعب وقيمه مستغلين ضعف السلطان عبد الحق آخر الملوك المرينين[78].

من هنا حرص الملوك المرينيون الأقوياء على إبعادهم من الأعمال الحكومية تجنبا لما اشتهر به هذا العنصر من خبث وحيل من جهة، وتوقيا لغضب الشعب وثورته من جهة أخرى، وهكذا أصدر أبو الحسن ظهيرا بإبعادهم عن الخدمة وتحديد وضعيتهم في المجتمع المغربي، فلم يستعملهم في خطة الكتابة و لم يتخذهم أطباء ولا خزنة أموال[79].

فالمجتمع المغربي إذن، كان مجتمعا مفتوحا، غير منغلق على نفسه ولعل بعض أسباب ذلك يرجع إلى طبيعة الدولة، فلم يكن المرينيون يرتكزون في الدعوة لهم على عصبية قبلية شأن غيرهم من الدول.

2 ــ الحياة الروحية : ولعلنا لا نكون مبالغين إذا قلنا بأن أهم ما يطبع العصر المريني هو اتجاهه الروحي في كل المستويات والمواقف، وإذا كنا ألمحنا من قبل إلى أن هذا العصر هو عصر سيادة التصوف في المغرب وانتشاره على نطاق واسع لأسباب أشرنا إلى بعضها، فإننا نشير إلى أن الميل إلى التصوف وإيثار الجانب الروحي لم يكن شعبيا فقط، بل إن الملوك أنفسهم كانوا يطمحون إلى أن يكونوا مثالا للورع والتقوى والصلاح، فكتب التاريخ ترسم صورة مثالية ليعقوب المريني في ورعه وتقواه وهو محاصر للعدو بالجزيرة الخضراء[80]، كما كان المفرط في تأدية الصلاة يعاقب بالضرب بالسياط والمقارع بأمر السلطان أبي عنان[81]، وكان من المألوف في سير الملوك المرينيين إرسالهم المصاحف القرآنية إلى البقاع المقدسة، وتخصيص

---

(77) الأنيس المطرب ص 322.

(78) الاستقصا 4 : 98.

(79) المسند الصحيح الحسن، ص 250 ــ 254 ورقات ص 113.

(80) الأنيس المطرب ص 363.

(81) بيوتات فاس ص 50

أوقاف لاستمرار القراءة فيها على مدى الزمن[82]، ونفس الشيء كانوا يقومون به داخل المغرب في المساجد والمدارس بإنشاء مجالس أسبوعية لختم القرآن في كل أسبوع[83]، وما الاهتمام بالجهاد وإعلانه في الأندلس إلا بدافع الغيرة على الدين والذود عن حمى الاسلام والمسلمين، ومن هنا خصصت ميزانية دائمة تصرف لصالح الأعمال الجهادية، ومرتبات الجيش القار بالأندلس[84].

ومن مظاهر تغلغل هذه النزعة الروحية في المجتمع المريني ما نجده في كتب التراجم من وصف لشخصيات العصر بما يظهر ورعها وتقواها، كما أن من هذه المظاهر ذلك التقدير الذي كان يحظى به آل البيت في الوسط الشعبي والرسمي على السواء، فلقد «ذكروا أن السلطان أبا عنان المريني رحمه الله كان له من التشيع في حب آل البيت والتوسيع عليهم في المرتبات»[85] وكذلك كانت سيرة كل الملوك المرينين[86] بل إن التعظيم أحيانا يصل إلى أن يسمو الشريف على الملك في المجلس وهكذا كان «مزوار الشرفاء بفاس إذا دخل مجلس السلطان يقوم له السلطان وجميع من كان في المجلس إجلالا له»[87].

ويمكن أن نعد من مظاهر هذه النزعة الروحية، احتفالهم بالمولد النبوي الذي أصبح متميزا بما يكتسيه ذلك الاحتفال من أبهة، وبما يخصص له من اعتمادات، وميزانية ضخمة[88] حتى يتم بالصورة اللائقة وتنعم البلاد بما تشهده من أجواء روحية تتمثل في الذكر والانشاد وقراءة السيرة النبوية و لم يتخلف الملوك المرينيون كلهم عن إقامة هذه الاحتفالات حتى في ظروف الحرب والجهاد.

---

(82) المسند الصحيح الحسن ص 323 ورقات ص 51.

(83) ورقات ص 17.

(84) الأنيس المطرب ص 352 الذخيرة السنية ص 145.
المسند الصحيح ص 263، والاحاطة 1 : 36، تاريخ ابن خلدون 7 : 389.

(85) الدر السني مخطوط الخزانة العامة رقم 1456 ورقة 21 أ.

(86) النفح 3 : 148 نيل الابتهاج ص 254، الاستقصا 5 : 110.

(87) البستان ص 162.

(88) الأنيس المطرب ص 383، وصف افريقيا 1 : 115. المعيار 8 : 254.

3 ــ **الازدهار الفني والحضاري** : مما لاشك فيه أن العصر المريني شهد تطورا فنيا وحضاريا هاما، ففيه اكتملت الشخصية المغربية وتميزت بإصالتها وانفردت بشكلها المتميز عن الشرق والأندلس وكما يتجلى هذا في آثارهم المعمارية نجده في الموسيقى والفنون المختلفة(89).

ولعل أهم المنشآت المعمارية التي تمثل دقة الفن المريني واستقلاليته هي مجموعة المدارس التي أنشئت في المغرب كله، لهذه الفترة، وهي كما يصفها ابن مرزوق تشتمل «على المباني العجيبة والصنائع الغريبة، والمصانع العديدة، والاحتفال في البناء والنقش والجبص والفرش على اختلاف أنواعه في الزليج البديع والرخام المجزع والخشب المحكم النقش»(90).

أما فن الموسيقى فلا نبالغ أيضا إذا قلنا بأنه عرف ازدهاراً كبيرا، فلقد استخدمت الموسيقى بصحبة المواكب والجيوش لاثارة الحماس في النفوس ودفع الجنود إلى الاقدام(91) كما أنشدت أشعار المديح النبوي صحبة الموسيقى والايقاع في المولد النبوي(92)، وعلى أي فالموسيقى عرفت تنوعا وتشكلا في عدد الآلات، وابتكار التلاحين والأنغام المختلفة، فعصر بني مرين هو العصر الذي ألف فيه ابن الدراج كتابه الامتاع(93) الذي يصف فيه إحدى وثلاثين آلة من آلات الطرب والغناء.

ومما يظهر المستوى الحضاري الممتاز ما عرفه العصر من تنظيم إداري محكم، حيث نظمت السكة المغربية، وحققت المكاييل، وعدل الصاع على المد النبوي(94)، كما عرف العصر تطورا في الصناعة الحربية والتنظيم العسكري، فالعبور المتواصل إلى الأندلس عمل على تطوير صناعة السفن مما جعل الأسطول المريني مضرب المثل في الضخامة والقوة تتجنب مواجهته أساطيل العدو(95) ولقد استفاد

---

(89) مجلة البينة عدد 8 ص 30 بحث محمد الفاسي.

(90) المسند الصحيح ص 273.

(91) مجلة البحث العلمي عدد 14ــ15 ص 49: مقال محمد المنوني.

(92) نفس العدد ص 165.

(93) صدر عن مطبعة الأندلس بتحقيق د. محمد ابن شقرون.

(94) ورقات ص 97ــ104.

(95) الأنيس المطرب ص 358.

التنظيم الحربي أيضا من كثرة الصدامات والمعارك وحملات الجهاد تمثل ذلك في دقة تنظيم المواكب والجيوش وما كانت تمتاز به من ضخامة وعظمة وجمال وروعة على النحو الذي يصف به النميري موكب أبي عنان[96] أو موكب أبي الحسن كما رآه ابن خلدون[97] وهو يدخل إلى تونس منتصرا.

4 ـ **الازدهار الاقتصادي** : يكاد يجمع المؤرخون على أن العصر عرف ازدهارا اقتصاديا، ابتدأ هذا الازدهار والغنى بتولية أبي يوسف المريني سنة 658هـ/1259م فلقد كانت هاته السنة سنة يمن ورخاء عم مناحي الحياة الاقتصادية فإلى جانب توفر المواد الغذائية في الأسواق فإنها معروضة بأثمان منخفضة[98]، وبما أن النقود هي عصب الاقتصاد ومظهر الازدهار المالي والاقتصادي، فقد اكتسبت هذه النقوذ زمن المرينيين قوة اقتنائية[99]، وهذا ما لاحظه ابن بطوطة وهو يقارن بين القيمة الشرائية للنقود في كل من المغرب ومصر[100].

ولقد بدت مظاهر هذا الغنى والرخاء في جميع مناحي الحياة الاجتماعية ومجالات الانفاق، والتفنن في اللباس والمآكل والمسكن، والتغالي في الهدايا والمنح والعطايا[101] ومظاهر البذخ في أسلوب العيش، والمعمار، إلى درجة صبغ سقوف المنازل بألوان زاهية مثل اللازورد والذهب، ونسج الحرير بالذهب أيضا في الألبسة والألوية والرايات[102]. فلا نعجب إذن من الملاحظات التي أبداها ابن الأزرق وهو يقارن بين مستويات العيش في كل من فاس وغيرها من البلدان، حيث أدرك بأن مستوى عيش القوم مرتفع بدون استثناء «فحال القاضي بفاس أوسع من حال القاضي بتلمسان وكذا كل صنف مع صنفه... واعتبر ذلك حتى في الفقراء والسؤال، فلقد شاهدتهم بفاس يسالون أيام الأضاحي أثمان ضحاياهم وكثيرا من

---

(96) فيض العباب ص 94.

(97) تاريخ ابن خلدون 7 : 562.

(98) الأنيس المطرب ص 302.

(99) تاريخ المغرب لعبد العزيز بنعبد الله 1 : 154.

(100) رحلة ابن بطوطة ص 645.

(101) زهرة الآس ص 63. تاريخ ابن خلدون 7 : 642.

(102) وصف افريقيا 1 : 178.176.

أحوال الترف واقتراح المآكل وعلاج طبخها ولو سال سائل مثل هذا في غيرها لعنف وزجر»[103].

ومن هنا ظهر في تصرفات المسؤولين واهتماماتهم ما يشي بالمستوى الاجتماعي الرفيع مثل إشراف الملوك على حفلات صيد الأسد فيحضرون مشاهد صيدها ويستمعون إلى القصائد التي استوحاها الشعراء من هذه المشاهد وما يستلزم ذلك من المدح والتغني بالفضائل والمكرمات[104]. وإذا كان من محاسن هذا الغنى والترف أن انشئت مدارس ومؤسسات وقفية وزوايا وربط، وجهزت كتائب لردع المعتدي في العدوة الأندلسية، واكتملت الجوانب الادارية والحضارية للدولة فإن الجانب السيء لهذا الترف أن انحدر العصر إلى كثير من الهنات والأعمال القبيحة كالتبذير والاغتناء بالطرق غير المشروعة والميل إلى المجون والتفسخ الأخلاقي الذي انحدر اليه كثيرون من مختلف الطبقات والمستويات من ملوك وعلماء وعامة[105]، ومع أننا لا نتعامل مع هذه الأخبار إلا بحذر فإننا لا نرفضها كلية.

أما أسباب هذا الازدهار الاقتصادي فيمكن إرجاعها إلى عامل الاستقرار الذي ساعد على النشاط الاقتصادي والتجاري كما أن الغزوات والحروب تشكل عاملا لا يقل عن السابق، فلقد اكسبت الانتصارات الدولة هيبة فتدفقت الأموال بسببها على المغرب إما من الغنائم وأنواع الضرائب المفروضة أو من التبادل التجاري بين المسلمين وغيرهم في ظروف الهدنة أو حصار الأعداء على السواء[106].

---

(103) بدائع السلك 1 : 221، مقدمة ابن خلدون ص 644.

(104) نثير الجمان ص 327، وصف افريقيا 1 : 227.

(105) بيوتات فاس ص 55 تاريخ ابن خلدون 7 : 483. وصف افريقيا 1 : 183 النبوغ المغربي 1 : 228.

(106) ورقات ص 108.

الباب الأول
الرحلة ودوافعها في العصر المريني

- الفصل الأول : ميل المغاربة إلى الرحلة
- الفصل الثاني : بواعث الرحلة في هذا العصر
- الفصل الثالث : ازدهار الرحلة وفتورها في العصر المريني.

الفصل الأول :

الميل إلى الرحلة عند المغاربة

فن الرحلة قديم في الأدب العربي عبر من خلاله وفي قالبه الأديب العربي عما أحس به وهو يجوب الافاق مكتشفا أو متعلما، وتوسل إلى التعبير عن ذلك تارة بالشعر وأخرى بالنثر، ورغم أن جل مادونه الأديب العربي من رحلات لم يصلنا، إما لأنه ضاع أو لأننا لم نتلمس طريقنا إليه بعد فإن ما أطلعنا عليه من هذه الرحلات يعطي صورة واضحة على قدم هذه الرحلات وتنوع اتجاهاتها وطرقها واختلاف أهدافها وغنى مضامينها[1] .

إلا أن هذا الفن يرقى إلى القمة في الابداع ويزداد اتساعا وخصوبة في الغرب الاسلامي عند الأندلسيين والمغاربة بما عرف عنهم من رغبتهم في الأخذ عن الشيوخ وزيارة الأماكن المقدسة وجولاتهم من أجل الاطلاع والبحث[2] ومن هنا يعسر على كل باحث الالمام بكل من رحلوا على مدى الاعصر والأزمنة، وإن كانت كتب التراجم والسير والتاريخ والأدب تشير في مجال الترجمة للأشخاص أو التعريف بانتاجهم إلى الكثير من هؤلاء الرحالة ورحلاتهم، فالمقري مثلا قد أورد في كتابه النفح ما يزيد على ثلاثمائة من الرحالين الأندلسيين الذين رحلوا من أجل طلب العلم وحده وليس بغرض التجارة أو الحج، ومع ذلك يعترف بقصوره وعجزه عن استيعاب كل من كانت لهم رحلة، يقول : «إن حصر أهل الارتحال لا يمكن بوجه ولا بحال ولا يعلم ذلك على الاحاطة إلا علام الغيوب الشديد المحال، ولو

---

(1) التعريف بأهم هذه الرحلات وأصحابها في كتاب «الرحلة المسلمون في العصور الوسطى» للدكتور زكي محمد حسن.

(2) تاريخ الجغرافية والجغرافيين ص 11.

أطلقنا عنان الأقلام في من عرفناه فقط من هؤلاء الأعلام، لطال الكتاب وكثر الكلام، ولكننا نذكر منهم لمعا على وجه التوسط من غير إطناب داع إلى الاملال واختصار مؤد للملام»(3).

وإذا تيسر للمقري ذكر هذا العدد من الرحالين، وهو يؤلف كتابه النفح بمصر، معتمدا على ذاكرته بعيدا عن كتبه ومصادره(4) فكيف يمكن أن نتصور المساحة الشاسعة لهذا الحقل الهائل من الأدب والفكر؟ ويزداد الميدان اتساعا والموضوع تشعبا حين ندرك «أن اهتمام المغاربة بالرحلة كان يتجاوز اهتمام الأندلسيين، وظل هذا الاتجاه مزدهرا بين ظهرانيهم»(5).

ولعل الذي ساعد على تنمية هذا الاهتمام ورعي هذه الرغبة في الرحلة عند المغاربة هو الموقع الجغرافي للمغرب، ببعده عن الشرق والحجاز من جهة واطلاله على القارة الأوربية من جهة ثانية ، ولهذا انتظمت رحلات المغاربة الأقطار المختلفة شرقا وغربا، بلادا إسلامية وغير إسلامية، وإن كنا وجدنا أن الحجاز يستقطب أكثر المغاربة ويستهويهم ويجذبهم نحوه، فلقد ذكر ابن خلدون في المقدمة بأن رحلة المغاربة «كانت غالبا إلى الحجاز، وهو منتهى سفرهم، والمدينة يومئذ دار العلم، ومنها خرج إلى العراق، ولم يكن العراق في طريقهم فاقتصروا على الأخد عن علماء المدينة»(6).

وهكذا تتابعت أفواج الرحالة المغاربة نحو الحجاز وتكاثرت وفودهم على هذا البلد المقدس، وتكاد لا تخلو أية ترجمة من الاشارة إلى صاحبها بأنه حج أو رحل إلى الديار المقدسة، فعبد الحي الكتاني ذكر في تقريظه لصاحب كتاب «دليل الحج والسياحة»(7) قائمة طويلة بمن رحل إلى الحج، واقتصر فقط على من اشتهرت رحلاتهم بين الناس فعد منها أربعين رحلة حجازية ونفس الأمر قام به باحثون اخرون(8)، مما ينم عن كثرة المغاربة الذاهبين إلى الحجاز، ولا عجب في ذلك

---

(3) نفح الطيب 2 : 5 تاريخ الأدب الجغرافي 1 : 17ـ18

(4) نفح الطيب : 1. 71

(5) تاريخ الأدب الجغرافي 1 : 382 مكانة الجغرافية من الثقافة الاسلامية ص 28

(6) مقدمة ابن خلدون ص 805

(7) دليل الحج والسياسة ص 293ـ297

(8) مجلة المجمع العلمي العراقي 29 : 173ـ175 مقال الأستاذ المنوني. مجلة المناهل 10 ـ من 44ـ66 مقال الأستاذ الجراري. دعوة الحق سنة 19 عدد 5 ص 21ـ29 مقال الأستاذ المنوني.

فالحجاز بلد مقدس تحتضن تربته أشرف الخلق جميعهم، والبيت الذي يتجه إليه كل المسلمين في صلواتهم، ويطوفون به في حجهم. ولقد تحدث ابن بطوطة عما شاهده بمكة من كثرة المغاربة هناك قائلا : «وفي منتصف ذي القعدة وصل الأمير سيف الدين يلملك، وهو من الفضلاء، ووصل في صحبته جماعة من أهل طنجة بلدي حرسها الله، فمنهم : الفقيه أبو عبد الله بن عطاء الله، والفقيه أبو محمد عبيد الله الحضري والفقيه أبو عبد الله المرسي، وأبو العباس بن الفقيه أبي علي البلنسي، وأبو محمد بن القابلة، وأبو الحسن البياري وأبو العباس بن نافوت، وأبو الصبر أيوب الفخار، وأحمد بن حكامه، ومن أهل القصر المجاز أبو زيد عبد الرحمان بن القاضي أبي العباس ابن مخلوف ومن أهل القصر الكبير الفقيه أبو محمد بن مسلم وأبو إسحق إبراهيم بن يحيى وولده»(9) وهو عدد كبير ممن وفدوا على الحجاز من بلد واحد ومدينة واحدة، فما بالك بمغاربة آخرين من مدن أخرى ومناطق أخرى لم يتعرف عليهم ابن بطوطة؟

وهناك ظاهرة أخرى جديرة بالتسجيل وهي أن بعض المغاربة لا يكتفون برحلة واحدة إلى المشرق عامة وإلى الحجاز خاصة ولكنهم بمجرد ما يصلون إلى بلدهم يسرعون إلى العودة من جديد، فهذا ابن جابر الواد آشي أطلق عليه ابن خلدون صاحب الرحلتين، وهذا ابن جبير قام برحلات ثلاث، وابن بطوطة قضى جزءا كبيرا من حياته في الرحلة والتنقل.

ولشدة التعلق بالحجاز خاصة هو أن البعض من المغاربة كان يطيل مقامه هناك، فيستقر لفترة طويلة بمكة أو المدينة أو بهما معا، حتى يشبع رغبته ويروى ظمأه، ومن الذين عرفوا بهذا الصنيع أبو عبد الملك ابن سمجون اللواتي الطنجي الذي أقام في الشرق سبع عشرة سنة(10)، وقاسم بن أحمد بن محمد بن عمران الحضرمي (توفي 750هـ) الذي رحل من سبتة إلى الحجاز فقضى فريضة الحج وتطوف في البلاد المشرقية نحوا من أربعة عشر عاما(11). أما ابن ميمون الغماري فقد استمرت به إقامته في الشام إلى أن توفي بها(12).

---

(9) رحلة ابن بطوطة ص 234.

(10) معجم البلدان 4 : 43، الأدب المغربي ص 119.

(11) الاحاطة 4 : 267—268

(12) دوحة الناشر ص 275. سلوة الأنفاس 1 : 74

وقد كان هذا التعلق بالشرق والحجاز خاصة، أن اختار الرحالة المغربي الاقامة الدائمة والجوار في مكة أو المدينة، حيث قبر الرسول عليه السلام والكعبة المشرفة، فلقد روى يحيى السراج في فهرسته قائلا : «حدثني الفقيه أبو عبد الله الرعيني إذنا في الجملة عن القاسم ابن يوسف التجيبي إجازة قال لم يزل الفضلاء في كل عصر يقصدون الاقامة بمكة رجاء البركة فياتونها من كل مصر، ويرون بها الأعاجيب، ويحدثون بها الناس»[13]. وليس هذا مستبعدا لما لمكة في نفوس المسلمين من إجلال وتعظيم.

ومن الذين عرفوا بالمجاورة في الحجاز التي اتخدوها وطنا دائما وفضلوها على مسقط الرأس أبو القاسم قاسم ابن علي بن محمد بن علي الفاسي (811هـ) الذي جاور بمكة، وأخد بها عن شيوخ عديدين[14]، وأبو إسحاق الفاسي الذي فضل الاقامة بالمدينة المنورة، لأنها مدفن الرسول عليه السلام، وبلد مالك بن أنس[15] وذكر ابن بطوطة جماعة من المغاربة المجاورين بمكة التقى بهم هناك وهؤلاء هم[16].

ــ الفقيه الصالح الزاهد أبو الحسن علي بن رزق الله الأنجري من أهل قطر طنجة. من كبار الصالحين، جاور بمكة أعواما وبها وفاته. كانت بينه وبين والد ابن بطوطة صحبة قديمة، ومتى أتى طنجة نزل عنده.

ــ أبو العباس الغماري من أصحاب أبي الحسن ابن رزق الله وسكن رباط ربيع بمكة ووفاته بها.

ــ الصالح أبو يعقوب يوسف من بادية سبتة كان خديما للشيخين المذكورين.

ــ الصالح السابح السالك أبو الحسن علي بن فرغوس التلمساني.

ــ حسن المجنون، وكان بمكة أيام مجاورته لها.

وبعض الرحالين المغاربة كان يستهويهم الشرق عامة وتأخذ بلبهم مجالسه العلمية وتجتذبهم حلقاته ومناظراته، فلا يعودون إلى بلدهم، ولذلك نسبوا إلى بلدهم الأصلي

---

(13) فهرسة السراج. ص 96

(14) انباء الغمر. 8 : 412. شذرات الذهب 7 : 92

(15) رحلة ابن رشيد 5 : 8 ب.

(16) رحلة ابن بطوطة ص 1.48 149 153

بالاضافة إلى البلد الذي أقاموا فيه، ومن أمثلة هؤلاء : شرف الدين أبو عبد الله محمد بن عمران (ت688هـ) يعرف بالشريف الكركي نسبة إلى بلدة بالشام مع أنه ولد بفاس (وتفقه على السيخ أبي محمد صالح ثم رحل إلى المشرق)[17] وكذلك محمد بن إبراهيم الوطواط الكاتب الوراق (ت718هـ) الذي هو أيضا مغربي المولد، مصري الوطن والدار[18].

أما الشاعر المشهور أبو عبد الله محمد البوصيري (ت699هـ) الذي نسب إلى هذه الأرض المصرية، فيذكر عنه أبو الوليد بن الأحمر في شرحه للبردة المشهورة بأن «مولده ببجاية وارتحل عنها مع أبيه إلى المشرق، فاستوطن مدينة بوصيرا وكان يؤم بجامعها الأعظم»[19].

ونفس الشيء يقال في مؤلف الديباج المذهب إبراهيم بن علي بن فرحون توفي سنة (799هـ / 1397م) الذي نزحت أسرته من المغرب، فولد ونشأ في المدينة ونسب إلى يعمر بن مالك من عدنان على الطريقة المشرقية[20].

ولا ننسى في هذا المجال مؤلف «شفاء الغرام» محمد بن أحمد بن علي تقي الدين الفاسي (ت842هـ / 1438م) الذي نشأ بمكة ولكنه من أصل فاسي كما تفصح عنه هذه النسبة[21].

ولم تكن الرحلة دائما نحو الشرق، بل وجدنا من المغاربة من اتجه نحو العدوة الأندلسية إما للعمل أو لزيارة الأصدقاء أو للأخذ عن الشيوخ أو للاقامة الدائمة أو للسفارة... وهكذا ترددت شخصيات علمية بين المدينة البيضاء وغرناطة بل إن بعض المغاربة اشتهروا بنسبتهم إلى الأندلس أكثر من شهرتهم بالنسبة المغربية، كالقاضي أبي القاسم السبتي الذي عرف بالشريف الغرناطي[22] (ت760هـ / 1358م). وليس من السهل إحصاء كل من رحل إلى الأندلس أو

---

(17) رحلة ابن رشيد 5 : 68أ ــ الديباج ص 332، الكتاب الذهبي ص 162 جامع القرويين 2 : 491

(18) تاريخ الأدب الجغرافي 1 : 406، معجم المؤلفين 8 : 222

(19) مقدمة شرح البردة مخطوط القرويين رقم 643/40

(20) الاعلام للزركلي 1 : 47

(21) نيل الابتهاج ص 304

(22) نثير الجمان ص 145، المرقبة العليا ص 171

استوطنها، فلقد ترجم ابن الخطيب في كتابه (الاحاطة) لأكثر من أربعين من هؤلاء الرحالين المغاربة نحو الأندلس فيهم السفير، والعالم، والفقيه، والقاضي، والشاعر،... من هؤلاء الرحالة ابن رشيد، والرحالة ابن بطوطة، والسفير إبراهيم التسولي، وأبو العباس القباب، وقبلهم الشاعر عبد العزيز الملزوزي...وغيرهم.

ولا نعدم في المغرب صنفا آخر من الرحالة لم يكن مشدودا فقط إلى المشرق وما يحويه من أراضي مقدسة، كما أنه لم يكن مندفعا وراء مصالحه بالعدوة الأندلسية، ولكنه كان من المغامرين السياح الذين كان مجال رحلتهم أوسع وأعم وأشمل، ساحوا في الأرض دون هدف معين واضح، إلا البحث والاطلاع واكتشاف ما في هذا الكون من خفايا وما يسكن مناطقه من أجناس. فابن بطوطة — كما سنرى — كان يعثر أحيانا، أثناء تجواله في الافاق المتباعدة، على مواطنيه.في الصين والهند وفارس والشرق عامة ومصر وبغداد... بل وفي جزر ديبة المهل أول مايعرفه فيها هي قصة أبي البركات المغربي الذي كان سبب إسلام أهل هذه الجزر[23].

وابن بطوطة نفسه يلتقي، وهو ببغداد في طريق عودته من رحلته سنة 748هـ، بجماعة من المغاربة الذين اخبروه بكائنة طريف واستيلاء الروم على الخضراء[24].

وابن رشيد يتحدث عن يونس المغربي الذي دخل الهند وتجول فيه[25] فكانت رحلته واسعة مثل ابن بطوطة.

ضياع الرحلات :

وإذا كانت أفواج الرحالين بهذه الكثرة المذكورة، وبهذا التنوع المشار إليه، فأين أخبارهم؟ وأين ما دونوه من رحلات يذكرون فيها سماعهم عن الشيوخ وأوصافهم للبلدان التي حلوا بها والتقاييد والمعلومات التي حصلوا عليها ؟

إن الباحث يقف حائرا أمام مثل هذا السؤال وغيره، فلا يستطيع الوصول إلى إجابة حاسمة، أو اتخاد رأى ثابت.

---

(23) رحلة ابن بطوطة ص 568

(24) نفس المصدر ص 637

(25) رحلة ابن رشيد 5 : 76

فهناك افتراضان كل منهما له أهميته في هذا الميدان : إما أن جل الرحلات أو أغلبها قد ضاع، أو مازال البحث لم يهتد إليه، وأن ما وصلنا من هذه الرحلات لا يشكل إلا نسبة ضئيلة من هذا العدد الهائل الذي كتب في هذا المجال؟ أو أن هؤلاء الرحالين احجموا عن التدوين، فلم يسجلوا ما شاهدوه في تلك البلدان، ولم يقيدوا ما سمعوه من أخبار وعلوم وأسانيد عالية! وهذا غريب لما نعرفه من حرص العلماء المغاربة على حصولهم على علو السند حرصهم على أنفسهم، وما نعرفه عنهم أيضا من اعتزازهم بلقاء العلماء ومشافهتهم فكيف يعقل ألا يسجلوا كل ذلك خوف النسيان والضياع؟!

وبالنسبة للافتراض الأول فإن الباحث يزداد تيقنا بأن عددا ضخما من المؤلفات والكتب، ومنها الرحلات، تعرض للضياع والتلف، فكل مطلع على الحركة النشيطة، والرحلة المستمرة التي اتسم بها أهل هذا العصر يصل إلى الاقتناع بأن كثيرا من الرحلات مازال مفقودا، فكيف يعقل ألا يدون العالم ما يمر به في رحلته الحجازية أو غيرها من مشاهد وأخبار ولقاءات مع العلماء وما يحصل عليه من أسانيد وإجازات؟ . رغم الحرص الشديد على السند العالي والأخذ عن الشيوخ يتجشم الرحالة من أجلهما المشاق والمتاعب، ويواجه الأخطار والمصائب.

لا يمكننا أن نتصور العلماء، والكتاب، والفقهاء، ومن يعدون النخبة أو علية القوم الذين يشكلون معظم ركب الحجاج لا ينفعلون بما يشاهدون أو يسمعون فيدونون مذكرات لتسجيل هذا الحدث الفريد، خصوصا وأن الركب الضخم كان محملا بالهدايا إلى ملوك الشرق والحرمين، وأهمها المصحف الذي يتفنن في كتابته وترصيع غلافه بأنواع من اليواقيت والجواهر، فكيف لا يسجل عالم مثل أبي الفضل ابن أبي مدين مذكراته في هذا الشأن وهو الذي حمل كتاب أبي الحسن سنة 745هـ / 1344م إلى المنصور صاحب مصر[26]؟

كما أنه لا يمكننا أن نتقبل بسهولة انعدام نصوص تسجل ما كان يقوم به الملوك من أسفار وتحركات، فلا نجد رحلات رسمية يصف فيها أصحابها مواكب الملوك بما عرفت به من ضخامة وروعة وجمال، ويدونون الأخبار والمواقف، وإذا كنا وجدنا تدوينا لبعض هذه الرحلات، فليس من المستبعد أن رحلات أخرى لم تصلنا.

---

(26) الاستقصا 3 : 83، 127ـ131، 144

إن البحث يفترض أن كثيرا من العلماء الذين صاحبوا أبا الحسن المريني في رحلته إلى تونس قد دونوا مراحل هذه الرحلة وسجلوا ماكان يقع في مثل هذه الرحلات من مسامرات ومجالس علمية وأدبية[27] خصوصا وأن موكب أبي الحسن كان «في جملته جماعة كبيرة من فضلاء المغرب وأعيانه»[28] من مثل أبي عبد الله محمد بن سليمان السطي، وأبي محمد عبد المهيمن الحضرمي، وأبي العباس أحمد الزواوي، وأبي عبد الله الآبلي، وأبي القاسم بن رضوان، وأبي عبد الله بن الصباغ وغيرهم... فضاع كل هؤلاء العلماء«وضاعت معهم نفائس الكتب»[29].

ويؤكد لنا هذا الافتراض ما نجده في كتب التراجم من أن بعض علماء هذا العصر كانوا كثيري التأليف، منصرفين إلى التدوين والتصنيف، فكيف يمكن أن يكون صاحب التقييد على «التهذيب والرسالة» إبراهيم التسولي التازي الفاسي قد أهمل تدوين رحلاته وأسفاره، وهو الذي كان أبو الحسن المريني «يستعمله في أسفاره، فمر في ذلك حظ كبير من عمره ضائعا»[30] ؟ كما يقول ابن القاضي وإذن فلا مجال للشك أو الجدال في أن الكثير من الرحلات والكتب قد فقدت أو ضاعت فهذا أبو سالم العياشي عثر في مكة على رحلة ابن رشيد[31] بخط المصنف وخط تلميذه عبد المهيمن فأين هذه النسخة؟، ولعلها تكون هي النسخة الأصل التامة. وهذا أحمد المقري يقول عن النميري «وكان عندي بالمغرب مجلد من رحلته التي بخطه، وقد أتى فيه بالعجب العجاب»[32] فهل هي رحلته الحجازية التي تعتبر الآن ضائعة؟

وهذا ابن مرزوق يتحدث عن عطايا أبي الحسن المريني ذكر بأنه أوقفه على بعضها الفقيه أبو عبد الله التاوري، المكناسي فيما كتبه[33]، فأين هذا الأثر الذي ربما لا يقل قيمة عن مسند ابن مرزوق نفسه؟ وهذا صاحب الحلل الموشية يعتذر

---

(27) على غرار فيض العباب للنميري الذي سجل فيه حركة أبي عنان إلى افريقية

(28) التعريف بابن خلدون ص 24

(29) الفكر السامي 4 : 246

(30) الجذوة 1 : 86

(31) رحلة العياشي 2 : 238

(32) نفح الطيب 7 : 109 ــ 110

(33) المسند الصحيح الحسن ص 91

عن اختصاره المخل في ذكر اخبار بني مرين ولكنه يعد باستيفائها في موضع آخر وتأليف مستقل[34]. فأين كتابه إذن هذا الذي سيبسط فيه القول في أخبار المرينيين؟ يتأكد لنا إذن أن جل تآليف ورحلات هذا العصر قد ضاعت و لم تصلنا.

ندرة التأليف والتدوين :

وإذا حاولنا أن نناقش الافتراض الثاني الذي يذهب إلى أن المغاربة كان اهتمامهم بالتاليف ضعيفا، فهذا يستند على ما تناقله بعض الكتاب والمؤلفين من أن عناية المغاربة بالتأليف والتدوين قليلة،«فالعالم الراوية المحدث الباحث المحقق أبو عبد الله بن عبد الملك رحمه الله، يقول كان بفاس من الفقهاء الأعلام الأجلة أعيان الأنام ما ليس في غيرها من بلدان الاسلام إذ هي قاعدة المغرب ودار العلم والأدب، لكن أهلها اهملوا ذكر محاسن علمائهم وأغفلوا تخليد مفاخر فقهائهم»[35].

ويركز اليوسي في محاضراته على ظاهرة قلة الميل عند المغاربة إلى تسجيل الأحداث التاريخية والقضايا اليومية وتدوين ما له صلة بأخبار الرجال وانتاجاتهم فيقول : «الاعتناء بالأخبار والوقائع والمساند ضعيف جدا في المغاربة، فغلب عليهم في باب العلم الاعتناء بالدراية دون الرواية وفيما سوى ذلك لاهمة لهم»[36]

وحتى في مجال العلم والمناقشة والأخذ والرد، كان هناك اتجاه يرى بأن الاشتغال بالتأليف هو مضيعة للوقت، وهو أقل قيمة من الاشتغال بتعليم الطلبة أو الاخذ عن الشيوخ، يقول محمد بن إبراهيم الآبلي «إنما أفسد العلم كثرة التأليف»[37]، وهذا الاقتناع بمضار التأليف هو سبب عدم وجود تأليف له رغم أن الآبلي «اعلم خلق الله بفنون المعقول»[38]، ولكنه تخرج عليه «من لا يعد كثرة من الأئمة كابن الصباغ المكناسي، والشريف التلمساني والشرف الرهوني، وابن مرزوق الجد، وأبي عثمان العقباني، وابن عرفة، والولي ابن عباد وابن خلدون..»[39]

---

(34) الحلل الموشية ص 175

(35) نبذ تاريخية ص 76

(36) المحاضرات ص 72—73

(37) نيل الابتهاج ص 246

(38) نفسه ص 245

(39) نفسه 248

ولقد اقتدى بالآبلي تلاميذه في الاهتمام بالتعليم والتلقين، والاقلال من التأليف والتصنيف، فأبو عبد الله الشريف التلمساني (ت771هـ / 1369م) «كان قليل التأليف أكثر اعتنائه بالاقراء فتخرج به من صدور العلماء وأعيان الفضلاء ونجباء الأولياء من لا يحصى»(40).

وهناك عامل آخر جعل التأليف في الرحلات خاصة قليلا، وهو نظرتهم إلى ما يجب الاعتناء به من العلوم والتصانيف وكونها يجب أن تكون نافعة للأبدان والأديان، لذلك اعتبر علم الجغرافية وماله صلة به من وصف البلدان والمناطق علما لا فائدة منه، وأبان عن هذا الرأي محمد بن عبد المنعم الحميري في فاتحة معجمه الجغرافي «الروض المعطار» يقول : «ومع هذا فقد لمت نفسي عن التشاغل بهذا الوضع الصاد عن الاشتغال بما لا يغني عن أمر الآخرة، والمهم من العلم المزلف عند الله تعالى وقلت هذا من شأن البطالين وشغل من لا يهمه وقته... بل أقول أعوذ بالله من علم لا ينفع»(41).

وبما أن الرحلة هي أقرب إلى الجغرافية في وصف البلدان والطرق والمجتمعات فإن الرحالة لم يكن متحمسا للافصاح عن كل ما أتى به وتدوينه في مصنف خاص بالرحلة وما جمعه فيها من أخبار، وما توصل إليه من استنتاجات إذ كان الجو العلمي الديني يقتضي أن يكون المؤلف والمصنف إضافة جديدة في الميادين التي يهتم بها في الحقل التعليمي الديني. وهكذا اتسم الرحالة بالتريث والتأني في إعلان ما يخص رحلته إلى أية جهة كانت، وإن كانت الرحلة العلمية في أغلبها لا تجعل صاحبها مترددا أو متريثا نظرا إلى أنها إضافة جديدة في الميادين العلمية المختلفة.

وإذا حاولنا تتبع الرحلات من حيث التدوين والتسجيل فإننا نجدها تخضع للأنواع التالية :

1 ــ رحلات : كتبت أثناء الرحلة، خضع فيها التسلسل لنظام الرحلة ومفاجآتها وما قد يطرأ عليها من قضايا وماسيلقاه الرحالة من أشخاص وما سيشاهده من بلدان، ويمثل هذا الصنف العبدري بدليل أنه لما التقى بابن دقيق العيد في القاهرة وحصل على الاجازة قال : «ووقف على ما تقيد من هذه الرحلة واستحسنه وأفادني

---

(40) نفسه ص 260

(41) الروض المعطار ص 1ــ2

فيها أشياء وقيد منها وفاة الشقراطسي صاحب القصيدة المشهورة حسبما تقيدت في موضعها مما تقدم»[42]، وإذن فقد عرض العبدري على ابن دقيق العيد ماكان قد دونه في رحلته من بلده حاجا إلى القاهرة وهو في طريقه إلى الحجاز.

2 ـــ **رحلات : كتبت من المذكرات** التي دونها أصحابها أثناء الرحلة والتجوال، وهي عبارة عن رؤوس القضايا التي واجهها الرحالة في طريقه، أو العلوم والفوائد التي استفادها في وجهته، وسلسلة الاسناد التي حصل عليها، والغالب أن الرحالة كان يحرص على تدوين المذكرات وهو في رحلته حتى لا تفوته أهم المعارف والفوائد ولكنه لا يخرج رحلته إلى الناس إلا بعد التنقيح والروية، ومن هنا قد يتأخر إخراج الرحلة عن زمن القيام بها، فالتجيبي في (مستفاد الرحلة) يشير إلى أحداث تتعلق بسنة 704هـ مثلا مع أن الرحلة كانت سنة 696[43].

والغالب أن ابن رشيد كان قد سلك هو أيضا نفس الطريقة، فدون على الأقل وهو في الرحلة مذكرات ونصوصا وأشعارا، ثم بعد رجوعه من الرحلة نظم ما جمعه وأخرجه منسقا : فالعدد الكثير من القصائد والاجازات والرسائل والأسانيد الكثيرة، لا يمكن أن يظل عالقا بذهنه و لم يسمعه إلا مرة واحدة، ثم إنه من حين لآخر يؤكد على أن ما يرويه قد كتبه بخطه زمن الرحلة[44].

ولعل هذه الطريقة قد استهوت الكثير من الرحالين فيما بعد[45]، لأن كثيرا من الرحالين صاروا يفتتحون رحلاتهم بإسداء النصح والتوجيه إلى من يرغب في الحج وتأدية المناسك، انطلاقا من تجربة الرحالة نفسه، وهذا دليل على أن الرحالة يكون قد انهى رحلته ولكنه لم يكن قد لم شتات ما جمعه فيها، ونسق ما رواه عن الأعلام دون ترتيب أو تنظيم.

3 ـــ **رحلات كتبت من الذاكرة** إما بصفة كلية أو جزئية، فأصحابها لم يدونوا الرحلات أو أن ما دونوه تعرض للضياع، ومن أمثلة هذا الصنف رحلة ابن بطوطة

---

(42) الرحلة المغربية ص 139ـــ140

(43) مستفاد الرحلة ص 307 مثلا

(44) انظر رحلة ابن رشيد : الجزء الثاني ورقات 3،12،42 ج السادس ورقة 15

(45) انظر مثلا الرحلة الكبرى لابن عبد السلام الناصري مخطوط الخزانة العامة رقم 2327د. مخطوط الخزانة الملكية رقم 5658

فلم يكن صاحبها وهو يملي رحلته يتوفر على أصول الرحلة ونصوصها، ولعل هذا هو سبب الخلط والاضطراب في تسلسل الرواية والرحلة عنده كما سنرى فيما بعد.

ونجد ضمن هذا الصنف أيضا رحلة أبي يعقوب البادسي أو سياحته الصوفية في المشرق، فإن مدونها أبا محمد الأوروبي، اعتمد في جمعها على ما رسخ في ذاكرة مريديه واتباعه، يقول «واذكر من ذلك ما نظافر الجم الغفير على نقله أو ما سمعته ممن اتق بدينه وعلمه»(46).أما أمثلة ما اعتمد فيه على الذاكرة في بعض ما ورد في الرحلة فهي كثيرة يعترف فيها الرحالة بالنسيان والسهو إزاء بعض الأخبار والحكايات والنصوص أو يعتذر عما قد يرد في رحلته من خلط أو اضطراب ، فابن رشيد يتحدث عن البطرني الذي لقيه بتونس يقول «ولم يحضرني الآن عنه مما سمعته منه إلا ما انشدني عندما ودعته بتونس راحلا للحج»(47).

وتشكك هو نفسه في ما تحدث به الشاميان أمامه بمسجد النبي-ﷺ — عن أبي بكر بن العربي قائلا «كتبت الحكاية من حفظي بعد طول أزمان، وأشك هل قال إن ابن العربي أيضا اخبره بهذه الحكاية بمسجد النبي-ﷺ — أ م لا»(48)

4 — **رحلات كتبها غير أصحابها** الذين قاموا بها وهذا يثبت ما المحنا إليه من عدم جرأة الرحالة على إظهار رحلته والبوح بما جاء فيها لغيره، ولعل هذا يقف شاهدا على أن الرحالين الذين عرفوا برحلاتهم ولم يدونوها، فإن عدم إظهارهم لها يعود إلى هذه الحيطة والحذر بل ربما بقيت مذكرات وأصول تلك الرحلات لدى أصحابها إلى أن ضاعت وانتهى أمرها مع الأسف.

وعلى أي فإن كثيرا من الرحلات لو لم تكن مبادرة غير أصحابها لما رأت النور ولما عرفت طريقها إلى الشهرة والانتشار، فرحلة ابن بطوطة لولا عناية أبي عنان، وإعجابه بما ورد فيها من أخبار وغرائب وعجائب، ثم تكليفه لابن جزي بتدوينها وتسجيل ما يمليه عليه صاحبها لضاعت هي أيضا ولكان مصيرها كغيرها النسيان والاهمال.

---

(46) الوسيلة في كرمات أبي يعقوب مخطوط الخزانة الملكية رقم 9447 ص 229

(47) رحلة ابن رشيد 2 : 20ا ص 172 من طبعة ابن الخوجة

(48) نفس المصدر 5 : 56ب

ورحلة ابن جبير أيضا لم ينظمها صاحبها ويجمع شتات أخبارها وينسق ما دونه في مذكراتها على الشكل المعروف، وإنما تصدى لهذا غيره ممن أعجب بمحتواها يقول ابن الزبير عن الرحلة وتدوينها : «وليست من تأليفه فيما يذكر لي شيخنا الغافقي إنما قيد هو حاصلها من ذكر المراحل والانتقالات، وأحوال البلاد لنفسه تقييدا لم يصل به التأليف، فرتبه بعض من أخد عنه، واتقنه مؤسسا»(49).

أما رحلة ابن رشيد فرغم أن صاحبها حرص على تدوين الكثير منها أثناء السفر والتجوال، إلا أنه لولا مساعدة عبد المهيمن الحضرمي له على إظهارها ولولا اعتناؤه بها وتتبعه لفوائدها وأخبارها، وإفادته منها، لما عرفت النور، ولكان لها شأن آخر ومصير مختلف كل الاختلاف ولقد تحدث ابن رشيد عن دور الحضرمي في تنقيح الرحلة وإخراجها، فهو الذي قابلها معه واعتنى «باكتسابها لنفسه واكتتابها، ولم يحملها أحد عني حق حملها، ولا عرف أحد من الفضلاء سواه ما عرف من فضلها بما طبع عليه من الانصاف والاتصاف بكريم الخلال وجميل الأوصاف، ولولا عزمه علي في تخليصها ما خلصتها ولا خرجتها ولا أظهرتها لعدم الراغب وقلة الطالب»(50). كما يذكر ابن رشيد.

الرحلات المدونة قبل العصر

وقبل أن ننهي هذا الفصل يجدر بنا أن نتعرض إلى أهم الرحلات التي سبقت الفترة المدروسة، وليس من السهل أن نذكر الذين عرفوا بالرحلة في المغرب ابتداء من دراس بن اسماعيل أول من أدخل مدونة سحنون إلى المغرب، إلى بداية العصر المريني، فذلك يحتاج إلى دراسة مستقلة، ولكننا سنقف مع أهم الرحلات المدونة التي وصلتنا قبل الفترة المرينية.

والظاهرة التي تلفت انتباهنا هي أننا لا نملك ــ لحد الآن ــ رحلة مدونة قبل العصر المريني تنتمي إلى المغرب بحدوده المرينية(51)، فأول الرحلات المدونة هي من إنتاج أندلسي، والأندلس زمن المرابطين والموحدين كان أكثر اقترابا من المغرب والتصاقا به، فإنتاج تلك الفترة في العدوتين معا هو في الحقيقة إنتاج مشترك.

---

(49) الاعلام للمراكشي 4 : 179 الحلل لأرسلان 3 : 118، أدب الرحلة ص 25

(50) رحلة ابن رشيد 6 : 4ب

(51) هناك بعض ملامح الرحلة في كل من أخبار المهدى لأبي بكر البيدق والمعجب لعبد الواحد المراكشي

ومن المتفق عليه أن أبا بكر بن العربي المعافري[52] (ت543هـ / 1148م) هو «أول من وضع الأساس لهذا الفن حسب علمنا وكان ذلك قبل نصف قرن من ابن جبير»[53]. وهذا الرأي لم ينفرد به المستشرق الروسي فأكثر الباحثين يرون أن ابن العربي هو الذي ألف الرحلة لأول مرة في الغرب الاسلامي، أو بالأحرى ألف أكثر من رحلة واحدة في وصف رحلته العلمية بالمشرق مع ذكر ما استفاده هناك من معارف، وما حضره من مجالس علمية وحلقات للمناقشة والمناظرة، فقد وصف جزءا من هذه الرحلة في كتابه «قانون التأويل»[54] المخطوط بالخزانة العامة تحت رقم ك 251 يشير فيه إلى أسباب الرحلة، والشيوخ الذين أخذ عنهم بالمشرق، والمعارف التي حصل عليها.

وهناك مخطوط آخر بالخزانة العامة أيضا يحمل رقم 1020د ومع أن عنوانه «رحلة أبي بكر بن العربي»[55] إلا أنه لا يتضمن إلا رسائل حملها أبو بكر بن العربي من المشرق وهو عائد إلى المغرب، والرسالة الأولى موجهة إلى المستظهر العباسي كتبها القاضي ابن العربي نفسه، أما الرسالة الثانية فقد كتبها الوزير العباسي محمد بن جهير باسم الخليفة نفسه إلى يوسف بن تاشفين، والنص الثالث يتضمن رسالة أبي حامد الغزالي يعلن فيها تأييده لجهاد يوسف بن تاشفين أيضا.

ونعثر في هذا المجموع من الرسائل التي حملها معه ابن العربي إشارة إلى كتاب آخر في الرحلة لابن العربي أيضا يسمى «ترتيب الرحلة للترغيب في الملة»[56].

كما نجد في فهرسة المنتوري قوله : «الرحلة الصغرى للقاضي أبي بكر محمد بن عبد الله بن العربي المعافرى، قرأت بعضها على شيخنا الأستاذ أبي عبد الله محمد بن محمد القيجاطي»[57].

---

(52) بيوتات فاس ص 80 الديباج ص 281 أزهار الرياض 3 : 62

(53) تاريخ الأدب الجغرافي 1 : 298

(54) حققه مصطفى الصفيري وتقدم به لنيل دبلوم الدراسات العليا بدار الحديث الحسنية مرقونة بمكتبة دار الحديث.

(55) نشرت بتحقيق عصمت دندش في مجلة المناهل عدد 9 ص 149—191

(56) مخطوط الخزانة العامة رقم 1020د ورقة 27أ

(57) فهرست المنتوري مخطوط الخزانة الملكية رقم 1/1578 ص 106

فأي من هذه الكتب هو رحلة ابن العربي ؟ هل هو الرحلة الصغرى ؟ أم ترتيب الرحلة ؟ أم قانون التأويل ؟ أم الرسائل ؟ والصواب أن لابن العربي رحلات مدونة تتكامل في تقديم النشاط العلمي والفكري لابن العربي خلال رحلته المشرقية التي دامت نحوا من أحد عشر عاما.

وإذا انتقلنا إلى القرن السادس الهجري، فإننا نصادف رحالتين هامين دونا مشاهداتهما في البلدان التي رحلا إليها، وأعلنا ملاحظاتهما، وانتقاداتهما لعادات الشعوب التي زاراها، فنسجا على منوال ابن العربي في التصنيف والتسجيل واتسما بجرأة ربما كان لها أثرها على ما تبعهما من رحلات في القرون التالية وعلى الأخص في العهد المريني.

ومن الجدير بالذكر أن الرحالتين من الأندلس، وأنهما أدركهما الأجل خارج وطنهما بعيدا عنه في الرحلة والتجوال، وهذان الرحالتان هما :

ــ **الأول** أبو حامد محمد بن عبد الرحيم المازني القيسي الغرناطي[58] (ت 565هـ / 1169م) ورحلته كانت واسعة كخلفه ابن بطوطة، فلقد زار خلالها مصر، والاسكندرية، وسردينيا، وصقلية، وبغداد، وايران، وعبر بحر قزوين وخوارزم، وهنغاريا إلى أن توفي بدمشق.

ولقد جمع مشاهداته في كتاب بعنوان «تحفة الألباب ونخبة الاعجاب»[59] الذي يعتبر من أهم وأقدم الرحلات «وبالرغم من أنه لم يدون انطباعاته عن الطريق في شكل ملاحظات، بل أحيا النمط الأدبي القديم لكتب العجائب، فصنف مؤلفا ذا طابع كوزموغرافي بحث، وهو في هذا ربما كان واضع لبنة جديدة في الأدب الجغرافي العربي»[60]

---

(58) النفح 2 : 235ــ236
الجغرافيون العرب ص 67ــ68.

(59) نشر المجلة الاسيوية سنة 1925 بعناية «فراند»

(60) تاريخ الأدب الجغرافي 1 : 294. الجغرافيون العرب ص 67

ـ **الثاني** : أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي البلنسي[61] (ت 614هـ / 1217م). ورحلته ليست كسابقتها عامة، وإنما هي رحلة حجازية لكنها هامة لأنها هي أول رحلة وصفت طريق الحجاز وصفا دقيقا، وأعطت نظرة عن الشرق وعاداته، وقدمت صورة واضحة عن كل ما لاحظه ابن جبير وهو هناك.

(61) النفح 2 : 381، الاحاطة 2 : 230
الاعلام للمراكشي 4 : 176، معجم سركيس 1 : 61 منتخبات بلاشير ص 318

الفصل الثاني :

دوافع الرحلة وبواعثها

إن كل باحث يجد نفسه مضطرا إلى الوقوف عند الظاهرة التي أشرنا إليها، ظاهرة كثرة الرحلات المغربية، وتفوق المغاربة على الأندلسيين والمشارقة في هذا الميدان كما رأينا من قبل، ولذلك لا يجد مندوحة عن التساؤل عن دوافع هذه الرحلات وبواعثها، فهل الدوافع تكمن في «ولوع المغاربة بكيفية عامة بالسياحة وارتيادهم لأقاصي البلاد»[1] ؟ أو إن الذي قوى هذه الرغبة في الرحلة والتجوال هو «بعد الديار المغربية عن الشرق والحجاز مهد الحضارة العربية ومهبط الوحي»[2] ؟ أم أن تجشم أخطار الرحلة هو استجابة لتعاليم الاسلام الذي أوجب الحج على من استطاع إليه سبيلا، وأمر بالسير في البلدان والضرب في الأرض؟ ومن هنا كانت الرحلة إلى الحجاز لتأدية الفريضة وزيارة الأماكن المقدسة التي كانت مهبط الوحي، والاتصال بالمسلمين الحجاج عامة والعلماء خاصة[3]، عمل مفروض لازم لسلوك المغربي المسلم. والحقيقة أننا لا نستبعد واحدا من هذه الدوافع — إما مفترقة أو مجتمعة — وراء الاكثار من الرحلة، ولكننا لا نجدها كافية لتعليل كل ماقام به المغاربة من رحلات، فلم تكن الرحلة من أجل القيام بشعيرة الحج وتأدية المناسك، والاتصال بالعلماء فقط، بل كانت هناك، إلى جانب ذلك، رحلات صوفية، ورحلات سياحية، ورحلات رسمية...

(1) الأكسير في فكاك الأسير، مقدمة التحقق ص : ب — ت.

(2) نفس المصدر.

(3) الرحالة المسلمون ص 7. تاريخ الأدب الجغرافي 1 : 19 — 20. رحلة ابن بطوطة، مقدمة الناشرين للطبعة الفرنسية الجزء الأول ص : 2، الرحلات ص 9

ولهذا فلا بد من ربط الرحلة بالظروف الاجتماعية والسياسية والثقافية، وعدم فصلها عن الحياة المغربية، والمجتمع المغربي لذلك الوقت، واعتبار الرحلة واتجاهاتها وأنواعها نتيجة حتمية لما اتسم به المغرب انذاك، وما غمر جوه وتعايش فيه من عادات وتقاليد ومذاهب واتجاهات، يقول الأستاذ ابن شقرون «إن الرحلات المغربية في عصر بني مرين تستمد مقوماتها من البيئة المغربية قبل كل شيء، ثم من خارج هذه البيئة، ومن المسافة التي كانت تفصل بينها وبين الأماكن التي كان يقصدها كل مسلم لأداء فريضة الحج»(4).

وانطلاقا من هذا يمكننا أن نصنف هذه الدوافع إلى بواعث دينية، وعلمية، وسياسية...

أ ــ الباعث الديني.

ولا يمكننا أن ننظر إليه بمعزل عن الحياة الاجتماعية والفكرية، ذلك أن المغرب ــ كما سبق أن ذكرنا ــ عرف جوا روحيا، في هذه الفترة التي نخصها بالدراسة، فانطبعت الحياة عامة بالطابع الروحي، وبدت المقاييس الدينية متحكمة في كل مناحي الحياة، والحقيقة أن هناك عوامل جديدة وظروفا طارئة هي التي جعلت كفة التفكير الديني والزهد في الحياة ترجح، ويصبح الدين هو الذي تقاس به الأشياء والمواقف، وهو القاسم المشترك الذي تتحد عنده الأراء، وتتكتل الجهود، ولسنا في معرض توضيح هذه النقطة أو البحث عن أسبابها وعللها، فذلك موضوع آخر يحتاج إلى وقفة متانية، ونظرات متعمقة للبحث عن جذور القضية وفروعها.

وكيفما كان الأمر فإن الحياة الروحية كانت بدون شك، طاغية على المجتمع المغربي آنذاك، موجهة إياه، ولقد رسمنا من قبل صورة موجزة لهذا الجانب الروحي في المجتمع المغربي المريني، ويكفينا في هذا المقام الاشارة إلى بعض المظاهر التي تتجلى الحياة الروحية من خلالها، ومن أهمها :

1 ــ الاحتفال بالمولد النبوي :

تعظيم مناسبة مولد الرسول عليه السلام، والتذكير بأهميتها واستشعار جلال الذكرى ليس جديدا، ولكن الجديد هو الاحتفال بهذه المناسبة على نحو من

---

(4) مظاهر الثقافة المغربية ص 171.

المبالغة[5] وإظهار معالم الزينة، وتعطيل المصالح الرسمية وإنشاد الشعر في مجالس الانشاد التي تقيمها الأوساط الرسمية والشعبية على السواء، ويتفق الباحثون على أن هذا الاحتفال دعي إليه مع حلول القرن السابع الهجري شرقا وغربا[6]. وكان الهدف من الاحتفال في المغرب، وفي سبتة بالذات، بالاضافة إلى مولد الرسول عليه السلام، هو بعث روح العزة والنخوة في المسلم خصوصا وأنهم كانوا قريبين من العدوة الأندلسية التي كانت تشهد أحرجَ فترة من حكم المسلمين بها، والنصارى يعدون العدد للاجهاز عليها، والنيل من الاسلام رمز الوحدة والقوة، وكيفما كان الهدف، ففكرة الاحتفال قد تبناها الحاكمون في الأقطار الاسلامية عامة والمغربية خاصة، وأول من سن الاحتفال من المرينين هو أبو يوسف يعقوب[7]، ثم حرص من أتى بعده على اتباعه في هذه السنة، في كل الظروف حتى في أحوال الحروب والاضطراب الأمني[8]، بل إن يوم الاحتفال لم يبق مقتصرا على يوم المولد فقط، فاحتفلوا بليلة السابع منه[9].

إلا أن هذه الاحتفالات قد تطورت إلى حفلات المآدب ومجالس السمر والغناء، فافتقدت بذلك الوقار الديني والمغزى الذي من أجله دعي إلى هذا الاحتفال، مما جعل كثيرا من العلماء يتجنبون حضوره، ويرفضون تزكية هذه البدعة في نظرهم[10].

2 ـــ انتشار التصوف :

والمظهر الثاني : لسيادة الناحية الروحية، هو انتشار التصوف، وشيوع الزهد وذيوع الطرق الصوفية المختلفة، وهذا أمر لا بد وأن يكون له الأثر الكبير على الحياة الاجتماعية، واهتمامات الناس وتوجهاتهم ونظرتهم إلى الحياة والناس، وتصورهم

---

(5) المسند الصحيح ص 54

(6) وفيات الأعيان 1 : 481، ازهار الرياض 1 : 39 الاتحاف 2 : 175.

(7) نصح ملوك الاسلام مخطوط الخزانة العامة رقم ك 383 ص 42 ـــ 43.

(8) المسند الصحيح ص 55

(9) ازهار الرياض 1 : 39. ورقات ص 269.

(10) نيل الابتهاج : ص 193.

للسعادة الحقيقية، والهدف الذي يجب السعي إليه ؛ ولم يمل إلى هذا المنحى بسطاء الناس وعامتهم، ولكن لبس الرقعة وتصوف عدد كبير من الفضلاء على حد تعبير ابن قنفذ وقد حضر معهم اجتماعا بدكالة سنة 769 هـ، ومن هنا تصوف كبار العلماء وعلية المثقفين والفقهاء، فهذا ابن رضوان المالقي المقيم بفاس يصفه تلميذه يحيى السراج بأنه كان «محبا لأهل الدين معظما لهم ولمن ينتسب للصوفية قريب الذم لنفسه، لم أر في طريقته مثله»(11).

وفي أنس الفقير كثير من أخبار العلماء الزاهدين في الحياة، المتفانين في العبادة، حتى هؤلاء العلماء المشتغلين بالعلوم الطبيعية والتجريبية والعقلية(12) من مثل ابن البناء، وعبد الرحمن الهزميري... مما يدل على أن التصوف لم يلجأ إليه العجزة فكريا، أو ماليا، أو جسميا، ولكنه موجة عمت كل طبقات المجتمع وفئاته من علماء وفقهاء وعامة وملوك أيضا(13).

ولسنا في حاجة إلى الاسترسال في ذكر أمثلة لهيمنة التصوف في المجتمع المريني، وإنما نسير إلى ناحية جوهرية في التصوف لها علاقة بالرحلة أو السياحة الصوفية، بل يمكننا أن نعدها سببا من أسبابها وهي القضية التي أثارها جواب علماء فاس عن سؤال كيف الوصول إلى التصوف ؟ هل يكتفي المتصوف بالاعتماد على الكتب وحدها يستقي منها، أم لا بد من شيخ يرحل إليه ويأخذ عنه الطريقة، ويوجهه ؟ وكانت هذه المسألة مثار خلاف حاد بين المتصوفة، ووصل النقاش إلى درجة الشجار والضرب بالنعال في الأندلس(14).

وبحث المريد عن الشيخ وسياحته من أجل معرفة الحقيقة، وتعلم الطريقة الصوفية، جعلت رحلة المتصوفة ضرورية ودائمة، ولهذا تكثر في تراجم المتصوفة عبارات تفيد الرحلة المستمرة مثل ساح في الأرض، صاحب الشيخ في رحلته، رحل طلبا للحقيقة...

---

(11) فهرسة السراج ص 288 نيل الابتهاج ص 145 — 146

(12) أنس الفقير ص 66، 67

(13) النجم الثاقب ص 67 تحفة الزائر ص 3 جلب النعمة للتمبكتي ص 261. البستان ص 298.231

(14) المنهاج الواضح. ص 288، الحوادث والبدع لزروق ص 97. شفاء السائل ص 3 — 4.

3 ــ نسخ المصحف ووقفه :

ومن هذه المظاهر الروحية التي لها علاقة بالرحلة أيضا، ما شاع من الاقبال على نسخ المصحف ووقفه وإرساله إلى مساجد الأماكن المقدسة بمكة والمدينة المنورة والقدس، بالاضافة إلى المساجد بالمناطق المغربية المختلفة، وكما لاحظنا من قبل في التصوف، فإن هذا العمل لم يشتغل به الزهاد والفقهاء، فقط، بل إن حرص الملوك والمسؤولين على الاسهام في هذا المجال لا يقل عن غيرهم، فكانوا كلهم ابتداء من أبي يعقوب المريني يحرصون على أن يباشروا عملية النسخ باليد، والاشراف على التذهيب والتنميق قبل إرسال هذه المصاحف إلى المساجد الموقوفة عليها بالشرق[15].

وهذا يكشف عن هذه الروحانية التي تشبع بها الخاصة فضلا عن عامة الناس، ومثل هذا له أثره على الرحلة، فإلى جانب كونه حافزا للمجتمع على أن يتجه بكليته نحو الشرق ويرحل ليتملى بمصدر هذه الروحانية، ويشبع رغبته الدينية فإن بعث هذه المصاحف يكون مناسبة للكثيرين ليرافقوا ركبها المهيب، ومن أهم أمراء وسفراء هذا الركب ابن أبي مدين العثماني وابن جرار، وابن مرزوق[16].

4 ــ أشعار الشوق إلى الحجاز :

أما المظهر الرابع : لهذه الروحانية النافذة إلى الأعماق كثرة الاشعار التي عبر بها أصحابها عن هذا الحب المتأجج، حب الرسول عليه السلام وعن هذا الشوق إلى البقاع المقدسة، وسنرى في دراستنا لرحلات هذه الفترة بأنها تضم جزءا كبيرا من هذا الشعر الديني.

ويكفي أن نشير بشكل موجز إلى أن هذا الشعر الديني تمثل في ما قاله أصحابه في مناسبة المولد النبوي، فالشاعر اغتنم هذه الفرصة للتعبير عما يجيش في نفسه من حب مكين وعواطف جياشة نحو صاحب الذكرى، كقصيدة أبي يحيى العزفي التي نكتفي منها بهذين البيتين[17].

---

(15) المسند الصحيح ص 323. 327،تاريخ ابن خلدون 7 : 551.

(16) المسند الصحيح ابتداء من ص 324.

(17) القصيدة بكاملها في نثير الجمان ص 122 ــ 124

أومن سبيل للورود بزمزم كي ينقع الصادي لواعج غلته
أومن سبيل للحلول بطيبة يقضي بها المشتاق أقصى منيته

ويبدو الشاعر متعطشا للحلول بالبلاد المقدسة، يتحسر أسى وهو بعيد فأقصى ما يتمناه هو نزوله بطيبة.

ولقد انتشرت أشعار الشوق إلى البقاع المقدسة، والتغني بالحجاز، فلم يعد الشعراء ينتظرون حلول المولد النبوي ليعبروا عن هذا الشوق والهيام بل صاروا يفصحون عن هذه العواطف في كل المواقف. ولقد أكثر من القول في هذا المجال الشاعر ابن المرحل في معشراته وغيرها، ومن أبياته التي تظهر معاناته وتحرقه شوقا وحنينا وهياما قوله في معشراته[18] :

دوامع أجفاني إذا ذكر اسمه تفيض وما بي غير بعد محمد

وقوله :

ذوارف دمعي أيها الركب برحت بكربي فلم أبقى وراءكم فذا؟

وقوله :

طوافي ببيت الله ثم بقبره حضور بقلبي دون خطو ولا مط

ولقد تبين لنا مما سبق ذكره من هذه المظاهر المختلفة، أن الجو الاجتماعي يعبق بالعرف الروحي الذي تنسمته كل الطبقات الاجتماعية وانجذبت إليه كل الفئات، ومن هنا فالمواقف والأعمال تتكيف بهذه الحياة الروحية فلا تخرج عن إطارها، بل هي مقياس صحتها أو بطلانها، فكان لزاما إذن أن تتوجه الرحلة في المسير الذي لا يتعارض مع الدين، وأن تتحدد أهدافها ووجهاتها تبعا لما تمليه التربية الاسلامية، وتتكيف بهذا الجو الروحي العبق، فلا يعبأ الرحالة بما يواجهه من أخطار في طريقه، أو بما يقدم عليه من الغربة والبعد عن الأهل والوطن لأن الرحلة بهذا المفهوم تصبح واجبا دينيا تهون في سبيله كل التضحيات.

ومن استقرائنا لغايات الرحالة وأهدافهم التي تدخل ضمن هذا المجال الديني، وجدنا أن الرحلة كانت تتوخى إحدى الغايات والأهداف التالية :

---

(18) نشرت بتحقيق هلال ناجي في مجلة المورد السنة 9 العدد 4 ص 307 ــ 530.

1 ــ **الرحلة لتأدية فريضة الحج** : والقيام بالمناسك، وما يصحب ذلك عادة من زيارة قبر الرسول عليه السلام، والأماكن المقدسة التي لها اعتبار خاص عند المسلم.

وهذا الهدف الديني هو الذي استقطب أغلب الرحلات، فالرحلة إلى الشرق كانت تعني الحج في الأساس، إذ المتعارف عند المغاربة إلى الآن أنهم يقولون ذهب إلى الشرق ويعنون تأدية فريضة الحج، فالهدف الأول من الذهاب إلى الشرق هو الحج وزيارة البقاع المقدسة.

ولقد كان القيام بهذه الفريضة رغبة الجميع زمن المرينيين يقول ابن عباد : «المشي إلى الحج في هذه الأزمنة مما يعظم حرص الناس عليه، وتميل نفوسهم إليه، ويوثرون المشقة والقلة والغربة اللازمة له على الراحة والجدة والاقامة»[19]. وهذا سلوك طبيعي يتناسب مع ماقدمناه من وصف لهذا المجتمع الذي يضع الدين في المرتبة الأولى ويزن سلوكه، ويحدد مواقفه بميزان الدين وتعاليمه؛ومن هنا كان الرحالة مستعدا نفسيا لتجشم أخطار الطريق والبعد عن الأهل وبذل كل التضحيات إرضاء لعاطفته الدينية.

كما أننا وجدنا أن المسلم المغربي آنذاك لا يقنع برحلة واحدة إلى الحج، ولكنه بمجرد أن يعود إلى أرضه، تتأجج نار الشوق لديه فيشد الرحال من جديد[20] وقد لا يكتفي بحجتين أو ثلاث، فهذا أبو زكرياء يحيى الصنهاجي «له رحلة قديمة لقي بها الصدور ووعى كثيرا وحج عشر حجج وجاور سنين»[21] وهذا عبد العزيز اللمطي الفاسي «حج أزيد من ثلاثين حجة ومات بالمدينة»[22] وابن بطوطة نفسه، تعددت حجاته وأمضى فترة طويلة وهو يتجول حول الحجاز وقريبا منه حتى يتاح له الحج والعمرة متى حل الموسم، وهو الذي أصابه المرض وهو في الطريق ببجاية، فلم يتوان أو يتخلف عن حضور الموسم، مفضلا أن يدركه الأجل وهو في الحجاز[23].

---

(19) الرسائل الصغرى مخطوط الخزانة العامة د 1717 ورقة 29 ب.

(20) نفس المصدر ورقة30أ

(21) نيل الابتهاج ص 356.

(22) نفسه ص 183

(23) رحلة ابن بطوطة ص 12.

ولا نمر بهذه الظاهرة دون أن نذكر بأن هناك عوامل مساعدة لها أثرها في الاقبال على الحج، والرحلة للقيام به المرات العديدة، فإلى جانب العامل الأساسي الذي تحدثنا عنه، والذي يدخل ضمن المناخ الروحي، نجد موقف الملوك الذي اتسم بالتشجيع لكل من يرغب في الحج، فلقد أعطى أبو عنان ابن شاطر ألف دينار ليحج بها[24]، ونجد مبادرات أخرى لأطراف غير رسمية، مثل ما قامت عليه طريقة أبي محمد صالح من دعوة اتباعها إلى حج بيت الله الحرام، فشيخ الطريقة «هو الذي فتح الله تعالى طريق الحج من المغرب على يديه حتى حجه كل عاجز وقادر عليه»[25]. ولم يكتف هذا الشيخ بالدعوة إلى الحج والحث عليه في المغرب، بل قام أتباعه من بعده بهذه المهمة خارج المغرب، فسهلوا الصعاب أمام الحجاج، وأمدوهم بما يحتاجون إليه في كل من مصر والشام[26].

ومن العوامل المساعدة أيضا على الاكثار من عدد الحجات وتسهيل الرحلة إلى الحجاز، استحداث ركب الحاج الذي كان عاملا مشجعا للمغاربة على الرحلة عامة والحج خاصة، فكثير من الرحالة انضموا إلى الركب في وجهتهم المشرقية حتى في العصور الأخيرة بعد العهد المريني، فهذا أبو سالم العياشي في القرن الحادي عشر يستمهل الركب بسجلماسة حتى يلحق به[27]، ثم إن الركب كان فرصة للمشرفين عليه ــ وهم علية القوم وعلماؤهم ــ ليذهبوا إلى الحج مرات عديدة ويترددوا على المشرق والحجاز، خاصة في مناسبات مختلفة، فأبو الحجاج يوسف التسولي الدرنتاجي كان «أمير ركب الحجاج مترددا إلى بيت الله الحرام يحمل الناس إليه المرة تلو الأخرى، لقي في رحلاته أعلاما جلة[28].

وهناك عامل مساعد آخر لا يقل أهمية عما سبق، ويتمثل في طبيعة العلاقة المغربية المشرقية، أو الصلات الودية التي كان الطرفان معا يعملان على تمتينها والابقاء عليها، فقد كان كل طرف مطلعا على ما يجري في الجهة الأخرى للطرف الآخر، بل أنه

---

(24) نفح الطيب 5 : 272.

(25) المنهاج الواضح ص 158.

(26) نفسه ص 353.

(27) رحلة العياشي 1 : 7.

(28) فهرسة السراج ص 230.

يبدي رأيه، ويشير بما يجب عمله وذلك عن طريق المراسلات[29]، وبعث السفارات[30] التي غالبا ما تكون مصحوبة بالهدايا الثمينة، وكان ركب الحجاج المغاربة في الغالب، يقوم بحمل هذه الرسائل والهدايا[31].

2 ــ الرحلة إلى الأماكن المقدسة بالشام : فلقد عرف عن الرحالة المغاربة أنهم كانوا يقصدون كلا من دمشق والقدس مع أنهما ليسا في طريق الحج من المغرب، فماهو سبب ميلهم إلى زيارة هذه الأماكن ؟ هل تلهفهم إلى زيارة الشام عامة والقدس خاصة يعود إلى ما تناقلته كتب الحديث من أحاديث نبوية كريمة في فضل الشام ؟ مثل حديث الرسول عليه السلام «إذا هلك الشام فلا خير في أمتي»[32] ؟ أم إن حرصهم على هذه الزيارة يرجع إلى «أن الشام ودمشق خاصة كان لها اسم رنان من النواحي السياسية والدينية والعلمية»[33] ؟

ولا نستبعد الاحتمالين معا، فلم تحظ منطقة خارج الجزيرة العربية بمثل ما حظيت به الشام من الاهتمام، بما روي في فضلها من أحاديث نبوية عديدة، كما أنها حاضرة في الذاكرة العربية والاسلامية لماضيها السياسي المشرق وريادتها العلمية والثقافية لفترة طويلة ولذلك استأثرت باهتمام الكثير من العلماء الذين صنفوا كتبا كثيرة[34] في بيان فضلها ومركزها...

ولكني أعتقد أن الذي جعل الرحالة المغاربة يتجهون صوب هذه المناطق ويزدادون تعلقا بها، يتمثل في عاملين هامين ، أولهما مكانة القدس في نفوس المغاربة باعتبارها أولى القبلتين، ومدفن الكثير من الأنبياء، فزيارتها لا تقل عن زيارة الأماكن المقدسة في الجزيرة العربية، لذا خصها الملوك المرينيون بجملة مهمة من المصاحف التي بعثوا بها إلى الشرق، بالاضافة إلى أن السفارات والبعثات التي كانت تحمل

---

(29) صبح الأعشى 8 : 99. 103.

(30) أهم هذه السفارات في كتاب ورقات ص 137 وما بعدها.

(31) الأنيس المطرب ص 387، ركب الحاج ص 29.

(32) فضائل الشام للربعي ص 9.

(33) المشرق في نظر المغاربة والأندلسيين ص 20.

(34) ذكر صلاح الدين المنجد 16 تأليفا في فضائل الشام. انظر مقدمة تحقيق فضائل الشام.

هذه المصاحف والهدايا والأوقاف[35] تتيح فرصا للكثير من الرحالة المغاربة كي يسيروا مع الركب وفي حمايته إلى القدس الشريف، بل أن منهم من كان يقطن ويجاور بجانبه حتى أصبح لهم حي هناك لازال يدعى حي المغاربة[36].

وأما العامل الثاني فيتجلى فيما كان يقصه العائدون المغاربة من الشرق من أحاديث عن تمثال النعل النبوية التي كانت بدار الحديث الأشرفية بدمشق[37]، وممن وقف عليها من الرحالين المغاربة ابن رشيد والوادياشي[38] فأصبح لها اعتبار عند المغاربة، واحتلت حيزا من فكرهم وأحاسيسهم وعواطفهم فرويت لهم أشعار كثيرة في هذا الموضوع أثبت بعضها المقري في كتابه فتح المتعال.

ونتيجة لنظرة التقديس لها «فقد كان أهل دمشق يستشفعون بهذه النعل النبوية عند نزول المعضلات فيرون بركتها»[39]، فلا عجب إذا وجدنا المغربي يتشوق إلى رؤيتها، ويقتحم الصعاب،ويتحمل المشاق من أجل هذا الهدف فيرحل إلى دمشق يقصد دار الحديث الأشرفية، ولكي يبقى قريبا منها ليتردد عليها باستمرار فإنه يطيل الاقامة ويوثر الجوار في دمشق أو في المدن الشامية الأخرى.

3 ــ السياحة الصوفية :

وكان هناك هدف ثالث اتجه إليه الرحالة المغاربة، واستقطب العديد منهم، وهو هدف أملاه الزهد الذي كان شائعا كما ذكرنا، فخرج أغلب المتصوفة أو كلهم في رحلات صوفية أطلقوا عليها السياحة[40] وهي جولات يتوخى الرحالة منها كشف الحقائق، والاجابة عن التساؤلات فيشد الرحال في سياحة طويلة للعثور على شيخ يوجهه في مسيرته الروحية، ويأخذ عنه أصول الطريقة، يقول أحمد زروق

---

(35) دعوة الحق سنة 22 عدد 5 ص 129. 131 مقال عبد الهادي التازي.

(36) نفس المجلة والعدد ص 43 مقال أبي بكر القادري.

(37) ازهار الرياض 3 : 272.

(38) درة الحجال 2 : 103.

(39) فتح المتعال ص 362.

(40) استعمل هذا المصطلح في أغلب كتب المتصوفة انظر مثلا : المقصد الشريف ص 82. 101، المنهج الواضح ص 283. المدخل لابن الحاج 4 : 53. 57، أنس الفقير ص 93 ــ 107 مخطوط الخزانة العامة رقم د 2100 ص 279. رحلة أبي يعقوب البادسي مخطوط الخزانة الملكية ص 232، نيل الابتهاج ص 303.

موضحا الهدف من رحلته : «طفت مشارق الأرض ومغاربها في طلب الحق، واستعملت جميع الأسباب المذكورة في معالجة النفس»[41] وهكذا لم يفتأ يرحل إلى بلدان عديدة شرقا وغربا إلى أن وافاه أجله بمسراته في الصحراء الليبية بعد أن «طاف وساح وركب الأهوال ولزم العبادة»[42].

وقوافل المتصوفة لم تتوقف في كل الأحوال والظروف، بحثا عن الشيوخ وطلبا للحقيقة، والسند الصوفي فكان الهدف هو إشباع الرغبة في الهيام بالله، والتفاني في عبادته. أفصح عن هذا ابن ميمون الغماري قائلا : «وكنت قد خرجت من فاس المذكورة متوجها إلى المشرق والله أعلم في جمادى الاخرة سنة إحدى وتسعمائة قاصدا طلب الأخرة»[43]

وقادته رحلاته هذه، من أجل ما يوصل إلى الآخرة، إلى دمشق بالشام حيث اشتهر أمره وعلا قدره بين المتصوفة مما من به عليه «من علوم الأسرار اللوحية الكاشفة للخجب من معاني الآي القرآنية، والأحاديث النبوية»[44] فصار لذلك مقصد طلاب الحقيقة من المغرب والمشرق.

وقد تكون الرحلة بهدف الاتصال بالشيوخ المتصوفة من أجل التبرك بلقائهم والفوز بدعواتهم الصالحة، فابن بطوطة يقطع المسافات والمراحل للتبرك بولي ذكر له، أو متعبد منقطع في زاوية أو خلوة[45].

أو قد تكون الرحلة إليهم لمصاحبتهم، والتعبد معهم، والاقتداء بهم والتخلق بأخلاقهم، فهذا أبو زيد عبد الرحمن القرموني يرحل إلى مكناس لمصاحبة الشيخين أبي محمد عبد الله بن حمد، وأبي عبد الله محمد بن عمر بن الفتوح التلمساني فلازمهما هناك تسعة أعوام[46]، ولازم أحمد بن إبراهيم الازدي الولي أبا مروان

---

(41) البستان ص 50.

(42) المخطوط د 2100 ص 279.

(43) رسالة الاخوان ص 2.

(44) نفسه ص 5.

(45) رحلة ابن بطوطة ص 268.

(46) فهرس ابن غازي ص 80.

اليمانسي في رحلته إلى المغرب(47)، ونفس الهدف دفع يحيى الشاكري إلى ملازمة أبي يعقوب البادسي في رحلته المشرقية(48)، وهكذا كنا لا نجد شيخا صوفيا إلا وله مريدوه يرافقونه أينما حل وارتحل.

وكما تعلق الناس بالشيوخ الاحياء في زواياهم وأماكن عبادتهم، قصدوا الأولياء الأموات في أضرحتهم، فابتداء من القرن الثامن الهجري، أصبح التبرك بالأولياء والأضرحة يعتبر من القربى، يلجأ الناس إلى أضرحتهم كلما حل بهم أمر، أو شعروا بضيق أو طلبوا فرجا من كربة، أو أرادوا أن يستخيروا في أمر لم يهتدوا فيه إلى جواب شاف، فهذا الرحالة المتصوف أحمد زروق الذي أكثر من زيارة الأولياء وملازمة أضرحتهم يخبرنا بأنه «كان إذا زار أبا مدين وجد الرحمة وأحس بالفيض، وخاطبه الشيخ من قبره»(49)، ولم يكن زروق وحده يعتقد هذا الاعتقاد، ولكنه كان مناخ العصر، تأثر به الكل وانطبع به الجميع، فهذا أبو عبد الله محمد بن سودة زار ضريح الشيخ عبد السلام ابن مشيش سبعين مرة(50).

وكلما تقدمنا في الزمن وجدنا أن تعلق الناس بالأضرحة يزداد تمكنا من نفوسهم، وتشتد رغبتهم في زيارتها، ويتأكد اعتقادهم في نفعها، فتخرج الوفود للزيارة والتوسل، يتحدث الحسن الوزان عن مزار الشيخ أبي يعزى الذي كان له شأن في المغرب عامة وفاس خاصة قائلا : «يخرج أهل فاس لزيارة هذا الضريح بعد عيد الفطر من كل سنة في جموع كثيرة، رجالا ونساء وأطفالا وكأنهم جيش زاحف»(51)، وكان يتقدم هذه الجموع المتصوفة والزهاد، وقد تستلزم مثل هذه الزيارات في بعض الأحيان الرحلة الطويلة، تقطع فيها المسافات البعيدة ويتغرب فيها عن الأهل والأوطان الزمان الطويل، فهذا عالم من بغداد يتجه نحو المغرب في رحلة طويلة لزيارة أولياء المغرب(52).

---

(47) تحفة المغترب ببلاد المغرب ص 19.

(48) الوسيلة في كرمات أبي يعقوب مخطوط الخزانة الملكية رقم 9447 ص 244.

(49) مخطوط الخزانة العامة رقم د 2100 ص 279.

(50) الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية بشفشاون وأحوازها ص 285.

(51) وصف إفريقيا 1 : 162.

(52) الحياة السياسية : بشفشاون ص 288.

وكان هناك هدف صوفي آخر يدفع متصوفة هذه الفترة للرحلة، ألا وهو السعي إلى حضور المواسم التي يجتمع فيها الزهاد والعباد، وذلك للذكر والتلقي، والظاهر أن هذه المواسم قد كثرت في العصر المريني تكاثر الطرق الصوفية نفسها، لأن كل طريقة لابد وأن يجتمع مريدوها سنويا على الأقل، فابن قنفد يحدثنا عن الموسم الذي حضره بدكالة بأنه قصده كثير من الفضلاء على حد تعبيره[53]، فحضور المواسم والاجتماعات بهذه الكثرة يعكس المستوى الروحي للمجتمع الذي يوجه العبادة ضمن طوائف وطرق صوفية، وينمي الاعتقاد بنفع الشيخ ودعواته، فالسعي إلى هذه المواسم يكون للتبرك أولا وللأخذ عن الشيوخ ثانيا، يقول أحمد زروق : «وكان شيخنا أبو عبد الله القوري رحمه الله يقول إذا كانت الرحمة تنزل عند ذكر الصالحين فكيف بزيارتهم ومحل اجتماعهم على ربهم»[54].

4 ـ الرحلة الجهادية :

ويمكن أن تدخل ضمن الرحلات التي كان الباعث الديني هو المحرك لها والدافع إليها، رحلتهم إلى الجهاد في سبيل الله، وتصبح واجبا دينيا تشتد إليه الحاجة ويفرضه الوضع الأمني حينما ينال العدو من المسلمين أو يهدد المقدسات والمصالح العليا للأمة.

ولقد كانت الفترة المرينية فترة حرجة، ازداد فيها تكالب المسيحيين على البلاد الأندلسية واشتد طمعهم في الاستيلاء على الشواطىء المغربية، فتعالت أصوات الاستغاثة، وكثرت النداءات الداعية إلى إزالة الأذى ورد الاعتداء والضيم، فالتراث الأدبي والفقهي للأندلس والمغرب في هذه الفترة حافل بالقصائد والخطب والفتاوي التي تحث على الجهاد وتستصرخ المسلمين للذب عن حمى الوطن والمسلمين[55]. وهكذا ندب الناس أنفسهم لهذه المهمة سواء من العامة أو الخاصة فرحلوا من أجل الجهاد ومحاربة الأعداء في العدوة الأندلسية، وداخل المغرب أيضا. فابن بطوطة لم يرحل للأندلس إلا من أجل هذه الغاية يقول :

---

(53) أنس الفقير ص 71.

(54) الحوادث والبدع ص 153.

(55) انظر مثلا الذخيرة السنية ص 98. 102. 112. 140. 152، ازهار الرياض 1 : 47. 50، 3 : 3، 207 النفح 1 : 186 ـ 190.

«وتوجهت إلى مدينة سبتة فاقمت بها أشهرا، وأصابني بها المرض ثلاثة أشهر ثم عافاني الله فأردت أن يكون لي حظ من الجهاد والرباط، فركبت البحر من سبتة في شطي لأهل أصيلا، فوصلت إلى بلاد الأندلس حرسها الله تعالى حيث الأجر موفور للساكن، والثواب مذخور للمقيم والظاعن، وكان ذلك إثر موت طاغية الروم الفونس وحصاره الجبل عشرة أشهر وظنه أنه يستولي على ما بقي من بلاد الأندلس للمسلمين»(56).

ومن ثمار هذا الصدام مع العدو، وسلسلة الجهاد المتشابكة، رحلة عبد العزيز الملزوزي الجهادية بعنوان «طرفة الطريف في أهل الجزيرة وطريف»(57) ألفها في جواز من جوازات أبي يوسف يعقوب المريني إلى الأندلس، ولقد جاز أبو يوسف هذا إلى الأندلس أربع مرات كان الملزوزي يصاحبه في كل هذه الجوزات فهو شاعر الدولة المسجل لمفاخرها، والمعلي لمآثرها وأمجادها، ولقد كانت هذه الفترات الجهادية مناسبة للقول والاكثار من الشعر والنظم، فأثناء هذه المعارك ألف كتابه : «نظم السلوك» الذي لا يخلو من ملامح الرحلة أيضا.

ولقد اقتصرت الرحلة في الفترة الأخيرة من الدولة المرينية، أو كادت ــ كما سنرى ــ على السعي إلى الجهاد، حين بدا الخطر يهدد كيان الدولة الاسلامية بالأندلس والمغرب معا، وأعلن الغزو الصليبي على المسلمين والممتلكات والمقدسات، واحتلت مناطق كثيرة، واشتد الخناق على المدن والثغور البحرية فكان طبيعيا ألا يفكر المغربي إلا في الرحلة لمقاومة العدو، والاسهام في هذه الحرب التي يمليها الواجب الديني. ولذلك نشطت في هذه الظروف هذه الرحلة الجهادية، فلقد قطع أبو محمد عبد الله الورياجلي(58) رحلة نحو المشرق التي كان قد شرع فيها حيث انقلب راجعا من تلمسان نحو المناطق الاسلامية المهددة في شمال المغرب والأندلس للدفاع عنها، والابلاء البلاء الحسن، والرغبة في الاستشهاد ولقد كان آخر عمل ابن غازي في حياته، هو جهاده في سبيل الله، ورد هجمات الأعداء على الشواطىء المغربية(59).

(56) رحلة ابن بطوطة ص 651 وانظر أيضا ص 395.

(57) مجلة كلية الآداب بالرباط العدد الأول ص 7 ــ 49 مقال الأستاذ بن شريفة.

(58) دوحة الناشر ص 30 ــ 33. نيل الابتهاج ص 159. درة الحجال 3 : 54. الاستقصا 4 : 113 ــ 114.

(59) دوحة الناشر ص 45ــ47، نيل الابتهاج ص 272

5 ـ السياحة العامة :

والجولة الواسعة التي تعتبر رحلة ابن بطوطة نموذجا لها، لم تكن أيضا خارجة عن هذا الاطار الديني، فليس من المبالغة أو التعسف إذا اعتبرنا باعثها ومحركها من الدين واليه، ينسجم هذا مع ما ورد في آيات قرآنية وأحاديث نبوية من حث على الضرب في الأرض والتعرف على البلدان المختلفة من أجل الأهداف الدينية أو العلمية أو للنفع العام...، أو من أجل الاعتبار والاتعاظ...

وابن بطوطة نفسه، صاحب الرحلة الممتدة في الزمان والمكان، لم يتردد في الاعراب عن هذا الباعث الديني المرة تلو الأخرى، فمنذ بداية الرحلة إلى نهايتها يبدو هذا الامتثال للدين والانقياد لتعاليمه في كل ما ياتيه من قول أو عمل أو أي موقف كان، نصل إلى هذه النتيجة بالامعان في ألفاظ الرحلة وأفكارها.

فابن بطوطة يصرح في مقدمة رحلته بأنه خرج من بلده طنجة للوجهة الحجازية «معتمدا حج بيت الله الحرام، وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام»(60).

وأثناء سفره يصاب بحمى، وهو في مدينة بجاية قريبا من مسقط رأسه، فكان بإمكانه العدول عن هذا السفر، بالبقاء هناك كما أشار عليه رفقاؤه، أو بالتفكير في طريقة العودة إلى وطنه، لكنه أبى إلا أن يواصل الرحلة قائلا «إن قضى الله عز وجل بالموت فتكون وفاتي بالطريق، وأنا قاصد أرض الحجاز»(61).

وفكرة الرحلة الواسعة لم تخطر بباله، ولم تكن في مخططه، وهو يغادر بلده طنجة إلا بعد أن أوعز إليه بها في مصر الشيخ الزاهد الورع الخاشع برهان الدين الأعرج، حيث تنبأ له بتوفيق الله له في السياحة والجولان في البلاد وزيارة الهند والصين، فشعر ابن بطوطة حينئذ برغبة ملحة في توسيع هذه الرحلة عبر عن ذلك بقوله : «والقي في روعي التوجه إلى تلك البلاد»(62).

ثم تأتي الرؤيا التي رآها وهو نائم بسطح زاوية أبي عبد الله المرشدي في مصر أيضا، فتجعله متحمسا أكثر لفكرة الجولة الواسعة خاصة بعد أن أكد هذا الشيخ

---

(60) رحلة ابن بطوطة ص 10.

(61) نفسه ص 12

(62) نفس المصدر ص 20

صحة تأويل الرؤيا المذكورة، وتنبأ له بالرحلة الواسعة قائلا : «سوف تحج وتزور النبي صلى الله عليه وسلم، وتجول في بلاد اليمن والعراق وبلاد الترك، وتبقى بها مدة طويلة»[63].

ويتجلى الباعث الديني للرحلة في هذا الشوق الدائم إلى الحجاز، ورغبته في البقاء بالمناطق القريبة منه حتى يمكنه تأدية الحج والعمرة متى حل الموسم[64]. وإكثار ابن بطوطة من أخبار الزهاد والأولياء، وزيارته للأضرحة[65]، ثم إقدامه على التصوف والزهد مرتين وفي موقفين مختلفين، دليل آخر على أن الرحلة من الدين وخادمة له[66]

ب ـــ الباعث العلمي :

وهذا الباعث أيضا له صلة بالباعث الديني أو هو نتيجة له، لأن طلب العلم مرغوب فيه مثاب عليه في الاسلام، فلقد قال رسول الله ـــ ص ـــ : «من خرج من بيته ابتغاء العلم وضعت الملائكة أجنحتها له رضا بما يصنع»[67]، ومن هنا اهتم العلماء منذ القديم بالرحلة، فقطعوا الصحاري بحثا عن فائدة أو رجاء لقاء عالم، أو رغبة في تصحيح مسألة. حتى أصبحت الرحلة أمرا لازما للعلم عامة، وللحديث خاصة، والأمثلة على هذا من تراثنا الحافل كثيرة متعددة فلقد قال عبد الله بن مسعود «ماأنزلت آية إلا وأنا أعلم فيما أنزلت ولو أنني أعلم أن أحدا أعلم بكتاب الله مني تبلغه الابل والمطايا لاتيته»[68]

ولقد أورد ابن العربي مسألة من مسائل الخلاف في بعض كتبه حررها وهو في العراق وقال : «لو لم أظفر في رحلتي إلا بهذه المسألة لكفتني»[69]. ورحلته

(63) نفسه ص 25 ـــ 26.

(64) رحلة ابن بطوطة ص 518.

(65) نفسه ص 241.

(66) نفسه ص 239 517 518.

(67) أخرجه كثير من رواة الحديث. انظر الرحلة في طلب الحديث ص 83

(68) الرحلة في طلب الحديث ص 95.

(69) محاضرات المجمع العلمي بدمشق ج 3 ص 320 بحث محمد الخضير حسين.

هذه استغرقت سنوات لقي فيها نصبا ومخاوف، كما يذكر هو نفسه عن تجربته العلمية «وقد شاهدت من طلب العلم بافريقية ومصر والشام والساحل[70] والعراق والحجاز ما لا يأتي عليه الاحصاء، ولا ينال بالاستقصاء»[71].

ورغبة الطلب هذه هي التي دفعت ابن تومرت أيضا إلى الاغتراب والضرب في الأرض متنقلا من مركز علمي إلى آخر إلى أن انتهى إلى بغداد[72]، وعبد المومن كذلك كانت وجهته الشرق لطلب العلم واستكمال المعرفة، لولا أنه التقى بابن تومرت في ملالة بالمغرب الأوسط فأثناه عن عزمه بعد أن توسم فيه الرجل الذي كان يبحث عنه للقيام بأعباء الدولة»[73]

فماهو حال الرحلة العلمية في العصر المريني ؟

إن أهم ما يتميز به العصر، والفترة الأولى منه على الأخص، هو أنه عصر حركة وتجوال ورحلة ونشاط فكري، فلم يعرف العلماء استقرارا بمكان معين، بل جابوا الأقطار العديدة وقصدوا المراكز الثقافية التي كانت تغص بالعلماء، وساد الاقتناع بأن «الرحلة لابد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ، ومباشرة الرجال»[74]، وهذا ما جعل الرحلة تكاد تكون شرطا من شروط التحصيل، وبلوغ درجة عليا في المعرفة والتفوق، فكتب التراجم تكتفي أحيانا في التعريف بالعلماء بعبارة «وله رحلة، أو رحل في طلب العلم» لاظهار منزلته العلمية ودرجته الفكرية، ومن هنا كان العالم يرحل لرواية حديث أو لقاء عالم، أو التعرف على مناهج جديدة أو الحصول على كتب يرغب في الاطلاع عليها... وربما تكون الرحلة نتيجة إخفاق علمي أو شعور بالعجز في نقاش أو حوار... فهذا الامام صديق بن محمد تغل قد ارتحل إلى تنبكتو بعد أن تبين خطأه في تصوير مسألة فقهية نبهه إلى ذلك أحد الذين درسوا على علماء تنبكتو[75].

---

(70) موضع من أرض العرب بعينه، معجم البلدان 3 : 170.

(71) المخطوط بالخزانة العامة رقم 1020 د ورقة 27، انظر مجلة المناهل 9 : 158.

(72) المعجب ص 262 — 270، دائرة المعارف الاسلامية1 : 106.

(73) أخبار المهدي بن تومرت ص 16 — 17.

(74) مقدمة ابن خلدون ص 1045.

(75) فتح الشكور ص 154

وابن رشيد يشعر بالأسف وهو يرحل يوما لأنه لم يكمل قراءة كتاب على شيخ أو لم تتيسر له كتابة بعض الفوائد لعائق السفر(76).

وهذا عبد الرحمن بن محمد الثعالبي (ت875 ه / 1470 م) كانت غايته من رحلته إلى الشرق ـــ كما يذكر عن نفسه ـــ هي طلب العلم(77) فقط، فالرحلة في طلب العلم هي الهدف الذي كان ينشده علماء هذا العصر فلا يستعاض عنها بغيرها كالاستجازة أو المراسلة إلا عند انعدام القدرة وانتفاء الأسباب، يظهر هذا مثلا في الاستدعاء الذي حمله ابن رشيد يستجيز فيه أبو الفضل التجاني علماء سبتة، مفصحا، على أن أمله كان هو الالتقاء المباشر يقول :

وعدتنـــا آمالنـــا بلقـــاكم ولعـــل الأيـــام تـــدني نجازه(78)

ويبدو هذا من طبيعة الرحلات المدونة حيث اتسمت بالطابع العلمي التوثيقي، يمكن أن نلاحظ هذا في رحلات ابن رشيد، والعبدري، والتجيبي، والبلوي، وابن خلدون، والقلصادي... ومن أتى بعدهم في الأعصر التالية، فهذا أبو سالم العياشي في القرن الحادي عشر يحدد هدفه من تدوين رحلته قائلا : «وقصدي إن شاء الله من كتابة هذه الرحلة أن تكون ديوان علم لاكتاب سمر وفكاهة»(79).

وإذن فالرحلة كانت تعني الطلب والدراسة، وصار من المالوف أن تتجه الرحلة في أغلب الأحوال إلى الشرق للتلمذة والأخذ عن علمائه، وهذا شيء طبيعي ومشروع، فالشرق منبع كل فضيلة ومنه شع قبس العلوم والمعرفة، ولهذا كان لابد وأن يكون الحجاز منتهى سفرهم كما يذكر ابن خلدون(80).

ومع الأيام بدأ يتقلص حجم المغربي أمام تضخم الشرقي بورم الشعور بالتفوق الذي صار يقتنع به المغربي نفسه، ولقد سجل ابن خلدون هذه الظاهرة قائلا : «فأهل المشرق على الجملة أرسخ في صناعة تعليم العلم، بل وفي سائر الصنائع

---

(76) رحلة ابن رشيد 3 : 48 ب

(77) نيل الابتهاج ص 173.

(78) رحلة ابن رشيد 7 : ورقة 46 أ

(79) رحلة العياشي 1 : 5.

(80) مقدمة ابن خلدون ص 805.

حتى أنه ليظن كثير من رحالة أهل المغرب إلى المشرق في طلب العلم أن عقولهم على الجملة أكمل من عقول أهل المغرب، وأنهم أشد نباهة وأعظم كيسا بفطرتهم الأولى وأن نفوسهم الناطقة أكمل بفطرتها من نفوس أهل المغرب، ويعتقدون التفاوت بيننا وبينهم في حقيقة الانسانية، ويتشيعون لذلك، ويولعون به، لما يرون من كيسهم في العلوم والصنائع، وليس كذلك»[81]، فالاهتمام المغربي كان منصبا على كل ما يفد من الشرق العربي، وكان الاعتقاد السائد هو أن الشخصية العلمية المغربية لا تكتمل إلا بالأخذ عن المشارقة والتتلمذ عليهم، وهذا هو سر كثرة الرحلات نحو المشرق وقلة الرحلات الشرقية نحو المغرب، فالمقري ذكر 307 راحل اندلسي إلى المشرق بينما لم يذكر من الرحالة المشارقة إلا حوالي 86 راحلا فقط، ولا يفسر هذا إلا بشعور المغاربة بالتلمذة للمشارقة، فالضرورة تدعو إلى شد الرحال إليهم، ولو بعد المكان وطال الزمان، لأن التلمذة هي مطمح المغاربة، فلا بد من ربط سندهم العلمي بهم إما بالمشافهة والدراسة عليهم، أو بالاستجازة... وهكذا الفنا أن نجد الرحالة يحمل معه استدعاء لجمع إجازات علماء المشرق لمغاربة لم يتمكنوا من الرحلة، فابن رشيد يستجيز لعلماء سبتة[82]، وأحمد زروق يستجيز لعلماء جلة فيهم ابن غازي وولده، وأبو العباس الونشريسي...[83]

ولا نستطيع أن نرجع سبب هذا التهافت على كل ما هو مشرقي إلى تفوق الشرق فكريا وعلى الأخص مصر، كما يرى كراتشوفسكي[84]، فهذا لا يقره التاريخ ولا يؤيده ما نعرفه عن مستوى علماء المغرب كما سيأتي، فمن المؤكد أن تأثير المغاربة في مصر عن طريق الرحلة كان أبعد أثرا «فبتأثير الجوار والرحلة انتقل المذهب المالكي إلى الاسكندرية وساد فيها، لهذا نرى أن عددا كبيرا من علماء الاسكندرية في العصر الاسلامي ــ المصريين منهم والمغاربة ــ كانو مالكيي المذهب»[85]، كما أنه لهذا السبب أيضا نلاحظ سيادة المذهب الأشعري في مصر باعتباره مذهبا رسميا وحلوله محل المذهب الشيعي الذي كان قد فرضه الفاطميون[86].

(81) مقدمة ابن خلدون ص 775.

(82) الاستدعاء الكبير مخطوط بخزانة القرويين نشره، ابن الخوجة في رحلة ابن رشيد 3 : 463

(83) فهرس ابن غازي ص 128، فهرس الفهارس 1 : 289.

(84) تاريخ الأدب الجغرافي 1 : 405.

(85) الكتاب الذهبي لجامع القرويين ص 95 بحث د جمال الدين الشبال مجلة دعوة الحق سنة 4 عدد 1 ص 48.

(86) المجلة المصرية عدد 87 ص 10 بحث د. طه الحاجري.

كما أننا نجد بعض الأمثلة في كتب التراجم والتاريخ تبين عن تأثير مغربي في المشرق عامة ومصر خاصة، فإلى جانب الفقه نجد أن لابن أبي الربيع السبتي النحوي أثرا في مصر. فهذا ابن النحاس يهتم بالاطلاع على مؤلفاته[87] وفي التصوف كان لأبي محمد صالح مريدون بالشرق، فلقد كتب إليه الفخر الفارسي «كتابا يقول فيه كيف الوصول إلى الطريق»[88] وما الطريق الشاذلية بمصر إلا نتيجة لهذا التأثير المغربي في المشرق.

وإذن فهذه الأمثلة، وكثير غيرها، مما يدحض مثل هذا التفوق ويظهر بأن هناك حالات استطاع فيها المغاربة أنفسهم إثبات تفوقهم على المشارقة والتخلص من عقدة النقص والتلمذة، نجد ذلك في تراجم الكثيرين منهم ممن درسوا بالشرق أو ناظروا، أو اشتغلوا بالقضاء، أو أدلو بآراء نالت إعجاب المشارقة، ورفعت منزلتهم عندهم.

ويمكننا الاستدلال على تكافوء الطرفين المشرقي والمغربي، وأحيانا تفوق الجانب المغربي ورجحانه، بجملة أمور :

1 ــ إن الرحلة لم تكن إلى المشرق فقط بل كانت هناك رحلات إلى جهات أخرى كالعدوة الأندلسية، فلقد ترجم ابن الخطيب لأكثر من أربعين منهم ينتمون إلى هذا العصر وحده، وطبعا لم يرحلوا كلهم من أجل الدراسة والتحصيل فمنهم من رحل للسفارة، أو العمل. ولكن في كل الأحوال كان هناك اتصال بين الأندلسيين والمغاربة أتاح الاحتكاك الفكري، ونظرا للتجاوب الذي كان قائما بين الأندلس والمغرب، وحرية التنقل واشتغال كثير من المغاربة في العدوة الأندلسية نسب الكثير من هؤلاء المغاربة إلى البلاد الأندلسية مثل أبي القاسم الشريف السبتي (الغرناطي)[89]، وأبي القاسم الصنهاجي (الجزيري)[90] وغيرهما.

ولكن الأهم من ذلك هو أن العلاقات الثقافية بين العدوتين كان يطبعها التبادل والتعاون، فكما ارتحل المغاربة إلى الأندلس اتجه الأندلسيون نحو العدوة المغربية يحدو البعض منهم طلب العلم والفائدة، ولا نستطيع حصر كل الذين رحلوا، فهم

---

(87) رحلة ابن رشيد 3 : 108 تحقيق ابن الخوجة.

(88) المنهاج الوضح ص 288 ــ 289

(89) المرقبة العليا ص 171.

(90) النبوغ المغربي 1 : 146.

كثيرون، منهم ابن جزي كاتب تحفة النظار، وابن عاشر الأندلسي السلوي، وتلميذه ابن عباد الرندي، وأبو الحسن النباهي وابن زمرك، وابن الخطيب، وابن الأحمر االأديب...مع العلم أن الكثير منهم اكتمل تكوينه العلمي بالمغرب أو أخذ عن علمائه فقد تتلمذ أبو القاسم ابن جزي (ت741 هـ / 1340 م) على كل من ابن رشيد السبتي، وابن الشاط وابن برطال[91]، وقرأ محمد بن إبراهيم بن محمد السياري البياني (ت753 هـ / 1352 م) أيضا على كل من ابن رشيد وأبي الوليد الحضرمي وابن الشاط[92].

وكان أبو إسحاق الشاطبي لا يعتمد على كتب المتأخرين كابن بشير وابن شاس وابن الحاجب ومن بعدهم، بناء على نصيحة القباب الذي كان يقول عنهم بأنهم أفسدوا الفقه[93].

ولما دخل أبو الحسن على بن محمد الشاري السبتي (ت649 هـ / 1251 م) الأندلس وكان قد استكمل تكوينه العلمي بسبتة وفاس «أخذ عنه بها عالم كثير وأقرأ بها القرآن لمن قصده»[94] وأبو الحسن هذا هو الذي «تحصل عنده من الأعلاق النفسية وأمهات الدواوين العلمية ما لم يكن عند أحد من أبناء عصره»[95]

ويجدر بنا أن نسجل ظاهرة مهمة وهي أن المغاربة الذين رحلوا في هذا العصر الذي ندرسه، كان لهم التفوق العلمي على الأندلسيين أحيانا، فنالوا الاهتمام، وغصت حلقات دروسهم بالتلاميذ والمعجبين.

وأخبار ابن رشيد وأبي القاسم السبتي مشهورة، وعبد القادر بن سوار المحاربي (ت764 هـ / 1362 م) الذي كان لمحاضراته بغرناطة في الأدب العربي الوقع الحسن[96]، وأبي عبد الله محمد الكرسوطي التميمي الذي دخل إلى غرناطة فوصفه

---

(91) الديباج ص 295،

(92) نفس المصدر ص 297.

(93) نيل الابتهاج ص 50، المعيار 11 : 142 ورقات ص 218.

(94) صلة الصلة 7 : 51.

(95) نفس المصدر 7 : 152.

(96) الاحاطة 4 : 28.

ابن الخطيب بما يدل على الاعجاب الشديد بأنه «يفيض من حديث إلى فقه، ومن أدب إلى حكاية ويتعدى ذلك إلى غرائب المنظومات»[97].

2 ـ وكان يقع الاكتفاء بالرحلة إلى تونس، لم يتجاوزها بعض المغاربة إلى غيرها، فابن شبرين «كانت له رحلة إلى تونس، اتسع بها نطاق روايته وتقلب بين الكتابة والقضاء»[98]، وهذا يدل على أن الرحلة العلمية لم تكن أحيانا إلى المشرق، ونفس الشيء يقال في محمد بن عبد الرزاق الجزولي، شيخ ابن خلدون، الذي رحل إلى تونس فأخذ عن شيوخها، وتفقه عليهم، ثم رجع إلى المغرب فتولى القضاء وكان من أبرز أعضاء مجلس أبي عنان المريني[99]، فتونس إذن، كانت مقصد الكثير من المغاربة في القرن السابع، على الأقل، وما بعده. لا لكونها في طريق الرحالة إلى المشرق فحسب، ولكن لما كانت تزخر به من علماء، وما كانت تشهده من نهضة ثقافية. والدليل على ذلك ما كان يخصصه الحاج الرحالة من وقت هناك لمجالسة علمائها ومسامرتهم فابن رشيد يقضي وقتا طويلا من رحلته بها، ويخصص حوالي النصف مما دونه عن الرحلة، للحديث عن شيوخها وأدبائها.

والعبدري أيضا كان بينه وبين علمائها تجاوب انتزع من العبدري الاعجاب والتقدير لتونس ورجالها على غير عادته.

ومن هنا فالرحالة إلى تونس كثيرون منهم محمد بن شعيب الهسكوري[100]، ومحمد بن عبد الرحمن الكفيف المراكشي (ت807 ه / 1404) الذي حضر مجلس ابن عرفة بتونس ثم هجاه[101].

فتونس كانت تستهوي الرحالة المغاربة، ولذلك كانوا يقصدونها للدراسة والمناظرة أو يتوقفون بها في رحلتهم إلى المشرق ذهابا وإيابا، مما قوى الروابط والأواصر العلمية بين المغاربة والتونسيين فابن آجروم الصنهاجي كان هدفه من رحلته تأدية فريضة الحج، إلا أنه مكث أيضا بتونس مدة كافية، فأخذ عن شيوخها[102].

---

(97) نفس المصدر 3 : 130، انظر الجذوة 1 : 222.

(98) الاحاطة 2 : 240.

(99) نيل الابتهاج ص 249 الحلل السندسية للسراج ص 622.

(100) النيل ص 230 الحلل ص 703.

(101) نيل الابتهاج ص 284.

(102) نيل الابتهاج ص 347.

ولم يكن اللقاء بين المغاربة والتونسيين يشبه لقاءهم بالشرقيين، فلقد انتفى هنا الشعور بالتفوق لدى أي طرف منهما، بل كانت بينهما زمالة علمية، لا يكون فيها المغربي دائما تلميذا ومتلقيا، فكثير منهم اشتغلوا بالتدريس ونالوا الاعجاب كأبي القاسم العبدوسي، وأبي العباس القباب... بل يمكننا أن نفترض بأن التونسيين كانوا يجدون المتعة في تلك اللقاءات العلمية، ومن هنا كانوا يحرصون على الاستفادة من العلماء المغاربة، إما بالاتصال أو المراسلة فابن أبي الدنيا الصدفي (ت 684هـ / 1285م) كان في آخر حياته «حريصا على لقاء من وصل من المغرب في المركب راغبا فيمن يستجيزه أو يأخذ عنه أو يسمع منه»[103]، وأبو الفضل التجاني يرجو صديقه ابن رشيد الايقي أحدا من أشياخه أو أصحابه في بلده إلا استجازه له[104].

3 ــ المستوى العلمي المغربي في هذه الفترة كان مستوى جيدا، فالمثقف المغربي كان مكتمل الثقافة، واسع العلم، ونماذج العلماء الذين اقتصروا في تكوينهم على البيئة المغربية أكثر من أن تحصى، فهذا ابن البناء العددي له أكثر من سبعين تأليفا مع أن شيوخه مغاربة فقط[105]، وكذلك الأمر بالنسبة لابن المرحل الذي أظهر قدرة في المناظرة والنقاش العلمي[106].

وكذلك أبو الحسن على الزرويلي المعروف بالصغير الذي كان «قيما على تهذيب البرادعي في اختصار المدونة حفظا وتفقها»[107]. ومع ذلك فشيوخه مغاربة فقط، وابن سعيد الرعيني الرحالة تم تكوينه أيضا في فاس على يد علماء مغاربة[108].

وللمغرب الفضل الكبير على الآبلي ومستواه الجيد فتكوينه الحقيقي تم في فاس أولا على يد خلوف اليهودي، وفي مراكش ثانيا على يد ابن البناء العددي المراكشي، لأنه لم يستفد من رحلته إلى المشرق[109]، وإذن فقد كانت البيئة العلمية في

---

(103) رحلة ابن رشيد 2 : 65أ

(104) نفس المصدر السابق 7 : 45أ

(105) نيل الابتهاج ص 65 ــ 68، السعادة الأبدية ص 26 ــ 29.

(106) سبك المقال ص 135.

(107) الديباج المذهب ص 212.

(108) نيل الابتهاج ص 271 ــ 272

(109) نفسه ص 245 ــ 248.

المغرب كافية لاشباع النهم العلمي بعلمائها الممتازين وكتبها المدرسية الجيدة، فالكتب التي كانت محور الدروس أغلبها من تأليف مغاربة أيضا، وهكذا كانت تدرس تآليف ابن المرحل[110]، وابن اجروم[111]، وابن بري التازي[112]، وتآليف أبي القاسم التجيبي السبتي الرحالة[113]، والحضرمي السبتي[114]، وابن الشاط السبتي[115] وأبي عبد الله المقري[116]، وغيرهم.

وهناك أمر جدير بالاهتمام به والوقوف عنده هو أنه نظرا لما تقدم من خصوبة البيئة المغربية ثقافيا، فإن معظم الرحالة المغاربة لم يرحلو إلى الشرق إلا بعد اكتمال ثقافتهم وإلمامهم بفنون مختلفة من العلوم، مما يؤكد أن ذهابهم إلى الشرق لم يكن بهدف التلقي والأخذ عن الشيوخ، فهذا الامام محمد بن عمران بن موسى الحسيني الشهير بالكركي المتوفى بمصر سنة 688 هـ / 1289 م أو السنة التي بعدها «قدم من المغرب فقيها بمذهب مالك»[117]، وكان قد تفقه فيه على أبي محمد صالح فقيه المغرب في وقته، ولذلك كما يقول ابن رشيد «انتهت إليه الرياسة بالديار المصرية وعليه مدار الفتيافي زماننا»[118]، ومروان بن عبد الملك ابن سنجون اللواتي الطنجي قال : «لم أدخل إلى الشرق حتى حفظت أربعة وثلاثين ألف بيت من أشعار الجاهلية»[119]، فإذا كان هذا الالمام الواسع بالتراث الأدبي، والحفظ الدقيق من الشعر الجاهلي، فما عسى أن يكون قد حفظ من غيره من العصور؟، ولو لم يكن لأبي العباس القباب مستوى جيد لما تنبه إلى الأخطاء المنهجية التي يرتكبها ابن عرفة

---

(110) فهرسة المنتوري ص 217

(111) نفسه ص 218.

(112) نفسه ص 218، دائرة المعارف 1 : 96، الاعلام للزركلي 5 : 156

(113) فهرس المنتوري ص 219.

(114) فهرست المنتوري ص 219

(115) نفسه ص 220

(116) نفسه ص 223

(117) الديباج ص 332، رحلة ابن رشيد 5 : 68أ

(118) رحلة ابن رشيد 5 : 69 ب

(119) معجم البلدان 4 : 43، الأدب المغربي ص 119.

التونسي في تأليفه، ولما كان لآرائه الوقع الكبير والأثر الواضح في تغيير ذلك المنهاج بعد ذلك(120).

والمناقشات الكثيرة التي ذكرها الرحالة فيما دونوه، تثبت ما ذكرناه من أن هؤلاء الرحالة كان مستواهم جيدا، ولذلك يدلون بآرائهم في المناقشات ويسهمون بأفكارهم في المناظرات والمطارحات، فابن رشيد كان له الموقف العلمي الثابت، ولذلك نال التقدير في تونس(121)، أما في مصر فيرفعه ابن النحاس(122) وبلديه الشريف الكركي السابق الذكر(123)، ولقد نال التجيبي نفس الاحترام في مصر وتسابق الناس إلى الاستفادة منه في مقدمتهم ابن دقيق العيد(124)، أما العبدري فكان يحترم لعلمه أينما حل وارتحل، فلقد اتخذه شيخا كل من ابن دقيق العيد وتاج الدين الغرافي وغيرهما(125).

ولقد كان هذا الاحترام الذي يقابل به الرحالة عموما، ناتجا في الغالب عن إثبات المغاربة لتفوقهم في النقاش وقدرتهم في المناظرة وتمكنهم من الحفظ والتمثل للشواهد والأمثلة، فأبو القاسم عبد العزيز العبدوسي (ت 837 ه / 1433 م) أعجب التونسيون بعلمه وتسابقوا إلى حلقات دروسه وتبينوا اتقانه لكل من علوم الشريعة والقواعد العربية فازداد عجبهم، واشتد إقبالهم على دروسه(126)، ونفس الشيء وقع لابن رشيد السبتي في مصر(127).

ومن هنا لا غرابة إذا وجدنا أن المشارقة يتسابقون إلى الحصول على الاجازة من المغاربة فهذا ضياء الدين عيسى بن يحيى الأنصاري السبتي كان مقصودا بالقاهرة وهو الذي انشد في الاجازة العامة الأبيات المشهورة التي اتخذت عند الكثيرين نموذجا للاجازة قال :

---

(120) ازهار الرياض 3 : 37، السلوة 3 : 245.

(121) رحلة ابن رشيد.

(122) نفسه 3 : 23.

(123) رحلة ابن رشيد 5 : 68 أ

(124) برنامج التجيبي ص 260

(125) الرحلة المغربية ص 120.

(126) نيل الابتهاج ص 179، النبوغ 1 : 190.

(127) رحلة ابن رشيد 3 : 12.

أجزت لمن سمى بها ما يجوز لي   روايته بالشرط في كل مسند[128]

ولقد أجاز ابن دحية الكلبي لكل من أبي الحسن الغرافي[129]، وأبي القاسم عبد الرحمان الهمداني[130]، وأبي الحسين يحيى بن علي بن عبد الله القرشي[131].

وهذا أحد الأسباب التي جعلت المغاربة يلقون التكريم والترحاب وهم يرحلون في البلدان المشرقية، مما جعل البعض يفضل الاقامة هناك مدة طويلة، أو يقضي بها ما بقي من عمره، وقد اسندت إليه أعلى المناصب آنذاك في القضاء والتدريس، ولقد حدثنا ابن العماد عن كثير من هؤلاء المغاربة القضاة والفقهاء والأساتذة[132].

ومن المغاربة الذين ذاع صيتهم بالمشرق، وتولوا المناصب الرفيعة أحمد ابن عبد الرحمن التادلي الفاسي (ت 741 هـ / 1340 م) رحل إلى المدينة النبوية وولي نيابة القضاء بها وكان صدرا في العلماء[133]، ويحيى بن موسى الرهوني (ت 774 ه / 1372 م) تولى التدريس في المدرسة المنصورية والخانقة الشيخونية بالقاهرة[134] وجمال الدين محمد بن موسى المراكشي (ت 823 / 1420 م) رحل إلى مصر والشام والقدس واليمن حيث ولي مدرسة الناصر وأقام بها[135]

ومما يثبت أن المغاربة لم يتجهوا كلهم صوب المشرق دائما من أجل التحصيل والرواية هو أن بعض الرحالة قصدوا الشرق للحج فقط، مع أنهم علماء ذوو مستوى رفيع، ومن أمثلة هؤلاء أبو عثمان سعيد بن جون المراكشي الذي التقى به ابن رشيد في المركب فتناقشا معا ونال اعجاب ابن رشيد لمشاركته في العربية

---

(128) نفسه 3 : 95 ب، مستفاد الرحلة ص 91.

(129) رحلة ابن رشيد 3 : 12.

(130) نفسه 3 : 3.

(131) نفسه 3 : 22.

(132) شذرات الذهب ج 6 صفحات 124، 331، 345، 346.

(133) الديباج ص 81.

(134) درة الحجال 3 : 334.

(135) الأعلام 4 : 50.

والأدب والعدد والفرائض والعروض والنظم والغناء.. مع العلم أنه لم يأخذ إلا ببلده مراكش يقول عنه ابن رشيد : «ثم رحل إلى الحج قبل رحيلنا وعاد في المركب صحبتنا، ولم يأخذ عن أحد في رحلته، إذ لم يكن قصده ذلك، وكانت له مشاركة في علمي القافية والعروض»(136).

وإذا كان الرحالون على هذا القدر من العلم والتكوين الثقافي، فلماذا أكثروا من الرحلة إلى المشرق ؟.

فبعد استعراضنا للرحلات المختلفة تكون لنا رأي ثابث مؤداه أن الرحلة العلمية لم تكن من أجل الطلب والتلمذة فقط، ولكنها كانت تتوخى غايات ثقافية أخرى من أهمها :

أ ــ زيارة المراكز الثقافية المشرقية :

فالمعروف عن المغاربة أنهم كانوا منجذبين نحو القاهرة ودمشق وبغداد، بما كانت تشتمل عليه هذه المراكز، من مدارس ومكتبات(137)، ولقد كان هذا هو السبب الحقيقي لرحلة كثير من العلماء إلى الحواضر والأماكن التي لا تقع على طريق الحاج المغربي، كدمشق نظرا لكونها كانت مركزا علميا مرموقا، بالاضافة إلى ما تقدمت الاشارة إليه من احتضانها لبعض ما أضفى عليها القدسية كالمصحف والنعل النبوي، لذلك كله قصدها جل الرحالة المغاربة إن لم نقل كلهم(138) فمعظم الرحلات المدونة قد خصصت للشام ودمشق النصيب الأوفر، من أوصافها، وتراجمها.

وعلى العموم فإن مراكز النشاط العلمي في المشرق كانت مقصد المغاربة، تستهويهم بما تضمه من مجالس علمية ومؤسسات ثقافية، وهذا هو أحد الأسباب العلمية التي كانت وراء الرحلة إلى كبريات الحواضر المشرقية، ولقد أفصح عن هذه الرغبة العلمية كثير من الرحالة المغاربة فابن جبير مثلا يواظب على حضور المجالس العلمية والوعظية ببغداد(139)، وابن بطوطة انشغل هو كذلك في دمشق بمجالس العلم والخطب الدينية، وحرص على تتبع ما بها من مدارس علمية لكل

---

(136) رحلة ابن رشيد 6 : 2 أ5 Deux récits de voyage p

(137) رحلة ابن بطوطة الطبعة البارسية I : II مقدمة المحققين والمترجمين

(138) المشرق في نظر المغاربة ص 20 : 22.

(139) رحلة ابن جبير ص 195 ــ 200

من الشافعية والحنفية والمالكية(140)، ونزعم أن ابن رشيد فعل الأمر نفسه في دمشق، ولكن أخباره هناك ونشاطاته العلمية ونقاشه في المجالس والدروس هناك، ضاع كل ذلك، مع الأسف، بضياع الجزء الرابع الخاص بالشام من رحلته. ومثل ذلك يمكن أن يقال بالنسبة للتجيبي، فضياع الجزء الثالث من رحلته حجب عنا أخبار هذه المجالس العلمية بالشام.

ب ـــ الرحلة الحديثية :

وتتوخى أهدافاً معينة منها تحصيل الحديث، والتثبت من الروايات والطرق، وطلب العلو في السند، والبحث عن أحوال الرواة...

ولقد اشتهر المغاربة بهذا الأمر منذ القديم، فعرفوا بعنايتهم بالحديث وطرق رواياته، مقتدين في ذلك بعمل السلف الصالح، فعن أحمد بن حنبل ـــ ض ـــ أنه قيل له «أيرحل الرجل في طلب العلو ؟ فقال بلى والله شديدا لقد كان علقمة والأسود يبلغهما الحديث عن عمر رضي الله عنه فلا يقنعهما حتى يخرجا إلى عمر فيسمعانه منه»(141).

وقال سعيد بن المسيب «إن كنت لأسير الأيام والليالي في طلب الحديث الواحد»(142).

ومن هنا شعر الجميع بضرورة استكمال المعارف الحديثية، فابن خلدون يرى أن «من كان قليل البضاعة من الحديث فيتعين عليه طلبه وروايته والجد والتشمير في ذلك»(143).

وطريقة التحديث بما تتميز به من الدقة والتحري والاتصال المباشر بالشيوخ، تشكل الباعث العلمي للرحلة والحافز على التنقل، لأن منهاج المحدثين يعتمد على تنويع الرواية والبحث على العلو في السند، وطلب الكمال والقرب، فلقد ذكر يحيى السراج بأن طرق تحمل الحديث ثمانية أنواع ولكن أولها السماع من لفظ

(140) رحلة ابن بطوطة ص 89 ـــ 92

(141) الرحلة في طلب الحديث ص 197.

(142) نفس المصدر ص 127.

(143) مقدمة ابن خلدون ص 796.

الشيخ(144) وهكذا يرحل ابن دحية «في شأن طلب علو الرواية والحديث»(145)، ويجعل التجيبي من فوائد رحلته حصوله على إسناد غاية في العلو(146)، ولذلك يعتز بحصوله على رواية أبي المصعب أحمد للموطا التي تعتبر إسنادا جليلا غاية في العلو ليس في وقته من له مثل هذا الاسناد ثم يقول «وهو من فوائد الرحلة المرجو من فضل الله تعالى قبولها وتشفيعها بأمثالها»(147).

ولقد حرص المغاربة على الاسناد، لا في رواية الحديث فقط، ولكن أيضا في رواية الكتب والعلوم الأخرى «فالاسناد من الدين ومن خصوصية هذه الأمة من بين الأمم المتقدمين»(148).

فالسعي إلى نيل الشرف في سلسلة الاسناد العالي يمليه الدين خصوصا إذا كان هذا الاسناد يرتفع إلى الرسول عليه السلام وإذن فالرحلة لهذه الغاية مشروعة وواجبة يقول السراج أيضا : ولا ريب في اتفاق أئمة الحديث قديما على الرحلة إلى من عنده الاسناد العالي، وإن كان فد حصل لكم ذلك بنزول ممن سمعه من الشيخ الذي يرحل إليه»(149).

ولهذا كان الرحالون معتزين بما حصلوا عليه من أسانيد عالية(150) ويعدون ذلك أهم مكسب لهم في رحلاتهم ومصدر فخر لهم على غيرهم، ويشعر الرحالة بزهو كبير حين ظفره بسند عال، نتبين ذلك فيما مدح به ابن الحاج النميري الحافظ الذهبي : (151).

رحلت نحو دمشق الشام مبتغيا   رواية عن ذوي الأحلام والأدب
ففزت في كتب الأثار حين غدت   تروى بسلسلة عظمى من الذهب

---

(144) فهرسة السراج ص 26 ـ 36.

(145) رحلة ابن رشيد 6 : 38.

(146) برنامج التجيبي ص 646.

(147) برنامج التجيبي ص 64.

(148) فهرسة السراج ص 1

(149) فهرسة السراج ص 39.

(150) انظر مثلا برنامج الواد باشي ص 187.

(151) نفح الطيب 7 : 110.

ولقد رجع عبد الرحمان الثعالبي من رحلته، وقد حصل على ما أراد من الاسناد العالي فنال بذلك إعجاب محدثي عصره يقول : «وكان بعض فضلاء المغاربة هناك يقول لي لما قدمت علينا من المشرق رأيناك آية للسائلين في علم الحديث»[152].

وأهم ما امتاز به كل من ابن رشيد والعبدري والتجيبي هو حرصهم جميعا على ذكر السلاسل والأسانيد العالية التي حصلوا عليها في رحلاتهم.

ج ــ جلب الكتب والمؤلفات العلمية

ومن الأهداف التي يسعى إليها الرحالة جلب الكتب والمصادر من الشرق والاطلاع على المكتبة وما جد فيها هناك، فكان يرجع وهو محمل بأهم المصادر والتآليف المفيدة، لعلماء التقى بهم واستفاد منهم في البلدان التي حل بها، فلم يكن اهتمام الرحالة إذن يقتصر على حصوله على الاجازات والسند العالي فقط ولكنه كان يقطع المسافات الطويلة بحثا عن كتاب، أو حصولا على نسخة من مؤلف معين، وما تعريج ابن رشيد على الاسكندرية في رجوعه من رحلته إلا لهذه الغاية يقول : «ولم يكن توجهي للأسكندرية عازما على التغريب، ولكن لأخذ كتب كنت أودعتها هناك، ونيتي العودة إلى مصر برسم القراءة»[153].

فاهتمام ابن رشيد بالكتب والبحث عنها والعمل على اقتنائها، يلازمه في كل مراحل الرحلة، يقصد أسواق الكتبيين لشرائها، وينتقي أجودها من حيث الخطوط والأشكال، ومن ثم يبقى شديد الأسف والحسرة إذا لم يتم له الحصول على ما يرغب فيه من هذه الكتب. كما نستخلص ذلك من حديثه مع شرف الدين أبي العباس الجزائري في أسطوان منزله بتونس، أثناء عودته، عن نسخة من كتاب «المثل السائر»، بلغت ثمنا كثيرا بسوق الكتبيين بدمشق قد أعجب ابن رشيد بخطها، لكنه يندهش حين يعرف بأنه خط أبي العباس الجزائري نفسه[154].

ولم يكن العبدري أقل اهتماما بالكتب من ابن رشيد، فلقد أعطاه أبو زيد عبد الرحمن الدباغ بالقيروان أكثر من عشرة أجزاء من الكتب والفوائد والفهارس[155].

---

(152) فهرس الفهارس 2 : 732.

(153) رحلة ابن رشيد 6 : 1 ب

(154) القصة بكاملها في رحلة ابن رشيد 6 : 57

(155) الرحلة المغربية ص 67، نيل الابتهاج ص 164.

وهكذا كان الرحالة يعود إلى وطنه وهو محمل بنوادر المؤلفات والكتب، فكثير من الكتب المشرقية، لولا الرحالة، لما نالت هذه الشهرة، ولما وقع الاهتمام بها في المغرب شرحا، وتلخيصا، وتقييدا، ونظما، وحفظا، وتدريسا...

ومن الرحالين الذين رجعوا محملين بالكتب، أو كانو أول من أدخل مؤلفات بعينها إلى المغرب، الرحالة ابن رشيد فهو أول من جلب من الديار المصرية كتاب البدر المنير في علم التعبير تسلمه بالأسكندرية من مؤلفه أبي العباس أحمد بن سرور المقدسي الحنبلي[156]، ولقد أدخل الرحالة التجيبي كتبا بخط مؤلفيها[157]، كما اجتلب أبو العباس القباب مصنفات عديدة لعلماء التقى بهم في الرحلة المشرقية[158]، وكان للرحالة عبد الله بن أحمد بن يوسف المعروف بالعشاب الغساني نزيل درعة اعتناء بجمع الكتب[159].

أما أبو زيد عبد الرحمن بن سليمان اللجائي فهو أول من أدخل فرعي ابن الحاجب في المغرب وعنه أخذ[160]وكان قبله قد أدخله إلى بجاية أبو علي ناصر الدين الزواوي[161] فكان ذلك سبب انتشار كتب ابن الحاجب بين المغاربة الذين اهتموا بتلخيصها، فمختصره في الفروع عليه ستة شروح ترجع إلى الفترة المرينية[162].

كما أكثر المغاربة من وضع الشروح والحواشي على مختصر خليل المصري بعد أن أدخله إلى المغرب محمد بن عمر بن الفتوح التلمساني المكناسي سنة 805ه / 1402م، وكان من شروحه وحواشيه ما قام به كل من ميارة وجسوس وابن غازى وابن عاشر وابن رحال والعارف الفاسي والجنان وابن مرزوق... وغيرهم في شروح وحواشي تزيد على الستين كما قال ابن غازي[163].

---

(156) رحلة ابن رشيد 7 : 36 ب

(157) برنامج التجيبي ص 152 ــ 153

(158) السلسل العذب، مجلة معهد المخطوطات 1964 مجلد 10 ص 85.

(159) نيل الابتهاج ص 156

(160) نيل الابتهاج ص 168.

(161) مقدمة ابن خلدون ص 809

(162) الموسوعة المغربية 1 : 69

(163) الروض المتون ص 59، نيل الابتهاج ص 292، الجذوة 1 : 317. الفكر السامي 4 : 243.

وكان محمد بن إبراهيم التلمساني (ت845 ه / 1441 م) «أول من أدخل للمغرب شامل بهرام، وشرح المختصر له، وحواشي الثفتازاني على العضد، وابن هلال على ابن الحاجب الفرعي، وغيرها من الكتب»[164].

أما شرح التهذيب الضخم فقد أشاعه بالمغرب ابنا الامام اللذان «نسخاه وانفقا في نسخه مالا عظيما، وهو الآن في خزانة سلطان فاس بالمغرب»[165] كما يذكر ابن فرحون.

ولم يكن ما يجلبه الرحالة مقتصرا على الكتب والمصنفات، ولكنه أيضا يضم النوادر والأخبار المتفرقة والقصائد المفردة، نظرا للاهتمام بالرحالة بعد رجوعه، وسؤال الناس له عما حمله وأتى به من هذه النوادر سواء في بلده أو في الأماكن التي يتوقف بها في طريقه، فالبلوي يتحدث عن اهتمام التونسيين به وبرحلته قائلا : «واقبلوا يطالبونني بما اجتلبت من الفوائد، ويقصدونني في إطلاق ما قيدت من القصائد، ولا أحصي كم أديبا كتب عني قصيدة صاحبنا جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن سليمان الدمشقي المعروف بالنابلسي»[166].

وأحيانا تكون الرحلة هي المصدر الوحيد لهذه النصوص النادرة من قصائد وخطب ورسائل، كقصيدة أبي الثناء الحلبي التي نظمها بالحجاز اعتبرت رحلة ابن رشيد المصدر الوحيد لها[167] ومطلع القصيدة :

وصلنا السرى وهجرنا الديارا وجئناك نطوى إليك القفارا

ولم تكن الأهمية تعود فقط إلى ما يحمله الرحالة من مصنفات وكتب بخطوط أصحابها، ولكن أيضا إلى ما تختزنه ذاكرته، وما يحفظه من نصوص يمليها على غيره، نتصور أهمية هذا وقيمته التربوية إذا ما تذكرنا بأن الاعتماد في التعليم كان على الذاكرة والحفظ، وأمثلة ذلك كثيرة متواترة، ولقد تتابع الاهتمام عند الرحالة المغربي في العصور اللاحقة بالكتب والمصنفات، فكان يخصص وقتا كبيرا من رحلته للبحث

(164) نيل الابتهاج ص 306، البستان ص 220.

(165) الديباج ص 96

(166) رحلة البلوى 2 : 93.

(167) نثير الجمان ص 190. أبو الوليد ابن الأحمر ص 137. دراسة رحلة ابن رشيد 2 : 372 تأليف الحدادي

عن الكتب النادرة، ويفرد حيزا مهما من رحلته المدونة للتعريف ببعض ما عثر عليه من كتب، أو ما رواه عن أصحابه، أو نقله بخطوط مؤلفيه من الدواوين والمصنفات، ولا يسعفنا المقام للاتيان بأمثلة من بعض الرحلات المدونة بعد العصر المريني، ولكن يكفينا الرجوع إلى رحلتي ابن عبد السلام الناصري، ورحلة أبي سالم العياشي لنتبين الحقيقة التي أشرنا إليها وهي أن الحصول على الكتب كان سبب الرحلة ودافعها في كثير من الأحيان[168].

د ــ لقاء العلماء :

ولقد كان هدف البعض من الذين رحلوا، هو الاتصال بعالم معين أو علماء للأخذ عنهم أو الرواية، فالكثير منهم كان «يجعل نتيجة أفكاره مصروفة في التحدث عن لقاء الأكابر، والتطوف على أبوابهم طلبا لمزيد الدراية والاحراز على الرواية، وعالي الاسناد، وتتبع طرقه بقدر ما أوتيه من قوة فيؤوب مملوء الجراب بما يعذب ويستطاب»[169].

ولذلك يحتل الحديث عن الرجال وأحوالهم مساحة هائلة من الرحلة فيعرف بطرق رواياتهم، ويتحدث عن مزاجهم وحالتهم في المجالس العلمية، أو في الحياة الخاصة، كما يتحدث عن آرائهم، وفتاويهم، وحكمهم، ومواقفهم مما يظهر أهمية الاتصال بالعلماء والأخذ عنهم، لذا كانت الرحلة إليهم ضرورية فلا يمكن أن يكتفي بالاتصال عن طريق المراسلات والاجازات[170].

والرحلات المغربية منذ القديم كان هدف أكثرها الاتصال بالعلماء فلقد رحل يحيى الليثي قديما ليلقى مالك بن أنس والليث بن سعيد ومن دونهما ويأخذ عنهم[171]، ورحل ابن العربي الأب ليهيء لابنه لقاء الأئمة والعلماء في حواضر العلم بالمشرق[172].

---

(168) انظر مثلا الرحلة الصغرى ص 143، 148، الرحلة الكبرى ص 250رحلة العياشي 2 : 240 ــ 260.فهرس الفهارس 2 : 677، 706، 709.

(169) دليل الحج والسياحة تقريظ ابن زيدان ص 302.

(170) فهرس السراج ص 26

(171) المدارك 3 : 117.

(172) المناهل عدد 9 ص 153.

أما ابن ميمون الغماري فقد كان «سبب رحلته من المغرب طلب لقي جماعة أمره بعض رجال المغرب بلقيهم منهم ابن حبيب»[173] هذه الرحلة التي طالت وتحولت إلى إقامة بالمشرق حتى يبقى قريبا من العلماء الاعلام هناك. فرحلته لم تكن من أجل التلقي والتعلم، لأن مستواه كان جيدا فقد تخرج على علماء عصره في كل من غمارة وفاس، ولكن هذه الرحلة كانت من أجل اللقاء وإحراز السند العالي النادر، وهذا هو حافز الكثير من المغاربة على الرحلة فجلهم كان يسعى إلى الفوز بهذا السند النادر والرواية العالية[174].

وقد كان الهدف من السعي إلى لقاء العلماء والاتصال بهم أحيانا اكتساب مناهج علمية جديدة، وطرق وأساليب متطورة في التعلم والتأليف وغير ذلك، فحضور أبي العباس القباب في رحلته بتونس لمجلس ابن عرفة جعله يوازن بين طريقة التبليغ في كل من تونس والمغرب والمشرق مما كان له الأثر الكبير في تطويره طريقة التدريس فيما بعد حتى تجمع بين التحصيل والتصرف في المعارف[175]، فلقاؤه لابن عرفة إذن كان ذا أثر في تصحيح المنهج الفكري والتعليمي، وهذا ما يجعل الرحالة شديد التعلق بالعلماء الاعلام الذين أعجب بهم في رحلته، فيبقى على الصلة بهم ــ بعد عودته إلى وطنه ــ عن طريق المراسلة إما لاستيضاح مشكل، أو لاستفتاء، أو للمزيد من التعلم والتحصيل، فلقد تبادل أحمد زروق ــ بعد عودته من الشرق ــ رسائل مع شيخه بالقاهرة أبي العباس شهاب الدين أحمد بن عبد القادر الحضرمي اليمني (ت 895 هـ / 1489 م) ليستنير بها في الطريقة الصوفية، ويسير على هديها فيما يقدم عليه من أمور[176].

ونجد مثل هذا في الرحلات العلمية الداخلية، فلقد راسل ابن غازي ــ بعد عودته من فاس ــ شيخه أبا عبد الله القوري يستفسره عما يجب اتخاذه من مواقف في قضايا علمية واجتماعية يقول ابن غازي : «وبعد ما ارتحلت عنه لمدينة مكناسة كنت أكاتبه بكل ما يعرض لي فيجيبني كما أحب»[177].

---

(173) الكواكب السائرة 1 : 243.

(174) برنامج التجيبي ص 87 مثلا

(175) ازهار الرياض 3 : 32

(176) مناقب الحضرمي مخطوط الخزانة العامة ق 1385 ورقات 105 ــ 109

(177) فهرس ابن غازي ص 75.

هـ ــ بناء الشخصية العلمية وإثبات الذات.

فالرحلة إلى الشرق عند الكثيرين من العلماء المغاربة لم يكن دافعها دينيا أو علمياً أو سياحيا كما قد نتصور، ولكن دافعها كان هو إثبات الذات، لأن كثيرا من المغاربة لم يحترموا في بلدهم فنيا أو علميا أو فقهيا ولم ترفع مكانتهم إلا بعد تزكية المشارقة لعلمهم، وثنائهم على مستواهم العلمي أو الفني الجيد.

وهكذا فإن الكل ينظر إلى الرحالة بعد عودته من رحلته على أنه قد استكمل أدوات البحث والمعرفة، واكتسب المناهج المعرفية المطلوبة، وكأنه قد تخرج من مؤسسة علمية ممتازة لا بد وأن يكون رأيه صائبا وعلمه واسعا.

ولهذا كان التركيز دائما على حصيلة ما رجع به من معارف وعلوم وفنون، فابن العربي مثلا «قدم بلده اشبيلية بعلم كثير»[178]، وابن جبير أيضا عاد من رحلته «وقد استوسق علما وفضلا»[179].

وهكذا يصير لآراء الرحالة وعلمه وزن وقيمة واعتبار عند الناس، فيقبلون عليه للاستفادة والاسترشاد، فكثير من العلماء لم يشتغلوا بالتدريس ولم يتولوا المناصب الراقية إلا بعد الرحلة، فهذا محمد بن عبد الله بن راشد البكري يقول «لما ظفرت من العلوم بما أردت رجعت إلى وطني فشرعت في الدروس ومالت إلي النفوس»[180]. ومحمد بن عبد العزيز المعروف بالحاج عزوز الصنهاجي المكناسي انتفع به علماء مكناس بعد رجوعه من رحلته المشرقية الأولى، وفي مقدمة المنتفعين به الامام القوري[181].

ويذكرنا هذا بالقاضي عياض، فرغم أنه حصل على تكوين جيد ببلده سبتة إلا أنه لم يعترف بعلمه ومكانته إلا بعد رحلته إلى الأندلس وأخذه عن نحو مائة عالم وحينئذ «أجلسه أهل بلده للمناظرة... وبعد ذلك بيسير أجلس للشورى ثم ولي القضاء»[182].

---

(178) شذرات الذهب 141 : الأعلام للمراكشي 4 : 95، المناهل عدد 9 ص 177 بحث عصمت دندش.

(179) الاعلام للمراكشي 4 : 176.

(180) نيل الابتهاج ص 235

(181) نفسه ص 306

(182) التعريف بالقاضي عياض ص 10

وأبو العباس القباب لم تطلب منه الفتوى إلا بعد أن رحل إلى المشرق[183] ومثل هذا التقدير الذي يحظى به الرحالة هو الذي دفع الكثيرين إلى الرحلة والاغتراب من أجل التالق والظهور، فرحلة ابن زيتون كان سببها المركز العلمي الذي تبوأه أبو العباس أحمد الغماري بعد رجوعه من المشرق يقول المقري «وبسبب ما قفل به من الفوائد رحل أبو القاسم بن زيتون»[184].

وهناك ناحية أخرى تكسب الرحالة بعد رجوعه تلك القيمة والمركز، وهي أصداء ما قام به من نشاط علمي وإسهام في المناقشات وظهوره على علماء آخرين في المناظرات[185]...

جـ ــ الباعث السياسي

وإذا كنا قد وجدنا من قبل أن جل الرحلات إما أن يكون باعثها دينيا أو علميا، فإنه لا ينبغي أن نهمل الظروف والأوضاع السياسية التي كانت توجه الحياة وتتحكم فيها، ثم فرضت نوعا من التوجيه لرحلات عديدة، تتوخى غايات أملتها الحياة السياسية العامة ومن أهم هذه الغايات :

1 ــ مصاحبة الملوك :

وهذا النوع من الرحلة لا يهتم فيه الرحالة بذاتيته إلا بقدر محدود، فرحلته بصحبة تحركات الملوك والمسؤولين ورجال الدولة، الغاية منها تدوين كل مراحل هذه الرحلة الرسمية، وتسجيل الأحداث المختلفة.

وإذا كان المسؤول قد توجه في حملة تأديبية (حركة) فإن الرحالة الأديب يحرص على تسجيل كل ما اعترض هذا المسؤول في رحلته من عقبات ونكسات أو ما أحرز عليه من انتصارات فمهمته تشبه إلى حد كبير مهمة الصحافي الذي يصف حدثا مثل هذا ويقدم تقريرا يصور فيه الأحوال التي رافقت الحركة، ومثل هذه الرحلات نفترض أنه كثير كثرة التنقلات وكثرة الملوك والمسؤولين، إلا أننا لا نملك من هذه الرحلات أو بالأحرى لم يصلنا مدونا إلا القليل، ويمكن اعتبار (أخبار المهدي ابن تومرت)[186]، لأبي بكر البيدق ــ وإن كانت قبل العصر الذي

---

(183) المعيار 6 : 387

(184) ازهار الرياض 5 : 23

(185) المسند الصحيح ص 146، نيل الابتهاج ص 179.

(186) نشرته دار المنصور بالرباط سنة 1971.

ندرسه ــ نموذجا لهذه الرحلات الرسمية حيث سجل البيدق كل الوقائع والأحداث التي واجهت ابن تومرت حين عودته من الشرق في طريقه إلى مراكش، وهو يتحفز لاعلان الدولة الموحدية، وأهمية الكتاب ــ الرحلة ــ هو أن مؤلفه كان رفيق المهدي ويعرف الأسرار والخبايا، التي شاهدها أو سمعها وهو قريب من المهدي في الطريق. ولقد فعل الشيء نفسه أبو الحسن على ابن رزين التجيبي الأندلسي حينما أتيح له أن يرافق ولي العهد الحفصي الأمير أبا فارس عبد العزيز في رحلاته وحركاته فسجل زحفه بجيشه على قسنطينية في الرحلة التي عنوانها «الدرر الثمينة في خبر القل وفتح قسنطينة»[187]. فالكتاب كما يذكر الدكتور ابن شريفة «تسجيل رسمي لهذه الحركة ووصف دقيق ــ فيما نقدر ــ لمراحلها ومنازلها»[188].

ولقد خلف ابن الخطيب في هذا النوع من الرحلة تلك التي أطلق عليها «خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف»[189] وهي تسجيل لخروج الركب السلطاني من غرناطة متجها نحو الشرق الأندلسي...

إلا أن الرحلات الرسمية التي تهمنا في هذه الدراسة والتي ستأتي فيما بعد، هي ما دونه النميري وهو بجانب كل من أبي الحسن المريني ثم أبي عنان من بعده، فلقد صحبهما في رحلاتهما وجولاتهما وحركاتهما، وربما سجل كل هذه الجولات، إلا أننا لا نملك الآن ــ مع الأسف ــ إلا ما دونه وهو يصاحب أبا الحسن في رحلته من الشمال المغربي، وتحمل عنوان «مذكرات ابن الحاج»[190]، أو ما كتبه وهو يصاحب أبا عنان في حركته إلى قسنطينة، وعنوانها «فيض العباب»[191]، ويدخل ضمن الرحلات الرسمية منظومة الكفيف الزرهوني في حركة أبي الحسن المريني أيضا[192].

---

(187) مجلة كلية الآداب عدد 8 ص 116

(188) نفسه

(189) نشر ضمن مشاهدات ابن الخطيب ص 25 ــ 53.

(190) حققه الفريد بريمار.

(191) مخطوط بالخزانة الملكية رقم 3267

(192) مخطوط مكتبة ابن يوسف رقم ك 184 مصور بالخزانة العامة رقم 1118.

وبإمكاننا أن نفترض أن هناك رحلات رسمية مدونة قد ضاعت، وإلا فلا يمكن أن نتصور موكب أبي الحسن في حركته إلى تونس بما يضمه من حشود العلماء لا يوجد بينهم من كان يسجل الأحداث التي شهدها أو المواقف التي تزامنت مع هذه الحركة.

2 ـــ الرحلة للقيام بسفارة :

وأهمية هذه السفارات أنها لم تكن تؤدي دورها السياسي فحسب، لكون السفراء كانوا يختارون عادة من العلماء والطبقة الممتازة، مما جعل ملاحظاتهم وأفكارهم وتقاريرهم عن مهماتهم السياسية هذه لها أهميتها في التعرف على أحوال المجتمعات التي لها علاقة بهذه السفارات.

ويتجلى المستوى العلمي الممتاز لهؤلاء الرحالين في نوعية الأشخاص وطبقتهم وفي المناقشات والدروس والآثار العلمية التي يخلفها السفراء في تلك البلدان التي يتوجهون إليها.

ثم إن السفراء لم يكونوا يكتفون بتبليغ الرسائل وتأدية المهام المنوطة بهم وإنما يغتنمون فرصة حلولهم بالبلد المبعوثين إليه ليتفرغوا للمناقشة والمناظرة في مجالس العلم وحلقاته... ومن أمثلة ذلك ما ذكره المقري عن رسول بجاية إلى فاس حيث نبه طلبة هذه المدينة إلى إشكال في تفسير الفخر للفاتحة ولكن الآبلي تفطن إلى أن في الكلام تصحيفا(193).

ولقد أخذ ابن الخطيب عن أبي يحيى التسولي التازي لما ذهب في سفارة إلى غرناطة(194).

ومما لا شك فيه أن كل السفراء كانوا يخصصون وقتا بعد إنجاز مهمتهم للثقافة يتفرغون فيه للعلم والعلماء ويتصلون برجال الفكر والأدب، ويبحثون فيه عن الكتب والمصنفات، لأن السفراء في هذه الفترة يمثلون نخبة الأدباء والعلماء ممن هم على شاكلة ابن مرزوق الذي أهله أبو الحسن «للسفارة والرسالة»(195)، وأبي

---

(193) نفح الطيب 5 : 246، نيل الابتهاج ص 246، البستان ص 216.

(194) الاحاطة 1 : 372، المرقبة العليا ص 155، النفح 5 : 387.

(195) المسند الصحيح ص 334، النيل 267

الحسن الصغير الزرويلي سفير سليمان إلى الأندلس[196]، والشيخ السطي[197]، وابن أبي مدين[198]، وغيرهم، ومن خلال السفارات التي تبادلها المرينيون مع غيرهم يمكننا رسم خريطة سياسية ندرك معها العدو والصديق، ونتبين من خلالها علاقات الود والتشاور التي ربطت المغرب مع كل من الأندلس، وتونس الحفصية، والمشرق...

ونظرا لارتباط العدوتين ببعضهما سياسيا ومصيريا فلقد كثر تردد السفراء من البلدين معا بهدف الاطلاع على القضايا والأحداث التي لا تحل عادة إلا بمساندة الطرف الآخر ومساعدته، ولقد قام بهذه المهمة السفارية في الأندلس سفراء مغاربة كان لهم الدور الكبير في توجيه السياسة الغرناطية خاصة والأندلسية عامة.

وهكذا دخل أبو العباس القباب غرناطة «موجها من قبل سلطان المغرب أبي سالم بن أبي الحسن لمباشرة صدقة عهد بها لبعض الربط»[199].

أما ابن أبي يحيى التسولي السابق الذكر فقد «كثر استعماله في السفارات والتردد في الأمور المهمة»[200].

ومحمد بن أحمد بن عبد الملك الفشتالي أيضا «تردد للأندلس سفيرا فذاع فضله وعلم قدره»[201].

وسنة التشاور هذه كانت تقتضي أن يفد على المغرب سفراء من الأندلس لابلاغ الرسائل أو للشفاعة في بعض الأشخاص وهم كثيرون في هذه الفترة.ومن أهم هؤلاء

---

(196) الاحاطة 4 : 186 الديباج ص 213

(197) نيل الابتهاج ص 243.

(198) بيوتات فاس 56 الجذوة 2 : 438. تاريخ ابن خلدون 7 : 495.

(199) الاحاطة 1 : 188.

(200) المسند الصحيح ص 143.

(201) الاحاطة 2 : 187، نيل الابتهاج ص 265.

السفراء أبو القاسم السبتي[202]، وأبو البركات البلفيقي[203]، وابن الخطيب[204]، وغيرهم[205].

والسفارة إلى تونس الحفصية كانت أيضا مستمرة لروابط المصاهرة والمصلحة المشتركة، ولقد قام بمهمة السفارة إلى تونس علماء مرموقون منهم عبد المهيمن الحضرمي[206]، والشيخ السطي سفير أبي الحسن لخطبة أميرة تونس[207].

وكانت السفارة المغربية إلى المشرق كثيرة أيضا، لكثرة الدواعي والأسباب فالمسؤولون كانوا يغتنمون توجه الركب الحجازي، فيبعثون صحبته سفراء لايصال الرسائل والهدايا والأوقاف، والمصاحف إلى المساجد المشرقية عامة والحرمين خاصة، وأهم فترة انتظمت فيها هذه السفارة، وشهدت تمتين العلاقات المشرقية المغربية هي الفترة التي حكم فيها أبو الحسن المريني[208].

ولقد كان السفراء يختارون أيضا من نخبة العلماء وعلية القوم، من مثل محمد بن إبراهيم الليثي البقوري المراكشي[209]، وأبي الفضل ابن أبي مدين العثماني[210]، والسفير يحيى بن جرار[211].

ورغم هذه الكثرة من السفراء والسفارات، فإننا لا نملك رحلة مدونة تكشف عن طبيعة هذه العلاقات السياسية والاجتماعية والثقافية في كل هذه البلدان التي تشكل أكثر من خريطة الوطن العربي الحالي، فلا نجد إلا إشارات عابرة في كتب

---

(202) كناسة الدكان ص 154 المرقبة العليا ص 176.

(203) الكناسة ص 154 المرقبة العليا ص 164 الديباج ص 291، الاعلام 4 : 438.

(204) الاحاطة 4 : 443، 473.

(205) كناسة الدكان في مواضع مختلفة.

(206) تاريخ ابن خلدون 7 : 515.

(207) نيل الابتهاج ص 243، الاستقصا 3 : 153.

(208) ورقات ص 137 ــ 179.

(209) الديباج ص 222، الاعلام للمراكشي 4 : 336.

(210) المسند الصحيح ص 325.

(211) نفسه ص 326 ــ 327

التاريخ والتراجم عن هذه السفارات وأصدائها هنا وهناك، وإذا كان ابن بطوطة قد ألمح مرارا في رحلته إلى السودان، بأنه يقوم بمهمة سفارية إلا أنه تجنب التفصيل في شأن هذه السفارة وأسبابها والهدف منها[212].

وليس من المعقول ألا يدون السفراء الآخرون أيضا، وهم من مستوى علمي رفيع، ما شاهدوه من الأحوال الثقافية والاجتماعية وتفاصيل عن المهمات السياسية والدينية التي قاموا بها، مما يزيدنا اقتناعا بأن هناك رحلات أخرى كثيرة ضاعت، أو على الأقل لم نهتد إليها بعد.

3 ــ الرحلة الاضطرارية :

وهي الرحلة التي لم يتوخ صاحبها إلا الهروب مما أحاط به من مشاكل، والبحث عن مكان يطمئن فيه، وهذا الضرب من الرحلات يعكس الحياة السياسية والأوضاع الأمنية والاجتماعية المضطربة في تلك الفترة فالباعث كان سياسيا، ويمكن ربطه بما كانت عليه أحوال المسلمين في الأندلس إذ ساد الشعور بأن الأندلس دار حرب، وبأنها أصبحت ضعيفة لا يطمئن فيها المسلم على دينه ونفسه وما له، فمن الأولى والأفضل الفرار بالدين والمال والنفس إلى البلاد الاسلامية شرقا وغربا وعلى الأخص المغرب الذي يجدون فيه الملاذ والاطمئنان.

ولقد كثرت هذه الرحلات ــ الهجرات ــ منذ اختلال التوازن ورجحان كفة المسيحين على المسلمين ابتداء من وقعة العقاب المشؤومة سنة 609 هـ حيث بدأت البلدان والثغور الاسلامية الأندلسية تسقط في يد العدو فيضطر أهلها إلى الهجرة، أو ما اطلقنا عليه الرحلة الاضطرارية، صوب المغرب الكبير، ومنهم من فضل أن تكون رحلته نحو المغرب الأقصى، ومن هؤلاء حازم القرطاجني الذي رحل إلى مراكش بعد سقوط قرطبة في يد العدو[213] وقبل أن يواصل رحلته إلى تونس.

وما رحلة ابن أبي الربيع إلى سبتة واستقراره بها نهائيا إلاَّ مثالٌ لهذا النوع من الرحلة[214].

---

(212) رحلة ابن بطوطة ص 665. 680. 681.

(213) منهاج البلغاء ص 54 مقدمة التحقيق.

(214) درة الحجال 3 : 72.

ويوضح أبو العباس ابن عاشر السلوي شعور الأندلسيين في هذه الفترة الأخيرة من عمر الاسلام بالأندلس، وهو شعور عدم الاستقرار والخوف من المستقبل، مما يدفعهم إلى التفكير في الرحيل عن دار الحرب، يقول «ولما أن قرب وقت حصار النصارى للجزيرة الخضراء أتى إلي ــ أبو سرحان سيدي مسعود الأبله ــ وقال لي ياأخي ان هذه المدينة ستنزل عن قريب فانصرف عنها قبل حلول البلاء بها ففعلت تصديقا له واعتمادا على نور بصيرته فكان الأمر كما قال»(215)، ومن أجل هذا تتابعت أعداد الأندلسيين الراحلين إلى المغرب وتكاثرت جموعهم، وتفرقوا في أهم المناطق المغربية.

ثم إن هناك نوعا آخر من الرحلة اضطر إليه أصحابه أيضا لا خوفا من التنصر وسقوط بلدانهم في يد العدو، ولكن بسبب الأحوال السياسية التي اتسمت بالتنافس، وأحيانا الصراع بين دول الغرب الاسلامي عامة. فكلما واجهت عالما مشكلة مع سلطة بلده يرحل إلى الخصم فيحتمي به، وهذا هو الذي يفسر ظاهرة هذه الأعداد الهائلة من العلماء التي كانت تقصد المغرب الأقصى وتحج إلى الحضرة الفاسية، بل إن المجالس العلمية لملوك بنى مرين معظم أعضائها من باقي بلدان المغرب العربي أو من الأندلس، وكأن هؤلاء العلماء كانوا يجدون الملاذ والحماية في ظل بني مرين، وأمثلة ذلك كثيرة : فابن الصباغ العقيلي الغرناطي لم تكن رحلته اختيارية كما يلمح إلى ذلك ابن الأحمر قائلا : «انتقل إلى العدوة لأشياء حذفناها لطولها فتلقى هناك من ملكها أمير المومنين المتوكل على الله أبي عنان رتبة التبجيل والقبول واستعمله في أعمال»(216).

وابن جزي كاتب رحلة ابن بطوطة لم يرحل إلى العدوة ويستقر بها إلا بعد أن امتحنه أبو الحجاج صاحب غرناطة(217).

ويلقي ابن الأحمر نفسه في فاس الترحيب والتكريم والتعظيم بعد أن خلع عن عرشه بغرناطة «فلم يفقد من القاب ملكه إلا الآلة أدبا مع السلطان»(218). وكان

---

(215) تحفة الزائر مخطوط الخزانة العامة 2269 د ص 8

(216) نثير الجمان ص 269.

(217) نفس المصدر ص 284.

(218) تاريخ ابن خلدون 7 : 642.

بصحبته في هذه الرحلة الاضطرارية وزيره وشاعره ابن الخطيب الذي وجد كذلك كل ترحيب واحترام، فتجول في حواضر ومناطق كثيرة داخل المغرب، ومن حسن الحظ أنه سجل تفاصيل هذه الرحلة فوصف ما مر به من بلدان وطرق، وتحدث عن العلماء الذين التقى بهم وتعرض لأحداث الأندلس والمغرب في هذه الفترة، ولقد جمع كل هذا في كتابه «نفاضة الجراب» الذي يعتبر نموذجا لهذا النوع من الرحلة الاضطرارية، كما يعتبر مثالا للرحلات الداخلية كما سنرى.

أما رحلة محمد بن إبراهيم الآبلي التلمساني إلى كل من فاس ومراكش فلم يقدم عليها صاحبها إلا بعد مضايقة أبي حمو له لما أراد «إكراهه على العمل»(219).

وكذلك أبو العباس أحمد الونشريسي فانتقاله إلى فاس واستقراره بها لم يكن عن طيب خاطر، ولكنه انتقل إلى فاس ورحل عن تلمسان بعد أن انتهبت داره بعد أن «حصلت له كائنة من جهة السلطان»(220).

إلا أن هناك رحلات اضطرارية أخرى يمكن أن يكون باعثها دينيا، ولكنها نتيجة ظروف شخصية يتعرض إليها الرحالة فيضطر إلى الرحلة ومغادرة الوطن، فرحلة ابن جبير التي حج فيها كانت تكفيراً عن معصية شرب الخمر(221).

وارتحال أبي عبد الله محمد بن عمر بن الفتوح التلمساني إلى فاس ثم مكناس ماهو إلا تكفير عما صدر عنه من التفكير في المعصية، وكان ذلك بداية لزهده في الحياة أيضا(222).

هذه هي البواعث التي كانت حافزة على الرحلة، أو على الأقل هي التي نتوفر لها الآن على نماذج أو إشارات، وكل ما يوحي بأن الرحلات في هذا العصر كانت من أجل أهداف دينية أو علمية أو سياسية.

فهل كانت هناك رحلات تجارية قام بها أصحابها بحثا عن أسواق وأرباح وافرة؟

---

(219) سلوة الأنفاس 3 : 274.

(220) البستان ص 53 .

(221) النفح 2 : 385.

(222) فهرس ابن غازي ص 81 ـــ 82، نيل الابتهاج ص 292 ـــ 293.

إن عدم اهتدائنا إلى رحلات من هذا النوع، في هذه الفترة، لا يعني أنها مفقودة، أو أنها لم تحصل أصلا، خاصة وأن العصر كان يمثل قمة الازدهار الاقتصادي، والثراء الاجتماعي، والانفتاح على الشرق والغرب، كما ذكرنا آنفا، فلا يعقل ألا يكون هناك من لهم هذا الطموح الاقتصادي، وأسواق كثيرة مفتوحة لهم في الشرق والسودان والعدوة الأندلسية وبلدان المغرب الأخرى، ولا نمتلك الآن إلا رحلة واحدة تعود لأواخر العصر المريني قام بها شرقي يدعى عبد الباسط بن خليل بن شاهين الملطي القاهري[223]. استطاع أن يجمع فيها بين الفائدة التجارية والعلمية، وهو وإن لم يكن قد واصل رحلته إلى المغرب الأقصى، فأحداث إقبار الدولة المرينية بفاس اضطرته للتوقف في تلمسان، إلا أنه ذكر أشياء مهمة عن الأحوال الاقتصادية والاجتماعية كما وصلته أخبارها من فاس.

---

(223) رحلتان في شمال إفريقيا لبرانشفيق (بالفرنسية) ص 6 ـ 7.

الفصل الثالث :

ازدهار الرحلة ثم فتورها

نتناول في هذا الفصل حالة الرحلة في هذا العصر، وما اعتراها من تطور، وما شهدته من ازدهار أو توقف، وما عرفته من كثرة الرواد أو قلتهم حسب المراحل الزمنية التي مرت بها، والتي انعكس تأثيرها على الرحلة، فوجهتها حتما، وأثرت فيها سلبا وإيجابا، وبذلك سنكتشف أن الرحلة لهذا العصر هي المعبر الأمين عن الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية والتربوية والدينية، فكانت الرحلة إذن مؤثرة، ومتأثرة بكل هذا، ومن هنا كانت هناك لحظات وفترات انتعشت فيها وتوثبت من حيث الكم والكيف، كما اعترضتها فترات انحطت فيها وتوقفت.

ونقصد بالرحلة تلك التي كانت تتجه نحو المشرق والأراضي المقدسة هناك، ولا نعني الرحلات الداخلية التي قام بها أصحابها داخل المغرب وتنقلوا فيها بين الحواضر العلمية والمراكز الثقافية فيه، فهذا النوع من الرحلة عرف على النقيض ازدهارا وكثرة.

وإذا أردنا رسم خط بياني للحظات اندفاع الرحلة وثوثبها ثم لحظات الفتور ثم التوقف، أو الجفاف بعد الخصوبة، فإنه يجدر بنا أن نقسم الحديث عن هذا التطور إلى مرحلتين هامتين أو فترتين متباينتين وهو تقسيم له علاقة بالأحوال السياسية للدولة المرينية قوة وضعفا، وهكذا تشمل الفترة الأولى مرحلة ازدهار الدولة وعظمتها منذ التأسيس إلى ما بعد منتصف القرن الثامن الهجري بقليل بينما تشهد الفترة الثانية مرحلة ضعف الدولة ثم احتضارها.

الفترة الأولى :

وتتميز الفترة الأولى من الحكم المريني بازدهار فن الرحلة وكثرة الرحالين، وهي ظاهرة يلاحظها كل من قارن بين هذه الفترة من الحكم المريني والعهود التي سبقته، فإذا كنا — إلى الآن — لا نتوفر في الغرب الاسلامي كله إلا على رحلتين مدونتين ترجعان إلى ما قبل الحكم المريني، ونعني بهما رحلة ابن جبير وسابقتها لابن العربي فإننا على العكس من ذلك نجد في مدة أقل من قرن من الحكم المريني رحلات كثيرة مدونة تعد إلى الآن نماذج فريدة في فن الرحلة شرقا وغربا.

ومن غير الممكن الالمام بكل من رحل من المغاربة في هذه الفترة سواء من اطلعنا على رحلاتهم المدونة والذين لم نكشف عن مدوناتهم بعد، فهذه الفترة هي التي رحل فيها كل من ابن رشيد السبتي (ت 721هـ / 1321م) والعبدري (رحل عام 688هـ / 1289م)، وأبي القاسم التجيبي (ت 730هـ / 1329م)، وابن بطوطة (رحل عام 725هـ / 1323م) وعلي بن عتيق بن عبد الرحمن الفاسي (كان حيا عام 726هـ / 1325م) وأبي الفضل بن أبي مدين العثماني (تولى العلامة عام (749هـ / 1348م)، وابن سعيد الرعيني الفاسي (ت 778هـ / 1377م)، ومن الغرب الاسلامي عامة نجد خالد بن عيسى البلوى (رحل عام 737هـ / 1336م) والرحالة التجاني التونسي (رحل عام 706هـ / 1306م)...

وغير هؤلاء كلهم من الذين رحلوا ولم تصلنا مدوناتهم ورحلاتهم[1] بالاضافة إلى رحلات أخرى عرفت ازدهارا وتتابعا أيضا وهي الرحلات الصوفية الكثيرة داخل المغرب وخارجه كرحلة أبي زكرياء يحيى بن محمد بن أبي محمد صالح الماجرى الأسفي (ت 684هـ / 1285م)[2] ورحلة أبي يعقوب البادسي (734هـ / 1333م)[3]... وغيرها.

---

(1) هناك ذكر لعدد منهم في المراجع التالية : دليل الحج والسياحة ص 293 — 297 : La Berbérie orientale I : 370 مقال د. الجراري (مدخل لرحلة الحضيكي الحجازية، مجلة المناهل 10 : 44 — 52. مقال المنوني الجزيرة العربية في الجغرافيات والرحلات المغربية مجلة المجمع العراقي 29 : 150 — 188. مقال أ. عبد العزيز بنعبد الله (الرحلات الحجازية.) دعوة الحق سنة 19 عدد 5 ص 21 — 29.

(2) آسفي وما اليل ص 142

(3) مخطوط الخزانة الملكية رقم 9447 ص 229.

ويذكر لنا ابن بطوطة نفسه، وهو بمكة، قائمة أخرى بهؤلاء الذين رحلوا إلى مكة وآثروا الاقامة بها[4] مما يظهر الرحلة الكثيرة والمستمرة إلى هذه المناطق.

ويجب ألا نغفل، ونحن نستعرض رحلات العصر، هؤلاء الرحالة الذين تشير إليهم المظان والكتب على أنهم ألفوا في مجال الرحلة، ولكننا لم نهتد بعد إلى ما دونوه، فابن آجروم تذكر كتب التراجم بأنه «رحل إلى المشرق وحج وزار ولقي الشيخ أبا حيان وروى عنه واستجازه فأجازه وصنف مقدمته المذكورة تجاه بيت الله الحرام»[5]، ويذكر يحيى السراج بأنه «لقي في رحلته جماعة وأجازوا له»[6]ويشير إلى بعض هؤلاء، فكيف عرف السراج شيوخه إن لم يكن ابن آجروم قد ذكرهم في فهرسة أو رحلة؟ وهذا يعني أن رحلة ابن آجروم كانت معروفة آنذاك، بتفاصيلها والمذكرات التي يكون ابن أجروم قد دونها، والاجازات التي حصل عليها، والأسانيد العالية التي وفق إليها.

ويذكر السراج أيضا استفادة القباب من رحلته المشرقية التي حج فيها[7] أما أبو محمد عبد الله ابن مسلم القصرى الذي يحليه السراج بالمقرىء الحاج الرحال الراوية فيأخذ في رحلته عن ثلاثة وأربعين شيخا ينتمون إلى كل البلدان التي كانت في طريق الرحالة إلى المشرق، أو الحاج إلى البقاع المقدسة بالجزيرة العربية[8]، وأبو علي حسن البادسي يلقى في رحلته أيضا إلى الحجاز أعلاما وشيوخا كثيرين استفاد منهم وحصل على الاجازة من أغلبهم، والظاهر أنه كتب كل هذا في فهرسة أو رحلة كما يفهم مما ورد في فهرسة السراج يقول : «وكتب بخط يده درجا ذكر فيه جماعة من شيوخه الافريقيين والمشارقة وغيرهم كان عنده ثم ضاع»[9]، وهذا يدل مرة أخرى على أن هناك رحلات كثيرة تعرضت للتلف والضياع. فما هي العوامل التي ساعدت على الاكثار من الرحلة في هذه الفترة الأولى من الحكم المريني

---

(4) رحلة ابن بطوطة ص 148 ــ 149.

(5) درة الحجال 2 : 109،سلوة الأنفاس 2 : 112 ــ 114.

(6) فهرسة السراج ص 290.

(7) نفسه 184.

(8) فهرسة السراج ص 217 ــ 224.

(9) نفسه ص 54 ــ 55.

وماهي العوامل التثبيطية التي قللت من الرحلة إلى المشرق أو أوقفتها في الفترة الثانية من العصر المريني ؟

للاجابة عن السؤالين معا لابد من ربط هذه الأسباب أو العوامل بالبيئة السياسية، والاجتماعية، والثقافية، أي بالوضعية العامة التى كان عليها المغرب في المرحلتين معا.

فازدهار الرحلة في الفترة الأولى يمكن إرجاعه إلى عاملين أساسيين :

أ ــ أولهما بسط السيادة المرينية وتمكنها من السيطرة على أهم المناطق في المغرب العربي والأندلس، مما جعل تلمسان وغيرها من مدن المغرب الأوسط تظل أزمنة طويلة تابعة للنفوذ المريني، وتقدم البيعة للسلطان المريني وتخطب له على منابرها(10).

فالاعتراف بالسيادة المرينية والاذعان لها من طرف الخصوم، وإقرار كل من الأندلسيين وبني عبد الواد والحفصيين بأن قوة المرينيين لا تقهر لعدتها وعددها، بسط نوعا من الاستقرار، وأشاع الطمأنينة في النفوس فانصرف المرينيون إلى أعمال اجتماعية ودينية كان لها الأثر الكبير على تنشيط الرحلة وإنعاشها بعد أن كانت قليلة أو منعدمة من قبل بسبب الحروب الكثيرة التي صاحبت نشاة الدول التي خلفت الموحدين في الحكم بالمنطقة.

ومن أهم ما فعله المرينيون في هذا المجال :

1 ــ إصلاح السابلة وذلك بالقضاء على قطاع الطرق والمفسدين الذين كانوا ينهبون الحجاج ويعيثون في الأرض فسادا، والحق أن قوة بني مرين ضمنت الأمن وارجعت الطمأنينة وصرفت المفسدين عن الاقدام على مثل هذا العمل الشنيع الذي كان أحد أسباب تردد الحجاج في قضاء فرضهم، أو إحجامهم عن القيام به، وتعطيل هذا الركن الاسلامي، ولذلك لم يتساهل المرينيون مع هؤلاء المفسدين بل عاملوهم بصرامة وعاقبوا كل من تعرض للحجاج والرحالة بأذى، فساد المغرب شعور بالأمن والطمأنينة وأقبل الكثيرون على تأدية فريضة الحج، وزيارة البقاع المقدسة، والذهاب إلى مراكز العلم بالمشرق للاتصال بالعلماء هناك، والنهل من المعارف... وهكذا رحلوا فرادى وجماعات دون خوف أو قلق، ولقد أشار ابن خلدون إلى هذا الاقبال على الرحلة نحو المشرق عموما، والحجاز خاصة بعد أن زالت الموانع وأمنت الطرق،

---

(10) تاريخ ابن خلدون 7 : 756.

واندحر دعاة الفتنة والشغب والفساد يقول : «لما استولى السلطان على المغرب الأوسط بممالكه وأعماله، وهنأته ملوك الأقطار وأعراب الضواحي والقفار، وصلحت السابلة ومشت الرفاق إلى الآفاق، استجد أهل المغرب عزما في قضاء فرضهم ورغبوا من السلطان إذنه لركب الحاج في السفر إلى مكة، فقد كان عهدهم بعد بمثلها لفساد السابلة واستهجان الدول»(11)

والسلطان الذي يشير إليه ابن خلدون هو يوسف المريني (685 ــ 706) الذي اعترف له بالسيادة في كل المغرب، فزالت موانع السفر، بل إن كثيرا من حروب وحملات المرينين على خصومهم في المغرب العربي، كان من أهدافها إزالة ما يعوق تأدية فريضة الحج، ويلحق الضرر بالمسافرين، وممتلكاتهم، لأن بني عبد الواد كانوا كلما استرجعوا تلمسان وما حولها، يحاصرون الطرق والمسالك، ويقطعون السبل، فلا يتمكن المغاربة حينئذ من العبور نحو المشرق، ومن هنا كان إعلان الحرب مشروعا من وجهة المرينيين، أعرب عن هذا القصد أبو الحسن المريني في رسالته إلى سلطان مصر عقب انتصاره على بني عبد الواد واستيلائه على المغرب الأوسط سنة 738هـ «فتيسر بذلك القصد إلى بيت الله الحرام» بعد أن «حجز عن الحجاز الشريف قصاده» بسبب فساد بنى عبد الواد وقطعهم للطرق(12).

ولعله الهدف نفسه الذي دفع أباعنان ليتجه بعدته وعدده في حركة نحو قسنطينة والمغرب الأدنى كما أشار إلى ذلك كاتبه ومرافقه في هذه الحركة ابن الحاج النميري في فيض العباب يقول : «واعلم أن المراد أن تجتمع كلمة الاسلام ويلتئم أحزابها أحسن الالتئام، وتتجلى الدواعي لجهاد عبدة الأصنام، ويستطاع السبيل لحج بيت الله الحرام، وزيارة سيدنا ومولانا محمد خير الأنام عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، وينحسم داء الفتنة وينقضي أمد المحنة ويمحو شر الفساد، ويرتفع الظلم الذي اعتز به اللئيم فساد»(13).

وكذلك كان الأمر بالنسبة لأبي سالم المريني وهو يستولي على تلمسان من جديد ويعيد الأمور إلى نصابها، فيستتب الأمن وينفتح طريق الحجاج مرة أخرى بعد أن أغلق في أواخر حكم أبي عنان، ولقد عبر ابن الخطيب عما شعر به الحجاج

---

(11) تاريخ ابن خلدون 7 : 467 ــ 468.

(12) الرسالة بكاملها في صبح الأعشى 8 : 87، مجلة المناهل 10 : 229 بحث أ ابن تاويت

(13) فيض العباب ص 80 ــ 81.

والرحالون من ارتياح وقد فتحت الطرق أمامهم وأزيلت العقبات، وذلك في رسالة التهنئة التي بعث بها إلى أبي سالم المريني يقول فيها : «وفتح باب الحج وكان مسدودا وأقر عيون أولياء الله الذين يذكرون الله قياما وقعودا، وأضرع بسيف الحق جباها أبيه وخدودا»[14].

فإصلاح السابلة كان من أهم أهداف هذه الحروب والحركات التأديبية التي كان المرينيون يشنونها على غيرهم ممن يقعون في طريق الحاج المغربي، مما يظهر عدم تساهلهم في الضرب على أيدي المفسدين بل إن جماعات السنة التي أخذت على عاتقها في هذه الفترة القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ساهمت كذلك في القضاء على المفسدين وقطاع الطرق، فالقانون الأساسي الذي كان ينظم جماعتهم يقدمه ابن خلدون بقوله : «وأكثر ما يعنون بإصلاح السابلة لما أن أكثر فساد الاعراب فيها لما قدمناه من طبيعة معاشهم ... وتوبة العرب ورجوعهم إلى الدين إنما يقصدون بها الاقصار عن الاغارة والنهب»[15].

وإذن فمفهوم التوبة عند هذه الجماعات السنية التي تصدت للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو عدم قطع الطرق والافساد والاغارة على الركب ونهب أمتعته وبضائعه، مما يدل على أن أمر تعطيل الحج لهذه الموانع كان يقض مضجع كل المغاربة مسؤولين وشعبيين، خاصة وعامة، ولذلك اتجه الجميع إلى محاربة المفسدين، وإرغامهم على الكف عن التعرض للحجاج وأمتعتهم فأمنت الطرق، وتكاثر الحجاج إلى بيت الله.

2 ــ تأمين الطرق :

وهو العامل الثاني الذي سهل على الحجاج، والمسافرين عامة، أمر السفر والرحيل والضرب في الأرض بعد أن اطمأنوا على النفس والمال، وهذا العامل لا يقل أهمية عن سابقه، فإذا كان إصلاح السابلة يهدف بالدرجة الأولى إلى قطع دابر المفسدين والضرب على أيديهم وإزاحتهم عن الطرق الرئيسية، وجعلهم يخافون السلطة وسيادتها، فإن تأمين هذه الطرق يقتضي بالاضافة إلى الضرب على أيدي المفسدين إحداث مؤسسات أمنية دائمة في الطرق ومحطات يستريح فيها الرحالة والمسافرون،

---

(14) نفح الطيب 5 : 37 ــ 40.

(15) مقدمة ابن خلدون ص 585. ورقات ص 243.

ويجدون فيها كل ما يطمئنهم ويهديهم في طريقهم، ولعل الذي اكتمل في عهده تنظيم هذه الشبكة الأمنية هو أبو الحسن المريني الذي «لما نزل بتلمسان وحاصرها كان أعظم ما نقم على صاحبها تعرضه للمتوجهين من المغرب برسم الحج... ولما فتحت تلمسان صار يعين في كل سنة ركبا متوجها»(16)، كما ذكر صاحب المسند ولذلك عمل هذا السلطان على أن يستمر طريق الحجاج مفتوحا آمنا، فإحداث سلسلة من المحارس والمنازل والمخيمات على رأس كل اثني عشر ميلا لحماية هؤلاء الحجاج وتموينهم بما يلزم من الأغذية والعلاج. وإرشادهم إلى أقرب الطرق واسلمها، ولقد سجل ابن مرزوق هذا العمل الجليل الذي قام به أبو الحسن بقوله : «أنشأ هذا المولى — رضي الله عنه — من المحارس والمناظر ما لم يعهد مثله في عصر من الأعصار، وحسبك أن من مدينة آسفي وهو آخر المعمور إلى بلد الجزائر، جزائر بني مزغنان، آخر وسط المغرب وأول بلاد إفريقية محارس ومناظر، إذا وقعت النيران في أعلاها تتصل في الليلة الواحدة أو في بعض ليلة وذلك في مسافة تسير فيها القوافل نحوا من شهرين وفي كل محرس منها رجال مرتبون نظار وطلاع يكشفون البحر فلا تظهر قطعة تقصد ساحل بلاد المسلمين إلا والتنفير يبدو في المحارس فامنت السواحل في أيامه السعيدة»(17) وساد الأمن أيضا الطرق البرية، فانتعشت الرحلة عن طريق البر والبحر.

3 — تنظيم ركب الحاج المغربي :

وذلك بإشراف الملوك أنفسهم على إرساله، وتقديم ما يحتاج إليه، وتهيىء كل لوازمه، والتكفل بحمايته إلى أن يصل إلى مصر حيث يتكفل أهل مصر حينئذ بالحماية بناء على المعاهدات والعلاقات الودية.

وكان للركب أثر كبير في ربط المشرق بالمغرب، وتنشيط الرحلة من المغرب وإليه، نظرا لما يصحب الركب عادة من علماء وعلية القوم ممن لهم رغبة في تأدية الفريضة أو لقاء الشيوخ، ولما كان يرجع مع الركب عادة بعد انتهاء موسم الحج من علماء الشرق وفقهائه.

---

(16) المسند الصحيح الحسن ص 256.

(17) المسند الصحيح مخطوط الخزانة العامة ص 266

والمعروف عن الملوك المرينيين في هذه الفترة، أنهم كانوا يعملون ــ بدون استثناء ــ على تسيير الركب وتزويده بما يحتاج إليه، ولا يمكننا أن نلم بجميع أصناف الركب المغربي للحجاج كالركب الفاسي، أو السجلماسي، أو المراكشي، أو الشنجيطي، أو البحري[18] ... وإنما يكفينا إيراد بعض النقول القصيرة والاشارة إلى بعض الأحداث المتعلقة بركب الحاج المغربي لاظهار مدى العناية به في هذه الفترة من العهد المريني، ونحيل ــ من أجل الاحاطة والتفصيل في الموضوع ــ على الكتاب القيم للأستاذ المنوني بعنوان «ركب الحاج المغربي»[19].

فأبو يعقوب يوسف المريني أرسل سنة 703هـ / 1303م) مصحفا إلى الديار المقدسة مع ركب الحاج المغربي «وعني بشأن هذا الركب فسرح معهم حامية من زناتة تناهز خمسمائة من الأبطال، وقلد القضاء عليهم محمد بن زغبوش من أعلام أهل المغرب وخاطب صاحب الديار المصرية واستوصاه بحاج المغرب من أهل مملكته، واتحفه بهدية من طرف بلاد المغرب فاستكثر فيها من الخيل العراب والمطايا الفارهة يقال إن المطايا كانت منها أربعمائة، حدثني بذلك من لقيته إلى ما يناسب ذلك من طرف المغرب وما عونه ونهج السبيل بها للحجاج من أهل المغرب فاجمعوا الحج سنة أربع بعدها»[20].

ومن خلال وصف ابن خلدون لهذا الركب نتبين مدى الاهتمام الذي يعطي للركب من طرف الجميع، من إشراف الملوك أنفسهم على تجهيزه وسهرهم على حمايته بالجيوش، فلقد كان هذا الركب مصحوبا بحامية مسلحة لردع كل المفسدين والمعتدين وقطاع الطرق، كما يقع الاتصال بصاحب مصر في شأن تسهيل الصعاب وتقديم المساعدة للركب إن احتاج إلى ذلك.

فالركب يكون محملا بالهدايا للحرمين الشريفين، ولملوك مصر، وللشرفاء كما يكون مناسبة لارسال المصاحف والأموال حتى توقف على المساجد في الأماكن المقدسة كمكة، والمدينة، والقدس ... بالاضافة إلى رسائل يبعثها أصحابها مع الركب إلى قبر الرسول عليه السلام مهداة إلى روحه ــ ص ــ مثل الرسالة التي بعث بها أبو عنان المريني[21] لنفس الغاية.

---

(18) ركب الحاج المغربي ص 9.

(19) نشر معهد مولاي الحسن بتطوان سنة1953

(20) تاريخ ابن خلدون 7 : 468،ركب الحاج ص 12 ــ 13. صبح الأعشى 8 : 99، المناهل 11 : 237.

(21) كشف الظنون، ركب الحاج ص 27.

ولم يكن الركب يلقى هذا الاهتمام في زمان الرخاء وهدوء البال فقط، ولكن أيضا في ظروف الحرب والشدة واضطراب الأحوال، فهذا أبو الحسن المريني ينصرف إلى تهيىء ركب الحاج في وقت يستعد فيه لمنازلة الأعداء بالجزيرة، وكأن الركب لا يمكن التخلي عنه أو تعطيل إرساله، حتى في حالة الطوارىء كإعلان الجهاد وما يتطلبه ذلك من استعداد وحشد الطاقات والامكانات البشرية والمادية، فإرسال الركب مقدم على غيره في هذه الفترة التي نتحدث عنها، خصوصا ما كانت تتيحه هذه المناسبة من بعث الهدايا والرسائل والسفارات والمصاحف إلى الحواضر المشرقية عامة والأماكن المقدسة خاصة[22].

وكانت مناسبة ذهاب الركب إلى الحجاز عن طريق مصر تتيح أيضا اشتراك المغاربة عملياً في مهرجان المحمل المصري بالقاهرة، وذلك بحمل جانب من كسوة الكعبة المشرفة ومرافقته في الطريق من مصر إلى مكة المكرمة، وهذا تشريف يعد مفخرة لمن يظفر به، فالكثير يرافق الركب من أجل نيل هذا الشرف الذي يحرص عليه الجميع، وظل الأمنية الغالية حتى في الأعصر التي تلت العصر المريني[23].

4 ــ دور الزوايا في ازدهار الرحلة.

وهو دور إيجابي طبعا بما عرفت به هذه الزوايا آنذاك من ثراء وغنى، وما كانت تقدمه للغرباء والحجاج خاصة من مساعدة كالطعام واللباس، وأهميتها ترجع إلى أنها في هذا الوقت قد انتشرت في العالم الاسلامي كله مما هيأ للحاج الرحالة كثيرا من متطلباته وهو في الطريق شرقا وغربا لأن الزوايا «أصبحت مراكز تستهوي قلوب الناس ومدارس دينية، كما أصبحت إلى حد ما دور ضيافة مجانية يقصدها الرحالة الذين يبحثون عن الكمال الروحي»[24].

ولا يشترط في الزائر الذي يقصد هذه الزوايا أن يكون متصوفا زاهدا حتى يطعم ويسقي وتقدم له المساعدات، ولكننا نتبين من خلال رحلة ابن بطوطة مثلا أن الزوايا كانت فعلا دور ضيافة مجانية للجميع يكرم فيها الزائر قبل أن تعرف هويته.

---

(22) انظر رسالة أبي الحسن إلى صاحب مصر. النفح 4 : 386 ــ 394 الاستقصا 3 : 140 ــ 146، ورقات ص 160 ــ 166.

(23) رحلة العياشي 1 : 150 ــ 154، 156، ركب الحاج ص 21.

(24) المسند الصحيح الباب 42 الفصل 3. دائرة المعارف الاسلامية 10 : 322.

وعلى أي فإن الزوايا لم تكتف بهذا الدور، فقط، بالنسبة للرحلة، ولكنها عملت على تشجيع من يذهب للحج بتكريمه بعد رجوعه، وتقديم ما يلزمه من خدمات، فهناك زاوية بمكناس أطلق عليها زاوية الحجاج لأنها خاصة بهم، فأعضاؤها وروادها يجب أن يكونوا قد أدوا هذه الفريضة، فلقد كان شعارها الذي كتب عليها يتمثل في أبيات لأبن جابر الغساني وهي[25] :

هـذا مقـام الزائريـن لأحمد ... مـن جـاء بالقـرآن والآيـات
ياليتني أسعى إلى خير الـورى ... وأقبـل الآثـار والجدرات
يـارب جـاز القائـمين بحقـه ... بتوابـع الاحسان والحسنـات
واغفـر لـه ولمن أراد بنـاءه ... والسامـعين وناظـم الأبيـات

وكانت طريقة أبي محمد صالح لا تكتفي بمثل هذا النوع من التشجيع، بل انتقلت إلى الدعوة إلى حج بيت الله الحرام، عاملة على إزالة الصعوبات والعوائق أمام الحاج، فأسست الرباطات العديدة لتكون أماكن نزول الحجاج المغاربة في ذهابهم وإيابهم من آسفي إلى الحجاز[26]، والغالب أن هذه السنة الحميدة قد استمر العمل بها إلى زمن العياشي فلقد شاهد بالأسكندرية «زاوية لأبي محمد صالح ينزلها المغاربة ولهم فيها أوقاف»[27].

كما أن هناك جماعة من الحجاج كونت ما يشبه الرابطة اطلقت عليها «طائفة الحجاج»، «لا يقبل عضوا فيها إلا من حج بيت الله الحرام»[28].

وهذا دليل على كثرة عدد الذين أدوا هذه الفريضة من جهة، ورغبة الجميع في الابقاء على الصلة فيما بينهم إلى الأبد، مما يدفعهم إلى مساندة بعضهم بعضا ومؤازرتهم في كل الأحوال، بل ويحملهم على هذه المؤاخاة الروحية.

ب : الصلات الطيبة بين المغرب والمشرق :

فالعلاقات الودية التي ربطت المشرق بالمغرب في هذه الفترة كانت عاملا مهما أيضا في ازدهار الرحلة، والاقدام عليها، نظرا للتواصل المستمر والدائم بين المسؤولين

---

(25) الجذوة 1 : 318، ركب الحاج ص 73.

(26) ركب الحاج ص 8.

(27) رحلة العياشي 2 : 367.

(28) انس الفقير ص 64.

في البلدين معا، والمتمثل في السفارات المنتظمة التي كان كلا الطرفين يحرص من خلالها على إبلاغ الطرف الآخر أهم ما يشغله سياسيا واجتماعيا ودينيا، فكانت موضوعاتها تتعلق عادة بالجهاد، وردع المعتدين والمناوئين والخصوم، والتوصية بركب الحاج...

ولقد انتظمت هذه السفارات المغربية نحو المشرق منذ أواخر القرن السابع الهجري، في عهد أبي يعقوب المريني الذي بويع سنة 685هـ / 1286م ولعل هذا هو سبب كثرة الرحلات الحجازية في هذه الفترة.

ولقد كان الطرفان معا، المشرقي والمغربي، يحرصان على تبادل هذه السفارت بانتظام، فلم تنقطع أو تتوقف إلا في فترات انشغال المغاربة بالجهاد في الأندلس كما وقع في وقعة طريف مثلا(29).

وبهذا تمتنت الصلات المشرقية المغربية، وانتقل الطرفان إلى ميدان التعاون، وتعهد المشارقة بحماية الركب، وإزالة ما قد يعترضه من عوائق في الطريق، ولقد ترجم ذلك في عملين هامين بالنسبة لازدهار الرحلة والاقبال عليها، وهذان العملان هما :

1 ــ حماية ركب الحجاج المغاربة :

فلقد أكده الملوك المصريون في المناسبات قولا وعملا، مما جعل الرحلة تنشط وتكثر بسبب هذه الحماية التي يتحدث عنها كل من عاد من الحج مع الركب، فكثير من المغاربة كانوا يتحرقون شوقا إلى زيارة قبر الرسول عليه السلام وتأدية الفريضة، ولكن أخطار الطريق ومشاقه تصدهم عن هذا المسعى، أما وقد أزيلت الموانع، وأعيد الأمن، وتكفل ملوك مصر بحماية الحجاج في الذهاب والأياب، فما الذي يمنعهم من إشباع رغبتهم، والوصول إلى تحقيق أعز أمنياتهم؟ وجل مراسلات المصريين إلى المغرب كان يقع التركيز فيها على حماية الركب وطريق الحجاج، والحفاظ على الأمن. وفاء بالتعهدات والالتزامات.

من هذه المراسلات مثلا ما كتب به الأديب خليل الصفدي عن الناصر ابن قلاوون صاحب مصر جوابا على رسالة أبي الحسن المريني سنة 745هـ، ولقد ورد في آخر الرسالة المصرية :

---

(29) انظر تفاصيل هذه السفارات في ورقات للأستاذ المنوني ص 129 ــ 179.

«وإذا وصل وفدكم الحاج وأنار له بوجه إقبالنا عليهم ليلهم الداج، كانوا مقيمين تحت ظل إكرامنا، وشمول إسعافنا لهم وإنعامنا، يتخولون تحفا أنتم سببها، ويتناولون طرفا في كؤوس الاعتناء بهم ينضد حببها، وإذا كان أوان الرحيل إلى الحج فسحنا لهم الطريق وسهلنا لهم الرفيق، وبلغناهم بحول الله تعالى مناهم من منى، وسؤلهم ممن إذا زاروا حجراته الشريفة حازوا الراحة من العناء وفازوا بالغنى، وإذا عادوا عاملناهم بكل جميل ينسيهم مشقة ذلك الدرب ويخيل إليهم أن لا مسافة لمسافر بين الشرق والغرب، وغمرناهم بالاحسان في العود إليكم، وأمرناهم بما ينهون شفاها لديكم»(30).

ولقد أكدت هذه الفقرة من الرسالة المصرية على جملة أمور تتظافر كلها لتجعل الركب ينعم بالأمن وهدوء البال وهو يتوجه إلى البقاع المقدسة أو يرجع منها، فالملك المصري يحتضن هذا الركب وما به من الحجاج بمجرد وصولهم إلى مصر في طريق الحجاز فيغمرهم بإنعامه وإكرامه طيلة مقامهم ببلده، وحينما يرحلون لتأدية الفريضة «يفسح لهم الطريق ويسهل لهم الرفيق» بأن يحرسهم من قطاع الطرق والمفسدين، ويبعد عنهم الخوف والاضطراب، فإذا أدوا فريضتهم في هذا الجو من الاطمئنان والهدوء النفسي ووصلوا إلى مصر في طريقهم إلى وطنهم فإنهم يلقون أيضا نفس الترحيب والاحتفال، إذ يكرمون وينعم عليهم، فيجدون كل ما ينسيهم مشقة الطريق وعذاب السفر، إلى أن يتهيؤوا إلى العودة إلى المغرب حيث يحملون الهدايا المختلفة والطرف الثمينة، والأهم من ذلك كله أنهم يكلفون من طرف ملك مصر بنقل رسائل شفوية إلى الملك المغربي لادخال السرور عليه، وإبلاغه حرص الجانب المصري على تمتين العلاقة، وإعلامه بأمن الطريق وسلامة الحجاج...

2 ــ إسقاط المكوس عن الحجاج :

وتأدية المكوس كانت من العوائق التي تعترض الحاج في طريقه، ومراحل توجهه إلى الحجاز، ولقد أشار ابن جبير إلى هذه المضايقات فذكر ما كان يعانيه الحاج من الاستغلال في القرن السادس الهجري حيث «لا يزال في غرامة ومؤونة إلى أن ييسر الله رجوعه إلى وطنه»(31).

---

(30) نفح الطيب 4 : 398. الاستقصا 3 : 150.

(31) رحلة ابن جبير ص 54.

لهذا اعتقد الفقهاء إسقاط فريضة الحج في هذه الظروف التي كان الحاج يستغل فيها أسوأ استغلال فتسلب منه أمواله بطرق عديدة[32].

إلا أن ابن جبير يذكر بأن الله من على الحجاج بالعمل الجليل والفعل الجميل الذي قام به صلاح الدين بعد أن أصدر أمره برفع المكوس والمغارم عن الحجاج «فانبسطت لذلك النفوس وزاد السرور وزال البوس»[33].

وهذا ما جعل السن الحجاج تنطق بالثناء عليه والشكر على فعله الجميل من ذلك قصيدة ابن جبير في مدح صلاح الدين التي ورد فيها قوله[34] :

رفعت مغارم مكس الحجاز	بانعامك الشامل الغامر
وأمنت أكناف تلك البلاد	فهان السبيل على العابر

ورغم ما فعله صلاح الدين في أواخر القرن السادس الهجري، وما كان له من الأثر الطيب والذكر الحسن، إلا أن الحجاج المغاربة ظلوا ــ مع ذلك ــ يتعرضون من حين لآخر لمضايقات كثيرة، وضروب من التنكيل والاذاية، فلقد وصف العبدري ما لقيه مع الحجاج المغاربة بالأسكندرية من نكال، وما تحملوه من أذى، إذ انتهكت الحرمات، وانتزعت الأموال من أصحابها «فمدوا في الحجاج أيديهم وفتشوا الرجال والنساء، وألزموهم أنواعا من المظالم، وأذاقوهم ألوانا من الهوان، ثم استحلفوهم وراء ذلك كله»[35].

وربما كان لابن رشيد السبتي، الذي رحل قبل العبدري بأربع سنوات، نفس الملاحظات، ونفس الشعور، وهو يدخل مدينة الأسكندرية[36]، إلا أننا مع الأسف

---

(32) نفسه ص 55.

(33) شفاء الغرام ورقة 288 أ ــ ب.

(34) الرحلة المغربية ص 94 ــ 96، نفح الطيب 2 : 382.

(35) الرحلة المغربية ص 93.

(36) الظاهر أن هذه الممارسات التعسفية والمضايقات لم تختف نهائيا فإذا كنا لا نعرف أيضا موقف التجيبي في الأسكندرية لضياع هذا الجزء من الرحلة، ففي أخميم يعلن تذمره من المكوس وأصحابها حين أجبر على الاقامة أربعة أيام بسبب اعتقال المكاسين لمركبهم، انظر مستفاد الرحلة ص 171. ويتحدث البلوى أيضا عن هذه المضايقات في رحلته التي دخل فيها مرسى الأسكندرية في 13 جمادى الأخرى عام 737 ه يقول : «وحملنا بأجمعنا إلى الديوان هناك شاهدنا الحساب ورأينا العذاب وملئوا منا البيوت والرحاب ثم أمرت اليد على القليل والكثير والحقير والنقير والدفتر والقظمير والرفيع والوضيع والغني والفقير وفتشت الأوساط وعم الزحام والاختلاط... فأخد من كل عشرة ديناران ومن كل عشرة دراهم درهمان ظلما وعدوانا وجورا وطغيانا» تاج المفرق 1 : 197.

لا يمكننا أن نثبت كما لا يمكننا أن ننفي بسبب ضياع بداية الجزء الثالث من رحلته وبذلك نفاجأ ونحن نقرأ في أول ما بقي من الجزء «وممن لقيناه أيضا بثغر الأسكندرية»[37] فكل من العطف وعبارة أيضا تدلان معا على أن هناك أشياء وأخبارا وتراجم وأوصافا مر ذكرها من قبل قد ضاعت، منها قضية المكوس هنا وعملية التفتيش[38]...

ولكننا نفترض أن هذه المضايقات قد زالت بعد انتعاش العلاقات المغربية المصرية، وتبادل السفارات منذ عهد يوسف المريني كما سبق الذكر، يدل على ذلك أننا لم يحدثنا عنها أحد من الرحالة فيما بعد، ولم يعلن تضرره منها، فهذا ابن بطوطة الذي كان حريصا على وصف كل ما يشاهده ونقل كل ما يسمعه لم يشر إلى هذا الأمر، فلقد وصف[39] كل ما رآه بالأسكندرية من أبوابها ومرساها ومنارها وعمود السواري بها، وذكر علماءها وما سمع به من أخبار وحكايات وطرائف وكرامات، فلو كان التفتيش موجودا لما تردد في ذكره وانتقاد مرتكبيه، خصوصا وأننا قد تعودنا منه غيرته على الدين، وعمله على تغيير المنكر، والذب عن الدين وأصحابه...

كل هذا يرجح ما ذكرناه من قبل من أن الحجاج في هذه الفترة كانوا يستقبلون بحفاوة في مصر وغيرها من بلاد الشرق تطبيقا لما التزم به المسؤولون في المراسلات التي أشرنا إلى بعضها.

الفترة الثانية :

وما كاد ينتصف القرن الثامن الهجري حتى وجدنا الرحلة المغربية إلى المشرق تقل شيئا فشيئا إلى أن تصل في مرحلة لا حقة نحو التوقف والانقطاع[40]. ولذلك «يعتبر بعض الجغرافيين أنه بانتهاء عصر ابن بطوطة تقفل صفحة الرحلات الجغرافية في العصور الوسطى»[41] فابن بطوطة إذن «كان آخر جغرافي عالمي من الناحية العلمية»[42].

---

(37) رحلة ابن رشيد 3 : 2 ب.

(38) رحلة ابن رشيد المطبوعة 3 : 20 مقدمة للمحقق ابن الخوجة.

(39) رحلة ابن بطوطة ص 15 ــ 24.

(40) ورقات ص 237:مجلة المجمع العلمي العراقي 29 : 151..

(41) تاريخ كشف إفريقيا ص 52 مجلة المناهل عدد 5 ص 127.

(42) تاريخ الأدب الجغرافي 1 : 421

وليس معنى هذا أن الرحلة توقفت نهائيا، ولكنها أصبحت عسيرة، وقليلة، فالرحلة بقيت حتى في ظروف الاضطراب واختلال الأمن، والدليل على ذلك رسالة ابن الخطيب سنة 769هـ إلى ابن خلدون يعاتبه فيها على عدم الكتابة، مع أنه بإمكانه الكتابة والمراسلة فالحجاج يمرون باستمرار جاء في هذه الرسالة «والمطلوب المثابرة على تعريف يصل من تلك السيادة والبنوة إذ لا يتعذر وجود قافل من حج أو لا حق بتلمسان يبعثها السيد الشريف منها»[43].

وإذن فالرحلة مستمرة إلى الشرق رغم الصعاب، والألما وجد من يحمل هذه الرسائل التي تبودلت بين المشرق والمغرب. كرسالة ابن زمرك التي حملها أبو القاسم الساحلي إلى ابن خلدون فقدمها له بالينبع وهو في طريقه إلى الحج كما أخبره في الرسالة بأنه بعث له بجملة من الكتب والقصائد من ضمنها قصيدة في مدح صاحب مصر، كما طلب منه تزويده بكتب معينة يبعثها له[44].

وتوصل ابن خلدون أيضا وهو بالمشرق برسالة من قاضي الجماعة بغرناطة أبي الحسن علي بن الحسن البني[45].

ولكن بالرغم من هذه الاتصالات والمراسلات، كان هناك فتور في الرحلة وتحفظ في الاقدام عليها، بسبب العوائق والصعوبات التي سنتحدث عنها فيما بعد، فالكثيرون كانوا يعدلون عن الرحلة إلى المشرق بسبب هذه الصعوبات رغم تلهفهم لزيارة البقاع المقدسة، ورغبتهم في تأدية الفريضة. ولقد أبان ابن الخطيب في كثير من المناسبات عن تحسره وأسفه على عدم استطاعته الرحلة لتأدية الفريضة[46].

فما هي أسباب قلة الرحلة ثم توقفها ؟ هل للرحلة علاقة بالتدهور الذي طرأ على الدولة المرينية في أواخر حياتها، فانعكس على الأدب عامة[47] والرحلة خاصة ؟ أم أن هناك عوامل أخرى عملت على هذا الضعف والتوقف ؟ ومع عدم انكارنا

---

(43) التعريف بابن خلدون ص 122.

(44) التعريف بابن خلدون ص 262.

(45) نفسه ص 274.

(46) نفاضة الجراب 2 : 149، 172.

(47) الوافي بالأدب العربي في المغرب بالأقصى 2 : 565.

لهذه العلاقة الطبيعية بين الضعف العام الذي ألقى ظلاله على كل شيء وهزال الرحلة وقلتها، فإننا يمكننا مع ذلك أن نلاحظ أن هناك عوامل مباشرة كان لها أثرها على ضمور فن الرحلة وإيقافه، ويمكن إجمالها فيما يلي :

أولا : تجميد العلاقات المشرقية المغربية.

وإذا كان العهد المريني الأول الذي سبق الحديث عنه، قد عرف نشاطا في العلاقات المغربية المشرقية وازدهارا في الصلات بينهما، وانعاشا لها عن طريق تبادل الهدايا والطرف والسفارات والمراسلات... فإن العهد المريني الثاني شهد فتورا في هذه العلاقات وتوقفا مفاجئا لها، و لم تبق هذه الصلات القليلة إلا في مناسبات مرور الركب إلى البقاع المقدسة، أو حمل الرسائل والقصائد إلى الضريح النبوي على نحو الرسالة العنانية التي حملها أبو القاسم البرجي إلى الضريح النبوي وقيامه بالسفارة لدى ملوك مصرحين توقفه بها سنة 756هـ / 1355م [48]، وكرسالة أبي فارس عبد العزيز الأول إلى الضريح النبوي[49].

وهذا الفتور في العلاقات بين المغرب والمشرق، لهذا العهد، هو الذي دفع ابن خلدون إلى القيام بمبادرة خاصة للتمهيد لاعادة الصلات إلى طبيعتها الأولى، فكاتب في ذلك المغاربة، وهو في مصر، خصوصا بعد أن رأى تشوف الملك الظاهر إلى الجياد المغربية بما عرفت به «من الشدة والصبر على المتاعب»[50]، وهو الذي أوعز إلى ملك مصر في أن يبعث هدية فاخرة إلى المغرب، ويبلغ الملك رغبته في هذه الخيول، فيلقى كل من الهدية والمطلب الترحيب، ويشرع أبو العباس أحمد بن أبي سالم في جمع الطرف وانتقاء الخيول لولا أن المنية قد عاجلته، و لم يتات ربط هذا الاتصال إلا على يد ابنه أبي عامر حيث استكمل الهدية وبعثها صحبة يوسف ابن علي[51].

وبحدوث هذا الابطاء في وصول الرد والهدية المغربية إلى مصر بادر ملك مصر، بإيعاز من ابن خلدون أيضا، إلى إرسال المملوك قطلوبغا إلى القيام بمهمة انتقاء

---

(48) التعريف بابن خلدون ص 248.

(49) ورقات ص 184.

(50) التعريف بابن خلدون ص 339.

(51) نفسه ص 340.

الخيول وحمل الرسائل والهدايا إلى كل من سلطان تونس وتلمسان والمغرب الأقصى[52].

وقدر لهذه المهمة أن تنجح، وللمساعي أن تثمر، إذ رجع قطلوبغا من المغرب وبصحبته هدايا من كل من المغرب وتلمسان وتونس «وكانت هدية صاحب المغرب تشتمل على خمسة وثلاثين من عتاق الخيل بالسروج واللجم الذهبية والسيوف المحلاة وخمسة وثلاثين حملا من أقمشة الحرير والكتان والصوف والجلد منتقاة من أحسن هذه الأصناف»[53].

وكانت الفرحة عظيمة، وسلطان مصر يستعرض هذه الخيول والهدايا الفاخرة، وأحس ابن خلدون بهذا الفرح والسرور عبر عن ذلك بقوله : «فحمدت الله على ذلك»[54].

والحقيقة أن هذه الاتصالات قد أعادت ربط العلاقات بين المغرب والمشرق، وعملت على مواصلة التشاور، والتراسل لتبادل الرأي في القضايا المختلفة فهذا أبو سعيد الثاني يعلن في رسالته إلى مصر سنة 804هـ / 1401م استعداده لمساعدة مصر في صد الزحف التتري[55]. ومع ذلك فلم يعد ذلك التواصل المستمر الذي كان في الماضي بين المشرق والمغرب، كما رأينا زمن حكم أبي الحسن المريني.

ثانيا : تدهور الأحوال الأمنية :

أهم ما يميز هذه الفترة، أنها فترة كانت تغلي بالصراعات والفتن والمكائد والأحلاف سواء في الشرق أو الغرب.

فبانتهاء حكم أبي عنان دخل المغرب عهد الصراع على الحكم، فكثرت الدسائس والاغتيالات، ونصب القاصرون على رأس الدولة، فتغلب الحجاب واستبدوا وانعدمت الشرعية، وعطل القانون، وبدأ جانب المسيحيين يقوى ويشتد في العدوة الأندلسية، فانعدم الاستقرار في داخل المغرب وعلى أطرافه بالأندلس والجهات

---

(52) نفسه ص 341.أنباء الغمر 2 : 13.

(53) التعريف بابن خلدون ص 345.

(54) نفسه ص 346.

(55) صبح الأعشى 8 : 103، المناهل 11 : 238، ورقات ص 186.

الأخرى، يبدو ذلك من خلال الرسائل المتبادلة بين الأندلسيين والمغاربة في هذه الفترة(56)، كما يبدو من خلال التراجم وكتب التاريخ لهذا العهد، فابن خلدون يشير إلى جانب من هذا الاضطراب الأمني بقوله «ثم اتصل مقامي ببسكرة، والمغرب الأوسط مضطرب بالفتنة»(57)، فالمنطقة المغربية إذن كانت بأكملها تغلي بالفتن والمشاكل والصراعات بين أحياء العرب والقبائل، أو من لهم طموح في السلطة والحكم.

وأما أحوال الشرق وأوضاعه فقد أشار إليها أيضا ابن خلدون في رسالته الجوابية إلى ابن الخطيب سنة 769ه / 1367م بقوله : «وأما الشرق فأخبار الحاج هذه السنة من اختلاله، وانتقاض سلطانه، وانتزاء الجفاة على كرسيه، وفساد المصانع والسقايات المعدة لوفد الله وحاج بيته ما يسخن العين ويطيل البث حتى لزعموا أن الهيعة اتصلت بالقاهرة أياما وكثر الهرج في طرقاتها وأسواقها»(58).

فالمشرق كان يعرف الفوضى والفتنة بسبب الخلاف على الحكم، والاستبداد بالسلطة، ولم يكن ذلك في القاهرة وحدها، فابن حجر يشير إلى أحداث وفتن وقعت في مناطق كثيرة كادت تنتظم المشرق كله(59).

وكلما تقدمنا مع الزمن تدهورت الأحوال الأمنية وازدادت سوءا وكثرت المشاكل والفتن في المغرب والمشرق على السواء، وهكذا عرف المغرب فتنا كثيرة والوطاسيون يستلمون زمام الأمور، ومع أنهم يعتبرون ذيلا للمرينين وفرعا لهم، إلا أن عهدهم كان ميدانا للمشاكل والاضطرابات والفتن والصراعات، ولقد صور الأخضري هذا العهد أصدق تصوير ولو في الاشارة العابرة التي ضمنها رجزه في المنطق(60)

لاسيما في عاشر القرون ذي الجهل والفساد والفتون

فكان هذا الرجز هو الوثيقة العربية — إلى حد الآن — التي صورت العصر، كما يرى أستاذنا ابن تاويت.

---

(56) بعض هذه الرسائل في نفاضة الجراب. ازهار الرياض 1 : 64،66،نفح الطيب : 2 : 571، 3 : 331.

(57) التعريف بابن خلدون ص 153

(58) التعريف بابن خلدون ص 126

(59) وردت الاشارة إلى هذه الأحداث في مواضع كثيرة من «إنباء الغمر»

(60) انظر مجموع المتون ص : 376 — 377.

ومن مظاهر هذه القلاقل والاضطرابات الأمنية التي اجتاحت كلا من المغرب والمشرق في هذه الفترة من الحكم المريني وذيله الوطاسي، يمكننا أن نركز على المظهرين التاليين :

1 ــ **أولهما** : انعدام الأمن وقطع الطرق على المسافرين شرقا وغربا، ففي المغرب نكتفي بالاشارةإلى أربعة نصوص سجلت بعض أوضاع العصر وما اتسمت به هذه الفترة من فتن، وما شاع من خوف وهلع أول هذه النصوص يتمثل في أبيات ابن الخطيب التي صور فيها الحالة الفوضية التي سادت المغرب زمن أبي سالم المريني حيث كثرت الفتن وفسدت الطرق، وانعدم الأمن على الأموال والأنفس يقول ابن الخطيب(61) :

مكناسة حشرت بها زمر العدا — فمدى بريد فيه ألف مريد
من واصل للجوع لا لرياضة — أولابس لـلـصوف غير مريد
فإذا سلكت طريقها متصوفا — فابن السلوك بها على التجريد

أما النص الثاني فنعنى به وصف ابن قنفذ للطريق التي قطعها من المغرب إلى قسنطينة سنة 776 هـ / 1374 م يقول «وارتحلت بعد أيام يسيرة ورأيت في طريقنا من انقلاب الشر خيرا مما كان يتعجب به من شاهده وكان أمر الطريق في الخوف والجوع ما مقتضاه أن كل من يقع قدومنا عليه يتعجب في وصولنا سالمين تم يتأسف علينا عند ارتحالنا حتى إن منهم من يسمعنا ضرب الأكف تحسرا علينا»(62).
وهذا لا مبالغة فيه لما كان يلف البلاد من فوضى، وخوف، سبب ذلك راجع بالاضافة إلى الأحوال السياسية المضطربة التي وصفناها، إلى ما اجتاح البلاد من مجاعة، وما عمها من خراب في السنة المذكورة(63).

والنص الثالث الذي سجل الأوضاع والأحوال في هذه الفترة هو حديث ابن خلدون عن تجربة مريرة وقعت له، بعد أن صار ضحية لما كان شائعا في البلدان المغربية من قطع الطرق، ونهب للأموال، وسلب للأمتعة، وقتل للأنفس، فلقد قطع

---

(61) نفاضة الجراب تحقيق الدكتور العبادي ص 328

(62) أنس الفقير ص 105

(63) نفس المصدر والصفحة.

عليه بنو يغمور الطريق وهو في وجهته إلى المغرب سنة 774هـ، تحدث ابن خلدون عن هذه الحادثة بقوله : «فاعترضونا هنالك فنجا من نجا منا على خيولهم إلى جبل دبدو، وانتهبوا جميع ما كان معنا، وارجلوا الكثير من الفرسان وكنت فيهم، وبقيت يومين في قفره ضاحيا عاريا إلى أن خلصت إلى العمران»(64).

وهذه الحالة ستزداد سوءا وفوضى كلما تقدمنا مع الزمن حتى إذا وصلنا إلى الفترة التي شهدت انتقال الحكم من بني مرين إلى بني وطاس فإننا سنلاحظ وضعا سياسيا واجتماعيا مترديا، إذ نشط قطاع الطرق، وكثرت عمليات السلب وحوادث النهب والقتل، كما يشير إلى ذلك، في أكثر من مرة، عبد الباسط الملطي في رحلته إلى شمال إفريقيا، (وهو النص الرابع) فلقد ذكر أمثلة كثيرة لما تعرض له التجار والرحالون من نهب للاموال وازهاق للأنفس(65)، وعبد الباسط نفسه لم يواصل رحلته نحو فاس بسبب هذه الأحوال المضطربة يقول : «ولقد كنت في عودي لتلمسان هذه المرة عزمت على التوجه منها لجهة فاس لأراها فلما بلغني ما وقع بها من هذه الفتن والخطوب فتر عزمى عن ذلك»(66).

أما الوضع في المشرق، فلم يكن أحسن حالا من الوضع الأمني السيىء للمغرب، إذ تعددت الأخطار التي يواجهها الرحالة في الطريق، من احتراف لقطع الطرق، واعتداء على الأنفس والأموال...

ولقد أشار إلى هذا الجو من الفوضى والاضطراب والقلق كل من أرخ لهذه الفترة، وهكذا يذكر ابن حجر أمثلة كثيرة لعمليات الاعتداء والسرقة التي تعرض لها الحجاج والمسافرون، ففي محرم عام 800ه / 1397م نهبت ودائع الحجاج بالعقبة(67)، كما كانوا يتعرضون للنهب عادة في الطريق بين مكة وينبع(68)، أو بين المدينة وينبع أيضا(69).

---

(64) التعريف بابن خلدون ص 218.

(65) رحلة عبد الباسط ص 58.

(66) نفس المصدر 56.

(67) أنباء الغمر 2 : 8.

(68) نفسه 2 : 316.

(69) نفسه 2 : 379.

ومن سوء حظ ابن خلدون أيضا أن كان ضحية مرة أخرى لقطاع الطرق وهو في طريق عودته من الشام إلى مصر يقول : «وسافرت في جمع من أصحابي، فاعترضتنا جماعة من العشير قطعوا علينا الطريق ونهبوا ما معنا ونجونا إلى قرية هناك عرايا»(70).

ولقد أشار تقي الدين الفاسي (842هـ / 1438م) في كتابه شفاء الغرام إلى حالات كثيرة تضرر فيها الحجاج بالفتن والاضطرابات في مكة وغيرها من بلدان المشرق، ففي «سنة 761 ه كان بمكة فتنة عظيمة بين اهلها والترك»(71). بينما في سنة 777هـ «كان بمكة قتل ونهب في الحجاج في يوم التروية»(72) وتعرض الحجاج كذلك إلى نهب في منى، وفي طريق مكة(73).

2 ــ ثانيهما انتشار عمليات القرصنة والأسر.

وهذا المظهر وإن لم يكن خاصا بهذه الفترة التي نتحدث عنها، لكوننا نعثر على عمليات كثيرة للأسر والقرصنة في بداية الحكم المريني، إلا أنها قلت حينما اشتد ساعد الدولة وقويت أجهزتها الأمنية، لذلك نلاحظ بمجرد ضعف هياكل الدولة وأجهزتها واستيلاء المسيحيين على أجزاء من العدوة الأندلسية، وطمعهم في الاستيلاء على شواطىء المغرب العربي، تغيرت الأحوال فانتشرت القرصنة، ووقع التربص بالسفن وركابها دون احترام طالب أو حاج أو تاجر، وهكذا يتحدث النميري عن أموال ترصد لفداء الأسرى مما يدل على كثرتهم ابتداء من عصر أبي عنان الذي حبس أموالا لهذه الغاية قبل توجهه في حركته إلى قسنطينة يقول النميري «فعين إذ ذاك للتحبيس أملاكا عجزت عن حصرها وإحصائها، ورباعا ضعفت متني عن استيفائها بالعد واستقصائها، فمنها ما عين برسم فداء الأسارى، والعناة الذين تراهم من هموم العدو سكارى وماهم بسكارى، ووقع عزمه الشريف أن لا يترك بلدا من بلاده الساحلية إلا ويثبت فيها حبسا للافتداء ويعده هنالك متاهبا للنداء، لأنه ربما أتى العدو بالأسرى في أجفانه، وطلب إحضار فديتهم أسرع من رجع أجفانه لخوفه من عدو آخر يطلبه»(74).

(70) التعريف بابن خلدون ص 379.

(71) شفاء الغرام ورقة 297 من مخطوط الخزانة الملكية رقم 1911

(72) نفسه ورقة 298 ب

(73) نفسه ورقة 302 أ.

(74) فيض العباب ص 29.

وهذا النص يفيدنا في أن الأسر أصبح من الكثرة بحيث ترصد له أموال كثيرة ودائمة، كما نستفيدُ منه أن الصراع كان على أشده بين الأعداء أنفسهم.

ويحدثنا عبد الباسط السابق الذكر في رحلته سنة 866هـ / 1461م عن أحوال كثيرة لهذا الأسر، وعما كان يسود منطقة المغرب العربي كلها من رعب وخوف نتيجة انتشار القراصنة الذين كانوا يجوبون السواحل في العدوتين[75] معاوستزداد الأحوال الأمنية سوءا فيما بعد، فيتقوى جانب القراصنة والمفسدين، ويضعف جانب السلطة التشريعية، مما يجعل السفر والرحلة مغامرة لا يؤمن خطرها، وهكذا سيتعرض الكثيرون للأسر من طرف الأعداء. ومن الذين أسروا الحسن الوزان[76]، وابن القاضي[77] بعد ذلك...

ومن هنا فقد افتى الفقهاء بسقوط الحج في هذه الأحوال، التي كان الحاج يواجه فيها ألوانا من المخاطرة والمشاق ابتداء من منتصف القرن الثامن الهجري، فأبو العباس القباب يرى بأن السبيل إذا كانت «تدرك منه مشقة أو كان مخوفا من سباع أو عدو أو لصوص أو ما أشبه ذلك لم يلزمه الحج»[78].

ففساد الطريق مبرر كاف لعدم القيام بالحج في نظر الفقهاء، فاللخمي يميل إلى ترجيح ترك الحج إذا كان الطريق مخوفا[79].

هذه الظروف والأحوال السيئة المذكورة كان لها أثرها في التقليل من عدد الحجاج شرقا وغربا، وتعطيل القيام بهذا الركن في بعض السنوات ولقد ذكر تقي الدين الفاسي ماكان يكتنف تأديته من خطورة، لذلك عطل في أزمنة عديدة ومواسم كثيرة، نكتفي هنا بالاشارة إلى بعضها ففي سنتي 758هـ، 759هـ كان حاج مصر والشام قليلا[80]، أما في سنة 787هـ فقد حج العراقي بعد انقطاعه مدة وكان

(75) رحلة عبد الباسط ص 19، 43، 58.

(76) حياة الوزان الفاسي ص 21.

(77) نشر المثاني 1 : 215.

(78) شرح قواعد عياض، الجزء الثاني.

(79) الرحلة المغربية ص 33 نيل الابتهاج ص 104.

(80) شفاء الغرام ورقة 297 أ.

حاجا قليلا جدا[81]، وفي سنة 803هـ لم يحج أحد من الشام على الطريق المعتاد[82]، كذلك لم يحج العراقيون في سنوات 821، 822، 823، 824هـ[83].

وإذا كان المسلمون بهذه البلدان المذكورة لم يستطيعوا تأدية الفريضة وهم قريبون من البقاع المقدسة لأسباب سبق ذكرها، فما بالك بالمغربي الذي كان يمر في طريقه على هذه البلدان...

ثالثا : الانصراف إلى الجهاد :

فإلى جانب الاضطرابات والفتن، وانعدام أمن الطرق، أصبح الغرب الاسلامي كله مهدداً باستيلاء العدو عليه، عرضة للنهب والاقتطاع من أطرافه، لذا اتجه اهتمام العلماء والأولياء حينئذ إلى الجهاد ومقارعة العدو المسيحي الطامع سواء في الأندلس أو في العدوة المغربية، فقل الاهتمام بالرحلة واعتبر الجهاد من أسبق الأسبقيات الدينية، وهكذا تعبأت القوى وتكتلت الجهود لحماية الاسلام بهذه المنطقة والذب عن حمى المسلمين بها والوقوف سدا منيعا أمام المد الأجنبي والتحالفات المسيحية. ومن مظاهر هذه التعبئة التي كانت طابع العصر، نسجل المواقف التالية :

1 ــ الدعوة إلى الجهاد في المراسلات الرسمية المتبادلة بين المسؤولين في كل من المغرب والأندلس، كالرسالة التي كتبها ابن الخطيب عن سلطانه إلى بعض العلماء حاثا إياهم على الجهاد الذي يعتبر، أفضل من الحج، ومما جاء فيها «فكتبنا إليكم هذا نقوى بصيرتكم على جهة الجهاد من العزمين ونهيب بكم إلى إحدى الحسنيين، والصبح غير خاف على ذي عينين، والفضل ظاهر لأحدى المنزلتين فإنكم إذا حججتم أعدتم فرضا أديتموه، وفضلا ارتديتموه فائدته عليكم مقصورة، وقضيته فيكم محصورة، وإذا أقمتم الجهاد جلبتم إلى حسناتكم عملا غريبا، واستانفتم سعيا من الله قريبا، وتعدت المنفعة إلى ألوف من النفوس المستشعرة لباس البوس»[84].

---

(81) نفسه ورقة 298 ب.

(82) نفس المصدر والصفحة.

(83) نفسه ورقة 302 أ.

(84) نفح الطيب 1 : 186 ــ 190، الحلل لارسلان 1 : 224 ــ 226.

2 ــ حض العلماء على الجهاد عن طريق إصدار الفتاوي بتفضيله على الحج، بل ذهبوا إلى أن الحج ساقط عن أهل المغرب في هذه الفترة التي اتسمت بالتوسع المسيحي في الغرب الاسلامي مما يستدعي انصرافا كليا إلى الجهاد(85).

ولم يكتف العلماء بهذا بل ألفوا كتبا لاظهار أهمية الجهاد في مثل ذلك الظرف الحرج(86)، ونظموا قصائد وأزجالا لبعث الحماس في النفوس، والتعبير عما يغمرهم من فرحة وابتهاج بعد أن تعبأ الكل من أجل نصرة الدين والوطن، ومن أهم هؤلاء الذين قالوا شعرا في الجهاد العالم ابن يجبش التازي(87). والشيخ المتصوف المجاهد أبو عبد الله البهلولي(88).

3 ــ إلغاء الرحلة العلمية نحو المشرق، والتفرغ إلى الجهاد في الثغور سواء بالأندلس أو العدوة المغربية، فهذا أبو محمد عبد الله الورياجلي يصرف نظره عن الرحلة نحو المشرق، فيعود من تلمسان ليلازم الثغور الهبطية من أجل الرباط في سبيل الله، وصار من عادته «أن يشتغل بالتدريس في فصل الشتاء والربيع ويخرج في الصيف والخريف يرابط بثغور القبائل الهبطية»(89).

وهذا أبو عبد الله ابن غازي كانت له مواقف جهادية رائعة ويكفي أن آخر نشاط له في حياته هو الجهاد، والاغارة على الكفرة بأصيلا(90)..

ولائحة العلماء المجاهدين طويلة لا يمكن الالمام بها فهناك من استشهد منهم في سبيل الله وهناك من أسر ذكر بعض هؤلاء صاحب الاستقصا(91).

رابعا الازدهار العلمي بالمغرب :

ويمكن أن نعد من أسباب قلة الرحلة، ثم توقفها، نحو المشرق، للأخذ عن العلماء، ما وصل إليه المستوى العلمي بالمغرب من ازدهار ثقافي وتألق فكري، نتيجة لعوامل

---

(85) المعيار 1 : 432 ــ 433.

(86) الدوحة ص 71.

(87) نيل الابتهاج ص 334.

(88) دوحة الناشر ص 60، الاستقصا 4 : 112 ــ 113.

(89) دوحة الناشر ص 30 ــ 33، الاستقصا 4 : 113 ــ 114.

(90) الدوحة ص 45 ــ 47، السلوة 2 : 73 ــ 77.

(91) الاستقصا 4 : 111 ــ 112.

أشرنا إلى بعضها من قبل، فكثرت حلقات الدروس، وتعددت الكراسي العلمية، وتكاثر عدد الطلاب الوافدين على هذه الحلقات والدروس للنهل من المعارف، فهذا أبو زيد عبد الرحمن الجزولي يحضر مجلسه أكثر من ألف فقيه معظمهم يستظهر المدونة مما جعل الحجوي يقول معقبا : «ومن هنا تعلم ما كان عليه العلم بفاس في القرن الثامن فلو فرضنا أنه لو لم يكن بفاس إلا ألف فقيه وهم الذين يحضرون درسه لكان كافيا في الدلالة على تقدم الحالة الفكرية العلمية في ذلك العصر»(92).

والواقع أن الحالة الفكرية كانت متقدمة جدا، ولسنا في حاجة إلى الوقوف على مظاهر هذا التقدم الفكري، فقد أشرنا إلى أهمها من قبل، فكل ما في العصر يقف شاهدا على هذه النهضة التي بقيت، من حسن الحظ، مزدهرة قوية حتى في فترات الضعف والتفكك السياسيين، فمجالس الملوك غاصة بالعلماء(93)، ودروس العلم لا تسند إلا لمن أثبت تفوقه وتمكنه في مادته واختصاصه، وأهم دليل على هذه النهضة العلمية تلك الشبكة من المدارس المبثوثة في كل المدن والمراكز الحضارية المغربية آنذاك، فالنميري يشير في مذكراته إلى أبيات قرأها في مدرسة بأنفى(94)، وهذا يعني أن المدارس منتشرة في كل المناطق والمدن الصغيرة والكبيرة على السواء مما سيكون له الأثر السلبي على الرحلة، فلم يعد أحد يرغب في الرحلة العلمية بعد أن صارت بالمغرب مراكز علمية قارة تقصد من أجل المعرفة والأخذ عن العلماء. وإذا كان الأمر بهذه المثابة في المغرب فإن المشرق كان يعاني تدهورا ثقافيا وتقلصا علميا،(95) فلم يعد مركز الاشعاع العلمي والثقافي في هذه الفترة، مما جعل المغاربة يزهدون في الرحلة إليه والأخذ عن رجاله، فهذا أبو محمد عبد الله الورياجلي السابق الذكر يسال ابن مرزوق بتلمسان «هل ببلاد المشرق أحد ممن تشد إليه الرحال من العلماء ليرحل إليه فقيل له ليس أمامك أحد أعلم منك فرجع من هنالك»(96).

(92) الفكر السامي 4 : 240 ــ 241.

(93) انظر مخطوط القرويين رقم 40 / 643، الخزانة العلمية ص 26 ــ 27.

(94) مذكرات النميري 483 ورقة 17 ب، 2 : 222 من النسخة المرقونة.

(95) تذكرة الحفاظ 4 : 1485.

(96) الدوحة ص 30، الاستقصا 4 : 113.

وهكذا انمحى الشعور بالتفوق المشرقي، فلم يبق المغربي راغبا في الرحلة إلى المشرق لطلب العلم، بل أصبح يجد بغيته في العاصمة العلمية فاس التي كانت تغص بالعلماء وحلقات الدروس ــ كما أسلفنا ــ وبكثرة الطلبة والمجالس العلمية في القرويين وغيرها من المدارس، ففي هذه الفترة حزر الامام زروق مجلس الحسن بن منديل المغيلي في القرويين بثلاثة آلاف رجل[97]، لهذا نجد تكوين الكثير من المغاربة لهذا الوقت تم داخل المغرب وحده، فهذا أبو عبد الله ابن البقال التازي الذي كان «آية في تدريس الفقه» لم يدرس إلا ببلده تازة وفاس[98]، ومحمد بن أحمد الفشتالي شيخ ابن الأحمر تكوينه أيضا تم على يد علماء عصره في بلده[99]،وأبو عبد الله القوري المكناسي (872هـ) رحلته لم تتجاوز فاسا، وسبب رحلته لها جهله بمسألتين فقهيتين[100]

فشهرة فاس العلمية جعلتها مقصد الكثير من طلبة العلم لا من المغرب فقط ولكن أيضا من الأندلس والمشرق وغيرهما، ورغم أن كثيرا من رحلات الأندلسيين إلى فاس دفعوا إليها اضطرارا بعد أن سلبت أرضهم وطردوا من بلدهم، إلا أن الازدهار العلمي والأدبي أغرى الكثير منهم بالرحلة إلى فاس للاستيطان والأخذ عن العلماء، فهذا ابن الأحمر يتحدث عما استفاده بهذه المدينة[101]، ومحمد بن حياتي الغافقي الغرناطي (ت 788هـ / 1386م) تكون أيضا على شيوخ فاس[102]، والمنتوري جل رواياته كانت على شيوخ المغرب في مقدمتهم يحي السراج[103]، وأبو جعفر بن علي البلوي كتب من تلمسان إلى ابن غازي يرغب في الحصول على الاجازة بعد أن تعذرت الرحلة للأخذ عنه مباشرة بفاس[104].

ورحل من المشرق أحمد بن حسن البغدادي في مرحلة الطلب، إذ لم يكن يروي حين حلوله بالمغرب إلا القرآن[105].

(97) نيل الابتهاج ص 110.

(98) نفسه ص 232.

(99) نفسه ص 265.

(100) الروض الهتون ص 60، السلوة 2 : 116

(101) نثير الجمان ص (358.

(102) نيل الابتهاج ص 272.

(103) فهرست المنتورى ص 5. 19. 21. 29.

(104) الرسالة في مقدمة فهرس ابن غازي ص 29 ــ 32.

(105) مذكرات التميري 2 : 175. من النسخة المرقونة.

ـــ الباب الثاني :
الرحالون وفن الرحلات

ـــ الفصل الأول : رحلات تنطلق من المغرب

ـــ الفصل الثاني : رحلات داخل المغرب

ـــ الفصل الثالث : الرحلات مضمونا وشكلا

ـ تمهيد :

وإذا حاولنا تصنيف الرحلات في هذا العصر فإننا يمكننا أن نقسمها إلى أنواع كثيرة، فيمكننا تصنيفها مثلا انطلاقا من الأهداف التي يسعى الرحالون للوصول إليها وتحقيقها من الرحلة، وهكذا نجد رحلات علمية أو حجازية، أو سياحية، أو تصوفية، أو سفارية أو رسمية...

ويمكننا أيضا تصنيفها انطلاقا من الطريقة التي دونت بها فهناك رحلات فهرسية، ورحلات المذكرات، ورحلات إملائية، ورحلات دونها أصحابها، ورحلات دونها غير أصحابها...

كما يمكننا تصنيف هذه الرحلات حسب الأسلوب المتبع في تدوينها، فمنها ما ينحو نحو الأسلوب الحديثي، ومنها ما يتخلص مما كان شائعا من سيطرة الدراسات الحديثية فينصب الاهتمام فيها على الآثار الأدبية، بينما نصادف نوعا آخر يهتم بالطرق والمسالك ووصف البلدان التي يقصدها الرحالة ويتوقف بها في طريقه فكان هذا النوع أقرب إلى الجغرافية في وصف البلدان وتحديد المسافات، إلا أننا وبعد أن لمسنا هذا التشعب، وصعوبة إيجاد تصنيف شامل لكل هذه الرحلات، فالرحلة الواحدة قد نجد فيها النوعين أو الثلاثة، وهكذا يمكن أن نصف رحلة ابن رشيد مثلا بأنها حجازية علمية فهرسية، رأينا أن أحسن تقسيم يمكن أن يجمع أصناف الرحلة وأنواعها هو التقسيم الذي يرتكز على وجهة هذه الرحلة، فالرحلة إما أن تكون منطلقة من المغرب أو متجهة إليه، وهي إما أن تكون قد كتبت منفصلة أو أشير إلى بعض تفاصيلها ضمن كتاب، فالأقسام الممكنة هي :

1 ــ رحلات تنطلق من المغرب سواء كانت حجازية، علمية، تصوفية، سياحية،

2 ــ رحلات داخلية سواء كانت رسمية، صوفية، علمية ..

الفصل الأول :

رحلات تنطلق من المغرب

وهذا النوع شد فيه أصحابه الرحلة من المغرب إلى الوجهة التي انطلقوا إليها، وهو كثير، بل إنه هو النوع الذي ينصرف إليه الذهن إذا أطلق لفظ الرحلة المغربية، وهذا صحيح، فكثير من المغاربة اهتموا برحلاتهم خارج المغرب فاستعدوا لها ودونوا ما واجههم فيها من مشاكل وقضايا، وترجموا للأعلام الذين التقوا بهم. ولقد توجهت الرحلات الخارجية في ثلاثة مسارب وسارت في ثلاثة اتجاهات، كل منها عرف رواده وأصحابه :

فهناك من رحل إلى المشرق لأداء الفريضة، أو لقاء الشيوخ والعلماء أو زيارة المراكز الثقافية والدينية، كما ذكرنا من قبل، بل إن البعض من هؤلاء الرحالين لم يكن الشرق إلا مرحلة من مراحل رحلته الطويلة الواسعة زمانا ومكانا.

وهناك من اتجه في رحلته صوب الأندلس، إما بصفته سفيرا مكلفا بإبلاغ الرسائل أو القيام بمهمات، أو بصفته طالب علم، وراغبا في لقاء الشيوخ والأعلام، أو بصفته مجاهدا في سبيل الله يبتغي الثواب والأجر، ونظرا لاقتراب العدوتين فقد عرفت الرحلة إلى الأندلس كثرة أيضا، فابن الخطيب في الاحاطة يذكر أكثر من أربعين مغربيا رحلوا إلى الأندلس في هذا العهد المريني، إلا أننا مع الأسف لا نملك من هذه الرحلات المدونة إلا ما دونه ابن بطوطة في رحلته إلى العدوة الأندلسية، وما نسب إلى الملزوزي بعنوان «طرفة الظريف»[1].

---

(1) نشرت بتحقيق وتقديم الأستاذ ابن شريفة في مجلة كلية الآداب عدد 1 ص 7 — 49.

أما الصنف الثالث من الرحالين فاتجه نحو أعماق إفريقيا صوب السودان ورغم أن العلاقة بين السودان والمغرب كانت منذ العهود الأولى[2]، إلا أن الرحلة إلى هذه المناطق كانت تعتبر مغامرة لا يقدم عليها إلا التجار وأصحاب المآرب الدينية والدنيوية[3]

ومن أهم الرحلات نحو هذه المناطق رحلة أبي حامد الغرناطي في القرن السادس للهجرة[4]، ثم رحلة ابن بطوطة في منتصف القرن الثامن، أما في القرن التاسع وبداية العاشر فنجد رحالة كثيرين من أهمهم أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الجبار الودغيري الفجيجي[5]، وأبو زيد عبد الرحمن بن علي العاصمي المعروف بسقين[6]. الذي أطال إقامته بالسودان فتزوج هناك، وخالط أهلها، بعد أن زار الشرق وتردد على معاهده ومراكزه العلمية، وأخذ على علمائه إلى أن صار عالما «انقطع الحديث بموته»[7] ولعل سقين هذا قد دون ما شاهده في رحلته لكل هذه المناطق كما يبدو من خلال بعض ما نقله التنبكتي في نيل الابتهاج. وأهم رحلة إلى هذه المنطقة في هذا العهد أيضا تلك التي قام بها الحسن الوزان الفاسي في بداية القرن العاشر، ومن حسن الحظ أن هذه الرحلة حفظت تفاصيلها من الضياع إذ أوردها صاحبها ضمن كتابه «وصف إفريقيا» [8]

ولهذا فإن أهم ما نمتلكه في وصف هذه المنطقة جغرافيا وبشريا واقتصاديا، هو ما دونه ابن بطوطة عن مشاهداته في بلاد السودان.

---

(2) انظر المراسلات بين الموحدين وحكام السودان في النفح 3 : 105..

(3) H.Pérés : Relations entre le tafilalet et le soudan à tranvers le sahara.

(4) نفح الطيب 2 : 235 ـ 236.

(5) الجذوة 1 : 99،النبوغ 3 : 111، دعوة الحق سنة 11 عدد 2 ص 114.

(6) فهرس المنجور ص 59، الدوحة ص 58،نيل الابتهاج ص 176، الجذوة 2، 407 درة الحجال 3 : 96، سلوة الأنفاس 2 : 160، شجرة النور ص 279.

(7) النيل ص 177.

(8) وصف إفريقيا 2 : 159 ـ 181.

وفي هذا الفصل سنتناول أهم رحلات العصر وهي رحلة كل من ابن رشيد، والعبدري، والتجيبي، وابن بطوطة، والبادسي ... وسيكون اهتمامنا هنا منصبا على التعريف بالرحلة وصاحبها، نعرض من خلال ذلك لمناقشة بعض القضايا التي تثار عادة حين الحديث عن الرحلة أو صاحبها، وبما أننا سنعود إلى هذه الرحلات حين دراستها من حيث المضمون والشكل سنكتفي هنا بالعرض الموجز لمحتويات الرحلة وتلخيص أهم أفكارها وعناصرها.

أ ــ رحلة ابن رشيد

حياته ومصادرها

ترجمة ابن رشيد غنية، لذلك فالالمام بها غير ممكن في هذا المقام، فحياة ابن رشيد ومواقفه وأراؤه وتآليفه، وما اتسم به كل ذلك من حكمة وتنوع وخصوبة وعمق، يحتاج كل هذا إلى دراسة مستقلة عساها توفيه حقه من الدراسة والتمحيص، ويكفينا هنا أن نعطي نظرة موجزة نلخص فيها أهم مراحل حياة ابن رشيد وعلى الأخص ماله علاقة بالجانب العلمي والثقافي، ثم نعرض بإيجاز أيضا إلى محتويات الرحلة، محيلين على أهم المصادر والمراجع التي تساعد في الترجمة والدراسة[9].

---

(9) يرجع في ترجمته إلى ما يلي :
ــ سبك المقال مخطوط الخزانة الحسنية رقم 105 / 2 ص 180 ــ 181.
ــ مذكرات ابن الحاج النميري ص 197 تحقيق الفريد بريمار.
ــ الاحاطة 3 : 135
ــ الديباج المذهب ص 310.
ــ الدرر الكامنة 4 : 111
ــ بغية الوعاة 1 : 199
ــ الوافي بالوفيات 4 : 284
ــ ذيل تذكرة الحفاظ لابن فهد ص 97
ــ وفيات الونشريسي ضمن ألف سنة من الوفيات ص 104.
ــ جدوة الاقتباس 1 : 289
ــ البدر الطالع 2 : 234.
ــ من ذيول العبر ص 121.
ــ درة الحجال 2 : 96.
ــ لقط الفرائد ضمن ألف سنة من الوفيات ص 177.
ــ ازهار الرياض 2 : 340.

ومن خلال هذه المصادر والمراجع يمكننا رسم صورة لحياة ابن رشيد الفكرية ومكانته العلمية في بلده وفي كل من الأندلس والمشرق.

ويحسن أن نشير في البداية إلى ما وقع فيه البعض من وهم أو خلط في تحديد شخصية ابن رشيد وتحقيق نسبه، إذ نسبه بعضهم إلى الأندلس. فالأستاذ صلاح الدين المنجد يصنفه مع الراحلين الأندلسيين[10]. ويعتبره حمد الجاسر من أشهر علماء الأندلس[11].

ــ شذرات الذهب 6 : 56.
ــ نشر المثاني 1 : 120.
ــ سلوة الأنفاس 2 : 191.
ــ الفكر السامي 2 : 247.
ــ شجرة النور الزكية ص 216.
ــ الاعلام بمن حل بمراكش من الأعلام 4 : 342.
ــ كشف الظنون 1 : 836، إيضاح المكنون 1 : 550 هدية العارفين 2 : 144
ــ فهرس الفهارس 1 : 443.
ــ الاعلام للزركلي 6 : 314.
ــ معجم المؤلفين 11 : 93.
ــ الموسوعة المغربية 12 : 106
ــ دائرة المعارف الاسلامية 3 : 933 (الطبعة الفرنسية).
ــ موسوعة البستاني 2 : 237.
ــ تاريخ الادب الجغرافي 1 : 368
ــ تاريخ الفكر الأندلسي 318.
ــ النبوغ المغربي 1 : 206
ــ الأدب المغربي ص 236.
ــ الوافي بالأدب العربي في المغرب 2 : 385
ــ ذكريات مشاهير رجال المغرب عدد 18
ــ ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين ص 337
ــ مظاهر الثقافة المغربية ص 89.
ــ La vie intellectuelle marocaine. p : 194.
ــ مظاهر النهضة الحديثة 2 : 136.
ــ مجلة دعوة الحق سنة 3 عدد 2 ص 33 بحث أ. محمد الفاسي
ــ مجلة العرب سنة 3 ج 5 ص 422 بحث أ. حمد الجاسر.
ــ النشرة العلمية لكلية الزيتونية عدد 1 ص 257 بحث ابن الخوجة.
ــ مجلة المناهل عدد 22 ص 675 بحث الأستاذ زمامة.
ــ مجلة كلية الاداب والعلوم الانسانية عدد 8 ص 95 بحث د. ابن شريفة.

(10) المشرق في نظر المغاربة والأندلسيين ص 43.

(11) أشهر رحلات الحج 1 : 16.

أما المستشرق كراتشوفسكي فيقع عنده خلط في الاسم إذ يسميه «أبو عمر عبد الله بن رشيد النشريسي»[12]، ولعل هذا الخلط راجع إلى أن بعض أجزاء الرحلة قد اثبت عليها الونشريسي تملكه، فلم يقع التفريق بين التمليك والتأليف.

والباحث الاسباني بالنثيا يذكر رحالتين مختلفين[13] يحملان إسم ابن رشيد الأول يسمى (أبو عمر عبد الله بن رشيد بن النوشريسي)، والثاني يسمى (ابن رشيد السبتي الفهري الخطيب ابو عبد الله محمد بن عمر بن محمد)، إلا أن إسمه الكامل في أغلب المصادر[14] هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن محمد بن عمر...ابن رشيد الفهري السبتي، ويذكر هو نفسه بأنه ولد بسبتة في سنة سبع وخمسين وستمائة[15].

وكانت سبتة إذ ذاك تشهد فترة إزدهار علمي برعاية العزفيين العلماء الرؤساء، فاتيح لابن رشيد الأخذ ببلده عن علماء كثيرين سبتيين أو وافدين على سبتة، هكذا درس بمسقط رأسه على أكثر من عشرين شيخا منهم أبو الحسن بن الخضار الكتامي (ت680هـ)[16] وأبو الحسن ابن أبي الربيع (ت688هـ)[17] وأبو اسحاق التلمساني (690هـ)[18] ومالك بن المرحل (ت699هـ)[19]، وأبو القاسم القبتوري (ت704هـ)[20]... فتخرج عليهم في العلوم المختلفة، كعلم القراءات والتفسير، والنحو والحديث والأدب... ولقد لخص الصفدي فترة دراسة ابن رشيد وطلبه العلم والحديث قبل الرحلة بقوله : «أخذ العربية عن ابن أبي الربيع ونظرائه، واحتفل

---

(12) تاريخ الأدب الجغرافي 1 : 368

(13) تاريخ الفكر الأندلسي ص 318

(14) هناك اختلاف في أسماء بعض أجداده بين المصادر المختلفة انظر مثلا الاحاطة 3 : 135، الدرر الكامنة 4 : 111، درة الحجال 2 : 96، ازهار الرياض 2 : 340.

(15) مذكرات التميري، نسخة مرقونة ص 197.

(16) رحلة ابن رشيد 6 : 6،بغية الوعاة 2 : 204

(17) رحلة ابن رشيد 7 : 49 أ بغية الوعاة 2 : 1215

(18) رحلة ابن رشيد 7 : 49ب الاحاطة 1 : 326.

(19) رحلة ابن رشيد : 7 : 49 أ الاحاطة 3 : 303

(20) الرحلة : 7 : 46 أ، بغية الوعاة 1 : 555.

في صغره بالادبيات وبرع فيها، وروى البخاري عن عبد العزيز الغافقي قراءة من لفظه وارتحل إلى فاس واشتغل بالمذهب ورجع إلى سبتة وتصدر لا قراء الفقه خاصة، وتادب مع اشياخه أن يقرىء غيره تم ارتحل..»[21]، ولقد كانت دراسته بفاس على الشيوخ لها أهمية في تكوينه الحديثي خاصة، إذ أصبح ماهرا في الدراسات الحديثية[22].

إلا أن ابن رشيد لم يكتف بما تلقاه على الشيوخ بالمغرب في كل من سبتة وفاس، فلم يشبع نهمه العلمي إلا ما ملأ به عيبته بما جمعه من معلومات وفوائد في رحلته الواسعة التي أخذ فيها عن «الجلة الذين يشق إحصاؤهم»[23] على حد تعبير ابن الخطيب، ومن هؤلاء العلماء الذين التقى بهم، واستفاد منهم، وروى عنهم ابن دقيق العيد، وابن النحاس وغيرهما كما ستذكر ضمن عرضنا لمضمون الرحلة.

ولقد رافقه في هذه الرحلة المهمة الأديب ذو الوزارتين ابن الحكيم اللخمي الرندي[24] (708هـ) فسعد كل منهما بهذه الرفقة إذ «كان قصدهما واحدا، ومسعاهما متعاضدا، فترافقا في السفر، كما ترافقا في الوطر [25]» لذلك أفاد كل منهما صاحبه أو «تديج معه» على حد تعبير ابن الخطيب[26]، فكان بينهما الانسجام والتآلف، ولذا حرصا معا على الابقاء على هذه الصلة الودية، فانتقل ابن رشيد إلى غرناطة بناء على دعوة ابن الحكيم واستجابة لرغبته، والواقع أن كلا منهما كان يرتاح إلى الآخر لكونهما كانا على مستوى عال من الأدب والكمال الخلقي والعلمي، وهكذا كما يقول ابن فرحون «قدم غرناطة فأقام بها خطيبا معظما مقبول الشفاعة»[27]، ولقد أنعشت إقامته هذه الجو العلمي إذ «عقد مجالس للخاص والعام يقرىء بها فنونا من العلم»[28] وأسند إليه منصب قضاء المناكح[29].

---

(21) الوافي بالوفيات 4 : 284 ـ 286، البدر الطالع 2 : 234.

(22) الدرر الكامنة 4 : 111

(23) الاحاطة 3 : 136

(24) ترجمته في الاحاطة 2 : 444 ـ 476، ازهار الرياض 2 : 340 ـ 347.

(25) الازهار 2 : 343

(26) الاحاطة 2 : 453

(27) الديباج 310

(28) الاحاطة 3 : 137.

(29) الازهار 2 : 355.

فاكتسب بكل ذلك سمعة عالية نظرا لسعة معارفه، وسرعة بديهته وفصاحة لسانه يدل على ذلك تصرفه بالبديهة والعفوية في الجامع الأعظم بغرناطة حين ظن أن الأذان قد انتهى[30].

ولقد واظب ابن رشيد على شرح البخاري في الجامع بغرناطة يتكلم على السند والمتن «اتقن كلام ودرس»[31] وكأنه قد وجد بغيته في العلم والاشتغال به وهو قريب من صديقه ورفيقه في الرحلة متردد على مجلسه العلمي الذي لا شك في أنه كان يضم فطاحل العلماء ونجباءهم وعلية الأدباء والشعراء، فارتاح ابن رشيد لهذا الجو العلمي وتجاوب معه مما جعله يتخذ غرناطة وطنا جديدا له، فلم يغادرها إلا بعد أن قتل رفيقه وولي نعمته ابن الحكيم في شوال من سنة 708هـ.

ولقد كانت شهرته العلمية كافية لانزاله المنزلة اللائقة بمستواه العلمي حيث قدم للصلاة والخطبة في مراكش بجامعها العتيق، إلى أن استدعي إلى فاس فأقام بها بقية حياته معظما لدى الخاصة والعامة، إلى أن توفي بها في الثالث والعشرين من محرم مفتتح عام واحد وعشرين وسبعمائة[32]، فدفن بخارج باب الفتوح في الروضة المعروفة بمطرح الجلة قال صاحب نشر المثاني «والجلة جمع جليل ويقال فيه اليوم الجنة بالنون وهو تفاؤل حسن»[33].

وقد كان لابن رشيد أبناء عرفوا أيضا بمستوى علمي رفيع، فابنه أبو القاسم هو الذي استجاز له في رحلته المشرقية لكن يد المنون قد تخطفته فرثاه ابن رشيد بقصيدة تفيض أسى ولوعة[34]، أما ابنه محمد فقد كان فقيها كاتبا في حضرة أبي عنان المريني ومن بعده من ملوك بني مرين، رآه ابن الأحمر بفاس وقال عنه بأنه ابن مقلة زمامة نظرا لحسن خطه[35]، وكان له ابن ثالث هو أبو زكرياء يحيى

---

(30) الاحاطة 3 : 137.

(31) الدرر الكامنة 4 : 111

(32) جل المصادر كالوافي بالوفيات ومذكرات التميري والدرر وشذرات الذهب...

(33) نشر المثاني 1 : 121

(34) الاحاطة 3 : 141.

(35) الجذوة 1 : 231

وصفه ابن الأحمر بالفقيه الخطيب[36]، بينما يذكر له التنبكتي ولدا آخر اسمه أحمد توفي في حدود سنة 779هـ[37].

واحفاده أيضا كان لهم ذكر وشهرة، فأبو العلاء بن يحيى بن رشيد لقيه ابن الأحمر وأنشده من شعره[38]، وكذلك أخوه أبو سعيد رشيد بن يحيى كان كاتب علامة السلطان المريني عبد الحليم بفاس[39].

ـ مركزه العلمي ومذهبيته.

أما بالنسبة لمكانته العلمية فلقد اعترف له الكل بالسبق في الميدان العلمي إذ أشاد بهذه الناحية كل من تحدث عنه أو ترجم له من رجال عصره والعصور التالية، فالحافظ الذهبي (ت 749هـ) يصفه بأنه «عالم المغرب الحافظ»[40]، ويعتبره أبو البركات البلفيقي (ت 771هـ) «من أهل المعرفة بعلم القراءات وصناعة العربية، وعلم البيان والآداب والعروض والقوافي، مشاركا في غير ذلك من الفنون»[41].

وينزله ابن الخطيب منزلا ساميا فيثني على منهجه العلمي في الرواية والسند ويقول عنه بأنه كان «واسع الاسمعة، عالي الاسناد صحيح النقل أصيل الضبط، تام العناية بصناعة الحديث قيما عليها بصيرا بها محققا فيها ذاكرا فيها للرجال»[42]، ولقد أكد ابن فرحون أيضا على هذه المزايا العلمية، فأشار إلى تضلعه في العربية والفقه والادب والتاريخ والقراءات[43]، وهكذا لم يكن لأحد رأي يخالف ما أشرنا إليه في هذه العجالة فلقد كان كما ذكر ابن خلدون «كبير مشيخة المغرب وسيد أهله، شيخ المحدثين الرحالة»[44] مما جعله محل تقدير واحترام، كما رأينا سابقا.

---

(36) مستودع العلامة ص 71.

(37) نيل الابتهاج ص 73

(38) نثير الجمان ص 460، درة الحجال 1 : 214

(39) مستودع العلامة ص 71، الجذوة 1 : 197.

(40) ذيل العبر 4 : 121، شذرات الذهب 6 : 56.

(41) أزهار الرياض 2 : 348.

(42) الاحاطة 3 : 135.

(43) الديباج ص 310.

(44) التعريف بابن خلدون ص 59 السلوة 2 : 191.

وكلما ذكر ابن رشيد أو ترجم له إلا وأثيرت قضية المذهبية، لأنه بسبب هذه المذهبية تعرض للمشاكل والمضايقات، والذي اشتهر عنه أنه كان «على مذهب أهل الحديث في الصفات يمرها ولا يتاول وكان يسكت لدعاء الاستفتاح ويسر البسملة»(45)، إلا أن المقري يعرض لهذه المذهبية بحذر فيقول «وذكر بعضهم أن الامام ابن رشيد كان ظاهري المذهب، والمعروف أنه كان مالكيا والله أعلم»(46).

أما أستاذنا ابن تاويت فيرى بأن مذهبيته استمرار لما كان سائدا في العهد السابق يقول «لقد كان ابن رشيد يحمل تلك الجذوة الأخيرة من الظاهرية التي تشع بالمغرب على عهد الموحدين، فتعرض بذلك في الأندلس إلى ما كان يتعرض له أبو حيان في المشرق من امتحان أصحاب المذاهب الكبار»(47).

والحقيقة أنه تعرض إلى مضايقة ومتابعة من أجل أفكاره ومذهبيته، إذ أنكر عليه الغرناطيون اتجاهه المذهبي «فكتبوا عليه محضرا بأنه ليس مالكيا»(48)، إلا أن القاضي الذي كتب المحضر مات من حينه فوقع التخلي عن المتابعة. وهذا من لطف الله وعنايته بابن رشيد، وإلا فكثير من المفكرين وأصحاب المذاهب والأراء والاتجاهات الفكرية المناقضة قد تعرضوا للملاحقة والاضطهاد والطعن في العقيدة والمبدأ بسبب ميولهم ومذاهبهم.

تلاميذه :

ومما يدل على مركزه العلمي كثرة الآخذين عنه، فلقد كان أستاذ جيل من طلبة هذه الفترة وعلمائها، فالمتصفح لكتب التراجم يلتقي بتلاميذ كثيرين له من المغرب والأندلس وتونس والمشرق، ولا مجال هنا للاحاطة بهؤلاء فهناك ذكر لعدد كبير منهم في كتب التراجم والفهارس، مثل فهرسة السراج، والاحاطة، والديباج، ونيل الابتهاج، والمرقبة العليا، والجذوة، ودرة الحجال، والاعلام للمراكشي...

ومن أهم هؤلاء التلاميذ الخطيب المحدث الراوية محمد بن عبد الرزاق الذي كان مقرئا الموطا والبخاري بالقرويين، أخذ الحديث عن ابن رشيد السبتي بفاس

---

(45) الدرر الكامنة 4 : 111.

(46) ازهار الرياض 2 : 350.

(47) الوافي بالأدب العربي 2 : 386.

(48) الدرر الكامنة 4 : 111.

فافتتن به[49]، ومنهم أبو البركات محمد بن الحاج البلفيقي الذي اعتبره ابن خلدون شيخ المحدثين والفقهاء والأدباء والصوفية والخطباء[50]، ومنهم أيضا بلديه عبد المهيمن الحضرمي[51] (749هـ)، وأبو العباس أحمد بن محمد بن شعيب الكرياني[52] (749هـ)، وإبراهيم التسولي الفاسي[53] (749هـ)، وابن خميس الأنصاري[54] (750هـ)، ومحمد بن أحمد بن إبراهيم بن محمد التلمساني الأنصاري[55] (764هـ)...وأبو الحسن علي المطماطي[56]... وغيرهم

مؤلفاته.

ولم يقتصر دوره العلمي على التدريس وشغل المناصب المختلفة كالقضاء والامامة والخطابة ولكنه إلى جانب ذلك دون وصنف في العلوم المختلفة، مما أظهر مشاركته العلمية، وتعدد اختصاصاته، فتمكن من اقتحام ميادين المعرفة وارتياد حقول علمية متعددة، وهكذا كانت تآليفه موزعة بين العلوم العربية والاسلامية كالنحو والبلاغة والعروض والحديث...

ومن هذه المؤلفات :

1 ــ تقييد على كتاب سيبويه[57].
2 ــ تلخيص القوانين في النحو[58].
3 ــ إحكام التأسيس في أحكام التجنيس[59].

---

(49) بيوتات فاس ص 50.

(50) نيل الابتهاج ص 255، الاعلام للمراكشي 4 : 418.

(51) الاحاطة 4 : 13

(52) الاحاطة 1 : 172.

(53) الجذوة 1 : 85

(54) الاحاطة 3 : 184

(55) نفس المصدر 3 : 201

(56) مذكرات التميري ص 196

(57) درة الحجال 2 : 98، الديباج ص 310، الجذوة 1 : 290، الازهار 2 : 350.

(58) الوافي بالوفيات 4 : 285 بغية الوعاة 1 : 200،، كشف الظنون 6 : 144.

(59) درة الحجال 2 : 97. الجذوة 1 : 290، الازهار 2 : 350.

4 ــ الاضاءات والانارات في البديع[60].
5 ــ حكم الاستعارة[61].
6 ــ شرح التجنيس لحازم[62].
7 ــ وصل القوادم بالخوافي (شرح كتاب القوافي لحازم)[63].
8 ــ جزء مختصر في العروض[64].
9 ــ حكم رؤية هلال شوال ورمضان[65].
10 ــ إفادة النصيح في التعريف بسند الجامع الصحيح للبخاري[66].
11 ــ السنن الأبين والمورد الأمعن في المحاكمة بين الامامين في السند المعنعن[67].
12 ــ ترجمان التراجم على أبواب البخاري[68].
13 ــ المحاكمة بين البخاري ومسلم[69].
14 ــ مسألة العنعنة[70].
15 ــ الصراط السوي في اتصال سماع جامع الترمذي[71].
16 ــ ايضاح المذاهب فيمن يطلق عليه اسم الصاحب[72].
17 ــ المقدمة المعرفة لعلو المسافة والصفة[73].

---

(60) درة الحجال 2 : 97، الجدوة 1 : 290.

(61) الوافي بالوفيات 4 : 285 بغية الوعاة 1 : 200

(62) نفس المصادر.

(63) درة الحجال 2 : 97، الجذوة : 290 الازهار 2 : 350، النفح 5 : 481

(64) درة الحجال 2 : 98. الجذوة 1 : 290، الازهار 2 : 350.

(65) الوافي بالوفيات 4 : 285.

(66) نشرته الدار التونسية بتحقيق د. الشيخ محمد الحبيب ابن الخوجة

(67) أخرجته الدار التونسية أيضا سنة 1977 بتحقيق ابن الخوجة.

(68) الدرر الكامنة 4 : 112 درة الحجال 2 : 97، الازهار 2 : 350 الاسلام للمراكشي 4 : 350

(69) الوافي بالوفيات 4 : 285 بغية الوعاة 1 : 200، درة الحجال 2 : 97، الازهار 2 : 350

(70) الوافي 4 : 285 بغية الوعاة 1 : 200.

(71) الوافي بالوفيات 4 : 285.

(72) الوافي 4 : 985، بغية الوفاة 1 : 200، الدرر الكامنة 4 : 112

(73) درة الحجال 2 : 97، ازهار الرياض 2 : 350.

18 ــ شروح وتعليقات على كتب الضبي وابن الأبار[74].
19 ــ ملء العيبة[75] وهي رحلته المشهورة وسنخصها بالحديث فيما ياتي.
20 ــ فهرسة مشايخه[76]
21 ــ وله خطب وقصائد وتصانيف كثيرة[77].

ملء العيبة (رحلته المشهورة).

وهي أهم مؤلفاته على الاطلاق، وعنوانها «ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة في الوجهتين الكريمتين إلى مكة وطيبة» دون فيها مشاهداته ولقاءاته في كل من مصر والشام والحجاز وتونس. وكما وقع الوهم من قبل في اسم ابن رشيد ونسبه، فقد وهم البعض أيضا في رحلته، فالمستشرق كراتشوفسكي يرى بأن لابن رشيد رحلتين مختلفتين[78] يصف في الأولى طريقه في إفريقيا وهي المعروفة بملء العيبة، ويفرد الثانية للكلام عن أهل الحديث والفقهاء الأندلسيين، ولقد وقع في هذا الخلط أيضا المستشرق بالنثيا حين وصف الرحلتين معا بالشهرة[79]، ولقد تنبه إلى هذا الوهم الأستاذ الفاسي في مقاله عن ابن رشيد[80].

وهناك اختلاف آخر بين الذين ترجموا لابن رشيد حول عدد أسفار هذه الرحلة، فإذا كان ابن شبرين يكتفي بوصفها بأنها «ديوان كبير»[81]، فهناك من الباحثين من ذكر بأنها في أربعة أسفار، بينما هناك من يذكر بأنها في ستة.

فالصفدي قد اطلع عليها في أربعة أسفار[82]، وابن القاضي يذكر كذلك بأنها

(74) تاريخ الفكر الأندلسي ص 319.

(75) مخطوطة فريدة بالأسكوريال، شرع الشيخ ابن الخوجة في تحقيقها واخراجها.

(76) الوافي بالوفيات 4 : 285.

(77) الدرر الكامنة 4 : 112،، الوافي بالوفيات 4 : 285.

(78) تاريخ الأدب الجغرافي 1 : 383.

(79) تاريخ الفكر الأندلسي ص 319

(80) مجلة معهد المخطوطات عدد 5 ص 42 بحث محمد الفاسي.

(81) الاحاطة 3 : 137.

(82) الوافي بالوفيات 4 : 285.

في أربعة أسفار «جمع فيها من الفوائد الحديثية والفوائد الأدبية كل غريبة وعجيبة»[83]، وهو نفس عدد الأسفار الذي وقف عليه المقري بتلمسان[84].

وفي المقابل نجد ابن حجر وقف عليها في ستة مجلدات وانتخب منها الفوائد الكثيرة[85]، ووقف عليها السيوطي أيضا بمكة في ستة مجلدات[86]، وهذا ما ذهب إليه كل من صاحب كشف الظنون[87]، وفهرس الفهارس[88]، والشوكاني في البدر الطالع[89].

وهذا التضارب في تقدير العدد هو الذي جعل صاحب السلوة يساير الفئتين معا فيقدرها بأنها في أربعة أسفار أو ستة[90].

الاستفادة من الرحلة واتخادها من المصادر.

ويبدو لكل ملاحظ مطلع أن هذه الرحلة كانت مشهورة في الأوساط العلمية متداولة بين العلماء يرجعون إليها، وينقلون منها، ويختصرونها، ويدرسون محتوياتها، فهذا عبد المهيمن الحضرمي قد اطلع عليها قبل أن تنظم في شكلها النهائي فكان له الفضل في مساعدة ابن رشيد على تخليصها وإخراجها وإظهارها[91]، ويقول ابن شبرين عن كتاب الرحلة «وقفت على مسودته ورأيت فيه فنونا وضروبا من الفوائد العلمية والتاريخية وطرفا من الأخبار الحسان والمسندات العوالي والأناشيد»[92]، أما ابن الخطيب فقد ذكر بأنه رأى شيئا من مختصره بسبتة[93]، وهذا يدل على أن

(83) درة الحجال 2 : 97.

(84) ازهار الرياض 2 : 350

(85) الدرر الكامنة 4 : 111.

(86) فهرس الفهارس 1 : 443.

(87) كشف الظنون 1 : 836

(88) فهرس الفهارس 1 : 443

(89) البدر الطالع 2 : 234

(90) سلوة الأنفاس 2 : 191

(91) رحلة ابن رشيد 6 : 4 ب

(92) الاحاطة 3 : 137.

(93) نفس المصدر السابق.

الرحلة أصبحت كالكتاب المدرسي المتداول، لذلك لا تخلو كتب التراجم والفهارس المغربية من الاشارة إليها أو النقل عنها، والاعتماد عليها في الشروح للمصنفات والكتب التي تعتمد في الدراسة[94].

فالزرقاني في شرحه على المواهب يستند عليها ويستدل بما جاء فيها[95]، أما تقي الدين الفاسي مؤرخ مكة فيستفيد منها وينقل عنها،[96] وهكذا تظل الرحلة محتفظة بمكانتها على مدى الأعصر، فلقد استفاد منها المقري وحرص على ربط سنده بمؤلفها الذي يعتبره من أكابر المغرب يقول «وقد رأيت نسخة من رحلته وعليها خطه بالاجازة لعبد المهيمن الحضرمي كما كان عليها خط الخطيب ابن مرزوق بأخذها عن عبد المهيمن عنه رحم الله الجميع»[97]، واستفاد منها كذلك أبو سالم العياشي بعد عثوره على نسخة من هذه الرحلة في عدة أجزاء بمكة المكرمة[98] إذ انتقى منها فوائد وأخبارا كثيرة[99]، وتبنى منهج ابن رشيد فيها[100]، ولقد سلك ابن مليح السراج في رحلته نفس السبيل حيث كانت رحلة ابن رشيد أهم مصادره ينقل عنها ويستشهد بنصوصها[101].

وهكذا بقيت لرحلة ابن رشيد هذه المكانة الممتازة بين المصادر المهمة لا يستغنى عنها لدراسة الثقافة والفكر في تلك الفترة مما «أهلها لأن تصبح مصدرا هاما ومرجعا معتمدا للدارسين والبحاث في عهدنا»[102].

---

(94) انظر مثلا مذكرات التميري ص 23، 48، 196.وأيضا فهرسة السراج والمنتوري، وانس الفقير.

(95) فهرس الفهارس 1 : 443.

(96) شفاء الغرام ورقة 129 أ.

(97) فتح المتعال ص 359

(98) رحلة العياشي 2 : 238

(99) نفس المصدر 2 : 238 ــ 247.

(100) نفسه 2 : 161.

(101) أنس الساري والسارب ص 84 ــ 124

(102) الوافي بالأدب العربي 2 : 386

بواعث الرحلة :

ومثل هذا يلقي الضوء على الأهداف والبواعث لرحلة ابن رشيد ورحلات غيره من العلماء المغاربة، فرغم أن ابن رشيد قد خرج في وجهته إلى الحجاز يريد الحج(103)، إلا أنه لم يفتأ يتصل بالعلماء ويبحث عنهم، ويسعى للقائهم، ويناظرهم، ويستفيد منهم، ويتدبج معهم، مما وجه الرحلة في الاتجاه العلمي، بدليل أنه لم يمكث بالحجاز إلا نحو أربعة أشهر فقط، مع أن رحلته استمرت ثلاث سنوات قضى معظمها في المراكز العلمية الشهيرة بمصر ودمشق وتونس بصفة خاصة، فلقد استاثرت العاصمة التونسية باهتمام رحالتنا، حيث قضى في مدارسها ومساجدها وبين علمائها وشيوخها، حوالي خمسة عشر شهرا، فلو كان الجانب الديني هو الأهم في الرحلة، لكانت البقاع المقدسة بالحجاز هي الأولى بهذا الزمن الطويل من الرحلة، بل إننا وجدنا ابن رشيد يبدي أسفه في غير ما مرة عن عدم استيفائه لما يرغب فيه من العلم والرواية لباعث السفر أو لضيق الاقامة(104)، كما يعلن أيضا عن نيته في العودة إلى مصر برسم القراءة بها(105).

محتويات الرحلة

من المؤكد أن رحلة ابن رشيد كانت معروفة على نطاق واسع في الأوساط العلمية، فلقد كانت مبثوثة في العواصم والمراكز العلمية شرقا وغربا، في تلمسان ومكة وغيرهما، يؤكد هذا ما ذكره كل من السيوطي والمقري وأبي سالم العياشي في القرن الحادي عشر الهجري.

إلا أن المعروف من هذه الرحلة الآن، نسخة فريدة غير تامة، مخطوطة بمكتبة الأسكوريال بإسبانيا، وهي النسخة اليتيمة التي تعتمد ــ لحد الآن ــ في دراسة حياة ابن رشيد وعصره، ويظهر من ترتيب أجزاء هذه النسخة ومضمونها أن الرحلة تقع في سبعة أجزاء، وإن كنا لا نتوفر الآن ــ مع الأسف ــ إلا على خمسة منها

---

(103) الوافي بالوفيات 4 : 285.

(104) رحلة ابن رشيد 3 : 48 ب

(105) رحلة ابن رشيد 6 : 1 أ

فقط، أما الجزآن الآخران وهما الأول والرابع فيعتبرهما البحث مفقودين، وبضياعهما حجبت عنا من هذه الرحلة تفاصيل ومراحل هامة، بدون معرفتنا لها تبقى ثغرات وزوايا وحقائق مجهولة.

فالمعروف أن ابن رشيد قام برحلته في سنة (683)هـ انطلاقا من المرية برفقة صديقه الأديب أبي عبد الله ابن الحكيم اللخمي، إلا أن ضياع الجزء الأول يجعلنا غير قادرين على تحديد الطريق التي سلكاها حتى وصلا إلى تونس، فهل سلكا نفس الطريق التي استعملها ابن رشيد نفسه في عودته من الرحلة ؟ وهي الابحار من المرية إلى بجاية، وهي الطريق التي كان يسلكها معظم الرحالة الأندلسيين كابن العربي(106) مثلا، مما جعل بجاية «آهلة عامرة بأهل الأندلس(107)» كما ذكر البكري، أم إن المركب الذي أقلهما رسا أولا بمرسى هنين قريبا من تلمسان وهي الطريق التي سلكها الكثير من الأندلسيين أيضا كالبلوي(108) ؟

ونبقى مكتفين هنا بالتساؤل ما دمنا لم نعثر على ما كتبه ابن رشيد في بداية الرحلة، إلا أن هناك عناصر لها أهميتها في البحث تجعلنا نميل إلى ترجيح الاحتمال الثاني وهو أن ابن رشيد أبحر أولا إلى هنين فأتيح له دخول تلمسان والحواضر العلمية الأخرى بالمغرب الأوسط كالجزائر وبجاية وبونة...

فأبو العباس المقري يورد خبرين هامين فيهما ما يفيد بأن ابن رشيد ورفيقه زارا تلمسان وكان لهما بها أخبار ومواقف علمية، يقول في الخبر الأول : «وقال مولاي الجد رحمه الله تعالى : حدثني الآبلي أن أبا عبد الله محمد بن عبد الرحيم بن أبي العيش الخزرجي الخطيب بتلمسان كان يقول في خطبته من يطع الله ورسوله فقد رشد بالكسر، وكان الطلبة ينكرون عليه ذلك فلما ورد عليهم الراوية الرحلة أبو عبد الله محمد ابن عمر بن رشيد الفهري سمعه يقول ذلك فانكر عليه في جملتهم، وبلغ الخطيب ذلك فلم يرجع فلما قفل ابن رشيد من وجهته تلك دخل على الأستاذ أبي الحسين ابن أبي الربيع بسبتة فهنأه بالقدوم وقال له فيما قال رشدت يا بن رشيد ورشدت لغتان صحيحتان حكاهما يعقوب في الاصلاح ثم قال الجد قلت هذه كرامة للرجلين أو للثلاثة»(109)

---

(106)قانون التأويل ص 24 نسخة مرقونة.

(107) كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص 82.

(108) تاج المفرق 1 : 148.

(109) نفح الطيب 5 : 274، نيل الابتهاج ص 252، البستان ص 159.

ويقول في الخبر الثاني «ولما وقف الرفيقان أبو عبد الله محمد بن عمر بن رشيد الفهري ومحمد بن عبد الرحمن بن الحكيم الرندي في رحلتهما على قبر السعيد بعباد تلمسان تناول ابن الحكيم فحمة ثم كتب بها على جدار هناك :

«انظر ففي إليك اليوم معتبر إن كنت ممن بعين الفكر قد لحظا
بالأمس ادعى سعيدا والورى خولى واليوم يدعي سعيدا من بي اتعظا»[110]

فكل من النصين يؤكد بأن ابن رشيد زار تلمسان مع رفيقه في رحلتهما هذه، ولعل هذين النصين وغيرهما مما يضمه الجزء المفقود من الرحلة.

ثم إن ابن رشيد يشير في ثنايا الرحلة إلى أنه أخذ عن أعلام وشيوخ ببجاية لا شك في أنه اتصل بهم وروى عنهم وهو في طريقه إلى تونس، فلقد وصف ابن رشيد أبا علي ناصر الدين المشدالي (ت 731هـ) «بشيخنا الامام المفتي»[111]، كما وصف خطيب بجاية أبا عبد الله ابن صالح الكناني الشاطبي (ت 690هـ) «بشيخنا الخطيب الصالح»[112].

ومن المحتمل جدا أن يكون ابن رشيد قد عرف في الجزء الأول المفقود بهما وبغيرهما من الشيوخ والعلماء الذين كانت تزخر بهم بجاية في نهاية القرن السابع الهجري، والذين ترجمهم أبو العباس الغبريني (ت 714هـ) في كتابه عنوان الدراية.

كما أننا لا نستطيع الجزم بمعرفة تفاصيل هذه الرحلة من تونس إلى الأسكندرية فهناك ثغرة بسبب ضياع بداية الجزء الثالث، فالجزء الذي بين أيدينا الآن يبتدىء بقوله «وممن لقيناه أيضا بثغر الأسكندرية» وهو بادي النقصان واضح البتر، بالاضافة إلى أن الجزء الثاني ينتهي بقوله «ويتصل هذا السفر من الذي يتلوه كان سفرنا من تونس كلأها الله تعالى»، فالجزء الثالث الذي كتبه ابن رشيد كان يبتدىء حتما بهذه الصلة التي نبه عليها في نهاية الجزء الثاني ... وعلى أي فقد فاتتنا الفوائد والتفاصيل التي تتعلق بهذه المرحلة الطويلة من الرحلة والتي تقرب من الشهرين، وهي فترة لا نظن أن ابن رشيد بدأبه العلمي وبحثه المتواصل يتركها دون تدوين أو تصحيح،

---

(110) النفح 5 : 255، الازهار 5 : 32، والسعيد هو أبو الحسن على ابن إدريس بن يعقوب المنصور الموحدي، قتل في حروبه مع يغمرراسن سنة 646 ه.

(111) رحلة ابن رشيد 6 : 11

(112) رحلة ابن رشيد 6 : 25، إفادة النصيح ص 93.

أو نقل، على نحو الفوائد المهمة التي دونها في الجزء السادس من الرحلة وهو على ظهر المركب، فبضياع هذه البداية لم تستطع معرفة طريقه هل سلك طريق البر مثل العبدري ؟ أم إنه ركب البحر مثلما فعل هو نفسه حين العودة ؟...[113].

وهناك بتر ثالث أو ثغرة أخرى ويتمثل ذلك في النقص الذي نحس به في نهاية الثالث وضياع الجزء الرابع بكامله، فانتهاء الجزء الثالث الذي بين أيدينا بسند ناقص في ترجمة أبي العز الحراني يعطي الانطباع بأن هناك أوراقا كثيرة قد سقطت، بل وتراجم أخرى قد ضاعت، وهذا النقص جعلنا لا نعرف متى رحل عن القاهرة ولا كيف سافر وما هي الطريق التي سلكها حتى حل بدمشق نظرا لضياع الجزء الرابع بكامله وهو المخصص للشام، فلا شك أن هذا الجزء كان حافلا أيضا بتراجم العلماء وأخبارهم وأسانيدهم العالية، والنقول عنهم، فكتب ابن رشيد المختلفة، وإشاراته ضمن الأجزاء الباقية من الرحلة، والاستدعاء الكبير[114] الذي حمله معه من رحلته وكتب التراجم والطبقات... كل هذا يظهر لنا بأنه التقى بعلماء في كل من بعلبك وحرم الخليل ودمشق والقدس ونابلس... مما يتضمنه دون شك الجزء الرابع المفقود، نحن هنا لا نستطيع الالمام بكل هؤلاء العلماء الاعلام[115] لكثرتهم، تكفي الاشارة إلى أن منهم الشاعر والأديب والفقيه والمحدث والمتصوف والعالم، ممن هم على شاكلة أبي الثناء ابن فهد الحلبي[116] (ت 725هـ) الذي لقيه ابن رشيد بدمشق فوصفه بالفقيه الامام العلامة والرئيس الفاضل ولا شك أنه استفاد منه علما وأدبا، ونقل عنه أشعارا وآراء نقدية وبلاغية، فلقد أورد ابن الأحمر في كتابه نثير الجمان بأن ابن رشيد سمع من أبي الثناء قصيدة وهما بطريق المدينة المنورة فتناقلها عنه الأندلسيون والمغاربة، وهي طويلة في ستة وأربعين بيتا يقول في مطلعها

وصلنا السرى وهجرنا الديـارا   وجئناك نطوي إليك القفـارا[117]

(113) تبينت بعد ذلك أن ابن رشيد سافر بحرا، انظر ترجمة ابن حبيش في الرحلة 2 : 1أ ــ 8ب وأيضا ترجمة أبي محمد الطبيري 2 : 17 أ من الرحلة.

(114) انظر مثلا :
1) إفادة النصيح في مواضع مختلفة.
2) الاستدعاء الكبير المخطوط بخزانة القرويين نشره الأستاذ ابن الخوجة ملحقا بالجزء الثالث (463 ــ 487).

(115) ذكر الأستاذ الحدادي في رسالته الجامعية أربعين عالما. دراسة الرحلة نسخة مرقونة 2 : 358 ــ 377.

(116) ترجمته في شذرات الذهب 6 : 69، الدرر الكامنة 4 : 324 الزركلي في الاعلام 7 : 172.

(117) نثير الجمان ص 190 ــ 196، أبو الوليد ابن الأحمر ص 137

ومن هؤلاء العلماء قاضي نابلس جمال الدين أبو عبد الله الذي لقيه ابن رشيد بنابلس وسمع عليه بلفظه[118]، والشيخ الصالح الصوفي أخو الامام شهاب الدين الحنبلي لقيه بنابلس أيضا[119]، وخطيب المسجد الأقصى قطب الدين أبو الذكاء لقيه بالقدس الشريف[120]، ونور الدين أبو الحسن البديع لقيه ابن رشيد بحرم الخليل وسمع عليه قصيدة الشاطبية[121]، وإذن فالباقي من الرحلة خمسة أجزاء يتعلق القسم الأكبر منها بتونس والباقي بمصر والحرمين الشريفين.

فالجزء الثاني الذي يضم سبعا وستين ورقة[122] يعتبر خلاصة للنشاط العلمي لكل من ابن رشيد ورفيقه في تونس حين الورود، كما يعكس الجو العلمي والفكري الذي كان سائدا حينئذ في تونس، مما جعل الرفيقين يطيلان إقامتهما حوالي ثلاثة أشهر كانت حافلة بالاتصالات والاجازات والدروس والمجالس العلمية والنزه الأدبية...

وهكذا تحدث عن بعض هؤلاء العلماء إذ ترجم لستة عشر منهم مع أنه لم يترجم لكثير من هؤلاء العلماء والشيوخ بدليل أنه لم يترجم في هذا الجزء لحازم القرطاجني العالم الأديب، مع أن ابن رشيد ورفيقه التقيا به في تونس وأخذا عنه، فابن رشيد كلما ذكره وصفه بما يفيد هذه الاستادية مثل عباراته قال شيخنا وذكر شيخنا وأنشد شيخنا... وما إلى ذلك. فهل تكون ترجمة ابن رشيد لحازم قد ضاعت ضمن ما ضاع من الرحلة ؟ فتكون الترجمة واردة في آخر الجزء الأول المفقود. ويقوي هذا الاحتمال عنصران مهمان أولهما ما بدىء به الجزء الثاني من الرحلة وهو قوله «وممن لقيناه بتونس سفري عليها من بلاد المغرب»[123] فواو العطف تفيد أن هناك تراجم لعلماء التقى بهم في تونس قد سبق ذكرها. وثانيهما إحالة ابن رشيد نفسه على هذه الترجمة وذلك بقوله قبل إيراده صادية حازم رواية عن التجاني «وقد تقدم المقدار الذي انشدني منها شيخنا أبو الحسن حازم رحمه الله في رسمه»[124].

---

(118) الاستدعاء الكبير ضمن رحلة ابن رشيد المطبوعة 3 : 486

(119) نفس المصدر ص 485.

(120) نفسه ص 484

(121) نفسه ص 483

(122) مخطوط الاسكوريال رقم 1736.

(123) رحلة ابن رشيد 2 : 1..

(124) رحلة ابن رشيد 7 : 40 أ.

ولا شك أن هذه الترجمة هي التي أورد كل من السيوطي والمقري فقرة منها نقلا عن الرحلة وممّا جاء فيها «حبر البلغاء، وبحر الأدباء، ذو اختيارات فائقة، واختراعات رائقة لا نعلم أحدا ممن لقيناه جمع من علم اللسان ما جمع، ولا أحكم من معاقد علم البيان ما أحكم من منقول ومبتدع، وأما البلاغة فهو بحرها العذب، والمنفرد بحمل رايتها أميرا في الشرق والغرب، أوما حفظ لغات العرب وأشعارها وأخبارها فهو حماد راويتها وحمال أوقارها، بجمع في ذلك جودة التصنيف وبراعة الخط، ويضرب بسهم في العقليات، والدراية أغلب عليه من الرواية»[125].

ــ ومن أهم العلماء الذين ترجمهم في الجزء الثاني الفقيه الراوية المسند المقرىء أبو عبد الله محمد بن أحمد بن حيان الأنصاري الأوسي الشاطبي[126] (ت 718هـ) الذي أعجب ابن رشيد بعلمه فوصفه بأنه «أحد المكثرين سماعا وتقييدا وتحصيلا لهذا الفن وتجويدا، سمع العالي والنازل واقتنى من الأمهات والأجزاء كثيرا، وكتب بخطه ما لا يحصى واستجاز كل من أدركه شرقا وغربا»[127]، روى عنه مسلسلات القاضي أبي بكر ابن العربي، وقرأ عليه وسمع منه أوراقا كثيرة منها قصيدة ابن عساكر في علم الحديث وشأنه مطلعها :

واظب على جمع الحديث وكتبه   واجهد على تصحيحه في كتبه[128]

ــ ومن هؤلاء الفقيه الأديب الكاتب البليغ الحافظ الناقد العلامة أبو بكر محمد ابن الحسن... ابن حبيش المرسي الأصل التونسي القرار[129]، وصفه ابن رشيد بأنه «كان متفننا في العلوم، منصفا فيما يعن من الفهوم، متقدم القدم في صناعة البيان متمكن اليد من ناصية الابداع والاحسان، تلج درر كلامه أصداف الآذان من غير استيذان، فريد في دهره أمير في نظمه ونثره، أما النظم فبيده عنانه، وأما النثر فإن مال إليه توكف له عنانه، مع تواضع زائد، على صلة مجده عائد، لقيته بمنزله ليوم أو يومين من مقدمي على تونس، فتلقى بكل فن يونس»[130]، ورغم

(125) بغية الوعاة 1 : 491، ازهار الرياض 3 : 172. النفح 2 : 589.

(126) رحلة ابن رشيد 2 : 20 ب ــ 26ب.

(127)نفس المصدر 2 : 21.

(128) المصدر السابق.

(129) رحلة ابن رشيد 2 : 1 أ ــ 8 ب.

(130) نفسه 2 : 1.

أنه صادفه بحالة مرض إلا أن مجلسه قد غص بالصدور والأمجاد والعلماء الأفذاذ، ولقد أعجب ابن حبيش أيضا بابن رشيد بما أظهر من تمكن في العلم والأدب وهو يدلي بدلوه في هذا المجلس العلمي، فزحف مع مرضه إلى محبرة وطرس وقلم لتسجيل بيتي ابن رشيد في الألغاز[131]، ذكر ابن رشيد في هذه الترجمة شيوخ ابن حبيش هذا، وأشار إلى أنه رغم إجادته قول الشعر فإنه «لم ينظم بيت هجو قط»[132] والظاهر أن الصلة بين الأديبين أصبحت متينة، فلقد بعث إليه وهو بالمركب متوجها إلى الرحلة الحجازية بعض الأحاديث مكتوبة بخطه مع الترجمة والسند من البخاري[133].

ــ ونلتقي في هذا الجزء أيضا بترجمة الشيخ الصالح المبارك الفاضل أبي عبد الله محمد بن إبراهيم القيسي السلاوي[134]، وهو «شيخ حافظ له رواية وذكر لنبذ من الأدب وحفظ لكرامات الأولياء ذاكر لما شاهد منها، وأصله سلا وبها ولد وبها نشأ»[135]، ولقد صحبه ابن رشيد واستجازه فأجازه جميع ما يحمل عن شيوخه وكتب خط يده بذلك في يوم السبت الحادي عشر من شهر ربيع الآخر عام أربعة وثمانين وستمائة، كما أخذ عنه المشابكة التي يلتقي في سندها بابن العربي الحاتمي[136].

ــ وفي هذا الاطار الصوفي يروي ابن رشيد مسلسلات أبي محمد الخلاسي[137] (ت 697هـ) مثل مسلسل احتفى في الضيافة[138] واحتفل، ومسلسل لقمنا لقمة لقمة[139].

---

(131) نفسه 2 : 1.ب.

(132) رحلة ابن رشيد 2 : 3أ.

(133) نفسه 2 : 4ب

(134) ترجمته في الرحلة 2 : 41 أ ــ 43ب.

(135) نفسه 2 : 41 أ

(136) نفس المصدر 2 : 42 ب

(137) ترجمته في الجزء الثاني من الرحلة 45 ب ــ 56 أ

(138) نفس المصدر 2 : 51 أ

(139) نفسه 2 : 51 ب

ــ كما صحب ابن رشيد هو ورفيقه مدة إقامتهما بتونس الفقيه المحدث الصالح الخير الأديب الابرع أبا العباس أحمد بن ميمون الأشعرى[140] فكانا يترددان عليه في بيت بمسجد هناك فيجدان عنده جلف الخبز والماء فيأكلانه معه فيسر ويسران بذلك، كما كان يشاركهما ويتردد إليهما ويؤنسهما أيضا.
ويذكر ابن رشيد بأن شعره كثير وقد صنف وكتب بخطه جملة.

ويشعر ابن رشيد بالأسف إذ لم يتات له لقاء أعلام هناك بتونس إلى أن حان أجلهم فانقطع أمله في اللقاء، فلقد سعى إلى الالتقاء بالعالم العامل رئيس الفقهاء أبي محمد عبد الحميد... ابن أبي الدنيا[141] الذي كان يعاني في ذلك الوقت مرضا شديدا، فمنع ابن رشيد من الدخول عليه، مع أن الشيخ في تلك الأيام كان «حريصا على لقاء من رحل من المغرب في المركب الواصل، راغبا فيمن يستجيزه أو يأخذ عنه أو يسمع منه»[142]، إلا أن ابن رشيد عاد ليحاول الدخول عليه فالفى الشيخ ميتا فاشتد أسفه عليه و لم يحظ منه إلا بما يرجوه من الأجر في حضور جنازته الحافلة، وكانت وفاته في يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من ربيع الأول عام 684هـ، وصلى عليه ابن عرفة بجامع الزيتونة.

وشعر ابن رشيد بالأسف أيضا حين لم يتات له لقاء عجوز لها سماع عال في البلاد المشرقية، ويتعلق الأمر بآسية بنت عبد الرحيم بن طلحة، ومن الصدف أن الذي ضيع عليه فرصة لقاء ابن أبي الدنيا هو نفسه الذي تماطل في ترتيب لقائه بهذه السيدة الفاضلة إلى أن توفيت كذلك[143].

أما الجزء الثالث من الرحلة فيضم 123 ورقة[144] يترجم فيها لثلاثة وأربعين علما ممن التقى بهم أو أخذ عنهم في البلاد المصرية عامة في وروده عليها من المغرب. ومع أن إقامته بهذه البلاد، وهو في طريقه إلى الحجاز لم تستغرق إلا نحو شهر ونصف، فإنه مع ذلك قد ملأ عيبته بأخبار العلماء وأسانيدهم وفتاويهم وأشعارهم

---

(140) ترجمته في الرحلة 2 : 66أ ــ 68ب

(141) ترجمته في رحلة ابن رشيد 2 : 64أ ــ 65ب

(142) نفسه 2 : 65 ب

(143) نفس المصدر السابق

(144) مخطوط الأسكوريال رقم 1739.

وكتبهم وحصل على الاجازات وحضر الدروس، وتردد على المجالس العلمية في المساجد[145]. والمدارس[146]، ومنازل العلماء[147]، ودكاكينهم[148]، وفي الطريق أيضا[149]، وأخذ عن أهل الفقه والحديث وأصحاب الاسناد، كما أخذ عن أهل التصوف والأدب.

ــ ومن الذين لقيهم بالأسكندرية الشيخ المحدث تاج الدين أبو الحسن الغرافي[150] ولقد ذكره ابن رشيد في آخر من ترجمهم من علماء الأسكندرية حين الورود معتذرا بقوله «وحقه أن يقدم، ولكن أردنا أن نجعله لمن لقيناه بالأسكندرية مسك الختام ودليل التمام»[151]، ولقد اهتم به ابن رشيد فكانت ترجمته من الغنى والسعة ما يشي بمكانته عنده، كما أنه روى عنه أقوالا كثيرة وأشعارا، وكتب عنه أسانيد عالية، فأذن له الغرافي في الرواية عنه بسند الامام الشافعي[152]، وسند البخاري[153]، ولقد قرأ عليه جزءا للمحدث أبي صالح ابن زنبور[154] وسمع عليه ثلاثيات البخاري[155] وذلك بدار الحديث النبيهية في 29 جمادى الأولى عام 684هـ.

وهكذا كان جل ما أخذه عنه يتعلق بالحديث، فعنه أخذ البيتين[156]

علم الحديث فضيلة تحصيلها بالسعي والطواف في الأمصار.
فإذا أردت حصولها بإجازة فقد استعضت الصفر بالدينار

(145) رحلة ابن رشيد 3 : 21. 22. 23. 64. 99.

(146) نفسه 3 : 48. 95. 108.

(147) نفسه 3 : 23. 31. 79. 96.

(148) نفسه 3 : 9 ب. 86 أ.

(149) الرحلة 3 : 23 ب.

(150) رحلة ابن رشيد 3 : 10أ ــ 21أ.

(151) نفسه 3 : 10أ

(152) نفسه 3 : 11أ.

(153) نفسه 3 : 12أ

(154) نفسه 3 : 15ب.

(155) نفسه 3 : 17أ.

(156) نفسه 3 : 10ب.

ـ ومن الذين لقيهم أيضا بمصرابن دقيق العيد[157] وصفه ابن رشيد بالامام الأوحد العالم العلامة المجتهد مفتي الاسلام، ذي التصانيف الجليلة والمباحث الدقيقة، مدرس المذهبين المالكي والشافعي بقية العلماء الاعلام، وأول من لقيه بالمدرسة الصالحية بالقاهرة صدفة[158]، لكن سرعان ما أبدى إعجابه بابن رشيد وتقديره له بعد أن تناقشا في حكم البسملة في قراءة الفاتحة في الصلاة حيث أظهر ابن رشيد اطلاعا واسعا وإلماما بآراء الفقهاء والأحداث التاريخية، كما تكرر لقاؤه به في المدرسة الفاضلية والمدرسة الكاملية إذ كان ابن دقيق العبد يدرس بالأولى المذهبين، ويدرس الحديث بالثانية، ولقد أخذ عنه ابن رشيد كثيرا من سماعاته وحدثه بنظمه لنفسه، من ذلك قوله : [159]

يامنيتي أملي ببابك واقف والجود يأبى أن يكون مضاعا

ومن أهم ما في هذه الترجمة هو ذكر لشيوخ ابن دقيق العيد وتصانيفه[160]

ـ ويلقى بالصدفة أيضا علما آخر بالقاهرة وهو الشيخ الامام أبو عبد الله ابن النحاس وصفه ابن رشيد بقوله : «أحد أعلام علماء الديار المصرية إمام في العربية والآداب والخلاف، وله نظم رائق ونثر فائق، وكرم ذات، وفضل أدوات ومروءة ظاهرة وخلق طاهرة ورواء وبهاء»[161].

ويحرص ابن رشيد على ذكر أول لقاء وقع بينهما بجامع عمرو بن العاص بالقاهرة إثر صلاة العصر، فتعرف كل منهما على الآخر، وأعرب ابن النحاس، وهو في حلقة الدرس، عن تقديره لآراء ابن رشيد وإعجابه بسعة علمه بعد أن أبان ابن رشيد عن اطلاع واسع وتمكن، من خلال إسهامه في المناقشات اللغوية والنحوية التي جرت في هذه الحلقة.

ويصف رواد الحلقة بأنهم ذوو احتشام لكون الشيخ كان ذاهيبة معظما عند الخاصة والعامة فهو كما نقل عن أبي حيان «شيخ أهل البلاد في علم اللسان والمقر له في ذلك بالاجادة والاحسان، ذاكر للعربية واللغة، وأحسن الناس صحبة وأكثرهم

---

(157) رحلة ابن رشيد 3 : 57ب ـ 64أ

(158) نفسه 3 : 60ب

(159) رحلة ابن رشيد 3 : 60ب.

(160) نفسه 3 : 61أ

(161) الرحلة 3 : 23ب.

مروءة»[162] فلا عجب إذا كان هناك تجاوب بين الرجلين، فواظب ابن رشيد على حضور دروسه، كما أدخله ابن النحاس إلى منزله فأضافه وعرض عليه جميع كتبه وأباحها له، وفي هذا ما يدل مرة أخرى على احتفال كل منهما بالآخر فتبادلا المحبة والاعجاب والتقدير.

سمع عليه ابن رشيد كتاب سيبويه في يوم الخميس الخامس والعشرين رجب عام (684هـ) بمنزله في القاهرة[163] ولقد ذكر له من مؤلفاته الديوان على نحو قلائد العقيان، واليتيمة، والخريدة، ومما أنشده له قوله[164] :

قالوا حبيبك قد تبدى شيبه ... فإلى م قلبك في هواه يهيم
قلت اقصروا فالآن تم جماله ... وبدا سفاه فتى عليه يلوم
الليل عارضه، وحمرة خده ... شفق، وبعض الشيب فيه نجوم

وبعد أن يذكر ما رواه عنه من أشعار وأخبار وكتب وأسانيد ينهي ترجمته بقوله : «هذا ما أملاه علينا الشيخ في منزله في بعض مجالسه ودفع لي درجا كتبته فيه وحضر معنا جماعة من الأصحاب دفع إليهم دروجا كتبوا أيضا فيها هذه الانشادات فعادوا يسمون ذلك اليوم يوم الدرج يجعلونه تاريخا لمكان ما جرى فيه من التأنيس»[165].

وهكذا كانت إقامة ابن رشيد بمصر بحثا متواصلا عن العلماء ورغبة في حضور مجالسهم، والرواية عنهم، فالتقى كذلك بعز الدين أبي العز الحراني[166] الذي تفرد في الديار المصرية بسماعات «فرحل الناس إليه وتزاحموا في السماع عليه»[167] قرأ عليه عوالي السند وصدرا من كتاب البخاري، وأحاديث مختلفة وذلك بمسجد النخلة بفسطاط مصر في 24 رجب عام 684هـ قريب منزله من دار الحبيلي[168]،

---

(162) نفسه 3 : 27ب.

(163) نفسه

(164) رحلة ابن رشيد 3 : 28ب

(165) نفسه 3 : 30أ

(166) الرحلة 3 : 114أ ــ 123أ

(167) نفسه 3 : 114 ب.

(168) نفسه 3 : 115 أ.

ومع الأسف إن بتر الجزء الثالث من آخره يجعلنا لا نعرف ما أخذه ابن رشيد وما كتبه عن الحراني هذا، كما لا نعرف من ترجم لهم بعد ذلك.

ـــ ومن العلماء المتصوفة الذين التقى بهم بمصر أبو عبد الله محمد ابن الخيمي(169)، الذي خصه بترجمة وافية، وكان قد لقيه بإيوان مشهد الحسين فنال منه الاجازة له ولأبنائه وكتب له خطه في 18 رجب عام 684هـ، روى عنه ابن رشيد أشعارا كثيرة بل كان إذا نظم شيئا من شعره عرضه عليه قبل إظهاره، ولقد لخص ابن رشيد رأيه في شيخه ابن الخيمي يقوله «وشيخنا ابن الخيمي هذا صدر في أدباء المصريين في عصره، له أشعار عذبة المطالع، حلوة المقاطع، تستميل السامع والمطالع، كأنما يفرغ منها في أصداف الآذان درا، ويلقي في الأفواه سكرا أو قطرا، وكان قد صحب صدر أدباء المصريين في عصره شرف الدين ابن الفارض ويقال ابن المفرض وحمل عنه شعره»(170)

ـــ ولقد التقى بالزاهد الورع أبي الصفاء خليل المراغي(171)نائب قاضي الحنابلة بالديار المصرية قرأ عليه جملة من مشيخته، ضاق الوقت عن استيفائها نسخا وقراءة، كما روى عنه أحاديث وكتبا.

كما التقى بالصوفي الأديب المصنف المفتي قطب الدين أبي بكر محمد القسطلاني(172) قرأ عليه بالمدرسة الكاملية في 24 رجب عام 684هـ، وروى عنه أشعارا له ولغيره كما ذكر تآليفه، ويقول عنه «وكان له قدم ثابت في التصوف، وتسليك لطالبه، ومعرفة بكلام المشايخ وأحوال القوم، ومعرفة بالحديث، وحفظ وإتقان»(173).

ـــ والتقى أيضا بأبي العباس أحمد الظاهري(174) الذي كان به برا حفيا فتكرر عليه كثيرا ويقول عنه «وكان له رباط يسكن في منزل به عليه قاعة كبيرة وكان

(169) ترجمته في رحلة ابن رشيد 3 : 43 ب 48 ب

(170) رحلة ابن رشيد 3 : 46 أ

(171) نفسه 3 : 48 ب ـــ 57 أ.

(172) ترجمته في الرحلة 3 : 106 ب ـــ 133أ

(173) الرحلة 3 : 111 ب.

(174) ترجمته في الجزء الثالث 96 ب ـــ 99 ب.

بها بيت كبير لجلوسه ، وفيه خزائن لكتبه حسنة ظريفة»[175]، ولقد قرأ عليه ابن رشيد في منزله هذا في يوم الثلاثاء 23 رجب عام 684 وأجاز له ولأولاده ولمن ذكر معه في الاستدعاء.

ــ ولم تقتصر لقاءاته على الرجال بل التقى بالنساء أيضا، إذ قرأ على الصالحة أم الفضل زينب ابنة الامام عبد اللطيف البغدادي[176] وحصل منها على الاجازة له ولجميع من سمي في الاستدعاء وذلك بمنزلها من القاهرة في يوم الاثنين 29 رجب عام 684هـ.

أما الجزء الخامس من الرحلة[177] فيضم أربعا وثمانين ورقة، تحدث فيها عن واحد وثلاثين علما ممن التقى بهم في الحرمين الشريفين أو في مصر والاسكندرية عند الصدور.

ولقد استوفى ترجمة بعض من تكرر لقاؤه بهم في مصر كعز الدين الحراني[178] وجمال الدين الظاهري[179] وأبي صادق ابن رشيد العطار[180] وأبي الفتح ابن دقيق العيد[181].

ورغم انشغاله بتادية الفريضة والقيام بمناسك الحج، فلقد حرص أيضا على لقاء العلماء والفقهاء في الحرمين الشريفين، فترجم لستة عشر منهم معظمهم من الوافدين على الحرمين للحج والزيارة أو الجوار.

ــ ومن هؤلاء الذين ترجمهم الفقيه المالكي أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن يحيى الفاسي[182] المنسوب إلى مدينة فاس، والمجاور بالمدينة المنورة، ورغم أن الكبر كان قد أقعده عن التصرف، إلا أنه قرأ عليه بداره في المدينة المنورة جميع ثلاثيات البخاري في 24 ذي القعدة من عام 684هـ.

---

(175) الرحلة 3 : 96 ب.

(176) ترجمتها في الجزء الثالث 79 ب ــ 81 ب.

(177) مخطوط الأسكوريال رقم 1680.

(178) الرحلة 5 : 59 أ ــ 62 أ

(179) نفسه 5 : 62 أ ــ 65 أ.

(180) الرحلة 5 : 65 أ ــ 66 أ.

(181) نفسه 5 : 66 أ ــ 67 ب.

(182) الرحلة 5 : 8 أ ــ 9 أ.

ــ والتقى وهو بمكة الأخوين الفاضلين(183) العاملين أبا عبد الله محمد بن أبي بكر بن خليل العسقلاني، وأخاه الصالح المبارك علم الدين أحمد وهما من مكة سمع عليهما بدارهما في سابع ذي الحجة عام 684هـ، وروى عنهما الأحاديث وحصل منهما على الاجازة له ولأبنائه.

ــ والتقى من النساء الشيخة الصالحة الكاتبة أم الخير أم محمد فاطمة بنت إبراهيم البطائحي(184)، وكانت قد قدمت في ركب الشام زائرة وحاجة، لقيها ابن رشيد بمسجد الرسول عليه السلام، وقرأ عليها أحاديث، ثم أجازته في جميع مروياتها.

ــ وأطول ترجمة في هذا الجزء هي التي خص بها أبا اليمن عبد الصمد ابن عساكر الدمشقي الشافعي(185)، ورغم أنه قد سقطت أجزاء من ترجمته هذه إلا أنه يظهر مما بقي أن ابن رشيد كان يحتفي بشيخه ابن عساكر ويعتني به ويطنب في ذكر مزاياه ومناقبه، ويحرص على السماع منه والقراءة عليه.

ــ وهكذا أذن ابن عساكر له في الرواية عنه في الجملة كتاب الصحيح المسمى بكتاب التقاسيم والأنواع لأبي حاتم بن حيان البستي، والكتاب كما يصفه أحد جلة المصنفات الجامعات المفيدات(186)، كما سمع منه وقرأ عليه شمائل الترمذي، ورسالة القشيري إلى الصوفية، وكتاب سيرة الرسول ــ عليه السلام ــ لابن إسحاق، والجامع الصحيح للبخاري، وصحيح مسلم وحرز الأماني ومقامات الحريري وكتبا أخرى، منها ما قرأ صدرها عليه ومنها ما سمعه مباشرة منه، ومنها ما رواه عن طريق رفيقه في الرحلة ابن الحكيم.

وأنشده أشعارا كثيرة لنفسه ولغيره منها قصيدته في صفة النعل الكريمة التي مطلعها(187).

يا منشدا في رسم ربع خالي ومنـاشدا لـدوارس الأطـلال

(183) الرحلة 5 : 25 أ.

(184) الرحلة 5 : 5 أ ــ 6 أ.

(185) ترجمته في الرحلة 5 : 28 أ ــ 52 ب.

(186) الرحلة 5 : 37 مكرر.

(187) الرحلة 5 : 45 أ، القصيدة في ازهار الرياض 3 : 262.

ومن هذه الأشعار أيضا قصيدته التي قالها عند موافاته المنصورة تحريضا للمجاهدين وتحضيضا للمتثاقلين إلى الأرض أن ينفروا في سبيل الله، والقاعدين قال في مطلعها[188]

ومصيبة عظمت وخطب قادم ذهلت له الألباب والأفهام
أضحى به الاسلام منفصم العرا يجنى عليه برغمها ويضام

ومن نظمه الذي أورده له في الرحلة قصيدته التي يقول في مطلعها[189]

يامن تبوأ من مشاعر مكة متبوأ بين الصفا والمروت

وابن رشيد في هذا الجزء، كعادته في باقي أجزاء الرحلة، يبدو دائب البحث عن العلماء للأخذ عنهم، وتجديد السند والرواية بلقائهم.

فيذكر بأنه أثناء توقف الركب للاستراحة بمدينة حوران وهو في طريقه من دمشق، بحث عن أهل العلم فلم يجد أحدا منهم[190].

ويجتمع في تبوك بالشيخ الفاضل عفيف الدين أبي محمد عبد الرحيم الزجاج البغدادي الذي قدم هو كذلك حاجا يصفه بأنه من «بقية علمائها الذين أسارتهم دخلة التتر بغداد»[191]، وقرأ عليه يسيرا من كتاب البخاري وأخبره بجميعه إذنا معينا بسماعه لجميعه. إلا أن أهم ما في هذا الجزء هو حرصه على وصف الطريق التي سلكها ـــ على غير عادته في باقي الأجزاء ـــ من دمشق إلى المدينة، ثم إلى مكة المكرمة، وحرصه أيضا على وصف المشاهد والأماكن التي تقترن بالعبادات، وتفصيله في ذكر المناسك والعبادات والتنصيص على حكم الفقهاء ورأيهم، مستدلا على ذلك بنقول من مصدري القرآن والسنة، أو من آراء الفقهاء واجتهاداتهم، ذاكرا من حين لآخر بعض ما اعتبره من البدع، وسنفصل في هذه الجوانب في الفصل المتعلق بالمضمون.

---

(188) الرحلة 5 : 46 أ.

(189) الرحلة 5 : 44 مكرر.

(190) رحلة ابن رشيد 5 : 2 ب.

(191) نفسه 5 : 3 ب.

وبالنسبة للجزء السادس من الرحلة فإنه يشتمل على 118 ورقة[192] بينما يشتمل الجزء السابع وهو الأخير على 68 ورقة[193] ويكاد الجزآن يكونان مادة متصلة إذ أنهما معا سجل لمراحل الرحلة حين العودة من الأسكندرية إلى التحاق ابن رشيد ببلده سبتة، ورغم اتساع الرقعة الجغرافية المعنية، ورغم طول زمن هذه الفترة فإن تونس لها نصيب الأسد زمنا وحظا في الجزئين معا، فإذا كانت المدة الزمانية للجزءين معا تقرب من ستة عشر شهرا، فإن تونس تستأثر منها بإثنى عشر شهرا كاملة، أما من حيث الكم فإن الجزء السادس لا يقتطع منه إلا تسع ورقات للحديث عن الرحلة الطويلة من الاسكندرية إلى تونس بينما الباقي يهتم فيه بتونس وكذلك الجزء السابع، فالرحلة من تونس إلى سبتة مرورا بالأندلس لا تشغل إلا خمس عشرة ورقة بينما الباقي كله لتونس وأديبها أبي الفضل التجاني، وكأن ابن رشيد لم يكن قد اكتفى بما دونه من فوائد وما ترجمه من علماء تونس في الجزء الثاني فأراد إطالة المقام والتردد على المجالس العلمية التي فاتته من قبل وإكمال ما بدأه على العلماء الذين كان قد التقى بهم حين الورود، وهكذا يتكرر لقاؤه، حين الصدور، بتونس لعشرة من هؤلاء العلماء يضمنهم الجزء السادس وهم ابن زيتون، وابن الغماز، وابن عقاب الجذامي، وابن حبيش، وأبي جعفر اللبلي، وابن دسيم وأبي محمد القرطبي، وأبي عبد الله السلاوي، وأبي العباس ابن القصير، وأبي العباس ابن المرسي. وله مع هؤلاء وقفات أخرى قد تطول لتصل إلى واحدة وعشرين ورقة حين يترجم لأبي بكر بن حبيش[194]، وأبي العباس اللبلي[195]، وعشر أوراق حين يتحدث عن ابن الغمار[196]، وست أوراق حين يتعلق الأمر بابن زيتون[197]، بينما يخصص حوالي الورقتين لكل واحد من الباقين.

---

(192) مخطوط الأسكوريال رقم 1537.

(193) مخطوط الأسكوريال رقم 1735.

(194) الرحلة 6 : 33 ب ــ 54 ب.

(195) الرحلة 6 : 63 أ ــ 84 أ.

(196) الرحلة 6 : 15 ب ــ 25 أ.

(197) الرحلة 6 : 9أ ــ 15أ.

وهكذا جدد العهد بالأديب ابن حبيش، إذ قرأ عليه الاستدعاء بمنزل ابن الحكيم فبات معهما وحضر معهم جماعة من نبلاء الاصحاب ليلة سفر ابن الحكيم(198)، وروى عنه ابن رشيد كتبا وأشعارا لم يكن قد رواها من قبل.

كما تجدد لقاؤه بأبي العباس اللبلي الذي كثيرا ما كان يغشى مجلس شيخهما القاضي أبي العباس بن الغمار، وكان اللبلي هذا شديد البر بابن رشيد كثير التحفي به(199)، أما ابن الغماز فقد قرأ عليه حين الصدور كتبا في الحديث وحصل منه على إجازات(200)، وذكر عنه أنه إذا ولي القضاء يصطلح الناس وتقل خصوماتهم لحسن عقله وسياسته ودربته(201)، ولقد استفاد كثيرا في لقائه لابن زيتون أيضا لأنه لم يكن آنذاك يتولى القضاء والمناصب، بل كان يخصص وقته كله لتدريس الطلبة بسقيف منزله، مما جعل مجالسه العلمية تغص بالطلبة والوافدين، ولقد كان ابن زيتون يعامل ابن رشيد معاملة خاصة مظهرا التحفي والعناية به، بل إنه أشار إلى الطلبة بأن يفسحوا لابن رشيد في المجلس(202)، سمع عليه كتاب الموطأ، ومقاصد الرعاية للمحاسبي، عدا المختصرات المفضلات على الأمهات(203)، ولقد عبر ابن رشيد عن اعترافه بالجميل لشيخه ابن زيتون، فأثنى عليه في قصيدة يذكر ثمانية أبيات منها(204).

ويجدد اللقاء بأبي عبد الله السلاوي الامام بمسجد أبي بكر بن جبيش فيكتب له فوائد وينشده أشعارا لشيوخه(205)، كما يجدد اللقاء بأبي محمد ابن هارون الطائي القرطبي الذي الفاه مريضا، لذلك لم يقرأ عليه إلا صدرا من كتابي الكامل للمبرد، والأمالي للقالي مناولة(206).

---

(198) الرحلة 6 : 34 أ.

(199) الرحلة 6 : 63 ب.

(200) الرحلة 6 : 20 ب.

(201) الرحلة 6 : 16 أ.

(202) الرحلة 6 : 10 ب.

(203) الرحلة 6 : 12 ــ 13.

(204) الرحلة 6 : 13.

(205) الرحلة 6 : 85 ب ــ 87 ب.

(206) الرحلة 6 : 85 أ.

وإلى جانب هؤلاء الذين تجدد بهم اللقاء في تونس، فإن الجزء السادس يضم سبعا وعشرين ترجمة أخرى، كلهم قد التقى بهم في تونس إلا ثلاثة فقد التقى بهم وهو في طريقه من الاسكندرية.

فلقد التقى في المركب الأديب المقرىء الأستاذ أبا عثمان سعيد بن جون من أهل مراكش فاغتبط بهذا اللقاء وتأنس بهذه الصحبة فالرجل كما وصفه ابن رشيد «مجيد في السماع والغناء، وشأنه عجيب، وله مشاركة في العربية والأدب والعدد والفرائض، وينظم ويغني، مع ذات فاضلة وعقل جيد، وعفة ظاهرة»[207]،وكتب عنه نظما في العروض لأبي الحسين البسطي يتضمن جميع أعاريضه وضروبه[208].

ـــ أما طرابلس فقد لقي بها قاضيها وشيخها أبا محمد عبد الوهاب بن أبي الحسن بن عبد السيد إلا أنه لم يتمكن له سماع عليه لا ستعجال الحال[209]. ونظرا إلى أن ثغر المهدية كان شبه خال في ذلك العهد، فإنه لم يلق به من العلماء إلا إمام المسجد وخطيبه أبا فارس عبد العزيز التميمي، فأفاده أسانيده ورواياته للموطا وفصيح ثعلب وكتب عنه ابن رشيد ذلك[210].

ومن أهم من التقى بهم في تونس لأول مرة وأورد ترجمتهم ضمن الجزء السادس الفقيه القاضي الأديب الفاضل شرف الدين أبو العباس الجزائري[211]، وصفه ابن رشيد بأحد المسندين الفضلاء البارعين من رواة الأدباء، رأى له ابن رشيد صناديق مجلدة من الكتب لأنه كان كثير العناية باقتنائها، جالسه بأسطوان منزله، فروى عنه كتاب المحصول للفخربن الخطيب، والكشاف للخوارزمي الزمخشري، وكتاب الفائق في شرح مشكلات الأحاديث، والمفصل في الاعراب، كما دفع له نسخة من الآيات الكبرى للفخر بن الخطيب.

ومن هؤلاء أيضا الشيخ الفقيه النحوي الامام العالم المتفنن في أنواع المعارف أبو إسحاق الخزرجي[212]، قصده ابن رشيد في منزله بعد أن كان قد أقعده السن

---

(207) الرحلة 6 : 2 أ.

(208) انظر دعوة الحق سنة 12 عدد 3، 5، مجلة المورد سنة 8 عدد 3

(209) الرحلة 6 : 3 أ

(210) الرحلة 6 : 6 ب.

(211) الرحلة 6 : 55 أ 61 ب

(212) الرحلة 6 : 62 أ ــ 63 أ.

عن التصرف لضعفه فترك التدريس، ذكر ابن رشيد بأن له تصانيف كثيرة غير أنها تلفت أو أكثرها بموته لأنه لم يخرجها من مسوداتها في حياته.

ــ ومن العلماء الذين التقى بهم في تونس في صدوره من الحجاز أبو الحسن على بن محمد... ابن رزين التجيبي الأندلسي[213] الذي خصص له في هذا الجزء أربعين صفحة، مما ينم عن تقدير ابن رشيد له، وأهم رواياته عنه ما يتعلق بالأدب، فلقد روى عنه الكثير من الأبيات والقصائد، وتبادل معه الرسائل والمخاطبات التي تظهر المستوى الأدبي الرفيع لهما، كما أنهما تناقشا في مسائل أدبية وتناظرا، وفي كل مرة كان ابن رزين يبدي إعجابه بابن رشيد وبشروحه وآرائه.

ــ أما الأديب أبو الفضل محمد بن أبي الحسن التجاني الذي شكلت ترجمته معظم الجزء السابع فلقد خصه بأكثر من تسعين صفحة[214]، وصف فيها ابن رشيد المجالس الأدبية التي كانت تجمعهما معا، والمساجلات الشعرية والمسائل العلمية، ولقد حلاه ابن رشيد بالأديب البارع الكاتب الحافل المتفنن الفاضل الكامل مما يظهر منزلته عنده، وتفضيله على ماعداه، فيذكر بأنه لم يرفي نجباء أبناء الافريقيين أجمع منه لفضيلة، ولا أبرع في كل خصلة نبيلة، وخلة جليلة، وبدون شك فإن أبا الفضل كان أيضا ينزل ابن رشيد هذه المنزلة الرفيعة ويُمكنٌ له هذا التقدير. ولقد تحدث ابن رشيد عن هذا التجاوب الذي طبع هذه العلاقة بقوله «صحبته ــ جزاه الله خيرا ــ أيام مقامي بتونس بعد رجوعي من الحجاز، وذلك الزمان من أشرف ما اعتده من أيامي وكان يتردد إلي وأتردد إليه وبايته كثيرا، وذاكرته وشاعرته واستفدت منه، وأخذ عني وأخدت عنه، وسمع بقراءتي وسمعت بقراءته، وأ ولاني من بره المبر ما يعجز عنه شكر الشاكر، ويعد مختصرا وإن أطال ذكره الذاكر، وكان لي صفيا، وبجانبي حفيا»[215].

ولعل هذا التجاوب راجع إلى التماثل في السن والثقافة والتكوين والأدب، ولا نبالغ إذا قلنا بأن المقام الطويل لابن رشيد بتونس كانت صحبة أبي الفضل بعض أسبابه. فبهذه الصحبة والزمالة العلمية، وإقامة المجالس العلمية والأدبية والنزه، وإتاحة اللقاء بالعلماء في هذه المجالس... بكل هذا طابت الاقامة لابن رشيد بتونس وطالت.

---

(213) الرحلة 6 : 64 أ ــ 83 أ، وانظر مجلة كلية الاداب. عدد 8 : 95 ــ 118 بحث الأستاذ بن شريفة.

(214) الرحلة 7 : 4 ب ــ 51 أ.

(215) الرحلة 7 : 5 ب.

ولقد اضطر إلى البقاء في بونة خمسة أيام بسبب خلاف نشب بين التجار، فاغتنم هذه الفرصة والتقى بقاضيها أبي الفضل القاسم الفحصبلي[216]، فحصل منه على الاجازة المطلقة وذلك في يوم الأربعاء 11 جمادى الأولى عام 686هـ.

وحين وافى مالقة في 2 جمادى الآخرة عام 686 ه لقي الشيخ الصالح الفاضل المفتي الراوية المسند المعمر أبا عبد الله محمد بن عياش الأنصاري الخزرجي القرطبي نزيل مالقة فحصل منه على الاجازة له ولأولاده[217]. كما لقي برندة الشيخ الخطيب أبا الحسن على بن يوسف العبدري[218]، والشيخ الوزير الفاضل أبا عمرو موسى الأسدي[219]، وخطيب رندة المسند أبا القاسم ابن الأيسر[220]، فاستفاد منهم جميعهم، وتعرف على أسانيدهم، وما يروونه من كتب وأخبار.

وهكذا بقي متحمسا للقاء العلماء متلهفا للاخذ عنهم والرواية لأسانيدهم إلى أن حل بوطنه سبتة في يوم الاثنين 22 جمادى الآخرة عام 686هـ[221]

(216) الرحلة 7 : 52 ب.

(217) الرحلة 7 : 54 أ ــ 58 ب.

(218) الرحلة 7 : 59 ب.

(219) الرحلة 59ب ــ 61 أ.

(220) الرحلة 7 : 61 ب ــ 63 أ.

(221) الرحلة 7 : 63 ب.
وعثرت بعد ذلك في كتاب سبك المقال لابن الطواح مخطوط الخزانة الحسنية رقم 105 صفحة 181 ما يفيد على أن ابن رشيد تأخر بتونس إلى سنة 687 ه يقول متحدثا عن علاقته بابن رشيد :«انشدني رحمه الله في الجامع المعظم عام سبعة وثمانين وستمائة بيتين يخاطب بهما أبا الفضل التجاني رحمه الله وكان مريضا بحمى فابل».

ب ــ رحلة العبدري

وهي وإن كانت دون رحلة ابن رشيد من حيث الكم، إلا أن الرحلتين متكاملتان في ما تحويه كل منهما من معلومات وتراجم، خاصة وأنهما متقاربتان في الزمان، متحدتان في المكان، فلقد قام العبدري برحلته هاته سنة 688هـ أي بعد عودة ابن رشيد إلى بلده سبتة بوقت وجيز، ومعلوم أن الرحلتين معا انصب اهتمامهما في الغالب. على نفس المراكز العلمية والدينية.

حياته ومصادر ترجمته :

وإذا كان ابن رشيد قد لقي اهتماما كبيرا من لدن أصحاب التراجم والفهارس والطبقات شرقا وغربا، فإن العبدري قد غمط حقه وأهمل ذكره في المصادر القديمة فلم يشر إليه أحد من القدماء و لم يخصه مؤلف بترجمة وافية معينة، رغم كثرة النقل عن رحلته والاستفادة مما ورد فيها.

والمصدر الذي خصه بترجمة مختصرة هو جذوة الاقتباس لابن القاضي (ت 1025هـ)، إلا أن هذه الترجمة مختصرة جدا إلى درجة الاخلال، لا تلقي الضوء على أهم ما يجب معرفته عن المترجم كتاريخي الولادة والوفاة، والتفاصيل الأخرى اللازمة في مثل هذا المقام، وكل ما في هذه الترجمة أن ابن القاضي انتخب بعض المعلومات من الرحلة ذاتها، فلم يزدنا تعريفا بالرجل، ومؤهلاته العلمية وصفاته الشخصية...

لذلك كانت رحلته هي المصدر الأول والوحيد، اعتمد عليه كل من ترجمه أو تحدث عنه أو استفاد من معلوماته وإفادته، ويشبه العبدري، في اهمال الناس له، عبد الواحد المراكشي، فكل من الرجلين كان له الأثر المحمود على الثقافة والفكر،

إلا أن عين الزمان أغفلتهما فتعرضا للاهمال والنسيان، ولم ينر زوايا حياتيهما، ويلقي الضوء على تفاصيل ذلك ويرشد إلى مركزيهما وما يتحليان به إلا كتاباهما، فلولا الرحلة المغربية، والمعجب، لما عرفنا شيئا عن مؤلفيهما العبدري وعبد الواحد المراكشي

ونعتقد أن ابن عبد الملك المراكشي قد ترجم العبدري[222] مع المحمدين من المغاربة في كتابه الذيل والتكملة، ولا شك أنها ترجمة وافية نظرا للاتصال الوثيق بين العبدري ومؤلف الذبل والتكملة فلقد وصفه العبدري «بصاحبنا الفقيه الأديب الأوحد»[223]، مما يدل على مكانة كل منهما لدى صاحبه فعثورنا على هذه الترجمة في الذيل والتكملة سيضيف الكثير في معرفتنا بالرجل وحياته،

وإذا كان كل من ترجم العبدري بعد ابن القاضي يعتمد أيضا على الرحلة في استخلاص ما يتعلق بحياة صاحبها ومستواه العلمي ومكانته في عصره فإنه قد وقع الكثير من الخلط والارتباك في هذه التراجم ذلك لأن المألوف في الرحلات أن أصحابها لا يهتمون غالبا بشؤونهم وأوضاعهم وما يتعلق بأشخاصهم في رحلاتهم، لأن الاهتمام ينصب على كل ما يشاهدون في الرحلة، وما يجدونه في طريقهم من رواية أو سماع، أو إجازة، أو شعر، أو خبر.... مما يجعل الرحلة قاصرة عن إعطاء صورة واضحة عن مستوى صاحبها في الثقافة والعلم فضلا عن الأحوال الخاصة والمزاج وأخبار الأسرة... لهذا وقع التضارب بين الذين ترجموا العبدري[224] فلقد

---

(222) لعله لم يترجم له لتماثله في السن. انظر مقدمة تحقيق السفر الثامن من الذيل والتكملة ص 42، 146

(223) الرحلة المغربية ص 140.

(224) يرجع في ترجمته إلى مايلي :
الرحلة المغربية للعبدري تحقيق الأستاذ الفاسي
الرحلة المغربية للعبدري تحقيق أحمد بن جدو.
فهرسة السراج مخطوط الخزانة العامة رقم ك 1442 ص 204 ـ 205
فهرسة المنتوري مخطوط الخزانة الملكية 1578 / 1 ص 106.
وفيات ابن قنفد تحقيق الأستاذ حجي ضمن ألف سنة من الوفيات ص 92.
المسافة النسنية في اختصار الرحلة لعبدرية مصور الخزانة العامة مكروفلم رقم 476.
تاج العروس 12 : 513 (ع، ب، د، ر)
جذوة الاقتباس لابن القاضي 1 : 286 ـ 288.
المونس ص 18.
الرحلة الكبرى للناصري مخطوط الخزانة العامة رقم د 2327 ومخطوط الخزانة الملكية رقم 5658
شجرة النور الزكية 1 : 217.

اختلفوا في النسبة هل هو بلنسي، أو حاحي أو مراكشي، أو فاسي؟ كما اختلفوا في أجداده وابنه وعصره وفي تحديد هويته، وأهمل تماما تحديد تاريخي الولادة والوفاة. وهكذا لم يتفق من ترجمه على نسبة واحدة فالبعض من الباحثين ينسب الرجل إلى بلنسية في الأندلس، فيعتبرونه أندلسيا نزح إلى المغرب، ومن هؤلاء ابن شنب[225] والمستشرق الاسباني بالنثيا[226]، وجرجي زيدان[227]، ومحقق الرحلة أحمد بن جدو والذي كتب في الصفحة الأولى للرحلة «تأليف محمد العبدري

الاعلام للمراكشي 4 : 287 — 330.
فهرس الفهارس 2 : 809.
تاريخ الأدب الجغرافي 1 : 367.
تاريخ الجغرافية والجغرافيين ص 518.
تاريخ الفكر الأندلسي ص 318.
الرحالة المسلمون ص 132 — 133
الرحالة العرب ص 105.
الجغرافية والرحلات عند العرب ص 163، 173.
المشرق في نظر المغاربة والأندلسيين ص 70، 71، 81، 82.
الوافي بالأدب العربي في المغرب 2 : 392 — 401.
مظاهر الثقافة المغربية ص 82 — 89
النقد الأدبي في المغرب العربي ص 294 — 322.
الطب والأطباء بالمغرب ص 33.
الأعلام للزركلي 7 : 21 — 32..
معجم المؤلفين 11 : 244، 12 : 3.
دليل المؤرخ المغربي 2 : 340 — 341
جامعة القرويين 2 : 481.
دائرة المعارف الاسلامية (بالفرنسية) 1 : 98 — 99.
هسبريس تمودا مجلد 11 لسنة 1970 ص 253 — 254 مقال للأستاذ زنيبر.
تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان 3 : 233.
رحلة التجاني تقديم محققها حسن حسني عبد الوهاب.
مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد عدد 9 — 10 ص 1 — 14 بحث للأستاذ محمد الفاسي.
نفس المجلة عدد 11 — 12 مقال لحسين مؤنس.
مجلة دعوة الحق سنة 5 عدد 2 ص 49، عدد ص 41 مقال للأستاذ زمامة.
مجلة المناهل عدد 5 ص 125 بحث شوقي عطا الله. 10 : 48 بحث للأستاذ الجراري
الجغرافيون العرب ص 86 — 88.

Les manuscrits arabes de l'Escurial 3 : 248
Catalogue des manuscrits arabes P 400.
La vie intellectuelle au Maroc P 117 - 122.

(225) دائرة المعارف الاسلامية (بالفرنسية) 1 : 98
(226) تاريخ الفكر الأندلسي ص 318.
(227) تاريخ آداب اللغة العربية 3 : 233

البلنسي»[228]، وغيرهم كالمستشرق الروسي كراشكو فسكي في تاريخه للأدب الجغرافي العربي[229]. وبعض الباحثين يرجعونه إلى أصل بلنسي ولكنه نشأ في حاحة قرب الصويرة، ومن هؤلاء زكي محمد حسن[230]، ونقولا زيادة[231]، ولعل مرد هذا الاشتباه في نسبته واعتباره أندلسيا راجع إلى أننا ألفنا في هذه الفترة توافد الكثيرين من الأندلسيين على المغرب لأسباب عديدة، منها هجرتهم بعد أن أصبحت الأندلس دار حرب واضطراب، وأن اتجاههم بهذه الكثرة إلى المغرب كان من أجل الحصول على العمل والحظوة في البلاط المريني الذي انفتح على مصراعيه لكل الوافدين كما ذكرنا سابقا، وهناك سبب آخر لهذه النسبة البلنسية هو أن النسب البلنسي كاد يلتصق بكل العبدريين ويلازمهم ويكفي أن نلقي نظرة على ترجمة العبدريين في المظان المختلفة[232] لنتأكد من هذا الأمر فلا غرابة إذن إذا ألصقت هذه البلنسية بمؤلف الرحلة المغربية. أما النسبة إلى حاحة فثابتة في كثير من مخطوطات الرحلة المغربية، ولا يمكن الاستدلال على حاحيته بالأبيات التي قالها بفاس وقد أدركه عيد الفطر بهذه المدينة[233]، فهو لا يبدي أي شوق إلى حاحة بالذات ولا نعرف ذلك إلا من خلال تأويل محقق الرحلة الاستاذ الفاسي[234]، والعبدري نسبة إلى عبد الدار بن قصي القرشي كما ذهب إلى ذلك الكثير من الباحثين[235].

وينفرد شوقي عطا الله الجمل برأي مؤداه أن العبدري من مواليد مدينة فاس، وزوجته هي التي تنتمي لاحدى قبائل حاحة[236] وهذا غريب إذ لم يشاطره أحد هذا الرأي من قبل.

---

(228) الرحلة المغربية نشر كلية الآداب الجزائرية مطبعة البعث قسنطية.

(229) تاريخ الأدب الجغرافي 1 / 367.

(230) الرحالة المسلمون ص 132.

(231) الجغرافية والرحلات عند العرب ص 105.

(232) يرجع مثلا إلى كتاب الذيل والتكملة السفر الخامس ص : 624، 642 السفر السادس ص 14، 168، 429 الدرر الكامنة 4 : 338، 319 درة الحجال الجزء 1 : 169، 272 الجزء2 : 427.

(233) الوافي بالأدب العربي 2 : 392.

(234) الرحلة المغربية تقديم المحقق ص : ث

(235) الرحلة المغربية ص : ت تاج العروس 12 : 513 الرحالة المسلمون ص 132 الجغرافية والرحلات ص 163

(236) مجلة المناهل عدد 5 ص 125 مقال شوقي عطا الله الجمل.

وكيفما كان الحال فإن العبدري «نشأ نشأته العلمية بالعاصمة مراكش التي كان ينتمي إليها» بدليل أنه نفسه انتسب إليها حينما سأله ابن دقيق العيد عن موضعه وبلده[237]، وفي فهرسة المنتوري أنه قرأ كثيرا من رحلة أبي عبد الله محمد بن محمد بن مسعود العبدري المراكشي على أبي زكرياء يحيى السراج[238]فنسبته إلى مراكش إذن معروفة لدى الكثيرين.

وهذا الاضطراب هو الذي جعل الزركلي يسوق ترجمتين متتابعتين للعبدري في كتاب الاعلام[239]، يقدر الوفاة في الترجمة الأولى بعد 688هـ ويحدد الوفاة في الثانية بنحو 700هـ ويرجح بأن يكون قبره هو المعروف في حاحة باسم سيدي أبي البركات وإن كانت التفاصيل والوقائع المذكورة في الترجمتين تدعو إلى الحكم بأنهما لشخص واحد وهو صاحب الرحلة المغربية.

وأما الخلاف الذي أثير حول كنيته هل هو أبو محمد كما يرى بعضهم[240]، أو هو أبو عبد الله كما يرى أكثر الباحثين[241]، فإننا لسنا في حاجة إلى التأويلات المختلفة ومناقشة كل فريق أو مسايرته في هذا الرأي أو ذاك، فهناك نسخ لمخطوطات الرحلة يكنى فيها العبدري بأبي عبد الله [242]، كما أننا نجد البلوي وهو قريب من عهد العبدري حينما يورد له أبياتا يعارض فيها القاضي عياضا يكنيه بأبي عبد الله[243]، وابن قنفد في القرن الثامن الهجري هو نفسه يكنيه بأبي عبد الله في مقدمة اختصاره للرحلة[244]، وتقدم لنا أيضا بأن المنتوري قد كناه في فهرسته بأبي عبد الله[245].

---

(237) الرحلة المغربية ص 140.

(238) فهرسة المنتوري ص 106.

(239) الأعلام 7 : 32 يتابعه في هذا الصنيع رضا كحالة في معجم المولفين 11 : 244، 12 : 3

(240) الرحلة المغربية تقديم ابن جدو ص : هـ تاريخ الأدب الجغرافي 1 : 367 المناهل 5 : 125.

(241) شجرة النور 1 : 217 تقديم الفاسي في تحقيقه للرحلة ص : ت الوافي 2 : 392

(242) ذكر الأستاذ الفاسي أكثر هذه المخطوطات في مقدمة التحقيق الرحلة ص : أ د

(243) رحلة البلوي 2 : 109

(244) المسافة السنية مصور الخزانة العامة رقم 476 ص 2.

(245) فهرسة المنتوري ص 106.

ولعل مرد هذا الاشكال إلى أن هناك من يزعم بأن ابن العبدري الذي يسمى محمدا، هو الذي يعرف بابن الحاج العبدري صاحب المدخل(246).

وظن البعض على أن هذا الابن كان يرافق أباه فعلا في هذه الرحلة(247) وبالرجوع إلى الرحلة يتبين لنا خطا هذا الزعم، إذ أن العبدري بعث إلى ابنه وهو في طريقه بالقيروان، بقصيدته التي ضمنها جملة من نصائحه ووصاياه له(248)، كما كان يحرص دائما على الحصول على الاجازة، لابنه الغائب، من الشيوخ والعلماء الذين التقى بهم(249)، فمن هو ولده محمد هذا الذي نصحه الأب بهذه القصيدة واستجاز له ؟

لقد ورد في فهرسة السراج قوله«وكتب لشيخنا أبي عبد الله بن حياتي (ت 788هـ) بالاجازة العامة من مراكش الشيخ الفقيه إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الأوسي وما ألفه وجمعه، والشيخ الفقيه الرحال أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن سعود العبدري أجاز له جميع ما تصح روايته إذا ثبت ذلك عنده»(250).

والنص واضح الدلالة في أن الشيخ العبدري الذي كان مستوطنا مراكش هو ابن الرحالة المشهور، ولكن الشيء الذي يستوقف القارىء هو وصف هذا الابن أيضا بالرحال، فهل هذا هو الذي يقصده الزركلي في كتابه ويحدد تاريخ وفاته بنحو 700هـ ؟ ذاكرا في ترجمته بأنه «رحالة مالكي... كان قاضيا بمراكش ثم استقر في حاحة وتوفي بها، وقبره معروف فيها يطلق عليه اسم سيدي أبي البركات وكان شاعرا فحلا وأديبا نقادا»(251)، وهو دون شك أحد المحمدين من أبنائه الثلاثة الذين استجاز لهم شرف الدين الدمياطي(252).

---

(246) الموسوعة الاسلامية.

(247) تاريخ الأدب الجغرافي 1 : 367

(248) الرحلة المغربية ص 72 — 74.

(249) أمثلة ذلك في الرحلة المغربية صفحات 138، 139،......
ورد في قصيدة العبدري إلى ابنه لقيتهم وأنت هناك ثاو......الرحلة المغربية ص 74.

(250) فهرسة السراج ص 204 — 205 وانظر أيضا نفاضة الجراب المطبوع ص 79

(251) الاعلام للزركلي 7 : 32

(252) الرحلة المغربية ص 138

ونفترض أن ابن رحالتنا العبدري قد كتب بالاجازة العامة إلى ابن حياتي في أواخر عمره في نحو الستين أو السبعين إذ لا يمكن أن يكون زمن رحلة أبيه إلا في نحو العشرين من عمره، وإلا كيف يمكن أن يعي وصايا أبيه ونصائحه؟ والقصيدة المتضمنة لهذه الوصايا والنصائح قمة في البلاغة والروعة استحسنها أبو الحسن ابن المنير وكتبها لنفسه أبو الحسن الغرافي[253].

ومن هنا يمكن الاستنتاج أيضا بأن العبدري صاحب الرحلة المغربية رحل وهو في نحو الأربعين من عمره، وهي فترة مازال صاحبها ينعم بالقوة والنشاط يسوغ فيها لأبي زيد الدباغ أن يقول له وقد أعطاه أكثر من عشرة أجزاء من فوائده وفوائد شيوخه وفهارسهم «أنت أولى بها مني فإني شيخ على الوداع وأنت في عنفوان عمرك»[254].

ولقد وقع اختلاف آخر في سلسلة نسبه، فلقد ذكر في أغلب المخطوطات وكتب التراجم هكذا أبو عبد الله محمد بن علي بن أحمد بن مسعود العبدري[255]، بينما سمي جده الأعلى في بعض المخطوطات والكتب سعودا[256]، كما أضيف عند البعض جد أخر له قبل سعود باسم أحمد[257].

وإذا كنا لا نظفر في ما لدينا من كتب التراجم والأخبار، بتفاصيل حياة العبدري وأخباره وبعض مراحل حياته وزواياها، فإنه لا يعسر علينا معرفة المستوى الثقافي والعلمي الذي نشأ فيه، فلقد عرف عن أفراد أسرته اشتغالهم بالعلم والأدب والتدريس إذ ورد في تحلية أبيه في صدر إحدى مخطوطات الرحلة بالرباط بأنه الشيخ الصالح الخطيب[258]، وهذا دليل على مكانته العلمية فهو فقيه وخطيب وشيخ يؤخذ عنه وهذا هو الذي أرجحه ويتفق مع ماذكر في فاتحة مخطوط الرحلة بالخزانة الملكية الذي كتب عليه بأنه من تأليف «محمد بن محمد بن علي العبدري الشهير بابن المعلم الحيحي»[259].

---

(253) الرحلة المغربية ص 72

(254) الرحلة المغربية ص 67

(255) يرجع مثلا إلى جذوة الاقتباس 1 : 286.

(256) مختصر الرحلة لابن قنفد مصور الخزانة العامة رقم 476 ص 2.

(257) مخطوط الخزانة الملكية رقم 224 / 1

(258) مقدمة تحقيق الرحلة للفاسي ص : ح.

(259) فهارس الخزانة الملكية 1 : 449، فهارس مخطوطات الخزانة الحسنية 1 : 112.

والظاهر أن تسمية أبيه بالمعلم كانت شائعة معروفة على نطاق واسع فابن قنفد يعرفه بهذا الاسم في مقدمة مختصره للرحلة المغربية(260).

أما أخوه يحيى الذي رافقه في رحلته، فكان أيضا من أهل العلم صحيح أنه لم يكن في مستوى العبدري صاحب الرحلة لأننا لا نجد له ذكرا في المناقشات والمواقف المختلفة، لكننا من خلال إشارتين وردتا في الرحلة نتبين بأنه كانت له مشاركة علمية، قادر على إبداء وجهة نظره وآرائه، فلقد ذكر العبدري بأنه وقف مع أخيه عند المقام، وقدر المسافة بينه وبين مواضع في الكعبة، فوجدا صدق ما قاله الأزرقي في أخبار مكة(261)، وذكر العبدري أيضا بأنه قرأ هو وأخوه في تونس حين الصدور على الشيخ الصالح الفقيه أبي العباس أحمد البطرني، وحصلا منه على الاجازة العامة(262).

وابنه محمد سبقت الاشارة إلى مستواه الجيد في زمن الرحلة وبعدها، فهو الذي خاطبه أبوه من القيروان بتلك القصيدة الرائعة التي أوصاه فيها بقوله(263) :

وكن بالعلم ذا لهج فإني ... أجزتك واستجزت بكل حي
لكي تروي الحديث حديث سن ... لاشياخ ذوي فهم سني
مصابيح الدجنة لو تراهم ... رأيت بدور كل دجى دجي
لقيتهم وأنت هناك ثاوٍ ... فيا للشكر للسعد القوي

وهذا الابن نفسه هو الذي أجاز ابن حياتي بالاجازة العامة بعد ذلك حين صار شيخا فقيها يؤخذ عنه(264)

وإذا حاولنا معرفة مستوى ثقافة العبدري نفسه، فيمكننا من خلال الرحلة الحكم على ثقافته بالتنوع والعمق والشمولية، يتجلى ذلك في اهتماماته العلمية ومشاركته في الفنون والعلوم المختلفة، فالأخذ عن العلماء في رحلته كان متنوعا في الكتب

---

(260) مصور الخزانة العامة ص 2. يرى أستاذنا بأن المعلم ربما يكون لقب العائلة، فمن غير المعهود أن يوصف به من يشتغل بالتعليم، وإنما يقصد به معلم الحرف.

(261) الرحلة المغربية ص 177

(262) نفس المصدر ص 275.

(263) نفسه ص 73 — 74.

(264) فهرسة السراج ص 204 — 205.

والمعارف، كما أن ملاحظاته كانت أحيانا في النقد والأدب. وأخرى في الفقه، وتارة في العروض، ومرة أخرى في الحديث والتفسير، فلنسمع إليه وقد تحدث عن جهل الناس في القيروان بسمت قبلة جامعها يقول «فلم أجد أحدا منهم يعرفه و لم أبت فيه فأتعرف ذلك بالنجوم إلا أنه قوي بالحدس أنها كما قيل إلى المنقلب الشتوي أو بميل يسير إلى الجنوب»(265)، ويظهر هذا اطلاعه الواسع في علم الفلك.

وكانت مناقشاته ومناظراته للعلماء موضع التقدير والاجلال لعلو كعبه في العلم والأدب، وهكذا كان محترما أينما حل وارتحل، فلقد اهتم به تاج الدين الغرافي كثيرا فعامله بما تقتضيه الزمالة العلمية، وبما يستلزمه التكافؤ الفكري، إذ أخذ كل منهما عن الآخر، ولما عزم العبدري على الرحيل حزن على فراقه وسجله ضمن شيوخه. يقول العبدري «وقيد اسمي ونسبي في برنامج شيوخه، وقيد عني أبياتا من شعري وكتب بخطه جميع القصيدة التي كتبت إلى ولدي محمد وفقه الله من القيروان وبالغ في استحسانها وسمع مني القصيد الحجازي الذي قلته في طريق الحج»(266)

ويلقى نفس العناية من شيخه شرف الدين الدمياطي الذي كتب الاجازة للعبدري وأبنائه الثلاثة رغم أنهم صغار، وأشرف على علاجه من مرضه إثر عودته من الحجاز(267).

ولقد بدا العبدري في كل مراحل الرحلة ومن خلال لقاءاته العلمية ومدارسته وتعليقاته المختلفة على القصائد، ومناقشاته النحوية والبلاغية والفقهية، وتمثله للقرآن والحديث والشعر العربي، واطلاعه على المصادر والمراجع المختلفة، بدا في كل ذلك صاحب تكوين علمي ممتاز وثقافة واسعة كان قد حصل عليها وهو في بلده، والغالب أنه أخذ عن أبيه الفقيه الخطيب أهم العلوم اللغوية والفقهية، ولا شك أيضا أنه نهل من المعارف التي كانت مزدهرة في مراكش فاستفاد من علمائها وجالسهم، وحديثه عن القاضي ابن عبد الملك المراكشي بالمشرق(268) يدل على أنه كان على اتصال وثيق به، وأنه كان يضاهيه في المرتبة العلمية فتحليته له «بصاحبنا الفقيه الأديب» تدل على أن العبدري كان في نفس المستوى من فقه وأدب...

---

(265) الرحلة المغربية ص 65

(266) نفس المصدر ص 120.

(267) الرحلة المغربية ص 138.
الطب والأطباء بالمغرب ص 33

(268) الرحلة المغربية ص 140

ومن مقارنة العبدري في طرابلس[269]، بين قاضيها وخطيبها أبي محمد عبد الله ابن عبد السيد، وقاضي الجماعة بمراكش شيخه الفقيه القاضي الأوحد الامام أبي عبد الله بن علي بن يحيى الشريف، نتبين جملة أمور : أولها تلمذة العبدري على علماء وشيوخ من مدن مغربية عامة، ومراكش خاصة، وثانيها أن مستوى العلماء المغاربة كان أرفع من مستوى الكثرين ممن التقى بهم في رحلته، ولذلك كانوا دائمي الحضور في ذهنه، وثالتهاأن مستوى مناقشة العبدري لابن عبد السيد كان متفوقا فلقد أظهر العبدري قدرته في النقاش والاجتهادات المختلفة في التفسير واللغة، فلا عجب إذا وجدناه محل تقدير من لدن الشيوخ والعلماء في كل مراحل الرحلة، فهذا أبو القاسم الحضرمي اللبيدي «صالح العلماء وعالم الصلحاء»، كان يقدمه ليؤم به في الصلاة أحيانا، مع أنه في نحو التسعين من عمره[270]، كما رغب في أن يكتب إليه العبدري بعد وصوله إلى أهله.

تآليفه :

وشخصية على هذا المستوى من العلم والتعمق في الفهم، والقدرة على الثبات في النقاش والمناظرة، لا يمكن إلاّ أن يكون لها إسهام جيد في التاليف والتدوين ولكن مع الأسف ضاعت تآليفه كما ضاعت أخباره وتفاصيل حياته، ومما يدل على ذلك، أن البلوى في رحلته يورد قصيدة للعبدري كان قد عارض بها القاضي عياضا في كتاب الشفا، يقول العبدري في مطلعها[271] :

ياساكني دار الحبيب عليكم منـي سلام طيب النفحات.

مع أن هذه القصيدة لم تذكر ضمن ما دونه في الرحلة، مما نفترض معه أن هناك مؤلفا آخر جمع فيه هذا الانتاج الشعري، والآراء النقدية واللغوية، أو سقطت من الرحلة.

ومن هذا القبيل أيضا الفهرسة التي ينسبها إليه عبد الحي الكتاني ويرويها عنه من طريقين مختلفين[272]، فهل يعني بالفهرسة الرحلة المشهورة ؟ أم أن للعبدري

(269) نفس المصدر ص 78.

(270) نفسه ص 243.

(271) تاج المفرق 2 : 109.

(272) فهرس الفهارس 2 : 809، الاعلام للزركلي 7 : 32.

مؤلفا أخر خصصه للشيوخ والروايات ؟ وعلى أي حال، فليس بين أيدينا الآن إلا رحلته الهامة، والتي اثنى على فوائدها وغزارة معلوماتها كل من تعرض لها أو نقل عنها.

أهمية الرحلة :

وتتجلى هذه الأهمية في الاهتمام بها بالنقل عنها واختصارها، والاسترشاد بها في الرحلات التالية، ونقد بعض ما ورد فيها، فلقد اختصرها أبو العباس ابن قنفد بعنوان «المسافة السنية في اختصار الرحلة العبدرية»(273).

والمختصر مخطوط بخزانة المرحوم المختار السوسي، توجد صورته بالخزانة العامة كما سبق الذكر، يقول ابن قنفذ ممهدا لهذا الاختصار «وبعد فإني لما رأيت رحلة الشيخ العالم الفاضل أبي عبد الله سيدي محمد بن محمد بن علي بن محمد بن سعود العبدري الشهير بابن المعلم الحاحي، رحمة الله تعالى ورضوانه عليه، محتوية على فوائد حسنة جمة يشتاق إلى رؤيتها والوقوف عليها من له من الطلبة أدنى همة... رأيت أن اختصرها واجردها مما ذكر بإثبات مهمات فوائدها وأشعارها وحذف ما سوى ذلك من كلامها إلا ما لا بد من إثباته من ذلك مما فيه فائدة لطيفة يتفطن لها اللبيب ويفهمها... نعم كلامها كله لا يخلو من فائدة ما، لكن بعضه بل جله لا يفهمه من هو مثلي ممن بضاعته مزجاة فكان حذفه وإسقاطه أقرب له وأفضل»(274).

والمختصر وإن كان يعده ابن قنفد نفسه من تآليفه(275)، كما نسبه له كل من ترجم له، إلا أن ناسخ هذا المختصر محمد بن أحمد السملالي في 7 جمادى الثانية عام 1345هـ ينهيه بقوله «انتهى ما وجد من اختصار الرحلة فلم أعرف مختصرها ولا بين نفسه»(276). ولعل السبب راجع إلى أن مؤلف هذا المختصر لا يصرح باسمه ضمن المتن فهو يقول عن نفسه «قال راقمه ومختصره عفا الله عنه»(277).

---

(273) ألف سنة ص 92.،دليل المؤرخ 2 : 240. المناهل 10 : 40 مقال الجراري.

(274) مصور الخزانة العامة رقم 476 ص 2

(275) ألف سنة من الوفيات ص 92

(276) مصور الخزانة العامة السابق ص 161.

(277) نفسه ص158.

وكانت الرحلة المغربية بمثابة الكتاب المدرسي الذي لا يستغني عنه في القراءة والتدريس، فلقد ذكر المنتوري في فهرسته[278] بأنه قرأ كثيرا منها على أبي زكرياء يحيى السراج وأجازه جميعها برواية أبي القاسم ابن رضوان.واستمرت مصدرا مهما يعتمد عليه في الدراسة والتأليف، وهكذا ينقل عنها التنبكتي[279] ويسترشد بها الرحالون المغاربة ــ فيما بعد ــ في معرفة الطرق والمسالك، بل ان الرحالة ابن عبد السلام الناصري كان يستحضر الرحلة العبدرية في كل مراحل رحلته، إذ يقف مع العبدري وقفات كثيرة، تارة محللا، وتارة ناقدا، أو مستشهدا أو مقارنا مما يظهر بأن الرحلة العبدرية كانت دليله ومرشده، فلقد وقف معه في وصفه لطرابلس وموقفه منها، وفي تحديد أماكن معينة مثل عرفة، وبرقة، والقلزم، والوجه، والينبوع، ورابغ، كما نقل عنه ما حكاه عن قدوم المصريين بشرب السويق[280].

ويعتمد عليه العياشي في كثير من تحقيقاته وتدقيقاته، فلقد نقل عنه ضمن من اعتمد عليهم من المؤرخين والجغرافيين[281].

ولقد بقيت لهذه الرحلة مكانتها وقيمتها العلمية والأدبية في كل الفترات والحقب، فعمد العلامة عباس ابن إبراهيم المراكشي إلى تلخيصها أيضا في كتاب الاعلام لعزتها على حد تعبيره[282].

ومع قيمتها العلمية فإنها ظلت مخطوطة إلى أن نبه المستشرقون إلى أهميتها العلمية والنقدية وذلك بنقولهم عنها في أبحاثهم، وترجمة أجزاء منها، فانصرف الكثيرون حينئذ إلى الاشتغال بها وإخراج نصوصها، وهكذا تم طبعها أولا بالجزائر بتحقيق الأستاذ ابن جدو، إلا أنها طبعة مبتورة ينقصها أكثر من النصف، فكانت طبعة الرباط الحالية بتحقيق الأستاذ الفاسي مكملة هذا النقص، إذ أخرجت الرحلة في طبعة علمية مفيدة.

---

(278) فهرسة المنتوري ص 106.

(279) نيل الابتهاج ص : 68، 344،

(280) الرحلة الكبرى للناصري مخطوط الخزانة الملكية ص : 160، 179، 191، 192، 196، 197، 204، 205، 208، 209، 212، 262، 268، الرحلة الصغرى مخطوط الخزانة الملكية ص 29

(281) رحلة العياشي 1 : 92. 110، وأيضا المؤنس لابن دينار ص 18 رحلة الحشائشي ص 29، 199.

(282) الاعلام للمراكشي 4 : 287 ــ 330.

سبب الرحلة :

فما هو الحافز له على هذه الرحلة هل هو طلب العلم فلقد كان على مستوى جيد من المعرفة ؟ أم الرغبة في تأدية فريضة الحج ؟...

إن رحلة العبدري ليست بدعا، بل هي كمعظم الرحلات المغربية لها هدف مزدوج نتبينه من قراءة الرحلة.

فالشق الأول لهذا الهدف ديني يتوخى القيام بفريضة الحج وزيارة الأماكن المقدسة والاتصال بالمتصوفة والصالحين، ولعل هذا هو الحافز الأساسي له على الرحلة فلقد صرح العبدري مرارا بأنه كان ينوي الاقامة بمكة، لذلك اكترى المنزل وجهز كل ما يلزمه، وصرف الركب إلى المغرب، لولا أن فتنة حدثت هناك أرغمته على الرحيل من مكة(283)، فبقي يعيش على أمل العودة إلى البقاع المقدسة عامة والمدينة المنورة خاصة قائلا «واشوقاه إلى تلك العرصات اترى لي عودة إليها قبل الممات، ؟ وهل تبرد بها الأحشاء من سموم الزفرات ويقضي لي المقام بذلك المقام»(284).

أما الشق الثاني فيعكس رغبته في لقاء العلماء والاعلام، والأخد عنهم. والبحث عن السند العالي، وتبدو هذه الرغبة مستبدة به، مستولية عليه، فهو دائم السؤال عن الأحوال العلمية والثقافية في كل بلد حل به، مستمر البحث عن العلماء وأصحاب الأسانيد، فإذا صادف بالبلد علماء تطيب نفسه وينشرح صدره فينطلق لسانه بالثناء والشكر كما فعل بتونس، وإذا لم يجد هذا النوع من العلماء يصب جام غضبه على البلاد وأهلها، وهذا شأنه في كل مراحل الرحلة. ويعتبر الأستاذ محمد الفاسي بأن «الاهتمام بالناحية العلمية من الأسباب التي جعلت الاقبال على رحلة العبدري منقطع النظير، فحفظت لنا منها نسخ متعددة»(285). أما مدة الرحلة فيظهر من سياقها أنها تزيد على السنتين. فالباحث حسن حسني عبد الوهاب محقق رحلة التجاني يذكر بأن العبدري زار تونس مرتين في طريق ذهابه إلى الحج سنة 688هـ وعند رجوعه منه سنة 691هـ وهو ينقل هذا الخبر من نسخة خطية لرحلة العبدري بمكتبته الخاصة فيكون العبدري قد قضى في رحلته ثلات سنوات(286).

---

(283) الرحلة المغربية ص : 175، 186.

(284) نفس المصدر ص : 202

(285) الرحلة المغربية مقدمة التحقيق ص : غ

(286) رحلة التجاني مقدمة التحقيق ص : 11

ويروي البلوي ابيلتا للعبدري في مدح المصطفى — ص — يعارض فيها أبا الفضل عياضاً يقول فيها :

ياساكني دار الحبيب عليكم	مني سلام طيب النفحات
يهنيكم قرب الأحبة فارحموا	صبابكم قد صد بالنزلات
كم ذا أعلل بالوصول إليكم	قلبا شجيا مضرم الجنبات
قد نلتم قرب الحبيب فأنتم	أبدا لذلك طيبو الأوقات

وكان العبدري قد أنشد هذه القصيدة بتونس في رجب الفرد سنة 690هـ(287) فهل يكون العبدري قد رجع في هذه السنة من الحجاز ثم مدد إقامته بتونس سنة كاملة على غرار ما فعله ابن رشيد قبله ؟، فمن الراجح أن العبدري قد انجذب كذلك إلى تونس ومجالسها العلمية، ولقد أفصح عن ذلك بقوله وهو يدخل تونس في الصدور من الحجاز «وقد أقمت بها مدة حتى شفيت الحشا العليل ونقعت بوردها الغليل، وقطعت فيها الغدو والأصيل، بمجالسة كل فاضل جليل، فما انفصل عن عالم يوضح الحلك مهمى أجاب، إلا إلى صالح يحتلب به السحاب، ولا أغدو عن مجلس أدب كقطع الرياض، إلا إلى محفل وعظ يسقي الخدود بالدمع الفياض، فقطعتها أياما من غفلات الدهر مختلسات، وانتظم لي بها شمل أنس طال ما مني بالشتات، فلم يبق بها شيخ مذكور إلا رأيته، ولا علم مشهور إلا أتيته»(288).

— منهجه في الرحلة :

وهناك ناحية جديرة بالتنويه وهي الخطة التي رسمها العبدري وهو مقدم على تدوين هذه الرحلة، فلقد التزم منذ البداية بمنهج محدد أشار فيه إلى الجوانب الهامة التي يجب أن تتضمنها رحلته، وهذا يلزمنا بطرح سؤال متعلق بقضية التدوين، فهل المقدمة المحددة للمنهج كتبها بعد أن كان قد سجل ملاحظاته أثناء الرحلة كما فعل ابن رشيد قبله ؟ أم إنه دون الرحلة بكاملها بعد أن رجع من رحلته الحجازية معتمدا على ذاكرته فقط ؟...

---

(287) تاج المفرق 2 : 109.

(288) الرحلة المغربية ص 239 — 240.

وبنظرة سريعة إلى الرحلة نستبعد الاحتمال الثاني فهناك نص صريح في أن العبدري بدأ في التدوين والتسجيل بمجرد انطلاقه في الرحلة يقول : «وهذه الرحلة بدأت بتقييدها في تلمسان ولم يمكنني إظهارها هناك وأظهرتها بعد خروجنا منها، ووقف عليها شيوخنا بمصر وغيرها[289]» ولكن بعد عودته من الرحلة ربما أخضع ما دونه إلى التنقيح والتنظيم ليظهره إلى الناس في شكله النهائي، وإلا فكيف يمكنه تذكر نصوص طويلة بكاملها وأسانيد وفهارس وغيرها ؟ فما هو هذا المنهج الذي حدده منذ بداية الرحلة ؟وهل التزمه في كل أجزائها ومراحلها ؟

لقد ذكر[290] بأن اهتمامه سينصب على وصف البلدان وسكانها ويتحدث عن الأخبار التي سمعها، والحوادث التي شاهدها، ويذكر الأشعار التي نظمها هو أو رواها عن أصحابها، والقطع النثرية الجيدة، والنكت الطريفة، ويثبت الأحاديث التي رواها والآثار التي وعاها، ويختم كل هذا بقصيدة وعظية يسرد فيها الرحلة سردا، والمهم أنه أعلن في هذه المقدمة المنهجية بأنه لن يداري في ما سيدونه وإنما ستكون أوصافه «حسبما أدركه الحس والعيان، وقام عليه بالمشاهدة شاهد البرهان، من غير تورية ولا تلويح، ولا تقبيح حسن ولا تحسين قبيح، بلفظ قاصد لا يحجم معردا، ولا يجمح فيتعدى المدى، مسطرا لما رأيته بالعيان، ومقررا له بأوضح بيان»[291]

فهل التزم العبدري بهذا المنهج ؟ وإلى أي حد كان أمينا في تطبيقه ؟

إذا ألقينا نظرة على ما في الرحلة من أوصاف وأخبار، نسارع إلى الحكم بأن العبدري لم يكن متساهلا في انتقاد ما كان يراه غير طبيعي سواء في أخلاق الناس أم عاداتهم، وعلى الأخص في المستوى العلمي للبلدان التي دخلها، إلى درجة وصفت معها آراؤه أو نقده بالتطرف والتحامل، ولعل الذي انتصب للرد على العبدري هو ابن عبد السلام الناصري في رحلتيه[292] وخاصة الرحلة الكبرى، وهكذا يتتبعه في رحلته ويتوقف معه كثيرا في طرابلس، فيفيض في ذكر محاسن البلد، ويعد ما به من مساجد ومزارات ومدارس وعلماء، حتى يكون رده على العبدري ردا عمليا،

(289) الرحلة المغربية ص 6.

(290) الرحلة المغربية ص 1 ـ 2.

(291) الرحلة المغربية ص 1

(292) الرحلة الكبرى مخطوطة الخزانة الملكية. والمخطوط بالخزانة العامة. الرحلة الصغرى بالخزانة الملكية.

معقبا على ذلك بقوله : «ولو تتبعنا ما وقفنا عليه من مدح طرابلس وأهلها لخرجنا بذلك عن المقصود ولما التفتنا لقول الامام العبدري في رحلته، ثم وصلنا إلى مدينة طرابلس وهي للجهل ماتم. وما للعلم بها عرس، أقفرت ظاهرا وباطنا،وذمها الخبير بها سائرا وقاطنا»(293).

والحقيقة أن العبدري لم يترك بلدا إلا وجه إليه انتقاداته بصراحة لا مداراة فيها، وما ذلك إلا لأن العبدري كان دائم البحث والسؤال عن المستوى العلمي والأخلاقي للبلدان التي حل بها فإذا لم يجد ذلك المستوى الرفيع في العلم والأخلاق جهر لسانه بالنقد والشتم أحيانا، والصرامة في تغيير المنكر دون لين أو مداراة، ولهذا لا يتردد في انتقاد ما كان يتعرض له الحجاج من الاهانة في الأسكندرية(294)، كما أنه لم يخف انتقاده لسلوك القاهريين وأخلاقهم(295) فوصف «القاهرة وأهلها وصف ناقد حاذق، وكان قوي الملاحظة فسجل ما رآه من العيوب التي أحسها هو عند المصريين»(296)، وما ذاك إلا لأنه قوي الملاحظة لا رغبة في الاطلاع والبحث، ومتشدد لا يقبل الوسيطة يقول عن القيروان : «فدخلتها مجدا في البحث غيروان، فلم أر إلا رسوما محتها يد الزمان، وآثارا يقال عنها كان وكان»(297)، وكذلك حاله في كل بلد دخله يقول عن الجزائر «وقد دخلتها سائلا عن عالم يكشف كربة، وأديب يؤنس غربة، فكأني أسأل عن الأبلق العقوق، أو أحاول تحصيل بيض الأنوق»(298).

وهكذا يبدو من كل أوصافه أنه لم يكن متسرعا في إصدار الأحكام والانتقادات، فلم يقل كلاما غير متأكد منه.أو لم يتوصل إليه بعد بحث ودراسة، يقول عن قرية زنزور بين قابس وطرابلس «ولم أخبرها فلا أحدث عنها بزور، لأن مظهرها معجب مونق، وشجرها مخصب مورق، ولا أدري هل مخبرها موافق، أو هي ذات وجهين

(293) الرحلة الكبرى مخطوط الخزانة العانة رقم د 2327 ص 179 الرحلة المغربية ص 76.

(294) الرحلة المغربية ص 93.

(295) الرحلة المغربية ص 125 ـ 127 ـ 129 ـ 130.

(296) المشرق في نظر المغاربة والأندلسيين ص 83

(297) الرحلة المغربية ص 64.

(298) نفسه ص 26 طلبا للأبلق العقوق أي ما لا يمكن لأن الا بلق الذكر والعقوق الحامل والذكر لا يكون حاملا انظر لسان العرب

كالمنافق»(299)، ويقول الشيء نفسه عن الأسكندرية وأهلها «وبودي لو لم أر إلا حسنا فأذكره، ولم ألف إلا مشكورا فأشكره»(300).

ففي سلوكه العلمي هذا وفي لمنهجه السابق، وهو المنهج الذي يملي عليه التريث والتثبت قبل إصدار الأحكام، مما جعل أسلوبه في الرحلة يتسم بالصدق والدقة في الرواية(301) والنقل والصراحة في إبداء الرأي، فلا يمكنه أن يهادن أو يمالىء أحدا أو بلدا، وقد لازمه هذا السلوك حتى في الحرمين الشريفين(302)، وفي حديثه عن الشيوخ والعلماء الذين التقى بهم، فلقد تحدث بصراحة عن صفات كثيرة لشيوخه أغفلها غيره يقول عن ابن دقيق العيد «فهو الآن قطب مصر وعلمها، لولا وسوسة تصحبه، وأخلاق يجل عنها منصبه، لو كانت لها صورة كانت أشنع الصور»(303).

فلم ترض نفس العبدري وتنبسط أسارير وجهه إلا وهو يدخل مدينة تونس التي يقول عنها «وما رأيت لأهلها نظيرا شرقا وغربا، شيما فاضلة، وخلالا حميدة، ومعاشرة جميلة...وناهيك ببلد لا يستوحش به غريب، ولا يعدم فيه كل فاضل أريب»(304). ولم يكن العبدري راضي النفس بسبب ما لقيه من الاكرام بها والعناية فقط، ولكن أيضا لما كانت تشهده تونس من ازدهار علمي وأدبي أعجب به فأطال إقامته بها في الورود والصدور معا، يقول «ولولا أني دخلتها لحكمت بأن العلم في أفق الغرب قد محي رسمه، وضاع حقه وقسمه»(305)

ـ مصادره في الرحلة :

ومما يدل على التأني والتروي في إصدار الأحكام هو الرجوع من حين لآخر إلى مصادر عديدة للتصحيح وللمقارنة، وهكذا اعتمد على كتب السيرة والحديث وكتب التصوف والمديح النبوي، وكتب الجغرافية والرحلات والتاريخ والدواوين...

---

(299) نفسه ص 76 وانظر ص 148.

(300) نفسه ص 99.

(301) تاريخ الأدب الجغرافي 1 : 367.

(302) الرحلة المغربية ص 175. 177. 172. 206. 207.

(303) الرحلة المغربية ص 139.

(304) نفسه ص 41

(305) نفسه ص 42

فحينا يقف ببلدة آنسا على قبر أبي حفص عمر بن هارون ينبه إلى أنه مذكور في كتابي التشوف، ومنار العلم(306).

ويعتمد في وصفه للأهرام على كتاب المسالك والممالك(307)، كما يعتمد عليه أيضا في حديثه عن أخلاق أهل القاهرة(308)، وفي أماكن كثيرة(309).

ولقد رجع إلى رحلة ابن جبير أكثر من مرة(310)، واعتمد على الأزرقي صاحب كتاب أخبار مكة(311)، كما عاد كثيرا إلى الكتب الفقهية والحديثية في الفصل الفقهي الذي تحدث فيه عن المناسك، ورسم حدود عرفة(312).

وهكذا كان يرجع إلى المصادر والأمهات في كل أحكامه وتعليقاته وإشاراته، مما أثار تساؤلات كثيرة لدى الباحثين، مثل ذلك التساؤل الذي ساقه المستشرق الروسي كراتشوفسكي حين تحدث عن قيمة آراء العبدري وملاحظاته، يقول : «ومن المؤكد أنه كان على معرفة بمن سبقوه في هذا الاتجاه، وهو عندما يضمن وصفه كلاما من المسعودي أو البكري إنما يدفعنا بذلك إلى إعمال الحذر بل وإلى التساؤل، هلا يعتمد وصفه على المصادر المكتوبة دون الملاحظة المباشرة»(313).

ـــ محتوات الرحلة :

مما تقدم يتبين أن وجهة الرحلة هي تأدية الفريضة وزيارة الأماكن المقدسة بالمشرق، فهي شبيهة بسابقتها لابن رشيد، وإن كانت رحلة ابن رشيد أضخم وأوسع، ومع ذلك فأهمية هذه الرحلة للعبدري تكمن في التنوع الذي جعلها تشبه

---

(306) الرحلة المغربية ص 7

(307) نفسه 147.

(308) نفسه ص 127

(309) مثل ص 158 من الرحلة المغربية.

(310) الرحلة المغربية ص 94. 98. 149. 180.

(311) الرحلة المغربية ص 167.

(312) نفسه ص 188. 200.

(313) تاريخ الأدب الجغرافي 1 : 368.

من جهة رحلة ابن رشيد في مضمونها العلمي، وتشبه من جهة رحلة ابن بطوطة في مضمونها الجغرافي والاجتماعي.

ولقد سلك العبدري طريق البر في رحلته، بينما كنا ألفنا مع ابن جبير وابن رشيد ركوب البحر، مما جعل الرحلة العبدرية ذات فائدة عظمى، فلقد زودتنا بمعلومات مهمة عن الطرق والمسالك في شمال إفريقيا، وما يصادف الرحالة فيها وعلى جوانبها من قرى ومدن وواحات...

وهكذا خرج العبدري من بلاده حاحة سالكا الطريق الصحراوي إلى تلمسان، مرورا ببلاد القبلة التي «مات فيها العلم وذكره»(314)، وكانت تلمسان في عهده مركزا مهما يكتمل فيه تجمع الحجاج إلى بيت الله الحرام، فلقد شاهد العبدري بها جمعا من الحجاج ينيفون عن الألف وردوا هذه المدينة وهم يتأهبون للانطلاق نحو المشرق(315).

ويواصل العبدري طريقه نحو المشرق فيقف على كل البلدان التي مر بها في طريقه، إلا أنه أطال الوقوف على مدينة بجاية حيث يبدي إعجابه بجامعها المنفرد في الحسن(316)، ويأخذ عن عالمها أبي عبد الله الكناني الشاطبي(317)، ويبدو العبدري معجبا أيضا بمدينة قسنطينة «بلد الوضع العجيب والموضع الخصيب»(318)، فيجلس إلى عالمها أبي علي ابن باديس، ويقيد عنه قصيدة ابن الفكون في رحلته من قسنطينة إلى مراكش(319).

وحينما يصل إلى مدينة تونس ينطلق لسانه بالثناء، ويحس بالغبطة والحبور، فتونس في نظره «فاقت بحسن معانيها واتقان مغانيها غيرها من المدن وطالت»(320) لذلك حق لها أن تزهو علي غيرها كما فعل الشاعر منشدا على لسانها، ولعله يكون العبدري نفسه(321) :

---

(314) الرحلة المغربية ص 8.

(315) نفس المصدر ص 11

(316) الرحلة المغربية ص 26

(317) نفسه ص 27.

(318) نفسه ص 32.

(319) الرحلة المغربية ص 34

(320) نفسه ص 39. وانظر المؤنس ص 18.

(321) نفس المصدر والصفحة.

أنا الغادة الحسناء فاق جمالها	فقالت يمينا لا خطبت على زوج
إذا الغانيات ارتدن وصل بعولة	فما بي ولا فخر إلى الزوج من حوج
أغادي إذا ما شئت ظبيا بقفرة	وأطرق نون اليم في ظلم الموج
وفي لمكدود الحجيج استراحة	فهم يردوني الدهر فوجا على فوج
وإني إلى البيت العتيق كسلم	به يرتقي من في الحضيض إلى الأوج

فدورها الكبير الذي تفتخر به على غيرها، أنها مكان يستعيد فيه الحاج نشاطه وصحته في الذهاب والاياب معا، وهكذا يمكث العبدري بها برهة من الزمن، فيقف على جامعها، ويعدد ما بها من آثار كما جلس إلى بعض علمائها، وقيد ما حصل عليه من فوائد وبحوث[322]، رغم استعجاله في السفر إلى البقاع المقدسة.

وفي هذه الوجهة يقف العبدري على مدينة القيروان، تلك المدينة التي ارتبط اسمها بالفتح الاسلامي في المغرب العربي، لكن العبدري يذكر بأنها لم تعد «إلاَّ رسوما محتها يد الزمان، وآثارا يقال عنها كان وكان»[323]. ومع ذلك فقد تحدث العبدري عن جامع عقبة، وأهم القبور والمزارات بها، أما العلماء فلم يتجاوب إلا مع الشيخ الفقيه المحدث الراوية المتقن أبي زيد عبد الرحمن المعروف بالدباغ الذي أظهر نحو العبدري إعجابا بمستواه العلمي، وتقديرا لمكانته فوهب له كل الكتب والفهارس التي كان يطلبها منه لينقل منها الفوائد[324].

ولقد وصل العبدري إلى قمة غضبه في طرابلس بليبيا وهو يشاهد الوضع المزري الذي انحدرت إليه الناحية الاخلاقية والعلمية، فوصفها بما يظهر انفعاله بل وتحامله كما يرى البعض، فالمدينة في نظره «أقفر من جوف حمار، وأهلها سواسية كأسنان الحمار، ليس على ناشىء منهم فضل لذى شيبة، ولا لذى الفضل بينهم هيبة»[325]

ولعل منشأ هذا الغضب هو أن أهلها قد تجردوا من كل فضيلة، فشتان بين هذا البلد، ومدينة تونس التي أفاض في مدحها، وذكر فضائلها يقول «فسبحان من جعلهم وأهل تونس في طرفي نقيض أولائك في الأوج وأولئك في

---

(322) الرحلة المغربية ص 60

(323) نفسه ص 64.

(324) الرحلة المغربية ص 67

(325) نفس المصدر ص 77.

الحضيض»(326)، وحتى إن أبدى اعجابه في طرابلس بمدرستها، فإنه سرعان ما يبدي تحفظه، واقتصاده في هذا الاعجاب يقول : ومارأيت في الغرب مثل مدرستها المذكورة، لولا أن محاسنها مقصورة على الصورة، فما يشب بها للعلم طفل ولا يحج صرورة»(327)، ولهذا لم يرتح لاحد هناك من أهلها، ولم يجد بغيته في عالم بها، ولقد جلس إلى قاضيها وعالمها أبي محمد عبد الله ابن عبد السيد فسأله عن أشياء لم تقنعه أجوبته فيها ، وناقشه في أشياء ومسائل عجز ابن عبد السيد والحاضرون جميعهم على إقناعه والثبوت في مناقشته، ولم يكن العبدري معجبا بنفسه أو مزهوا بعلمه وهو ينقل أخبار تفوقه عليهم، وإنما يعترف في تواضع بأن تألقه العلمي هناك وتفوقه عليهم دليل «على ضعف العلم في هذا الأوان وقلة الراغب فيه»(328)، وأهم ما ساقه العبدري هنا، هو وصفه للمخاطر التي يعرض لها الحجاج في هذه الطرق البرية الصحراوية، «فلا يسلكها إلا مخاطر، ولا يعدم من عربانها شيلام خاطر، قد استوى لديهم الصالح والطالح، واتفق في مذاقهم لكفرهم ونفاقهم كل عذب ومالح، اتخذوا أخذ الحاج خلقا ودينا واعتقدوا إهلاكه ملة ودينا»(329).

ويمر على أرض برقة «أم البراري والقفار»(330) فيظهر أيضا نفوره من هذا البلد وعادات أهله القبيحة، مثل ستر نسائهم لو جوههن بإسدال البراقع عليها، مع بقائهن مكشوفات الراس والأطراف حافيات الأقدام، ولكن العبدري لا يغمط حق أهالي هذه المنطقة فيسجل إعجابه بفصاحتهم ذاكرا أمثلة لهذه الفصاحة التي لم ير لها مثيلا(331).

وحينما يصل إلى الاسكندرية يقف بها منبهرا فيصفها بما يدل على إعجابه بها فهي «مدينة الحصانة والوثاقة، وبلد الأشراف اللامع والطلاقة، وطلاوة المنظر وحلاوة المذاقة، كل عنها ظفر الزمان ونابه، ومل منها جيش الحدثان وأحزابه»(332)، وهكذا يقف بها متأملا جمالها وروعتها، ذاكرا ما بها من آثار

(326) نفس المصدر والصفحة

(327) الرحلة المغربية ص 77. الصرورة من لم يحج أو لم يتزوج (لسان العرب)

(328) الرحلة المغربية ص 81

(329) الرحلة المغربية ص 83

(330) نفس المصدر ص 86

(331) نفسه ص 88

(332) الرحلة المغربية ص 90

وغرائب وعجائب على حد تعبيره كعمود السواري ومنارها الشهير، ومع ذلك فالاسكندرية في نظره ــ بالرغم من قوتها وجمالها «كجسم حسن لا روح فيه» لسوء أخلاق أهلها وما امتلأت به نفوسهم من أحقاد واضغان، فعاملوا الغريب معاملة سيئة يقول «فحسبك ببلد أربى في الحسن على البلاد، وله من الفضيلة كل طارف وتلاد، وليس به من أهل الفضل آحاد قلوا عددا»[333].

ومن الأمور التي يستغربها في سلوكهم ويعتبرها من الشناعة والقبح، ما يتعرض له الحجاج على أيديهم من أذى وتفتيش، رجالا ونساء، بحثا عما بأيديهم فيلزمونهم بأنواع من المغارم ويذيقونهم ألوانامن الهوان ويستحلفونهم فوق ذلك كله، مما جعل العبدري ينفي وجود أناس في أي بلد من البلدان بهذه الضعة، والحقارة وقسوة القلوب، وقلة المروءة والحياء[334]، ويورد في هذا المجال قصيدة طويلة كان ابن جبير قد نصح فيها صلاح الدين الأيوبي ودعاه إلى رفع هذه المغارم عن الحجاج، ومما جاء في هذه القصيدة[335] :

وقد بقيت حسبة في الظلوم وتلك الذخيرة للذاخر
يعنف حجاج بيت الالاه ويسطو بهم سطوة الجائر
ويكشف عما بأيدهم وناهيك من موقف صاغر
وقد أوقفوا بعدما كوشفوا كأنهم في يد الآسر
ويلزمهم حلفا باطلا وعقبى اليمين على الفاجر

ومع كل هذا فإنه يعلن بأنه رأى بالأسكندرية «أفرادا من أهل الفضل علما ودينا»[336] وهم الذين التقى ببعضهم وأخذ عنهم المرويات والأسانيد كما سنرى مفصلا فيما بعد.

ولقد كان العبدري صريحا أيضا وهو يدخل القاهرة التي لم ترقه، فذمها وذم أهلها ذما مقذفا لا ذعا، إذ عدد كل ما يتصفون به من أسوأ الصفات وأقبحها كالشقاق والعناد والالحاد والحسد والغش وقلة الحياء وعدم التنزه والأخلاق المشينة الأخرى كالأكل في الأسواق والطرقات وتضييع المساجد والجوامع واهمالها وقلة التحفظ فيها ...

---

(333) نفسه ص 93

(334) الرحلة المغربية ص 93

(335) الرحلة المغربية ص 94 ــ 96

(336) نفسه ص 99

وهكذا ينفي عن أهلها كل فضيلة فيقول : «وما رأيت بالمغرب الأقصى والأندلس على شكاسة أخلاقهم، ولا بإفريقية وأرض برقة والحجاز والشام فريقا من الناس أرذل أخلاقا وأكثر لؤما، وحسدا، ومهانة نفوس، وأضغن قلوبا، وأوسخ أعراضا وأشد دمامة وخيانة وسرقة وقساوة وأجفى للغريب من أهل هذه المدينة المؤسسة على غير التقوى»(337)

وإذن فرغم أنه شاهد أراذل الناس والأمهم في البلدان التي دخلها، لكنه لم ير مثل القاهريين بماهم عليه من خبث الطوية وحقارة النفس ودناءتها «فمن أظهر منهم نسكا فأحبولة نصبها للصيد، ومن تعلم علما فحيلة أرادها للكيد»(338). فما سبب تحامله على أهل القاهرة بهذا الشكل القاسي ؟ هل السبب يمكن فيما ذكره نفسه عن أخلاقهم من بغضهم للغريب وعدم اهتمامهم به ؟ ربما كان هذا بعض ما أثار حفيظة العبدري، ووقوفه منهم هذا الموقف المتشدد، خاصة وأنه قد عاين ذلك وعاناه، فلقد حضر مع القاهرين صلاة عيد الفطر، فلم يسمع منهم كلمة تأنيس بل نبذوه وتركوه وحيدا فاستشعر الغربة والبعد عن الأهل لأول مرة مما جعله يقول(339) :

ذكرت بيوم الفطر في مصر إذ أتى	وقوس النوى ترمي الحشى أسهم الكرب
فراخا نأى أنسي بنأي محلهم	وصحبا كراما ضمهم أفق الغرب
فأفطرت من قبل الغدو بعبرة	غنيت بها يومي عن الأكل والشرب

ولم يظفر منه بالمدح أو الثناء إلا ملوكها فوصفهم بأنهم «أهل دين وعقائد سليمة وشفقة وحنان على المسلمين، وتفضل على الفقراء، وحسن ظن بأهل الدين، وهم ركن الاسلام نفعهم الله وأحسن عونهم، وقد رأيت من خدمتهم للركب واحتياطهم وصبرهم وحسن محاولتهم ما تعجبت منه»(340)

(337) الرحلة المغربية ص 126 ـ 127

(338) نفسه ص 126.

(339) نفسه ص 128.

(340) الرحلة المغربية ص 128

وبالرغم من بقائه بالقاهرة مدة تنيف على العشرين يوما إلا أنه لم يلتق فيها إلا بعالمين هما شرف الدين الدمياطي وابن دقيق العيد، ولعل هذا بعض أسباب ثورته على هذا البلد وتذمره من أهله[341].

وأهم ملاحظاته عن مصر هي التي تخص الجانب الاجتماعي والحضاري والطبيعي، فلقد تحدث، في كثير من الاعجاب عن ما شاهده هناك من طبيعة خلابة، ومآثر تاريخية هامة، ومزارات وقبور...

وهكذا وصف نيلها بأوفى وصف وأدقه[342] وتحدث عن أهرامها التي اعتبرها من المباني العجيبة الغريبة، مستشهدا على أقواله وحقائقه بما كتبه المؤرخون والرحالة كالقاضي أبي القاسم صاعد في الطبقات، والبكري في المسالك والممالك، وابن جبير في رحلته[343].

واهتم كذلك بمزاراتها الكثيرة مثل مزار تربة راس الحسين[344]، وروضة الشريفة الطاهرة ذات الفضائل الظاهرة والكرامات المتظاهرة نفيسة بنت علي ابن أبي طالب[345] وتربة الامام الشافعي بالقرافة[346]... أما قبور العلماء والصالحين بها فلقد وقف على الكثير منها مثل قبورابن القاسم، واشهب، وابن عبد الحكم، وأبي إسحاق بن شعبان، والقاضي عبد الوهاب... وغيرهم[347].

ومما أثار اهتمامه ونال إعجابه، هو ما ساد البلاد من هدوء وأمان على الأموال والأرواح وشعور بالطمأنينة وارتياح البال، فالمسافر فيها ينتقل في عمارة متصلة من قرية إلى أخرى دون أن يحس بخوف على نفسه أو ماله، أو يجد نفسه في قبضة اللصوص وقطاع الطرق[348].

---

(341) الرحلة المغربية ص 132 ــ 145.

(342) الرحلة المغربية ص 145 ــ 146.

(343) نفسه ص 146 ــ 149..

(344) نفسه الصفحة 149.

(345) نفس ص 152.

(346) نفس المصدر والصفحة.

(347) نفس المصدر والصفحة.

(348) نفس ص 145.

ورحل العبدري عن القاهرة بصحبة الركب المتوجه إلى مكة، فيقضي في هذه الرحلة حوالي شهر ونصف، يقطع فيها المراحل الكثيرة التي تفوق العشرين مرحلة، وإن لم يخصها مما دونه إلا بخمس عشرة صفحة[349] مما جعل وصفه في هذه الصفحات للبلدان التي مر بها وصفا موجزا يكتفي فيه بوصف مختصر جدا، مع ذكر المسافات التي تفصل بين تلك المراحل، وذلك عن طريق ذكر الزمان الذي يقضيه المسافر بينها، ولقد أشار المستشرق الروسي إلى هذا التحول في منهج العبدري في الوصف فقال بأنه «ابتداء من القاهرة يبدأ الوصف يفقد حيويته، وتفصيله»[350]، وهذه الملاحظة وإن كانت تنطبق على وصف المراحل التي صادفها العبدري في طريقه من القاهرة إلى مكة، فإنها لا تنطبق على ما ذكره من تفاصيل بعد ذلك عن كل من الحجاز والشام وتونس.

وفي الحقيقة أن ميله إلى التفصيل ظهر قبل وصوله إلى مكة، وهكذا يتوسع في الوصف حينما يشارف الحجاز بحلوله بينبع، إذ يصف البلد ويستحضر ما قبل فيه، مصححا الأخطاء التي قد يقع فيها المؤرخون أو الجغرافيون ففي حديثه عن بدر مثلا يقول «واد به ماء معين ونخل وعمارة ليست بالكثيرة، وماؤه طيب وبه مسجد مختصر مليح ذكروا أنه بني في موضع العريش الذي كان فيه رسول الله ـــ ص ـــ يوم بدر وأكثر سكان بدر ضعفاء وهم رفضة وكذلك أكثر أهل المدينة على ساكنها السلام»[351].

ومن الغرائب التي أثارت انتباهه، تسميتهم بدرا ببدر وحنين فينطقونهما مقرونين، كما أن من غرائبهم ما يذكرونه تخرصا من أن الغار الذي دخله الرسول ـــ ﷺ ـــ وأبو بكر حين هاجر من مكة هو الغار الموجود ببدر، ومما وقف عليه ببدر مقبرة تضم قبور شهداء بدر[352].

ويصل أخيرا إلى مكة، البلد الذي ظل يلهج بذكره، وشد الرحال من أجل الوصول إليه، فيحس، وهو يدخل البلد الأمين، بالغبطة والسرور، عبر عن ذلك

---

(349) الرحلة المغربية ص 153 ـــ 169

(350) تاريخ الأدب الجغرافي 1 : 367

(351) الرحلة المغربية ص 163

(352) نفسه ص 164

في قصيدتين[353] مهد بهما لوصف هذا البلد الذي ظل تذكره على مدى الأيام يذكي فيه نار الشوق والحنين، ويحيي في نفسه أمل العودة إليه للتملي من جمال المكان وقدسية هذه الرباع، فلقد قال في القصيدة الأولى :

اسعـــداني بذكـــره ياخلـــيلي	فقــد يسعــد الخليــل الخليـــل
وعـــداني ومنيـــاني وصولا	فقصارى منى الفـواد الـوصول
يالربـع غـدا بـه ربـع صبري	وهـو مستعجـم الرسوم محيـــل

ويعبر عن أمنيته التي يرجو باستمرار تحقيقها، وهي العودة إلى هذه البقاع من جديد فلقد جاء في القصيدة الثانية قوله :

ألا ليت شعري هل يساعدني الوقت	وتدني لي الأيام ما نحوه تقت
وهل لي إلى تلك المعاهد عودة	فسكنى مغان قربها كل ما اشتقت

وينهي القصيدة بما يكشف عن تجربته النفسية، فهو يعاني من البعد، ويكابد الشوق، ويلازمه الاحساس بالألم، ولكن بمجرد أن دخل مكة أحس وكأنه قد خلق خلقا جديدا، وسرى فيه ماء الحياة فانتعش واستبشر، فلقد أحدث دخوله البلد تحولا نفسيا مهما، نقله من يأس إلى أمل ومن موت إلى حياة

وكنت كغصن قد ذوى من صدى به	فلمـا حللناهـــا رويت وأورقت

ومن هنا فوصفه للبلد الأمين يشفي غليل المتشوق إلى زيارته أيضا، ومما يجدر ذكره أن العبدري بالرغم من المتعة النفسية التي كان يحس بها والشعور بالغبطة والسرور، وهو يجد نفسه وقد تحققت أمنيته بدخول مكة، فإنه مع ذلك لم يتخل عن حاسته النقدية، يقول في وصف أهل مكة «وفي أصحابها بعض جفاء وقلة ارتباط للشرع، وهم في الغالب يوذون الحجاج ويحيفون على المجاورين بها»[354]. ولا يفوته أيضا انتقاد أمثلة كثيرة لما أحدثه الحجاج من البدع بمكة، كشدة ازدحامهم على قبة زمزم وما يتبع ذلك من المضايقة والمدافعة ومظهر قتالهم على الركن الأسود، وعلى دخول الكعبة..[355]

---

(353) الرحلة المغربية ص 169 ــ 171

(354) نفسه ص 172

(355) الرحلة المغربية ص 175 ــ 177، 186.

ويلتفت وهو بمكة إلى معالمها الأثرية والعمرانية فيصف المسجد الحرام، وقبة زمزم، وقبة الشراب، ومقام إبراهيم...، مستندا في تحديد مواقعها والحديث عنها على المصادر التاريخية(356)، بالاضافة إلى مشاهدته ومعاينته ووقوفه بنفسه على كل هذه الآثار والمعالم فلقد وقف مثلا على قبة زمزم وتوضأ هناك، وتمسح وتروى من الماء وتملأ(357).

وأهم ما في أحاديثه هذه وأوصافه المختلفة تلك الدقة في تحديد المسافات والأبعاد بين المعالم المختلفة لمكة والحرم مقارنا بين ما ذكره الأزرقي وابن جبير، وبين ما يشاهده أو يعرفه عن طريق سؤاله للشيوخ والمقيمين بمكة كما هو الأمر بالنسبة لتحديد عرفة(358).

ولقد أشار إلى فتنة عصفت بمكة وهو بداخلها فأحدثت الاضطراب بين الحجاج، وكانت قد وقعت بين الركب وصاحب مكة أدت إلى قتال شديد، سقط فيه الكثير من الضحايا من أهل مكة ومن الركب، وكان لهذه الفتنة أثرها في توجيه العبدري وتغيير خطته، فبعد أن أظهر عزمه على الجوار فتجهز للمقام هناك ورتب أموره من أجل البقاء، إذا به يجد نفسه مضطرا للعودة فيرغمه الحدث الخطير على تعجيل الرحيل والانصراف، تاركا ما كان له بمكة(359).

ولقد عقد في نهاية حديثه عن مكة ومعالمها فصلا فقهيا تناول فيه شرح المناسك فتحدث عن أركان الحج وسننه ومستحباته ومكروهاته وما كان منتشرا من البدع بين الحجاج في زمانه(360).

ونظرا لانشغاله بتأدية الفرض، واهتمامه بالوقوف على معالم البلد الأمين، ونيته في إطالة المقام به، فإنه لم يتأت له لقاء الشيوخ والعلماء الذين يؤخذ عنهم، إلا أنه يعرب عن رأيه في المستوى العلمي بهذا البلد قائلا «وبالجملة فقد ضعف العلم بتلك البلاد لضعف العيش بها»(361).

---

(356) الرحلة المغربية ص 177 ــ 184.

(357) نفسه ص 175.

(358) نفسه ص 184 ــ 185.

(359) نفسه ص 186 ــ 188.

(360) نفسه ص 188 ــ 199.

(361) الرحلة المغربية ص 200.

ويحث الخطى إلى المدينة المنورة، فلا يتوقف كثيرا في وصف ما يشاهده في طريقه إليها لشوقه لزيارة قبر الرسول عليه السلام، وتعجله دخول بلد الهجرة الذي كان له في نفسه منزلة خاصة لخصها في القصيدة الميمية التي استهل بها حديثه عن مدينة الرسول عليه السلام جاء فيها(362).

مقام للعلاء به مقام ... وفيه انجاب عن ضوء ظلام
به مثوى السيادة غير شك ... به للدين والدنيا انتظام

كما أفصح عن جملة إحساسات وعواطف في القصيدة الطويلة(363) التي نظمها في مدح النبي ﷺ، وهو بالحرم تجاه الروضة المعظمة حيث أظهر فيها غبطته وسروره بتحقيق أمل الزيارة، وأبرز معاناته وهو يرى نفسه عاجزا عن اتخاد قرار حاسم، هل ينساق مع رغبته وأمنيته فيبقى هناك بجانب الرسول عليه السلام ؟ أم يرحل إلى صبيته رحمة بهم ورعاية لشؤونهم ؟، وكان سيفضل الاقامة والجوار لكن قضاء الله أقوى :

لكن قضاء الله عاق إقامتي ... وأقامني نحو الترحل مقعدى
لولا موانع ما قضاه وصبية ... تبكي لكل مسجع ومغرد
خلفتهم في غربة تبكي لهم ... ورق الحمام بكل غصن املد
في منتهى الغرب الذي ما دونه ... إلا تلاطم موج بحر مزبد
ما كنت أخطو نحو غيرك خطوة ... حتى أوافي مضجعي في ملحدي

وبالرغم من أن الركب الذي ذهب صحبته لم يقم بالمدينة إلا يوما وبعض يوم، فإن العبدري كان حريصا أيضا على وصف المعالم بالمدينة «مع قلة الاقامة وكثرة الشواغل وترادف الوظائف الدينية والدنيوية»(364)، وهكذا وصف المدينة وما بها من المعالم والآثار كالبقيع، وجبل أحد، وقباء، والمزارات والقبب المختلفة، واهتم خاصة بمسجد الرسول عليه السلام، فعقد فصلا مهما في تأسيسه، وتاريخه، ومنبره، وقبلته، وسجل ما طرأ عليه من أحداث، وما شهده من زيادات عبر الأعصر والحقب(365).

---

(362) نفسه ص 202.

(363) نفسه ص 208 ـ 213.

(364) الرحلة المغربية ص 203

(365) نفسه ص 203 ـ 206، 214 ـ 220.

ولقد أضناه البحث كعادته عن العلماء، فلم يجد بالمدينة إلا شيخا جاهلا بأبسط مبادىء العلوم، ومن المفارقات العجيبة أن ذلك الشيخ الجاهل هو إمام الحرم الشريف وخطيب منبره، إلا أنه أرشده إلى شيخ عراقي جاور بالمدينة يسمى عفيف الدين أبا محمد عبد السلام البصري، فأجازه هذا الشيخ واستفاد منه أحاديث نبوية كريمة(366).

واختصر العبدري أيضا المراحل التي قطعها في ظرف ثمانية أيام بين المدينة المنورة ومدينة الخليل، لكنه يتحدث عما شاهده بمدينة الخليل فلقد توقف بصورة خاصة عند قبور الأنبياء بها، كقبر الخليل وإسحاق ويعقوب ويوسف عليهم السلام وقبور أزواجهم، مشيرا إلى ما يروى في شأنها من أحاديث وأخبار، ناقلا عن ابن مفرج الأندلسي ما ذكره في كتابه المسمى «المسفر للقلوب، عن صحة قبر إبراهيم الخليل وإسحاق ويعقوب»(367).

ويواصل العبدري رحلته بالشام فيدخل بيت المقدس أولى القبلتين وثالث الحرمين فيصف المدينة والمسجد الأقصى بها(368)، مقارنا بين ما شاهده وعاينه، وبين ما ذكره أبو عبيد البكري، ويقف طويلا على قبة الصخرة التي يعتبرها «من أعجب المباني الموضوعة في الأرض وأتقنها وأغربها»(369)، ولذلك يسترسل في وصفها فيذكر بأنها غشيت بالذهب ظاهرا وباطنا، كما يتحدث عما رآه بها مما له مكانة خاصة عند الناس هناك، كصورة درقة كبيرة يعتقد العوام بأنها درقة حمزة حتى اشتهر ذلك بينهم، وإن اعتبر العبدري هذا الاعتقاد زورا وبهتانا(370)، ولا ينسى العبدري الصخرة التي ذكرت فيها الآثار وهي التي عرج عنها الرسول عليه السلام إلى السماء، وعلوها أقل من القامة وتحتها شبه مغارة، وعلى الصخرة شباكان محكمان يغلقان عليها(371) ورغم أن إقامته بالقدس لم تتعد خمسة أيام، إلا أنه بحث خلالها عن أحوال العلم والعلماء فلم يجد من هو بها أهل للأخذ عنه، إلا شيخا هو قاضي

---

(366) نفسه ص 206 ـ 208

(367) نفسه ص 221 ـ 226.

(368) الرحلة المغربية ص 228 ـ 231.

(369) نفسه ص 229.

(370) نفسه ص 230.

(371) نفسه.

البلد محمد بن إبراهيم بن جماعة، الذي حضر مجلسين علميين له فلم يخرج العبدري منهما بطائل، مما زهده في الدراسة عليه والرواية عنه[372].

ويتوجه بعد ذلك إلى القاهرة مارا بعسقلان، ثم غزة، ثم الصالحية[373] واصفا ما شاهده بكل هذه البلدان باحثا عن العلماء أينما حل وارتحل، ومن أمثلة هذه الأوصاف ما خص به غزة فقال «وغزة مدينة متسعة عامرة لا سور لها وبينها وبين البحر مسافة أميال، وهي أكثر عمارة من كل ما تقدم ذكره من بلاد الشام، وهي جسر إلى مصر وإلى الشام، وبها أسواق قائمة، ومساجد معمورة، ولها جامع مليح حسن، ولكنها قد عريت عن عالم أو متعلم، واقفرت من فقيه ومتكلم»[374].

ويعود على نفس طريقه من القاهرة، لذا كان حديثه عن هذه المدن التي سبق له وصفها، يكاد يكتفي في بعضه بالاشارة الموجزة، مما جعل ذكره لهذه المدن لا يضيف شيئا جديدا إلى ما سبق في ذهابه، وإذا كنا نعلم بأن سبب عدم تمكنه من القيام بالزيارات ولقاء العلماء بالقاهرة هو مرضه واعتلال صحته[375]، فما مبرر سكوته عن إقامته بالأسكندرية والتي دامت سبعة أيام[376] ؟

لكن الموقف يتغير حينما يحل بتونس من جديد، إذ يطيل مقامه بها ويفيض في الحديث عنها وعن علمائها[377]، وهو موقف قد ألفناه في جل الرحلات المغربية لهذه الفترة، فهو نفس موقف ابن رشيد، وربما كان هو نفس موقف التجيبي فيما بعد، ولقد سبق أن أوردنا نصا يوضح فيه العبدري سبب تمهله بتونس وبقائه بها مدة كافية للاستفادة من أهم علمائها وشيوخها، يقول العبدري وعلامة الارتياح بادية في كلامه «فلم يبق بها شيخ مذكور إلا رأيته، ولا علم مشهور إلا أتيته»[378].

---

(372) الرحلة المغربية ص 230 ــ 231.

(373) نفسه ص 231 ــ 234.

(374) نفسه ص 233.

(375) الرحلة المغربية ص 234.

(376) نفسه ص 235.

(377) نفسه ص 239 ــ 275

(378) الرحلة المغربية ص 240.

إلا أنه حينما يغادر تونس يعود إلى الايجاز والاختصار المخل فيكتفي بأن يعدد المنازل والمدن التي مر منها الركب(379)، دون أن يضيف شيئا ويسلك نفس الطريقة حتى في المدن التي لم تكن في طريق ذهابه، وأعني المدن التي تقع في طريقه من تلمسان إلى أزمور مرورا بوجدة، فتازة، ففاس، فمكناس، ومع الأسف أن إيجازه المخل هذا ضاع لنا بسببه الكثير من المعلومات والتفاصيل التي كان يمكن أن تزيدنا معرفة بالعصر والبيئة فرحلته الموسومة بالرحلة المغربية، لم يكن لها أدنى اهتمام بمدن المغرب وقراه ومجتمعه وعلمائه وأحواله المختلفة.

من التقى بهم في الرحلة :

رغم الاهتمام الذي برز في الرحلة بالجانب الجغرافي والاجتماعي ووصف أخلاق الناس وعاداتهم إلى درجة اعتبارها لدى البعض أقرب إلى الرحلات الجغرافية منها إلى الرحلات الفهرسية العلمية فقال عنها صاحب تاريخ الأدب الجغرافي : «وهي تحفل في واقع الأمر بكمية كبيرة من المعطيات الجغرافية إذ يقدم لنا المؤلف وصفا دقيقا وصحيحا للمواضع والبقاع المختلفة مع تفاصيل وافية عن الآثار القديمة وأخلاق السكان المحليين»(380).

فإن اهتمامه في الرحلة بالسند والأخذ عن الشيوخ، والميل الفهرسي يكاد يعادل الاهتمام الجغرافي والاجتماعي، أو يفوقه أحيانا، فلقد التقى في رحلته بحوالي أربعة وثلاثين علما، عدا من لم يذكرهم من الطلبة(381) والزهاد(382) وأشخاص آخرين عرفهم في مجالس العلم(383).

ومن هؤلاء الأعلام الذين التقى بهم في تونس ذهاباوإيابا :

1 ــ أبو جعفر أحمد بن يوسف الفهري اللبلي(384).

---

(379) نفسه ص 276 ــ 280.

(380) تاريخ الأدب الجغرافي 1 : 367.

(381) الرحلة المغربية ص 60

(382) نفسه ص 99

(383) نفسه ص 120

(384) نفسه ص 43 ــ 44

لقيه في وروده وهو ذاهب إلى الحجاز، فجالسه أياما وقرأ عليه كتبا في الحديث والقراءات إذ قرأ عليه جملة من أول كتاب الموطا وجميع كتاب الجامع، وحدثه بجميع أسانيده في برنامجه كما قرأ عليه كتاب الشمائل للترمذي وقصيده أبي القاسم الشاطبي في القراءات، وكتاب التيسير لأبي عمرو المقرىء، وحصل منه على الاجازة له ولو لده محمد.

2 ـ أبو العباس أحمد بن محمد بن حسن بن محمد الغماز الخزرجي[385].

وهو ممن التقى بهم في الصدور من الحجاز، فوجده «عالما يأخذ بالأسماع والأبصار، وفاضلا خلت من مثله القرى والأمصار» ولقد كانت سماعاته عليه في فنون الحديث والتفسير والسيرة والقراءات، فقرأ عليه جامع البخاري والموطأ، وصحيح مسلم، وسنن أبي داود، وجامع الترمذي وسمع عليه دولا من كتابه الاكتفاء في مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومغازى الثلاثة الخلفاء، وقرأ عليه التيسير للامام المقرىء أبي عمرو الداني، وقرأ عليه برنامجه، وروى عنه أشعارا له ولغيره، وحصل منه على الاجازة العامة، إذ كان للعبدري مكانة هامة ومنزلة خاصة لدى الشيخ ابن الغماز فقد عطل لأجله دولا كثيرة...

3 ـ أبو الحسن علي بن أبي القاسم بن رزين التجيبي المرسي[386].

لقيه في صدوره أيضا، ذكر بأن له النظم الرائق والنثر الفائق، لذلك كانت جل قراءاته عليه وسماعاته تختص بالأدب شعرا ونثرا، قرأ عليه فهرسة جمعها لشيوخه، كما قرأ عليه جملة من كتاب الصلة لابن بشكوال وكتب عنه أبياتا له ولغيره.

4 ـ أبو الحسن علي بن إبراهيم التجاني التونسي[387].

وشهرته قد طبقت الآفاق، فأسرته لها القدح المعلى في العلم والأدب، قال هو عن نفسه «أنا الثاني عشر مدرسا من آبائي على نسق كلهم قد قعد هنا للاقراء».

ولقد كانت قراءة العبدري عليه تميل إلى الأدبيات شعرا ونثرا، فلقد قال عنه «جالسته كثيرا وسمعت كلامه في الأدب» وهكذا قرأ عليه قصيدة ابن الأبار (ادرك بخيلك خيل الله أندلسا)، وقصيدة حازم القرطاجني، وهي المقلوبة من قصيدة امرىء

---

(385) الرحلة المغربية ص 240 ـ 243.

(386) نفس المصدر ص 252 ـ 256.

(387) نفسه ص 257 ـ 263.

القيس، في مدح المصطفى عليه السلام أثبتها العبدري بكاملها لأنها مما «ينبغي أن يقيد ولا يهمل» وأنشده أشعارا كثيرة له ولغيره.

ومن النثر قرأ عليه مقامات الحريري، وكتاب رياضة المتعلمين لأبي نعيم.

ولا ندري لماذا لم يتحدث العبدري عن لقاء ابنه أبي الفضل التجاني ؟

مع أنه ــ من خلال ما ذكره ابن رشيد[388] ــ يبدو ذا مستوى أدبي رفيع، له حضور علمي وأدبي متميز في الوسط التونسي، ويمتلك ذوقا فنيا ممتازا.

5 ــ أبو العباس أحمد بن محمد بن ميمون الأشعري[389] المالقي المعروف بابن السكان ولقد كان لقاؤه زاداً للعبدري وتانيساً بما عرف به الأشعري من خلق فاضل وتفوق في حلبة العلم والعمل ولقد عبر العبدري عن ارتياحه لهذه الصحبة بما مهد به لروايته عنه وقراءته عليه يقول : «وممن لقيته فسرني لقاؤه، وواليته في ذات الله فنفعني ولاؤه، وحاضرته فأعجبني فهمه وذكاؤه، وصحبته فبهرني فضله وحياؤه، وكرمه وسخاؤه وتواضعه ورجاؤه، صاحبنا في الله ولينا وصديقنا في طاعته وصفينا»[390].

وإلى جانب هذه الأخلاق الفاضلة، كانت له رواية واسعة عن الشيوخ فحصل منهم على الاجازات كما كان له إسهام في التأليف والتدوين، ذكر له العبدري ثلاثة مؤلفات «تعجب وتروق» ولقد أنشده الأشعري هذا أشعارا في الزهد والتوسل إلى الله كما قرأ قصيدة قد نظمها في مدح النبي ﷺ.

6 ــ أبو محمد عبد الله بن يوسف بن موسى الخلاصي[391] الأندلسي.

وهو من أهل الزهد والصلاح والدين والفضل لذلك يعتبر الشيخ الروحي للعبدري، لقيه أيضا في صدوره من الديار المقدسة فلا زمه واقتبس من فضله وعلمه، تحدث العبدري عن هذه الاستفادة بقوله : «وقد جالسته كثيرا وترددت إليه مدة إقامتي بتونس، مقتبسا من علمه، ومتبركاً بصالح دعائه ولبست منه الخرقة المباركة

(388) رحلة ابن رشيد 7 : 4 ب ــ 51 أ

(389) الرحلة المغربية ص 267 ــ 271

(390) نفسه ص 267.

(391) نفس المصدر ص 244 ــ 252.

خرقة المتصوفة»[392] وهي نفس الخرقة التي كان قد لبسها الخلاصي من إمام الحرم ابن مسدي الذي ألف جزءا في هذا الموضوع، قرأه العبدري على الخلاصي، كما قرأ عليه الأربعين حديثا لابن مسدى أيضا، وكتاب الاعلام بقواعد الاسلام لعياض، ومختصر السيرة لأحمد بن فارس اللغوي، وكتاب المغني في حصر الأحاديث الضعيفة لأبي حفص عمر بن بدر الحنفي، كما قرأ عليه أحاديث كثيرة مسندة، وروى عنه أشعارا في موضوعات الزهد والصلاح والسلوك القويم.

ولا يتسع المجال للتعرض إلى كل الأعلام الذين التقي بهم في تونس أيضا، ونكتفي هنا بالاشارة إليهم فقط وهم :

7 ــ الشيخ الفقيه الأديب الفاضل المسند أبو محمد عبد الله بن محمد بن هارون الطائي القرطبي[393] تكرر لقاؤه له في الورود والصدور معا.

8 ــ الفقيه الأديب الفاضل أبو عبد الله محمد بن عبد المعطي النفزي الشهير بابن هريرة[394].

9 ــ أبو القاسم بن حمادي بن أبي بكر الحضرمي اللبيدي[395] حلاه بالشيخ الجليل الفاضل، العالم، العامل، المسند، بقية السلف، وقدوة الخلق، ذى الدين المتين، صالح العلماء، وعالم الصلحاء.

10 ــ الشيخ الفقيه الحسيب العالم الفاضل الكامل الزكي مفتي إفريقية وقطب أصولها وفروعها أبو القاسم بن أبي بكر اليمني الشهير بابن زيتون[396].

11 ــ الفقيه الفاضل أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الأزدي[397] المعروف بالقسي قال عنه العبدري «وهو رجل فاضل وقور ذو سمت وهيئة ومن عدول البلد».

---

(392) الرحلة المغربية ص 245

(393) نفسه ص 42 ــ 43.

(394) نفسه ص 44 ــ 60.

(395) نفسه ص 243 ــ 244.

(396) نفسه ص 256.

(397) الرحلة المغربية ص 263 ــ 265.

12 ــ الشيخ الفقيه الحاج المبارك الأفضل أبو محمد جابر بن محمد بن القاسم ابن حسان الوادي آشي(398).

13 ــ الشيخ الصالح الفقيه الفاضل أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم...ابن عقاب الجذامي(399).

14 ــ الشيخ الفقيه الصالح الفاضل أبو العباس أحمد بن موسى بن عيسى ابن أبي الفتح البطرني(400)، قال عنه بأنه «مؤدب في بعض أرباض تونس ضرير البصر، دين، صالح، معتن بالعلم وروايته، مواظب على أفعال الخير».
أما في مصر فلم يترجم إلا لخمسة أعلام، ثلاثة بالأسكندرية واثنان بالقاهرة وهؤلاء الأعلام :

15 ــ أبو الحسن على بن محمد بن منصور المالكي المعروف بابن المنير(401) ولقد عبر العبدري عن إعجابه بسماته العلمية قائلا «وما رأيت أحدا اجتمع له من حسن الحفظ وجودة اللفظ وذكاء الفهم ما اجتمع له، ولا رئيسا جعل العلم قيد همته كما جعله».

ومن هنا انصرف للقراءة والسماع عليه، فقرأ عليه الأربعين حديثا البلدانية للامام أبي طاهر السلفي، وبعض الجزء الثاني من مختصر ابن الحاجب في الفقه.

ومما سمعه عليه قصيدته النبوية التي نظمها في سفره إلى الحجاز، وهي في خمسة وخمسين بيتا اثبتها العبدري بكاملها في الرحلة.

16 ــ الشيخ الرواية المحدث تاج الدين أبو الحسن علي بن أحمد الحسيني الغرافي(402) قال عنه العبدري بأن له رواية عالية متسعة بالعراق ومصر، وله رحلة إلى الحجاز.
ولقد أخذ كل منهما عن صاحبه فقرأ عليه العبدري ثلاثيات البخاري، وأحاديث إسماعيل بن جعفر، وحديث عبد الله بن عمرو «الراحمون يرحمهم الرحمن» وكتاب

(398) نفسه ص 265 ــ 267

(399) نفسه ص 271.

(400) نفسه ص 275.

(401) نفسه ص 100 ــ 108.

(402) الرحلة المغربية ص 109 ــ 120.

فتح الوصيد في شرح القصيد لأبي الحسن علي بن عبد الصمد السخاوي، كما أنشده أشعارا لشيوخه ولنفسه.

أما أبو الحسن الغرافي فقد قيد عن العبدري أبياتا من شعره، وجميع القصيدة التي كان قد بعث بها إلى ولده من القيروان، وسمع منه القصيد الحجازي له أيضا. ولذلك قيد اسمه ضمن برنامج شيوخه.

17 ــ الشيخ الأديب المسن أستاذ العربية في وقته أبو عبد الله محمد ابن عبد الله الزناتي المعروف بمحيي الدين المازوني[403]، وهو وإن لم يأخذ عنه، ولكنه أنشده أشعارا لنفسه ولغيره.

18 ــ الشيخ الفقيه المحدث الراوية شرف الدين أبو محمد وأبو أحمد عبد المومن بن خلف الدمياطي[404]، ولقد لقيه في الورود والصدور تحدث عنه فقال «رحل في طلب العلم ولقي من أهله أعدادا وجمع وألف وروى حتى صار أوحد وقته في ذلك»

كتب عنه العبدرى أحاديث مسندة، كما أنشده أشعارا لنفسه ولغيره، وحصل منه العبدري على الاجازة له ولأولاده وهو الذي اعتنى به وأشرف على علاجه حين ورد العبدري على مصر راجعا من الحجاز، حيث أنزله في مدرسته وكلف طبيبا ماهرا بمعالجته.

19 ــ أما العلم الخامس الذي التقى به في مصر الشيخ الفقيه المحدث الأصولي تقي الدين أبو الفتح محمد بن علي بن وهب القشيري المعروف بابن دقيق العيد[405] صاحب المدرسة الكاملية.

ولقد لخص رأيه فيه بقوله «لقيت منه حبرا يحق له اللقاء وبحرا من علم لا تكدره الدلاء» ولمكن العبدري مبالغا في حكمه هذا، متفردا في رأيه بل ان الكثيرين يتفقون على أنه أوحد عصره علما واجتهادا، فابن فرحون يصفه بأنه «تفرد بمعرفة العلوم

---

(403) الرحلة المغربية ص 120 ــ 122.

(404) نفسه ص 132 ــ 138.

(405) الرحلة المغربية ص 138 ــ 145.

في زمانه، والرسوخ فيها، معظما في النفوس»[406]، أما الامام السيوطي فيعده مجدد القرن السابع[407].

ولقد حدثه ابن دقيق العيد وأملي عليه الكثير من الأحاديث وأجاز له ولولده محمد جميع ما حدث به من مسموعاته، وجميع ما صدر عنه من نظم ونثر.

ولم يكن هذا التقيد والاملاء من طرف واحد، فلقد أوقف العبدري تقي الدين هذا على ما قيده في رحلته فأبدى استحسانه واهتمامه به، إذ قيد منها ابن دقيق العيد وفاة الشقراطسي، وكتب عنه ما أملاه عليه من أخبار تتعلق بابن عبد الملك المراكشي.

20 — والتقى ببجاية، وهو في طريقه إلى الحجاز، الشيخ الفقيه الخطيب الصالح المسند الرواية أبا عبد الله محمد بن صالح الكناني[408] الشاطبي، فقرأ عليه في المدة القصيرة التي لا تتعدى يومين كتاب الموطا، وكتابي التيسير، والمقنع لأبي عمرو الداني، كما قرأ عليه قصيدة أبي القاسم الرعيني الشاطبي في القراءات، وكتاب الشمائل للترمذي، وبعض كتاب رياضة المتعلمين لأبي نعيم، وقرأ عليه أيضا برنامجه في أسماء شيوخه ومروياته وأنشده أشعارا له ولغيره، فكانت رواياته عنه وقراءاته عليه متنوعة، كما التقى به ثانية في صدوره من الحجاز[409].

---

(406) الديباج ص 283.

(407) ازهار الرياض 3 : 56 — 58.

(408) الرحلة المغربية ص 27 — 31.

(409) الرحلة المغربية ص 276 — 277

جـ ـ رحلة التجيبي

وتعد أيضا في قمة الرحلات المغربية، إذ اعتبرها الباحثون من مستوى رحلة ابن رشيد السالفة الذكر(410).

ورغم أهمية هذه الرحلة وطول باع صاحبها العلمي فإن مؤلفها لم ينل ما يستحقه من الاهتمام، بل أهمل ذكره في كثير من المصادر، واكتفى البعض بالاشارة السريعة، أو الترجمة الموجزة، ومن حسن الحظ أن التجيبي نفسه قد سد بعض النقص فزودنا بكثير من المعلومات والحقائق عن حياته وثقافته واهتماماته المختلفة في هذه الرحلة، أو في برنامجه الهام، فسد بذلك ثغرات يحس بها كل من أراد الاطلاع على تفاصيل حياة التجيبي ومؤهلاته العلمية(411).

---

(410) الجزء الثاني المنشور من الرحلة يضم 203 ورقة بوجهيها. فتقديرنا لأوراق الرحلة بكاملها هو حوالي 700 ورقة، فهي بذلك في حجم رحلة ابن رشيد أو أكثر.

(411) تستفاد ترجمته من المصادر والمراجع التالية :

1) مستفاد الرحلة والاغتراب بتحقيق الأستاذ عبد الحفيظ منصور.
2) برنامج التجيبي بتحقيق عبد الحفيظ منصور.
3) بلغة الأمنية تحقيق الأستاذ ابن تاويت البحث العلمي 27 : 122.
4) فهرسة السراج مخطوط الخزانة العامة ك 1242 ص 61 ـ 62
5) اختصار الأخبار تحقيق الأستاذ ابن تاويت مجلة تطوان 3 ـ 4 ص 78
6) الذيل والتكملة 6 : 505 بتحقيق الدكتور إحسان عباس وأيضا مقدمة التحقيق للسفرين الخامس والسادس.
7) الدرر الكامنة 3 : 240.
8) نيل الابتهاج ص 222 ـ 271
9) فهرس الفهارس 1 : 264 ـ 265.
10) دليل مؤرخ المغرب 2 : 341.

حياته :

هو أبو القاسم القاسم بن يوسف بن محمد بن علي بن القاسم التجيبي السبتي[412]، وقد كتب على الورقة الأولى من النسخة الوحيدة لبرنامجه «البلنسي المحتد السبتي النشاة والمولد»[413].

فاصله إذن من بلنسية، ولعل أسرته كانت في جملة من نزح إلى سبتة زمن سقوط بلنسية في يد القشتاليين المسيحيين، فالكاتب نفسه يصرح بأنه ولد ونشأ في سبتة.

ولا ندري على ماذا اعتمد الباحث عبد الحي الكتاني في نسبته إلى تلمسان، فلقد ذكر ضمن من رحلوا إلى الحجاز في تقريظه لكتاب دليل الحج والسياحة بقوله «وثالثهم الامام فخر تلمسان الحافظ أبو القاسم التجيبي الأندلسي التلمساني»[414] وهذه نسبة غريبة ينفرد بها الكتاني هذا، فهل يعود ذلك إلى خطا أو سبق قلم ؟...

ويقع التضارب أيضا في سنة ولادته فبينما يحددها التنبكتي بعام ستة وستين وستمائة[415]، يرى ابن حجر بأن سنة ولادته توافق سبعين وستمائة للهجرة[416] ويتفق هذا مع الاشارة العارضة للتجيبي نفسه في معرض حديثه عن السند العالي الذي روى به الموطأ[417].

⇐ 11) دليل الحج والسياحة ص 293 تقريظ عبد الحي الكتاني.
12) الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى 2 : 623 ـ 646.
13) La vie intellectuelle Marocaine p 222 - 233
14) ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين ص 313.
15) الموسوعة المغربية 3 : 58.
16) اعلام المغرب العربي 2 : 127
17) أشهر رحلات الحج ص 20.
18) مجلة الايمان سنة 3 عدد 9 ص 49 ـ 53 مقال الأستاذ محمد الفاسي.
19) مجلة المناهل عدد 22 ص 559 ـ 563 مقال الأستاذ زمامة.

(412) فهرست السراج ص 62.

(413) مخطوط الأسكوريال رقم 1756 نشر عبد الحفيظ منصور.

(414) دليل الحج والسياحة ص 293.

(415) نيل الابتهاج والسياحة ص 222.

(416) الدرر الكامنة 3 : 240.

(417) برنامج التجيبي ص 64.

ونظرا لقلة أخباره في كتب التراجم والطبقات، فإننا لا نعرف الكثير عن نشأته وأسرته وحياته المبكرة في سبتة، إلا أن برنامجه ـــ لحسن الحظ ـــ قد ألقى الضوء على كثير من زوايا حياته العلمية خاصة، فأبرز الثقافة التي تلقاها بسبتة وغيرها، والشيوخ الذين تتلمذ عليهم، والكتب التي درسها والروايات والأسانيد التي حصل عليها، كما تسعفنا أيضا القطعة الباقية من رحلته في إتمام رسم هذه الصورة العلمية.

ومن خلال برنامجه يبدو المستوى الرفيع للتكوين العلمي الذي حصل عليه في بلده سبتة، قبل قيامه بالرحلة إلى المشرق، وهو تكوين جامع متنوع متعمق، فقراءاته وسماعاته توزعتها العلوم والفنون المختلفة، إذ حفظ القرآن بقراءاته المختلفة، وقرأ الحديث والسيرة النبوية والفقه وعلوم العربية واللغة والأدب والتصوف وآداب السلوك.

وليس باستطاعتنا أن نحيط بكل الكتب التي درسها بسبتة على الشيوخ والعلماء فهي كثيرة، تكفينا الاشارة إلى بعضها :

ـــ ففي القراءات درس كتاب الكافي في القراءات السبع لابن شريح على ابن أبي الربيع القرشي وذلك سنة 686هـ[418]، ودرسه أيضا على أبي بكر محمد الأشبيلي مستوطن سبتة[419]، وقرأ طائفة منه على رفيقه في الرحلة أبي القاسم خلف ابن عبد العزيز القبتوري[420]، ودرس بسبتة أيضا جزءا فيه لغات القرآن العزيز وتفسيره على ابن الجزري[421].

ـــ وفي الحديث والسيرة النبوية قرأ بسبتة في جمادى الثانية سنة 692هـ الأربعين حديثا في الاذكار لأبي عمرو عثمان الهمداني الزبيدي قرأه على أبي عبد الله محمد بن عمر الأنصاري السبتي المعروف بابن الدراج[422]. وقرأ كتاب شعب الايمان لأبي محمد عبد الجليل الأوسي الأندلسي على أبي محمد عبد المهيمن الحضرمي وذلك بسبتة في سنة 689هـ[423].

---

(418) البرنامج ص 33

(419) نفسه ص 34

(420) نفسه ص 34 ـــ 35

(421) نفسه ص 49

(422) نفسه ص 167.

(423) برنامج التجيبي ص 257.

كما قرأ بسبتة أيضا كتاب الشمائل لأبي عيسى الترمذي سنة 689هـ على أبي القاسم القاسم بن عبد الله الأنصاري[424] وأبي إسحاق إبراهيم الغافقي[425] وقرأ المختصر في أخبار خير البشر لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء اللغوي على الحافظ أبي عبد الله محمد الكتامي المعروف بابن الخضار[426]. وقرأ الوسيلة الكبرى على مؤلفها مالك بن المرحل سنة 690هـ[427].

ـ وفي الفقه قرأ كتاب التهذيب في اختصار المدونة للبراذعي على كل من أبي الحسين ابن أبي الربيع[428]، وابن الدارج السبتي[429]، وقرأ مختصر أبي الحسن على التجيبي في الفقه على ابن أبي الربيع أيضا[430]، كما قرأ عليه في نفس السنة كتاب الرسالة لابن أبي زيد القيرواني[431]، وسمع على أبي عبد الله محمد الكتامي كتاب الزكاة لأبي بكر ابن الجد، وذلك في مجلسين آخرهما يوم الجمعة 25 ذي القعدة سنة 691[432].

ـ وفي التصوف وآداب السلوك سمع بسبتة على أبي إسحاق إبراهيم المديوني الأشبيلي كتاب أدب الصحبة للامام أبي عبد الرحمان السلمي[433].

كما سمع رسالة أبي القاسم القشيري في التصوف على الشيخ الفقيه الكاتب الحاسب الفرضي أبي محمد عبد المهيمن الأنصاري الجزيري وذلك في سنة 689هـ[434].

---

(424) نفسه ص 111

(425) نفس المصدر والصفحة.

(426) نفسه ص 135.

(427) نفسه ص 137.

(428) نفسه ص 267.

(429) نفسه ص 268.

(430) نفسه ص 268.

(431) نفسه ص 266 ـ 267.

(432) نفسه ص 272.

(433) نفسه ص 255.

(434) برنامج التجيبي ص 256.

ـ وفي علوم اللغة والأدب درس كتبا كثيرة، فلقد درس على ابن أبي الربيع وحده كتاب الايضاح لأبي علي الفارسي[435]، وكتاب الجمل في النحو لأبي القاسم الزجاجي[436]، وإصلاح المنطق في اللغة لأبن السكيت[437]، والفصيح لأبي العباس النحوي[438]، وكتابه في ضبط قوانين العربية[439]، كما درس عليه أيضا أدب الكتاب لابن قتيبة[440]، والكامل للمبرد[441]، وأشعار الستة الجاهلين[442]، ومقامات الحريري[443].

أما ابن الدراج السبتي فقد درس عليه كتاب الايضاح للفارسي[444]، وتناول من ابن المرحل فهرسة ابن الفحام[445]، كما قرأ عليه أراجيز وأشعارا له[446]، وسمع على أبي بكر القللوسي في 12 جمادى الأخرى سنة 691هـ أرجوزته الحسنة في القوافي[447].

وأخذ فهرسة ابن الغماز عن رفيقه في الرحلة أبي القاسم القبتوري[448]

وهكذا كانت دراساته متنوعة فلقد أخذ في بلده سبتة عن شيوخ عديدين ذكر منهم في برنامجه حوالي الثلاثين، فتعمقت معارفه وتوسعت مداركه، مما أكسبه

(435) نفسه ص 278.

(436) نفسه ص 280.

(437) نفسه ص 281.

(438) نفسه ص 282.

(439) نفسه ص 280.

(440) نفسه ص 281.

(441) نفسه ص 283.

(442) نفسه ص 285.

(443) نفسه ص 285.

(444) نفسه ص 279.

(445) نفسه ص 247.

(446) نفسه ص 282، 283.

(447) نفسه ص 276.

(448) نفسه ص 248.

الاحترام والتقدير قبل إقدامه على الرحلة، فلقد وصفه يحيى السراج في فهرسته : «بالشيخ الفقيه الراوية المحدث الرحال الضابط المحقق»(449)، وقال عنه التنبكتي بأنه كان «عالما بارعا محدثا حافظا متقنا عارفا بالحديث، قيما على أنواعه، ضابطا ثقة»(450).

ونظن أن كل هذه الصفات والألقاب العلمية قد اكتسبها وهو يتنقل بين مجالس العلم الكثيرة في بلده سبتة، بدليل أن الأديب أبا بكر القللوسي قدم للتجيبي أرجوزته في القوافي المتقدمة الذكر، بهذه الأبيات التي كتبها بخطه على ظهر هذه الأرجوزة قال فيها(451).

أرجوزة ناظمها خطها محمد بن القللوسي
لصاحب له ارتضى وده لأنه من خير مرضى
يدعى أبا القاسم أو قاسما أو ابن يوسف التجيبي

فهو لا يعتبره تلميذه أو أقل منه مرتبة، وإنما هو في مرتبة الزمالة والصحبة، وهذا اعتراف بمكانة التجيبي العلمية.

وتأتي المرحلة الهامة في حياته وهي رحلته إلى المشرق التي وإن كان الهدف منها تأدية فريضة الحج وزيارة قبر الرسول عليه السلام كما أفصح عن ذلك التجيبي نفسه في رده على ابن دقيق العيد قائلا : «وسألني عن جهة قصدي فأخبرته أن معظم أملي الوصول إلى بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج جعل الله ذلك خالصا لوجهه الكريم(452)، إلا أن توقفه بالمراكز العلمية المختلفة في كل من الأندلس وبلدان المغرب العربي ومصر والشام والحجاز، وأخذه عن علماء عصره، واهتمامه بتسجيل ما استفاده منهم وتدوين الأسانيد العالية، جعل رحلته ذات فائدة كبرى في توسيع آفاقه الثقافية ومداركه العلمية، والعنوان الذي أطلقه على ما دونه في هذه الرحلة «يحدد المقصود منها بالتسجيل وهو ما استفاده مؤلف الكتاب»(453).

---

(449) فهرس السراج ص 61.

(450) نيل الابتهاج ص 222.

(451) برناج التجيبي ص 276.

(452) مستفاد الرحلة والاغتراب ص 20

(453) الوافي بالأدب العربي 2 : 623.

أما زمن الرحلة من حيث البداية والنهاية، فمن المتعارف عليه في كثير من الدراسات، أنه رحل في سنة ست وتسعين وستمائة للهجرة(454) لكننا من تأملنا فيما ذكره التجيبي من أخبار في كل من الرحلة والبرنامج، وتعاملنا مع التواريخ المشار إليها فيهما معا يتبين أن رحلته انطلقت قبل هذا التاريخ فلقد خرج من بلده سبتة على الأقل في سنة أربع وتسعين وستمائة إذ وجدناه يأخذ بمالقة عن أبي عبد الله ابن عياش الأنصاري في مجلسين آخرهما وافق يوم الأربعاء 12 رمضان سنة 694هـ(455)، كما يشير إلى أنه أخذ ببجاية عن أبي عبد الله محمد بن صالح الكناني في شهر محرم سنة 695هـ(456).

وأشار إلى أنه عاين المصحف العتيق المبارك في قبة اليهودية بمكة المكرمة وذلك في يوم الجمعة 12 شوال سنة 696(457)، وأخذ على أبي إسحاق الطبري بمكة أيضا في عدة مجالس آخرها في 13 ذي القعدة عام 696هـ(458)

وإذن فقد أدى فريضة الحج في سنة 696هـ بعد أن كان قد أمضى نحو سنتين من رحلته جلس فيها إلى العلماء والشيوخ.

ويمكننا أن نفترض بأنه تمهل في العودة فلم يسرع بالرجوع إلى بلده وأهله بمجرد تأدية الفريضة وقضاء المناسك، بل مضى في رحلته العلمية فقضى أكثر من سنتين أخريين يزور المراكز العلمية والمدارس والمساجد ويتردد على المجالس العلمية في بلاد الشام.

فلقد أشار إلى أنه أخذ بدمشق في سنة 697هـ(459) عن علماء كثيرين، وأشار أيضا إلى أنه وصله خبر وفاة ابن النحاس بالقاهرة في سنة 698هـ وهذا يدل على أنه لم يكن قد دخل مصر حينئذ، إذ لا يعقل ألا يحضر جنازة ابن النحاس إذا كان موجودا فعلا بمصر مع أن جنازة ابن النحاس كما يذكر التجيبي نفسه «كانت

---

(454) نيل الابتهاج ص 222

(455) برنامج التجيبي ص 146 ـ 147.

(456) مستفاد الرحلة ص 65. البرماج ص 259 : 260.

(457) مستفاد الرحلة ص 327.

(458) مستفاد الرحلة ص 388 ـ 390، البرنامج ص 195.

(459) البرنامج ص 123 ـ 159 ـ 231 ـ 239 ـ 240 ـ 241.

مشهورة لم يتخلف عنها أحد، وأن جميع دروس المدينة بطلت يوم دفنه»[460]. وهكذا فلم يعد من هذه الرحلة الطويلة إلا وقد حصل على «اسناد غاية في العلو»[461] فتبدأ بذلك المرحلة الثالثة من حياته وهي التي قعد فيها للتدريس والتأليف والتعليق وعقد المجالس العلمية كما يستفاد من الأخبار القليلة جدا.

فلقد ورد في بلغة الأمنية «أنه كان يقعد لاسماع الحديث بمسجد زقاق ابن الشراك»[462] مما يدل على أنه صارت له الأستاذية في علم الحديث، وهذا ممكن خصوصا بعد مغادرة ابن رشيد لسبتة إلى الأندلس وفاس[463].

وفي مذكرات إبراهيم ابن الحاج النميري أن أبا عبد الله بن إبراهيم اللخمي شيخ رندة «لقي بسبتة أبا القاسم التجيبي وسمع عليه جملة من أوائل كتب وأجاز له»[464]، وذكر أيضا أن من شيوخ أبي عبد الله محمد بن محمد بن عمر بن الدراج «أبا القاسم التجيبي سمع عليه الأربعين حديثا التي ألفها إلى غير ذلك من الأجزاء وأجازه»[465].

كما أن من شيوخ أبي العباس أحمد بن يحيى بن ياليل «أبا القاسم التجيبي سمع عليه أبعاضا من الموطا والبخاري ومسلم إلى غير ذلك[466]».

ومن تلاميذ التجيبي أبو عبد الله محمد بن محمد بن سعيد الرعيني الفاسي المولد «كتب له التجيبي بالاجازة العامة من سبتة مرتين ثم لقيه بمدينة فاس فسمع منه حديث الرحمة بشرطه وسمع عليه ثلاثيات البخاري وأجاز له جميع الصحيح للامام أبي عبد الله البخاري معينا وعمَّم له الاجازة مشافهة فيما احتوى عليه برنامج رواياته وما شذ عنه وسائر مؤلفاته ومجازاته»[467].

---

(460) مستفاد الرحلة ص 88.

(461) البرنامج ص 64.

(462) بلغة الأمنية البحث العلمي 27 : 122.

(463) مجلة الايمان سنة 3 عدد 9 ص 49

(464) مذكرات النميري 1734 ورقة 13 ص 24 من النسخة المرقونة.

(465) نفسه ورقة6أ ص 30 من النسخة المرقونة.

(466) مذكرات النميري 1734 ورقة 27أ ص 164 من النسخة المرقونة.

(467) فهرسة السراج ك 1242 ص 62

ويروي عنه ابن عياد الرندي بواسطة أبي العباس أحمد بن عاشر السلوي[468]، ومن الثابث أن التجيبي ارتحل إلى فاس فعقد بها مجالس العلم، وأفاد الكثيرين من الطلاب، ولعل رحلته هذه كانت في عام 720هـ فهذا هو تاريخ إجازته كما وردت في برنامجه[469] والتي أجاز بها الرعيني نفسه يحي السراج، ولقد سجل نص هذه الاجازة على الورقة الأولى من برنامج التجيبي[470].

ولقد عرف بفكره الثاقب، وعلمه الواسع، ورواياته العالية، وتصويباته العلمية المفيدة، ومن هنا كثرت تعليقاته على الكتب التي قرأها مثل تلك التي احتفظ بها كتاب الذيل والتكملة، فمازالت نسخة حليم الخطية التي اعتمد عليها في تحقيق الذيل والتكملة محتفظة بالكثير من هذه التعليقات والهوامش الدقيقة والحسنة الضبط[471]، لذا لم يبالغ محقق الكتاب الدكتور إحسان عباس حين قال : «والحق أن للتجيبي فضلا كبيرا على هذا الكتاب فلولا دقته في الضبط لكان العمل في هذا الكتاب وأكثره سرد أسماء أعلام مظنة الخطأ الكثير»[472].

مؤلفاته :

وشخصية في مثل هذا المستوى من العلم والفهم والتحصيل، لا ينتظر منها إلا الاسهام بالتاليف في كل المجالات والفنون المختلفة.

والظاهر أن التجيبي كان كابن رشيد في كثرة التآليف وتنوعها كما يفهم من حديث يحيى السراج السالف الذكر، فقد ذكر أن من جملة ما أجاز به التجيبي تلميذه الرعيني «سائر مؤلفاته ومجازاته»[473] فتعبيره بصيغة الجمع يدل على تعدد هذه التآليف وكثرتها، وأشار صاحب بلغة الأمنية في ترجمة التجيبي إلى أنه «محدث ناقد للأسانيد، حسن الخط، متقن للضبط، ويقول الشعر»[474] فأين شعره الذي

---

(468) نفسه ص 47

(469) مجلة الايمان سنة 3 عدد 9 ص 49 مقال الفاسي.

(470) برنامج التجيبي ص : ي ب.

(471) الذيل والتكملة مقدمة تحقيق السفر الخامس ص 6، السفر السادس ص 503—512.

(472) نفسه 6 : 2 مقدمة التحقيق.

(473) فهرس السراج ص 62، النيل ص 272.

(474) بلغة الأمنية، البحث العلمي 27 : 122.

قاله وعرف به عند أهل زمانه ؟ وأين ما كتبه من تآليف وكتب ورسائل ؟ إذ لا يمكن أن يكون مقصرا في الجانب التأليفي وهو الذي كان «خطه حجة عند من اعتمد عليه»(475).

وإذن فمجالات إبداعه عديدة، وتآليفه كثيرة متنوعة، لكنها ربما تعرضت للضياع والاهمال، وليس هذا مستبعدا، فأخباره نفسها ضاعت فنتج عن ذلك جهل الكثير من مراحل حياته.

ـــ ومن أهم مؤلفاته الباقية.

1 ـــ استدراكه على كتاب الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي، إذ أورد في هذا الاستدراك تراجم سها عنها ابن عبد الملك أو أغفلها، فكان عمله بذلك مفيدا سد ثغرة كبيرة في عمل المؤلف ونعرف من هذه التراجم ثلاثا وعشرين ترجمة استدرك بها عليه في السفر السادس وحده من هذا الكتاب الضخم المتعدد الأسفار(476).

2 ـــ الأربعون حديثا في فضل الجهاد والحث عليه كان قد أخرجها من مروياته للسلطان أبي سعيد المريني الذي كان يعظمه ويجله(477).

3 ـــ برنامج التجيبي(478).

ولقد سجل فيه على طريقة كتب البرامج والفهارس، الكتب التي قرأها والفوائد التي حصل عليها، وطرق هذه القراءة مع تعيين الزمان والمكان أحيانا، كما ذكر الشيوخ الذين تتلمذ عليهم أو أخذ عنهم، ولهذا كان البرنامج مفيدا، اهتم به علماء عصره فحرصوا على قراءته وربط السند بمؤلفه، وهكذا سجل أبو زكرياء يحيى السراج الطرق الثلاثة لقراءته لهذا البرنامج، وهي : طريق أبي البركات البلفيقي، وطريق أبي سعيد محمد بن عبد المهيمن الحضرمي، وطريق أبي عبد الله محمد بن سعيد الرعيني الأندلسي الفاسي، ولقد كتب السراج هذه الطرق آخر شهر المحرم

---

(475) نفسه.

(476) الذيل والتكملة السفر السادس ص 503 ـــ 512.

(477) بلغة الأمنية لمحب العلمي 27 : 122، مذكرات ابن الحاج 1734 ورقة 16.

(478) قام بتحقيقه الأستاذ عبد الحفيظ منصور، وصدر على الدر العربية للكتاب.

غام 792هـ على النسخة الخطية الوحيدة لهذا البرنامج، وهي المحفوظة بخزانة الأسكوريال في إسبانيا تحت رقم 1756[479].

4 ـــ رحلته إلى الديار المقدسة المعروفة ب «مستفاد الرحلة والاغتراب»[480] وسنخصها بالحديث فيما بعد.

والمعروف أن التجيبي بقي مقصودا للتلاميذ والراغبين في الاجازة والرواية والسند العالي إلى أن توفي بسبتة سنة ثلاثين وسبعمائة هجرية ودفن بالمقبرة الكبرى التي بسفح جبل الميناء[481].

شهرة الرحلة :

بالرغم من أن هذه الرحلة توصف لدى الباحثين بالشهرة[482]، إلا أنها تعرضت للضياع والتلف، فلم يذكرها أحد بعد عصر التنبكتي إلى أن تم العثور على قطعة منها بمكتبة تونس[483]، وهي نفس القطعة التي اعتمد عليها في التحقيق[484].

وأغلب الذين أشاروا إلى هذه الرحلة نبهوا على أهميتها وضخامتها من حيث عدد الصفحات والأجزاء فلقد وقف عليها ابن حجر في «ثلاث مجلدات ضخمة وقد حذا فيها حذو ابن رشيد بتضمين الرحلة مشيخة له مستوعبة»[485].

ووصفها التنبكتي بأنها «كتاب نفيس في ثلاث مجلدات فيها فوائد كثيرة»[486].

أما عبد الحي الكتاني فيرى بأن الرحلة في عدة مجلدات[487] مضيفا قوله «ولا

(479) مقدمة التحقيق ص : ي ب.

(480) البرنامج ص 40، 56. 98. 166 اختصار الأخبار مجلة تطوان 4 ــ 5 ص 78.

(481) اختصار الأخبار مجلة تطوان 4 ــ 5 ص 78، بلغة الأمنية البحث العلمي 27 : 122.

(482) نيل الابتهاج ص 222

(483) فهرس الفهارس 1 : 265.

(484) حققها الأستاذ عبد الحفيظ منصور

(485) الدرر الكامنة 3 : 240

(486) نيل الابتهاج ص 222.

(487) فهرس الفهارس 1 : 265. دليل الحج والسياحة ص 292.

أظنها تكون أدون من رحلة ابن رشيد الفهري»[488]، ولا مبالغة في هذا القول، فتكوين التجيبي واهتمامه العلمي لا يقلان عن التكوين والاهتمام، اللذين عرف بهما ابن رشيد السبتي خصوصا وأنهما عاشا في بيئة متشابهة، ومدة رحلتيهما متقاربة وهدفهما من الرحلة أيضا واحد، كما أن المراكز العلمية التي زاراها لم تختلف.

أما القطعة التي حققت من الرحلة فيعتقد أنها تشكل القسم الأكبر من الجزء الثاني من الرحلة[489].

محتوى الرحلة :

يذكر التنبكتي بأن رحلة التجيبي كانت أولا إلى الأندلس ثم إلى المشرق[490]، وإذا كنا لا نمتلك ما دونه عن رحلته هذه إلى الأندلس فإن ما أشار إليه في برنامجه من القراءات والسماعات المختلفة التي حصل عليها، أو ما ذكره عرضا في القطعة المنشورة من الرحلة، يبين بأنه استهل رحلته فعلا بزيارة الأندلس.

فلقد تأتى له بمالقة قراءة كتب أبي عبد الله محمد بن عياش الأنصاري القرطبي، ككتاب الشهاب للقاضي أبي عبد الله محمد القضاعي الذي قرأه على ابن عياش في مجلسين اثنين آخرهما في يوم الأربعاء الثاني عشر لشهر رمضان عام 694هـ[491]، وكتاب بغية المرتاد في التعريف بسنة الجهاد لابن الطيلسان[492]، وكتاب الصلة لابن شكوال[493]، وكتاب التبين في المناقب لابن الطيلسان أيضا[494]، وقرأ بمالقة أيضا طائفة من مختصر أبي الحسن علي التجيبي الطليطلي في الفقه على ابن عياشي أيضا[495]، كما تناول أيضا بمالقة جميع الموطأ لمالك بن أنس من يد أبي الحسن علي ابن أبي الحجاج يوسف المعروف بابن مصامد[496].

---

(488) نفس المصدر السابق.

(489) مقدمة تحقيق هذا الجزء ص : ح

(490) نيل الابتهاج ص 222.

(491) برنامج التجيبي ص 146 ــ 147

(492) نفسه ص 236.

(493) نفسه ص 263. مستفاد الرحلة ص 183، 315، 449

(494) برنامج التجيبي ص 266.

(495) نفسه ص 268.

(496) البرنامج ص 59، 244. 263. 266. 268.

أما في بلنسية فقد أشار في برنامجه إلى أنه سمع طائفة من كتاب الرقائق لأبي عبد الرحمان عبد الله بن المبارك المروزي على المقرىء النحوي الحافظ أبي إسحاق إبراهيم بن أحمد بن عيسى[497].

وهذا يدل على أنه تجول في بلاد الأندلس، أو على الأقل دخل مدينتي مالقة وبلنسية، وبعد أن حصل على ما شفى غليله من القراءة والسماع، ركب البحر دون شك نحو العدوة المغربية، لكننا لا نستطيع أن نحدد المرسى الذي نزل به، والمدينة التي كانت أول مرحلة له في البلاد المغربية نظرا لضياع الجزء الأول من الرحلة، ففي هذا الجزء يحتمل أن يكون التجيبي قد ألقى الضوء على الطريق ووسيلة الرحلة والمنازل التي تنقل بينها.

ولقد أوضح التجيبي نفسه سنة مروره ببجاية وذلك في إشارة عابرة بترجمة أبي محمد التوني في القطعة المنشورة من الرحلة يقول : «ومما رأيت أن اثبته في هذا الموضع ما أخبرنا به الشيخ الفقيه الامام المقرىء الخطيب الصالح أبو عبد الله بن صالح الكناني بقراءتي عليه ببجاية في محرم سنة خمس وتسعين وستمائة... أنه كان ينشد بيت حسان :

هجوت محمدا وأجبت عنه ... وعند الله في ذاك الجزاء»[498]

كما نقل التنبكتي عن هذا الجزء المفقود ترجمة المشدالي قائلا : «وقال التجيبي في رحلته لقيت ببجاية الشيخ الفقيه الامام أوحد الفضلاء الأعلام أبا علي منصور الزواوي المشدالي»[499].

ومن حسن الحظ أيضا أن التجيبي يشير في برنامجه إلى بعض ما استفاده ببجاية فقد قرأ وسمع على خطيب بجاية أبي عبد الله ابن صالح كتبا عديدة ككتاب الضعفاء للبخاري[500]، وكتاب الرياضة للحافظ أبي نعيم[501]، وكتاب القربة لابن

---

(497) نفسه ص 249.

(498) مستفاد الرحلة ص 65. 228. 269. 235. 328. 449.

(499) نيل الابتهاج ص 344.

(500) البرنامج ص 260.

(501) نفسه ص 255.

بشكوال[502]، وكتاب درر السمط في خبر السبط لابن الأبار قرأه عليه في 9 محرم سنة 695هـ[503].

كما قرأ بها على الامام المفتي القاضي ناصر الدين أبي علي منصور المشدالي كتاب الفوائد في اختصار المقاصد لعز الدين ابن عبد السلام[504]، ومختصر ابن الحاجب في الفقه[505].

ومن برنامجه أيضا ندرك بأنه تفرغ إلى الأخذ عن علماء تونس مدة كافية حتى استوعب كل ما كانت تزخر به تونس من نهضة علمية جذبت إليها كل الرحالة المغاربة كما ألمحنا سابقا.

وهكذا أمضى في هذا البلد وحده ما يقرب من السنة[506]، تتلمذ فيها لحوالي أربعة عشر شيخا من أهمهم.

ـ أبو العباس أحمد البطرني قرأ عليه التجيبي خمس آيات من القرآن.

وكتاب الأربعين المسلسلة المسندة المتصلة لأبي الحسن المقدسي ثبت في مجلسين آخرهما يوم الجمعة 11 شعبان 695هـ[507].

وكان قد لقيه من قبل كل من الرحالتين ابن رشيد[508]، والعبدري[509].

ـ أبو محمد عبد الله ابن هارون الطائي القرطبي نزيل تونس قرأ عليه كتاب الموطا لمالك[510]، لقيه العبدري[511] من قبل.

---

(502) البرنامج ص 253.

(503) نفسه ص 259.

(504) البرنامج ص 239 وأيضا ص 267.

(405) نفسه ص 272.

(506) البرنامج ص 259

(507) البرنامج ص 168.

(508) رحلة ابن رشيد 2 : 120

(509) الرحلة المغربية ص 275.

(510) البرنامج ص 53 مستفاد الرحلة. 220. 257. 331. 344.

(511) الرحلة المغربية ص 42.

ـ أبو محمد عبد الله بن يوسف الخلاسي البلنسي نزيل تونس قرأ عليه بها كتاب المختصر الموسوم لابن زكرياء اللغوي[512]، ولقد التقى به كذلك كل من ابن رشيد[513] والعبدري[514].

ـ أبو إسحاق إبراهيم بن يحيى بن يوسف السلوي قرأ عليه جزءا فيه أحاديث عوالي خماسية[515].

ويرجح أن الجزء الأول ينتهي في تونس، على غرار رحلة ابن رشيد السبتي مثلا، وإذا كنا قد وجدنا بعض حديث ابن رشيد عن الأسكندرية في بداية ما بقي من الجزء الثالث من رحلته فإننا في رحلة التجيبي لا نظفر بتفاصيل تنقلاته واتصالاته وسماعاته في مدينة الاسكندرية، فالقطعة الباقية المنشورة من مستفاد الرحلة تبتدىء من القاهرة، ولعل ما نقله التنبكتي في تحقيق وفاة ابن المنير كان من بداية الجزء الثاني التي تعتبر ضائعة الآن يقول التنبكتي «قلت وقد ذكرها أبو القاسم التجيبي في رحلته فقال صلينا بالأسكندرية بعد صلاة الجمعة ثالث عشر ذي الحجة سنة خمس وتسعين وستمائة على جماعة منهم الشيخ الفقيه الفاضل زين الدين الامام الفاضل وجيه الدين أبي المعالي محمد بن منصور بن المنير الاسكندري[516]

ونظرا لهذا البتروبسببه فإنا لانستطيع الاهتداء إلى معرفة الطريق التي سلكها التجيبي من تونس هل سلك طريق ابن رشيد فركب البحر نحو الاسكندرية ؟ أم أنه قطع الصحاري الليبية مثل العبدري ؟

لكننا من خلال الاشارة العابرة التي وردت عرضا في القطعة المنشورة من الرحلة، نستطيع تحديد وجهة التجيبي وطريقه إلى مصر، فلقد تحدث عما أجازه به ابن الدباغ عالم القيروان ومؤلف معالم الايمان يقول : «أخبرنا الشيخ الفقيه الامام الفاضل أبو زيد عبد الرحمن بن الشيخ الفقيه الصالح أبي عبد الله ابن الشيخ الفقيه أبي الحسن على ابن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد الأنصاري-رحمه الله

(512) البرنامج ص 136. مستفاد الرحلة 286، 313.

(513) رحلة ابن رشيد 2 : 45أ.

(514) الرجلة المغربية ص 197.

(515) البرنامج ص 234.

(516) نيل الابتهاج ص 203.

تعالى ــ كتابة غير مرة من مدينة القيروان حرسها الله تعالى»(517) كما أخذ عنه كتاب تاريخ دمشق لابن عساكر «أخبرنا به إجازة في الجملة من مدينة القيروان الشيخ الامام أبو زيد الأنصاري»(518)، فاستفادته منه كانت عن طريق المكاتبة والاجازة.

ولقد أشار التجيبي إلى بعض اتصالاته العلمية في مدينة الاسكندرية واستفادته من علمائها فذكر منهم خمسة أعلام أخذ عن اثنين منهم بالمكاتبة، بينما استفاد من الثلاثة الباقين عن طريق القراءة والسماع والاتصال المباشر.

فلقد حصل على سند عال في القراءات السبع أخبره به كتابة غير مرة قبل رحلته إلى الاسكندرية(519) الشيخان الجليلان الفاضلان شرف الدين أبو الحسين يحيى... ابن الصواف، وكمال الدين أبو الذكر أحمد... الدمراوي. ومن أهم الذين أخذ عنهم بالأسكندرية تاج الدين الحسيني الغرافي، حيث ذكر استفادته منه في الجزء المنشور من الرحلة مرات عديدة(520) كما ذكر رواياته عنه والأسانيد العالية التي حصل عليها منه في برنامجه(521)، ومن أمثلة هذه الروايات المشار اليها في الرحلة قوله : «أخبرنا السيد الشريف الفاضل عمدة الرحالين تاج الدين أبو الحسن علي بن السيد الشريف الامام الفاضل نور الدين أبي العباس أحمد عبد المحسن الحسني الغرافي نفع الله به وبسلفه الصالح، بقراءتي عليه بثغر الاسكندرية المحروس في شهر ربيع الآخر من سنة ست وتسعين وستمائة بدار الحديث النبيهية عن أنس قال : «ما مسست بيدي ديباجا ولا حريرا ولا شيئا ألين من كف رسول الله ــ ص ــ ولقد خدمت رسول الله ــ ﷺ ــ عشر سنين فوالله ما قال أف قط، ولا قال لشيء فعلته، لم فعلت هذا، ولا لشيء لم أفعله إلا فعلت كذا»(522).

---

(517) مستفاد الرحلة ص 319.

(518) نفسه ص 239.

(519) البرنامج ص 23 ــ 24

(520) مستفاد الرحلة : 103. 121. 144. 162. 237. 252. 291. 295. 328. 358. 360. 387. 395. 428.

(521) البرنامج ص 41. 73. 112. 120. 145. 148. 154. 157. 181.

(522) مستفاد الرحلة ص 93.

ومن قراءاته الكثيرة عليه، كتاب الاعتبار في ناسخ الحديث ومنسوخه لأبي بكر محمد الحازمي(523)، ومسند الامام الشافعي(524) والشمائل للترمذي(525)، وثلاثيات الجامع الصحيح للبخاري(526)، وجزء من الحديث لابن زنبور(527)، وكتاب الأربعين لأبي طاهر السلفي(528)، وغيرها من الكتب والأسانيد(529)، ولقد قرأ أيضا على الشيخ الفقيه الفرضي الحسابي أبي محمد عبد الله الجدميوي الصودي نزيل الاسكندرية كتابه نهاية الرائض في خلاصة الفرائض قرأ جميعه عليه بالأسكندرية بمسجد أبي الدرداء في مجالس آخرها ليلة التاسع من ربيع الثاني سنة 696هـ(530).

وسمع كتاب الشهاب للقاضي أبي عبد الله القضاعي على الشيخ الفقيه الصالح المعمر زكي الدين أبي محمد عبد المحسن الشافعي الفوي، ثبت هذا السماع والاجازة بمدرسة ابن بصاصة بالأسكندرية في سنة 696هـ(531).

فهذه الاشارات العابرة تعطي نظرة على القراءات والسماعات والاجازات التي حصل عليها في الاسكندرية من لقائه للشيوخ وملازمته للعلماء، ونعتقد أن التجيبي قد تناول كل هذا بتفصيل في البداية الضائعة من الجزء الثاني المنشور من الرحلة، جريا على منهجه في الترجمة للعلماء الاعلام، وذكر الطرق والأسانيد المختلفة، ومن حسن حظنا أنه ابتداء من القاهرة نعرف تنقلات التجيبي بوضوح، فلا نحتاج حينئذ إلى تخمين، أو ظن، أو تأمل، فما دونه عن هذه المرحلة قد سلم من الضياع والتلف.

وهكذا تصف القطعة المنشورة من الرحلة بعض ما رآه بالقاهرة من آثار وشيوخ، كما تتحدث عن قرى ومنازل مر بها التجيبي في طريقه إلى الحجاز حيث قطع هذه

---

(523) البرنامج ص 145.

(524) نفسه ص 120.

(525) نفسه ص 112.

(526) البرنامج ص 73 وثلاثيات البخاري هي إثنان وعشرون حديثا يصل الامام البخاري فيها برسول الله — ص — ثلاثة رواة فقط جمعها الحافظ ابن حجر وغيره وشرحها غير واحد.

(527) نفسه ص 157

(528) نفسه ص 154.

(529) البرنامج ص 169. 174. 178. 180. 181.

(530) البرنامج ص 274 — 275

(531) نفسه ص 148.

المسافة في نحو خمسة أشهر، كما اهتمت هذه القطعة أيضا بمكة وآثارها والأماكن التي يقصدها الحاج تبركا أو فرضا، ويتحدث التجيبي فيها عمن التقى بهم هناك، وبالنظر إلى هذه القطعة المنشورة تتبين النظرة النقدية الصائبة لابن حجر حين يقول عن الرحلة عامة «وقد حذا فيها حذو ابن رشيد، وكان رحل قبله بنحو عشر سنين، وزاد هو على رحلة ابن رشيد بتضمين الرحلة مشيخة له مستوعبة يذكر ترجمة الشيخ وما يمكن من مروياته، ويبين ما سمعه منه بأسانيده ويخرج عنه بعد ذلك شيئا من حديثه وفوائده وإنشاداته، ويفعل ذلك في كل بلد دخلها»(532).

وما قاله ابن حجر يكفي في التعرف على منهج التجيبي، على الأقل في ترجمته للشيوخ والاعلام الذين التقى بهم، فأخذ عنهم أو حصل منهم على الاجازة، أو روى عنهم أسانيد عالية... إلا أن هناك جانبا آخر لم يدخله ابن حجر في اعتباره، وهو أن اهتمام التجيبي لم يكن منصبا على الروايات مقتصرا على ذكر الاعلام والشيوخ فقط، ولكنه لم يكن يغفل في طريقه وتجواله ذكر المعالم والآثار والمشاهد التي وقعت عليها عيناه، والعادات والتقاليد والمذاهب التي أثارت اهتمامه وفضوله، فلم تكن زيادته إذن على ابن رشيد تضمينه مشيخة مستوعبة فقط، ولكنه زاد عليه أيضا في هذا الجانب الجغرافي الاجتماعي.

ولقد ترجم في هذه القطعة المنشورة التي تمثل معظم الجزء الثاني لستة وعشرين علما التقى باثنى عشر منهم في القاهرة واثنين بقوص والباقي بمدينة مكة المكرمة.

وبطبيعة الحال أن الذين خصهم بالذكر ليسوا كل علماء القاهرة ومكة في عصره وإنما هم يمثلون نخبة ممن سمحت له الظروف بلقائهم. يقول التجيبي ممهدا لذكر من التقى بهم في القاهرة : «وإن كان لم يطل مقامي بهذه الحضرة السنية فاستوفي غرضي من لقاء من بها من الأئمة الأعلام من أهلها ونزلائها لزاعج السفر منها للوجهة الحجازية شفعها الله تعالى بأمثالها، فقد يسر الله تعالى لقاء طائفة من أعلام فضلائها، وصدور رواتها واستدركت أيضا بعضا مما فاتني في هذه التربة بعد صدوري من حج بيت الله الحرام تقبل الله تعلى ذلك وجعله خالصا لوجهه الكريم»(533).

---

(532) الدرر الكامنة 3 : 240.

(533) مستفاد الرحلة ص 15.

ومن أهم هؤلاء الذين ذكرهم وتحدث عن أسانيدهم :

1 ــ تقي الدين أبو الفتح ابن دقيق العيد، وهي شخصية معروفة جدا لدى المغاربة يحرص الكل على لقائه والأخذ عنه، فلقد لقيه من قبل كل من ابن رشيد والعبدري، ولعل حديث الرحالين عنه بكثرة بعد رجوعهم إلى المغرب زاد المغاربة به معرفة وتعلقا إلى أن أضحت كتبه فيما بعد مقررة بالقرويين واستمرت كذلك إلى النصف الأول من هذا القرن[534] ترجم له التجيبي بما يزيد على عشرين صفحة، وهذا يدل على إعجابه بمستواه العلمي ذلك الاعجاب الذي لخصه بقوله : «ولم أر في كثير ممن لقيت من يقاربه في معارفه، ولا رأيت أجمع لفنون العلم منه وما وصف لي رجل إلا وجدته دون ما قيل لي إلا تقي الدين هذا نفع الله به وكان كما قال الشاعر :

وكان من العلوم بحيث يقضي   له في كل علم بالجميع»[535].

ومن الجدير بالذكر أن هذا الاعجاب كان متبادلا، إذ قرب ابن دقيق العيد التجيبي واستفهمه عن علماء المغرب ومشايخه ومتقدمي فضلاء الأندلس واختاره ليستخرج مصنفاته من المبيضات لولا ضيق وقت مقام التجيبي بالقاهرة نظرا لتلهفه للفريضة والزيارة، فانصرف عنه التجيبي وهو يقول «ولو لم يركب ثبج البحر إلا للقاء هذا الامام الفاضل لكانت الصفقة رابحة والوجهة ناجحة»[536]، كما يقول عنه «أجل من لقيناه وأعلم من رأيناه»[537].

ومما أخذه عنه كتابه الاقتراح في مصطلح الحديث، وأربعون حديثا تساعية الاسناد، وأشعار مختلفة[538].

2 ــ شرف الدين أبو محمد عبد المومن التوني الدمياطي[539]، وهو من الذين اشترك مع ابن رشيد في الأخذ عنهم، ورواية أسانيدهم، لقيه التجيبي قبل الحج

(534) الوافي بالأدب العربي 2 : 626

(535) مستفاد الرحلة ص 17.

(536) مستفاد الرحلة ص 21.

(537) نفسه ص 21.

(538) نفسه ص 37.

(539) ترجمته في مستفاد الرحلة ص 37 ــ 82

وبعده، فاستفاد منه الكثير إذ سمع عليه أحاديث وأشعارا، وحصل منه على الاجازة بخط يده مرات[540] كما حمل إجازة رواياته لجميع أهل سبتة في جمادى الأولى من سنة ست وتسعين وستمائة[541].

لذلك كان التجيبي محترما شيخه هذا مظهرا اعتزازه بالرواية والأخذ عنه يظهر هذا من إسهابه في تحليته له في ترجمته فوصفه بأنه «الشيخ الفقيه الامام العلامة النسابة الرحالة في كتب الحديث، الجماعة له الطلابة أعجوبة زمانه في علم الأنساب، عمدة المشائخ والأصحاب، خاتمة المسندين»[542].

فلا عجب إذا خصه بأكبر ترجمة في رحلته هذه، وظل بقية حياته يثني عليه وعلى أخلاقه العلمية يقول عنه بأنه «صاحب أصول صحاح لا يبخل بها وقد أعارنا الأجزاء، ووهب لنا التصانيف، ودلنا على المشائخ لنسمع منهم، جازاه الله بالحسنى، وقد حدث وأملي بالشام والعراق وديار مصر وغيرها من الآفاق»[543]، ولذلك سمع منه الفضلاء ورحل إليه الناس من الأمصار والبلدان المختلفة[544].

ومن هنا كان اعتماد التجيبي عليه أقوى وأكثر من غيره، ففي كثير من روايات التجيبي عن الشيوخ، يتوقف على سند التوني الدمياطي، مما يدل على احتكاكه به كثيرا، وتلمذته عليه، وتأثره به في كثير من تأويلاته وآرائه[545].

3 ــ بهاء الدين أبو عبد الله محمد ابن النحاس الحلبي نزيل القاهرة ورغم أن التجيبي لم يفرد له ترجمة وافية[546] كسابقه، إلا أنه أضفى عليه من النعوت والصفات ما يبرز مكانته العلمية عنده، فلم ير التجيبي «بالحجاز الشريف والشام والثغر والمصر والقاهرة والصعيد الأعلى وكثير من بلاد الاسلام من يقاربه في التحقيق لصناعة العربية والتحقيق لغوامضها، والاستبحار في علم اللسان العربي ممن

---

(540) مستفاد الرحلة ص 51.

(541) نفسه ص 82.

(542) نفسه ص 53.

(543) مستفاد الرحلة ص 38.

(544) نفسه ص 38.

(545) انظر ص 120 مثلا من مستفاد الرحلة.

(546) مستفاد الرحلة 82 ــ 88.

له النظم الجيد والنثر الرائق»[547]، وكانت له معرفة بالخلافيات قصده التجيبي مثل سابقه ابن رشيد في منزله بالقاهرة[548]، فقرأ عليه وروى عنه أحاديث كثيرة، وحصل منه على الاجازة بخط يده.

ولقد بلغ التجيبي نعي ابن النحاس في سنة (698)[549]، ولا ندري هل كان التجيبي قد فارق الشام أم زال ينتقل بين مجالسه العلمية ؟

4 ــ الضياء أبو الهدى عيسى السبتي الصوفي[550] نزيل القاهرة، ولقد سبق أن التقى به ابن رشيد أيضا في القاهرة، فكتب له نفس أبياته في الاجازة التي خص بها التجيبي فيما بعد وهذه الأبيات هي[551].

أجزت لمن سمي بها ما تجوزلى   روايته بالشرط في كل مسند
تلفظت نطقا بالاجازة معلنا   وكاتبه عيسى بن يحيى بن أحمد
ولدت بعام من ثلاث وعشرة   وست مئين هجرة لمحمد
تصوفت قدما بالحجار وانني   بمصر هو المربي وسبتة مولد

ومما زاد التجيبي تعلقا بالضياء السبتي أنه كان كثير الحفظ للأحاديث النبوية، متنوع السماع بمصر والحجاز، ولذلك فمن جملة مروياته صحيح البخاري ومسند الشافعي، وجامع الترمذي، وسنن النسوي والدارمي ومعالم السنن للخطابي[552].

وكان قد قرأ عليه التجيبي بالمدرسة الظاهرية في القاهرة بمحضر شيخه شرف الدين التوني[553]، فأخذ عنه أخبارا وروايات حديثية كثيرة، وسجل التجيبي بأن وفاته كانت بالقاهرة في رجب الفرد من سنة 696هـ[554]، بعد أن كان قد غادرها التجيبي، إذ رحل عن مصر ميمما الحجاز عشية الجمعة 19 جمادى الأولى سنة

---

(547) نفسه ص 83.

(548) نفسه ص 83.

(549) نفسه ص 88 شذرات الذهب 5 : 442.

(550) مستفاد الرحلة ص 88 ــ 97.

(551) مستفاد الرحلة ص 91، رحلة ابن رشيد3 : 95 ب.

(552) مستفاد الرحلة ص 89 ــ 90.

(553) نفسه ص 91.

(554) نفسه ص 97.

696هـ[555]، ورغم تعجل التجيبي وتاهبه للسفر إلى الحجاز إلا أنه مع ذلك كان دائب البحث عن العلماء والشيوخ، للأخذ عنهم أو التبرك بهم.

5 ـــ فيلتقي بنزيل القاهرة أبي حيان الجياني[556] الذي يحليه بصاحبنا الفقيه النبيل الامام النحوي الأديب الجليل، ولقد التقى به في دكانه الذي يعقد فيه الشروط بالقاهرة من مشهد الحسين عليه السلام[557] فأنشده قصائد وأبياتا من شعره تظهر امتلاكه لهذه الموهبة[558].

6 ـــ كما روى التجيبي أشعارا عن الفقيه المحدث الأديب أبي الحسن علي بن جابر المعروف بالنور اليمني[559].

7 ـــ والتقى أيضا بأبي محمد عبد الرحمن ابن خليفات[560] القاهري المنعوت بالشجاع فهو وإن وصفه بأنه «شيخ لا بأس به وبسيرته، مقل في الحديث مكثر من الحب في أهله ملازم لخدمة المشائخ وأهل الخير»[561] إلا أنه روى عنه أحاديث وأخذ أسانيد بقراءته عليه بالمدرسة الظاهرية وبمدرسة الملك بيبرس.

8 ـــ والتقى التجيبي أيضا في القاهرة بالشيخ الأجل الصالح الثقة الضابط المتفنن المفيد الكامل أبي محمد الحسن بن علي المصري القاهري المنعوت بالشرف[562] الذي كان له ميعاد للتدريس بالمدرسة الفارقانية وصفه بأنه «كان شيخا جليلا ومحدثا فاضلا نبيلا، ممن جمع بين معرفة المتون والأسانيد مع كرم الطباع وحسن اللقاء والالقاء»[563] ويعد من أهم من روى عنهم بالقاهرة الأحاديث والأسانيد العالية، وسمع منهم أشعارا جيدة، ومن هذه الأشعار ما أنشده وقد تعذرت عودته إلى مكة والمدينة فقال في مطلعها[564] :

---

(555) نفسه ص 168.

(556) مستفاد الرحلة ص 140 ـــ 142

(557) مستفاد الرحلة ص 141.

(558) مستفاد الرحلة ص 141 ـــ 142

(559) نفسه ص 138 ـــ 140.

(560) نفسه ص 132 ـــ 137.

(561) نفسه ص 132.

(562) نفسه ص 119.

(563) مستفاد الرحلة ص 119.

(564) مستفاد الرحلة ص 130

لئن بعدت عني ديار التي أهوى   فقلبي على طول التباعد لا يقوى

توفي بالقاهرة ليلة الأربعاء 21 ذي الحجة سنة 699هـ وبلغ التجيبي ـــ الذي ربما كان قد عاد إلى وطنه ـــ بأن جنازته كانت مشهورة[565].

9 ـــ ومن المتصوفة الذين التقى بهم التجيبي وأثنى عليهم، نجد أبا الحسن علي بن هارون بن محمد الثعلبي[566] الشامي ثم الدمشقي نزيل القاهرة المنعوت بالنور، وصفه في مستفاد الرحلة بأنه «شيخ صالح، مسمت، حسن اللقاء، يبدو عليه أثر الخشوع وسيماء الصالحين، نفع الله به وبأمثاله»[567].

10 ـــ والتقى أيضا «بالشيخ الصالح الزاهد العابد المتبتل المنقطع إلى الله تعالى أبي عبد الله محمد بن أحمد الخرسي المحتد التلمساني المولد، القاهري المنزل، المنعوت بالموفق المشهور بالخراساني نفع الله به»[568].وصفه كذلك بأنه «عمدة السالكين الناسكين وأحد أولياء الله تعالى الصالحين»[569]

وهو ممن جمع بين الزهد والعلم فلقد ذكر التجيبي بأن من مروياته صحيح مسلم، ومن تآليفه العمدة الكافية في طريق أهل العافية، واللباب في تاريخ العلماء[570].

قرأ عليه التجيبي أجزاء كثيرة وأحاديث وأشعارا.

وينجذب التجيبي إلى روضات القرافة لأنها كما يقول محتوية على «أعضاء العلماء والفضلاء والأولياء والصلحاء والزهاد المشهورين والرؤساء المذكورين وغير ذلك من سائر البشر مالايحصيهم إلا خالقهم الذي أماتهم وهو يحييهم»[571]

11 ـــ وممن كان يسكن إحدى روضات القرافة شيخ التجيبي المسند الرحالة أبو المعالي الا برقوهي[572] الذي قال عنه شرف الدين الدمياطي : «هو أنشد من

(565) نفسه ص 131.

(566) نفسه ص 108 ـــ 112.

(567) نفسه ص 108.

(568) نفسه ص 97.

(569) نفس المصدر والصفحة.

(570) نفسه ص 99.

(571) مستفاد الرحلة ص 142ـــ143

(572) نفسه ص 146 ـــ 163.

بديار مصر في هذا التاريخ»[573]، وصفه التجيبي بأنه «انفرد بمصر بكثير من مسموعاته فدخل أصحاب الحديث إليه من جهات مختلفة، واشتهر بعلو الاسناد»[574]، وهكذا تأتي له الحصول على مرويات وسماعات وإجازات عديدة في السنن والسيرة النبوية والتصوف[575].

أخذ عنه التجيبي أسانيد عالية، وروى عنه أشعارا مختلفة، كتب له بخطه إجازته له في جميع مروياته[576].

وهذا آخر من التقى بهم في القاهرة من الشيوخ والأعلام، إذ ينفصل التجيبي بعد ذلك عنها متوجها إلى الحجاز صحبة الركب، وبعد خمسة وعشرين يوما من رحيله عن القاهرة يصل إلى قوص التي يصفها التجيبي بأنها «مدينة عظيمة آهلة عامرة»[577] فبقي بها فترة مهمة من رحلته إذ مكث بها حوالي اثنين وعشرين يوما، وهذه المدة لم تحظ بها مدينة أخرى كالقاهرة مثلا، ربما يعود ذلك إلى ما ألمح إليه التجيبي من حسن معاملة القوصيين للغريب عنهم يقول «وبالجملة فأهل الوجاهة والرئاسة في هذه البلاد يعتنون بالحجاج ويحسنون الظن بهم والله تعالى ينفعهم بنياتهم»[578]

وعلى أي حال فإن التجيبي قد استغل وجوده بهذه المدينة أحسن استغلال إذ حرص على لقاء علمائها والاستفادة منهم، فخص اثنين منهم بالترجمة :

أولهما أبو القاسم هبة الله بن عبد الله القفطي القوصي[579] قدمه بقوله «ممن عنده ميز لكثير من العلوم، ولديه تحقيق وتدقيق للنص والمفهوم، وقد أقرأ وأفاد، وصنف التصانيف المفيدة منذ سنين عديدة»[580] ولقد ذكر له ثلاثة عشر تآليفا من هذه المصنفات[581] المتنوعة.

---

(573) نفسه ص 147.

(574) مستفاد الرحلة ص 147.

(575) نفسه ص 149 ـ 153.

(576) نفسه ص 143 ـ 163.

(577) نفس ص 173.

(578) نفسه ص 174.

(579) مستفاد الرحلة ص 175 ـ 186.

(580) نفسه ص 175.

(581) نفسه ص 177.

قرأ عليه التجيبي بالمدرسة السابقية في قوص أكثر هذه الكتب والمصنفات ووهب له بعض نسخها كما أجازه جميع هذه التآليف وسائر الروايات والأسانيد التي اشتهر بها.

أما ثانيهما فهو الفقيه الأديب أبو محمد مسعود الحراني النسوي[582] المعروف بابن الصلاح.

قرأ عليه التجيبي بداره بقوص أحاديث مروية كحديث «الراحمون» كما أنشده بداره أيضا أشعارا لأبي العباس الأنصاري وأبي حفص الفارقي وأبي يحيى يوسف الحنبلي[583]، وأنشده كذلك ثماني قصائد فرعها ابن الصلاح على قصيدة أبي يحيى يوسف الأنصاري ومطلعها[584] :

بدا لنا وجه محبوب لنا صلف تحت الدجى جاب عنا حندس الظلم

وأنشده ابن الصلاح أيضا بيتين أجازه فيهما، كان ابن الصلاح قد أجيز بهما أيضا من طرف أبي الربيع سليمان المعروف بالهدهد وهذان البيتان هما[585] :

أجزت لهم كل الذي قد سمعته وكل إجازاتي ومالي من نظم
على شرط أرباب الحديث وضبطهم روايته والله ينفع بالعلم

وحل ركب التجيبي أخيرا بمكة في ليلة السبت الخامس عشر من رمضان المعظم سنة 696[586] فساعده وصوله المبكر إليها على التعرف على كل ما يتعلق بهذا البلد الأمين عمرانيا وبشريا، وهكذا تحدث بتفصيل عن أسماء مكة[587]، وأبوابها[588]، وحدود حرمها[589]، والمسجد الحرام وما يتعلق به من البناء، والحجر الأسود،

(582) نفسه ص 186 ــ 196.

(583) نفسه ص 188 ــ 190.

(584) نفسه ص 189 ــ 196.

(585) مستفاد الرحلة ص 186.

(586) مستفاد الرحلة ص 225.

(587) نفسه ص 230 ــ 232..

(588) نفسه ص 232 ــ 233.

(589) نفسه ص 233 ــ 240.

والركن اليمان، وزمزم والمقام[590]، كما خصص حيزا مهما لما حول مكة من الأماكن التي لها علاقة بمناسك الحج وفروضه، أو التي يرتبط ذكرها بأحداث ومواقف تاريخية معينة، كحديثه عن منى، ومسجد الخيف، وغار قريب منه، ومسجد الكبش[591]، وجبال مكة[592]، وكان في كل هذا ملما بالأخبار، ذاكرا الروايات التاريخية المختلفة مقارنا بينها، متحققا بنفسه من صحتها أو بطلانها، منبها إلى ما طرأ على المعالم والآثار من تغيير بالزيادة أو التوسيع أو الترميم معتمدا في كل أحكامه وآرائه على المصادر التي اختصت بتاريخ مكة أو عرضت له، ككتاب أخبار مكة للأزرقي، ورحلة ابن جبير، وتاريخ القضاعي، وتاريخ مدينة دمشق لأبن عساكر، والأماني الصادقة لأبي عبد الله الأزدي الحميدي، وصحيح البخاري، والاستيعاب لابن عبد البر، إضافة إلى ما روي في شأن مكة من أحاديث وأخبار.

ولم تنسه زياراته الكثيرة إلى هذه الأماكن مما بداخل مكة أو خارجها الاهتمام بالعلم والعلماء، كما لم يثنه حرصه الشديد على العبادة وتأدية الصلوات في المسجد الحرام، عن الجلوس إلى العلماء والأخذ عنهم، والتبرك بالزهاد والعباد.

فترجم لسبعة من هؤلاء العلماء، وخمسة من الزهاد أيضا.

1 ـــ فمن أهم العلماء الذين التقى بهم الشيخ، الفقيه، الصالح الفاضل العابد الزاهد العالم الكامل أبو الحسن عبد الرحمان الشافعي المكي المنعوت بالعماد المشهور أبوه بالطبري[593].

ولا شك أن التجيبي كان يلازمه في كثير من الأوقات التي جاور فيها بمكة إذ هو الذي دله على كثير من المشاهد والآثار بها[594]. لذلك أطلق عليه كهف المجاورين وملاذهم[595]، ولقد قدمه التجيبي بأوصاف تدل على التقدير الذي يكنه له، والمكانة التي كان يحظى بها العماد لدى الجميع يقول «وهو أحد أولياء الله

---

(590) نفسه ص 240 ـــ 342.

(591) نفسه ص 342 ـــ 349.

(592) نفسه ص 349 ـــ 362.

(593) مستفاد الرحلة ص 362 ـــ 375.

(594) نفسه ص 345.

(595) نفسه ص 372.

الصالحين وعباده المجتبين المعروفين بالفضل والدين المتين، مع صدق اللهجة، وكثرة التواضع، وصحة المذهب، وحسن الخلق، وجميل السيرة، وعفة النشاة حتى صارت له في قلوب المكيين والقادمين عليهم مكانة جليلة ومنزلة رفيعة»[596]. ولقد سمع عليه التجيبي جميع صحيح مسلم، وأحاديث بأسانيد عالية كحديث التلبية، وحديث الدعوة إلى الوليمة، وحديث نصيحة العبد لسيده، وحديث الرقية من كل أذى وتم هذا السماع بمنزله خلف قبة الشراب بالمسجد الحرام وذلك في عدة مجالس آخرها يوم الجمعة غرة ذي الحجة سنة 696هـ[597] كما حصل منه على الاجازة[598].

2 ــ ولقد تيسر له أثناء تردده على شيخه العماد في بيته، لقاء أخيه أبي الحسين يحيى المكي، إلا أنه لم يأخذ عنه نظرا لانشغاله في بعض أودية مكة بحديقة لهم هناك فيها نخل وكرم وعنب وليمون، بعد أن اجتاحهم جراد في تلك السنة ولقد وعده بالسماع فلم يتيسر ذلك لضيق الوقت والانشغال بالخروج إلى الوقفة المباركة[599].

3 ــ أما أهم من التقى بهم في مكة فهو أبو إسحاق إبراهيم الطبري المكي[600] وهو أحد فقهاء مكة وفضلائها وصفه بأنه «صبور على الجلوس للغرباء، كثير التحمل لجفائهم يقعد لهم في شدة الحر ويطيل الجلوس»[601]. ويبدو مما ذكره له من مشائخ ومرويات بأنه عالم متين التكوين في الشريعة والسيرة والسنة النبوية[602].

قرأ عليه التجيبي في عدة مجالس[603] عدة كتب، منها كتاب المجالس المكية للميانشي، وكتاب الأربعين المختارة لابن مسدى، وكتاب خلاصة البشر للطبري، كما روى عنه أحاديث بأسانيد عالية وأنشده أشعارا كثيرة.

---

(596) نفسه ص 362.

(597) مستفاد الرحلة ص 369.

(598) نفسه ص 375.

(599) نفسه ص 375 ــ 380.

(600) نفسه ص 380.

(601) نفسه ص 380.

(602) نفسه ص 381 ــ 388.

(603) نفسه ص 388.

4 ـــ والتقى أيضا بأبي عمرو عثمان التوزري[604] المالكي الذي يبدو من خلال ما ذكر له التجيبي من مرويات كثيرة بأن تكوينه لا يقل عن سابقه[605]، أخذ عنه التجيبي بالحرم الشريف في مجالس عديدة أولها كان في أول يوم وصوله إلى مكة في 15 رمضان وآخرها كان في 17 من ذي القعدة[606]، وحصل منه على الاجازة تلفظا وكتابة[607].

5 ـــ ولقد أخذ كذلك بمجلس التوزري عن شيخ آخر هو أبو الفداء إسماعيل المصري[608] فقرأ عليهما مجتمعين أول صحيح البخاري وذلك بازاء باب إبراهيم تجاه الكعبة المعظمة.

ولقد حصل التجيبي من أبي الفداء على الاجازة بجميع مروياته[609]

6 ـــ والتقى بمكة بأبي محمد عبد الله الدلاصي[610] الذي وصفه بأن «أوقاته كلها مستغرقة في العبادة والذكر وإقراء القرآن العظيم حتي لقد رأيت من القراء من يعرض عليه وهما يطوفان بالبيت الشريف»[611]، قعد بين يديه في موضع بباب الجزورة من المسجد الحرام كان يقرىء فيه القرآن وذلك في 24 ذي القعدة فذكر له كرامة رؤيته الرسول في النوم، وصلاته في صف العشرة المشهود لهم بالجنة وراء النبي ﷺ، حصل منه على الاجازة مرتين[612].

7 ـــ وآخر من التقى بهم من العلماء في مكة هو شمس الدين أبو عبد الله الجياني[613] الشافعي نزيل مكة، وهو أيضا له مرويات ومسموعات كثيرة[614] قرأ

(604) مستفاد الرحلة ص 415 ـــ 432..

(605) نفسه ص 415 ـــ 425.

(606) نفسه ص 425..

(607) نفسه ص نفسه 432.

(608) نفسع ص 432 ـــ 433.

(609) نفسه ص 433.

(610) نفسه ص 433 ـــ 437.

(611) نفسه ص 433.

(612) نفسه ص 437.

(613) نفسه ص 437 ـــ 452.

(614) نفسه ص 438 ـــ 441.

عليه التجيبي بالمسجد الحرام كتبا في الحديث والفقه[615]، كما روى عنه أحاديث بأسانيد عالية كحديث تعجيل الفطر، وحديث «الرحمون» بسند «وهو أول حديث سمعته منه»[615 مكرر].

وروى عنه كذلك أشعارا كثيرة كالفائية التي أنشده إياها قبالة البيت المشرف في 5 ذي القعدة عام 696هـ،

ببابك عبد من عبيدك واقف على وجل مما به أنت عارف

فأنشدها التجيبي بدوره على رفيقه القبتوري الذي استحسنها وخمسها في 8 ذي القعدة بمنزله من البلد الأمين[616]. كما حملها إلى القاضي أبي الحجاج الطرطوشي السبتي فاستحسنها أيضا ووضع لها تخميسا وكتبه له بخطه في بلده سبتة[617]، حصل التجيبي على إجازة الجياني كتابة بخطه، وكان قد كتب له بهذه الاجازة من قبل[618].

أما الزهاد الخمسة فهم على التوالي :

1 ـ نجم الدين العجمي[619] لقيه في الطواف ورغب في أن يدعو له فقال له نعم ولم يزده على ذلك.

2 ـ أبو عبد الله ابن المطرف[620] لقيه التجيبي برباط الموفق بمكة ببيت سكناه منه ولقد رغب في أن يدعو له أيضا.

3 ـ أبو محمد الهروي[621] لقيه كذلك في الطواف فسأله عن بلده ودعا له بخير.

---

(615) نفسه ص 441 ـ 442.
(615 مكرر) نفسه ص 442ـ446.
(616) مستفاد الرحلة ص 451.
(617) مستفاد الرحلة 451 ـ 452.
(618) نفسه ص 452.
(619) نفسه ص 455.
(620) نفسه ص 455 ـ 456.
(621) نفسه ص 456.

4 ــ أبو علي النجار[622] أعرب التجيبي عن تقديره له نظرا لتواضعه وحبه لأبناء بلده المغاربة يقول التجيبي : «وكانت له في نفسي مكانة علية فكنت إذا رأيته ابتدرت القيام إليه إجلالا له وتعظيما، فكان ينهاني عن ذلك تواضعا منه ويقول لي لا تفعل ذلك فإني مغربي وأهل المغرب لا يقوم بعضهم إلى بعض»[623].

5 ــ وآخر هم هو الزاهد السياح في الأرض ابن صدقة[624]، البصري لقيه أولا في مكة ببيت شيخه عماد الدين المكي فجالسه، ثم لقيه ثانيا بالمدينة المنورة.

وبالزاهد ابن صدقة يكون التجيبي قد أنهى ما أراد ذكره «من أهل مكة وعلمائها ورواتها وصلحائها»[625]، ليعود بعد ذلك إلى الحديث عن بعض ما عاينه بهذا البلد الأمين وبعرفات، فيذكر أمثلة لبعض العادات والأفعال التي يقوم بها المكيون والوافدون على مكة في موسم الحج وفي شهر رمضان الكريم، كقراءة المصريين للقرآن بالتلاحين «فكانت تكاد تخشع لحسن أصواتهم الجمادات»[626]، وكمظهر إنفاق أهل اليسار بسخاء طيلة شهر رمضان المبارك[627] وكطريقة الاحتفال بعيد الفطر المبارك[628]، وكإشراف زعيم الشيبيين على غسل الكعبة[629].

وهكذا ينتهي النص المنشور والرحالة التجيبي لم يكمل حجته بعد، فهو قد أخذ طريقه نحو عرفات من أجل الوقفة، وهذا دليل على أن هناك قسما مهما من هذا الجزء قد ضاع لأن سياق الرحلة يقتضي أن يتعرض المؤلف لباقي مناسك الحج بتفصيله المعهود، ثم يشد الرحلة إلى المدينة المنورة ولقد أشار إلى هذا بما يشبه المخطط لهذا الفصل المبتور بقوله : «وهذا فصل أثبت فيه إن شاء الله تعالى ما بقي علينا ذكره مما عايناه بالبلد الأمين ــ أعاد الله تعالى إليه على السنة في ذلك ــ وبعرفات

---

(622) نفسه ص 456 ــ 457.

(623) نفسه ص 457.

(624) نفسه ص 458.

(625) نفسه ص 458.

(626) نفسه ص 459.

(627) نفسه ص 463.

(628) نفسه ص 463 ــ 465.

(629) مستفاد الرحلة ص 465.

وغيرها من المواضع الشريفات، إلى أن توجهنا إلى مدينة الرسول ـــ ﷺ ـــ أعادنا الله تعالى إليها على السنة في ذلك»[630].

ولهذا يغلب على الظن أن الجزء الثاني الذي بقيت منه القطعة المنشورة يشمل ـــ إلى جانب ما خصصه لوصف القيام بفريضة الحج ـــ وصفه للأماكن التي يصادفها الحاج في طريقه بين مكة والمدينة ثم وصفه لما تزخر به مدينة الرسول عليه السلام من آثار ومزارات، وأماكن يرتبط ذكرها بأحداث إسلامية مهمة.

ولا شك أيضا أن إقامته في المدينة المنورة كانت حافلة بلقاء العلماء والأخذ عنهم والحصول على الروايات والأسانيد العالية، والأشعار التى قيلت في مدح الرسول وزيارة قبره عليه السلام، إلا أننا مع الأسف لا نملك إلا إشارة عابرة حين حديثه عن لقاء ابن صدقة بمكة يقول : «لقيته بمكة وجالسته ببيت شيخنا عماد الدين المكي ـــ رضي الله عنهما ـــ ثم لقيته بمدينة الرسول ـــ ﷺ ـــ»[631].

أما باقي رحلة التجيبي أو ما نفترض أن يضمه الجزء الثالث المفقود من الرحلة فإن كل تفاصيله قد ضاعت بضياعه، لكننا بتتبعنا لما ورد في البرنامج، أو ما نعثر عليه من إشارات عابرة في النص المنشور من الرحلة يمكننا رسم طريق باقي الرحلة، ومعرفة الأماكن التي زارها التجيبي بعد أن انتهى من تأدية الفريضة وزيارة قبر الرسول.

وهكذا تفرغ في الشام عامة ودمشق خاصة للقاء العلماء والشيوخ، فالتقى بحوالي الخمسين منهم، مما يجعلنا نعتقد أنه قضى هناك فترة طويلة جلس فيها للعلماء والشيوخ، وإذا كنا قد رأيناه من قبل في مصر متعجلا[632] لم يتح له اللقاء إلا بإثني عشر من العلماء والمتصوفة، فإنه الآن في الشام وبعد أن أكمل حجه لم يبق له هدف آخر من الرحلة غير الأخذ عن الشيوخ وتنويع الرواية والسند، ومن أهم هؤلاء العلماء الذين التقى بهم في الشام :

1 ـــ بهاء الدين أبو الصبر أيوب ابن النحاس الحلبي مستوطن دمشق، ذكر التجيبي بأنه قرأ عليه بدمشق حديث «انظر ما يؤذي المسلمين فنحه عن

(630) مستفاد الرحلة ص 458.

(631) نفسه ص 457.

(632) نفسه ص 15.

الطريق»[633]، وأشار إلى أنه سيترجم له في رحلته بالقسم الخاص بالشام[634].

وذكر في البرنامج بأنه قرأ عليه مائة حديث منتقاه من صحيح البخاري وذلك في دمشق بمدرسة الحنفية[635].

2 ـــ شرف الدين أبو الفضل أحمد ابن عساكر، ولقد استفاد منه التجيبي كثيرا إذ ذكره مرات عديدة في كل من النص المنشور من الرحلة والبرنامج، وأثنى عليه فيهما معا فحلاه «بالشيخ المسند المعمر الأصيل عمدة الرحالين»[636] وزاد في البرنامج «المجزل حظ ذويه من خدمة الحديث وأهله»[637] وقرأ عليه في كل من الجامع الأموي[638] والكلامية[639] وكلاسة الجامع الأموي[640] مشافهة وكتب له خط يده مرات[641]، وأخبره بجميع سنن النسوي إجازة في الجملة[642]، وقرأ عليه ستين حديثا منتقاه من رباعيات صحيح مسلم[643]، والأربعين حديثا لأبي القاسم القشيري، وذلك بالحائط الشمالي من الجامع الأموي في عاشر صفر سنة 697هـ[644]،

وكان آخر ما سمع بدمشق هو مشيخة العساكري أحمد، وهي أربعة أجزاء سمع عليه الجزءين الأولين منها وأجازه سائرها[645].

---

(633) مستفاد الرحلة ص 157.

(634) مستفاد الرحلة ص 156.

(635) برنامج التجيبي ص 73.

(636) نفسه ص 245.

(637) البرنامج ص 12.

(638) مستفاد ص 139 البرنامج ص 12.

(639) مستفاد الرحلة ص 282.

(640) البرنامج ص 87.

(641) مستفاد الرحلة ص 359.

(642) مستفاد الرحلة ص 419.

(643) البرنامج ص 87، 123، 209.

(644) البرنامج ص 159.

(645) نفسه ص 242.

3 ـــ أبو العباس بن أبي الفتح الشيباني ذكر التجيبي في رحلته بأنه أخذ عنه سند حديث «الراحمون»(646) ووعد بالترجمة له مع العلماء الشاميين(647).

وذكر في برنامجه أنه قرأ عليه بداره من دمشق ليلا قول الشافعي «ما أعلم في الأرض كتابا في العلم أكثر صوابا من كتاب مالك رحمهُ الله تعالى»(648) ومسلسل حديث الرحمة بداره أيضا في صدر صفر من سنة 697هـ(649) ثم قرأ عليه سائر جزء ابن الصلاح في صدر ربيع الثاني من سنة (697هـ)(650).

4 ـــ أبو حفص عمر الطائي الدمشقي المعروف بابن القواس الذي وصفه في رحلته «بالشيخ المسند المعمر الرحالة الصدوق ناصر الدين»(651).

وكان من أهم من روى عنهم، فلقد ذكره التجيبي في برنامجه خمسا وعشرين مرة، وذكره في القطعة المنشورة من الرحلة خمس مرات. ولقد تنوعت قراءاته وسماعاته ورواياته من حديث وشعر وسماع كتب... وهكذا قرأ عليه بمسجد واثلة بن الأسقع بدمشق حديث «بايعت رسول الله ـــ ﷺ ـــ على النصح لكل مسلم وأنا ناصح»(652) وحديث اللهم ارحم خلفائي(653) وغيرهما من الأحاديث(654).

وسمع عليه كتبا عديدة ككتاب أمالي أبي بكر القطيعي بالجامع الأموي(655) وجميع تأليف ابن قدامة المقدسي في ذم الوسواس(656)، وتم له سماع جميع معجم شيوخ أبي الحسين الغساني الصيدوي على أبي حفص هذا في 4 صفر سنة

(646) مستفاد الرحلة ص 188.

(647) نفس المصدر والصفحة.

(648) البرنامج ص 62، 91.

(649) نفسه ص 171.

(650) البرنامج ص 171.

(651) مستفاد الرحلة ص 133.

(652) نفسه ص 180.

(653) البرنامج ص 15.

(654) البرنامج ص 13، 15، 112.

(655) البرنامج ص 227.

(656) نفسه ص 274.

697هـ[657] وسمع كذلك على أبي حفص وابن عمه أبي إسحاق إبراهيم الطائيين مجتمعين بمسجد واثلة المذكور فحصل منهما على الاجازة[658]

5 ــ عماد الدين أبو الحجاج يوسف ابن الشقاري[659] (ت 699هـ). ومن المؤكد أنه ترجم له في الجزء المفقود من الرحلة الخاص بالشام كما يصرح بذلك التجيبي وهو يتحدث عن قراءته لصحيح البخاري على أبي عمرو التوزري، قال : «وقد سمعته عن العماد أبي نصر ــ هكذا ــ من ابن الزبيدي لسماعه من أبي الوقت، ويأتي ذكره في ترجمة العماد إن شاء الله تعالى من هذا التقييد»[660]

قرأ عليه الجامع الصحيح للبخاري في عدة مجالس أولها في غرة ربيع الأول سنة 697هـ بسند عال يعتز به التجيبي قائلا : «وبهذا الاسناد ساويت في هذا الكتاب كثيرا من أشياخي المشرقيين وطائفة من أشياخ أشياخي المغربيين»[661]. وروى عنه حديثا في فضل ماء زمزم[662]، وحديثا في نزول الوحي[663]، وحديث الرسول «وقيت شركم كما وقيت شرها»[664]. وأخبره بخبر بيعة الرضوان تحت الشجرة[665]

وليس بوسعنا تتبع كل من أخذ عنهم أو التقى بهم في الشام، فلقد أشار وهو يتحدث عن حران إلى بعض هؤلاء فقال «وممن ينسب إليها من مشائخها الجلة الأعلام التقي أبو العباس ابن تيمية، والشمس أبو عبد الله بن القراز، وأبو محمد ابن العنيقة الحرانيون، ويأتي ذكرهم في تقييدنا هذا إن شاء الله تعالى»[666].

---

(657) نفسه ص 239.

(658) نفسه ص 215.

(659) شذرات الذهب 5 : 454

(660) مستفاد الرحلة ص 426، 380.

(661) البرنامج ص 71 ــ 72.

(662) مستفاد الرحلة ص 311.

(663) مستفاد الرحلة ص 357 ــ 358.

(664) نفسه ص 346.

(665) مستفاد الرحلة ص 351.

(666) مستفاد الرحلة ص 194.

ومع الأسف فإن ما دونه وقيده في الترجمة لهم قد ضاع، وإلا لافادنا ــ كما عهدناه في معرفة تفاصيل حياتهم وأحوالهم الاجتماعية والعلمية.

6 ــ ولقد عرفنا من هذه الاشارة أنه تتلمذ على ابن تيمية مع أنهما متقاربان في السن، فابن تيمية هو الذي قال له «ما في الكتب المصنفة المبوبة كتاب أنفع من صحيح محمد بن إسماعيل البخاري»(667)، حلاه التجيبي «بالشيخ الفقيه الامام العالم مفتي الفرق ناصر السنة صدر الحفاظ»(668)، ولذلك أخذ عنه الحديث بمدرسة القصاعين بدمشق(669) وسمع عليه جزءا لطيفا منتقى من حديث أيوب السختياني بالمدرسة(670) أيضا كما سمع كتبا له(671)...

والظاهر أنه لازمه كثيرا، فلقد زوده ابن تيمية بوصية كتبها له بخط يده ودفعها له عند إزماعه المسير من دمشق(672).

ولذلك كان التجيبي أول من عرف بابن تيمية وكتبه ورواياته لدى المغاربة، فوقع الاقبال بالمغرب على هذه الكتب والروايات(673).

7 ــ أما ابن العنيقة عبد المالك بن عبد الرحمان فقد سمع منه بدمشق جزءا فيه أحاديث حمزة الزيات(674)، وجميع عوالي أبي عاصم، وذلك بكلاسة الجامع الأموي من دمشق(675).

8 ــ وروى التجيبي كذلك في المدرسة العمادية بدمشق، عن الشيخ المفتي علاء الدين أبي الحسن بن إبراهيم الشافعي الدمشقي حديث الرسول عليه السلام في النهي عن نكاح المتعة وعن لحوم الحمر الأهلية زمن خيبر(676).

---

(667) البرنامج ص 83.

(668) نفسه ص 192.

(669) نفسه ص 193.

(670) نفسه ص 213.

(671) نفسه ص 273.

(672) نفسه ص 253، فهرس الخزانة التيمورية 4 : 117.

(673) ورقات ص 231 ــ 232.

(674) البرنامج ص 179.

(675) نفسه ص 225.

(676) مستفاد الرحلة ص 154.

9 ــ وأخبره الشيخ المسند أبو علي بن أحمد الشامي بسند حديث تقبيل الحجر الأسود(677)، وسند حديث «الركن والمقام» «وذلك بقراءته عليه بصالحية دمشق»(678).

10 ــ وأخبره كذلك الشيخ الفقيه القاضي جمال الدين أبو عبد الله الزواوي بالمطر الذي نزل بمكة، قراءة عليه بمدرسة المالكية بدمشق(679).

وبالاضافة إلى ما استفاده من علماء الشام وشيوخها الكثيرين، فإن التجيبي قد أطال المقام مرة أخرى ـ دون شك ـ بالبلدان التي كان قد توقف بها من قبل، ليكمل ما كان قد بدأه من قراءة الكتب والحصول على الروايات والأسانيد العالية يقول عن القاهرة «فقد يسر الله تعالى لقاء طائفة من أعلام فضلائها وصدور رواتها، واستدركت أيضا بعضها مما فاتني في هذه التربة بعد صدوري من حج بيت الله الحرام»(680)، ويقول في ترجمة شرف الدين التوني الدمياطي : «وارتويت من بحر علمه العذب الفرات، وتمتعت بلقائه قبل الحج وبعده»(681).

ونحن وإن كنا لا نعرف متى دخل كلا من مصر وتونس حين صدوره من الحج لكونه يذكر في ترجمة الشرف ابن الصيرفي بأنه بلغته وفاته في 21 ذي الحجة سنة 699هـ(682)، إلا أننا متأكدون من أنه قد عاد إلى وطنه على رأس السبعمائة، فقد ذكر بأن ابن رشيد قد أخبره بأن أبا حيان الجياني كتب إليه من مصر بخبر وفاة ابن دقيق العيد في يوم الجمعة 11 صفر سنة 702هـ(683).

ويقول التجيبي في سياق حديثه عن أبي نمى «وأخبرني من اثقه من الحجاج أن خبر وفاته بلغهم بمصر في شهر ربيع الثاني عام 701هـ»(684).

---

(677) مستفاد الرحلة ص 275.

(678) نفسه ص 295.

(679) نفسه ص 282.

(680) نفسه ص 15.

(681) مستفاد الرحلة ص 51.

(682) نفسه ص 131

(683) نفسه ص 36.

(684) نفسه ص 306.

د ــ رحلة ابن بطوطة :

وتعد كذلك أهم ما عرفه الأدب الجغرافي العربي في هذا المنوال إذ تقارن بأهم الرحلات العالمية من نحو رحلة ماركوبولو البندقي. إلا أنه بالرغم من عالميتها وأهميتها الجغرافية والأدبية، فإن صاحبها كاد يهمل كلية من لدن المترجمين والمؤرخين، وهكذا لم يظفر من معاصريه إلا بإشارات مقتضبة.

حياته

وإذا كانت الرحلة التي بين أيدينا قد سدت ــ من حسن الحظ ــ بعض هذه الثغرات في ترجمة صاحبها ابن بطوطة وعلى الأخص في تلك الفترة الهامة من حياته التي أمضاها في الرحلة والتجول، فإن ثغرات كثيرة يعجز معها الباحث عن رسم صوررة واضحة لهذه الشخصية، وأعني تفاصيل حياته في المرحلة السابقة للرحلة أو اللاحقة لها[1].

---

(1) تستفاد ترجمته من المصادر والمراجع التالية :
1) الاحاطة 3 : 273 ــ 274.
2) نفاضة الجراب 2 : 137.
3) مقدمة ابن خلدون ص 322 ــ 323.
4) الدرر الكامنة 3 : 480 ــ 481.
5) تحفة النظارنشر دار التراث بيروت 1388 هـ / 1968 م
6) إيضاح المكنون 262.
7) هدية العارفين 2 : 169.
8) الاعلام للمراكشي 5 : 5.
9) تاريخ الأدب الجغرافي 1 : 421 ــ 433.
10) الرحالة المسلمون ص 136 ــ 171.

11) الجغرافية والرحلات عند العرب ص 180 ــ 187.
12) الرحلات لشوقي ضيف ص 95 ــ 122.
13) النبوغ 1 : 212 ــ 213.
14) الأدب المغربي ص 412 ــ 416.
15) مظاهر الثقافة المغربية ص 72 ــ 75..
16) تاريخ آداب اللغة العربية 3 : 234.
17) تاريخ الشعوب الاسلامية ص 338.
18) قصة الأدب في الأندلس 2 : 333 ــ 336.
19) الترجمانة ص 581 ــ 582.
20) كتابات مضيئة في التراث الجغرافي ص 274 ــ 303.
21) مصادر الدراسة الأدبية : 1 : 336.
22) دائرة المعارف الاسلامية 1 : 112 ــ 113.
23) دائرة المعارف للبستاني 1 : 399.
24) الموسوعة المغربية 1 : 49.
25) الاعلام للزركلي 6 : 235.
26) معجم المؤلفين 10 : 235 ــ 236..
27) دائرة معارف الشعب 1 : 320.
28) فهارس الخزانة الملكية 1 : 435 ــ 436.
29) أدب الرحلة ص 54.
30) أعجب الرحلات ص 66.
31) الجغرافيون العرب ص 90 ــ 99.
32) ابن بطوطة سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب رقم 7.
33) ابن بطوطة سلسلة الروائع (ثلاثة أجزاء) 4، 5، 6،
34) ابن بطوطة تأليف فؤاد بدوي.
35) ابن بطوطة لخصباك.
36) ابن بطوطة في أفغانستان.
37) رحلة مع ابن بطوطة لمحمود الشرقاوي.
38) رحلة إلى جزر المالديف.
39) مهذب رحلة ابن بطوطة.
40) ابن بطوطة في العالم الاسلامي للأستاذ إبراهيم العدوي.
41) تاج العروس 19 : 159 ــ 160.
42) فتح الشكور ص 105.
43) دائرة المعارف الاسلامية (بالفرنسية) 3 : 758 ــ 759.
44) المجلة الأسيوية (بالفرنسية) مارس 1843 ص 184.
45) مجلة المغرب أكتوبر 1934 ص 10 بحث الأستاذ محمد الفاسي.
46) مجلة البحث العلمي 20 : 259 بحث الأستاذ السامرائي 27 : 241 بحث الأستاذ جعفر الخليلي
47) مجلة دعوة الحق سنة 14 عدد 3 ص 59 ــ 61 بحث الأستاذعبد الهادي التازي.سنة 19 عدد 5 ص 13 ــ 20 بحث الأستاذ المنوني.
48) مجلة المناهل 2 : 65 ــ 96 بحث الأستاذ عبد الهادي التازي
49) تراث الانسانية مجلد 3 عدد 2 ص 101 ــ 116 بحث الأستاذ محمد الصياد.
50) مجلة البينة 10 : 100 بحث الأستاذ جمال الدين الرمادي

ورغم تعدد هذه الكتب والأبحاث التي تناولته بالتعريف والترجمة إلا أنها تكاد تكون مصدرا واحدا لأنها تردد نفس المعلومات والأخبار عن حياته ورحلته.

فهو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن ابن يوسف اللواتي الطنجي الملقب بشمس الدين والمعروف بابن بطوطة بتشديد الطاء الأولى المضمومة(1 مكرر)، وهو نفس ما يوجد مشكولا بخط ابن خلدون(2)، ومن الثابت أنه ولد بطنجة في يوم الاثنين السابع عشر من رجب سنة (703هـ / 1303م) كما نقل ذلك ابن جزى(3).

ولقد كانت الرحلة حدثا هاما في حياة هذه الشخصية إذ هي سبب شهرتها وخلودها من هنا لا يتردد الباحث في تقسيم مسيرة حياة ابن بطوطة إلى ثلاث مراحل متميزة :

ــ **أولها مرحلة النشأة**، ونعني بها تلك الفترة التي قضاها في مسقط رأسه من ولادته إلى وقت خروجه في رحلته المشهورة. ومعلوماتنا عن هذه المرحلة قليلة جدا، فلا نملك إلا إشارة ذكرها ابن الخطيب نقلا عن أبي البركات وهي قوله عن ابن بطوطة «هذا رجل لديه مشاركة يسيرة في الطلب»(4) وهي نفس ما ردده كل من تحدث عن ابن بطوطة بعد ذلك(5).

⇐ 51) مجلة كلية الآداب بفاس 1 : 83 ــ 111 بحث الأستاذ السعداني
52) مجلة المجمع العلمي بدمشق مجلد 40 جزء 1، 3، بحث الأستاذ كنون.
53) مجلة المجمع العراقي مجلد 29 بحث الأستاذ المنوني.
54) مجلة العربي عدد 146 بحث الأستاذ كنون. أعداد 213. 214. 215. بحث الأستاذ حسين مؤنس.
55) Extraits des principaux géographiques P : (340 - 369).
56) Relations de voyage II : (426 - 427).
57) Recherches géographiques P : (19 - 30).
58) Histoire de la médecine arabe 2 : 282.
59) La vie intellectuelle marocaine P : (251 - 257).

(1 مكرر) رحلة ابن بطوطة ص 5. تاج العروس 19 : 159 ــ 160.

(2) دعوة الحق سنة 19 عدد 5 ص 13 مقال الأستاذ المنوني.

(3) الرحلة ص 10، الاعلام للمراكشي 5 : 5.

(4) الاحاطة 3 : 273.

(5) الدرر الكامنة 3 : 480، الاعلام للمراكشي 5 : 5

ولذلك يبقى حديثنا عن هذه الفترة من حياة ابن بطوطة مجرد افتراضات وتأويلات لما نجده في الرحلة من إشارات ومعلومات قليلة عن هذه المرحلة. ولقد كان من المنتظر أن يزيح هذا الغموض عن أخبار هذه الفترة معاصره ابن الخطيب، وهو يترجم له في الاحاطة، خاصة وأنه كان على صلة مودة وصداقة به، كما يبدو من مراسلته له في نفاضة الجراب[6] إلا أنه — مع الأسف — لم يزد في ترجمته على ما نقله عن شيخه أبي البركات.

ونفس الشييء يمكن أن يقال عن ابن خلدون أيضا فهو لم يتحدث عن ابن بطوطة إلا ليسجل موقفه من الأخبار التي يرويها والعجائب التي شاهدها في رحلته. والطريقة التي ساق بها الحديث عنه تظهر تجاهله لشأنه ومكانته، فهو يقول عنه «ورد بالمغرب لعهد السلطان أبي عنان من ملوك بني مرين رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة كان رحل منذ عشرين سنة قبلها إلى المشرق»[7].

وهذا ما دفع البعض إلى الاعتقاد بأن أسرة ابن بطوطة لم تكن ذات مكانة اجتماعية أو دينية أو علمية مرموقة[8] وهو استنتاج فيه الكثير من التسرع، فالظاهر أن أسرته التي تنتمي إلى قبيلة لواته البربرية[9]، لم تكن نكرة خاملة الذكر بل كان لها إسهام فكري وعلمي، إذ اشتغل أفرادها بالقضاء والتدريس كما يبدو من المثالين اللدين وردا عرضا في الرحلة : الأول يتمثل في قول ابن بطوطة نفسه وهو يختار منصب القضاء بالهند «أما الوزارة والكتابة فليست شغلي، وأما القضاء والمشيخة فشغلي وشغل آبائي»[10].

والمثال الثاني يتمثل في الاشارة التي وردت في رحلة ابن بطوطة إلى الأندلس فلقد ذكر بأن القاضي على مدينة رندة زمن دخوله لها كان هو ابن عمه الفقيه أبو القاسم محمد بن يحيى بن بطوطة[11].

---

(6) نفاطة الجراب 2 : 137.

(7) مقدمة ابن خلدون ص 322.

(8) ابن بطوطة تأليف خصباك ص 22.

(9) نبذ تاريخية ص 76، بيوتات فاس ص 36، معجم البلدان 5 : 24.

(10) الرحلة ص 500، مجلة المغرب غشت، شتنبر 1934 ص 12.

(11) الرحلة ص 653.

ومن المعلوم أن الفترة التي نشأ فيها ابن بطوطة كانت من أزهى عصر بني مرين في المجالات العلمية والفنية والحضارية، مما يجعلنا نفترض أن ابن بطوطة قد استفاد من هذا الازدهار العلمي فتلقى تكوينا جيدا على نمط رجال عصره، ويزكي هذا الافتراض مالقيه الرحالة من مظاهر الاحترام والتبجيل أينما حل وارتحل، وما ارتقى إليه أثناء هذه الرحلة من مناصب ومراكز علمية، وإذا كنا نفترض أن إسناد منصب القضاء له في كل من دهلي وجزر ذيبة المهل لم يتم إلا بعد مضي سنوات عديدة على غربته واتصاله بالعلماء في جولاته الكثيره حيث يكون قد أخذ عنهم واستفاد منهم، فماذا يمكن أن يعلل به اختيار القوم له ليكون قاضيا على الركب الحجازي بعد خروجه من تونس ولم يكن قد مضى على الشروع في رحلته إلا بضعة أشهر[12] ؟ ثم ماذا يمكن أن يعلل به أيضا تقديم الشيخ أبي عبد الله المرشدي له ليؤم بهم في الصلاة ولم يكن قد تجاوز في رحلته مصر[13] ؟

ويبدو مستواه العلمي الجيد أيضا في المنهج الذي لازمه طيلة الرحلة، بما أبداه من ملاحظات وتفصيلات ومناقشات لا يمكن أن تتيسر بذلك المستوى الرفيع إلا لذكي مثقف له إلمام بالفقه ومذاهبه، واللغة وتفصيلاتها، وقدرة على الغوص في الأفكار بتتبع الخلافات والآراء في القضية الواحدة،وأمثلة هذا التمكن العلمي في الرحلة كثيرة متعددة نكتفي هنا بإعطاء نماذج منها فقط، كقوله عن مشاهد القدس «ومنها أيضا قبر رابعة العدوية منسوبة إلى البادية وهي خلاف رابعة العدوية الشهيرة»[14]، أو قوله عن مدينة المعرة «ثم سافرت إلى مدينة المعرة التي ينسب إليها الشاعر أبو العلاء المعري وكثير سواه من الشعراء»[15]، أو تفصيله المفيد في بناء الرسول عليه السلام لمسجده[16]، أو ملاحظته اللحن على خطيب البصرة، واعتباره ذلك مظهرا لتغيير الأحوال وتقلب الأزمان، فالمدينة التي انتهت إلى أهلها رياسة النحو يلحن خطيبها «لحنا كثيرا جليا»[17].

---

(12) الرحلة ص 14.

(13) نفسه ص 25.

(14) الرحلة ص 55.

(15) نفسه ص 63.

(16) نفسه ص 110.

(17) نفسه ص 182.

ومما طبع منهجه أيضا حرصه المستمر على الاشارة إلى مذهب أهل كل بلد حل به مما ينبىء عن معرفته لهذه المذاهب واطلاعه عليها، وهكذا أظهر معرفته بمبادىء أهل السنة، والشيعة والخوارج[18]... فكيف يمكن الاعتقاد مع كل هذا بضعف مستواه وقلة درايته كما ذهب إلى ذلك صاحب كتاب أدب الرحلة حين قال «ونحن أميل إلى الترجيح بأن ابن بطوطة لم يكن قد كون التكوين الديني الكامل في علوم الدين والشرع لصغر سنه عندما أزمع القيام برحلته»[19]

2 ـــ المرحلة الثانية (قيامه بالرحلة)

وهي المرحلة الهامة في حياته، ففيها قام ابن بطوطة برحلته المشهورة وتبتدىء هذه المرحلة بخروجه للرحلة في يوم الخميس الثاني من شهر رجب الفرد عام 725هـ / 1324م وتنتهي بتدوين تفاصيل هذه الرحلة في الثالث من ذي الحجة عام 756هـ / 1355م

وإذا كنا اقتصرنا في المرحلة الأولى على الافتراضات والاستنتاجات، نظرا لقلة المعلومات والأخبار المتعلقة بهذه الفترة فإننا في هذه المرحلة نعرف الكثير عن صاحبها مما تحدث به هو نفسه وعبر عنه في مناسبات عديدة، فرحلته أشبه بالمذكرات التي لا تغفل أي شيىء، إذ أفاض في ذكر أحواله المختلفة من صحة ومرض، وغنى وفقر، ومتعة وزهد، وسلم وحرب، وتحدث عما حوله وعمن حوله، فأفرد حيزا مهما للحديث عن كل ركب سافر بمعيته، أو رفقة آنس إليهم، أو زهاد وعباد أحس بالمتعة الروحية إلى جانبهم، أو وظائف تقلدها، ومناصب أسندت إليه...

ولذلك فذكر كل هذه الأمثلة غير ممكن الآن لأنه سيضطرنا إلى سرد الرحلة بكاملها، إلا أننا سنكتفي هنا بذكر العلماء الذين التقى بهم في رحلته وهم كثيرون، مما يثبت الأهمية الفكرية والعلمية لرحلة ابن بطوطة فلم تكن لها الصبغة السياحية الجغرافية فقط، ولكنها على غرار الرحلات الحجازية خصصت حيزا هاما للعلماء الذين صادفهم الرحالة في طريقه وخاصة في الوجهة الحجازية.

---

(18) نفسه ص 183.

(19) أدب الرحلة ص 54.

فلقد ذكر بأنه نزل في تونس بمدرسة الكتبيين حيث التقى فيها وفي غيرها من المساجد والجوامع بجلة العلماء يخص بالذكر منهم ثلاثة[20] وهم : قاضي الجماعة بتونس أبو عبد الله محمد بن أبي العباس ابن الغماز، والخطيب أبو إسحاق إبراهيم الربعي، والفقيه أبو علي عمر ابن قداح الهواري...

أما في مصر فعدد علمائها يجل عن الحصر لذلك اكتفى بذكر البعض منهم[21] كشمس الدين الأصبهاني إمام الدنيا في المعقولات، وشرف الدين الزواوي المالكي، ونائب قاضي القضاة برهان الدين الشاذلي، وأحد الأئمة في المعقولات ابن القوبع التونسي، والعالم النحوي أبي حيان الغرناطي، والشيخ الصالح بدر الدين عبد الله المنوفي، وبرهان الدين الصفاقسي، وقوام الدين الكرماني الذي كان سكناه «على سطح جامع الأزهر، وله جماعة من الفقهاء والقراء يلازمونه ويدرسون فنون العلم، ويفتي في المذاهب...»[22] وغيرهم... ورغم أنه لم يصرح بالأخذ عن العلماء المذكورين إلا أن معرفته لسكناهم وبعض أحوالهم ومستواهم العلمي، ونظرة الناس إليهم، ووظائفهم المختلفة، كل هذا يدل على احتكاكه بهم وملازمتهم مدة مقامه بمصر، ويشير إلى أنه التقى في مدينة قوص، وهو في طريقه إلى الحجاز، بمتصوفي هذه المدينة وعلمائها من أهمهم الخطيب فتح الدين ابن دقيق العيد الذي يقول عنه «أحد الفصحاء البلغاء الذين حصل لهم السبق في ذلك، لم أر من يماثله إلا خطيب المسجد الحرام بهاء الدين الطبري، وخطيب مدينة خوارزم حسام الدين الشاطبي»[23].

ويتعرف في دمشق بأئمة جامعها الثلاثة عشر[24]، وبالمدرسين والعلماء بهذا الجامع[25]وبقضاة البلد حسب المذاهب الأربعة[26]، وفي جامع بني أمية هذا سمع جميع صحيح البخاري على الشيخ المعمر رحلة الآفاق شهاب الدين أحمد ابن الشحنة

---

(20) الرحلة ص 13 ــ 14.

(21) نفس المصدر ص 42.

(22) نفسه.

(23) الرحلة ص 48.

(24) نفسه ص 88.

(25) نفسه ص 89.

(26) نفسه ص 89 ــ 90.

الحجازي في أربعة عشر مجلسا في النصف الثاني من رمضان المبارك سنة 726هـ، بقراءة مؤرخ الشام أبي محمد البرزالي[27].

كما حصل بجامع بني أمية أيضا على الاجازة العامة من أربعة عشر عالما وذلك في سنة ست وعشرين وسبعمائة[28].

ومما يحتاج إلى التوقف فيما ذكره عن الشام في رحلته، قضية حضوره لوعظ كبير فقهاء الحنابلة تقي الدين ابن تيمية مع ما صدر عنه من القول بالتجسيم[29]، وما تبع ذلك من إنكار العامة عليه وسجنه فيما بعد، فمثل هذه الوقائع لا تتفق مع الأحداث التاريخية المشهورة، إذ المعروف أن تاريخ دخول ابن بطوطة لدمشق هو يوم الخميس التاسع من رمضان سنة 726هـ /[30] 1325م، بينما كان ابن تيمية قد اعتقل بقلعة دمشق في السادس من شعبان سنة 726هـ[31].

ويهتم ابن بطوطة في الحرمين الشريفين بذكر الفضلاء والمجاورين في كل من المدينة المنورة ومكة المكرمة فذكر أربعة عشر منهم في المدينة[32]، وعشرين في مكة[33]، فمن هؤلاء الذين كانوا بالمدينة في عهد دخوله إليها أبو عبد الله ابن فرحون، وأبو العباس ابن مرزوق، وأبو العباس الفاسي... ومن أهم من كان بمكة حينئذ العالم نجم الدين الطبري، وأخوه زين الدين الطبري، والمجاور أبو الحسن ابن رزق الله الأنجري...

ويلقى في جامع الخليفة ببغداد الشيخ الامام العالم الصالح مسند العراق سراج الدين أبا حفص القزويني، فيسمع عليه جميع مسند أبي محمد عبد الله الدارمي وذلك في شهر رجب الفرد عام 727هـ[34] / 1326م، كما يلقى في شيراز القاضي مجد

---

(27) نفسه ص 103 ــ 104.

(28) الرحلة ص 104 ــ 105.

(29) نفسه ص 91 دائرة المعارف الاسلامية 1 : 112 ــ 113 الأزهار 5 : 11 البستان ص 124.

(30) الرحلة ص 79.

(31) ذيل العبر ص 143، شذرات الذهب 6 : 85، المنهل الصافي 1 : 338.

(32) الرحلة ص 115 ــ 118.

(33) الرحلة ص 144 ــ 153.

(34) نفسه ص 219.

الدين فيسمع عليه كتاب مسند الامام الشافعي، وكتاب مشارق الأنوار للامام الحسن بن محمد الصاغاني[35].

فبحثه عن العلماء والشيوخ كان متواصلا يسعى للقائهم، ويأخذ عنهم، وهكذا ذكر لقاءاته لعلماء كثيرين في مناطق وبلدان مختلفة كمدينة القرم[36]، وخوارزم[37]، وغرناطة[38]...

فالاتصال بالعلماء كان من أول اهتماماته في رحلته يقول بعد أن أعياه البحث عنهم بمدينة تبريز «ولم ألق بتبريز أحدا من العلماء»[39].

3 ــ المرحلة الثالثة : استقراره بالمغرب

ونعني بها المرحلة الأخيرة من حياته، وهي فترة تزيد عن العشرين سنة ولقد كان من المنتظر أن نعرف بتفصيل هذه المرحلة من حياته، خصوصا أنه أصبح مشهورا بعد تدوين الرحلة وانتشار أخباره وحكاياته، يتحدث عنه الكثيرون بالاعجاب أو الشك فيما أتى به، إلا أننا نلاحظ أن ابن بطوطة قد تعرض ــ مع الأسف ــ إلى إهمال من طرف المترجمين والمؤرخين، وحتى أولائك الذين أشاروا إليه قد ساقوا ترجمته في معرض الحديث عن الغرائب في رحلته وموقفهم منها[40]، فلا نجد إلا إشارتين لهما علاقة بهذه الفترة الأخيرة من حياته، الأولى ما أورده الجاديري في تلخيصه شرح البردة لابن الأحمر، حين تحدث عن المجلس العلمي لأبي عنان الذي اختير ابن بطوطة عضوا فيه، فقدمه بقوله «وشيخنا الفقيه القاضي الخطيب الحاج الكثير الجولة بالمشرق والمغرب وجميع البلاد محمد بن بطوطة الطنجي العارف بالتاريخ»[41]

---

(35) نفسه ص 209.

(36) نفسه ص 310 ــ 311.

(37) نفسه ص 345 ــ 346.

(38) نفسه ص 656.

(39) نفسه ص 226.

(40) الاحاطة 3 : 273، المقدمة ص 322 الدرر الكامنة 3 : 481.

(41) أواخر شرح البردة مخطوط القرويين رقم 40 / 643 الخزانة العلمية ص 26 ــ 27.

ولعل عناصر شخصيته العلمية تتحدد في هذه الصفات العلمية التي حلاه بها يبدو من خلالها أنه كان شيخا يؤخذ عنه ويقصد من أجل الدراسة والتحصيل، كما أن له صفات أخرى تشهد بتضلعه في الفنون وقدرته في العلوم، فهو فقيه، وخطيب، ومؤرخ، وقاض... مما يقوي الاعتقاد بأننا لو كنا قد حصلنا على أصل الشرح المذكور، لوجدنا فيما يخص ابن بطوطة ورحلته معلومات هامة يمكن أن تسد الثغرة الكبيرة التي يواجهها كل باحث في هذه الشخصية وأثرها.

أما الاشارة الثانية فنعني بها ما ذكره المترجمون له من أنه تولى منصب القضاء ومات وهو يتولى هذا المنصب[42] ببلده تامسنا، يدل على ذلك تلك الرسالة التي بعثها ابن الخطيب إليه للاستشارة في شأن شراء قطعة أرضية بجواره[43].

ولايزيدنا ابن الخطيب في هذه الرسالة تعريفا به إلا ما نستشفه من التقدير الذي يحظى به ابن بطوطة كما يظهر من قول ابن الخطيب «لتعلم سيادة القاضي شمس الدين، معلم المواقف الحسبية والميادين».

وتاريخ وفاته مختلف فيه لدى الباحثين، فابن حجر ينقل من خط ابن مرزوق بأن ابن بطوطة بقي إلى سنة سبعين وسبعمائة[44] بينما يحدد أكثر الباحثين وفاته بسنة 779هـ / 1377م[45].

وقبل أن نتحدث عن رحلته لابد من لفت النظر إلى ظاهرة تتراءى لقارىء الرحلة ألا وهي إدمانه على الزواج وأكثاره منه[46]، فلا يقيم ببلد إلا ويتزوج فيه مرة أو أكثر، بل يدخل بالنساء وهو مع الركب في طريقه إلى الحجاز، وهكذا تزوج مرتين قبل وصوله إلى مصر[47]، وتزوج أربع مرات بجزر دبية المهل[48]، ومرتين بجزيرة ملوك[49]...

---

(42) الدرر الكامنة 3 : 481.

(43) نفاضة الجراب 2 : 137 ـــ 138.

(44) الدرر الكامنة 3 : 481 الموسوعة الاسلامية 3 : 758.

(45) إيضاح المكنون 1 : 262، هدية العارفين 2 : 169 الاعلام 6 : 235، معجم المؤلفين 10 : 235.

(46) ذكر أنيس منصور بأنه تزوج 23 مرة وأنجب سبعين ولدا. أعجب الرحلات ص 63.

(47) الرحلة ص 15.

(48) الرحلة ص 563.

(49) الرحلة ص 582.

ولعل إكثاره من الزواج كان من أسباب مواصلته الرحلة وعدم شعوره بالضيف والملل، إذ يكون لنفسه ــ في السفر والحضر معا ــ أسرة تؤنسه وترعى شؤونه، وكان من عادته أن يترك أطفاله مع زوجاته في البلدان التي يرحل عنها، أشار إلى بعض هؤلاء الأولاد في مناسبات عديدة[50]، ولما مر بدمشق أثناء رجوعه سأل عن زوجة له تركها حاملا قبل عشرين سنة فولدت ولدا ذكرا[51]. وفي نابلس أسرة تدعى «بيت بطبوط» وتعرف ببيت المغربي وبيت كمال، تقول إنها من نسل ابن بطوطة[52].

رحلته

والأثر الوحيد الذي يعرف له الآن هو رحلته المشهورة التي هي في واقع الأمر عبارة عن ثلاث رحلات تختلف في الباعث والوجهة والزمن.

ــ الرحلة الواسعة

وهي الرحلة الأولى التي جاب فيها مناطق كثيرة من العالم في مدة تزيد على ربع قرن من الزمن، ومن الواضح أنه لم يكن وقت شروعه في الرحلة قد وضع لها هذا المخطط الواسع زمانا ومكانا، وإنما كان باعثه على الرحلة متواضعا كما أفصح عن ذلك في مقدمة هذه الرحلة، فلقد ذكر بأنه خرج «معتمدا حج بيت الله الحرام، وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام، منفردا عن رفيق آنس بصحبته، وركب أكون في جملته، لباعث على النفس شديد العزائم، وشوق إلى تلك المعاهد الشريفة كامن في الحيازم، فجزمت أمري على هجر الأحباب من الاناث والذكور، وفارقت وطني مفارقة الطيور للوكور»[53]، وهكذا خرج من بلده وقد وضع هذا الهدف النبيل نصب عينيه كما يدل على ذلك إصراره على مواصلة الطريق في وجهته إلى الحجاز رغم مرضه الشديد ببجاية معربا عن رغبته ــ إن دنا أجله ــ في أن يموت وهو قاصد أرض الحجاز[54]، إلا أننا نجده ومنذ أن كاشفه الشيخ عبد الله

(50) الرحلة ص 355، 447، 494، 476، 438،

(51) نفسه ص 638.

(52) الاعلام للزركلي 6 : 236.

(53) الرحلة ص 10.

(54) الرحلة ص 12.

المرشدي(55) بتوفيق الله له في زيارة بلاد اليمن والعراق وبلاد الترك، والهند، أصبح منذ ذلك الحين متشوقا لزيارة هذه البلدان، وأضحى مهيأ نفسيا وروحيا لمواصلة الجولة والسعي إلى أقصى نقطة في العالم، ويمكننا أن نلاحظ بأن رحلته ابتداء من مصر أخذت تسعى إلى تحقيق الهدفين معا، وتوفق بين الباعثين السياحي والديني، وهكذا استبدت به الرغبتان معا إذ وجدناه قد جعل من الحجاز قطب الرحى لا يبارحه إلا ليعود إليه، ولا يرحل عنه إلا ليرجع إليه في الموسم القادم حتى حج في رحلته ست حجات، كما أننا نلمس في أقواله ومواقفه ووجهاته ما يشي برغبته أيضا في زيارة المناطق والجولة في الأقاليم، والاطلاع على الغرائب والعجائب، فنراه يتعجل الذهاب إلى دمشق لفرط اشتياقه إلى رؤيتها(56)، ويخرج من بغداد في محلة سلطانها أبي سعيد «ليشاهد ترتيب ملك العراق في رحلته ونزوله وكيفية تنقله وسفره»(57)، ويسمع بمدينة بلغار فيرغب في التوجه إليها «ليرى ما ذكر عنها من انتهاء قصر الليل بها وقصر النهار أيضا في عكس ذلك الفصل»(58)، ويفصح عن غايته من زيارة سيلان بقوله «ليس مرادي منذ وصلت هذه الجزيرة الازيارة القدم الكريمة قدم آدم عليه السلام»(59).

فجولاته إذن كلها قد خطط لها بدقة حتى تستجيب لهذا الهدف السياحي وتلبي رغبته في الاطلاع على البلدان والعجائب، ولقد عبر عن هذا بوضوح قائلا «ومن عادتي في سفري ألا أعود على طريق سلكتها ما أمكنني ذلك»(60)، ولذلك يحس بالارتياح وهو يرى مشروع الرحلة قد اكتمل، ورغبته في زيارة بلدان العالم قد تحققت فيقول «فقد بلغت بحمد الله مرادي في الدنيا وهو السياحة في الأرض وبلغت من ذلك مالم يبلغه غيري فيما أعلمه»(61).

---

(55) الرحلة ص 26.

(56) نفسه ص 79.

(57) نفسه ص 225.

(58) نفسه ص 325.

(59) نفسه ص 584.

(60) نفسه ص 186.

(61) نفسه ص 186.

ولعل هذا التخطيط الدقيق وحب الاطلاع اللذين صاحبا ابن بطوطة في كل مراحل الرحلة هو الذي حدا بالبعض إلى الاعتقاد بأن الرحالة خطط لمشروع هذه الرحلة الواسعة منذ أن غادر بلده، فلم يكن الحج وحده هدف الرحالة ومقصده بدليل أنه وهو مازال في الاسكندرية وقبل لقاء الشيخ أبي عبد الله المرشدي المذكور، قد أفضى برغبته هذه في السياحة والجولان للامام العالم الزاهد برهان الدين الأعرج[62].

والحقيقة أن ابن بطوطة كان أسير الرغبتين معا وهو في بداية الطريق[63] يعمل من أجل الوصول إلى الهدفين السياحي والروحي.

ولعل الذي ساعد على تحقيقهما والتوفيق بينهما ليس فقط ما أوحى به إليه الشيخان الزاهدان بمصر بضرورة مواصلة الرحلة والتجول، وإنما ما كان يلقاه ابن بطوطة طيلة تجواله وفي طريقه من العطف والتشجيع والمساعدة، فيعيره الشيخ الزبيدي دابته ومتاعه وخباءه وهو بعد في بجاية[64]، ويحتفي به حاكم قسنطينة[65]، ويلقى نفس التقدير والاحترام وهو مع الركب المتوجه من تونس[66]، ويعفى على الحدود المصرية هو ومن معه من الرسوم الواجبة لأنه مغربي[67]، ويحس بعطف الجميع عليه بمكة فالمكيون يعطفون على الغرباء نظرا لقرابة الدين[68]، ويحظى في العراق بعطف خاص من الأمير البهلوان[69]، ويلقى ألوانا من التكريم في الهند[70].

كل هذا كان عاملا مساعدا على مواصلة الرحلة، والاندفاع في المغامرة، واكتشاف المجاهيل، فنسي الرحالة نفسه وأهله وبلده وسط هذه المتعة التي كان يحس بها وهو ينتقل من مفاجاة إلى أخرى، ومن بلد إلى آخر، وزاوية إلى أخرى،

---

(62) نفسه ص 20.

(63) الرحالة المسلمون ص 140، دائرة المعارف للبستاني 1 : 399، 426 : Relations 2

(64) الرحلة ص 12.

(65) الرحلة ص 12.

(66) نفسه ص 14.

(67) نفسه ص 50.

(68) نفسه ص 143.

(69) نفسه ص 168.

(70) نفسه ص 380.

فلم يصدر منه في هذه الرحلة الطويلة أي أسف على قيامه بها، ولا حنين إلى أهله أو رغبة في العودة إلى بلده على غرار غيره من الرحالين، فالبلوي مثلا يظهر تبرمه من الرحلة وشعوره بالغربة في مواضع كثيرة من رحلته[71].

ــ محتوياتها :

وتعتبر هذه الرحلة أوسع من سابقاتها، فإذا كنا ألفنا من الرحلات المذكورة أن جولاتها وتنقلاتها تنحصر في المدن والمراكز والمناطق المشرقية التي يصادفها الحاج المغربي في طريقه، فإن رحلة ابن بطوطة كانت أوسع وأخصب وأشمل، فإلى جانب إلمامها بالمدن والمناطق المشرقية المألوفة لدى الحجاج، نجدها تتوغل في بلدان أسيوية وأوربية بعيدة.

ومن هنا ليس بإمكاننا إعطاء صورة كاملة مفصلة عن هذه الرحلة الواسعة في الزمان والمكان، وإنما نكتفي بتلخيص موجز جدا لأهم مراحلها.

فلقد انطلق من بلده طنجة في الثاني من رجب عام 725هـ، ميمما الحجاز، سالكا الطريق البرية، وبذلك تم له دخول البلدان والمدن التي في طريقه بشمال إفريقيا، إلا أنه لم يقف على مابها من آثار وعلماء بل اختصر الوصف فيها اختصارا[72] إلى أن وصل إلى الاسكندرية في أول جمادى الأولى سنة 726هـ وكان قد مضى من رحلته عشرة أشهر كاملة، فيصف هذه المدينة بما يدل على إعجابه بها، إذ يذكر كل ما أثار اهتمامه بها وخاصة منارها وعمود السواري بها ويتحدث عن علمائها وصلحائها وما استفاده منهم أثناء وجوده بها[73]، كما يظهر إعجابه أيضا «بام البلاد وقرارة فرعون ذي الأوتاد»، قاهرة مصر[74] لما تضمه من كثرة المدارس والزوايا والمزارات، فيفيض في وصف نيلها وأهرامها، ويذكر امراءها وقضاتها وبعض علمائها، ويقصد زاوية عظيمة كان قد بناها سلطان مصر خارج القاهرة في ذلك العهد لكن ابن بطوطة يراها دون زاوية أبي عنان المشهورة[75].

---

(71) تاج المفرق 2 : 80.

(72) الرحلة ص 10 ــ 15.

(73) الرحلة ص 15 ــ 24.

(74) نفسه ص 31 ــ 43.

(75) نفسه ص 39.

ولقد سلك من مصر الطريق المألوفة نحو الحجاز بالابحار من عيذاب إلى جدة لكن عبوره إلى جدة تعذر بسبب حرب قامت بين صاحب عيذاب والناصر المملوكي(76)، فعاد ابن بطوطة أدراجه ليسلك نحو الحجاز الطريق الشامي، وهكذا تتاح له فرصة زيارة الكثير من المدن والقرى الشامية(77)، فيقف على بلبيس، والصالحية، وقطيا، وغزة، والخليل، والقدس... معرفا بها واصفا إياها في إيجاز تارة وإسهاب أخرى، كما هو شأنه بالنسبة للمدن الشامية الكبرى مثل حلب(78)، واللاذقية(79)، إلا أنه حينما يصل إلى دمشق العاصمة الشامية يطنب في وصفه لها، ويفصل كلامه(80) ليذكر ما بها من مدارس وأبواب ومشاهد ومزارات وأرباض، وما بها من أوقاف، وما يحيط بها من قرى، وأهم ما ذكره عنها هو حديثه عن جامع بني أمية الذي يصفه بأنه «أعظم مساجد الدنيا احتفالا، وأتقنها صناعة، وأبدعها حسنا وبهجة وكما لا، ولا يعلم له نظير، ولا يوجد له شبيه»(81). ويتحدث عدا به من شخصيات، وسوارى، وبلاطات، وقباب، وأبواب، ودكاكين للشهود، وما به من مؤذنين، وقراء، ومجاورين، وأئمة، ومدرسين(82). والظاهر أن هذه المدينة قد استهوته وحازت إعجابه، إذ مكث بها حوالي عشرين يوما زار فيها آثارها ومعالمها المذكورة، كما حصل فيها على إجازات العلماء، وتأتى له أثناءها السماع والأخذ عن الشيوخ(83).

وغادر دمشق في مستهل شوال صحبة الركب الحجازي، فوصف ما بطريقه من المنازل والمراحل وصفا موجزا(84)، ولكنه حينما يصل إلى المدينة المنورة يسهب

(76) نفسه ص 49.

(77) الرحلة ص 40 ـــ 79.

(78) نفسه ص 64.

(79) نفسه ص 76.

(80) نفسه ص 79 ـــ 105.

(81) نفسه ص 83.

(82) نفسه ص 83 ـــ 89.

(83) نفسه ص 103 ـــ 105.

(84) الرحلة ص 105 ـــ 108.

في ذكر أخبارها وتاريخها[85]، ويتحدث عن المجاورين بها، وما بها من مشاهد كريمة كالبقيع الذي هو مدفن الصحابة رضوان الله عليهم، كما يتحدث عن القباء، وجبل أحد حول المدينة، ويبدع في وصف مسجد الرسول عليه السلام ذاكرا أبعاده، ومنبره الكريم، وإمامه، ومن ينوب عنه، ومؤذنيه، وخدامه ...

ويوجز كلامه أيضا في وصف طريقه من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة[86] إلا أنه حينما يحط الرحال في المدرسة المظفرية بالبلد الأمين، ويستشعر الراحة النفسية وقد تحقق له هدفه الذي خرج من أجله وهو زيارة قبر الرسول، ومجاورة بيت الله الحرام يميل حينئذ في أوصافه ومشاهداته إلى الاطناب والتفصيل[87]، معتمدا أحيانا على مؤرخ مكة الأزرقي في توثيق هذه الأخبار وتحقيق إسنادها، وهكذا تحدث بإسهاب عن مكة وعما حولها شأن الرحالة الآخرين فذكر أبوابها الثلاثة، ومسجدها الحرام الذي فصل في ذكر أبعاده وسقفه وسواريه، وأبوابه، وصوامعه.. كما اهتم بالكعبة فذكر أيضا ارتفاعها، وعرض صفحاتها، وبابها الذي لا يفتح إلا في يوم الجمعة أو في مناسبة مولد الرسول عليه السلام. ومما أثار إعجابه أن هذا الباب لا يضيق عن هذه الجموع الكثيرة التي يغص بها الحرم، والتي لا يحصيها إلا الله تعالى، وتحدث عن الميزاب، والحجر الأسود الذي فصل في ذكر ارتفاعه وسعته، وشدة الزحام في تقبيله، وذكر مقام إبراهيم، والحجر وموضع الطواف به، وقبة بئر زمزم، والقبة التي تليها المعروفة بقبة الشراب المنسوبة إلى العباس، بها قلال يبرد فيها ماء زمزم، كما تختزن بها المصاحف والكتب. وتحدث عن الصفا والمروة، وجبانة مكة المعروفة بالحجون، وثنية كداء، والتنعيم الذي يعتمر منه أهل مكة لأنه أدنى إلى الحرم.

وينتقل بعد ذلك إلى ما حول مكة من جبال[88]، فيذكر جبل أبي قبيس وفيه موضع موقف النبي عليه السلام حين انشق القمر له، وجبل قعيقعان، والجبل الأحمر شمال مكة، وجبل الطير، وجبل حراء كان الرسول عليه السلام يتعبد فيه، وجبل ثور...

---

(85) الرحلة ص 108 ــ 122.

(86) نفسه ص 122 ــ 124.

(87) نفسه ص 124 ــ 167.

(88) نفسه ص 139 ــ 142.

ويهتم كعادته بالجانب الانساني[89] فيذكر أميري مكة، وقاضيها، وخطيبها، وعلماءها وصلحاءها وإمام الموسم بها، والمجاورين بها، ويتحدث عن أخلاق أهلها وعاداتهم.

ولا ينسى أن يخصص كغيره حيزا للحديث عن الشعائر والمناسك[90]. وبعد أن انتهى موسم الحج يرحل عن مكة في 20 ذي الحجة صحبة الركب العراقي، فكان لهذا الرحيل فائدة عظيمة لما زودنا به من معلومات عما بجانب الطريق من منازل ومراحل[91].

وأول بلدة عراقية ينزل بها الركب هي القادسية[92] المشهورة وهي مدينة عظيمة تاريخيا أما في زمن حلول الركب بها «فلم يبق منها إلا مقدار قرية كبيرة» لما تعرضت له من التخريب، ثم ينتقل إلى مدينة مشهد[93] يزعم أهلها الرافضية بأنها تحتضن قبر علي ابن أبي طالب، ثم يدخل مدينة واسط[94] التي وجد أهلها من خيار أهل العراق، ثم البصرة[95] التي يصفها بأنها إحدى أمهات العراق، ومن أهم ما أثار اهتمامه بها هو مسجد علي بن أبي طالب الذي هو كالحصن الشامخ يرى على بعد ميلين، وفي مدينة البصرة يشهد صلاة الجمعة التي يلحن فيها الخطيب ذلك اللحن الذي اعتبره مظهرا لتغير الأحوال.

ويرحل بعد ذلك إلى فارس، فيدخلها في النصف الأول من شهر جمادى الآخيرة سنة 727هـ / 1326م ويزور أهم مدنها[96]، إلا أنه يفصل فيما شاهده بمدينة ايذج[97]، حيث يجتمع بشيوخها وملكها، ويحضر عزاء السلطان فرأى «من ذلك

---

(89) نفسه ص 142 ـ 164.

(90) نفسه ص 164 ـ 165.

(91) الرحلة ص 168 ـ 171.

(92) الرحلة ص 171 ـ 172.

(93) نفسه ص 172 ـ 178.

(94) نفسه ص 179 ـ 181.

(95) نفسه ص 181 ـ 185.

(96) نفسه ص 187 ـ 212.

(97) نفسه ص 189 ـ 194.

أمرا هائلا ومنظرا فظيعا لم يعهد مثله»، ويجد مدينة اصفهان[98] قد خرب أكثرها بسبب الفتنة التي بين أهل السنة والروافض، فينزل بها في زاوية لتلميذ المتصوف الشهير الجنيد، حيث يحصل منه على الاجازة ويلبس على يده طاقيته مسلسلة إلى علي أبي طالب، ويفيض في وصف شيراز بما يدل على إعجابه بها، إذ يصف أهلها بأنهم أهل صلاح ودين وعفاف، كما يتحدث عن مشاهدها كمشهد ابن موسى أخي علي الرضا، ومشهد القطب الولي أبي عبد الله بن خفيف، ومشهد القطب روز جهان، ومشهد رزكوب، ومشهد الشيخ الصالح السعدي خارج شيراز[99].

ويعود إلى العراق فيزور مدنا ومناطق لم تتح له زيارتها من قبل، إذ يقف على مدينة الكوفة[100] وخاصة جامعها الأعظم، ومدينة الحلة[101] التي وصفها بأنها مدينة كبيرة مستطيلة مع الفرات، وكربلاء[102] مشهد الحسين بن علي، ومدينة بغداد[103] التي يحرص على ذكر ما بها من المساجد، والحمامات، والمدارس، وقبور الخلفاء والعلماء والصالحين، ومدينة الموصل[104] وما بها أيضا من مساجد، وحمامات، وفنادق، وأسواق، ومشاهد.

وينجذب ابن بطوطة مرة أخرى نحو الحجاز فيقيم به أو قريبا منه، حتى يحج ثلاث مرات متتابعة[105] في سنوات 727، 728، 729هـ. يتوجه بعدها إلى زيارة اليمن وباقي مناطق الخليج فيركب البحر من جدة في حالة من الهيبة والخوف، ويعلل ذلك بأنه لم يسبق له أن مر بهذه التجربة[106]، وهذا سهو واضح منه فلقد أشار من قبل إلى ركوب البحر من ساحل البصرة في طريقه إلى بلدة ما جول[107].

---

(98) نفسه ص 194 ــ 197.

(99) نفسه ص 198 ــ 211.

(100) نفسه ص 213 ــ 214.

(101) نفسه ص 214 ــ 215.

(102) نفسه ص 215.

(103) نفسه ص 215 ــ 221.

(104) الرحلة ص 226 ــ 229.

(105) الرحلة ص 233 ــ 236.

(106) نفسه ص 236.

(107) نفسه ص 185 ــ 186.

وبعد توقفه في مراسي بجزر البحر الأحمر، يتجول في مناطق وبلدان على الشاطئين الافريقي والأسيوي، فيزور معظم المدن اليمنية كمدينة حلي[108] التي يصفها بأنها كبيرة حسنة العمارة بها جامع من أحسن الجوامع، ومدينة زبيد[109] التي يرى بأنه «ليس باليمن بعد صنعاء أكبر منها ولا أغنى من أهلها»، ومدينة تعز[110] التي يرى أيضا بأنها من أحسن مدن اليمن وأعظمها، إلا أن أهلها ذوو تجبر وتكبر وفظاظة، أما مدينة صنعاء[111] قاعدة بلاد اليمن الأولى فهي مدينة كبيرة حسنة العمارة، وينهي زيارته لليمن بمدينة عدن[112]، حيث كانت حينئذ من أهم المرافىء لما تستقبله من السفن والمراكب من الهند وغيرها، مما جعل التجار بها ذوي ثراء وغنى.

ومن هذا الميناء عبر إلى الشاطىء الافريقي، ليتعرف على البلدان وأهلها، فنزل بعد أربعة أيام بمدينة زيلع[113]، فيصف أهلها بأنهم «طائفة من السودان شافعية المذهب، وبلادهم صحراء مسيرة شهرين، أولها زيلع وآخرها مقدشو»، إلا أنه لم يبت بها لقذرها فشد الرحلة إلى مقدشو[114] التي وصلها بعد خمسة عشر يوما، ويصفها بأنها مدينة متناهية في الكبر، وقد نزل بها في ضيافة قاضيها وعلمائها لأنه فقيه قادم من الحجاز، كما أنزله السلطان بدار الطلبة التي كانت معدة لضيافة من يتلقى العلم، وهي دار حسنة الفرش والترتيب،

وهكذا يبقى في ضيافة هذا السلطان يرافقه ويرعى شؤونه أحد الوزراء المكلف بالضيوف إلى أن يرحل مرة أخرى إلى جنوب الجزيرة العربية، فيكمل تجواله بالمدن التي لم تتح له زيارتها من قبل، وعلى الأخص مدينة ظفار[115] التي أسهب في وصف الحياة بها، وذكر سلطانها وما لاحظه من التشابه بين أهلها والمغاربة في شؤونهم المختلفة كأسماء نسائهم وعاداتهم في البيوت...

---

(108) نفسه ص 239.

(109) نفسه ص 240.

(110) نفسه ص 242.

(111) نفسه ص 245.

(112) نفسه ص 244.

(113) نفسه ص 245.

(114) نفسه ص 245 — 248.

(115) الرحلة ص 251 — 257.

وهكذا حرص على ألا يترك مدينة بهذه المنطقة، أو جزيرة إلا زارها، فقضى في رحلته هذه حوالي أربع سنوات ليعود بعد ذلك إلى الحجاز حيث يقف بعرفات وقفته الخامسة وذلك في سنة 732هـ(116). وهي نفس السنة التي حج فيها الملك المصري الناصر وجملة من أمرائه، ويكون ابن بطوطة في هذه الحجة قد أمضى حوالي ثماني سنوات من هذه الرحلة، إلا أنه يبدو وقد ازداد تصميمه وعزمه على مواصلة الرحلة، بل والتخطيط لزيارة أقصى نقطة في العالم، فلقد غادر جدة معتزما زيارة الهند وغيرها من المناطق البعيدة.

ولقد سلك نحو هذه البلدان الأسيوية البعيدة طريق مصر والشام، فمن مدينة اللاذقية كان الابحار إلى البلاد التركية، فينزل فيها بمدينة العلايا(117) التي يعتبرها أول بلاد الروم، ويصفها بأنها «مدينة كبيرة على ساحل البحر يسكنها التركمان وينزلها تجار مصر، واسكندرية، والشام».

ومن هذا الميناء الكبير بدأ ابن بطوطة طوافه ببلاد الأناضول فزار بلدانه وتعرف إلى سكانه، فدخل حوالي سبع وعشرين مدينة(118) اختلط بسكانها، وخبر أحوالها وتحدث عن عاداتها وأمرائها، والمذاهب الفقهية والسياسية التي تتوزع الناس فيها، وأهم ما يلفت النظر في حديثه ما يتعلق بذلك التنظيم العجيب الذي يعرف بالأخية الفتيان، والذي يعتبر وجوده حافزا آخر لابن بطوطة على مواصلة الرحلة والتجول، فأعضاء هذه المنظمة يقدمون الخدمات للضيوف والغرباء، يقول عنهم «ولا يوجد في الدنيا مثلهم أشد احتفالا بالغرباء من الناس، وأسرع إلى إطعام الطعام، وقضاء الحوائج»(119)، ولقد أكد كلامه بذكر أمثلة عديدة(120) لهذا الكرم الذي لا يوجد له مثيل.

وكانت صنوب آخر مدينة تركية يزورها ابن بطوطة، فلقد انتظر بها أربعين يوما إلى أن اكترى مركبا تابعا للروم، فتيسر له بذلك عبور البحر الأسود ليزور

---

(116) الرحلة ص 236 ـ 270.

(117) نفسه ص 273.

(118) نفسه ص 273 ـ 308.

(119) نفسه ص 275.

(120) الرحلة ص 276، 279، 299.

مدنا وبلدانا في شمال آسيا الصغرى[121]، كمدينة القرم، والماجر، والبلغار، وترخان، وخوارزم، وبخارى، وسمر قند...

وكان يلقى الترحاب في بلاد المغول كلها، إذ قربه حكامها وأحسنوا إليه ولقد استعمل في تنقلاته هناك عربات مثل أهالي هذه البلدان وهي وسيلة نقل لم يكن ابن بطوطة قد ألفها أو عرفها من قبل، لذلك أثارت اهتمامه فوصفها وصفا شاملا، من حيث شكلها وحملها، والدواب التي تجرها، وقد لا حظ وهو يرحل في قافلة العربات هاته أن سيرهم «كسير الحجاج في درب الحجاز، يرحلون بعد صلاة الصبح، وينزلون ضحى، ويرحلون بعد الظهر، وينزلون عشيا»[122].

ومن أهم ما أثار تساؤله واستغرابه هو ما لاحظه من إقبال أهل آسيا الصغرى على شرب النبيذ دون أي حرج[123]، لأنهم حنفيو المذهب كما أبدى عجبه من نظرة هذا المجتمع إلى المرأة، إذ ارتقت النساء إلى المنزلة العالية، فهن أعلى شأنا من الرجال عامة وخاصة[124]، وتقوده رحلته إلى مدينة بلغار فيتأكد مما سمعه من قصر الليل بها وقصر النهار أيضا في عكس ذلك الفصل[125].

كما أنه وبعد أن قربه السلطان أوزبك خان، ونال عنده المنزلة السامية والحظوة الرفيعة، كلفه السلطان بمرافقة زوجته الخاتون إلى القسطنطنية لزيارة أبيها الملك الرومي الذي كان يعتنق ورعاياه الروم الدين المسيحي، وهكذا أتيح لابن بطوطة وصف هذه المدينة، وكنيستها العظمى، والمانستارات بها، وبعض مظاهر الحياة فيها...[126]

ويعبر نهر جيحون متوجها نحو الهند، فيزور في طريقه مدنا كثيرة في كل من خراسان وأفغانستان مثل بلخ، وهراة، والجام، وطوس، وبسطام وغزنة، وكابل، ... وغيرها[127].

---

(121) الرحلة ص 308 ـ 364.

(122) الرحلة ص 312.

(123) نفسه ص 313.

(124) نفسه ص 317.

(125) نفسه ص 325.

(126) نفسه ص 329 ـ 342.

(127) نفسه ص 365 ـ 378.

ويصل ابن بطوطة إلى وادي السند، أول عمالة السلطان الهندي، وذلك في غرة محرم عام 734هـ[128] / 1333م، فيعجب بهذه البلاد الهندية وسكانها، ويألف العيش بها لذلك يستقر بها حوالي عشر سنوات كان خلالها مقربا من ملك الهند والسند محمد شاه الذي أنعم عليه وولاه منصب القضاء في عاصمته دهلي، لذا يتحدث عنه حديث المعجب بشخصيته وطريقة حكمه، وقدرته على مواجهة الأعباء السياسية والادارية[129].

و لم يمنعه تولي القضاء من التجول والتنقل في البلاد الهندية، واطلاعه على أحوالها، ومشاهدة عاداتها وتقاليدها، ورؤية حيواناتها، ومعالمها المختلفة،فتحدث عن نظام البريد[130] عندهم بما لا حظه من دقته وضبطه وسرعة إنجازه، واسترعى نظره ما شاهده من عادة إحراق نساء الهندوس أنفسهن بعد وفاة أزواجهن[131]، ووصف الكركدن الحيوان الأسود اللون العظيم الجرم[132]، وتحدث كذلك عن مدينة دهلي[133]، وأبوابها، وجامعها، وبعض مزاراتها، وعلمائها، وصلحائها، وخبر فتحها، وأول من حكمها في ظل الاسلام...

و لم يغادرها ابن بطوطة إلا للقيام بمهمة السفارة إلى ملك الصين[134]، فكانت فرصة أخرى له كي يتعرف على البلاد الصينية وما قد يصادفه في الطريق إليها، إلا أن الأقدار ترغمه على أن يعرج على جزر ذيبة المهل[135]، فيلقى بها الترحاب أيضا، ويتولى فيها منصب القضاء طيلة المدة التي قضاها بها وهي تزيد على العام والنصف، وهذه مدة كافية للتعرف على عادات وتقاليد سكان هذه الجزر خاصة وأنه اختلط بأهاليها وتعامل معهم، إذ تزوج هناك أربع مرات وتسرى مرات عديدة، مما جعل وصفه لهذه البلدان وثيقة هامة تاريخيا وجغرافيا[136].

---

(128) نفسه ص 378.

(129) نفسه ص 327 ــ 512.

(130) الرحلة ص 379.

(131) الرحلة ص 396 ــ 398.

(132) نفسه ص 381.

(133) نفسه ص 400 ــ 410.

(134) نفسه ص 519 شغل حديثه عن الهند صفحات كثيرة من الرحلة ص 378 ــ 520.

(135) الرحلة ص 561 ــ 579.

(136) رحلة إلى جزر المالديف ص 51.

وفي طريقه إلى الصين يمر بسيلان[137]، وجاوة[138]، وسمطرة[139] إلى أن يدخل مدينة الزيتون[140] التي كانت أهم موانىء الصين بل أن ابن بطوطة يعتبر «مرساها من أعظم مراسي الدنيا أو هو أعظمها»[141] وهذه المدينة هي التي تعرف الآن باسم تسوان تشاوفو، واغتنم ابن بطوطة ــ كعادته ــ فرصة وجوده بالصين، فزار أهم مدنها في ذلك الوقت مثل مدينة صين كلان[142] (كانتون)، ومدينة قنجنفو[143] (كيان تشوف فو)، ومدينة بيوم قطلو[144]، ومدينة الخنسا[145] (هانج تشاو)، وعاصمة الصين وحضرة القان فيها مدينة خان بالق[146](بكين)...

ولقد كانت مذكراته التي دونها فيما شاهده بالصين، أو لاحظه، مصدرا هاما في التعريف بحضارة هذا البلد وذكر خصائصه، فمن أهم ما لاحظه هو أن بهذه البلاد شبكة من الفنادق والمنازل يأوي إليها الرحالة والمسافرون[147] مما جعل بلاد الصين آمن البلاد وأحسنها حالا للمسافرين[148]، كما أن السفر بها في الغالب عن طريق الأنهار[149].

وتحدث عن مظاهر اجتماعية واقتصادية لم يسبق له أن شاهدها بغير بلاد الصين كادخارهم الذهب على شكل سبائك[150]، وتعاملهم في البيع والشراء بأوراق

(137) الرحلة ص 583.

(138) الرحلة ص 606.

(139) نفسه ص 610.

(140) الرحلة ص 621.

(141) الرحلة ص 621.

(142) الرحلة ص 623.

(143) الرحلة ص 625.

(144) الرحلة ص 626.

(145) نفسه ص 626.

(146) الرحلة ص 630.

(147) الرحلة ص 621.

(148) الرحلة ص 621.

(149) الرحلة ص 622.

(150) نفسه ص 618.

نقدية من الكاغط[151]، واستعمالهم للفحم الحجري في إشعال النار وتوليد الطاقة[152]، وبراعتهم في صنع الفخار الصيني الذي اشتهرت بصناعته كل من مدينتي الزيتون وصين كلان[153]، وبراعتهم أيضا في فن التصوير إلى درجة أن الغريب إذا فعل ما يتوجب فراره بعثوا صورته للبحث عنه[154].

وتحدث ابن بطوطة كذلك عن سلطان الصين الذي يسمى بالقان، فذكر أخباره في حله وترحاله، وفي حالتي السلم والحرب[155].

واهتم، وهو يتحدث عن أحوال المجتمع، بذكر عقيدة أهل الصين فوجد أن أمرهم يختلف عن البلدان التي زارها، إذ لاحظ أن معظمهم لا يدينون بالاسلام، بل يعبدون الأصنام ويحرقون موتاهم كما سبق أن شاهد عند الهنود[156].

وترغمه الفتن والقلاقل التي انتشرت بعاصمة الصين لخروج بعض أقارب السلطان عن طاعته، فيغادر ابن بطوطة حينئذ بلاد الصين[157]، وكان سيعود إلى الهند لولا خوفه من غضب ملكها بعد أن لم يبلغ هديته، ولم يوفق في سفارته[158] لذلك انقلب راجعا صوب المغرب عن طريق إيران فالعراق فالشام، فمصر التي اتجه منها إلى الحجاز عن طريق ميناء عيذاب، وتم دخوله مكة في الثاني والعشرين من شعبان سنة749 ه حيث حج المرة السادسة وزار قبر الرسول عليه السلام بالمدينة المنورة[159].

وبعد إتمام الحج والزيارة يصمم العزم على العودة إلى وطنه سالكا طريق الشام فمصر للمرة الرابعة، وفي مصر يقوى عزمه وتشتد رغبته في الالتحاق ببلده المغرب

---

(151) الرحلة ص 618.

(152) نفسه ص 618.

(153) نفسه ص 616.

(154) نفسه ص 619.

(155) نفسه ص 631 ــ 633.

(156) نفسه ص 633.

(157) نفسه ص 634.

(158) نفسه ص 636.

(159) الرحلة ص 641 ــ 642.

بعد أن سمع عما اشتهر به أبو عنان من عدل وإنصاف، واهتمام بأحوال البلاد والرعايا[160]، فهذه الأخبار كان لها الأثر الكبير في نفس ابن بطوطة، فهي السبب في تغيير وجهته، وإنهاء رحلته التي دامت حوالي خمسة وعشرين عاما. يقول كراتشوفسكي مشيرا إلى هذا التحول في وجهة ابن بطوطة بعد حجه السادس «وعقب ذلك بقليل في أبريل من عام 750هـ / 1349م ألحت عليه رغبة جامحة في الرجوع إلى وطنه، ولعل تواتر الأخبار بازدهار مراكش في عهد السلطان أبي عنان من بني مرين قد مكن من هذه الرغبة في نفسه، فأخذ طريق العودة مارا على مصر وتونس وهناك واتته فكرة زيارة جزيرة سردينيا[161]».

وهكذا لم يتمهل في وقوفه على المدن والبلدان التي في طريقه بشمال إفريقيا، لاسراعه في الالتحاق بحضرة فاس، ومثوله بين يدي السلطان أبي عنان، وتم له ذلك في يوم الجمعة أواخر شهر شعبان سنة 750هـ / 1349م[162].

ـ الرحلة الثانية :

ولم يستقر ابن بطوطة طويلا بفاس حضرة أبي عنان، إذ بمجرد أن ألقى عصا الترحال، حتى أعد العدة للقيام برحلة أخرى، وكأنه قد ألف التنقل، وأحب المفاجآت والاطلاع على العجائب والغرائب، وإن لم تبعد به الرحلة في هذه المرة عن وطنه كثيرا زمانا ومكانا، فلقد انتقل إلى العدوة الأندلسية.

وإذا حاولنا أن نبحث عن سبب قيامه بهذه الرحلة، واختياره إقليم الأندلس ليكون مسرحا لها، فإننا نجد ابن بطوطة نفسه يصرح بهذا الحافز الذي يختلف عما ألفناه في الرحلات الأخرى، إذ الحافز ليس سياحيا أو علميا أو تصوفيا ولكنه جهادي يخرج فيه الرحالة مجاهدا في سبيل الله، فلقد ذكر ابن بطوطة بأنه بعد أن شفاه الله من مرضه بسبتة الذي لازمه ثلاثة أشهر، أراد شكر الله وذلك بمحاربة الأعداء ومنازلتهم والذب عن حمى المسلمين في العدوة الأندلسية يقول : «ثم عافاني الله فأردت أن يكون لي حظ من الجهاد والرباط فركبت البحر من سبتة في شطي

---

(160) نفسه ص 642.

(161) تاريخ الأدب الجغرافي 1 : 424.

(162) الرحلة ص 644.

لأهل أصيلا فوصلت إلى بلاد الأندلس»(163)، وفي رأينا أن السبب الحقيقي لهذه الرحلة يكمن فيما عرف به ابن بطوطة من ميل إلى الرحلة، ورغبة في التعرف على البلدان المختلفة.

وعلى أي حال فقد عبر البحر إلى العدوة الأندلسية، حيث رسا المركب الذي أقله بجبل الفتح(164)، البلد الذي بنى به أبو الحسن تلك التحصينات الضخمة التي أطلق عليها ابن بطوطة العجائب، مما جعله يتمنى لو كان مرابطا به إلى نهاية العمر، ثم انتقل إلى مدينة رندة(165) التي وصفها بأنها من أمنع معاقل المسلمين وأجملها وضعا، وبعدها اتجه الرحالة إلى مدينة مالقة التي يبدو أنها كانت على مستوى رفيع من التقدم والحضارة فبها يصنع الفخار المذهب العجيب ويجلب منها إلى أقاصي البلاد، وصحن مسجدها لا نظير له في الحسن.

ويستمر في رحلته مكتشفا ومتجولا إلى أن يدخل غرناطة(166)، «قاعدة بلاد الأندلس، وعروس مدنها» وهي عبارة عن رياض بما تحتضنه من بساتين تخترقها أنهار كثيرة(167).

وفي هذه المدينة التقى بعلماء جلة أبدوا اهتمامهم بما يحكيه من غرائب الرحلة وعجائبها. ومن هؤلاء أبو القاسم السبتي، وأبو عبد الله محمد ابن إبراهيم البياني، وأبو سعيد فرج بن قاسم الشهير بابن لب، وأبو البركات محمد البلفيقي وكان معهم أثناء هذا الاجتماع كاتب الرحلة أبو عبد الله بن جزي، وأبو جعفر أحمد بن رضوان الجدامي. ولقد لخص ابن جزي الفائدة التي حصل عليها من حضر هذا الاجتماع بقوله : «كنت معهم في ذلك البستان وأمتعنا الشيخ أبو عبد الله بأخبار رحلته، وقيدت عنه أسماء الأعلام الذين لقيهم فيها، واستفدنا منه الفوائد العجيبة، وكان معنا جملة من وجوه أهل غرناطة»(168).

---

(163) الرحلة ص 651.

(164) نفسه ص 651.

(165) نفسه ص 653.

(166) الرحلة ص 655.

(167) نفسه ص 656.

(168) نفسه ص 656.

ورغم أنه لم يتوغل في البلاد الأندلسية فلم تتجاوز رحلته الجنوب الأندلسي، إلا أن رحلته مع ذلك كانت هامة جدا فلقد أشار إلى نواحي اقتصادية، واجتماعية، وأحوال مختلفة، كحالات انعدام الأمن في الطريق بين مربلة ومالقة(169).

ـ الرحلة الثالثة :

ولم يعد ابن بطوطة إلى فاس مسلما على أبي عنان حتى ودعه من جديد للقيام برحلة جديدة فيما كان يعرف حينئذ ببلاد السودان، وهو ليس البلد الذي أصبح يعرف بهذا الاسم، الآن، وهكذا نزعت نفس الرحالة سريعا إلى الرحلة والتجوال، فانحدر نحو البلدان الافريقية مارا بسجلماسة في غرة محرم سنة 753هـ / 1352م(170).

فما هو دافعه إلى هذه الرحلة مرة أخرى ؟ هل الدافع يكمن فعلا فيما ذكره الزياني من أنه رحل إلى أقاليم السودان حتى تكتمل رؤيته مختلف مناطق العالم، وتكون أحكامه حينئذ بعظمة منجزات ومؤسسات المرينيين، موضوعية،؟ يقول لما شاهد المدرسة المتوكلية بطالعة فاس : «ولم أقف على مثلها فيما شاهدته في المعمور كله، قلت والله لا بد لي أن أتمم عملي وأبر قسمي بالوصول إلى أقاليم السودان حتى أشاهده، وأقسم أن ليس في المعمور كله مثلها فحقق الله ظني وأبر يميني»(171). أم أن الأمر كما يذكر بعض الباحثين يتعلق بسفارة رسمية ومهمة سياسة قام بها بتكليف من أبي عنان المريني(172) بدليل أنه رجع من هذه الرحلة الافريقية بناء على أمره له بالعودة فورا، فلقد ذكر أن الغلام الحامل لتلك الرسالة أبلغه بفحواها في تكدا «آمرا لي بالوصول إلى حضرته العلية فقبلته وأمتثلته على الفور»(173).

ولكن في اعتقادنا أن هذه الرحلة لا تختلف عن سابقتيها، فدافعها يتمثل في نزعة ابن بطوطة الاستكشافية، ورغبته في الاطلاع على عوالم وأراضي وبلدان مختلفة.

---

(169) نفسه ص 654.

(170) الرحلة ص 658.

(171) الترجمانة ص 582

(172) يرجع مثلا إلى الرحالة المسلمون ص 164،النبوغ 1 : 213بحث دوسلان الجريدة الأسيوية مارس 1843 ص 182. بحث ذ التازي دعوة الحق عدد 3 سنة 14 ص 43.

(173) الرحلة ص 680

ولقد كان أول بلد يصفه في هذه الوجهة هي بلدة تغازى التي يذكر «من عجائبها أن بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح، وسقفها من جلود الجمال، ولا شجر بها إنما هي رمل فيه معدن الملح»[174].

وبعد شهرين كاملين من سفره من سجلماسة يصل إلى مدينة إيو الاتن التي يعتبرها «أول عمالة السودان»[175]، ولم يكن مرتاحا وهو يحل بهذا البلد بل أحس بالانقباض للمعاملة السيئة التي يلقاها الغريب هناك، عبر عن ذلك بقوله : «فعند ذلك ندمت على قدومي بلادهم لسوء أدبهم واحتقارهم للأبيض»[176]، ومع ذلك فقد أقام بهذه المدينة نحو خمسين يوما.

وتقوده رحلته إلى مدينة تنبكتو التي يحدد موقعها بأن بينها وبين النيل أربعة أميال[177]، ولا شك أن النهر الذي توهمه النيل هو نهر النيجر، ومن هذه المدينة يسلك الطريق النهري الذي يخترق القرى الكثيرة[178] من بلاد السودان إلى أن يصل إلى مدينة تكدا التي لاحظ بأن أهلها يشتغلون بالتجارة «فيسافرون كل عام إلى مصر ويجلبون من كل ما فيها من حسان الثياب وسواها»[179]، لذا لا يحس الغريب فيها بانقباض أو انزواء، وخاصة ابن بطوطة الذي نزل بها في جوار شيخ المغاربة سعيد بن علي الجزولي وإضافة قاضيها أبي إبراهيم إسحاق الجناتي، كما أضافه جعفر بن محمد المسوفي[180]، وكان من الممكن أن يواصل ابن بطوطة رحلته فيزور بلدانا ومدنا إفريقية أخرى لولا أنه تلقى أمر أبي عنان بضرورة الرجوع إلى فاس[181] ليضمه إلى مجلسه العلمي، ويستفيد من خبرته.

---

(174) نفسه ص 658.

(175) نفسه ص 660

(176) نفسه ص 661

(177) نفسه ص 675

(178) نفسه ص 676

(179) نفسه ص 678

(180) نفسه ص 677، 678

(181) الرحلة ص 680

ومن أهم ما ضمنه مذكراته في هذه الرحلة تفاصيل عن ظاهرة التكشيف[182] في الصحراء، فنظرا لصعوبة المسالك ووعورة القفار، فإنه لا يعرف هذه الصحراء وتعاريجها إلا أهلها من مسوفة، والعجيب في الأمر أن دليل ابن بطوطة كان أعور إحدى العينين، مريض الأخرى.

ومما أثار إعجابه وهو ببلاد السودان ما ارتقت إليه المرأة من منزلة سامية في هذا المجتمع السوداني وما حصلت عليه من حرية في التصرف واستقلال في الرأي إلى درجة وصف معها ابن بطوطة الرجال بانعدام الغيرة[183].

كما أنه خصص، جزءا مهما من اهتمامه، بالحديث عن طريقتهم في التعامل التجاري[184].

ـ الرحلة الأصلية :

هذه هي المراحل والمنازل التي سلكتها الرحلات الثلاث المذكورة وهي تتسع لتشمل مناطق من قارات آسيا وإفريقيا وأوربا، ومن هنا فحجم الرحلة الحالي لا يمكن أن يكون هو كل ما أملاه ابن بطوطة من مذكرات، وما حكاه من غرائب وعجائب وأخبار في هذه المناطق المتباعدة، لذا يفترض البحث أن أصل الرحلة المدونة مازال غير معروف إلى الآن، فابن جزى مدون الرحلة أو مرتبها كما يرى المقري[185] يصرح في آخر ما دونه بقوله : «انتهى ما لخصته من تقييد الشيخ أبي عبد الله محمد ابن بطوطة»[186]، فهل هناك تقييد مفصل لهذه الرحلات لا نعرفه الآن ؟ الغالب أن الرحلة بهذا الشكل المتداول فيه الكثير من الثغرات بل ربما كانت تلك الثغرات التي تحدث عنها الدارسون عائدة إلى هذا السبب وهو أن الأصل المنظم المفصل للرحلة ليس بأيدينا الآن بدليل أن الزياني في الترجمانة ينقل عن الرحلة نصا لا نجده فيما بين أيدينا، ويتعلق الأمر بالسبب الذي دفع ابن بطوطة إلى التوجه

---

(182) نفسه ص 659 ـ 660

(183) نفسه ص 662

(184) نفسه ص 663

(185) النفح ص 1 : 177

(186) الرحلة ص 681

إلى السودان[187]. وإذن فالأصل مفقود في رأي الكثيرين، يقول عباس بن إبراهيم عن الرحلة بأنها «لا تزال مفقودة، أما ما نشر منها فهو قسم اختصره العلامة محمد بن أحمد جزي الكلبي»[188]، ويشاطره هذا الرأي الكثير من الباحثين[189].

ـ قلة الاهتمام بالرحلة قديما :

وإذا كنا وجدنا من قبل بأن الرحالة ابن بطوطة قد غمط حقه وأهمل شأنه بين علماء ومؤرخي عصره، فلم يخصه أحد بترجمة وافية أو تعريف شامل، فإننا نجد نفس الاهمال تلقاه رحلته أيضا، فلا يشير إليها كتاب الرحلات أو المؤرخون فيما بعد. إلا في القرن الحادي عشر الهجري، إذ ينقل عنها في مواضع مختلفة كل من المقري[190] (ـ 1041هـ)، والعياشي[191]، (1090هـ)، ويتناولها بالتلخيص في حلب محمد ابن فتح الله البيلوني[192] (1085هـ)، الذي يعتبر هذه الرحلة إمام ماعداها من الرحلات يقول :

حيث أبصرت رحلة لامام | فهي ذيل لرحلة ابن بطوطه
إنما الكون دارة وهي قطب | بجميع الجهات منه منوطه
جعل الله روحه في رياض | حيثما ينسج الغمام خيوطه

ثم لم يذكرها أحد بعد ذلك طيلة قرنين من الزمان، حتى إذا كان منتصف القرن الثالث عشر الهجري، وجدنا الزياني يصحبها معه في وجهته إلى الحجاز دليلا يسترشد به، فلذلك لم يهملها ويترك الاعتماد عليها إلا بعد أن أنكر الحجاج الهنود الكثير من أخبارها، ومع ما أبداه من تحفظ فيما ورد في الرحلة وما صرح به من

(187) الترجمانة ص 582

(188) الاعلام للمراكشي 5 : 6

(189) دائرة المعارف للبستاني 1 : 399، الموسوعة المغربية 1 : 49

(190) النفح 1 : 176،177، 152، 7 : 337.

(191) رحلة العياشي 1 : 6.

(192) الاعلام للزركلي 6 : 327، الأدب الجغرافي 1 : 431. رحلة مع ابن بطوطة ص 10 ابن بطوطة لخصباك ص 13

نقد لها وأخبارها[193]، فإنه لم يفتا يعتمد عليها إما بالاستفادة من منهجها، أو النقل عنها، وهكذا نقل عنها المشاهد الوصفية الكثيرة[194]، كوصف النيل، وعادة حرق الزوجات أنفسهن بعد وفاة أزواجهن في الهند.

ولقد تناولها بالتلخيص أيضا مؤلفان مجهولان طبع الملخص الأول بالقاهرة في تسع وسبعين صفحة، أما الثاني فمازال مخطوطا في مكتبة الأزهر[195].

فلماذا لم تعرف الرحلة إلا في هذا النطاق المحدود ؟ هل لأنها ــ كما يرى الأستاذ محمد محمود الصياد «لم تكن من النثر الفني الذي يتوارثه المشتغلون بالأدب العربي عبر القرون[196]؟ أم لأن السبب يعود إلى أنها «لاتمت إلى المؤلفات الجدية»[197] ؟.

فالرأي السائد بين الباحثين هو أن الرحلة مملوءة بالعجائب، والخرافات، والقصص المختلفة[198]، ومن هنا تقل فائدتها العلمية والتعليمية، إلا أنني أرى أن نفور الباحثين والأدباء منها وعدم الاعتماد عليها يعود إلى حملة الشك والانكار التي واجهتها منذ البداية، وابن بطوطة يملي الرحلة بفاس ويحكي غرائبه وعجائبه.

ــ الشك في الرحلة :

ومن الذين عبروا عن رأيهم النقدي في هذا المجال ابن خلدون في مقدمته، حيث عرض موقف الشك الذي قوبلت به هذه الرحلة، فتناجي الناس بتكذيب[199] ابن بطوطة وهم يسمعون ما حفلت به رحلته من أحاديث وحكايات غريبة، ورماه أبو البركات البلفيقي بالكذب[200]، أما ابن الخطيب فيرى بأن أحاديثه تبعد في الغرابة[201].

---

(193) الترجمانة ص 581.

(194) نفسه ص 181 ــ 183، 253 ــ 254، 200 ــ 201.

(195) رحلة مع ابن بطوطة ص 12

(196) تراث الانسانية مجلد 3 عدد 2 ص 114

(197) ابن بطوطة لخصباك ص 13.

(198) مهدب رحلة ابن بطوطة ص : ي، رحلة مع ابن بطوطة 29 ــ 30

(199) مقدمة ابن خلدون ص 322

(200) الاحاطة 3 : 273، معجم سركيس 1 : 48، الدررالكامنة 3 : 480.

(201) الاحاطة 3 : 373.

وإذا كان هؤلاء قد صرحوا بآرائهم النقدية في مضمون الرحلة، فإننا نفترض أن العديد من السامعين قد اتهموا ابن بطوطة كذلك بالتلفيق والمبالغة وقامت في نفوسهم شكوك دون أن يصرحوا بذلك، خاصة وأن الرحلة قد انتشر خبرها وتعرف الكثيرون على قصصها وحكاياتها، فلقد باحثه أبو عبد الله الآبلي في كثير من أمور هذه الرحلة[202] وهو يمر بتونس في طريق العودة، واستمع إليه أبو الحسن المريني وهو يتحدث عما شاهده في هذه الرحلة من أخبار الملوك والبلدان[203]، فتردد ابن بطوطة على مجلس أبي الحسن هذا طيلة الستة والثلاثين يوما التي قضاها بتونس، ومن الذين كان يضمهم مجلسه وسمعوا هذه الأخبار أبو عبد الله السطي، وأبو عبد الله ابن الصباغ، وأبو علي ابن عبد الرفيع، وأبو عبد الله ابن هارون، وأبو عمر عثمان التنالفتي، وأبو حسون زيان العلوي، وأبو زكرياء يحيى العسكري، وأبو الحسن الناميسي وغيرهم...

واستمع إلى هذه الأخبار العجيبة أيضا جماعة[204] من فضلاء غرناطة، كأبي القاسم السبتي، وأبي عبد الله البياني، وأبي سعيد فرج بن لب، وأبي البركات البلفيقي، وابن جزي مدون الرحلة، فوجدوا فيها متعة، واستفادوا منها فوائد عجيبة، دونوابعضها، وأبدو اهتماما بالبعض الآخر.

ومن الذين جرفتهم موجة الشك في مضمون الرحلة مدونها المذكور، ففي كلامه من التحفظ ما يشي بموقفه من حكاياتها وأخبارها، يقول : «وأوردت جميع ما أورده من الحكايات والأخبار، ولم أتعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختبار، على أنه سلك في إسناد صحاحها أقوم المسالك»[205].

وليس بإمكاننا تفصيل القول في هذه النقطة إلا أنه بوسعنا أن نقول إن هذه الشكوك لم تكن في كل ما ورد في الرحلة، كما أنه لم يصرح بها الكثيرون علانية.

---

(202) رحلة ابن بطوطة ص 643.

(203) نفس المصدر والصفحة.

(204) الرحلة ص 656

(205) نفسه ص 8.

ولعل مصدر هذه الشكوك راجع إلى عاملين أساسيين :

أولهما : ما أفصح عنه ابن خلدون في مقدمته، من أن الرحلة تتحدث عن بلدان بعيدة يجهل السامعون عنها كل شيء، فلا يعرفون طبيعتها، وعادات أهلها، وأنظمة الحكم فيها، ومن هنا كان استغرابهم لما يسمعون وشكهم في وجوده، إلا أن الموضوعية تقتضي التريث والتأني كما ورد في قول ابن وردار لابن خلدون «إياك أن تستنكر مثل هذا من أحوال الدول بما أنك لم تره»(206).

وابن بطوطة نفسه أحسَّ باستغراب الناس لما أتى به وشكهم في إمكان وجوده مما جعله يستعمل ألفاظا مؤكدة لرواياته يقول : «وإنما أذكر منها ما حضرته وشاهدته وعاينته، ويعلم الله تعالى صدق ما أقول وكفى به شهيدا، مع أن الذي أحكيه مستفيض متواتر»(207).

وقال في أكثر من مرة «رأيت ذلك كله وشاهدته»(208).

والعامل الثاني : يتمثل فيما امتلات به الرحلة من حكايات وأخبار وصفت بالوهم والمبالغة، والأسطورة والخرافة، لأنها لا تثبت في مجملها للمناقشة والفكر الناقد، ولقد كان ابن خلدون موضوعيا حينما حدد منهاج التعامل مع هذا النمط من الأخبار فقال : «فما دخل في نطاق الامكان قبله، وما خرج عنه رفضه، وليس مرادنا الامكان العقلي المطلق، فإن نطاقه أوسع شيء، فلا يفرض حدا بين الواقعات، وإنما مرادنا الامكان بحسب المادة التي للشيء»(209).

ويعود هذا الاضطراب في الرواية، والتضارب في الأخبار — من وجهة نظر بعض الباحثين —(210) إلى أن ابن بطوطة كان واقعا تحت تأثير ماكان شائعا في تلك المجتمعات التي عاش فيها وخبر أمورها، من مثل الاعتقادات الشعبية التي وقع فيها من جراء جهله بلغات البلدان التي زارها قبل إلمامه باللغتين الفارسية والتركية(211).

---

(206) مقدمة ابن خلدون ص 323.

(207) الرحلة ص 437.

(208) الرحلة ص 612.

(209) مقدمة ابن خلدون ص 324

(210) تاريخ الأدب الجغرافي 1 : 428.

(211) نفسه

ـــ أمانته :

أما بالنسبة لأمانة الرحالة العلمية وصدقه في ما قصه من حكايات وأخبار، «فإن روايته بوجه عام جديرة بالثقة أو أنه على الأقل قد روى ما اعتقده الحق»[212]، ولم ينفرد كراتشكوفسكي، وحده بهذا الرأي، ولكننا وجدنا آخرين أيضا يجلون ابن بطوطة عن أن يكون مختلقا للأخبار ملفقا لها، يقول سليمان البستاني : «من الصعب اتهام ابن بطوطة بالتلفيق وقصد الغش وهو رجل لا نشعر في كل سطر نقرؤه له إلا بسذاجة وبساطة نافيتين كل احتيال»[213]، وهو نفس ما عبر عنه المستشرق دوزي الذي وصفه بالرحالة الأمين[214]، والأستاذ حسن حسني عبد الوهاب الذي يرى بأنه أتى بالصحيح الموثوق به[215]، وزكي محمد حسن[216]، ونقولا زيادة[217]... فكلهم وقف موقف الموثق والمصدق لما أتى به ابن بطوطة من حكايات وأخبار.

ولقد عمل ابن بطوطة نفسه على أن يبرىء رحلته من كل اتهام، وأن يبعد عنها كل شبهة، إذ اختار منهجا يدل على التحري والتثبت من كل ما يرويه، والتوقف في كثير مما قد نسيه أو شك في صحته، وإعلان شكه هو نفسه في كثير من الأحوال، اما في صحة اسم، أو خبر، أو غير ذلك ...

ويمكننا أن نجد أمثلة كثيرة لهذا الأسلوب العلمي النزيه البعيد عن كل ادعاء واختلاق، فلقد رأيناه يستعمل عبارات التأكيد حينما يكون متأكدا تماما من الخبر الذي يسوقه[218]، أو يستعمل عبارات تفيد النفي إما لعلاقته هو بالحدث أو لوقوع ذلك الحدث في حد ذاته، ففي حديثه عن مدن الخليج مثلا يقول «ومن مدن عمان مدينة زكي لم ادخلها»[219]، وينفي اجتماعه بسلطان مدينة لار

---

(212) نفسه

(213) دائرة المعارف للبستاني 2 : 369 الروائع 4 : 202

(214) دائرة المعارف للبستاني 2 : 369

(215) رحلة التجاني، المقدمة، ص 25

(216) الرحالة المسلمون ص 138.

(217) الجغرافية والرحلات عند العرب ص 182.

(218) الرحلة ص 612.

(219) الرحلة ص 263.

قائلا : «بعث إلينا بضيافته ولم نجتمع به ولا رأيناه»(220)، وفي حديثه عن رحلته إلى القسطنطنية يعترف بعدم تيقنه من اسم المدينة التي كانت هي المرحلة الأخيرة قبل النزول بالقسطنطنية فيقول : «وفي غد ذلك اليوم وصلنا إلى مدينة كبيرة على ساحل البحر لا أثبت الآن اسمها»(221)، كما يذكر بأنه لا يعرف طريقة سلام الخاتون على أخيها ولي العهد بالقسطنطنية، لأنه «أتي بخباء حرير فدخلا فيه، فلا أعلم كيفية سلامها»(222).

وهكذا عبر ابن بطوطة في كثير من الأحيان عن عدم معرفته بأسماء الأشخاص والأماكن(223)، واعترف أحيانا بنسيانه لما سمعه أو حفظه(224)، بينما اكتفى في أحيان أخرى بالاشارة إلى وساطة النقل والرواية مثلما فعل في تحديده للمسافة الفاصلة بين صين كلان وسد ياجوج وما جوج(225)، أو مثل قوله (وحدثني من أثق به)(226)، وانطلاقا من هذا المنهج المتريث الحذر يرى صاحبا مهذب الرحلة بأنه «من الصعب على الناقد العدل أن يقول عن ابن بطوطة أنه كذب متعمدا فيما رواه»(227)، وهو نفس الحكم الذي انتهى إليه الأستاذ محمد الفاسي بعد إجراء مقارنة بين الرحلة وغيرها من الكتب في نفس الفترة(228).

وهناك ناحية أخرى لم يعرها الباحثون ما تستحقه من اهتمام، وهي ما امتاز به ابن بطوطة من صراحة ووضوح رأي، فرغم تقربه من أبي عنان وثنائه على منجزاته وآثاره، لم يكن مضللا أو مخفيا للحقائق في معرض مقارنة المغرب بغيره، قال يتحدث مثلا عن الزوايا والمدارس والخوانق «وحيطانها بالقاشاني وهو شبه الزليج

(220) نفسه ص 268.

(221) نفسه ص 334.

(222) نفس المصدر والصفحة.

(223) الرحلة ص 334.

(224) الرحلة 61. 69. 389. 676.

(225) نفسه ص 623.

(226) نفسه ص 402.

(227) مهذب الرحلة ص : ش.

(228) مجلة المغرب أكتوبر 1934 ص 14.

عندنا لكن لونه أشرق ونقشه أحسن»(229)، كما أنه لم يكن متملقا لأبي عنان وهو يتحدث أمامه عن ملك الهند وما جرى بينهما من حوار قائلا : «ثم سألني عن بلادي فقلت له بلاد المغرب، فقال لي بلاد عبد المومن فقلت له نعم»(230)، مع أن المغرب كان آنذاك تحت إشراف المرينيين وإمرتهم، ولكن أمانته في النقل جعلته يروي الحديث كما جرى تماما.

ـ إنكار بعض أجزاء الرحلة :

إلا أن بعض الباحثين قد عبروا عن موقفهم المضاد من ابن بطوطة ورحلته، فوسعوا دائرة الشك بالانكار، واتهموا الرحالة باختلاق بعض التفاصيل أو اختلاق الرحلة بكاملها. فمن هؤلاء الباحثين من جزم «بأن ابن بطوطة لم يتجول أبدا في الهند الصينية والصين واخترع هذه الرحلة بجزئياتها»(231). ومنهم من اعتبر قصة نزوله ببلاد طوالسي لها صلة بأسطورة جزيرة الوقواق، فهي قصة مختلقة من الأساس(232)، بينما شك البعض في رحلته إلى القسطنطينية لكونه لم يوضح الطريق الذي سلكه للوصول إليها(233)، وأنكر باحثون آخرون زيارته لبلاد البلغار لأن المسافة بين مدينة الماجر ومدينة البلغار تقرب من ثمانمائة ميل، فكيف قطعها ابن بطوطة في عشر(234) ؟ كما أن وصفه لأرض الظلمات الواقعة خلف هذه البلاد «إنما يرجع فيه إلى فكرة غير موثوق بها أو إلى مصدر أدبي أساء فهم روايته»(235).

ومن الأخبار التي أنكرها الباحثون أيضا ما ذكره من نظام «الأخي»... حيث يعتقد البعض أنها نموذج من مبالغات ابن بطوطة(236)، بدليل أنه لم يشر أحد من معاصري الرحالة أو بعده إلى هذه الظاهرة.

---

(229) الرحلة ص 172.

(230) نفسه ص 498

(231) Relations de voyage,P : 432 ابن بطوطة، لخصباك219.

(232) الرحالة المسلمون ص 139، انظر الرحلة ص 614 ـ 616؛ ابن بطوطة خصباك ص 245

(233) الرحالة المسلمون ص 152، ابن بطوطة لخصباك 202 ـ 203.

(234) ابن بطوطة لخصباك ص 216 ـ 218

(235) تاريخ الأدب الجغرافي 1 : 421

(236) ابن بطوطة لخصباك ص 198 : 199

وفي الحقيقة أن القارىء للرحلة يصادف كثيرا من الأوصاف والأخبار التي يمكن أن توصف بالمبالغة والتضخيم، كما يجد انقطاعا في خط السير، وانعدام الترابط والتسلسل في أحيان كثيرة، ومرد ذلك في نظرنا إلى سببين :

أولهما : أن الأخبار التي اتسمت بهذه المبالغة والتضخيم هي تلك التي لها علاقة بذكر سير الأولياء والصالحين أو كراماتهم، أو تلك المتعلقة بالسحر والشعوذة، ولعله كان في كل ذلك — كما يرى كراتشكوفسكي(237) — واقعا تحت تأثير الجو الفكري آنذاك، الذي ساد فيه التصوف وتقديس الأولياء وانتشار الخوارق والكرامات...

وفي نظري لا يمكننا أن نطالب الرحالة بأن يكون محققا لكل خبر يورده، أو ناقدا لكل قصة يذكرها فيتعرف مقدارها من الصدق أو الكذب، لأن ذلك يعد من مهمة المؤرخ والناقد، ولكن الشيىء الذي يجب أن يحرص عليه هو أن يكون الرحالة أمينا في رواياته، صادقا في كل ما يحكيه عما شاهده وما سمعه من أخبار وحكايات، ومن هنا فابن بطوطة ليس مسؤولا عما يمكن أن يكون من خرافات وأساطير فيما كان يروج بين الناس من قصص وحكايات.

فالسائح الأجنبي في المغرب مثلا — في عصرنا هذا — إذا احتك بالوسط الشعبي وسمع ما يقصه البسطاء من الناس فإنه سينقل — حين عودته إلى بلده — تلك الأخبار التي لا تثبت أمام البحث العلمي والتفكير العقلي الرزين، مع أنه لم يكن مختلقا لهذه الأخبار أو مسؤولا عما فيها من خرافات وأساطير، وأمثلة هذه الأخبار الخرافية كثيرة منها : الاعتقاد السائد بأن المسكين المحتاج، قد يجزيه حضور موسم المولى عبد السلام بن مشيش عن الرحلة المتعبة إلى الحج، واعتقاد أهل القصر الكبير بأن دعوة سيدي عبد الرحمن المجذوب على بلدهم غيرت طبيعته ومناخه، واقتناع أولاد جامع بناحية فاس بأن الحليب لا يروب في بلدهم بسبب غضب أحد الأولياء ودعوته على بلدهم بذلك.

ولقد كان الأستاذ حسين مؤنس موضوعيا حينما أدرك بأنه لا يطلب من الرحالة إلا نقل أمين لكل ما يشاهده ويحس به، يقول «وابن بطوطة لم يكن محققا، إنما كان رحالا يطرب لرؤية أي شيء لم يره من قبل، ويجتهد في نقل مشاعره إلى قرائه»(238).

---

(237) تاريخ الأدب الجغرافي 1 : 428.

(238) العربي عدد 215 ص 61 مقال حسين مؤنس

ومن أمثلة هذه المبالغات الواردة في رحلة ابن بطوطة والتي اعتبر نقلها نتيجة لوقوع الرحالة تحت تأثير معتقدات العامة، في عصره، مما جعله فاقدا ملكة المناقشة والتأمل، أقول من هذه المبالغات ما ذكره ابن بطوطة من كرامات لبرهان الدين الأعرج الزاهد بالاسكندرية[239]، والشيخ أبي عبد الله المرشدي بزاويته بمدينة فوا[240]، والشيخ جمال الدين الساوي قدوة الطائفة المعروفة بالقزندرية في دمياط[241]، والشريف أبي محمد الحسيني بمدينة هو[242]، والشيخ علي بن سهل تلميذ الجنيد بزاوية في أصفهان[243]، والشيخ رجب البرقعي بمدينة دهلي[244]، والشيخ جلال الدين التبريزي ببلاد بنجالة[245]، والشيخ الصائم بمدينة صين كلان الصينية[246]... ومن أمثلة هذه المبالغات أيضا حديثه عن مظاهر السحر بكل من الهند والصين[247]، وكذلك حديثه عن ظاهرة النساء ذوات الثدي الواحد بجزائر ذيبة المهل[248]، وحديثه عن قدم آدم عليه السلام بسيلان[249]، وحديثه عن طائر الرخ الخرافي[250].

وثاني السببين : يتمثل فيما يلاحظه القارىء للرحلة من ثغرات كثيرة نتجت عن تلك القفزات وضياع خط السير، والخطأ في ترتيب المدن والبلدان فلقد ذكر المستشرق «جب» بأن ابن بطوطة «كثيرا ما يترك نفسه في الهواء يفصله فراغ من

---

(239) الرحلة ص 20

(240) الرحلة ص 21

(241) الرحلة ص 29 ـ 30

(242) نفسه ص 47.

(243) الرحلة 195 ـ 196.

(244) الرحلة ص 529.

(245) نفسه ص 602 ـ 604.

(246) الرحلة 624.

(247) الرحلة ص 532 ـ 534، 629.

(248) الرحلة ص 581.

(249) الرحلة ص 589.

(250) الرحلة ص 634.

مآت الأميال وهو يذكر أسماء خاطئة في مواضع عديدة، لا سيما حينما يتحدث عن الأقطار غير الاسلامية»[251].

ولقد وقف الباحثون على كثير من هذه الثغرات التي تبدو لكل قارىء متتبع لتنقلات ابن بطوطة ورحلاته المختلفة، والأمثلة كثيرة متعددة نكتفي هنا بذكر البعض منها.

فهناك ثغرة تقطع على القارىء خط السير وهو يتتبع ابن بطوطة في زيارته لجزيرة سبرنديب، وبلاد المعبر، إذ يقفز منها الرحالة فجأة إلى بنغالة في شرقي الهند[252].

وكذلك الأمر حين عودة ابن بطوطة من بسطام إلى أفغانستان فقد قفز إلى قندوز وبغلان[253]، ولم ترد الاشارة للمدن والقصبات التي تقع في الطريق التي تصل بين بسطام وقندوز، مما يفترض «أن عددا من الصحائف قد سقطت في النسخ المطبوعة»[254]، ويحس القارىء بالثغرة أيضا وهو يصاحب الرحالة من بلخ إلى هرات[255]، فلو سلك فعلا هذا الطريق الواصل بين المدينتين لذكر المدن المحادية له كمدينة أقجه، وجوزجان، وشبورغان، واندخوي، وفاريساب وميمنه...[256].

ويتحدث الرحالة عن أمور كثيرة بمدينة هرات[257]. لكن مما يستغرب هو عدم ذكره لمشاهدها ومسجدها الجامع الذي كان من الأبنية الضخمة الممتازة، ومن الغريب كذلك أنه لم يشر إلى من دفن بهذه المدينة من العلماء المشهورين من مثل فخر الدين الرازي (ت 606هـ / 1209م)، وبديع الزمن الهمذاني (ت 398هـ / 1007م) وغيرهما[258].

---

(251) ابن بطوطة لخصباك ص 251.

(252) الرحلة ص 588 ــ 599، ابن بطوطة لخصباك ص 251.

(253) الرحلة ص 374.

(254) ابن بطوطة في أفغانستان ص 56.

(255) الرحلة ص 366.

(256) ابن بطوطة في أفغانستان ص 31.

(257) الرحلة ص 367 ــ 371.

(258) ابن بطوطة في أفغانستان ص 42.

وينص ابن بطوطة على أن المرحلة التالية لبلدة بروان كانت هي الجرخ[259]، إلا أن البحث يرى أن الطريق الذي سلكه من بروان إلى الجرخ لا يعرف اليوم «فلو أن ابن بطوطة كان قد سافر في الطريق المألوف لكان عليه أن يجتاز كابل وسجاوند وجرخ إحدى قصبات محافظة لوكر»[260] من أفغانستان الحالية. وحين يزور في رحلته ما كان يعرف ببلاد الروم وهو تركيا الحالية[261] «فإنه يخبرنا عن زيارته لمدن غرب البلاد بتتابع، ثم يقفز قفزة واحدة إلى مسافات شاسعة[262] في أقصى شرق البلاد، كل هذا في أيام معدودات»[263].

ويلف الغموض أيضا وصفه للطريق التي سلكها للوصول إلى الصين[264] وطريق تنقله بين البلاد الصينية نفسها، فلم يلتفت مثلا إلى المدن الواقعة بين قنجنفو والخنسا خلال رحلة استغرقت عشرين يوما[265].

فهذه الأمثلة المذكورة ــ وكثير غيرها ــ تؤكد ما لاحظه النقاد والباحثون من أن هناك بترا في مواطن عديدة من الرحلة، واختلالا في بنائها، مرده تلك القفزات والثغرات التي أشير إلى بعضها.

فما هو سبب هذا الاضطراب في بناء الرحلة والاختلال في أجزائها ؟ يمكن إرجاع ذلك إلى جملة أسباب :

أولها : الاعتماد على الذاكرة في قص أحداث الرحلة وذكر تفاصيلها، فابن بطوطة لم تكن له مذكرات يرجع إليها ويتذكر بها الظروف والأحوال والأشخاص والمواقف، بدليل أنه كان يصرح أحيانا بعجزه عن تذكر أسماء الأماكن والأشخاص، فضلا عن ترتيب هذه الأماكن وتذكر مواقفها في الطريق التي مر منها.

---

(259) الرحلة ص 376.

(260) ابن بطوطة في أفغانستان ص 68.

(261) الرحلة ص 273 ــ 308.

(262) نفسه ص 281 ــ 284.

(263) مقدمة الكتاني في تحقيقه للرحلة ص 19 ــ 20.

(264) الرحلة ص 616 ابن بطوطة لخصباك ص 251.

(265) الرحلة ص 625 ــ 626 ابن بطوطة لخصبالك ص 256.

وسواء كان هذا المنهاج عائدا إلى ضياع للمذكرات منه كما أشار إلى ذلك، وهو يتحدث عما رآه مقيدا على قبر الامام أبي عبد الله البخاري حين وقف على قبره ببخارى يقول : «وكنت قيدت من ذلك كثيرا وضاع مني في جملة ما ضاع لي لما سلبني كفار الهند في البحر»(266)، أو أنه كان راجعا إلى أن ابن بطوطة لم يدون مذكرات منظمة في الأصل، لأنه لم يكن «يهدف إخراج صورة متكاملة الجوانب لوصف أسفاره، بل اكتفى بأن يقص على سامعيه حوادث معينة وقطعاً متفرقة»(267)، يؤيد هذا الافتراض ما اتبعه ابن بطوطة في المراحل التي تلت زياته للهند، إذ وجدناه يسلك نفس المنهاج بعد ذلك في الاملاء والتدوين، ففي رحلته للسودان، ولو أنه دون رحلته بعد عودته منها مباشرة نجده يعترف كذلك بالنسيان ويقع في الخلط والارتباك في الرواية والقصة.

السبب الثاني : يتمثل في جهل الرحالة بلغات البلدان التي زارها على الأقل في المراحل الأولى من الرحلة، فلقد أشار أكثر من مرة إلى ما كان يلقاه من مضايقات، وما يحدث له من مشاكل، من جراء الجهل التام بهذه اللغات، خاصة في السنوات الأولى من الرحلة(268)، فلم تظهر قدرته على التخاطب باللغة الفارسية إلا حين دخل جزائر ذيبة المهل، إذ يتسرى جارية ويظهر إعجابه بها لمعرفتها اللسان الفارسي،(269)، إلا أنه لم يملك ناصية الفارسية وتنمح عنده عقدة اللغة إلا وهو في أواخر رحلته الكبرى حوالي سنة خمس وأربعين وسبعمائة، إذ بدأ يستعمل الفارسية بطلاقة ويرتاح إلى التعبير بها، وهكذا يقول عن سلطان سيلان الذي أكرمه واحتفى به «وكان يفهم اللسان الفارسي ويعجبه ما أحدثه به عن الملوك والبلاد»(270)، ويبدو بعد هذا قادرا على الفهم والتعبير بالفارسية والتركية أيضا. فلقد قال عن الذين أسروه وسلبوه وهو في طرفه إلى الصين : «وكان معهم مسلمان كلماني بالفارسية وسألني عن شأني فأخبرتهما ببعضه»(271).

---

(266) الرحلة ص 354.

(267) تاريخ الأدب الجغرافي 1 : 427.

(268) الرحلة ص 279 ــ 299.

(269) الرحلة ص 574.

(270) الرحلة ص 584.

(271) نفسه ص 523.

وإذن فإن الكثير مما في الرحلة من النقص والفهم السيء ناتج عن انقطاع وسيلة التواصل بين الرحالة وبين تلك المجتمعات التي تحدث عنها خاصة في أوائل الرحلة يقول كراتشكوفسكي : «أما الأخطاء التي وقع فيها فليست بالقليلة ويجب ألا يغيب عنا أنه لم يكن على معرفة بلغات الهند التي زارها وهو فيما عدا العربية كان ملما ببعض الفارسية وربما التركية كذلك»(272)، واستعماله للتركية وقدرته على التعبير بها لم يبدوا إلا في أواخر الرحلة أيضا إذ وجدناه يتحدث بها دون واسطة في بلاد طوالسي(273).

وهناك **سبب آخر** يتمثل في أن ابن بطوطة كان قد أملى رحلته كما هو معروف على ابن جزي(274) الذي نقحها ورتب أحداثها ورواياتها، فمسؤولية ما في الرحلة تقع على الرجلين معا، ورغم أننا نحس في كل صفحات الرحلة بأمانة ابن جزي وحرصه على تمييز ما أملاه عليه الرحالة، مما أضافه هو أو نقله عن ابن جبير وغيره، إلا أن الباحثين لا يبرئونه تماما من مسؤولية فيما اعترى الرحلة من نقص أو ارتباك، يقول كراتشكوفسكي، «وعلينا أن نأخذ دائما في اعتبارنا جميع الظروف التي تم فيها تدوين الرحلة بحيث إنا إذا ما قسونا في حكمنا على ابن بطوطة فيجب ألا ننسى أن كثيرا من اللوم الموجه إليه يمكن أن يكون ناشئا عن ابن جزي»(275)

والحقيقة أنه في أحيان كثيرة يختلط على القارىء كلام ابن بطوطة وما أقحمه ابن جزي في الرحلة فلا توجد تلك الألفاظ التي تفيد الفصل مثل حديثه عن بغداد...(276)

وربما يعزي هذا الاختلال إلى ما أشرنا إليه من قبل من أن الرحلة التي أملى ابن بطوطة نصوصها وراجعها ودقق في أخبارها وتثبت في عباراتها ورواياتها، لم نطلع عليها بعد، وما يتداوله الناس باسم الرحلة ليس إلا تلخيصا لها بدليل ما صرح به ابن جزي نفسه حين قال : «انتهى ماالخصته»(277).

---

(272) تاريخ الأدب الجغرافي 1 : 428

(273) الرحلة ص 615.

(274) مراجع ترجمته في الاعلام للزركلي 7 : 37.

(275) تاريخ الأدب الجغرافي 1 : 426 الموسوعة الاسلامية (بالفرنسية) 1 : 101.

(276) الرحلة ص 215 — 217.

(277) نفسه ص 681.

ـــ أهمية الرحلة وصحة معلوماتها :

وإذا عدنا إلى الرحلة لنناقش أخبارها ومضامينها بتجرد، ودون أن نكون واقعين تحت تأثير هذه الأحكام السالفة الذكر الموحية بالشك أو الانكار فيما ساقه الرحالة من أخبار ووقائع وحكايات، فإننا ــ بدون شك ــ سنتفق مع دوزي في وصف ابن بطوطة بالرحالة الأمين[278] وذلك لعاملين اثنين :

أولهما : اتفاق ملاحظاته ورواياته مع من زار تلك المناطق البعيدة التي أثارت الشك في الرحلة، فالمعلومات التي دونها الرحالون الآخرون الذين مروا بنفس المناطق التي وصفها ابن بطوطة سواء قبل الفترة التي رحل فيها أو بعدها بقليل، تثبت صحة ما ذكره عن جنوب روسيا، أو الهند، أو الصين، أو مصر... ويمكن أن يقارن في هذا المجال بين ابن بطوطة وغيره من الرحالين الذين زاروا هذه البلدان كابن فضلان الذي رحل في القرن الرابع الهجري، وأبي حامد الغرناطي الأندلسي الذي رحل في القرن السادس الهجري، وماركو بولو الايطالي الذي رحل قبل ابن بطوطة بنحو نصف قرن، وفريسكو بالدي الايطالي أيضا الذي رحل بعد ابن بطوطة بنحو نصف قرن من الزمان.

فمن خلال إشارات هؤلاء وملاحظاتهم نتبين تشابه المعلومات والأخبار والحكايات التي أوردوها في مذكراتهم، تلك الحكايات التي اتهم ابن بطوطة باختلاق أغلبها. ويحسن أن نتوقف مع ابن بطوطة وكل من ابن رضوان وأبي حامد الغرناطي في الموضوعات التالية :

أ ــ قضية قصر الليل بمدينة بلغار، ويسوق ابن بطوطة تجربته على هذا الشكل : «ووصلتها في رمضان فلما صلينا المغرب أفطرنا وأذن بالعشاء في أثناء إفطارنا، فصليناها وصلينا التراويح والشفع والوتر وطلع الفجر أثر ذلك»[279] ولقد أعلن ابن فضلان قبله اندهاشه أيضا بقوله وقد شاهد هذه الظاهرة لأول مرة «فتحدثنا بمقدار ما يقرأ إنسان أقل من نصف سبع، ونحن ننتظر أذان العتمة فإذا بالآذان فخرجنا من القبة وقد طلع الفجر، فقلت للمؤذن أي شيء ؟قال أ ذان الفجر، قلت فالعشاء الآخرة ؟ قال نصليها مع المغرب قلت فالليل ؟ قال كما ترى»[280].

---

(278) دائرة المعارف للبستاني 2 : 369.

(279) رحلة ابن بطوطة ص 325.

(280) رسالة ابن فضلان ص 153 ــ 154.

ويعرض أبو حامد الغرناطي هذه الظاهرة الطبيعية بطريقة علمية فيقول : «طول النهار ببلغار يبلغ عشرين ساعة وليلهم يبقى أربع ساعات،وإذاقصر نهارهم يعكس ذلك»(281).

ب ــ عادة إحراق الموتى بالهند، أو إحراق الزوجات لأنفسهن بعد وفاة أزواجهن، فإن تضحية المرأة بحياتها من أجل اللحاق بالزوج يعتبر قمة في النبل، ورمزا للوفاء في عرف المجتمع آنذاك، تحدث ابن بطوطة عن ذلك قائلا : «وإحراق المرأة بعد زوجها عندهم أمر مندوب إليه غير واجب، لكن من أحرقت نفسها بعد زوجها أحرز أهل بيتها شرفا بذلك ونسبوا إلى الوفاء»(282). وتحدث عن هذه الظاهرة ابن فضلان منذ القرن الرابع الهجري فذكر بأن عادة حرق الموتى عندهم كانت مستحكمة، فالموتى على اختلاف طبقاتهم يحرقون سواء كانوا حكاما أو رعايا، أغنياء أو فقراء... كما ذكر بأن زوجة الميت تحرق كذلك، فيكون يوم الحرق بمثابة عيد يهتم به ويحتفل بالاستعداد له، إذ من عاداتهم تقسيم مال الهالك إلى ثلاثة أقسام اثنان منها يخصصان لتجهيز هذا الميت، وإعالة ورثته «وثلث ينبذون به نبيذا يشربونه يوم تقتل جاريته نفسها، وتحرق مع مولاها»(283).

ج ــ حديث ابن بطوطة عن طائر الرخ يزيدنا ثقة بما ذكره في رحلته من أخبار وحكايات غريبة، فإذا كان الرحالة لم يختلق وصفا غريبا لهذا الطائر الأسطوري ولم يدع بأنه عرفه أو خبر أحواله، بل اكتفى بأن ينقل ما ساد بين التجار من قلق وهلع وخوف وهم يرون سفينة على وشك الاصطدام بجبل ضخم، وما ذلك الجبل إلا هذا الطائر العجيب، كما وضح التجار ذلك قائلين : «إن الذي تخيلناه جبلا هو الرخ وإن رآنا أهلكنا، وبيننا وبينه إذ ذاك أقل من عشرة أميال، ثم أن الله تعالى من علينا بريح طيبة صرفتنا عن صوبه فلم نره ولا عرفنا حقيقة صورته»(284).

---

(281) تحفة الألباب ص 237.

(282) رحلة ابن بطوطة 397.

(283) رسالة ابن فضلان ص 181.

(284) الرحلة ص 634.

فإن أبا حامد الغرناطي كان قد ذكره من قبل ضمن عجائبه يقول : «ويكون في جزائر بحر الصين طائر يعرف بالرخ يكون جناحه الواحد عشرة آلاف باع»(285)، ثم يتحدث عن ضخامة هذا الطائر، وغرابة بيضته وذلك من خلال إيراده لقصة رواها له أحد المغاربة العائدين من بحر الصين، ومضمنها أن ذلك المغربي ورفقاءه المسافرين نزلوا بجزيرة عظيمة حيث شاهدوا بيضة الرخ التي ظنوها قبة في علو مائة ذراع، فأثار ذلك فضولهم وإعجابهم «وجعلو يضربونها بالفؤوس والخشب والحجارة حتى انشقت عن فرخ الرخ كأنه جبل»(286).

ويصفه مركو بولو أيضا حينما مر بهذه المناطق فذكر بأنه «يشبه النسر من كل الوجوه إلا أنه جرم هائل فأجنحته ممتدة تغطي ثلاثين خطوة، ويبلغ طول ريشته اثنتي عشرة خطوة»(287).

حديث ابن بطوطة عن هذا الطائر ــ كما رأينا ــ كان أكثر موضوعية ودقة، فلم يتحدث إلا على ما شهده أو سمعه، ولم يغامر بنقل خبر لم يتحر حقيقته وكنهه.

د ــ وصف حيوان الكركدن : ويختلف الأمر هنا لأن ابن بطوطة لا يتحدث عنه حديث تخيل أو سماع، ولكنه يتحدث عنه حديث من رآه رأي العين، إذ قد خرج عليهم هذا الحيوان الضخم في غيضة من القصب بعد اجتياز نهر السند، فيتعجبون من قوته وقد فشل أحد الفرسان في النيل منه. يقول ابن بطوطة في وصفه الدقيق له «وصورته أنه حيوان أسود اللون عظيم الجرم رأسه كبير متفاوت الضخامة، ولذلك يضرب به المثل فيقال الكركدن رأس بلا بدن، وهو دون الفيل، ورأسه أكبر من رأس الفيل بأضعاف، وله قرن واحد بين عينيه، طوله نحو ثلاثة أذرع وعرضه نحو شبر»(288). وكان أبو حامد الغرناطي قد وصفه أيضا، وهو وإن أشار إلى ضخامته مثل ابن بطوطة، إلا أنه أشار إلى خاصية لهذا الحيوان لم يتعرض لها ابن بطوطة وهي شدة تأثير لسانه على الأجسام الأخرى حتى أن ملوك الصين كانوا إذا عذبوا أحدا سلموه إلى الكركدن يلحسه بلسانه فتبقى عظامه ليس عليها شيء

---

(285) تحفة الألباب ص 108.

(286) نفسه ص 109.

(287) رحلة مع ابن بطوطة ص 359.

(288) الرحلة ص 381.

من اللحم، كما أشار في وصفه إلى أن له ثلاثة قرون وهذا يخالف وصف ابن بطوطة الذي رآه عن قرب، ومما جاء في وصف أبي حامد قوله «وفي جزائر الصين والهند الكركدن حيوان طوله مائة ذراع وأقل وأكثر له ثلاثة قرون»[289].

هـ ــ ذكر قدم آدم بجبل سرنديب في جزيرة سيلان، وهو من الأخبار التي كانت موضع شك لدى بعض الباحثين، إذ اتهم ابن بطوطة باختلاق هذا الخبر أيضا واختراعه، لكننا إذا أمعنا النظر فيما ورد في الرحلة من جهة، وما أشار إليه الرحالة الآخرون من جهة أخرى فإننا نتبين صدق ابن بطوطة وأمانته في روايته، وبالتالي صحة هذا الخبر الذي نحن بصدده، فلقد أورد هذا الخبر من قبل الرحالة أبو حامد الغرناطي في «تحفة الألباب» إلا أن حديث ابن بطوطة كان أكثر دقة وتفصيلا، لأن أبا حامد اكتفى في روايته بالنقل عن أبي العباس الحجازي الذي قال : «دخلت جزيرة سرنديب وهي جزيرة عظيمة في وسطها جبل الراهون الذي نزل عليه آدم عليه السلام»[290]، أما ابن بطوطة فقد حدد موقع هذه القدم والطريق الموصلة إليها، وعادة زيارتها التي تتكرر ثلاثة أيام، ثم وصفها وصفا دقيقا[291].

و ــ عادة شرب النبيذ في القرم، ولقد ذكر ابن بطوطة بأن الناس في هذه المنطقة على اختلاف طبقاتهم ومشاربهم، يتناولون هذا النبيذ المعروف عندهم بالبوزه، لكونهم على مذهب الحنفية الذي يحلل شربه واستعماله، لذلك قدم لابن بطوطة بعد تناول الطعام بزاوية هناك في منطقة القرم (جنوب روسيا)[292] ويتفق هذا مع ما أشار إليه ابن فضلان وهو يمر بهذا البلد فتحدث هو كذلك على عادة ادمان الروسيين شرب النبيذ قائلا : «وهم مستهترون بالنبيذ يشربونه ليلا ونهارا، وربما مات الواحد منهم والقدح في يده»[293].

---

(289) تحفة الألباب ص 109 ــ 110.

(290) تحفة الألباب ص 106.

(291) رحلة ابن بطوطة ص 588 ــ 589.

(292) نفسه ص 313.

(293) رسالة ابن فضلان ص 181.

ومن خلال هذه المقارنات السريعة بين ابن بطوطة ومن رحل قبله إلى هذه المناطق نتأكد من زيف ادعاء المتشككين في نزاهة الرحالة ابن بطوطة، ومغالاة المنكرين للرحلة من الأساس، أو لهذه الأخبار التي كانت موضع المقارنة على الخصوص، بل على العكس من ذلك، نتبين موضوعية الرحالة وتحريه في رواية الأخبار والحكايات، ودقته في الوصف والنقل.

ونصل إلى هذا الاقتناع كذلك حين نقارن بين الرحالة المغربي وماركوبولو الايطالي فيما تحدث به عن الصين، مع أن هناك من تحامل على ابن بطوطة فاعتبره مختلقاً لرحلته في هذه البلاد، مخترعا لتفاصيلها وجزئياتها(294).

وليس بإمكاننا إحصاء كل مواطن الاتفاق بين الرحالتين في حكاياتهما وأخبارهما وأوصافهما، وفي كل أحاديثهما عن الصين، فلقد استأثر هذا البلد باهتمام ماركوبولو الذي تكاد رحلته تقتصر على ذكر الصين بما دونه من تفاصيل وجزئيات عن مدنها وأهاليه، خصوصا وقد استقر بها حوالي سبعة عشر عاما تقلد خلالها مناصب هامة وتجول في مناطقها ونواحيها، فمكانة الصين في رحلة ماركوبولو كالمكانة الهامة التي تحتلها الهند في رحلة ابن بطوطة كما وكيفا، ومع ذلك فإن الصفحات المعدودة التي خصصها ابن بطوطة لمشاهداته في الصين تجمل ملاحظاته واستنتاجاته من زيارته لها وهي ملاحظات واستنتاجات تكاد تتفق في معظمها مع ما ذكره الايطالي قبله بنصف قرن من الزمان.

فلقد وصف كل من الرحالتين ــ في زيارتهما للصين ــ مدينة الخنسا (هانج تشاو)، وأشارا إلى مميزاتها ومعالمها، فكانت المعلومات التي ذكراها متقاربة متشابهة، وهكذا تحدث كل منهما عن ضخامة هذه المدينة وشهرتها، فوصفها(295) ماركوبولو بالعظمة والروعة، فهي تضم اثني عشر قسما، كل قسم من هذه الأقسام يزيد في اتساعه على اتساع مدينة البندقية برمتها، كما أن طريق المدينة الرئيسي يبلغ عرضه مائتي قدم، ولقد أكد ابن بطوطة هذه الحقائق حين قال «وهذه المدينة أكبر مدينة رأيتها على وجه الأرض طولها مسيرة ثلاثة أيام، يرحل المسافر فيها وينزل»(296).

---

(294) Relation de voyage. P : 432 ابن بطوطة لخصباك ص 219.

(295) العربي عدد 220 ص 111، تراث الانسانية مجلد 2 عدد 10 ص 804.

(296) الرحلة ص 627.

ويذكر ماركوبولو بأن المدينة كانت ـــ حين دخوله إليها ـــ مقصد الرحالين والتجار يؤمها الجميع، وتدخل فرضتها الواسعة كثير من كبريات السفن الآتية من الهند وبورما وسيلان، والتي تحمل سلعا مختلفة[297]، ويراها ابن بطوطة كذلك بعد نصف قرن، فلم تتغير، ولم يقل رواجها التجاري، يقول : «واجتمعت بذلك الخليج من السفن طائفة كبيرة لها القلاع الملونة ومظلات الحرير»[298]. وتتفق ملاحظاتهما كذلك فيما وصفا به مدينة الزيتون (تشانجشاو)، إذ يرى (ماركوبولو) بأن ميناء هذه المدينة يعد أكبر موانىء التجارة الأجنبية في الصين[299]، وهو نفس ما ذهب إليه ابن بطوطة حين قال : «ومرساها من أعظم مراسي الدنيا أو هو أعظمها، رأيت به نحو مائة جنك كبار، وأما الصغار فلا تحصى كثرة»[300].

ويتشابه أيضا ما سجلاه من اندهاش وهما يريان بالصين الفحم الحجري لأول مرة، إذرأى ماركوبولو حجرا أسود يحترق فتكون له نار عظيمة وتتولد منه طاقة كبيرة[301]، أما ابن بطوطة فقد وصفه بدقة تجعله متفوقا على وصف سابقه، قال : «وجميع أهل الصين والخطا إنما فحمهم تراب عندهم منعقد كالطفل عندنا، ولونه لون الطفل وتأتي الفيلة بالأحمال منه، فيقطعونه قطعا على قدر قطع الفحم عندنا، ويشعلون النار فيه فيقد كالفحم وهو أشد حرارة من نار الفحم»[302]. يتبين إذن من خلال هذه الأمثلة السابقة تطابق أخبار الرحالتين وتشابه ملاحظاتهما ومشاهداتهما في بلاد الصين، فلم يقع بينهما تناقض في وصف، أو تضارب في خبر، وإنما قد يختلفان في طريقة تقديم الحكاية والخبر أو الوصف، فيميل أحدهما إلى الايجاز في موطن قد يوثر فيه الآخر التفصيل والعكس، مما جعل الرحلتين كلا منهما مكملة للأخرى خاصة فيما يتعلق بالصين.

يقول كارل بروكلمان مقارنا بين الرحلتين ومؤلفيهما : «وإنما يؤلف كل من هذين الأثرين تتمة صالحة للآخر في ما يتصل بمعرفتنا بآسية، لأن الرحالة البندقي

---

(297) العربي عدد 228 ص 111.

(298) الرحلة ص 629.

(299) تراث الانسانية مجلد 2 عدد 10 ص 810.

(300) رحلة ابن بطوطة ص 621.

(301) تراث الانسانية نفس العدد السابق ص 809.

(302) رحلة ابن بطوطة ص 618.

وفق في أن يقدم إلينا حقائق عن الشرق الأقصى أصح بكثير من تلك التي تسنى للرحالة المراكشي[303] إيرادها، في حين عوض هذا الأخير من ذلك النقص بما كان له من معرفة أوثق بالأحوال الثقافية في العالم الذي وصفه، إن أحدا منهما لم يكن عالما جغرافيا، ولكن معلومات الرحالة المسلم الطوبوغرافية أوثق وأجدر بالاعتماد من تلك التي نجدها في رحلة زميله النصراني»[304]. ولا يختلف باحث موضوعي على أن المعلومات التي يوردها ابن بطوطة هي فعلا أوثق في النقل، وأكثر اعتدالا في الحكم والوصف، فالاقتصاد في الحكم، والبعد عن المبالغة، والتثبت في الرواية هي سمة الرحالة في كثير من أخبار رحلته، ويكفي أن نقابل بعض ما ذكره عن مصر بما دونه الرحالة الايطالي فريسكوبالدي في زيارته لهذا البلد بعد ابن بطوطة بحوالي نصف قرن. فلقد ذكر ابن بطوطة أن بنيل مصر «من المراكب ستة وثلاثين ألفا للسلطان والرعية، تمر صاعدة إلى الصعيد ومنحدرة إلى الاسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات والمرافق»[305]، فاعتبر البعض أن هذا الكلام من المبالغات والمغالاة التي تفتقر إلى التأني والتثبت، لكننا إذا قارنا هذه الأخبار بما دونه فريسكوبالدى تتراءى لنا نزاهة ابن بطوطة ومنهجه العلمي، الرصين يقول الرحالة الايطالي «كان في القاهرة عدد عظيم من المراكب حتى أنه لو جمعت المراكب التي شاهدتها في جنوى البندقية، وأنكونا بصرف النظر عن المراكب ذات القنطرتين لما عادلت ثلث المراكب التي شاهدتها هنا»[306]، مع العلم أن زيارة فريسكو بالدى لمصر تمت في ظروف عرفت فيها الحياة الاقتصادية خمولا عما كانت عليه في وقت دخول ابن بطوطة إليها، فحركة المراكب ــ في وقت فريسكوبالدى ــ كانت قد خفت بهبوط مصر عن درجة رخائها العالية في عهد محمد بن قلاوون[307]. ويقدر ابن بطوطة عدد السقائين على الجمال في مصر باثنى عشر ألفا سقاء والمكاري بثلاثين ألفا[308]، وهو تقدير اعتبره البعض كذلك مفتقرا إلى الموضوعية العلمية، لكننا إذا

---

(303) يقصد المغربي.

(304) تاريخ الشعوب الاسلامية ص 340.

(305) رحلة ابن بطوطة ص 32.

(306) دائرة المعارف للبستاني 2 : 369.

(307) دائرة المعارف للبستاني 2 : 369.

(308) رحلة ابن بطوطة 32.

قابلناه بما ذكر فريسكوبالدي نجد الرحالة الايطالي هو الذي يجب أن يوصف بالمبالغة والاندفاع وعدم التثبت والتروي، فهو يقدر عدد الجمال والحيونات التي تنقل الماء في المدينة بمائة وثلاثين ألفا(309).

ــ **والعامل الثاني** : الذي يزكي ابن بطوطة وينفي عنه كل تهم الاختلاق والكذب، ما انتهى إليه الكثير من الباحثين في عصرنا من تأكيد حكاياته ورواياته بعد تصديهم لمواكبة الرحالة وتتبع آثاره في المناطق المختلفة التي زارها، إذ سايره البعض في بلاد السودان، بينما تتبع خطاه البعض الآخر في مالديف، وسيلان، وأفغانستان، وإيران، وروسيا...

ولقد أثبت هؤلاء الباحثون بعد القيام بجولاتهم في هذه المناطق، واستشارة المصادر التاريخية، صحة المعلومات التي احتفظت بها الرحلة وأمانة صاحبها في الرواية والنقل والحكاية.

وهكذا استنتج دوسلان(310) ــ وهو يزور السودان ــ بأن ابن بطوطة أظهر الملاحظة الجيدة في سفره داخل إفريقيا، كما توصل إلى هذه النتيجة أيضا الباحث ولكنار(311) الذي تبين أن كل ماذكره الرحالة يتفق في غالب النقط مع ما جاء في كتب الرحالين المعاصرين عن السودان.

أما الباحث خليل الله خليلي فقد صاحب ابن بطوطة فيما يسمى اليوم بأفغانستان، وحاول أن يقابل ما ورد في الرحلة بما شاهده اليوم في هذا البلد من آثار وطرق ومعالم، وما بقي من عادات وتقاليد، فتوصل إلى التأكد من صحة رواياته رغم ما في أخباره من ثغرات كما ذكرنا، وهكذا توقف معه بالمسجد الجامع في بلخ(312) وبلدة غزنة، وكابل(313).

---

(309) دائرة المعارف للبستاني 2 : 369.

(310) المجلة الأسيوية سنة 1843 ص 184.
بحث Deslane

(311) Recherches géographiques. P : 29.

(312) ابن بطوطة في أفغانستان ص 23، الرحلة ص 365.

(313) نفس المصدرين.

ويقتفي العبودى أيضا خطى الرحالة في جزر المالديف (ذيبة المهل) فينتهي إلى أنه صادق في ما ذكره عن هذه الجزر، فرغم الفرق الزمني الذي يزيد على سبعة قرون، يستطيع الزائر هذه البلاد السير على هدي الملاحظات الجغرافية والاجتماعية التي وردت في رحلة ابن بطوطة، من ذلك أن هذه الجزر التي عدها ابن بطوطة من عجائب الدنيا(314) يبلغ عددها نحو ألفي جزيرة، وهذا العدد وإن لم تؤكده الاحصاءات الحالية التي حصرت عدد الجزر في 1087 جزيرة(315)، إلا أن الرحالة ربما اعتمد في هذا على النقل عن غيره فلا يتحمل المسؤولية حينئذ.

ومن هذه الملاحظات قضية إسلام أهل الجزر، ولقد قرأ العبودي نقشا ــ بشأنها ــ على لوح خشبي يعود إلى سنة 738هـ ونصه «أسلم السلطان أحمد شنورازه على يد أبي البركات البربري المغربي» وهو نفس ماكان قرأه ابن بطوطة على مقصورة الجامع(316).

وهكذا كانت رحلة ابن بطوطة دليلا يرشد السائح ــ الباحث العبودي ــ إلى مواطن كثيرة، ويثير لديه تساؤلات عديدة، فيسأل عن الودع الذي كان عملة البلاد زمن الرحالة، فيقدم له صاحب الحانوت قبضة من هذا الودع(317)، ويسأل عن غابات النار جيل التي رآها ابن بطوطة فيخبرونه بأن الأهالي قطعوها من أجل الانتفاع بالأرض(318).

ويتأكد العبودي ــ في بحثه ــ من صحة حكايات الرحالة ابن بطوطة واستمرار كثير من العادات التي نص عليها كنزارة الصداق في الزواج وأن هذه الظاهرة الاجتماعية ما زالت إلى الآن موجودة(319)، ومثل طريقة صنعة القوارب والمراكب فلقد شاهد العبودي استمرارها بالطريقة التي ذكرها ابن بطوطة (320). ولقد تبين

---

(314) رحلة ابن بطوطة ص 561.

(315) رحلة إلى جزر المالديف ص 87.

(316) نفسه ص 51 رحلة ابن بطوطة ص 569.

(317) رحلة إلى جزر المالديف ص 34 ــ 35

(318) نفسه ص 12، 54.

(319) نفسه ص 37، ــ 38 الرحلة ، ص 567.

(320) رحلة إلى جزر المالديف ص 54 الرحلة ص 565.

للعبودي ــ وهو يتجول في هذه الجزر ــ صدق ابن بطوطة وأمانته في وصفه للعادات التي مازال بعضها إلى الآن، وفي حديثه عن الناحية الجغرافية والاقتصادية التي لم تنمح معالمها نهائيا، وفي ذكره للكلمات المالديفية التي مازال أكثرها مستعملا إلى الآن، ولهذا عد الباحثون ابن بطوطة من الرواد، إذ اعتبر وصفه التفصيلي لهذه الجزر من أول ما وجد[321].

أما الدكتور فيصل السامر فيعتبر الرحلة إلى الهند وجزر الهند الشرقية والصين «من أعظم الرحلات التي قام بها الرحالة عربا وغير عرب عبر التاريخ الوسيط برمته، فهي تحفل بالمشاهدات الدقيقة والملاحظات الطريفة المفيدة سواء منها الملاحظات التاريخية أو الاجتماعية أو البشرية»[322]، ومن هنا يرى بأنه لولا ما كتبه ابن بطوطة عن الهند وهذه البلاد لكان من العسير على المؤرخين كتابة تاريخ مفيد لهذه المناطق[323]، ويرى المستشرق جب بأن رحلة ابن بطوطة إلى الصين هي رحلة حقيقية بالرغم من أنها رويت باختصار شديد[324].

ولقد تحقق الباحثون الذين صاحبوه في زيارته للاتحاد السوفياتي[325] من وجود المواقع والمدن التي زارها ابن بطوطة، والعادات التي تحدث عنها، والأخبار التي حكاها في مدن جنوب روسيا مثل مدن الكرش، القرم، أزاق، الماجر... فقدم معلومات لم تختف إلى الآن من عادات روسيا وأنماط العيش بها كعادة تناول لبن الخيل، وأكلة الرشتة، وشرب النبيذ المعروف بالبوزة. وعاده الغناء باللحن الفارسي والتركي[326].

---

(321) رحلة ابن بطوطة تقديم V. Monteil : للطبعة الفرنسية 1 : 17.

(322) الأصول التاريخية للحضارة العربية الاسلامية في الشرق الأقصى 32.

(323) نفسه ص 81.

(324) ابن بطوطة لخصباك 250.

(325) مثل مقال د. عبد الهادي التازي المناهل 2 : 65 ــ 96.

(326) أخبرني أستاذي بأنه التقى بأحد الأندونيسيين سنة 1959 في جامعة لندن، وهو يحضر أطروحة لنيل الدكتوراة حول ابن بطوطة في أندونيسيا لاعتقاده بأن المعلومات التي ذكرها الرحالة عن هذا البلد هي أقدم المعلومات وأصحها.

ـــ الاهتمام بالرحلة :

وبالرغم من أهمية هذه الرحلة وقيمة ما ورد فيها من معلومات وأخبار، فإنها ظلت مجهولة فترة طويلة. إذ لم تعرف قيمتها ويكشف عنها إلا في القرن التاسع عشر(327) بعد أن تنبه المستشرقون خاصة إلى قيمة ما تتضمنه من معلومات، وما تنفرد به من تفاصيل وحقائق تاريخية، فاتجهوا إليها بالدراسة، والتحليل، والنشر، والترجمة والتعريف، والمقارنة...

ومن الذين كان لهم السبق في الاشتغال بهذه الرحلة من المستشرقين العالمان سيتزن (Sétzen) وبوركهارت (Burckhardt) بعد أن عثر الأول على نسخة من مختصر الرحلة فقدمه ملخصا في مجلة ألمانية سنة 1808 م(328)، أما الثاني فقد عثر أيضا على ثلاث نسخ من مختصر آخر للرحلة أطول من الأول، وهذا هو الذي ترجمه لي (lée) إلى الأنجليزية مع تعليقات وحواشي. ثم توالى بعد ذلك الاشتغال بالرحلة والاهتمام بصاحبها، فقدم كوزغارتن (Koségarten) تحليلا عاما للرحلة وانتخب منها ثلاثة مقتطفات مصحوبة بالترجمة والتعليقات، وتابعه تلميذه أبتز (APTZ) في ترجمة مقتطفات منها إلى اللاتينية كذلك، إلا أن كل استفادة من هذه الرحلة كانت بواسطة الملخصين المشار إليهما، فلم يعرف نص الرحلة بشكله الحالي إلا في منتصف القرن التاسع عشر بعد أن أخرج العالمان الفرنسيان دفريمري (Défrémery) وسانكينيتي (Sanguinetti) أول طبعة متضمنة للنص العربي مع ترجمته إلى الفرنسية، وكان هذا أول إخراج علمي للرحلة، مما جعل الطبعة الفرنسية معتمد كل من اشتغل بالرحلة فيما بعد سواء بالنشر أو الدراسة أو الترجمة...(329).

ومنذ ذلك الوقت حرص الكثيرون على دراسة الرحلة وإخراجها أو ترجمتها والتعليق عليها، فترجمت إلى لغات عديدة، وهكذا ترجمها مجيك (Mzik) إلى الألمانية، ونقلها جب (GIBB) إلى الأنجليزية مع تعليقات على أخبارها، ونقلها إلى

---

(327) تاريخ الأدب الجغرافي 1 : 432، تراث الانسانية مجلد 3 عدد 2.

(328) مجلة المغرب غشت 1934 ص 13، الروائع 4 : 204.

(329) تراث الانسانية مجلد 3 عدد 2 ص 115 مقال د. محمد الصياد.

التركية العالمان محمد شريف، ومحمد جودت، وترجمها إلى التشيكية العالم هربك (Hrbek)، وإلى الايطالية العالم كابربيلي (Gabriéli)، وترجمت إلى لغات أخرى كالبولندية، والمجرية، والروسية[330]...

واهتم بعض الباحثين بنشر نصوص من الرحلة مع ترجمتها إلى لغة معينة من أجل التعريف بتلك المناطق التي تحدث عنها الرحالة، من هؤلاء المستشرقين دولوريي (Dulaurier)، وفراند (Ferrand)، والمستشرق الفرنسي دوسلان (De Slane)، وزميله ولكنار (Walckenaer) والعالم الألماني ريتر (Ritter) ...وغيرهم. كما لقيت هذه الرحلة في عصرنا اهتماما متزايدا من العلماء والناشرين العرب، إذ ظهرت طبعات كثيرة لها في مصر، وبيروت، وبغداد... وكتبت دراسات على الرحلة وصاحبها، وتعليقات على الرحلة بكاملها، أو أجزاء منها.

وهكذا نالت الرحلة ما تستحقه من الاهتمام سواء من الباحثين العرب أو الأجانب، فلم يقدم أحد على تأليف كتاب في الجغرافيا أو أدب الرحلة إلا وكان لابن بطوطة حيز هام في هذا التأليف[331]، نظرا لاقتناع أغلب الدارسين بريادته في هذا الباب، فالباحث الروسي كراتشكوفسكي يعتبره «آخر رحالة عربي كبير»[332]، وتلقبه جمعية كمبردج «بأمير الرحالين المسلمين»[333]، ولا يبعد نقولا زيادة عن هذا الحكم فهو في رأيه «شيخ الرحالين العرب، وسيد الرحالين إطلاقا في عصره»[334]، ويصفه الدكتور زكي محمد حسن بأنه «أعظم الرحالة المسلمين»[335]، وينتهي شوقي ضيف إلى الاقتناع أيضا بأنه «أعظم رحالة عرفه

---

(330) تاريخ الأدب الجغرافي 1 : 433 تعليق المترجم. مجلة المناهل 2 : 67. وصدرت ترجمتها الاسبانية سنة 1981، انظر مجلة المعهد المصري للدراسات الاسلامية مجلد 21 ص 167 ـ 168. وترجمتها إلى المجرية المستعربة الدكتور جيلا بريلسكي (انظر الملحق الثقافي للعلم عدد 754)

(331) انظر مثلا منتخبات بلاشير، وكتب فراند، ودوسلان، ولكنار، نقولا زيادة، زكي محمد حسن، شوقي ضيف...

(332) تاريخ الادب الجغرافي 1 : 433.

(333) الأعلام للزركلي 6 : 236.

(334) الجغرافية والرحلات عند العرب ص 180

(335) الرحالة المسلمون ص 136.

العرب في تاريخهم الوسيط»(336).

ويجمل بنا في الأخير أن ننهي هذه المواقف والآراء بإثبات رأي موضوعي صريح يتسم بالجرأة العلمية والنزاهة الفكرية، ذلك هو رأي العالم سيتزن (Seetzen) الذي يعتبر ابن بطوطة رائد الرحلة لا يجارى في العالم كله، يقول : «أي مسافر أو ربي في هذا العصر يمكنه الافتخار بأنه خصص قدر هذا الزمن الذي يبلغ نصف حياة الانسان في سبيل ارتياد مثل هذا العدد من البلدان السحيقة، وذلك بشجاعة لا يزعزها شيء ويتحمل المشقات العديدة ؟ بل أية أمة أوربية كان يمكنها لخمسة قرون خلت إيجاد مسافر يجوب المناطق الأجنبية بمثل هذا الاستقلال في الحكم، وبمثل هذه المقدرة على المراقبة، ويمثل هذه الدقة في كتابة الملاحظات التي اتصف بها هذا الشيخ المغربي الشهير»(337).

---

(336) الرحلات ص 96.

(337) الروائع 4 : 208. مجلة المغرب عدد غشت ــ شتنبر 1934 ص 15.

هـ ـــ رحلة أبي يعقوب البادسي

وكنا قد أشرنا من قبل إلى أنها من الرحلات التي لم يدونها صاحبها و لم يسجل أحداثها بنفسه، وإنما قام بمهمة التدوين والتأليف أحد مريديه، معتمدا في ذلك على ما اشتهر بين الناس من أخباره وكراماته، ومن ضمن هذه الأخبار رحلته في طلب العلم بفاس، ورحلته الصوفية إلى المشرق.

لذا فالباحث يحتار في تصنيف هذا الكتاب، هل يدخله ضمن كتب التصوف والمناقب التي تذكر أحوال المتصوفة وأخبار الأولياء وتعدد مناقبهم وكراماتهم كما يبدو من المضمون والعنوان الذي وضعه له مؤلفه وهو «الوسيلة إلى المرغوب، في كرامات الولي أبي يعقوب» ؟ أم إن الباحث يدرجه ضمن كتب الرحلات لما فيه من ذكر للمنازل والمراحل ؟

فنحن أمام نمط من الرحلة يختلف عما سبق من الرحلات في الحوافز والاهتمامات، ويختلف عن هذه الرحلات في طريقة التدوين.

ومدون هذه الرحلة هو أبو محمد عبد الله بن محمد الأوربي الفاسي(338) حلاه صاحب الجذوة بالفقيه العالم العدل قاضي الجماعة، وهذه الصفات لا تجتمع إلا فيمن كان على قدر كبير من العلم والفضل، ومن اعترف له بالمكانة العلمية الممتازة.

فلقد تتلمذ على جلة علماء عصره كأبي الحسن ابن سليمان القرطبي، وأبي جعفر أحمد بن الحسن بن الزيات الغرناطي، وأبي عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف

---

(338) ترجمته في فهرس السراج ك 1242 ص 280 نيل الابتهاج ص 149، الجذوة 2 : 424. السلوة 3 : 301.

الطنجالي ... إلى أن صار عالما يقصد هو كذلك من أجل الأخذ عنه والاستفادة منه، وهكذا ذكره كل من يحيى السراج الكبير، وابن الأحمر في فهرستيهما على أنه من الشيوخ الذين أخذا عنهم، واستفادا منهم.

ومما ذكره صاحب السلوة في تعريفه أنه «كان فقيها فاضلا عارفا بعقد الشروط، قاضيا نزيها، قريب الغور، بعيد الشأو، حسن الظن، محبا في الصالحين، يذكر كراماتهم وأحوالهم»(339)، فتدوينه رحلة البادسي إذن يدخل ضمن اهتماماته وميوله الروحية. توفي بفاس ليلة الاثنين 16 ذي القعدة عام 782هـ.

أما صاحب الرحلة فهو أبو يعقوب يوسف بن محمد بن عبد الله الزهيلي البادسي(340)، وصفه ابن خلدون بأنه «كبير الأولياء بالمغرب»(341) في أول المائة الثامنة، وأشار ابن الخطيب إلى المنزلة الصوفية التي ارتقى إليها حين حلاه «بالامام الكبير العارف»(342)، ولا عجب في ذلك فسلوكه الذي عرف به لم ينحرف عن الاستقامة في السر والعلن يقول عنه عبد الحق بن إسماعيل البادسي ـــ الذي عرف به ضمن صلحاء الريف ـــ «ألف العبادة فتألف به شملها، وتكلف المؤن الشرعية فهان عليه حملها»(343)، ونستنتج من هذه الأخبار والاشارات أن البادسي كما كان ينظر إليه على أنه «قطب زمانه، ونسيج وحده، وشيخ أوانه، الشيخ الولي العارف العامل المنقطع لله تعالى»(344)، فقد كان يقصد أيضا للأخذ والتلمذة سواء في بلده بادس أو أثناء رحلته المشرقية، فهذا أبو عبد الله الكرسوطي الفاسي الذي وصفه صاحب الجذوة بالشيخ الفقيه المتكلم يرحل للدراسة على الشيخ البادسي ويتحدث عن أول لقاء علمي بينهما، يقول : «لقيت الشيخ ولي الله أبا يعقوب البادسي بساحل

---

(339) سلوة الأنفاس 3 : 301.

(340) يرجع في ترجمته إلى المقصد الشريف ص 199، المقدمة ص 582 ألف سنة ص 188 الاحاطة 3 : 133 ـــ 134، الجدوة 1 : 223. حرب الريف 1 : 207، أعلام المغرب العربي 2 : 212 بالاضافة إلى كتاب الوسيلة في كرامات أبي يعقوب

(341) المقدمة ص 582.

(342) نفاضه الجراب ص 253.

(343) المقصد الشريف ص 139.

(344) الوسيلة في كرامات أبي يعقوب مخطوط الخزانة الملكية ص 229.

بادس قاصدا الأخد عنه والتبرك به، و لم يكن رآني قط، وكان بين يديه طالب يقرأ القرآن، فلما فرغ منه وأراد أن يقرأ أسطرا من الرسالة قال له أقرأها على هذا الفقيه وأشار إلي»(345).

ومثل هذا الفعل لا يمكن أن يكون إلا تواضعا من الشيخ المتصوف البادسي، وإلا فمستواه العلمي كان أيضا ممتازا، إذ اكتمل تكوينه على علماء فاس في العلوم الاسلامية، فلقد ذكر الأوربي في التعريف(346) به بأنه قرأ العربية على أبي علي الطنجي المدفون في المصلى خارج بادس، وقرأ الرسالة والتهذيب على أبي زكرياء يحيى بن أبي بكر الجعوني من أهل الريف بعد أن عاد من رحلته العلمية إلى قرطبة التي دامت أربعين سنة، كما قرأ التهذيب أيضا على الفقيه العالم الولي أبي إبراهيم إسحاق بن يحيى الورياغلي ببادس أولا ثم رحل معه إلى فاس فأخذ عنه هناك، وبفاس قرأ موطأ مالك على القاضي والامام أبي جعفر أحمد المزدغي. فلم يرجع من فاس إلا وقد نال بغيته أو على حد تعبير الأوربي «قد حصل من علم الظاهر جزءا عظيما وظهر عليه خير عظيم ولاحت له بوارق الحق»(347)، فاتجه حينئذ إلى التربية الروحية. وشيخه في هذا الجانب الروحي هو : «الولي العارف الكبير أبو الحجاج يوسف الأقصوري»(348) الذي أرسل إليه من مصر أحد مريديه وهو الشيخ أبو يحيى الشامي الذي أخذ في تربية أبي يعقوب وتهذيبه وتدريبه(349) ببلده بادس، لكن تكوينه الروحي لم يكتمل إلا في رحلته المشرقية التي خرج فيها من أجل السياحة الصوفية والحج، فعاد من هذه الرحلة وقد أضحى مقصد طلاب علمي «الظاهر والباطن» إلى أن أدركه أجله في منتصف ليلة الثلاثاء 11 ربيع الآخر عام 734هـ / 1333م(350)، فدفن هناك عند مصب وادي بادس، ومازال مقامه مشهورا بين أهل الريف (351)

---

(345) الجذوه 1 : 223، الاحاطة 3 : 133..

(346) الوسيلة في كرامات أبي يعقوب ص 229 ــ 230.

(347) الوسيلة في كرامات أبي يعقوب ص 230، حرب الريف 1 : 304.

(348) الوسيلة في كرامات أبي يعقوب ص 230.

(349) نفسه.

(350) نفسه ص 229.

(351) وصف إفريقيا 1 : 257، أعلام المغرب العربي 2 : 213.

رحلته :

والرحلة التي نتحدث عنها لم يباشرها صاحبها تدوينا أو إملاء، وإنما ـ كما عرفنا من قبل ـ تصدى لها أحد مريديه وهو أبو محمد الأوربي السابق الذكر فجمع ما سمعه منذ قدومه على مدينة بادس مماله علاقة ببدايته ونشأته وقراءته، وذكر شيوخه في علمي الظاهر والباطن، وأشار إلى بعض أحواله في هذه الرحلة المشرقية، ولقد تحدث الأوربي عن سبب هذا التدوين ومنهجه قائلا : وأذكر من ذلك ما تظافر الجم الغفير على نقله، أو ماسمعته ممن أثق بدينه وعدله، وقصدت بتقييد ذلك وجمعه استدرار رحمة الله سبحانه لما جاء عن العلماء أنهم قالوا عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة ولا شك»[352].

وأصل الرحلة مخطوط بالخزانة الملكية في مجموع يحمل رقم 9447، وهي تقع في إحدى عشرة ورقة، نشرها الأستاذ أحمد البوعياشي ضمن كتابه عن الحرب الريفية[353].

ولقد كان الباعث على هذه الرحلة بشكل عام ما كان يطمح إليه أبو يعقوب البادسي من لقاء المشايخ، والحصول على السند الصوفي خصوصا بعد أن أصبح المرشح لخلافة أبي الحجاج يوسف الأقصوري، إلا أن هناك سببين مباشرين وردا في صلب هذا التأليف أولهما ما أفصح عنه البادسي نفسه حين أبلغ مودعيه من الطلبة والفقراء والصلحاء ـ وقد لاحظ جزعهم على فراقه ـ بأن خروجه في هذه الرحلة استجابة لما أمره به الرسول عليه السلام في المنام، ولقد تناقل الناس خبر هذه الرؤيا كما حكاها البادسي فقال «كان سبب حجتي أني رأيت النبي ﷺ في النوم وأبا بكر وعمر وقد دخلوا علي في ركن محراب الجامع فقمت وسلمت عليهم، وأقبلت على النبي ﷺ وقلت له ما جاء بك ياحبيبي يارسول الله، فقال لي يا يوسف جئت لزيارتك، قال فقلت أنا أحق بذلك، ثم أخذت في السفر»[354].

---

(352) الوسلية ص 229.

(353) حرب الريف التحريرية ومراحل النضال ص 1 : 300 ـ 343.

(354) الوسلية ص 243.

أما السبب الثاني الذي كان أيضا معروفا متواترا بين أهل بلدة بادس فيتعلق بتلك التربية الروحية التي تلقاها على يد الشيخ أبي يحيى الشامي بنوجيه من أبي الحجاج الأقصوري، إذ بعد أن توفي أبو يحي هذا في تربية البادسي وتهذيبه وتحذيره مما يطرأ على المريدين في ابتداء السلوك، خرجا ميممين المشرق في هذه الرحلة الصوفية[355].

فسبب الرحلة إذن الرغبة في تأدية فريضة الحج وزيارة قبر الرسول عليه السلام والقيام في نفس الوقت بسياحة صوفية من أجل لقاء المشايخ والتبرك بهم، وكانت بداية رحلة أبي يعقوب البادسي نحو الحجاز في شهر محرم من عام خمسة وسبعمائة[356] في يوم مشهور، إذ حضر لرؤية الشيخ وتوديعه الكثيرون من الطلبة والصلحاء، فبكوا على فراقه ورحيله فكان الوداع مؤثرا مما جعل البعض يرافقه في المراحل الأولى من الرحلة، بالاضافة إلى أولائك الذين خرجوا معه من بادس في الوجهة الحجازية.

ولم يهتم الأوربي بذكر كل تفاصيل الرحلة وجزئياتها، وإنما اكتفى بذكر ما تناقله الناس من كرامات اشتهر بها أبو يعقوب البادسي في رحلته، فتحدث عن تنقلاته، وكراماته في كل من جارت وتلمسان وبجاية وبرقة، وفي مصر، ومكة والمدينة...

فمن هذه الكرامات التي تحدث عنها مرافقوه في هذه الرحلة، وظل الناس يذكرونها في تنويه وإعجاب ما حكي عنه من أنه لم يكد يصل هو ومن كان معه إلى بلدة جارت[357] حتى علموا أن الركب المتوجه إلى الحجاز قد ارتحل عن تلمسان منذ أيام، فانقطع الأمل في اللحاق بالركب ومواصلة الرحلة لكن لطف الله وفرجه يدركان الشيخ فيسخر له رجلا في هيئة الطلبة المريدين، يسير في مقدمة قافلتهم وهكذا طويت لهم المراحل والمسافات، فلم يشعروا إلا وقد لحقوا الركب الحجازي في مدينة بجاية[358].

ويذكر خديمه أبو زكرياء يحيى الشاكري الذي رافق شيخه أبا يعقوب البادسي في الصحاري والقفار، ولم يحدث أن أوقعوا صلاة بدون وضوء، أو افتقدوا ماء

---

(355) نفسه ص 233.

(356) نفسه ص 243.

(357) واد كرط بقبائل الناضور، حرب الريف التحريرية 1 : 333.

(358) الوسيلة في كرامات أبي يعقوب ص 244.

للشراب، فلم يزل في برقة وفي درب الحجاز بين مكة والمدينة يحمل ركوة الشيخ في يده يستعمل الركب ماءها في كل حاجياتهم من شراب ووضوء، فلم ينضب ماؤها ولم ينفذ معينها.

وهذه الكرامة وأمثالها ذكرت لكثير من المتصوفة، فلقد أورد أبو الحسن المراكشي في كتابه «مناقب الأولياء» أنه تبعه فقير في سياحته لم يكن حاملا معه غير إبريق، فكان ذلك الابريق بمثابة النبع الثر يجدون فيه كل احتياجاتهم إلى الماء في الصحراء المقفرة(359).

ومن الكرامات التي عرف بها أبو يعقوب البادسي في رحلته ما حكاه عنه خديمه ومرافقه يحيى حين حصل له شك في موقع قبر أبي الحسن اللخمي، وابتهل إلى الله بأن يزيل هذا الشك قائلا : «اللهم إن كان هذا هو قبر الشيخ أبي الحسن حقا فأطعمنا ببركته اليوم» وتأتي العناية الربانية بما يزيل شكه فيتأكد من وجوده بعد أن طعم ببركته(360).

وهناك ناحية أخرى اشتهر بها الشيخ في رحلته وهي ما عرف به في تنقلاته وجولاته من الزهد في الحياة الدنيا، والاكثار من عبادة الله، فلقد حدث عنه خديمه بأنه لم يترك أثناء رحلته «شيئا من أوراده كلها لا صلاة، ولا صوما، ولا قراءة القرآن ولا شيئا مما كان يفعله وهو مقيم»(361).

بل إنه لم يعرف عنه ميله إلى الراحة، واستمتاعه بملذات الدنيا، فلقد قسا على نفسه في هذه الرحلة ولم يتساهل معها حتى في الأوقات الحرجة، لكونه يعتبر أن راحته ومتعته في عبادة الله والتقرب منه بأنواع من الطاعات، ذكر خديمه بأنه «ما أفطر مدة غيبته في الحجاز غير أيام الأعياد ويوم بين مكة والمدينة كان أصاب الناس فيه حر شديد، ومات من الناس ألفان ونيف فأفطر الشيخ في ذلك اليوم»(362).

(358 مكرر) نفسه ص 244.

(359) الوسيلة في كرامات أبي يعقوب ص 244، المقصد الشريف والمنزع اللطيف ص 82 ـ 84.

(360) الوسيلة ص 245.

(361) نفسه ص 244.

(362) نفسه ص 245.

ولازمه أثناء حجتيه معا، فلم يفتر الشيخ في كل الأحوال عن العبادة والطواف يقول : «فلما دخلنا مكة كان الشيخ سيدي أبو يعقوب يطوف الليل كله وما رأيته نام فيها ليلا أصلا»(363)

وربما كان هذا الزهد والتفاني في العبادة من أسباب توفيق الله له في هذه الرحلة، فحيثما نزل إلا وبعث الله له رجالا صالحين يضيفونه ومرافقيه ويسعون في قضاء حوائجهم(364).

ومما عرف به أبو يعقوب البادسي في رحلته حرصه على لقاء الأولياء والصالحين، فلقد اجتمع في مصر بأحد أولياء الله الكبار كما وصفه بعد أن خبره وعرف أحواله، وهذا الولي كان يشتغل بحمل الخبز إلا أن له معه مواقف وأقاصيص تظهر منزلة كل من الرجلين وما اشتهرا به من كرامات وبركات(365).

والتقى بإمام جامع عمرو بن العاص الذي وصفه بأنه رجل صالح، فاجتمع معه كثيرا وهو الذي كان يتبرك بأبي يعقوب ويرغب منه أن يجمعه مع الحمال السابق الذكر(366).

ولم يكن اهتمام الشيخ في رحلته مقصورا على زيارة الأولياء والتحدث معهم والتبرك بهم، بل كان إلى جانب ذلك يسعى إلى زيارة القبور والأضرحة للتبرك بما تضمه من الصالحين والمتصوفة، فلقد كان بمكة المكرمة «كثيرا ما يخرج إلى مقابر باب المعلي يترحم على من هناك ويزور المقابر»(367) ووقف ببلدة صفاقس على قبر الشيخ أبي الحسن اللخمي مؤلف التبصرة كما ذكرنا سابقا(368).

---

(363) نفسه ص 246.

(364) الوسيلة في كرامات أبي يعقوب ص 244.

(365) نفسه ص 245.

(366) نفسه ص 246.

(367) نفسه ص 246.

(368) نفسه ص 245. وأبو الحسن اللخمي القيرواني هو صاحب التبصرة على المدونة توفي بصفاقس سنة 498 هـ الديباج ص 203، الحلل السندسية للسراج 2 : 336.

ومن خلال بعض الاشارات الواردة في الرحلة نتبين اهتمام أبي يعقوب أيضا بالجانب العلمي، فمع دأبه في البحث عن الأولياء وزيارة قبور الصالحين كان ينفق بعضا من وقته في الاشتغال بالتعليم، إذ ورد أنه اشتغل في جامع عمرو بن العاص بإقراء القرآن بالروايات والقراءات المختلفة، والخوض في تفسيره بما يدل على تمكنه العلمي واطلاعه الواسع[369].

---

(369) الوسيلة في كرامات أبي يعقوب ص 245.

فهرس الجزء الأول

الباب الأول
الرحلة ودوافعها في العصر المريني

الباب الثاني
الرحالون وفن الرحلات

رقم الايداع القانوني : 1990/339
تم طبعه بمطابع عكاظ
12 زنقة أبو نواس حي الليمون - الرباط

الثمن 50 درهما

الحسن الشاهدي

أدب الرحلة بالمغرب

في العصر المريني

الجزء الثاني

منشورات عكاظ

الحسن الشاهدي

أدب الرحلة بالمغرب

في العصر المريني

الجزء الثاني

الفصل الثاني :
رحلات داخل المغرب

سبق أن أشرنا إلى أننا نعني بهذا الصنف تلك الرحلات التي كان المغرب ميدانها، فلم يتجاوز أصحابها المدن والقرى والمناطق المغربية، بل كانت رحلاتهم تستهدف زيارة مناطق مغربية معينة للوقوف على ما بها من مشاهد وآثار، أو الاتصال بأعلامها، أو القيام فيها بمهمات مختلفة.

ولقد كثرت الرحلة في هذا الاتجاه إبان العصر المريني خاصة، نظرا إلى أن المغرب شهد في هذه الفترة انفتاحا تغير بسببه المناخ الفكري والسياسي والأمني كما ذكرنا، فانتعشت الرحلة داخله بل اننا وجدنا في الفترات الأخيرة من هذا العهد ازدهاراً لا مثيل له في هذا الباب، حيث أصبح المغرب مقصد الكثيرين، وأضحت المدن والقرى والمداشر أيضا بغية المغاربة وغيرهم، فلقد ذكر ابن الخطيب في الاحاطة حوالي ثلاثين أندلسيا رحلوا إلى المغرب في هذه الفترة، يحدو أغلبهم طلب العلم والمعرفة، ويجذب البعض منهم المناصب الحكومية التي يتوقون إليها، ومن أهم هؤلاء إبراهيم النميري[1] وابن جزي[2] وابن عباد الرندي[3]، وابن رضوان[4]...وغيرهم.

وكان الراحلون من تلمسان أيضا من الكثرة والوفر حتى لا تكاد تجد تلمسانيا لم يتردد على البلدان والمراكز العلمية بالمغرب إما للتلمذة والأخذ عن الشيوخ أو

---

(1) الاحاطة 1 : 342.

(2) الاحاطة 2 : 256.

(3) نفسه 3 : 252.

(4) نفسه 3 : 443.

للانشغال بالتدريس هناك، وفي مقدمة هؤلاء ابن مرزوق الخطيب[5]، وابن النجار التلمساني[6]، وغيرهما، وحذا حذوهم أعلام تونسيون وليبيون ومشارقة وفدوا على المغرب فتجولوا بين مراكزه الثقافية، وقصدوا مجالسه العلمية، وتسابقوا إلى الاتصال بأعلامه والاستفادة منهم، ومن هؤلاء ابن خلدون من تونس[7]، وعلي بن داود الهواري المصراتي من ليبيا[8]، وجلال الدين محمد بن أحمد الأقشهري[9] من المشرق.

أما المغاربة فيعسر إحصاء الذين يفدون منهم على أهم مراكز العلم بالمغرب، وعلى الأخص مدينة فاس التي كان التردد على مدارسها وزواياها ومساجدها يعتبر من الأماني الغالية التي كانوا يهفون إلى تحقيقها، فلقد بات من السنن المعتادة أن تكون رحلتهم إلى هذه المدينة تتويجا لتكوينهم العلمي، بل إن كثيرا منهم كانوا يقتصرون في طلبهم العلمي على الرحلة إلى فاس والتلمذة على رجالها وملازمة مدارسها ومجالسها العلمية، حتى صارت النسبة الفاسية متلاحمة مع النسبة الأصلية للكثير منهم فهذا أبو محمد عبد الله العبدوسي الفاسي يقول عنه ابن غازي «وهو في الحقيقة مخضرم مكناسي فاسي»[10] باحثه أبو عبد الله محمد القورى هناك بفاس ثم أجلسه للتدريس بها.

وابن غازي نفسه نموذج لهذه الرحلة العلمية الداخلية إذ لم تكتمل ثقافته ويتم تكوينه إلا في مدينة فاس يقول عن نفسه «نشأت بهذه المدينة كما نشأ بها أسلافي، وقرأت بها ثم ارتحلت إلى مدينة فاس في طلب العلم أظنه سنة ثمان وخمسين وثمانمائة فأقمت بها ما شاء الله تعالى، ولقيت من أشياخ المدينتين جماعة ذكرت مشاهيرهم في الفهرسة التي سميتها بالتعلل برسوم الاسناد بعد انتقال أهل المنزل والناد ثم عدت إلى مدينة مكناسة فأقمت بها بين أهلي وعشيرتي زمانا ثم انتقلت إلى مدينة فاس كلأها الله تعالى فاستوطنتها»[11].

(5) نيل الابتهاج ص 267 — 268.

(6) الاعلام للمراكشي 4 : 356 — 357.

(7) التعريف بابن خلدون ص 58.

(8) ورقات عن الحضارة المغربية ص 205.

(9) الدرر الكامنة 3 : 309..

(10) فهرس ابن غازي ص 72.

(11) الروض الهتون ص 73، نيل الابتهاج ص 333.

ومن قبل كانت رحلة ابن المرحل تستهدف الاتصال بعلماء فاس وشيوخها للاستفادة منهم حيث أخذ بها عن الفقيه اليزناسني وغيره[12].

ثم كانت رحلة أبي يعقوب البادسي الذي قصد أيضا مدينة فاس، فتفقه بها على إبراهيم المحمل، وقرأ موطأ مالك على قاضيها وإمام الفريضة بجامعها الفقيه أبي جعفر بن أبي عبد الله المزدغي، فلم يرجع إلى بلده بادس إلا «وقد حصل من علم الظاهر جزءا عظيما وظهر عليه خير عظيم، ولاحت له بوارق الحق»[13].

وهكذا لا نكاد نجد عالما مغربيا ــ في هذه الفترة ــ اشتهر أمره وتفوق على غيره في حقول العلم والمعرفة إلا وكرع من حياض هذه المدينة وجلس للأخذ عن علمائها وشيوخها.

وفي نفس الوقت كانت المراكز العلمية الأخرى تقوم بدورها الثقافي والتعليمي فانجذب إليها الكثير من المغرب وخارجه، وغصت مساجدها ومدارسها بالوافدين وطلبة العلم، والأمثلة كثيرة، لكننا نكتفي هنا بالاشارة إلى دور سبتة العلمي، إذ قصدها الأندلسيون والمغاربة على السواء فأخذوا بها عن علمائها الكثيرين كابن رشيد، والتجيبي، وابن الشاط، وابن هانىء، وغيرهم[14].

وأما السبب الثاني الذي ساهم في ازدهار الرحلة الداخلية، فله علاقة بالجو الروحي الذي ساد في ذلك الوقت، ويتمثل في هيمنة روح التصوف، وسيادتها على مختلف المستويات، إذ انتشرت في مناطق المغرب زوايا ورباطات يأوي إليها الفقراء المتصوفة، وكثرت الأضرحة، وتنوقلت أخبار الأولياء وكراماتهم، فكان كل ذلك حافزا لشد الرحال إما للأخذ عن شيوخ التربية، أو زيارة الأولياء والأضرحة، أو الانضمام إلى زاوية خاصة، أو رباط معين، أو حضور موسم سنوي يجتمع فيه المتصوفة ويتصل فيه المريد بالشيخ الروحي ... ومن هنا عرفت الفترة رحلات كثيرة يمكن أن نسمها بالرحلات الصوفية كرحلة ابن قنفذ، ورحلة زروق، وغيرهما من الرحلات التي قصدت رباط أبي محمد صالح[15]، أو زاوية الشيخ أبي عبد الله الجزولي[16]، وغيرهما.

(12) الجذوة 1 : 328، السلوة 3 : 99.

(13) الوسيلة في كرامات أبي يعقوب مخطوط الخزانة الحسنية ص 230.

(14) المرقبة العليا ص 133، الديباج ص 291، نيل الابتهاج ص 249، 254.

(15) المنهاج الواضح ص 318 ــ 319، 293، 76، آسفي وما إليه ص 105.

(16) آسفي وما إليه ص 105.

ونصادف في هذه الفترة أيضا صنفا ثالثا من الرحلات الداخلية، ونعني به الرحلات الرسمية وهي التي يكلف فيها الرحالة بمهمات تدخل في إطار ما يناط به من مسؤوليات وما يتقلده من مناصب كالسفارة، أو مصاحبة الملوك، وتسجيل تحركاتهم، ولقد أوضحنا من قبل بأن هذا العصر كان ميدانا خصبا لازدهار هذا النوع من الرحلة نظرا لكثرة تنقلات الملوك وتحركاتهم، وما كانت تضمه مواكبهم في هذه الرحلات من علماء ومفكرين وكتاب وشعراء... كما أن علاقات المرينيين بغيرهم جعلت المغرب مفتوحا لكثير من الوافدين عليه المحملين بالسفارات والرسائل والهدايا ... ومن الذين اشتهروا بسفاراتهم الناجحة في المغرب ابن مرزوق الذي استخدمه السلطان أبو الحسن في سفارات عديدة إلى الأندلس[17]، وأبو الحسن ابن الأشهب الغماري الصنهاجي الذي كان سفير تلمسان إلى فاس في أواخر القرن الثامن[18]، وأبو عبد الله بن يحيى الباهلي الذي وفد على فاس أيضا سفيرا من قبل بجاية[19].

ـ قلة الرحلات الداخلية المدونة :

إلا أنه بالرغم من كثرة هذه الرحلات الداخلية، وبالرغم من تعدد أنواعها واختلاف أسبابها وبواعثها، وتيسر ظروفها الأمنية كما رأينا، فإننا لا نعثر على رحلات مدونة بهذه الكثرة، وبهذا العدد الهائل، فما سبب قلة هذه الرحلات الداخلية المدونة بالقياس للرحلات الخارجية ؟ هل لأننا ما زلنا لم نعثر على كل ما كتب في هذا المجال ؟ أم لأن هؤلاء الرحالين لم يكونوا يسجلون ملاحظاتهم وهم يتنقلون بين المدن والمناطق المغربية ؟

وإذا حاولنا أن نستجلي حقيقة الأمر، ونعرف كنه هذه الاشكالية بالنظر إلى ما دونه الرحالون المغاربة الذين اشتهروا برحلاتهم المهمة خارج المغرب، فإننا نكاد نميل إلى ترجيح الاحتمال الأخير وهو إغفال الرحالين المغاربة الحديث عما يصادفونه في طريقهم داخل بلدهم المغرب، يتضح هذا بالتوقف مع الرحالتين المشهورين العبدري وابن بطوطة.

---

(17) الديباج ص 305 التعريف بابن خلدون ص 49ــ54 نيل الابتهاج ص 267.

(18) البستان ص 143 ــ 144.

(19) النفح 5 : 246.

فالرحالة العبدري : مثلا نجده في رحلته المشرقية يدون كل التفاصيل والأخبار التي يسمعها ويصف المعالم والآثار ابتداء من تونس، فيتحدث عمن لقيهم بالبلدان المشرقية ويورد نماذج مما استفاده منهم من روايات وأشعار، بل أحيانا يورد القصائد بكاملها، لكنه حينما يمر بالمدن المغربية يكتفي بذكرها متسلسلة دون أي تفصيل، موجزاً ملاحظاته إيجازا مخلا مع أن رحلته هذه عرفت بالرحلة المغربية ولكنها في واقع الأمر ليس لها من هذه المغربية إلا نسبة صاحبها، فالرحلة تتعدى ثلاثمائة صفحة، ولكن المغرب لم يظفر منها إلا بصفحات معدودة على أصابع اليد الواحدة[20]، ومن أهم هذه الصفحات هي التي تتعلق بما ذكره عن بداية هذه الرحلة من بلده حاحة، إذ أشار[21] إلى أنه قبل الاقدام على هذه الرحلة وقف ببلدة آنسا، على قبر الشيخ الصالح أبي حفص عمر بن هارون «وهو من كبار الأولياء، ومن عظماء الصالحين» ثم دخل كتابا قرآنيا فتفاءل مما قرأه في ألواح الصبيان من آيات قرآنية كلها تشجع على الاقدام على الرحلة.

وتحدث عن بلد آنسا[22] بما يكفي للتعريف به فهو يقع بأعلى بلاد السوس الأقصى، تكثر به الخيرات والغلال، وكان هذا البلد فيما مضى مدينة كبيرة لكنه أصبح زمن مرور الرحالة به أثرا بعد عين، وإن فضلت به بقية من أهل الدين وأهل الخير.

ولقد قطع بلاد القبلة[23] في أزيد من ثلاثين مرحلة أتيح له فيها الاتصال بأهلها والتعرف بأخلاقهم وعاداتهم وأحوالهم المختلفة، وهكذا أظهر إعجابه بأخلاقهم، فرغم أن عيشهم غير متسع إلا أن لهم شهامة وأخلاقا كريمة كاحترام أهل الدين وحماية الجار، وإيواء الغريب، ولكن العبدري، على عادته لا يداري ولا يهادن، لذلك لم يسكت عن نقائصهم فبلاد القبلة «مات فيها العلم وذكره» إذ ليس بين أهلها من يهتم بالعلم أو يعمل من أجل الحصول عليه، فهم لا يحفظون حتى ما يقرؤونه في صلواتهم من آيات، وهي بلاد لا تخلو من الفتن والحروب، ولأهلها عادات غريبة في هذا المجال صارت قوانين عرفية ملزمة يحتكم إليها المحاربون عامة، كاقتتالهم من

---

(20) الرحلة المغربية ص 7 ــ 10، 279 ــ 280.

(21) نفسه ص 7.

(22) الرحلة المغربية ص 8.

(23) نفسه ص 8 ــ 9.

وراء الحصن احتياطا عليه من الفساد. وانتهت به الرحلة إلى مفازة[24] في طريق تلمسان تلك المفازة التي يصفها بأنها «طريق منقطع مخوف» لا تقطعه القوافل إلا وهي مستعدة حذرة، فالذين يسكنون حولها من أكثر خلق الله لؤما وأذى، ومع ذلك يستمر العبدري في وجهته مخاطرا تارة في صحبة جماعة متسلحين، ومرة أخرى يقطع المجاهل بدون دليل يرشده إلى أسلم الطرق، إلى أن خرج سالما بعناية الله من هذه المفازة ودخل تلمسان .

ويعود العبدري من رحلته المشرقية التي حج فيها فيختصر ملاحظاته عن البلدان المغربية[25] التي مر عليها في عودته إلى بلده، ورغم أنه لم يسلك إلى بلده نفس الطريق الذي مر منه في الذهاب، إذ اخترق في عودته وسط البلاد، فإن وصفه للمدن المغربية التي توقف بها لم يتعد ــ مع الأسف ــ الاشارة السريعة واللمحة الخاطفة، فوجدة لم تبق منها إلا رسوم حائلة وأطلال ماثله، وتازا لا نعرف إلا أنه وصلها في آخر رمضان من سنة 690هـ، أما فاس فلم يذكر بها إلا ما استشعره من الشوق إلى بلده ــ وقد أظله عيد الفطر بها ــ لكن مكناس تستأثر منه ببعض الاهتمام، فيشير إلى أنه التقى فيها بالشيخ الفقيه المحدث القاضي أبي الحجاج يوسف بن أحمد بن حكم التجيبي الأندلسي فقيد عنه شيوخه واستفاد منه وحصل على إجازته العامة، وقرأ عليه الحديث الأول من كتاب الموطأ، أما أبو محمد عبد الله مولى الرئيس أبي عثمان سعيد بن حكم فلم يتأت له لقاؤه، وإن كان العبدري راغبا في لقائه لاعتناء أبي محمد هذا بالرواية وشهرته بالعلم، ولكن الاستفادة قد حصلت بوقوفه هناك على فهرسة شيوخه.

ويكتفي العبدري في حديثه عن أزمور بإشارته إلى أنه زار قبور السادة المدفونين بها من الصالحين، ثم يختم الرحلة بزيارة قبر أبي محمد صالح،

* ويصنع **ابن بطوطة** صنيع العبدري، ويسلك نفس النهج الذي اتبعه في عدم الاهتمام ببلاد المغرب وأحواله المختلفة، فرحلته «تحفة النظار» التي تناهز سبعمائة صفحة لم يخص المغرب منها إلا بنحو عشر صفحات، وهكذا نجده يدون كل تفاصيل الأحداث والحكايات والأخبار التي يسمعها في رحلته في كل البلدان التي

---

(24) الرحلة المغربية ص 9 ــ 10.

(25) نفسه ص 279 ــ 280.

زارها شرقا وغربا، ويصف المعالم والآثار، ويرسم الطرق والمسالك وما فيها من منعرجات، ويذكر المسارب والممرات المائية في الأبحر والأنهر، ويسجل ما سمعه عمن التقى بهم من العلماء والشيوخ والأولياء والعامة، إلا أنه حين يتحدث عن المغرب نجده راغبا عن الوصف التفصيلي، مقتصدا في ألفاظه، موجزا أخباره، مكتفيا أحيانا بالاشارات السريعة باستثناء حديثه عن أبي عنان، أو ماله علاقة به.

وكنا قد أشرنا من قبل في عرضنا للرحلة إلى بعض هذه الأخبار التي تتعلق بالمغرب لذلك نكتفي هنا بعرض سريع جدا لما ورد في الصفحات العشر. ففي بداية الرحلة يذكر زمن ارتحاله عن طنجة[26]، ومفارقته لوطنه وأهله، والمغرب تحت حكم أبي سعيد المريني، ثم ينتقل بعد ذلك فجأة إلى تلمسان، دون أن يصف الطريق التي سلكها داخل المغرب.

ويعود إلى بلده بعد حوالي ربع قرن من الزمان، فيسلك نفس الطريق التي سلكها العبدري من قبل وهي الطريق المحاذية لتازا وفاس، إلا أنه مع الأسف لم يعرفنا بأحوال المدن المغربية التي مر منها أو نزل بها، فلم يذكر تازا مثلا إلا ليخبرنا بأنه تعرف هناك على خبر وفاة أمه[27]، ولم يذكر فاسا إلا ليشير إلى أنه مثل بين يدي أبي عنان فرأى منه هيبة فريدة[28]، ولكننا تعرفنا الكثير مما تحدث به عن أبي عنان، فمن خلال تلك الأخبار يمكن الاطلال على الحياة المغربية حينذاك، والأحوال الاجتماعية والاقتصادية، فهو يتحدث عن الأسعار وقيمة العملة، بالقياس إلى نظيرتها في البلدان الأخرى التي دخلها، ويشير إلى حركة الجهاد وضخامة الأسطول المغربي في الفترة التي عاد فيها، والسمعة الحسنة للجيش المريني، فأخباره منتشرة في البلدان البعيدة المختلفة، ويذكر بعض مؤسسات فاس وآثارها كالمسجد الجديد بالمدينة البيضاء، والمدرسة الكبرى في المدينة البيضاء أيضا التي لم ير لها نظيرا في المعمورة، لا في مدارس الشام ومصر والعراق وخراسان. والزاوية العظمى بفاس القديم وهي لا مثيل لها كذلك، فهي أبدع من زاوية سر ياقص بالشرق. ولا ينسى رسم صورة مثالية لأبي عنان إذ ذكر أوجها كثيرة لعدله، وعلمه الواسع، وحلمه العجيب، وفصاحته[29].

---

(26) رحلة ابن بطوطة ص 10 ــ 11.

(27) نفسه ص 644.

(28) نفس المصدر والصفحة.

(29) رحلة ابن بطوطة ص 645 ــ 650.

وحين يرحل عن مدينة فاس إلى طنجة فإنه يسكت كعادته عن ذكر مشاهداته وملاحظاته في هذه المسافة الطويلة التي تفصل بينهما، فلا نعرف إلا أنه زار قبر والدته، بمسقط رأسه. ثم يشد الرحال إلى سبتة التي مكث بها أشهرا دون أن يتحدث عن شيء مما بداخلها من معالم وآثار، وما بها من عادات وتقاليد، ومن التقى بهم من علماء أعلام، وما كان يقوم به هذا الثغر من رد هجومات الأعداء لكن عقدة لسانه تنحل حينما يغادرها إلى العدوة الأندلسية[30].

وينزل بسبتة أيضا في طريق العودة لكنه لا يزيد شيئا على أن قائدها حينذاك هو الشيخ أبو مهدي عيسى بن سليمان بن منصور، وقاضيها هو الفقيه أبو محمد الزجندري[31].

ويختصر رحلته داخل المغرب مكتفيا بذكر المدن التي مر منها فينزل بأصيلا شهورا، ثم يدخل سلا فمراكش التي تظفر منه بفقرة يقارن فيها بين هذه المدينة وبغداد.

ويعود من مراكش إلى حضرة أبي عنان فيجتاز مرة أخرى بسلا ومكناسة لكنه لا يزيدنا إلا بما وصف به مكناسة «العجيبة الخضرة النضرة ذات البساتين والجنان المحيطة بها بحائر الزيتون من جميع نواحيها»[32].

ومن أهم ما ورد في رحلته بالنسبة للمغرب ما ذكره عن سجلماسة[33]، فهي من أحسن المدن، تشبه البصرة في كثرة التمر «لكن تمر سجلماسة أطيب»، كما ذكر بأنه نزل عند الفقيه أبي محمد البشري الذي كان قد لقي أخاه في الصين، ولقد صادف في عودته من السودان أن كانت طرقها مملوءة بالثلج، فلم ير أصعب من هذه الطرق فيما شاهده ببخارى وسمر قند وخرسان، وبلاد الأتراك.

وليس بإمكاننا التحدث عن كل من **ابن رشيد والتجيبي**، فحديثنا عنهما في هذا المجال يبقى عند حدود التخمين والافتراض، لأننا ــ كما سلف الذكرــ لا

(30) رحلة ابن بطوطة ص 650 ــ 651.

(31) نفسه ص 657.

(32) نفسه ص 647 ــ 658.

(33) نفسه ص 658 ــ 681.

نملك بداية كل من الرحلتين وبالطبع لا نستطيع تكوين رأي واضح عن صنيع كل من الرحالتين، ولا اخالهما إلا سالكين نفس منهج العبدري وابن بطوطة في عدم الاهتمام بذكر ما يتعلق بالمغرب وأحواله المختلفة.

فهل سبب قلة الرحلات الداخلية المدونة يعود إلى أن الأخبار والحكايات التي تلقى الاهتمام وتترك أثرا لدى السامعين هي التي تتعلق بالبلدان البعيدة والأماكن النائية ؟ فابن بطوطة مثلا لم توجه إليه الأسئلة إلا فيما يخص تلك البلدان التي زارها في الصين والهند والشرق الاسلامي.

أم سببها يدخل ضمن الظاهرة التي يكاد يتفق عليها الباحثون[34]، وهي إهمال المغاربة تدوين ما يتعلق ببلادهم، وإغفالهم ذكر محاسن علمائهم وتخليد مفاخر فقهائهم، ومما يدعم هذه الرأي هو أن جل الرحلات الداخلية الباقية كتبها الذين وفدوا على المغرب من الأندلس أو تونس أو المشرق.

ويمكن أن يكون السبب عائدا إلى ضياع الكثير من هذه الرحلات فالرحالة الاقشهري مثلا زار في رحلته مصر والأندلس والمغرب، وذكر ابن حجر بأنه «جمع رحلته إلى المشرق والمغرب، في عدة أسفار»[35]، ولا شك أن رحلات أخرى كان مآلها الضياع أيضا.

وعلى أي حال يمكن التماس أخبار الرحلة الداخلية في الفهارس والكناشات والكتب التي استطرد فيها أصحابها إلى ذكر الشيوخ والروايات المختلفة، ففهرس يحيى السراج هو في الحقيقة مجموعة فهارس ورحلات مختلفة، وفهرس ابن غازي أيضا صورة للحياة الدراسية والفكرية في عصره، يظهر العلاقات الثقافية والعلمية بين كثير من رجال العصر، ويدخل ضمن هذا المجال كناشه أحمد زروق وكتب ابن ميمون الغماري التي أشار فيها إلى رحلته من بلده غمارى من أجل طلب العلم بفاس والأخذ عن شيوخها.

---

(34) نبذ تاريخية ص 72 ـ 73، سلوة الأنفس 1 : 3.

(35) الدرر الكامنة 3 : 309.

ويمكننا على ضوء ما تقدم تصنيف الرحلات الداخلية الباقية إلى ثلاثة أصناف رئيسية :

1 ــ رحلات صوفية.

2 ــ رحلات رسمية.

3 ــ رحلات علمية ــ سياحية.

أ ـــ الرحلات التصوفية

سبق أن ألمحنا إلى أن البيئة الاجتماعية في العصر المريني كانت مشجعة على انتشار هذا النوع من الرحلة، خصوصا وأن الناس على اختلاف طبقاتهم كانوا يهتمون برحلات هؤلاء المتصوفة، ويتناقلون أخبارهم، ويدونون ما تواتر من حكاياتهم، فكثير من رحلات المتصوفة دونها غير أصحابها، الذين حرصوا على تسجيل ما اشتهر من كرامات الرحالة، وما ظهر منها للعيان أثناء هذه الرحلات، ومن هنا قلما يشتغل الرحالة نفسه بالتدوين والتسجيل والتنقيح، فالأوربي مثلا يدون كرامات أبي يعقوب البادسي(36)، وأحمد بن إبراهيم بن يحيى الأزدي القشتالي يهتم بتسجيل كرامات المتصوف أبي مروان(37)، وابن قنفد القسنطيني نفسه لم يدون أخبار سياحته بالمغرب إلا بعد أن أظهر الناس الرغبة في ذكر هذه الأخبار وتسجيل كرامات أبي مدين، يقول ابن قنفذ «رغب إلي من يكرم علي من بعض إخواني في الدين في تقييد شيء من كلام أبي مدين»(38)، وسنتوقف في جولتنا هذه مع هذه الرحلات الصوفية التي لم تخرج في زمانها ومكانها عن البيئة المغربية في العصر المريني وهي على التوالي :

1) رحلة ابن قنفذ.
2) رحلة زروق.
3) رحلة أبي مروان.

---

(36) مخطوط الخزانة الحسنية رقم 9447.

(37) نشر بتحقيق فرناندودي لاجرانخا.

(38) أنس الفقير ص 1.

1 ـــ رحلة ابن قنفذ القسنطيني

وتجدر الاشارة في البداية إلى أنه من التجاوز اعتبار الكتاب كله رحلة يهتم فيها صاحبها بذكر المراحل ووصف المسالك والطرق والتحدث عن المدن والقرى وما إلى ذلك مما يفترض توفره في الرحلة.

فالباعث على تأليف كتاب أنس الفقير هو «تقييد شيء من كلام الشيخ أبي مدين» وذكر كراماته والتعرف بأهم شيوخه وأصحابه وتلاميذه، إلا أن وقوف ابن قنفذ على كثير من أضرحة هؤلاء الشيوخ والأصحاب بالمغرب وزيارة الز وايا والرباطات، والجلوس إلى كثير من العلماء في عديد من المدن المغربية للأخذ عنهم والاستفادة منهم أو التبرك بهم، جعل كتابه قريبا من الرحلة بل إن جزءا منه يعد فعلا رحلة زيارية صوفية علمية، وأعني ذلك الجزء الذي تحدث فيه عن تنقلاته واتصالاته العلمية الصوفية، وملاحظاته وانطباعاته عن البلدان التي رحل إليها، والاجتماعات التي حضرها، ويشمل هذا الجزء حوالي ثلاثين صفحة[39].

ــ موجز حياته :

لقد حرص هو نفسه على ذكر بعض تفاصيل حياته، وعلاقته بشيوخه، وتنقلاته، فكانت كتبه أهم مصادر ترجمته، بل تكاد تكون المصدر الأساسي، ومن هنا نجد في كتبه أنس الفقير، والفارسية، والوفيات، وشرف الطالب... وغيرها معلومات

---

(39) أنس الفقير ص 63 ــ 90. جاء في نيل الابتهاج ص 75 قوله «أنس الفقير وعز الحقير في ترجمة الشيخ أبي مدين وأصحابه.

يندر وجودها في كتب تراجم العصر. وينتمي ابن قنفذ إلى أسرة عريقة في العلم والمجد والثراء، لذلك أظهر اعتزازه بهذا الأصل الذي ينحدر منه سواء من جهة الأب أو الام[40]. ويمكن أن نختصر مراحل حياته في ثلاث :

الأولى : مرحلة النشأة وتيتدىء بولادة أبي العباس أحمد بن حسن بن قنفذ بمدينة قسنطينة التي اشتهر بالنسبة إليها. ونعرف أنه ولد في حدود الأربعين وسبعمائة كما أشار إلى ذلك في أبيات يقول فيها[41] :

مضت ستون عاما من وجودي وما أمسكت عن لعب ولهو
وقد أصبحت يوم حلول إحدى وثامنة على كسل وسهو
فكم لابن الخطيب من الخطايا وفضل الله يشمله بعفو

ومن المعروف أنه عاش في كفالة جده لأمه يوسف الملاري بعد وفاة أبيه في عام الوباء[42] سنة 750هـ، ومن هنا كان لجده الأثر الكبير في تربية ابن قنفذ وتعليمه، خصوصا وأن هذا الجد كان من مشاهير الصوفية، فسند ابن قنفذ الصوفي أخذه عنه[43].

وإلى جانب تصوف هذا الجد فقد كان على حظ كبير من العلم والأدب، إذ أورد حفيده ابن قنفذ جملة مكاتبات دارت بينه وبين علماء العصر مشيرا إليها في أنس الفقير بقوله «ولا نطول بذكر كتبه إليه (أي المسفر) فقد وقفت على رزمة من مكاتبته إليه وهي كلها تدل على محبته في الفقراء ومباطنته لهم»[44].

وإلى جانب استفادته الكبيرة في صغره من أبيه وجده لأمه، فقد كان لشيوخ بلده الأثر الكبير أيضا في تكوينه وتعليمه، ومن أبرز هؤلاء الشيوخ الحسن ابن خلف الله بن حسن ...بن باديس القيسي القسنطيني (ت 784هـ) روى عنه الحديث وغيره[45]، وأبو علي حسن بن أبي القاسم بن بادس (ت 787هـ)[46]

---

(40) أنس الفقير ص 48،47، الوفيات ص 345.

(41) نيل الابتهاج ص 76، الاعلام للمراكشي 2 : 225.

(42) أنس الفقير ص 47.

(43) الوفيات ص 362.

(44) أنس الفقير ص 60.

(45) الوفيات ص 376.

(46) نفس المصدر والصفحة.

الثانية : وهي المرحلة الهامة في حياته، ففيها شد الرحلة إلى المغرب في نحو التاسعة عشرة من عمره، آملا الاتصال بالشيوخ والأولياء، وزيارة الأضرحة التي تضم رفات أصحاب أبي مدين الغوث وتلاميذه فكان لهذه الرحلة الأثر العظيم في تكوينه العلمي والروحي، بدت معالم هذا الأثر فيما دونه في كتابه «أنس الفقير».

ومن أهم شيوخ هذه المرحلة، نكتفي بأولائك الذين لم يعرف بهم في كتابه أنس الفقير، وإنما أشار إلى معظمهم في وفياته وهم :

ــ أبو محمد عبد الله الزكندري (768هـ) قاضي الجماعة بمراكش درس عليه بها التفسير والحديث والفقه فأعجب بمستواه العلمي لذا وصفه بأنه لم يكن مثله في زمانه بمراكش[47].

ــ أبو القاسم محمد بن أحمد الشريف الحسني السبتي (761هـ) التقى به في فاس فتمتع بمجلسه ثم كتب له بالاجازة العامة بعد ذلك، قال عنه : «وهو على الجملة ممن يحصل الفخر بلقائه، ولم يكن أحد بعده مثله بالأندلس»[48]

ــ أبو إسحاق إبراهيم الشريف التلمساني[49] (769هـ).

ــ أبو العباس أحمد بن عاشر الأندلسي (765هـ) التقى به في سلا فوجده «على أتم حال في الورع والفرار من الأمراء والتمسك بالسنة»[50]

ــ أبو عبد الله بن الشريف الحسني التلمساني[51] (771هـ).

ــ أبو عمران موسى العبدوسي (776هـ) الذي كان له مجلس في الفقه لم يكن لغيره في زمانه لا زمه ابن قنفد بمدينة فاس مدة ثماني سنين في درس المدونة والرسالة[52]

ــ أبو عبد الله لسان الدين ابن الخطيب الغرناطي (776هـ) «سمع جملة من تواليفه بقراءته هو في مجالس مختلفة»[53]، ولعل ذلك كان أواخر حياة ابن الخطيب.

---

(47) الوفيات ص 366 ــ 367.

(48) الوفيات ص 361 ــ 362.

(49) نفسه ص 367.

(50) نفسه ص 366

(51) نفسه ص 368.

(52) نفسه ص 369 ــ 370.

(53) الوفيات ص 371.

ـــ أبو محمد عبد الحق الهسكوري.

قرأ عليه ابن قنفد بمسجد البليدة من مدينة فاس، وكان ابتداء ملازمته في سنة 770هـ[54].

ـــ أبو عبد الله محمد بن حياتي (781هـ).

لازمه ابن قنفد فعرف تحقيقه في النحو والقراءات[55].

ـــ أبو عبد الله محمد بن مرزوق (781هـ) ويغلب على ظن ابن قنفد أنه توفي في سنة ثمانين وسبعمائة بالقاهرة، سمع عليه حديث البخاري وغيره في مجالس مختلفة وكان يميل إلى حضور درسه «فلمجلسه جمال ولين معاملة»[56].

الثالثة : وبانتهاء هذه الرحلة الواسعة داخل المغرب نصل إلى المرحلة الثالثة في حياة ابن قنفد وهي التي استثمر فيها علمه، واستغل فيها ما استفاده من لقاءاته المختلفة، فجلس في هذه الفترة للتأليف والتدوين، وتنسيق المذكرات والفوائد التي كان قد سجلها في رحلته[57]، كما تقلد المناصب المختلفة إذ اشتغل بالامامة والخطابة، فلقد ذكر أن أبا العباس الحفصي حين دخل قسنطينة في ربيع الثاني من سنة 786هـ وجده على خطة الخطابة[58] بها، وتولى منصب القضاء بقسنطينية كذلك، ويذكر بأنه أجبر على تولي هذا المنصب[59]

ويظهر أنه كان ذا منزلة رفيعة عند الحفصيين، فإلى أبي فارس عبد العزيز الحفصي ألف كتابه «الفارسية»[60]، مما جعله مقربا من السلطان يحضر مجالسه ويشهد حفلاته، فلقد تحدث عن أحد المجالس العلمية بحضرة أبي فارس المذكور قائلا «وفي سنة اثنتين وثمانين حضرت مجلسه ـــ نصره الله ـــ في العلم بقصبتهم السعيدة في

---

(54) ألف سنة من الوفيات ص 92، درة الحجال 1 : 121.

(55) الوفيات ص 375.

(56) نفسه ص 373 ـــ 374.

(57) الفارسية ص 200، أنس الفقير ص 2.

(58) الفارسية ص 188.

(59) نفسه ص 198.

(60) الفارسية ص 99.

الحضرة العلمية في التفسير والحديث والفقه، والقائم حينئذ برسم العلم في مجلس الأمر قاضي الجماعة بالحضرة الشيخ الامام الحافظ أبو مهدي عيسى بن أبي العباس أحمد الغبريني»(61).

ويتحدث أيضا عن حضوره مع السلطان حفلة الأسد في رمضان من عام 800هـ(62) وكانت تقام على غرار ما كان شائعا عند المرينيين.

وهكذا كانت له مكانته ومنزلته الرفيعة حيث بقي يشغل المناصب العلمية كالافتاء والخطابة والقضاء والتدريس(63)، إلى جانب حضوره لمجالس علمية لأشهر علماء عصره كالعالم التونسي ابن عرفة(64)، وأبي الحسن محمد البطرني(65) وغيرهما، وانكبابه في هذه الفترة على تدوين الكتب والرسائل إلى أن توفي في سنة809هـ حسب ماذكره الزركشي(66)، أو 810هـ كما ورد في وفيات الونشريسي، وفي لقط الفرائد لابن القاضي(67)

ولقد ألف ابن قنفد في فنون مختلفة كالتصوف، والفقه، والتوحيد، والحديث، والتفسير، والعربية، والحساب، والفلك، والفرائض، والمنطق، والنحو، والتاريخ، والوفيات، وقد ضمن أسماء سبعة وعشرين تأليفا في ثبت أورده في آخر كتابه «شرف الطالب في أسمى المطالب»، مع أنه لم يذكر كل كتبه، إذ ذكر له صاحب نيل الابتهاج ثلاثة كتب أخرى عير المذكورة في الثبت ولعله ألفها في آخر حياته(67 مكرر)

---

(61) نفسه ص 197.

(62) نفسه ص 196.

(63) نفسه ص 187.

(64) الوفيات ص 379 ــ 380.

(65) نفسه ص 378.

(66) تاريخ الدولتين ص 107.

(67) ألف سنة من الوفيات ص 136، 236.

(67 مكرر) يرجع في ترجمته إلى مايلي :
1) أنس الفقير وعز الحقير.
2) الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية.
3) الوفيات.
4) البستان ص 308 ــ 309. ⇚

كتاب أنس الفقير :

كنا قد تريثنا من قبل في إصدار الحكم على هذا الكتاب ونحن نحاول تصنيفه ضمن الرحلات الداخلية مكتفين حينئذ بطرح هذا السؤال هل يحق لنا في ضوء معايير الرحلة ومقاييسها أن نعتبر أنس الفقير رحلة ؟ أم يحسن بنا إدخاله ضمن كتب التصوف التي عرفها العصر، والتي اهتمت بذكر الكرامات والتحدث عن الأولياء وأسانيدهم في لبس خرقة التصوف ؟

وكنا قد قلنا جوابا على ذلك بأن أنس الفقير رغم اهتمامه بالتصوف والمتصوفة إلا أن طريقة عرض الموضوع جعلت مؤلفه يقوم بسياحة داخل المغرب يزور فيها المعالم ويلتقي بالأشخاص ويحصل على الفوائد والأسانيد، ومن هنا فالكتاب أقرب إلى الرحلة منه إلى كتب الكرامات، ولعل الكانوني انطلق من هذا التصور حين قدم الكتاب هكذا : «أنس الفقير وعز الحقير في ترجمة الشيخ أبي مدين وأصحابه، هذا هو القصد منه، ولكنه من جهة أخرى شبه رحلة تقصى فيها تنقلاته بالمغرب الأقصى، ومن لقي من أهل العلم والصلاح»(68).

⇐ 5) درة الحجال 1 : 121 — 123.
6) جذوة الاقتباس 1 : 154
7) نشر المثاني 1 : 12.
8) الحلل السندسية في الأخبار التونسية 3 : 657.
9) نيل الابتهاج ص 75 — 76.
10) هدية العارفين 1 : 133.
11) شجرة النور الزكية ص 250.
12) فهرس الفهارس 2 : 973 — 974
13) الاعلام للمراكشي 2 : 224.
14) جواهر الكمال 1 : 44 —46.
15) هسبرس سنة 1928 ص 37 — 41.
16) الاعلام للزركلي 1 : 117.
17) معجم المؤلفين 1 : 205.
18) الموسوعة المغربية 2 : 93.

(68) جواهر الكمال 1 : 45.

والقارىء يميل إلى اعتبار هذا الكتاب أقرب إلى كتب التصوف وطبقات الأولياء لسببين اثنين :

أولهما : ما صرح به ابن قنفد في البداية من أنه أقدم على هذا التأليف استجابة لرغبة بعض الاخوان المتصوفة في التعريف بالشيخ أبي مدين وذكر نماذج من أقواله ونصائحه[69].

ثانيهما : يعود إلى منهج التأليف، وهو منهج جعل الكاتب لا يختلف عن كتب التصوف الأخرى ندرك هذا من استعراضنا لما حرص على ذكره في هذا الكتاب، فلقد افتتحه ــ جريا على عادة التآليف الصوفية ــ بالتحدث عن الولي وتحديد صفاته بالنظر لما ورد في القرآن والسنة[70] مع تركيزه على بحث له علاقة بالولاية، ويتعلق الأمر بالكرامة، وفي نظره أنه يستدل على صدق الكرامة بصحة الولاية[71].

وينتقل المؤلف بعد ذلك إلى ما عقد الكتاب من أجله وهو التعريف بالشيخ أبي مدين، فتناول ذلك من خلال حديثه عن سيرة هذا الشيخ[72]، وترجمته لشيوخه، كأبي الحسن ابن حرزهم[73]، وأبي الحسن ابن غالب[74]، وأبي يعزى[75]، وأبي عبد الله الدقاق[76]، وغيرهم.

ويتحدث عن إخوان الشيخ حسب اصطلاح المتصوفة فيخص بالذكر منهم أحد عشر علما[77]، ومن هؤلاء عبد الرحمان الهزميري[78]، وأبو الصبر السبتي[79]،

---

(69) أنس الفقير ص 1 ــ 2.

(70) أنس الفقير ص 2.

(71) نفسه ص 3 ــ 10.

(72) نفسه ص 11 ــ 12.

(73) أنس الفقير ص 12 ــ 14.

(74) أنس الفقير ص 14 ــ 26.

(75) نفسه 15 ــ 16 ــ 21.

(76) أنس الفقير ص 27.

(77) نفسه ص 28 ــ 42.

(78) نفسه ص 31.

(79) نفسه ص 32.

وأبو محمد بن ينصارن الماجري[80]، وأبو علي ابن أبي يعزى[81] وغيرهم ...

أما أصحاب الشيخ أبي مدين فيذكر منهم ستة عشر علما[82]، منهيا هذه اللائحة الطويلة من شيوخ أبي مدين وتلاميذه وإخوانه وأصحابه بقوله «وهذا القدر كاف فيما تيسر لي من ذكر ما قصدت ذكره ليعلم منه بعض أخبار الشيخ أبي مدين»[83] وقوله بعد ذلك «فهذا ما تيسر لي من ذكر الشيخ أبي مدين وذكر من اجتلبه الذكر بسببه»[84].

ولا ينسى التحدث عن نماذج من كلام الشيخ[85]، والاشارة إلى كراماته وأحواله الصادقة[86].

ويختم كتابه بذكر نكت تنفع الفقير وتعز الحقير منها كيفية التوبة[87]، وحكم التائب في الشيء المغصوب إذا باعه[88]...

ولكن كل ما ذكره من أخبار الشيخ أبي مدين، وإخوانه وأصحابه وشيوخه وتلاميذه قد حصل على معظمه من رحلاته المختلفة داخل المغرب، وهو يتنقل بين مدنه وقراه للقاء الشيوخ، أو زيارة الأضرحة، أو حضور المواسم... فكانت سياحته أو جولته داخل المغرب مندرجة ضمن هذا الاطار الصوفي.

فالهدف الصوفي إذن هو الذي كان يوجه الرحلة ويرسم مخططها وهكذا فإلى جانب حديثه عن الشيخ أبي مدين وأخباره نجده يتقصى أخبار المتصوفة ورجال الطرق، ويبحث عن شيوخهم وطوائفهم، فلقد ذكر بأنه توصل إلى أن الطوائف

---

(80) نفسه ص 35 ـ 36.

(81) نفسه ص 29.

(82) انس الفقير ص 90 ـ 101.

(83) نفسه ص 102.

(84) نفسه ص 109.

(85) نفسه ص 18.

(86) نفسه ص 19.

(87) نفسه ص 109 ـ 111.

(88) نفسه ص 112.

الصوفية بالمغرب متعددة تبعا لتعدد الأشياخ والأوراد، ولكن أهم هذه الطوائف ستة[89] وهي طائفة الشعيبيون نسبة إلى أبي شعيب أزمور، والصنهاجيون من طائفة بني أمغار، والمجريون نسبة إلى أبي محمد صالح، والحجاج وهي طائفة تقتصر على من حج بيت الله الحرام، والحاحيون نسبة إلى أبي زكرياء الحاحي، والغماتيون نسبة إلى أبي زيد عبد الرحمن الهزميري...

ولقد عرف ابن قنفد هذه الطوائف عن كثب، إذ اجتمع بهم في أكثر من مناسبة، أهمها تلك المناسبة التي جمعته بهم في دكالة سنة 769هـ حيث كان يشغل منصب القضاء يقول : «ولقد حضرت مع جملة من هذه الطوائف مواطن عدة منها زمان اجتماع فقراء المغرب الأقصى على ساحل البحر المحيط جوف إقليم دكالة بين بلاد آسفي وبلد تيطنفطر»[90].

وهذا الاجتماع الذي تحدث عنه كان كبيرا قصده المتصوفة جميعهم شيخا كان أو مريدا، يقول : «وحضر من لا يحصى عدده من الفضلاء، ولقيت هناك من أخبارهم وعلمائهم وصلحائهم ما شردت به عيني بسبب كثرتهم»[91].

ونظرا لاعتقاد الناس في بركة المتصوفة والايمان بكراماتهم، فإنه «وردت عليهم أصحاب العلل المزمنة كالمقعدين وغيرهم»[92]، ولقد تأكد ابن قنفذ من بركتهم إذ لم ينصرف هؤلاء المقعدون إلا وقد استرجعوا عافيتهم لذلك يعتبر حضوره في هذا الاجتماع مفيدا، خالط فيه رجال التصوف وشهد كثيرا من أحوالهم يقول : «رأيت في ذلك المجتمع العظيم والمشهد الجسيم غرائب وعجائب لا يرى مثلها أبدا لتغير الأحوال بعد ذلك»[93].

ومما أشار إليه ابن قنفذ انطلاقا من سياحته داخل المغرب أن السير في بعض الجهات كان مغامرة، إذ السفر بها محفوف بالأخطار والمصائب، وهكذا عدل ابن قنفذ عن السفر لزيارة ضريح أبي يعزى لانعدام الأمن، وانتشار قطاع الطرق،

---

(89) أنس الفقير ص 63 ــ 70.

(90) نفسه ص 71.

(91) نفس المصدر والصفحة.

(92) أنس الفقير ص 71.

(93) نفسه ص 72.

يقول : «وكان غرضي الوقوف على قبره فبقي بيني وبين موضعه بتاغية جوفي تادلة نصف يوم، فعدمت الرفيق لخوف الطريق فرجعت»(94).

وتحدث مرة أخرى عن الظروف والأحوال الأمنية التي سادت المغرب العربي عامة في السنة التي عاد فيها من رحلته المغربية وهي سنة 776هـ، وأقل ما توصف به الأوضاع حينئذ هو الاضطراب والفوضى وانعدام الأمن، يقول : «وارتحلت بعد أيام يسيرة ورأيت في طريقنا من انقلاب الشر خيرا ما كان يتعجب به من شاهده وكان أمر الطريق في الخوف والجوع ما مقتضاه أن كل من يقع قدومنا عليه يتعجب في وصولنا سالمين ثم يتأسف علينا عند ارتحالنا حتى أن منهم من يسمعنا ضرب الأكف تحسرا علينا»(95)

ــ لقاء الشيوخ :

يبدو أن من جملة ما كانت تستهدفه رحلة ابن قنفذ في المغرب هو اتصاله بالشيوخ الاعلام، شيوخ العلم وشيوخ التصوف، فلقد أشار إلى عدد كبير من هؤلاء الذين التقى بهم من أجل التلمذة والأخذ عنهم أو التبرك بهم، لما ذاع بين الناس من أخبار صلاحهم وبركتهم، وهكذا ذكر حوالي ثلاثين علما من الذين حصل اللقاء معهم في رحلته هذه مع العلم بأنه اكتفى أحيانا بوصف من التقى بهم بالأخيار دون ذكر أسمائهم نظرا لكثرتهم، فلقد قال مثلا وهو يدخل بلدة تانشناشت بأحواز مراكش سنة 768هـ : «ولقيت بها أخياراً ورأيت فيها شيخا منقطعا في مغارة للعبادة والناس يتبركون به»(96)، ويذكر بأنه حينما كان بمدينة سلا خرج إلى ساحل البحر فوجد «على البحر أخياراً قوتهم من صيد الحوت»(97).

ولقد استقى بمدينة مراكش بعض أخبار أبي زيد عبد الرحمن الهزميري ممن أدركه من بعض شيوخ عدول(98)، فحدثه غير واحد ممن لقيه من الأعلام هناك في

---

(94) نفسه ص 26.

(95) أنس الفقير ص 105.

(96) أنس الفقير ص 65.

(97) نفسه ص 84.

(98) نفسه ص 66.

مراكش أن انتفاع ابن البناء في علومه ومنزلته الدينية والدنيوية إنما كان من بركة الهزميري[99]، ولقد أتاحت له فرصة توليه القضاء بدكالة أن شهد موسما حضره من لا يحصى من الفضلاء[100]، فيهم الأخيار، والعلماء والصلحاء كما سبق الذكر.

فمن هؤلاء الذين لم يصرح بأسمائهم واكتفى بعبارات مبهمة كعبارة الأخيار، أو الفضلاء، أو العلماء، أو الصلحاء، والشيوخ العدول... وما إلى ذلك ؟

فهل يعزى عدم تصريحه بأسماء هؤلاء الفضلاء والعلماء والأخيار والعدول إلى عامل النسيان ؟ لأننا نعلم أنه دون أخبار رحلته هذه في شهر رمضان من عام 787هـ[101] بعد أن كان قد أنهى الرحلة والتحق ببلده قسنطينة ؟ أم أن السبب يكمن في كثرة الاعلام الذين التقى بهم ابن قنفذ أثناء هذه الرحلة المغربية ؟.

إننا نكاد لا نستبعد الأمرين معا وإن كنا نميل إلى ترجيح العامل الثاني، ذلك لأن الزمن الطويل الذي قضاه في رحلته بالمغرب(759 ـ 776هـ) أتاح له لقاء أعلام كثيرين من مستويات عديدة، وأصناف واختصاصات مختلفة، فلو ترجم لكل هؤلاء أو تحدث عما استفاده منهم أو أورد أقولهم وأخبارهم لصار الكتاب أضخم ولأضحى فهرسة للشيوخ مع أنه كان يهدف بالدرجة الأولى إلى التعريف بالشيخ أبي مدين وأصحابه ...

وتعد مدينة فاس هي المرحلة الهامة في رحلته ففيها التقى بشيوخ العلم وشيوخ التصوف، ولازم العلماء والزهاد، فاكتمل تكوينه العلمي والصوفي معا، وهكذا حصل له اللقاء في هذه المدينة بكثيرين في مقدمتهم :

ـ أبو محمد عبد الله الونغيلي الضرير، وهو العالم المتمكن الذي انفرد بفهم كتاب ابن الحاجب في الأصول والفروع ويذكر ابن قنفذ بأنه ختم عليه الأصلين بمدرسة الوادي في فاس[102]، ويشير في وفياته إلى أن قرأ عليه أيضا الجمل في المنطق، وحضر مدة درسه في المدونة[103].

---

(99) نفسه ص 66.

(100) نفسه ص 71.

(101) أنس الفقير ص 2.

(102) أنس الفقير ص 78.

(103) الوفيات ص 373.

ــ أبو العباس أحمد بن القباب وصفه في أنس الفقير الحافظ العالم المفتي الحاج حضر مجالسه في الحديث والفقه وأصول الدين[104]، ولازم درسه كثيرا بمدينة فاس[105]. والقباب عالم فقيه معترف له بمقدرته في الافتاء والمناظرة والتأليف[106].

ــ أبو الربيع سليمان الأنفاسي التقى به في مرحلة شبابه، لذلك قال عنه بأنه كانت «له به معرفة وأخوة من مجلس العلم»، ومع ذلك فكان ابن قنفذ «ممن أخذ عليه»[107]، كان خطيب القرويين[108]، وصفه في أنس الفقير بالصالح الولي، لذلك امتنع من لقاء السلطان أبي فارس عبد العزيز بعد أن قصده هذا الأخير لزيارته[109].

ــ أبو الحسن علي اللجائي يصفه ابن قنفذ بعد أن خالطه وعرف طبعه، بأنه «ألين الفقهاء معاملة وأعذبهم كلاما، إذا جلست معه لا تريد أن تفارقه[110]»، ولقد أثنى على صلاحه وأخلاقه وإنفاقه على العلماء والمحتاجين وزهده في الحياة.

ــ أبو علي الرجراجي وهو عالم متصوف لكن «شهرته بالصلاح أكثر من شهرته بالعلم»، لذلك كانت استفادته منه عظيمة، أخذ عنه العلم والسلوك معا، ولقد لخص هذه الفائدة بقوله «لازمته وقرأت عليه كتاب الحوفي في الفرائض، وحضرت معه مجالس العلم وانتفعت به كثيرا، وكنت أقصده في بيان ما يعسر علي فهمه»[111].

ولا ندري هل المقصود هنا هو أبو حفص عمر الرجراجي خطيب جامع الأندلس المتوفى بفاس سنة 810هـ والذي وصفه ابن القاضي بأنه «كان عارفا بالحساب والفرائض، وكان زاهدا ورعا قوالا بالحق»[112]، أم أنه كان يقصد غيره ؟

---

(104) أنس الفقير ص 78.

(105) الوفيات ص 372.

(106) نيل الابتهاج 72 ــ 73، الاحاطة 1 : 87.

(107) أنس الفقير ص 74.

(108) الجذوة 2 : 516.

(109) أنس الفقير ص 74.

(110) أنس الفقير ص 76 ــ 77.

(111) أنس الفقير ص 77.

(112) الجذوة 2 : 495.

ــ أبو عبد الله محمد الجناتي، التقى به فوجده «من أهل العلم والصلاح والزهد والورع والفلاح» ويذكر بأنه كان زاهدا في الحياة مداوما على مطالعة إحياء علوم الدين للغزالي لذلك حصلت الألفة بينه وبين ابن قنفذ الذي لازمه طيلة المدة التي قضاها بالمغرب وهي ثمانية عشر عاما[113]، وهذا يدل على أنه رافقه في رحلته وتجواله في باقي الأقاليم المغربية.

ــ ويشبهه في الزهد والتقوى أيضا أبو عبد الله محمد المشنزائي، وهو من دكالة إلا أنه التقى به في فاس فقربه منه وأدخله إلى بيته فلم يشاهد به شيئا زائدا على أوراق من الكتب، ويغلب على ظنه أنه كان حافظا لكتاب الاحياء لكثرة استحضاره لمسائله[114].

ــ أبو عمران العبدوسي، وقصده من أجل التلمذة والأخذ فوجد مجلسه «من أعظم المجالس بفاس يحضره الفقهاء والصلحاء والمدرسون وحفاظ المدونة»[115]، إذ لم يكن يضاهيه أحد في إقراء المدونة وحفظ مسائلها، كما أن مجلسه في الفقه لا مثيل له يقول ابن قنفذ «وكان له مجلس في الفقه لم يكن لغيره في زمانه، ولازمته في درس المدونة والرسالة بمدينة فاس مدة ثمان سنين»[116] وكانت دروسه عامة يتلقفها الطلبة ويدونون ما ورد فيها من مسائل فلقد ذكر التنبكتي بأنه «قد قيد عنه تقييد كبير على المدونة في عشرة أسفار، وله تقييد آخر عليها، وآخر على الرسالة»[117]

ــ أبو محمد عبد الله الأوربي، ولقد كان قاضي الجماعة بفاس في وقت لقائه فاستفاد منه علما وسلوكا، فهو الذي روى له قصص الأولياء والصالحين[118] وحكاياتهم، والأوربي مشهود له بعلمه وفقهه، فعنه أخذ ابن الأحمر ويحيى السراج وذكراه في فهرستيهما[119]، ووصفته كتب التراجم بأنه «كان فقيها فاضلا عارفا

(113) نفسه ص 76.

(114) أنس الفقير ص 75.

(115) نفسه ص 25، الجذوة 1 : 346.

(116) الوفيات ص 370.

(117) نيل الابتهاج ص 343.

(118) أنس الفقير ص 67 ــ 68.

(119) الجذوة 2 : 424، نيل الابتهاج ص 149.

بعقد الشروط قاضيا نزيها قريب الغور، بعيد الشأو، حسن الظن محبا في الصالحين»[120]، والمعروف أن الأوربي هو الذي جمع كرامات الولي أبي يعقوب البادسي ودونها كما سبق الذكر.

ــ أبو العباس المراكشي المعروف بالشماع التقى به في المدرسة التي يؤم فيها بالطالعة، فأكد له ما كان الأوربي قد حكاه من أخبار الأولياء والصالحين[121].

ــ أبو زيد عبد الرحمن اللجائي وصفه بأنه «آية في فنونه»، وقف ابن قنفذ زمن قراءته بين يديه على أسطر لاب كان قد اخترعه[122]، كما استفاد منه جملة من العلوم التي أخذها عن شيخه ابن البناء، ومن المعروف أن أباه سليمان اللجائي هو الذي أدخل مختصر ابن الحاجب في الأصول إلى المغرب وعنه أخذ[123].

ــ أبو عبد الله ابن عباد الرندي، وصفه ابن قنفذ بالخطيب الشهير الصالح الكبير «من خيار تلامذة ابن عاشر وله كلام في التصوف» ومما لاحظه في سلوكه أنه لم يكن متشددا كباقي الزهاد، فهو لا يرد زيارة السلطان له، ويحضر ليلة المولد عنده[124].

ويسعى أيضا إلى لقاء المرأة الصالحة مؤمنة التلمسانية للتبرك بها «وكانت على زهد وتقشف وعبادة وورع» لذلك قصدها الكثيرون في مقدمتهم قاضي الجماعة أبو عبد الله المقري[125].

أما مدينة سلا فكان لها الأثر الكبير في تكوينه الصوفي، إذ التقى فيها بشيوخ لهم الشأن في التصوف والزهد، من مثل الشيخ الحاج الزاهد الورع الصالح أبي العباس أحمد بن عاشر الأندلسي الذي التقى به في عام 763هـ فأفاده بأن الكرامة لا تنقطع بالموت[126]، ولم يكن لقاء ابن عاشر مما يظفر به الكثيرون، لذلك عد

---

(120) نيل الابتهاج ص 149، سلوة الأنفاس 3 : 301.

(121) أنس الفقير ص 68.

(122) نفسه ص 68 ــ 69.

(123) الوفيات ص 369، نيل الابتهاج ص 168، دره الحجال 1 : 60.

(124) أنس الفقير ص 79 ــ 80، نيل الابتهاج ص 279 ــ 281.

(125) أنس الفقير ص 80 ــ 81.

(126) أنس الفقير ص 7.

ابن قنفذ اجتماعه به منة عظيمة وفضلا كبيرا وحصل له بذلك فخر لا يدري قدره إلاّ من عرف هذا الولي. وهكذا كان يشعر بزهو عظيم وهو بقربه يتناول طعامه، ويتمتع بمجالسته، وانبساط الشيخ وانشراحه معه في معاملته، فازداد حظوة وفضلا، يقول «وقصدني كثير من الخواص يسألني عما انطوى عليه مجلسي في لقائه وما وقع من كلامه وسؤاله ودعائه»[127].

ومن أحواله التي خبرها وتعرف عليها بالقرب منه، عمله بما ورد في كتاب إحياء علوم الدين، وهروبه من أهل السلطة فقد رفض لقاء أبي عنان المريني، والتزامه بأن يحصل على قوته ورزقه من نسخ كتاب العمدة في الحديث وبقي هذا مظهره ومخبره إلى أن توفي سنة765هـ[128].

ولعل سلا، في هذا الوقت، كانت تضم الكثير من الزهاد والمنقطعين إلى عبادة الله، إذ التقى هناك بشيخ من بلاد حاحة[129]، وبشاب منقطع إلى العبادة[130]، ورأى منهم في هذه المدينة أبا الحسن علي بن أيوب الذي ببركاته تذهب الأوجاع وتشفى الأمراض[131]، والشيخ الصالح عبد العزيز الصنهاجي الذي كاشف السلطان بأمور غيبية[132]، والشيخ القصار وهو من الأولياء الكبار[133]، وولي الله الفقيه ابن مصباح أكراس من أقران ابن عاشر[134]، والحاج عبد الغني الذي كانت له زاوية يقصدها الأخيار المنقطعون للعبادة[135].

ويخلص إلى القول، وقد أتيح له الاختلاط بأهل هذه المدينة والتعرف على أوليائها وصلحائها «وعلى الجملة فهذه المدينة أولى بالمريد بالمغرب من غيرها عمرها الله بالخير والبركة»[136].

---

(127) نفس المصدر ص 9.

(128) نفسه ص 10، النجم الثاقب ص 67.

(129) أنس الفقير ص 82.

(130) نفسه ص 83.

(131) نفسه ص 84.

(132) نفسه ص 84.

(133) نفسه ص 84.

(134) أنس الفقير ص 84.

(135) نفسه ص 84.

(136) نفسه ص 85.

وهكذا سعى إلى لقاء العلماء والشيوخ والمتصوفة في كل بلد حل به فالتقى في مراكش بقاضي الجماعة بها أبي زيد عبد الرحمن القيسي الذي كان أول من قرأ عليه فن المنطق[137].

والتقى في دكالة بالشيخ أبي الحسن بن يوسف الصنهاجي فحصل له فخر عظيم بلقائه، ونال من بركته ودعائه[138]، وبآسفي يلتقي بالشيخ الصالح المسن الحاج الشهير المعظم أبي العباس أحمد بن يوسف الذي بلغ من ورعه وصلاحه أنه «يتحدث بالأمور المستقبلة في أحوال السلاطين ويقع ما يتحدث به»[139].

ويلتقي في صنهاجة أزمور بالشيخ الصالح أبي محمد عبد الواحد الصنهاجي[140]

ولقد كان دأبه في كل بلد حل به، السعي إلى الصلحاء والشيوخ على عادته «في البحث عن الفضلاء وذلك في غير وقت الصلاة»[141]، ومن هنا لم يكن بإمكانه التحدث عن كل من التقى بهم في هذه الرحلة أو روي عنهم، أو سمع منهم، أو حضر مجالسهم يقول : «ولو استقصيت لك ما أطلعت عليه في هذه الجزئيات لطال الكتاب لذلك»[142]

ـ زيارة الأضرحة :

ولم يكتف ابن قنفذ في رحلته بلقاء الأحياء، والتبرك بهم، والحصول على دعواتهم، بل سعى إلى قبور الأولياء وأضرحة الصالحين لزيارتهم، فلقد ذكر بأنه رأى «من قبور الأولياء كثيرا من تونس إلى مغرب الشمس ومنتهى بلد آسفي»[143]، وكانت له طريقته الخاصة في هذه الزيارة تنم عما يستشعره من بركة وقدسية، وهو في حضرة ذلك الولي الذي وقف على قبره[144].

---

(137) نفسه ص 67.

(138) نفسه ص 72.

(139) أنس الفقير ص 61.

(140) أنس الفقير ص 86.

(141) نفسه ص 85.

(142) نفسه ص 88

(143) نفسه ص 104.

(144) نفسه ص 106.

وهكذا كان دخوله للمدن يستهدف أيضا زيارة الأولياء والصالحين، فلقد وقف بمراكش على قبر أبي العباس السبتي ودعا عنده بتوفيق الاشتغال بالعلم وتيسير فهم الكتب فحقق الله رغبته[145]، كما وقف على قبر القاضي عياض فرأى له بركات وأنوارا[146].

وفي بلد أغمات وقف على قبر أبي عبد الله بن تيجلات فوجد «الناس يتبركون به ويتزاحمون عليه»[147]، كما وقف بهذا البلد سنة 763هـ على قبر الولي عبد العزيز التونسي تلميذ أبي عمران الفاسي وأبي إسحاق التونسي وغيرهما فوجد الناس يزورونه[148].

ووقف بآسفي على قبر الشيخ أبي محمد صالح فرأى هناك أحفاده[149]، أما في آزمور فلقد وقف خارج هذا البلد على قبر أبي شعيب المعروف بأيوب السارية[150]. وكان يرغب في زيارة قبر أبي يعزى بتاغية جوفي تادلا، لكن هذه الرغبة لم تتحقق لخوف الطريق وانعدام الأمن بها[151].

ويقصد مدينة سلا مرارا لزيارة قبر أبي العباس ابن عاشر الدي عاين الكثير من كراماته في حياته وبعد مماته[152].

وتستهويه مدينة فاس فيبقى بها مدة أطول، لا لما تغص به من علماء وشيوخ فقط، ولكن لما كانت تضمه أيضا من أضرحة للأولياء وقبورهم، وهكذا زار مرارا كثيرة قبر أبي الحسن ابن حرزهم خارج باب الفتوح زمن إقامته بالمغرب، لاعتقاده

---

(145) نفسه ص 7.

(146) نفسه ص 8

(147) نفسه ص 69.

(148) نفسه ص 106.

(149) نفسه ص 61.

(150) نفسه ص 42.

(151) أنس الفقير 26.

(152) أنس الفقير ص 10.

بأن للوقوف على قبره بركات[153]، كما زار قبر أبي بكر بن العربي بين فاس القديم وفاس الجديد[154].

أما قبر أبي مدين بتلمسان الذي ألف الكتاب من أجله، فلقد تردد عليه مرات عديدة فما رأى «أنور من قبره ولا أشرف ولا أظهر من سره، وليس الخبر كالعيان، والدعاء عنده مستجاب»[155]، وكانت آخر زيارته لقبره حينما عاد من رحلته المغربية سنة 776هـ.

ــ وصف البلدان :

ورغم أن اهتمامه كما رأينا كان منصبا على زيارة الأضرحة والاتصال بالشيوخ إلا أنه كان يولي اهتماما خاصا للبلدان والمدن التي يدخلها، والمعالم والآثار التي يشاهدها فيصفها وصفا موجزا لكنه مفيد، يقول عن جبل درن الذي ينتمي إليه أصحاب طائفة الحاحيين «وهو الجبل العظيم الذي ليس على وجه الأرض مثله في الارتفاع والمياه والخصب، وقد دخلت أكثره وكأن العالم الأرضي بأسره منحصر فيه، وهو من عجائب الدنيا وأعظمه قبلي مراكش»[156].

ويصف إقليم دكالة الواقع بين بلد آسفي وبلد تينفطر هكذا «وهي أرض مستوية طولها مسيرة أربعة أيام وكذلك عرضها، ووجدت فيها خمسة وعشرين مدرسا، وبلغت أزواج حراثتها زمان ورودي عليها عشرة آلاف...الخ»[157].

ويقول عن آسفي : «هذا البلد آخر المعمور في الأرض من الجانب الغربي ويرده أهل الله تعالى»[158].

وبهذا البلد وقف عند بعض أحفاد الشيخ أبي محمد صالح على كتاب مجموع بخط الشيخ[159] يضم كتبا في التصوف والفقه.

(153) نفسه ص 14.

(154) نفسه ص 42.

(155) نفسه ص 104.

(156) نفسه ص 64.

(157) نفسه ص 71.

(158) نفسه ص 61.

(159) نفسه ص 63.

ـ أهمية الرحلة :

بعد هذا العرض السريع لمحتوى الرحلة نتبين أهميتها في رسم صورة واضحة للحياة الفكرية والعلمية والصوفية في القرن الثامن الهجري، ومن ثم تعتبر مرجعا أساسيا في ترجمة الكثير من الشخصيات التي التقى بها ابن قنفذ، وحكى بعض أخبارها، أو زار أضرحتها، لذا فقد اعتمد عليها الكثيرون، فنقل عنها مثلا المازري في النوازل، والقلشاني في شرح الرسالة(160).

أما التنبكتي فقد استفاد من هذه الرحلة في كثير من التراجم كترجمة ابن البناء(161)، وترجمة أبي العباس القباب(162)، وترجمة حسن بن خلف الله بن بادس القسنطيني(163)، وترجمة الهزميري(164)، وترجمة عبد الرحمن اللجائي(165).

ويعتمد ابن عيشون الشراط على هذه الرحلة أيضا في أخبار بعض من ترجمهم من صلحاء فاس كترجمة أبي زيد عبد الرحمن الهزميري(166)، وترجمة ابن عباد الرندي... (167)

---

(160) نيل الابتهاج ص 75.

(161) نفسه ص 67.

(162) نفسه ص 72.

(163) نفسه ص 108.

(164) نفسه ص 164.

(165) نفسه ص 168.

(166) الروض العطر الأنفاس ورقة 63 ب مخطوط الخزانة العامة.

(167) نفسه ورقة 160.

2 ـ رحلة أحمد زروق

وهي نمط آخر من الرحلة، لم يسلك فيه صاحبه طريقة ابن قنفد ومنهجه في أنس الفقير، رغم أن كلا من الرحلتين نموذج لما اطلقنا عليه الرحلات التصوفية.

ويحسن بنا قبل أن نستعرض ما تتضمنه هذه الرحلة، أن نتوقف مع صاحبها، فنتعرف على بعض ما يتعلق بحياته وتكوينه العلمي والصوفي[1].

---

(1) تستفاد ترجمته مما يلي :
1) كناشة زروق مخطوط الخزانة العامة رقم ك 1385.
2) مخطوط الخزانة العامة لمجهول رقم د. 2100.
3) الضوء اللامع 1 : 222 ـ 223.
4) فهرس ابن غازي ص 128.
5) نيل الابتهاج ص 84 ـ 87.
6) دوحة الناشر ص 48.
7) توشيح الديباج ص 60 ـ 61.
8) البستان ص 45 ـ 50.
9) شذرات الذهب 7 : 363.
10) الجذوة 1 : 128.
11) درة الحجال 1 : 90.
12) هدية العارفين 1 : 136.
13) شجرة النور الزكية ص 267.
14) فهرس الفهارس 1 : 455 ـ 456.
15) ذكريات مشاهير رجال المغرب رقم 23.

ـ نبذة عن حياته

وحينما نتحدث عن زروق، فإننا نتناول حياة أهم شخصية صوفية شهدها آخر العصر المريني وبداية العصر الوطاسي ومن حسن الحظ أن المؤلف نفسه ذكر كثيرا من أحواله وأخباره وشيوخه ورحلاته في كناشته التي اعتبرها بعض المؤلفين رحلة فهرسية(1 مكرر).

ولقد كتب بخطه في هذه الكناشة اسمه هكذا أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي ثم الفاسي شهر بزروق(2)، وينفرد ابن عسكر بإيراده نسبته هكذا أبو العباس أحمد بن عيسى ...(3) باختصار اسم أبيه وجده، بل إن ابن العماد الحنبلي يورد ترجمته تحت هذا الاسم إسماعيل بن محمد بن عيسى البرلسي المغربي الفاسي المالكي المعروف بزروق(4)، والخطأ واضح في اسمه واسم أبيه معا وكذلك نسبته.

وذكر زروق بأن ولادته كانت بفاس سنة 846هـ كما أخبرته بذلك جدته الفقيهة أم البنين التي كان لها فضل كبير في تنشئته وتربيته بعد فقدانه لأبويه قبل تمام الأسبوع من ولادته، فكانت أم البنين هي الموجهة والمربية والمرشدة لزروق(5)، تحدث عن دورها في هذا التكوين بقوله : «وعلمتني الصلاة وأمرتني بها وأنا ابن خمس سنين، فكنت أصلي إذ ذاك وأدخلتني الكتاب في هذا السن، فكانت تعلمني التوحيد والتوكل والايمان والديانة بطريق عجيب»(6)، فكان لهذا الانضباط السلوكي إذن، والتربية الروحية التي حرصت جدته على تنشئته عليها منذ الصغر، الأثر الكبير في رسم طريقه، وتحديد وجهته. وهكذا كان لابد من أن ينصرف، وهو بفاس، إلى حفظ القرآن ودراسة العلوم المختلفة كالفقه والتوحيد والحديث والتصوف... على جدته الفقيهة، أو غيرها من شيوخ العلم والتصوف، ثم يرحل إلى المشرق لتأدية الفريضة واستكمال التكوين والتعليم، فيتاح له الأخذ عن الشيوخ هناك.

(1 مكرر) توشيح الديباج ص 61.

(2) كناشة زروق مخطوط خع رقم ك 1385 ص 57.

(3) دوحة الناشر ص 48.

(4) شذرات الذهب 7 : 363.

(5) كناشة زروق ص 57، مخطوط خع رقم د 2100 ص 279.

(6) كناشة زروق ص 58.

ولقد لخص بعض من ترجمه مراحل الطلب والسياحة الصوفية فقال : «وطاف وساح وركب الأهوال، ولزم العبادة وهو في عداد الأطفال، وارتحل إلى مصر فحج وجاور بالمدينة وأقام بالقاهرة نحو سنة، واشتغل فيها بالعربية والأصول على الجوجزي وغيره، وأخذ الحديث وغيره عن السخاوي، والفقه عن النووي السنهوري، ثم غلب عليه التصوف...»[7] وهكذا تتلمذ على مجموعة كبيرة من العلماء شرقا وغربا، فذكر في كناشته[8] ما ينيف على الثلاثين شيخا، أغلبهم انتفع به في العلم والتصوف معا.

ومن شيوخه بالمغرب[9]، أبو محمد العبدوسي، وأبو عبد الله محمد القوري، وأبو سالم إبراهيم التازي ...وغيرهم.

أما شيوخه المشارقة[10] فمن أهمهم محمد السخاوي، وأبو عمرو عثمان المصري، ونور الدين عارف السنهوري، وشمس الدين الجرجي، وأحمد الحضرمي... وغيرهم.

ومن الطبيعي أن تكون رحلته الأولى إلى المشرق تستهدف الاتصال بالشيوخ، والأخذ عن العلماء، إذ لم يكن حينئذ قد تجاوز بعد الرابعة والعشرين من عمره، لكنه مع ذلك وبالرغم من جلوسه إلى علماء كثيرين بالمشرق واتصاله بشيوخ مشهورين، فإنه، كما يبدو من خلال كتب التراجم والطبقات، كان قد رحل وهو مكتمل الثقافة، تام التحصيل، بدليل أن السخاوي يترجمه في كتابه، مع العلم أن هذا لا يحدث إلا إذا كانت هناك زمالة علمية، يقول السخاوي «وقرأ علي بلوغ المرام، وبحث علي في الاصطلاع بقراءته، ولازمني في أشياء، وأفادني جماعة من أهل بلده، والغالب عليه التصوف والميل فيما يقال إلى ابن عربي ونحوه»[11]

وإذن فلم يقتصر دوره بالمشرق على الأخذ والتلمذة فقط، ولكنه أعطى وأفاد، كما أن اتجاهه الصوفي أصبح معروفا متميزا، وإن كان قد استرشد في هذا الجانب بأبي العباس أحمد بن عقبة الحضرمي الذي يعتبره زروق زعيمه الروحي، إذ استمر

---

(7) مخطوط لمؤلف مجهول خع رقم د 2100 ص 279.

(8) كناشة ك 1385 ص 60.

(9) نفسه ص 60 ــ 65 مخطوط د 2100 ص 60 ، 279 . نيل الابتهاج ص 157 .

(10) كناشة ك 1385 ص 72، شذرات الذهب 7 : 363.

(11) الضوء اللامع 1 : 222.

بعد عودته من رحلته يراسله ويستشيره فيما يواجهه من أمور، وما يتعرض له من مضايقات، أو ما يستشكل عليه فهمه ويضعب إدراكه[12].

لكننا نلتقي بأحمد زروق في رحلاته الأخرى بعد سنة 880هـ، وقد أصبح عالما يقصده التلاميذ والطلبة، وشيخا روحيا يقصده المريدون، ويقتدون به في السلوك والطريقة الصوفية، يقول السخاري أيضا متحدثا عن هذه المرحلة من حياة زروق: «وقد تجرد وساح، وورد القاهرة أيضا بعد الثمانين، ثم تكرر دخوله إليها ولقيني بمكة في سنة 894هـ وصار له أتباع ومحبون»[13]، فلا يستبعد أن يكون لدخوله إلى القاهرة في هذه الرحلات، ذلك الأثر الكبير في الحياة الثقافية والعلمية، فيقصده العلماء والفضلاء ويحضر درسه في الأزهر الشريف ستة آلاف نفس[14].

ويبدو أثره في المشرق من خلال ما اجتمع إليه من التلاميذ والأصحاب هناك، فلقد ورد في ترجمته «وأخذ عنه هو رضي الله عنه جماعة من المشايخ، وقد صحبه الجم الغفير مشرقا ومغربا، وتخرج به من الأئمة عدد كثير»[15]، وتحدث ابن القاضي أيضا عما اشتهر به في المشرف من تأثير علمي وروحي معا حين قال «وهو آخر الناس في التصوف ظهرت له كرامات وحج مرارا، أخذ عنه جماعة بالمشرق وغيره كالشيخ محمد بن عبد الرحمن الحطاب والشيخ زين الدين طاهر القسنطيني نزيل مكة وجماعة آخرون»[16].

وبعد رحلاته الكثيرة شرقا وغربا استقر بليبيا في السنوات الأربع من حياته، وأصبح شيخا روحيا يجتمع إليه المريدون والأصحاب، وأضحت زاويته في مسراته مقصد الزهاد وطلاب المعرفة، وانتشرت بين المتصوفة طريقته التي عرفت بالزروقية التي تقوم في سندها على أصول شاذلية وقادرية[17]، وهي طريقة تنبني على المعرفة العلمية والفقهية، فصاحبها لا يعترف بالتصوف إلا إذا انبنى على الفقه والمعرفة،

---

(12) أحمد زروق والزروقية ص 46 ــ 52.

(13) الضوء اللامع 1 : 223.

(14) أحمد زروق والزروقية ص 152 ــ 153.

(15) مخطوط الخزانة العامة لمجهول رقم د 2100 ص 283.

(16) الجذوة 1 : 130 ــ 131.

(17) مخطوط رقم د 2100 ص 283.

يقول : «اعلم أن الفقه والتصوف أخوان في الدلالة على أحكام الله سبحانه... فلا تصوف إلا بفقه إذ لا تعلم أحكام الله الظاهرة إلا منه، ولا فقه إلا بتصوف»[18].

وبقيت زاويته بمسراته تضم جموع الطلبة والفقراء والمتصوفة المريدين إلى أن «توفي بازليتين قرب طرابلس بين تاجورة وقصر أحمد، وقبره مزار هناك سنة 899»[19].

آثاره :

لأبي العباس أحمد زروق تآليف كثيرة تناولت موضوعات علمية مختلفة أسهب كل من ترجمه في ذكر عدد كبير منها[20]، ويتبين من لوائح الكتب التي تذكر بانه كان مكثرا خصوصا اذا علمنا أن مؤلفا واحدا أعاد تأليفه مرات عديدة على أوجه مختلفة، كشرحه لكتاب حكم ابن عطاء الله «فله عليه نيف وثلاثون شرحا، وله على القرطبية في فقه المالكية وعلى رسالة ابن أبي زيد القيرواني عدة شروح وكلها مفيدة نافعة»[21].

كما «أن له رسائل كثيرة لاصحابه مشتملة على حكم ومواعظ وآداب ولطائف التصوف مع الاختصار، قل أن توجد لغيره»[22]، وهذا ما جعل التنبكتي يفكر في افراد هذه الرسائل بتأليف خاص.

وتذكر المصادر المختلفة أن من بين هذه المؤلفات الكناش، والرحلة[23]، والفهرسة[24].

(18) عدة المريد ص 9.

(19) درة الحجال 1 : 62، الجذوة 1 : 132.

(20) نيل الابتهاج ص 85، بلوغ المرام خع د 1808 ص 30 — 31.

(21) مخطوط الخزانة العامة رقم د 2100 ص 279.

(22) نيل الابتهاج ص 85.

(23) هدية العارفين 1 : 137، الاعلام للزركلي 1 : 91، توشيح الديباج ص 61.

(24) درة الحجال 1 : 62، الجذوة 1 : 129.

رحلته :

فما هي هذه الرحلة التي تنسبها المصادر إلى زورق ؟ هل هي تلك الرحلة المشرقية التي قصد فيها مراكز العلم والمعرفة بالمشرق وأدى فيها فريضة الحج مرارا عديدة، ولازم أثناءها شيخه الروحي أبا العباس أحمد بن عقبة الحضرمي ؟ والتي كانت عقابا له على اساءته الظن بشيخه أبي عبد الله محمد الزيتوني، والشك في ولايته وصلاحه، اذ غضب عليه قائلا : « ولكنك لا تبقى بالمغرب ساعة واحدة فخرج الشيخ أبو العباس من حينه وتوجه الى المشرق مشفقا على نفسه مما اتفق له حتى انتهى إلى الديار المصرية»[25] كما يرى ابن عسكر، وإلا فإن الباعث على رحيل زروق كما أوضحنا هو رغبته في تأدية الفريضة، وطلب العلم، ولقاء شيوخ العلم وشيوخ التصوف.

أو أن الرحلة التي يقصدونها هي تلك السياحة الصوفية الوارد وصفها في كناشه[26] وهي التي قام بها زروق داخل المغرب سنة870هـ حيث دامت سياحته أربعين يوما زار خلالها تلمسان والمناطق الواقعة بينها وبين فاس.

إلا أن المصادر أشارت الى كل من الرحلة والكناش منفصلين، مما يحمل على الاعتقاد بأن هناك رحلة أخرى مدونة لزروق، قد تكون رحلته المشرقية، أو رحلاته العديدة التي استمرت مدة طويلة.

ظروف الرحلة واسبابها :

وما دمنا لا نتوفر الآن على رحلة مستقلة لزروق فاننا نتوقف معه هنا في تلك الصفحات التي خص بها سياحته الداخلية وهي التي يمكن أن نصنفها ضمن الرحلات الزيارية لأن أهم هدف من مشروع هذه الرحلة هو زيارة الشيخ أبي مدين الغوث بتلمسان، فزيارة ضريح هذا الغوث في أوساط المتصوفة، وعامة الناس عمل مقدس تهدأ النفوس له ويرتاح البال بتحقيق هذه الزيارة، ولقد شهدنا من قبل بأن زيارة هذا الضريح كانت محور رحلة ابن قنفد القسنطيني أيضا، فمن أجل الزيارة سعى، وبها بدأ رحلته وختمها.

---

(25) دوحة الناشر ص 49.

(26) كناش زروق ص 67 — 76.

ولكن أبا العباس زروقا يذكر سببا مباشرا لهذه الرحلة ويتمثل فيما أشار اليه من أنه بعد أن رافق شيخه الزيتوني وجماعة من الفقراء لزيارة ضريح أبي يعزى ساءت علاقته اثرها بهذا الشيخ لاتهامه بإفشاء سر كان قد أمنه عليه، مما أغضب الشيخ على تلميذه زروق ذلك الغضب الذي كان له أثر كبير على نفسيته وعلاقته بشيخه، مما دفعه إلى هذه السياحة الزيارية الاضطرارية، يقول زروق واصفا حالته وهو مقدم على رحلته «ثم ضاقت علي الأرض بما رحبت فخرجت لزيارة الشيخ أبي مدين، فكنت أجد في زيارته نفس الرحمة ومن محله خطاب الحال»(27).

ولقد كانت هذه الرحلة بالنسبة إليه سلسلة من المتاعب والمشاكل اتهم اثناءها بالجاسوسية، ونعت تارة باليهودية ومرة أخرى بالنصرانية، وتعرض فيها للسلب والنهب، وصادفته كوارث ومصائب مختلفة.

ولقد اقتنع هو نفسه بأن السبب فيما تعرض له من هذه المصائب والمحن يعود إلى عدم رضى شيخه عنه، وإلحاق العقاب به، يحكى بأنه رأى الشيخ في النوم وهو يقول له : «أنت مسجون أربعين يوما»(28)، وهكذا لم تتم زيارته للشيخ أبي مدين إلا في تمام الأربعين يوما من هذه السياحة(29).

إلا أن الباحث الموضوعي لا يمكنه الا أن يتساءل وهو يمر بهذه الأحداث هل قاسى أبو العباس زروق ما قاساه بسبب عدم رضى الشيخ عليه ؟ أو أن ما وقع له لا يمكن فصله عن العصر وأحداثه ؟

فمن الموضوعية أن تربط أسباب هذه السياحة، والمصائب التي امتحن بها بما كان يمر به المغرب عامة وفاس على الخصوص من أحداث وقلاقل، إذ من المعروف أن هذه الرحلة الزيارية تزامنت مع حركة الثورة بفاس سنة869هـ التي أطاحت بحكم المرينيين وأعلنت نهاية تسلط العنصر اليهودي واستبداده بأمور الدولة والحكم كما سبق الذكر.

وموقف زروق من هذه الثورة والأحداث التي صاحبتها أصبح معروفا، وهو مجاهرته بمعارضة الثائرين المتمثلة في رفض إمامة خطيب القرويين أبي فارس عبد

(27) كناش زروق مخطوط ك 1385 ص 67.

(28) نفسه ص 68.

(29) نفس المصدر والصفحة.

العزيز الورياكلي الذي كان متزعم الثورة على السلطان عبد الحق المريني، والذي أغرى العامة بالفتك باليهود والقضاء عليهم[30].

ومثل هذا الموقف الذي اشتهر به زروق آنذاك، بدون شك، هو الذي يفسر ما تعرض له في سياحته من تشكك القبائل في صحة عقيدته الاسلامية ونعته أكثر من مرة باليهودية، لأن معارضته لزعيم الثائرين اظهرته وكأنه مناصر لليهود منحاز إلى صفهم.

أما اتهامه بالجاسوسية فلا يستغرب في هذه الظروف، وقد كثر الطامعون في الحكم والطامحون الى الاستيلاء على الدولة، لهذا انعدم الاستقرار وعمت الفوضى وساد الاضطراب، وما ظاهرة السلب والنهب والاعتداء التي يشكو منها زروق إلا مظهر لهذا الجو المضطرب المملوء بالفتن والأحداث.

محتوى الرحلة :

ولقد كانت هذه الرحلة في شمالي شرقي فاس في المنطقة التي تقع بين تلمسان وفاس، إلا أن هذه الرحلة تختلف عما ألفناه في هذه الرحلات الصوفية وغيرها من الرحلات الداخلية المختلفة، فإذا كانت رحلة ابن قنفد مثلا تتوقف في أهم الحواضر المغربية، ويلتقي فيها صاحبها بأعلام مشهورين في كتب التراجم، فاننا في رحلة زروق نكاد نسجن معه نحن أيضا في قرى وقبائل وعوالم لا نعرف عنها شيئا الآن، إذ لا نصادف من البلدان التي نعرفها إلا بلدة باديس ومدينتي تلمسان ومكناسة ومن هنا كان لهذه الرحلة طعم خاص وفائدة عظمى، فهي تعكس الحياة الاجتماعية والأوضاع المختلفة التي كانت تسود المناطق البدوية التي يندر الاهتمام بها في كتب التاريخ والتراجم.

ويبدو أن هذه الرحلة لم يخطط لها من قبل، فالمدة التي قضاها فيها صاحبها كانت سجنا لم يختره، كما لم يختر البلدان التي دخلها، والطرق التي سلكها، والمتاعب التي واجهها.

---

(30) الاستقصاء 4 : 100.

وإذا أردنا تتبع مراحل هذه الرحلة فاننا سنكون مضطرين في هذه الحالة الى استعراض سلسلة المتاعب والمآسي والمشاكل، وكأن الرحلة قد حكم على صاحبها فعلا بالسجن مع الأشغال الشاقة، فلقد بدأت متاعبه بمجرد خروجه من مدينة فاس حين «قال رجل من البلد الآخر هذا من يهود فاس»، هذه التهمة التي لا زمته في أغلب مراحل هذه الرحلة، رمي بها حين دخل مسجدا بعد صلاة المغرب، يريد المبيت به في تلك الليلة، ورمي بنفس التهمة أيضا في بلدة بادس فلقد بصق عليه شخصان ولعناه بباب القصبة اعتقادا منهما أيضا بأنه يهودي، الى أن اشفق عليه الناس وأبعدوهما عنه، فازداد الأمر تعقيدا اذ توهم يهود بلدة باديس بأنه واحد منهم، فاظهروا نحوه العطف وأرادوا مساعدته، لكنهم يصدمون حينما ينجلي لهم الأمر وتظهر الحقيقة وهم يرون هذا الذي توهموه أحدهم يدخل المسجد لتأدية الصلاة.

ويذكر بأنه قضى أياما من رحلته لا يلقي الا المحن ولا يصادف الا المتاعب والمصائب، فاستولى عليه شعور القنوط والتذمر، وصار راغبا في العودة الى بلده فاس، وقبل أن يحقق هدفه من الرحلة، الا أنه لم يتيسر له ذلك، إذ بعد أن نجح في عبور وادي ملوية صحبة فارس وراجل التقى بهما في طريقه، تعرض للسلب والاعتداء فبقي جريحا معدما.

ويسير إلى بلدة اغيال[31] صحبة قافلة، فيمر ببلدة بذروسة[32] فكان الناس يتعجبون من أمره[33]، كما حكى عن نفسه، لما كان يسود المنطقة من فتن وقلاقل وحالات السطو والنهب والقتل...وهكذا لم يصل الى تلمسان الا في اليوم التاسع والثلاثين من خروجه من فاس نظرا للصعوبات والعراقيل التي واجهته، لكن زيارته للشيخ أبي مدين لم تتم الا بمرور أربعين يوما كاملة كما أراد له شيخه الزيتوني الذي دعا عليه بذلك أثناء غضبه.

وبعد هذه الزيارة التي «فتح الله — فيها — بما فتح»[34]، عزم على الخروج من تلمسان لكن بقاءه عند الشيخ أحمد بن الحسن الغماري الى الظهر أضاع عليه فرصة

(31) كناش زروق رقم ك 1385 ص 67.

(32) لعلها ندرومة.

(33) كناش زروق ص 68.

(34) نفسه.

الخروج مع القافلة التي كان ينوي الذهاب معها، ومع ذلك لم يتردد في الاقدام على الرحيل والعودة الى فاس، الا أن رحلته بمفرده كانت في كل مراحلها محفوفة بالمخاطر والمتاعب، وهكذا فبعد أن وفقه لله لقطع المسافة بين تلمسان وبلدة اغيال، وبعد مغامرته بالسير منفردا لمدة يومين أمضاهما في قطع هذه المسافة، أحس بالخطر يحدق به في أغيال حينما لمح جماعة يريدون المكر به[35]، فيحتمي بشخص أظهر استعداده لايوائه وايصاله لمأمنه، فبات عنده ليلة ثم صرفه من الغد صحبة سبعة شبان من أهل كبدانة، وفي الطريق يتعرض لخطر آخر ولكنه خطر طبيعي، ذلك أن نهر ملوية قد زاد ماؤه في الوقت الذي عبره فيه زروق ومرافقوه، ويذكر أبو العباس زروق بأنه اقتحم النهر ليعبره إلى الضفة الأخرى غير مبال بالعواقب، وكاد يغرق في وسط النهر لولا عناية الله التي أخرجته من هذه الشدة، ويستمر في وصف ما واجهه بعد ذلك في رحلته فيقول : «ثم أتينا زاوية مدروسب فقالوا جاسوس النصارى فتكلم معهم أصحابي بالرطانة وضمنوني فمشيت معهم في أي خندق وهي مائة خندق وخندق يقطع فيه الأسد والنصارى والبربر، فلما وصلت وسطها قالوا أودعناك لله هذه طريقك فصعدت الجبل ومشيت وحدي»[36].

فاتهامه بالجاسوسية لصالح النصارى هو أمر ينسجم — كما قلنا — مع الأحداث التي عرفها المغرب في هذه الفترة والتي كانت تدعو الى الحذر وسوء الظن خاصة وأن النصارى كانوا أيضا من الأطراف الطامعة في الاستيلاء على أجزاء من البلاد واحتلال ثغوره وشواطئه، مما جعل المغرب عامة والمنطقة التي يتحدث عنها زروق خاصة، بؤرة الصراع، فان سلم المسافر فيها من الأسد الضارية فهناك النصارى والبرابرة، ويدل على أن للبرابرة شأنا في هذه المنطقة، أن زروقا لم يسلم من الأهالي واتهامهم له الا بعد أن دافع عنه الشبان الذين صاحبوه من أهل كبدانة، وتكلموا معهم بالرطانة وهي اللهجة البربرية السائدة في هذه المنطقة.

ويواصل زروق السير بمفرده في الجبل، فيعتدي عليه شخص بسلبه برنسه لكنه سرعان ما أرجعه إليه بعد تيقنه من صلاحه وولايته قائلا له «بيني وبينك الله ما هذه عنايتك حتى تمشي وحدك قلت الله عز وجل»، فمن المخاطرة إذن السير منفردا في تلك المناطق المخوفة[37].

---

(35) كناش زروق مخطوط ك 1385 ص 69.

(36) نفسه ص 69.

(37) كناش زروق ص 69.

وبالرغم من كل هذا فلم يكن له بد من متابعة سيره في تلك الجهات، وتقوده طريقه الى غدير «جب الكريمة» فيدعوه شاب راكب على فرس احمر الى المبيت عنده، وكان هذا الشاب في حماية نساء يسقين من هذا الغدير[38].

وحين ينتصف الليل يكلف ذلك الشاب ابن عم له بمرافقة زروق وارشاده في طريقه، فكان هذا الشخص الذي رافقه هو أول من دبر المكيدة لزروق وسلبه برنسه، وتركه تائها في طريقه.

وتشاء العناية الالاهية أن يهتدي الى منازل أصحاب ذلك الذي سلب برنسه، فيشتكي لهم فعلته، يهب بعد ذلك الفقير أحمد بن خليفة الاسجعي «وكان أميا قريب عهد بتوبة» ــ لمساعدته على ارجاع برنسه والثأر لكرامته[39].

ويصل زروق بعد ذلك إلى بلاد مطالسة فيصادف في طريقه رجلين يحرثان أرضا، حاولا الاعتداء عليه ثم أحجما مكتفيين بسؤاله عن السر في مواصلة الرحلة دون خوفه من أن يتعرض للضرر من رجال تلك المناطق وسباعها، فلابد أن يكون ذلك عائدا إلى الخوارق والكرامات.

وحينما ينزل بموضع يقال له تبولة يعرفه سكانه ويطعمونه لحما لم يأكله إلا لخوفه من أن يتهموه باليهودية...[40]

ويدخل بعد ذلك مكناسة[41] فيتهمه أهلها بأنه جاسوس صاحب فاس لكنهم يتركونه ويخلون سبيله بعد التفتيش والتأكد من سلامة موقفه، وهكذا تخلص مرة أخرى من شدة محققة فلم يبت ليلة إلا في زاوية سيدي إدريس[42]، ويواصل زروق طريقه في صباح الغد، فيمر على جماعة في الطريق لم يلحقه أذاهم لأن أحدهم كان يعرفه في أعلي، وإلا فهم قطاع يسلبون المارة أمتعتهم ويجردونهم من حوائجهم[43]، ويصادف في بلدة أكيوان عرسا، لكنه مع ذلك ينزل بالمسجد،

---

(38) كناش زروق ص 69.

(39) كناش زروق ص 70.

(40) كناش زروق رقم 1385 ص 70.

(41) ليست المدينة المعروفة كما يفهم من سياق الرحلة.

(42) لا يمكننا تحديدها بدقة أيضا.

(43) كناش زروق ك 1385 ص 71.

«وكان المطر والمسجد عتيق»، لذا يقضي ليله وهو خائف من سقوط المسجد عليه، إلا أن منزلته ترتفع عندهم في الصباح حين يتعرفون على مكانته في الفقه والعلم، وخرج من الغد يسير وحده لكنه لم يتعرض له أحد بعد أن عرف صلاحه وعلمه، وبعد أن يقطع وادي الفردمة يواصل طريقه إلى أن ينزل موضعا يقال له دار يونس وكانت خالية حين دخلها[44].

ويلتقي في طريقه بجيش كثير العدد إلا أنهم لا يتعرضون له بسوء بعد أن عاينوا مظاهر كراماته وبركاته.

وحينما يقترب من مدينة فاس يلتقي بالسلطان، وقد خرج مسافرا، فيسأل زروقا عن الأحوال والأوضاع التي خلفها في البلدان التي مر منها، ولا ندري أي سلطان يقصد هل هو الشريف العمراني الذي بايعه أهل فاس ؟ أم أبو عبد الله محمد الشيخ زعيم الوطاسيين ؟.

ويدخل زروق مدينة فاس فيجد شيخه الزيتوني مريضا، لكن حضوره كان تمام شفاء الشيخ، ورضاه على تلميذه زروق، بعد أن امتحن في نفيه هذا بأصناف من المحن واختبر بألوان من الأخطار.

وهكذا تنتهي سياحته هذه التي شاهد فيها الأهوال والمصائب وتعرض فيها للأخطار العديدة، وتعرف فيها على عوالم ومجتمعات مختلفة، واحتك فيها بأصناف من الناس، ولكنه كان في كل مراحل هذه السياحة يجد لكل مصيبة مخرجا ولكل شدة فرجا، وما ذاك إلا لصلاحه ونسكه، وما اشتهر به من كرامات وخوارق صوفية، فبهذه الكرامات والخوارق تغلب على مشاق القفار والجبال، وجابه الحيوانات الضارية، وانتصر على أشرار الناس وقطاع الطريق ...

---

(44) نفسه ص 72.

3 ـــ تحفة المغترب ببلاد المغرب

وهي نموذج آخر للسياحة الصوفية داخل المغرب، كان بإمكاننا أن نبتدىء به الحديث عن الرحلات الصوفية الداخلية لكونها متقدمة في الزمان عن الرحلتين السابقتين. فأحداثها والأخبار التي تتضمنها تزامنت مع مرحلة تأسيس الدولة المرينية، لكن اعتقادنا بأهمية الرحلتين السابقتين في موضوعنا جعلنا لا نتقيد بالترتيب الزمني والتسلسل التاريخي.

ومن المعروف أن هذه الرحلة لم يدونها صاحبها، ولم يجمع أخبارها، أو يرو أحداثها الشخص الذي عاشها وكان محورها بنفسه، على نحو ما فعله كل من ابن قنفد وأحمد زروق، بل تحفة المغترب من الرحلات التي دونها غير أصحابها كما سبقت الاشارة إلى ذلك.

فمؤلفها هو أحمد بن إبراهيم بن يحيى الأزدي القشتالي، الذي لا نملك ترجمة وافية له، ولكننا من خلال هذا التأليف نعرف كثيرا من أحواله وأخباره، فهو تلميذ الشيخ أبي مروان ورفيقه في رحلاته، وخديمه الملازم له في جولاته، لذلك يحكي أخبار هذا الشيخ من خلال ما حدثه به أو سمعه منه، أو شاهده وهو برفقته، بالاضافة إلى أنه تربطه به صلة النسب والقرابة والمصاهرة، فكل منهما أزديّ والمؤلف متزوج بنت عم الشيخ...

أما الشخصية التي يدور حولها موضوع الكتاب فهي شخصية أبي مروان عبد الملك بن إبراهيم بن بشر القيسي اليحانسي الذي خصص المؤلف كتابه هذا لذكر كراماته الصوفية.

وأبو مروان هذا يذكره المقري مع الراحلين الأندلسيين إلى المشرق، فيقول «ومن الراحلين الولي الصالح أبو مروان عبد الملك بن إبراهيم بن بشر القيسي وهو ابن أخت ابن صاحب الصلاة اليحانسي[45] نسبة إلى يحانس قرية من قرى وادي آش، وكان رحمه الله في أواسط المئة السابعة وقد ذكره الفقيه أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن يحيى الأزدي القشتالي في تأليفه الذي سماه تحفة المغترب ببلاد المغرب»[46].

وهو نفس الشيخ الذي ساق له عبد الحق بن إسماعيل البادسي ترجمة وافية في كتابه المقصد الشريف معللا سبب إيراده بين المغاربة بقوله : «وإنما ذكرته وإن كان أندلسيا لأنه كانت له سياحة في بلدنا، وتطوف على الصالحين زائراً لهم»[47].

وللسبب نفسه تناولت رحلته ضمن الرحلات داخل المغرب،

وتتجلى أهمية هذا الشيخ الروحية ومنزلته الصوفية في الأوصاف التي حلاه بها في ترجمته، فلقد قدمه في كتابه بقوله : «ومنهم العارف المحقق السالك المتحقق، صاحب المجاهدة والحق، المسلوب عن الأحقاد والأحن، جواب الآفاق، ومجبر الرفاق، قاتل عبدة الصلبان، من الأساقف والرهبان، القائم على نفسه بالحسبان، منير دياجي الظلام الحالك، الشيخ أبو مروان عبد الملك»[48].

ومن دون شك فإن الشيخ عاش في القرن السابع الهجري، كما يتجلى من الاشارات الواردة في الكتاب، والتي تؤرخ أحداثا مختلفة ابتداء من العقد الرابع من هذا القرن إلى السابع منه وهو الذي يقصده ــ حتما ــ صاحب الأنيس المطرب حين قال مؤرخا حدث وفاته : «وفي سنة سبع وستين وستمائة توفي الشيخ الصالح أبو مروان الونجاسي[49] بمدينة سبتة»[50].

ويشير صاحب كتاب اختصار الأخبار إلى أنه دفن بمقبرة أحجار السودان، وقبره في ذلك العهد ــ القرن التاسع ــ «ضريح مشهور ويصعد منه النور»[51].

---

(45) هل هو صاحب تاريخ المن بالامامة المتوفى سنة 594 هـ.

(46) نفح الطيب 2 : 690.

(47) المقصد الشريف ص 101.

(48) نفسه ص 99.

(49) كذا ورد ولعل الونخاسي تحريف لليحانسي.

(50) الأنيس المطرب ص 403.

(51) اختصار الأخبار مجلة تطوان 3 ــ 4 ص 81.

ويؤكد مؤلف التحفة بأن قبر الشيخ يوجد بقبلي رابطة حجار السودان من خارج سبتة[52].

وإذن فليس هو نفس الشيخ الصوفي الذي لقيه ابن عباد الرندي (المتوفى عام 792هـ) بطنجة، ولا زمه كثيرا وقرأ عليه وسمع منه وأنشده أشعارا له ولغيره، وانتفع به في التصوف وغيره، وحصل منه على الاجازة[53].

ومن خلال ما تقدم تتضح شخصية الشيخ أبي مروان اليحانسي، ودوره العلمي والصوفي، لهذا يعتبره المستشرق الاسباني بلا ثيوس مثل ابن مشيش في أستاذيته لأبي الحسن الشاذلي[54] .

ـ محتوى التحفة :

وتحفة المغترب لا تشذ عن الطريقة التي سلكها من ألف في التصوف، إذ يهتم المؤلف بذكر كرامات الشيخ أبي مروان وجمع ما اشتهر من أخباره وحكاياته، والتحدث عن سلوكه ومنحاه الصوفي، فكان لهذا الكتاب فائدة كبيرة في التعريف بالشيخ، والتعرف على أحوال العصر المختلفة، وأهمية هذه الأخبار تعود إلى أن المؤلف كان تلميذ هذا الشيخ ومريده فما يذكره من أخبار الشيخ وكراماته إما أنه حضره وشاهده بنفسه، أو سمعه من الشيخ مباشرة، أو نقله عن أصدقاء الشيخ وأقربائه الذين حضروا بعض هذه الأحداث، ورويت لهم أخبارها، ولقد تحدث المؤلف في أكثر من مرة عن ملازمته لشيخه ومن أمثلة ذلك قوله : «قال أحمد مشيت في خدمته ـ رضي الله عنه ـ من وادي آش إلى بلده يحانس، عام سبعة وأربعين

---

(52) تحفة المغترب ص 46 ـ 47.

(53) نفح الطيب 5 : 342 ـ 343.

(54) تحفة المغترب مقدمة التحقيق ص 8.

تستفاد ترجمة أبي مروان اليحانسي مما يلي :

1) تحفة المغترب ببلاد المغرب (في مواضع مختلفة)

2) المقصد الشريف ص 99 ـ 102.

3) الأنيس المطرب ص 403.

4) اختصار الأخبار ص 81.

5) النفح 2 : 690 ـ 691.

وستمائة، ولم يكن معه إذ ذاك غيري، فوقعت مذاكرة إلى أن طاب الوقت وجذبته إلى ذكر بدأته»(55)

وهكذا كان مرافقه وملازمه الوحيد في كثير من رحلاته وتنقلاته، فحديثه عنه يعتبر أهم مصدر عن الشيخ وأحواله، فلا غرابة إذا كان تأليفه للتحفة استجابة لرغبة جماعة من الاخوان(56).

وبالرغم من أن الكتاب هو تأليف في ذكر كرامات هذا الشيخ الأندلسي إلا أن كثيرا من هذه الأخبار والكرامات اشتهر عن الشيخ بعد رحلته إلى سبتة، فكان الكتاب أقرب إلى الرحلات الصوفية التي يميل فيها المتصوفة إلى السياحة والمجاهدة، فالكتاب إذن رحلة داخلية تعكس البيئة المغربية طبيعيا واجتماعيا وفكريا في المرحلة الأولى من الحكم المريني.

فمن خلال ما ورد في هذه الرحلة نتبين بعض أحوال المغرب وأوضاعه في فترة جولات الشيخ وسياحته.

وأول ما يلاحظه القارىء مركز سبتة وأهميتها بالنسبة للعدوتين معا، قصدها الأندلسيون في السلم والحرب معا، إذ كانت المرحلة الأولى التي ينزل بها الحاج الأندلسي للاستراحة والاستعداد للرحيل، فلقد ورد في الرحلة أن الحجاج الأندلسيين أقاموا عند الشيخ أياما بهذه المدينة، وهم في طريقهم إلى البلاد المقدسة بالمشرق(57).

كما هرع الأندلسيون إليها أيضا في الحرب، والتجأوا إليها فرارا من مضايقات العدو في بلدانهم، جاء في تحفة المغترب «حدثني رحمه الله قال كنت ساكنا بسبتة بالعيال إذ وصل إلي إخوتي هم وزوجاتهم، عند ضيق أحوالهم، وسلب الروم لمواشيهم وأموالهم وكانوا تسعة أنفس، كما وصلوا من الأندلس، وسبتة لا تحتمل الزحام ولا تعين على ما يجب من صلة الأرحام(58).

---

(55) نفسه ص 19.

(56) نفسه ص 17.

(57) تحفة المغترب ص 33.

(58) نفسه ص 176.

ويتحدث الكتاب عن الحصار الذي تعرضت له سبتة في الفترة التي كان بها الشيخ موجودا في هذه المدينة حين «نزلت بحفرتها القراقر، محاصرة لها في البحر»[59].

والظاهر أن هذا الحصار كان شديدا إلى درجة أن خادم الشيخ كانت تأتيه بالكوز في وقت القبض فتقول له نحن بلا زيت[60] وعلى عادة كتب التصوف والكرامات لا يهتم بالحدث لذاته وإنما يؤتى به لاظهار كيفية تعامل الشيخ المتصوف مع هذا الحدث، وهكذا يرزق المتصوفة بغير حساب، وجيوش العدو تندحر بسبب بركة الشيخ ودعوته عليها، «وكفى الله المومنين القتال»، ومع ذلك تبقى لمثل هذه الاشارات قيمتها التاريخية.

ومن المدن التي زارها في سياحته داخل المغرب مدينة مراكش التي كان رحيله إليها يهدف إلى الاجتماع بأمير المسلمين أبي يوسف المريني للاستنجاد به لقتال العدو بالأندلس، وحثه على توجيه المسلمين لصد المد المسيحي، فالحكم الاسلامي بالأندلس كان يمر بفترة ضعف أطمع فيه التحالف المسيحي «فملك الروم نزل على غرناطة، ونزل أجفان العدو بمرسى الخضراء محاصرا لها، ومانعا للجواز بالزقاق، واشتد كرب المسلمين، وخيف التلف على الأندلس»[61].

وعمل الشيخ يدخل في التعبئة وروح المقاومة التي سرت في صفوف المسلمين فقهاء وصوفية وعامة، فالنصارى «كانوا قد تكالبوا على بلاد المسلمين بالغارات والسبى فأبادوا أكثرها، وأهلكوا قواعدها، فتفجع أهل العدوة لحالهم»[62]، كما جاء في الذخيرة السنية، فتعالت الأصوات منادية بحرب العدو، وداعية إلى إعلان الجهاد في سبيل الله، ومن هذه الأصوات قصيدة ابن المرحل التي قرئت بصحن جامع القرويين في يوم جمعة من سنة 662هـ «فبكى الناس عند سماعها وانتدب كثير منهم للجهاد»[63].

---

(59) نفسه ص 50.

(60) نفسه ص 120.

(61) تحفة المغترب ب ص 70.

(62) الذخيرة السنية ص 98.

(63) نفسه.

ومنها أيضا الرسالة التي كتبها أبو القاسم العزفي في محرم من سنة 663هـ يستنفر بها قبائل المغرب وصلحاءه إلى الجهاد[64]، ومن الأصوات الأندلسية التي تعالت مستغيثة بالمسلمين عامة ومسلمي العدوة خاصة صوت الفقيه أبي محمد صالح بن شريف الرندي في نونيته المعروفة[65].

ولقد وجدت هذه الأصوات وغيرها الآذان الصاغية بالمغرب على المستويين الرسمي والشعبي معا، وهكذا ومنذ سنة 661هـ والجيش المريني يهب من حين لآخر لنجدة المسلمين في الأندلس، وإجلاء الأعداء عن المدن والأراضي الاسلامية هناك[66]، وورد في تحفه المغترب أن الشيخ أبا مروان لما قدم على السلطان يعقوب المريني بمراكش وجده يستنفر القبائل في شأن الغزو بالأندلس[67].

ويشير المؤلف في تحفة المغترب إلى أن الشيخ أبا مروان قد تعرف أيضا وهو بفاس على أخبار اندحار الروم ورجوعهم خاسرين، فأخبر الناس في فاس بانفراج كرب المسلمين وانهزام العدو[68]، وهذا أحد المواقف التي ظهرت فيها كراماته وثبت صلاحه.

فمن كراماته أيضا ما عرفه الناس في رحلته لمراكش، إذ توافق وصوله لها مع حصار يعقوب المريني لهذه المدينة في شهر رجب الحرام، مما جعله ينصح السلطان المريني برفع هذا الحصار وإزالة الفتنة وحقن دماء المسلمين في هذا الشهر الحرام، إلا أن يعقوب المريني تمادى في حصاره ولم يستجب لنصيحة الشيخ الذي انصرف عنه غاضبا، وهنا ظهرت كرامته البينة فلم يصل الشيخ إلى سلا حتى لحقت به جثة الأمير عبد الله بن يعقوب المريني الذي قتل في الحصار المذكور «فحينئذ تفطن أبو يوسف»[69].

---

(64) الذخيرة السنية ص 102.

(65) نفسه ص 122.

(66) الذخيرة السنية ص 98، الأنيس المطرب ص 402.

(67) تحفة المغترب ص 158.

(68) نفسه ص 70.

(69) نفسه ص 158، الذخيرة السنية ص 97، الأنيس المطرب ص 303.

أما مدينة آسفي فقد قصدها من أجل الدخول إلى رباط أبي محمد صالح[70]، وكان ذلك عقب إيابه من رحلته المشرقية بعد أن أوصاه كل شيوخ التصوف في المشرق بالأخذ عن شيخ آسفي أبي محمد صالح، وبدون شك فإن وفادته على هذا الشيخ كانت قبل 656هـ وهي السنة التي توفي فيها أبو محمد صالح[71]، ويهتم أبو مروان بما توسمه في الشيخ أبي محمد صالح من صلاح وما ظهر له من كرامات في أول لقاء حدث بينهما فيقول : «فلما دخلت رباط الشيخ بآسفي وجدت الشيخ أبا محمد يتكلم على أصحابه في الميعاد، فقعدت حيث انتهى به المجلس في أخريات الناس فمازال الشيخ أبو محمد يجر الكلام إلى أن ذكر قصتي، وأخذت منه فائدتي التي جئت في طلبها ثم سلمت بعد ذلك عليه، وجددت عهدا به وما سألته عن المسألة بعد ذلك إلى الآن»[72].

ويذكر أبو مروان بأنه لازمه في بيته، وكاشفه بأشياء جرت له في المشرق أو في طريق عودته منه[73]، بالاضافة إلى مكاشفات أخرى تعد من كرامات صاحب رباط آسفي[74].

ولما غادر آسفي متوجها لزيارة أبيه بالأندلس، مر محاذيا لساحل آنفى، ثم نزل بمدينة سلا التي بات بها عند الشيخ أبي يعقوب بن محفوظ البنزري، وأثناء هذه الرحلة وقعت أحداث ووقائع أخرى هي من قبيل كرامات أبي مروان[75].

والكتاب من جهة أخرى، يلقي أضواء كثيرة على أحوال المغرب زمن حلول الشيخ أبي مروان فلقد ورد في الكتاب قوله «ورد الشيخ في أول وروده من الشرق على سبتة، وكان عام غلاء ومجاعة»[76]. لكننا إذا رجعنا إلى كتب التاريخ المعاصرة وجدنا أن المغرب عرف الرخاء والازدهار منذ سنة سبع وخمسين وستمائة.

---

(70) تحفة المغترب ص 63.

(71) الذخيرة السنية ص 84.

(72) تحفة المغترب ص 63 ـ 64.

(73) تحفة المغترب ص 64.

(74) نفسه ص 64 ـ 65.

(75) نفسه ص 92.

(76) نفسه ص 113.

يقول صاحب الذخيرة السنية في أحداث سنة 657هـ : «وفيها كان الرخاء العظيم في المغرب، فلم يزل كذلك مدة خمس عشرة سنة»[77]

ويتحدث نفس المؤلف عن الأثر الطيب الذي أحدثته تولية أبي يوسف المريني قائلا : «لما ولي أمير المسلمين يعقوب رحمه الله ملك المغرب ظهرت سعادته وبركته على البلاد فأنزل الله تعالى بها من البركات وأفاض عليهم بيمن أيامه وإقبال دولته الخيرات، وأدر عليهم أصناف الأرزاق وضروب النعم»[78].

وإذن فالراجح أن قدوم الشيخ على سبتة كان قبل سنة 657هـ وهي السنة التي تولى فيها أبو يوسف المريني.

ولعل أبا مروان يتحدث أيضا عما قبل هذه السنة حين يقول : «لما وردت المغرب في تلك السفرة وجدت بلاد المغرب قد اضطرمت نارا واستولى الجوع بها حتى أهلك العالم، فوجدت في الطريق رجلين من البربر قد تساقطت شعورهما وأنتنا وقاربا الهلاك من الجوع»[79].

كما أن كتاب التحفة يشير إلى اضطراب الأحوال الأمنية في شمال إفريقيا عامة، والمغرب على الخصوص، وهكذا يصادف المسافر أينما حل وارتحل قطاع الطرق والخارجين على القانون، يقول أبو مروان واصفا بعض ما عاناه في طريقه بعد أن وقع «في حي من العرب منقطعين بقية قتل وسباء، وهم مطلوبون من السلطان، والجوع قد انتهى إلى أن ذبحوا أناسا وأكلوهم»[80].

وهذا وضع طبيعي فأبو مروان قد ساح في هذه المناطق المغربية في فترة انتقال الحكم إلى المرينين، تلك الفترة التي اتسمت بالصراع على السلطة.

وبطبيعة الحال فإن الشيخ يواجه كل هذا — على عادة المتصوفة — في صبر وإيمان ورضى بقضاء الله وقدره، لذا يعتبر كل ما أصيب به هو تأديب من الله.

---

(77) الذخيرة السنية ص 89.

(78) نفسه ص 94.

(79) تحفة المغترب ص 65.

(80) نفسه ص 128.

وذكر أبو مروان بأنه قد اتهم بالشرك حين لقيه جماعة من البربر في الجبل وهو في طريقه إلى الأندلس، فحبسوه وأذا قوه ألوانا من العذاب وكانوا مصممين على قتله لولا لطف الله به[81].

والرحلة غنية أيضا بأخبار الشيخ الخاصة، وظروفه أثناء إقامته بالمغرب أو سياحته في مناطقه وبلدانه، فمن خلالها نعرف أنه صار لأبي مروان رباط بحجار السودان خارج سبتة يقصده الفقراء والمريدون، وسبق أن رأينا أن هذا الرباط كان محج الأندلسيين ومقصدهم كذلك، ومن الذين نزلو به في سنة 665هـ الفقير محمد الشامي المهاجر[82]. وبالرباط كذلك اجتمع بالشيخ مؤلف التحفة وجامع كراماته أحمد القشتالي قبل وفاة الشيخ بخمسة عشر يوما فحكى له أشياء كثيرة ذكر أغلبها في تحفته[83].

ومن عادات الشيخ في سبتة كذلك والتي تضمنتها التحفة، عادة إقامة الاحتفال بالمولد النبوي، حيث كانت تفد عليه للمشاركة في هذا الاحتفال أفواج الفقراء والمتصوفة من العدوتين معا[84].

ولقد وصف القشتالي احتفاله بهذه المناسبة واستعداده لها فقال : «كان رحمه الله يستعد لمولد النبي عليه السلام ما يكفي الواردين من الطعام مع كثرة الترادف والازدحام حيث كان له في بعض تلك المواسم ما يزري في الاستعداد باحتفال الناس في الأعياد وان كان أولائك الوراد يزيدون على عشرة آلاف بأعداد فكان يذبح لهم ما يكفيهم من البقر والغنم فيأكل المحتقر والمحترم»[85].

---

(81) نفسه ص 172.

(82) تحفة المغترب ص 43.

(83) نفسه ص 47 ــ 113.

(84) نفسه ص 76 ــ 78.

(85) نفسه ص 108.

وكنا قد عرفنا من قبل أن للعزفيين في سبتة تقليدا مشهورا في الاحتفال بالمولد النبوي، حيث كانوا ينفقون بسخاء في هذه المناسبة ويعبرون عن تعظيمهم للرسول وحبهم له، وهذا الحب هو الذي كان حافزا على إقدام أبي العباس العزفي على مشروع تأليف كتاب «الدر المنظم في مولد النبي المعظم» الذي أشرف على إنجازه وإكمال مواده ابنه أبو القاسم»[86].

(86) تاريخ سبتة ص 117.

ب ـــ الرحلات الرسمية

سبق أن أشرنا إلى أن هذا النوع من الرحلات نشط كثيرا في العصر المريني وعرف انتشارا واسعا، نتيجة كثرة التنقلات الرسمية ومرافقة الطبقة النيرة لها بل وإسهامها فيها، وهكذا رأينا أن مواكب الملوك والمسؤولين كانت تضم العدد الكبير من علية المثقفين والكتاب والشعراء على نحو ما اشتهر به كل من موكب أبي الحسن المريني[1]، وموكب ابنه أبي عنان[2]، حينما قصدا افريقية.

إلا أننا وإن كنا وجدنا في كتب التاريخ الكثير من أخبار هذه التنقلات والاشارة إلى الذين كانوا يسيرون في ركابها من علماء، وفقهاء، ومحدثين، وكتاب، وشعراء... فإننا لا نجد آثارا مدونة موازية لهذه الرحلات الكثيرة، لذلك من حقنا أن نتساءل عن سبب قلة الرحلات المدونة في هذا الباب، فهل السبب يكمن في أن هؤلاء الذين كانوا يصاحبون المواكب الملكية لم يكونوا يهتمون بتدوين ملاحظاتهم وهم بصحبة هذه المواكب ؟ أو أن ما دونوه وألفوه لم نهتد إليه بعد ؟

والحقيقة أننا نكاد نميل إلى ترجيح الاحتمال الثاني، فالكتابة عن رحلة الملك، وتدوين ما عن له فيها، تكسب صاحبها مزيدا من الحظوة لديه، وتوصله إلى المنزلة الرفيعة عنده، ثم إن كتابة أخبار حركة الملك أو جولته جزء من الوظيفة التي تسند إلى هذا الكاتب الذي حظي بمرافقته.

---

(1) التعريف ص 19 ــ 66.

(2) فيض العباب

فمن الغريب ألا نعثر لابن مرزوق على آثار مدونة في هذا المجال وهو الكاتب الذي انفق جزءا كبيرا من عمره في صحبة الملوك قال عنه ابن الخطيب : «فاشتمل عليه السلطان أبو الحسن أميره اشتمالا خلطه بنفسه، وجعله مفضي سره، وإمام جمعته، وخطيب منبره، وأمين رسالته»[3].

فلم يكن إذن أقل في رتبته أو أحط في منزلته من غيره من كتاب هذه الفترة من أمثال النميري صاحب المذكرات وفيض العباب، تتجلى هذه المنزلة الرفيعة في كتابه «المسند الصحيح الحسن» ففيه تحدث عن شؤون وأسرار لا يتأتى الاطلاع عليها إلا لخاصة الخاصة، ومن هنا نستغرب سكوته عن أحداث هامة كان فيها صحبة السلطان، كحضوره مع أبي الحسن لواقعه طريف[4]، ذلك الحدث الذي كان له الوقع الكبير على الحكم الاسلامي بالاندلس سياسيا ونفسيا...

وكمرافقته لأبي الحسن أيضا في محاصرته للجزيرة الخضراء[5]، وهو حدث هام أيضا اكتفى بايراده في كتابه المسند، مع أنه كان يستحق منه تأليفا مستقلا يصف فيه حركة السلطان، ويذكر فيه مراحل هذه الحركة. وعلى أي حال فإن ما بأيدينا الآن من هذا الصنف من الرحلات، لا يعدو رحلتين رسميتين للنميري رافق في الأولى أبا الحسن وفي الثانية ابنه أبا عنان.

بالاضافة إلى نص ثالث للكفيف الزرهوني وصف فيه ما شهده أبو الحسن المريني في رحلته الافريقية.

---

(3) الاحاطة 3 : 104، الديباج ص 308، نيل الابتهاج ص 268.

(4) التعريف بابن خلدون ص 50، نيل الابتهاج ص 267.

(5) المسند الصحيح الحسن ص 263 ــ 264.

رحلتا النميري

أبو إسحاق إبراهيم النميري هو أحد الأدباء الأندلسيين الذين قربهم البلاط المريني، وأسند إليهم الملوك المناصب الرفيعة وألزموهم مجالسهم الخاصة في الحل والترحال.

فذكرنا له ــ رغم أندلسيته ــ لا يتناقض مع مغربية الرحلة، لأن الكاتب وإن لم يكن مغربيا إلا أنه يرافق سلطانا مرينيا ويصف حركته، ويذكر مراحل رحلته وهو يتنقل بين البلدان المغربية، ويتحدث عن أوضاع وقضايا مغربية...

والتزاما بالمنهج الذي اتبعناه، يجدر بنا ــ وقبل التحدث عن الرحلتين ــ أن نعرف بصاحبهما تعريفا موجزا يلقي الضوء على مستواه الثقافي، ومكانته بين رجال عصره، ومن حسن حظ النميري، أنه لم يهمل من لدن مؤرخي وكتاب عصره، فقد أفردوا له في كتبهم تراجم متفاوتة ولكنها تشكل جميعها ترجمة تكاد تكون كاملة.

فمن معاصريه الذين خصوه بترجمة فيما كتبوه، أو تحدثوا عن جوانب من حياته وأخباره.

ابن الخطيب(6)، (ت 776هـ)،خليل الصفدي (7) (ت 764هـ)

خالد البلوى(8) (رحل سنة 736)، ابن مرزوق(9) (ت 781هـ)

---

(6) الاحاطة في أخبار غرناطة.

(7) الوافي بالوفيات.

(8) تاج المفرق.

(9) المسند.

ابن خلدون[10] (ت 808هـ)، ابن الأحمر [11] (ت 810هـ)

وإن كان كتابا «فيض العباب» و «المذكرات» يعدان أهم مصدر لترجمة الرجل ومعرفة مؤهلاته العلمية وامكاناته الثقافية.

فمن هو النميري إذن ؟ وما هي تلك المؤهلات والامكانات ؟

مجمل أخبار حياته :

يمكن اجمال حياة أبي إسحاق إبراهيم بن عبد الله النميري المعروف بابن الحاج الغرناطي[12] في خمس مراحل :

---

(10) التعريف بابن خلدون.

(11) نثير فرائد الجمان.

(12) يرجع في ترجمته إلى المصادر والمراجع التالية :
1 ــ الوافي بالوفيات 6 : 40.
2 ــ الاحاطة في أخبار غرناطة 1 : 342 ــ 463.
3 ــ الكتيبة الكامنة ص 260 ــ 269.
4 ــ تاج المفرق في تحلية علماء المشرق 2 : 115 ــ 138
5 ــ المسند الصحيح الحسن مخطوط الخزانة العامة ص 249
6 ــ نفاضة الجراب مخطوط الخزانة العامة ص 174، 245.
7 ــ نثير فرائد الجمان ص 313 ــ 318.
8 ــ مستودع العلامة ص 69
9 ــ التعريف بابن خلدون ص 43.
10 ــ الدرر الكامنه 1 : 28 ــ 29.
11 ــ المنهل الصافي 1 : 66 ــ 67.
12 ــ نيل الابتهاج ص 44 ــ 46.
13 ــ جذوة الاقتباس 1 : 91 ــ 96.
14 ــ نفخ الطيب 2 : 534 ــ 535، 7 : 108 ــ 121.
15 ــ الأعلام للمراكشي 1 : 178.
16 ــ شجرة النور الزكية ص 229.
17 ــ فهرس الفهارس 1 : 129.
18 ــ تاريخ الشعر والشعراء للنميشي ص 21.
19 ــ تقديم تحقيق مذكرات ابن الحاج نسخة مرقونة.
20 ــ تقديم تحقيق فيض العباب طبعة الرباط 1984.
21 ــ اعلام الزركلي 1 : 49.
22 ــ معجم المؤلفين 1 : 51.

أولها مرحلة الطلب والدراسة وتبتديء منذ ولادته سنة 712هـ[13] كما يذكر هو عن نفسه، ولقد نشأ في أسرة توارث أعضاؤها الاشتغال بالعلم والفقه[14] فساعده ذلك على الاهتمام بالطلب، واتاح له الأخذ عن أهم علماء بلده، فلقد قال مترجمه ابن الخطيب «روى عن مشيخة بلده وأشجروقيد واستكثر»[15].

وأشار النميري نفسه في مذكراته إلى بعض هؤلاء الشيوخ كأبي الحسن ابن الجياب[16]، وأبي الحسن الرقاص الذي تكونت بينه وبين النميري زمالة علمية سمحت لابن الحاج بأن يصفه أحيانا بصاحبنا[17] وخاله لامه كان أحد هؤلاء الشيوخ[18].

وهكذا اكتملت ثقافته واستقام تكوينه على الشيوخ المذكورين وغيرهم، فلم تأت سنة 734هـ حتى قربه ابن الأحمر في غرناطة، وأناط به مهمة الكتابة[19].

والمرحلة الثانية هي التي أعمل فيها الرحلة إلى المشرق جريا على عادة الأندلسيين والمغاربة، من أجل تأدية الفريضة والجلوس إلى العلماء، «فحج وتطوف، وقيد واستكثر، ودون في رحلة سفره، وناهيك بها طرفة» كما يقول ابن الخطيب، وهذه هي الرحلة التي يقول عنها ابن مرزوق بأنها «رحلة جامعة في عدة أسفار»[20] وبدون شك فانها هي التي اطلع عليها المقري فيما بعد وأثنى على ما تتوفر عليه من معلومات وفوائد حين قال : «وكان عندي بالمغرب مجلد من رحلته التي بخطه وقد أتى فيه بالعجب العجاب[21]، ولكن — مع الأسف — لا يعرف مكان هذه

(13) الوافي بالوفيات 6 : 40، المنهل الصافي 1 : 66.

(14) نثير فرائد الجمان ص 313، المذكرات ص 28، 31، 32، 34، 49، 74، 78، 180.

(15) الاحاطة 1 : 346.

(16) مذكرات النميري ص 38، 166.

(17) نفسه ص 214، 217.

(18) نفسه ص 86.

(19) الاحاطة 1 : 343.

(20) المسند الصحيح الحسن ص 249.

(21) النفح 7 : 109 — 110.

الرحلة الآن، ولا أين تقبع في رفوف المكتبات المختلفة، وبدون شك فالرحلة كانت تتويجا علميا يجلس فيها الرحالة إلى الشيوخ ليأخذ عنهم ويروي أسانيدهم، ويحمل كتبهم ويحصل على إجازاتهم وهي بذلك لا تختلف عما دونه رفيقه وصاحبه في الرحلة أبو البقاء خالد البلوى الذي قال عنه «فهو صديقي المحق ورفيقي المرفق ومعاشري ذاهبا وآئبا في بلاد المشرق»[22].

ولا يمكننا أن نتصورها أيضا مختلفة عن مثيلاتها من الرحلات السابقة، كرحلة ابن رشيد، ورحلة العبدري، ورحلة التجيبي...

ولا شك أنها تتضمن أسماء شيوخه في هذه الرحلة المشرقية، ومدوناته مما استفاده منهم، أو رواه عنهم، ولقد ذكر المقرى الذي اطلع على هذه الرحلة ثلاثة من هؤلاء الشيوخ فقال «وتمهر في الحديث على طريقة أهل المشرق، لأنه لقي من الحفاظ كالذهبي والبرزالي والمزي، وناهيك بالثلاثة وغيرهم ممن يطول تعداده»[23] كما نقل عن رحلته خبرا يرويه النميري عن شيخه أبي عبد الله المعروف بخليل التوزري إمام المالكية بالحرم الشريف[24]. ويشير النميري في مذكراته الى بعض هؤلاء الشيوخ الذين أخذ عنهم في المشرق وهم كثيرون[25] ذكرهم ابن الخطيب فقال : «أخذ في رحلته للمشرق عن أناس شتى يشق إحصاؤهم»[26].

أما المرحلة الثالثة، فهي التي أعقبت رحلته المشرقية حيث قربه الحفصيون وأبقوه إلى جانبهم فعمل تحت إمرتهم في كل من قسنطينة وبجاية. واشتغل هناك بالكتابة والحجابة[27] وهكذا صارت له المكانة الرفيعة والحظوة الممتازة كما يظهر من وصف البلوي حين نزل ضيفا على صديقه النميري بقسنطينة في رمضان عام 740هـ فقد احتفى به صاحب قسنطينة مراعاة لمنزلة النميري عنده[28]

---

(22) تاج المفرق 2 : 115 ــ 116.

(23) النفح 7 : 110.

(24) نفسه 2 : 534.

(25) مذكرات النميري 128، 146، 173، 203، 207، 208.

(26) الاحاطة 1 : 346، فهرس الفهارس 1 : 129.

(27) مستودع العلامة ص 69، الفارسيه ص 172.

(28) تاج المفرق 2 : 116

وقد لخص ابن الخطيب هذه المرحلة فقال : «وقفل الى افريقية وكان علق بخدمة بعض ملوكها، فاستقر ببجاية لديه مضطلعا بالكتابة والانشاء»[29].

وفعلا لقد أصبح في المرحلة التالية كاتبا شهيرا انفتحت له أبواب قصور المرينيين واجتذبه بلا طهم، ولعل هذا هو طموح النميري وأمنيته فلقد مدح أعمال السلطان أبي الحسن المريني بشعر سجل فيه فتحه لتلمسان في رمضان 737هـ[30] ولم يكن قد اتصل بالمرينيين بعد، وهذا ما جعل أبا الحسن يستدعيه للانضمام إلى بلاطه، وكانت شهرته كافية ليتبوأ المنصب الرفيع والمنزلة السامية عند السلطان، يقول ابن مرزوق واصفا فترة التحاقه بحاشية أبي الحسن «عالم وقته ومحدث زمانه وحافظ عصره، فقدم للكتابة حين ورد على الحضرة باستدعاء من مدينة قسنطينة»[31]. ورغم أن مترجميه لم يعينوا تاريخ التحاقه بفاس، لكن من المرجح أن يكون التحاقه هذا بعد رمضان سنة 740هـ وهو التاريخ الذي كان فيه رفيقه البلوى ضيفا عليه بقسنطينة.

وفي صحبة أبي الحسن قام بالجولة التي ضمنها مذكراته التي سنتحدث عنها فيما بعد.

إلا أن النميري لم يكن قد شفى غليله من الشرق علميا وروحيا، إذ ترك مهامه في الدولة واتجه في رحلة مشرقية جديدة ولا يفهم من كلام ابن الخطيب سبب لهذه الرحلة غير هذا يقول : «ولم ينشب أن عاد إلى البلاد المشرقية فحج»[32]لكنه حينما يعود من هذه الرحلة يجد أبا الحسن وقد انتقض عليه ابنه أبو عنان فلم يكن للنميري بد من أن ينتظر ببجاية حتى تتضح الأمور، وظل في هذه الفترة يشتغل بالكتابة لدى صاحب بجاية، إلى أن استقرت الأحوال في المغرب فاستقدمه أبو عنان إلى حضرته بفاس ليسند إليه مناصب الكتابة[33] والانشاء والتوقيع[34].

---

(29) الاحاطة 1 : 344

(30) تاج المفرق 2 : 136

(31) المسند الصحيح الحسن ص 249 الاحاطه 1 : 344.

(32) الاحاطة 1 : 344.

(33) نفسه 1 : 345.

(34) التعريف بابن خلدون ص 43.

يقول ابن مرزوق موجزا فترات عمله بجانب المرينيين «استمر على الكتابة إلى أن رحل حاجا وجاء مستعفيا ثم خلص للمولى أبي عنان فتقدم لمشيخة الكتاب وكتابة السر حين تأخر كاتبهم الأرضى الفقيه أبو القاسم ين رضوان»(35).

وتتجلى منزلته الرفيعة عند أبي عنان من خلال ما دونه في «فيض العباب» إذ يبدو أقرب المسؤولين إلى السلطان وأكثرهم اطلاعا على أخبار الدولة وأسرارها.

وهكذا لمع اسمه في هذه المرحلة وأضحى من الأطر التي لا يستغنى عنها، «فكتب بالعدوة عن السلاطين المرينية وكتم، وفي حضرة التأمير لديهم طبع وختم»(36)، كما قال ابن الأحمر في نثير فرائده.

ولقد أوضح الناسخ في مقدمة فيض العباب أهمية النميري ومنزلته في قصر أبي عنان فقال : «فاستعمله في الخطط الرائقة البشائر، والاعتناء المشرف للقبائل والعشائر، فقدمه صاحب علامته الكريمة وأصدر عليه نعمه الجسيمة فكان رحمه الله مشغولا بخدمته وشاكرا لما أفاض عليه من عوارف نعمته»(37).

ونصل بعد ذلك إلى المرحلة الأخيرة من حياته وهي التي كان قد مل فيها الحياة المتقلبة بجانب الحكام حينئذ، خصوصا أنه كان أحد الذين شهدوا أفول نجم أبي عنان وتنافس الأمراء على الحكم وتسابقهم إلى الاستيلاء على هذه المنطقة أو تلك، فأضحت رغبة النميري مغادرة ميدان السياسة ولقد حاول ذلك حين اعتزل الناس بعباد تلمسان(38)، لكنه لم يترك وشأنه، فاستغل فرصة الاحداث التي صاحبت موت أبي عنان، لينتقل إلى الأندلس، ونرجح انتظاره بفاس إلى أن صفت الأجواء فلم ينتقل إلى العدوة الأندلسية مباشرة بعد موت أبي عنان، إذ وجدنا النميري يسهم بقصيدة في الاحتفال الذي أقيم عام 760هـ بمناسبة المولد النبوي(39).

ويلخص ابن الخطيب ايضا هذه الفترة الاخيرة من حياته حين يقول : «ثم أفلت نفيه موت السلطان أبي عنان فلحق بالاندلس وتلقي ببروجراية وتنويه وعناية،

---

(35) المسند الصحيح الحسن ص 249.

(36) نثير فرائد الجمان ص 313.

(37) فيض العباب ص 3.

(38) النفح 5 : 531.

(39) الجذوة 1 : 93 ــ 96.

واستعمل فى السفارة الى الملوك، وولى القضاء فى الاحكام الشرعية بالقليم بقرب الحضرة، وهو الآن بحاله الموصوفة صدرا من صدور القطر وأعيانه يحضر مجلس السلطان ويعد من نبهاء من ينتاب بابه وقد توسط من الاكتهال»[40].

وهكذا صار صدر القوم فى الاندلس أيضا، فأسند اليه منصب القضاء وكلف في مهمة السفارة الى البلدان المختلفة كان آخرها— على ما هو معروف — تلك السفارة التى كلف بها من لدن سلطان غرناطة إلى سلطان تلمسان في ربيع الثانى من عام 768هـ، لكن هذه البعثة الدبلوماسية لم تحقق هدفها لانها تعرضت الى سطو الاعداء، فأدّى ذلك إلى اسر النميرى ومن معه، ولم يتم افتداؤهم الا بعد مرور أسبوعين[41]، وهذا هو آخر خبر عن هذا الكاتب، من هنا يتبين أن ما ساقه ابن حجر[42] من أن النميرى توفى سنة 764 هو بعيد عن الصواب، فمن الواضح أن ابن الحاج كان حيا يرزق فى سنة 770 تاريخ تأليف الاحاطة، فلا نجد إشارة إلى موته فى ماكتبه عنه ابن الخطيب.

ولا نصادف ما يشعرنا بموته إلا في مقدمة فيض العباب[43] ومعلوم أن نسخ هذا الكتاب كان في عهد أبي فارس الذي حكم بين سنتي 796 و799هـ، فموت النميري يمكن تحديد تاريخه بالفترة التى تفصل بين تاريخ تأليف الاحاطة وتولية أبي فارس الثالث الحكم.

آثاره :

قد كان ابن الحاج النميرى ذا مستوى ثقافى رفيع، مشاركا في علوم مختلفة، كاتبا ناجحا حسبما يبدو من مراسلاته وأشعاره التى تبادلها مع أدباء عصره من مثل ابن الخطيب والبلوى.

ويظهر من هذه المراسلات والاشعار أن النميرى لا يقل عن أدباء العصر تمكنا فى العلم وقدرة على التعبير، ومن هنا فان ما يذكر له فى ترجمته من التاليف هو

---

(40) الاحاطة 1 : 345.

(41) نفسه 1 : 363.

(42) الدرر الكامنة 1 : 39.

(43) فيض العباب ص 3.

عدد قليل لما يتوفر عليه من امكانات، فابن الخطيب لم ينسب له غير اثنين وعشرين تأليفا(44)، مع أنه يؤكد على ميزة عرف بها فى زمنه حين قال عنه بأنه «قيد واستكثر»(45) والمقرى يذكر له أيضا هذه المزية حين وصفه بقوله« وهو من الادباءالمكثرين»(46).

ومع ذلك فان هذا العدد من التآليف لشخص« قد توسط من الاكتهال»(47) يكفى للحكم على غزارة انتاجه واثبات مقدرته العلمية، مع العلم أن ابن الخطيب لم يذكر له كتبا اخرى مثل الرحلة التى تحدث عنها كل من ابن مرزوق والمقرى(48) والمذكرات التى دونها صحبة ابى الحسن المرينى(49)، وكتاب«قرائن القصر ومحاسن العصر» الذي مدح فيه الامير النصرى أبا عبد الله، والذى ما زال مخطوطا(50).

---

(44) الاحاطة 1 : 346 ــ 347، مقدمة تحقيق مذكرات التميري ص 120 ــ 136.

(45) الاحاطة 1 : 346.

(46) النفح 7 : 109.

(47) الاحاطة 1 : 345.

(48) المسند الصحيح الحسن ص 249، النفح 7 : 109.

(49) مخطوطتا الاسكوريال رقم 483، 1734.

(50) مذكرات التميري مقدمة التحقيق ص 40.

مذكرات ابن الحاج النميرى

وهي عبارة عن معلومات دونها النميرى فى الرحلةالتى سار فيها داخل المغرب ضمن موكب أبى الحسن المرينى سنة 745هـ. فكان لنشاطه إلى جانب مهماته الرسمية فضل فيما جمعه من نقط، وما سجله من أخبار وما تركه من فوائد.

فالمذكرات اذن نموذج للرحلات الرسمية إذ الكاتب لم يسر وحده في هذه الجولات ولم يكن حرا في اختيار الوجهة التي يقصد، وإنما كان يرحل لرحيل الموكب السلطانى وينزل بنزوله.

ومن هنا فالرحلة تمثل من جهة الرحلات الرسمية، ومن جهة ثانية الرحلات الداخلية فمسرحها وميدانها البلاد المغربية، وبصحبة السلطة المسؤولة.

أما زمن الرحلة فيبدو من خلال ما ورد في المذكرات بأنه يمتد اكثر من سبعة أشهر، ذلك أن أخبار المذكرات تبتدىء في شهر محرم عام[51] 745هـ وينتهى ما هو معروف منها فى الثالث من رمضان عام 745هـ[52].

ولقد سبق ان ملنا الى ترجيح ان يكون قد انتقل الى فاس للعمل فى بلاط أبي الحسن بعيد تاريخ اجتماعه بالبلوى في قسنطية في رمضان عام740هـ[53].

---

(51) المذكرات مخطوط 483ورقة 31 أ النسخة المرقونة ص 1.

(52) نفسه ورقة 22 ب المرقونة ص 234.

(53) تاج المفرق 2 : 115.

ويؤيد هذا ما ورد من اشارات فى هذه المذكرات فلقد جاء في ترجمة أبي عبد الله بن ابى الشرف الذى التقى به في سبتة قوله «وقد ثبت ايراد نسبه...في مجموع العام الفارط»(54)، وأشار الى أنه أثبت أيضا في مجموع العام الفارط رسالة كتبها أبو العباس ابن شعيب لأبي علي بن تدرارات(55)، وقال عن شعر أبى العباس ابن شعيب «وقد تقدم إيراد شيىء من ذلك فى مجموع العام الفارط والعام قبله»(56).

فهذه الاشارات تدل على ان النميري كان بالمغرب صحبة أبي الحسن المرينى قبل الرحلة التي تسجلها المذكرات بعامين أي ابتداء من عام 743هـ.

و يدل هذا ايضا على ما أشرنا إليه من أن الجولات التفقدية للسلطان كانت منتظمة تتم في كل سنة من أجل تفقد أمور المملكة وضبط أمنها.

والمذكرات عبارة عن مخطوطين منفصلين يوجدان بالاسكوريال في مدريد الأول يحمل رقم 483 والثاني يحمل رقم 1734، والمخطوطان معا متكاملان فهما يعكسان الأجواء العلمية والثقافية المزدهرة ابان مصاحبة الكاتب لأبي الحسن عام 745هـ في شمال المغرب وجنوبه.

وقد كنت عثرت على المخطوط الثاني ضمن فهرس برونفسال، فكاتبت خزانه الاسكوريال التي أمدتني مشكورة بشريط لمحتوياته.

ويعد اطلاعي على هذا الشريط ادركت أهمية هذه المذكرات في التعرف على صاحبها وثقافته ورواياته وإجازاته ونوعية شيوخه، يمكن الاطلال من خلالها على العصر ثقافيا واجتماعيا، فعملت على الاستفادة منه في هذه المجالات كلها.

ثم عرفت بعد ذلك، وفي الفترة الاخيرة من عملي هذا، أن المخطوط قد حقق لنيل شهادة السلك الثالث بفرنسا فاتصلت بصاحبها السيد بريمار الذي أمدني مشكورا بنسخة مرقونة لعمله هذا(57).

وهكذا كان الاعتماد في الاحالات على المخطوطين والنص المحقق معا.

(54) المذكرات مخطوط 1734 ورقة 5 أ المرقونة 27. 28.

(55) نفسه ورقة 12 أ المرقونة ص 39.

(56) نفسه ورقة 20 ب المرقونة ص 85.

(57) عنوانها : les notes de voyage. d'ibrahim-B:Al-hadjdj-An Numayri par:A.primare.

محتوى المذكرات

رغم أن الرحلة تدخل ضمن العمل الرسمي للنميري، قام بها وهو يمارس مهمة الكتابة إلى جانب أبي الحسن، إلا أن اهتمامه بنشاط أبي الحسن في هذه الرحلة وأخباره أثناءها يكاد ينعدم.

فالقارىء للرحلة لايشك في حرية الرحالة النميري في تنقلاته، ففي حديثه عن أبي عبد الله ابن أبي الشرف مثلا يقول : «ما زلت أتبرك به وأسلم عليه وأروم الأخذ عنه والقراءة عليه إلى أن آن وقت الرحيل عن سبتة، وقطعني ما ذكرته من العلائق والشواغل فسرت إلى منزله»(58).

ولا يصرح بانتمائه إلى الموكب السلطاني إلا حين يرحل عن سبتة مكتفيا بقوله «كان سفرنا من سبتة صحبة الركاب العلي في ظهر يوم الثلاثاء الحادي عشر لهذا الشهر وذلك بعد صلاة الظهر»(59)، ثم لا يلتفت لموكب السلطان الا ليسجل رحيله عن آويات قرب سبتة، سالكا أيضا طريقة الاختصار والايجاز يقول «كان رخيل مولانا أيده الله من منزل آويات في يوم الخميس الثالث عشر لهذا الشهر وكان نزولنا بمنزل قصر المجاز، وأقام مولانا ايده الله بهذا المنزل يوم الجمعة الرابع عشر لهذا الشهر وصلى صلاة الجمعة بجامع القصر»(60) ثم لا نعرف شيئا عن نشاط السلطان وأعماله واستقبالاته إلى أن يفاجئنا بالاستعداد للرحيل يقول : «كان رحيلنا من القصر صحبة الركاب العلي في يوم السبت الخامس عشر لشهر الله المحرم. هذا وكان نزولنا بظاهر طنجة ووقعت لنا بها إقامة»(61).ويسكت مرة أخرى عن النشاط السلطاني طيلة اسبوعين كاملين يجتاز خلالها الموكب السلطاني كلا من طنجة وأصيلا ومنزل المخازن الذي يلتفت فيه إلى حركة الموكب السلطاني يقول «في يوم الجمعة الثامن والعشرين لهذا الشهر(محرم) رحل مولانا أيده الله من منزل المخازن وكان نزول ركابه العلي على قصر كتامة وبها صلى صلاة الجمعة»(62).

(58) مذكرات النميري 1734 ورقة 5 أ المرقونة ص 28.

(59) نفسه ورقة 6 ب المرقونة ص 31.

(60) نفسه ورقة 6 ب المرقونة ص 32.

(61) نفسه ورقة 11 أ المرقونة ص 37.

(62) مذكرات النميري 1734 ورقة 19. ص 82 من النسخة المرقونة.

ولا نشعر بعد ذلك الا والسلطان بفاس، فلقد أرخ النميري دخوله لهذه المدينة بقوله« كان دخولنا إلى فاس صحبة الركاب العلي اسماه الله في يوم السبت السادس لشهر صفر المذكور»(63).

وبعد حوالي اربعين يوما لا نعرف عنها شيئا نجد النميري يدخل مدينة تلمسان في السابع عشر من ربيع الاول، ويتجول بهذه المدينة في أحد منتزهات السلطان أبي تاشفين، ولا ندري سبب ذهابه إلى تلمسان ووجوده بها، فهل أرسله أبو الحسن في مهمة رسمية، لا بلاغ رسالة أو القيام بسفارة ؟ سكوت النميري في هذا المجال يجعلنا نكتفي بطرح السؤال.

ويلتحق بفاس في 12 ربيع الآخر من عام 745هـ بعد أن قضى أسبوعين بتلمسان ينتقل بين مجالسها العلمية، و يجلس إلى شيوخها ويقف على أضرحتها، ولا شك أنه حمل معه جواب صاحب تلمسان إلى السلطان المريني، ولكن النميري هنا يحجم أيضا عن الاشارة إلى هذا الموضوع بل وجدناه يهتم بما دونه عن الشيوخ، وما حصل عليه من الاشعار وهو يستقبل مدينة فاس، وفاتحة ما دونه في مذكراته بعد حلوله بفاس تلك الابيات التي رحب فيها ابن رضوان بمقدمه لهذه المدينة يقول ابن رضوان في بدايتها(64).

قدموك أم ثغر المنى وهو باسم   وعودك أم غيث الرضا وهو ساجم

وهكذا يقضي بهذه المدينة بعد عودته من تلمسان ما يقرب من ثلاثة أشهر لا يشير فيها إلى أبي الحسن ولا إلى أي نشاط رسمي تقوم به السلطة، وهذا شيىء مستغرب من شخص يتحمل نصيبا من المسؤولية في الجهاز الرسمي، فلا نشعر بهذا الارتباط الرسمي الا حين رحيله من فاس يقول : «كان رحيلي من حضرة فاس في يوم الخميس الرابع لشهر رجب الفرد من عام خمسة وأربعين وسبعمائة، ولحقت محلة مولانا ايده الله في يوم الاربعاء بعده، وفي يوم الخميس الموالي له دخل مولانا قصبة سلا بعد زيارة التربةالمطهرة»(65).

---

(63) نفسه ورقة 20 ب المرقونة ص 85.

(64) مذكرات النميري 483 ورقة 23 أ المرقونة ص 111.

(65) نفسه 1734 ورقة 25 أ ص 156 من النسخة المرقونة.

ونتساءل مرة أخرى عن سبب تأخره بفاس وعدم خروجه من المدينة مع موكب السلطان، هل تمهل بها للقيام بمهمة كلفه بها السلطان ؟، والنميري كاتبه الخاص له مكانته ومنزلته ومقامه المتميز في محلة السلطان، بدليل أن رسالة من أخيه بالاسكندرية وجهت إليه بالمحلة السلطانية في مرج حمام قرب سلا(66) فلو لم يكن من صدور القوم لما عرف مكانه.

ثم ينشغل بسلا كذلك عن الموكب السلطاني وعن مسؤوليته الرسمية بمسارعته إلى تدوين المعلومات والفوائد التي حصل عليها هناك. يقول بمجرد الاخبار بوصوله : «وها أنا أبدأ بما استفدناه بسلا»(67).وهكذا يتوقف الموكب السلطاني بسلا ورباط الفتح فيقضي بهما شهرا كاملا دون أن يتعرض النميري كاتب السلطان ومرافقه إلى تفاصيل نشاط السلطان وأخباره في هاتين المدينتين، بل اهتم أيضا بما استفاده من الشيوخ والاعلام هناك، و لم يلتفت إلى الموكب السلطاني الا لاخبارنا ــ كعادته ــ بتحركه نحو مراكش يقول : «كان رحيل مولانا أيده الله من رباط الفتح في يوم السبت الحادي عشر لشعبان المذكور متوجها إلى مراكش على الساحل»(68).

ويخبرنا بأنه دخل المدرسة التي بناها أبو الحسن المريني بداخل أنفى(69).

ويتوقف الموكب بدكالة لكن النميري لا يشير إلى الموكب السلطاني في هذه المرحلة إلا ليخبرنا بما استفاده من المتصوف أبي عثمان سعيد بن ابراهيم الذي التحق هناك بالركب يقول «ورد على باب مولانا أيده الله ولقيته بمنزل مولانا أيده الله بأسا يس، وسألته عن مولده فأخبرني أنه اليوم ابن أربع وعشرين سنة، وأخبرني بأنه شريف، وأملى على ما تسطر»(70). وكان سماعه عليه في يوم الجمعة ثاني رمضان عام 745هـ، وتبقى المذكرات ــ مع الاسف ــ مبتورة إذ تتوقف بلقاء الأديب أبي يعلى حمزة في الثالث من رمضان عام 745هـ(71).

---

(66) نفسه 483 ورقة 2 ب المرقونة ص 173.

(67) نفسه 1734 ورقة 25 أ ص 156 المرقونة.

(68) نفسه 483 ورقة 13 أ المرقونة ص 212.

(69) مذكرات النميري 483 ورقة 17 ب المرقونة ص 222.

(70) نفسه ورقة 21 ب المرقونة ص 231.

(71) نفسه ورقة 22 ب المرقونة ص 234.

ومن خلال هذا العرض الموجز يبدو خط السير واضحا، ونتعرف على الطريق التي سلكها الموكب السلطاني والمراحل التي قطعها والمنازل التي توقف بها، ولقد كان مشروع الرحلة التفقدية السلطانية يشمل المرور بمدن الشمال للوصول إلى حضرة فاس ثم الانطلاق منها لاستكمال الرحلة إلى مراكش مرورا بأهم مدن الجنوب.

وهكذا فالمذكرات تؤرخ لرحلتين أولاهما في شمال المغرب من سبتة إلى فاس وكانت منازلها على التوالي سبتة، قصر المجاز، طنجة، اصيلا، منزل المخازن، قصر كتامة، فاس.

وينفرد الكاتب عن الموكب السلطاني بزيارته لمدينة تلمسان.

أما الرحلة الثانية التي انحدر فيها الموكب نحو مراكش في الجنوب، فكانت المنازل التي صاحب فيها الموكب هي سلا والرباط حيث التحق بالسلطان ثم أنفى فبلدة أسايس في دكالة حيث تتوقف المذكرات قبل الوصول إلى مراكش.

ـ لقاء الاعلام والشيوخ :

ولقد بدا الكاتب من خلال هذه المذكرات نهما للقاء الاعلام والشيوخ متعطشا للأخذ عنهم،وتدوين ما يجنيه من فوائدهم، مما باعد بين هذه المذكرات وطبيعة الرحلات الرسمية الأخرى، كما سنرى في فيض العباب، فللمذكرات شبه كبير بكتب البرامج والفهارس التي يهتم أصحابها بذكر الشيوخ الذين أخذوا عنهم أسانيد، أو قرأوا عليهم كتبا، فاعتبارها من الرحلات الرسمية فيه الكثير من التجاوز والتساهل وإلا فمن الأنسب أن تضم إلى الرحلات العلمية الداخلية، بالرغم من أنها تمت بموازاة الرحلة الرسمية لأبي الحسن المريني.

فكاتب المذكرات أو التقاييد على حد تعبيره، كان دائم البحث عن العلماء والشيوخ، وهكذا احتفظ ما بقي من هذه المذكرات بستة و ثلاثين علما، اتصل بهم في هذه الأماكن التي مر منها، وجلس اليهم، أوروى عنهم، أو أخذ عنهم شعرا، أو قرأ عليهم علوما وكتبا، وكان هؤلاء الاعلام على اختلاف مستوياتهم وميولهم من الطبقة النابهة آنذاك، فلقد أتاح له مركزه الاتصال بمن كان يرتاد باب السلطان فأبو محمد عبد النور بن محمد العمراني الذي اتصل به في سبتة كان قاضيا لسبتة متصرفا في الخدم السلطانية لذلك كان يقصد باب السلطان(72).

(72) مذكرات النميري 1734 ورقة 3 ب المرقونة ص 25.

وأبو عبد الله بن أحمد بن أبي الشرف كان مزوار الشرفاء بسبتة وإليه انتهت الجلالة والفضائل[73].

وأبو محمد عبد الله بن عبد الحق الخزرجي الذي التقى به في أنفى كان قاضيا لهذه المدينة[74].

وأبو الحسن علي بن موسى المطماطي أخد عنه وهو مقرىء القرآن والعربية والتفسير بالمدرسة التي بناها أبو الحسن بداخل سلا[75].

وأبو عبد الله محمد بن ابراهيم اللخمي شيخ رندة لقيه بسبتة وقد قدم على السلطان أبي الحسن للتحدث في مصالح رندة[76].

وأبو العباس أحمد بن حسن البلياني الأنصاري وهو شيخ فاضل كان متصدرا لعقد الشروط بتلمسان لما لقيه بآويات[77]قرب سبتة. وكان قرب النميري من موكب السلطان يتيح له الاتصال بعلية القوم وجها بذة العلماء، بالاضافة إلى إنه كان يسعى إلى هؤلاء العلماء في مواضع اقرائهم، أو يقصد منزل بعضهم، بل انه قد حصل على كثير من الفوائد في الحوانيت والطرق والأماكن العامة أو في غيرها من الأماكن.

فمن الذين أخذ عنهم وهم حول موكب السلطان أو بباب قصره :

أبو محمد عبد النور بن محمد العمراني بسبتة[78]، وهو يتولى الخدم بباب السلطان وشيخ رندة أبو عبد الله اللخمي استفاد منه بإقامة السلطان في سبتة[79]، وأبو العباس أحمد البلياني الأنصاري أخذ عنه وأجاز له بمنزل السلطان في آويات قرب سبتة[80].

---

(73) نفسه ورقة 5 أ المرقونة ص 27.

(74) نفسه 483 ورقة 19 أ المرقونة ص 224.

(75) مذكرات النميري 483 ورقة 12 ب المرقونة ص 211.

(76) نفسه 1734 ورقة 2 ب ص 24 ص المرقونة

(77) مذكرات النميري ورقة 6 ب المرقونة 31.

(78) نفسه ورقة 3 ب ص 25 من النسخة المرقونة.

(79) نفسه ورقة 3 أ المرقونة ص 24.

(80) نفسه ورقة 6 ب المرقونة ص 32.

والكاتب أبو القاسم ابن رضوان وقفه على رسالة كتب بها لأبي القاسم الطراز[81]، وحضر مجلسا من صحيح البخاري على شيخه أبي محمد الحضرمي في منزل أبي الحسن المريني «بضفة وادي أم الربيع بالمجاز المعروف بودفو قريب أزمور»[82].

واستفاد من المتصوف أبي عثمان سعيد بن ابراهيم في منزل السلطان بأسايس[83].

أما الذين قصدهم في مواضع اقرائهم فهم كثيرون منهم :

العالم المحدث أبو سعيد ابن قريعات الذي لقيه بموضع اقرائه بجوفي الجامع الاعظم بطنجة[84].

والشيخ الفقيه النحوي أبو الحسن الرقاص لقيه في انفى بالمدرسة التي كان يقرىء بها هناك التفسير، والموطأ، وابن الحاجب الفقهي، والرسالة، وتسهيل الفوائد، والجمل، والكراس الجزولي[85].

كما أخذ عنه بالجامع الاعظم من أنفى قبل صلاة الجمعة[86].

وأخذ عن علماء آخرين بمنازلهم منهم :

أبو العباس أحمد بن أبي الشرف الحسيني الذي أنشده أشعارا كثيرة بمنزله في سبتة[87].

أبو العباس أحمد بن يحيى بن ياليل الذي قرأ عليه أحاديث بمنزله من داخل سلا[88].

---

(81) نفسه ورقة 11 ب المرقونة ص 36.

(82) نفسه 483 ورقة 19 أ المرقونة ص 224.

(83) نفسه ورقة 21 ب المرقونة ص 231.

(84) مذكرات التميري 1734 ورقة ب، 38 المرقونة ص 49، 71

(85) نفسه 483 ورقة 14 : أ المرقونة ص 214 ــ 215.

(86) نفسه ورقة 16 ب المرقونة ص 219.

(87) نفسه ورقة 31أ ــ 33 ب المرقونة ص 1 ــ 2.

(88) نفسه 1734 ورقة 27 المرقونة ص 164.

أبو الحسن الرقاص قرأ عليه أيضا بمنزله من داخل أنفى بابين من كتاب الموطا[89].

وتمت الاستفادة أحيانا من العلماء في الطريق ونحوه، فلقد أخذ عن أبي الحسن المطماطي وحصل منه على الاجازة في لقائه به في «الوصلة إلى خارج سلا أمام المصلي»[90]».

وما شى في طريقه الفقيه أبا عبد الله بن أبي مدين فتكلما في التصوف[91]، ولقي الفقيه أبا عبد الله بن يعيش في حانوته بسلا فحصل منه على الاجازة وروى عنه أخبارا وأشعارا[92].

وسكت في أحيان كثيرة عن تحديد المكان الذي أخذ فيه عن الشيخ[93].

فوائد الرحلة :

ولقد تسنى للرحالة النميري في هذه الجولات واللقاءات، رغم مهامه الرسمية، أن ظفر بحصيلة مهمة من القراءة والرواية والسماع، وحصل على إجازات عديدة، واطلع على أشعار ومكاتبات ومؤلفات ودواوين، ووقف على نقوش وكتابات...

فلقد قرأ على أبي سعيد ابن قريعات بطنجة جملة أحديث بأسانيد عالية[94]، وقرأ أيضا على أبي الحسن الرقاص بأنفا أحاديث من كتاب الموطا[95]، كما سمع على شيخه أبي محمد الحضرمي جملة أحاديث في مجلس للبخاري بمنزل السلطان وهو قريب من أزمور[96].

---

(89) مذكرات النميري 483 ورقة 16 المرقونة ص 217.

(90) نفسه483 ورقة 5 ب المرقونة ص 180.

(91) نفسه 483 ورقة 13 أ المرقونة ص 213.

(92) نفسه 1734 ورقة 27 ب المرقونة ص 170.

(93) نفسه ورقات 6، 7، 27، 37 ب المرقونة ص 31، 34، 165، 70 مخطوط 483 ورقات 3، 12ب، 18أ المرقونة ص 175، 211، 223.

(94) المذكرات 1734 ورقات 31 ــ 35 ب المقرونة ص 51 ــ 64.

(95) المذكرات 483 ورقة 6 أ المرقونة ص 217 ــ 218.

(96) نفسه ورقة 19 ــ 20 المرقونة 223 ــ 226.

أما في رواية الأشعار فلقد انتهى إلى الغاية في كثرة ما رواه من الأشعار مما جعل المذكرات بمثابة ديوان لانتاج شعراء العصر.

وكثير من هؤلاء الشعراء لا يعرفون إلا من خلال هذه المذكرات، كما أن عديدا من النصوص لم يرد ذكرها إلا في مذكرات النميري، إذ ضمن مذكراته أكثر من ألف وستمائة بيت شعري في مختلف الأغراض.

فلقد أورد مثلا حوالي ستة وثمانين ومائة بيت لأبي علي ابن تدرارت[97] الذي بدا مالكا زمام السليقة الشعرية، متوفرا على طاقة خلاقة.

وأنشده أبو العباس بن أبي الشرف الحسيني بسبتة أشعارا كثيرة أثبت في مذكراته منها حوالي ثمانية وثمانين بيتا[98] وهو عدد مهم إذا لاحظنا أن النميري كان لا يورد القصائد بكاملها وإنما كان يجتزىء نماذج من أبياتها والتمهيد لهذه النماذج بعبارة «ومنها» أو عبارة «وله من قصيدة» وغيرهما... وهذا يدل على أن أبا العباس هذا كان يمتلك الموهبة الشعرية. ويجلس النميري إلى أبي سعيد بن قريعات[99] بموضع إقرائه في طنجة فينال بغيته من الرواية، ويحصل على أسانيد عالية، إلا أنه مع ذلك روى عنه حوالي ستة وستين بيتا، وهو عدد مهم إذا علمنا أن اهتمام الطلاب في المجالس العلمية كان يستهدف بالدرجة الأولى الدراسات الفقهية والحديثية، والظاهر أن النميري لم يورد كل الأشعار التي رواها عنه، فلقد مهد للنماذج الشعرية التي أثبتها في مذكراته بقوله : «وله شعر حسن فمن ذلك...»[100]

وينشده بفاس أبو العباس ابن شعيب شعرا في رثاء زوجته صبح يقول فيه :

يا ربة القبر هل تدرين ما صنعت ... من بعد فقدك نار الشوق في كبدي
لئن ذهبت بأيامي الرقاق لقد ... خلدت ماشيت من بلواك في خلدي

وهكذا أورد من هذه القصيدة خمسة أبيات مقدما لها بقوله : «وله في رثاها العجائب وقد تقدم إيراد شيء من ذلك في مجموع العام الفارط والعام قبله»[101] مع أن هذه الأبيات لم ترد في ترجمة ابن شعيب بالجذوة.

(97) المذكرات ورقة 33 ب المرقونة ص 9.

(98) المذكرات ورقات 31أ ــ 33ب المرقونة ص 1 ــ 9.

(99) مذكرات النميري 1734 ورقات 29أ ــ 39أ النسخة المرقونة ص 48 ــ 73.

(100) نفسه ورقة 29 ب المرقونة ص 50.

(101) نفسه ورقة 20 ب ص 85.

فمدينة فاس وحدها أضافت إلى مذكراته حوالي خمسمائة بيت شعري، إذ أن أغلب رواياته بهذه المدينة كان شعرا(102).

ورحلته هذه أتاحت له الاطلاع على دواوين شعرية، وكتب أخرى تتناول موضوعات مختلفة.

وهكذا فحين التقى في تلمسان بالأديب المراكشي أبي الحسن ابن عسيلة أطلعه على مجموع كان قد رفعه للقائد هلال صاحب تلمسان تحت عنوان «كتاب الوسائل المأثورة والرسائل المذخورة»(103)

ويتضمن هذا المجموع رسالتين إحداهما للحرم الشريف، وأخرى لقبر الرسول عليه السلام، كما يتضمن قصيدة في المولد النبوي، وتذييلا لقصيدة امرىء القيس على غرار حازم القرطاجني، وقصيدة أخرى في مدح هلال السابق الذكر، وغيرهما من الموضوعات المختلفة كذكر فضل الشعر، ونبذ من الأخبار والآثار...

وقدم أبو عبد الله بن أبي المكارم منديل الكناني(104) في مدينة سلا مجموعا آخر للنميري يشتمل على بعض رسائل من كتب أبيه، وأشعاره، وفوائد رواها الكناني من مصادر مختلفة، ولقد نقل النميري من هذا المجموع اثنين وسبعين بيتا.

وقرأ ابن الحاج النميري في سلا أيضا على أبي الحسن المطماطي جميع برنامج مشيخته(105)، وبعضا من مختصره لبرنامج شيخه ابن جابر الواداياشي(106).

كما تناول من يد أبي الحسن المطماطي أيضا سفرا من ثلاثة الأسفار التي ألفها في شرح الجمل لأبي القاسم الزجاجي(107).

---

(102) نفسه 483 ورقات 23 ـ 46 المرقونة ص 111 ـ 156.

(103) نفسه 1734 ورقة 41 أ ص 98 من النسخة المرقونة.

(104) مذكرات النميري 1734 ورقتان 25أ ـ 26أ المرقونة ص 157 ـ 163.

(105) مذكرات 483 ورقات 6ب ـ 10أ المرقونة ص 183 ـ 201.

(106) نفسه ورقات 10ب ـ 12ب المرقونة ص 202 ـ 211.

(107) نفسه ورقة 12 ب المرقونة ص 211.

وأتاح له لقاؤه بالشريف المحقق المتصوف أبي عثمان سعيد بن ابراهيم ــ وقد لحق موكب السلطان بأسايس في دكالة ــ الاطلاع على نصوص ومعلومات عن أسرار الحروف وعلم التحقيق[108].

واهتمامه بالرواية والسماع جعله لا يهمل شيئا مما قرأه أو رواه أو سمعه، وهكذا فقد دون ــ وهو ما زال في سبتة ــ ما استفاده من أبي علي بن تدرارت من ألغاز[109].

وتعتبر مذكرات النميري كذلك مصدرا مهما للكثير من المكاتبات والرسائل، كتلك التي أرسلها أبو علي بن تدرارت إلى أبي العباس بن شعيب، وقد تجنب فيها إيراد حرف الطاء فالتزم فيها مالا يلزم[110].

وكالرسالة التي أطلعه عليها ابن تدرارت أيضا وكان قد بعث بها إلى ابن الخطيب[111].

وكالرسالة التي بعث بها قاضي مليانة أبو عبد الله الغزي إلى أبي الحسن المريني مطلعا فيها السلطان على ما وقع بمليانة من كوارث طبيعية، وكان وقف عليها النميري بفاس[112] ولم يكن قد مضى أكثر من يومين على نزول الموكب بها مما يدل على مكانته ومنزلته بين الخاصة.

ومكانته الرفيعة أيضا جعلته يقف بفاس كذلك في القصر الملكي على رسالة من ملك غرناطة أبي عبد الله إلى أبي يوسف المريني[113] مؤرخة بعام 699هـ كتبها خال النميري أبو عبد الله ابن عاصم لاخبار السلطان المريني بالمعارك والانتصارات في الأندلس، مما جعل هذه الرسالة وثيقة نادرة للتعرف على الأحوال هناك.

---

(108) نفسه 21ب ــ 22ب المرقونة ص 231 ــ 234.

(109) نفسه 1734 ورقة 1 ب ص 19 ــ 20.

(110) نفسه 1734 ورقات 12أ ــ 13ب المرقونة ص 39 ــ 42

(111) نفسه ورقة 8 ــ 9ب المرقونة ص 42 ــ 45.

(112) نفسه ورقة 20 ب المرقونة ص 85 ــ 86.

(113) مذكرات النميري ورقات 21أ ــ 24أ المرقونة ص 86 ــ 96.

وفي المذكرات رسالة اطلع عليها وهو بمحلة السلطان في مرج حمام بضواحي سلا، وجهها أبو العباس ابن شعيب من سلا إلى أبي علي بن تدرارت بالمحلة[114] مبررا فيها سبب غيابه عن المحلة لمرض ألم به، مما يعرفنا بمركز هذا الأخير فإليه يعتذر ويبرر الغياب.

ولم تقتصر استفادة النميري في هذه الرحلة على ما أخذه عن الاعلام الذين التقى بهم فيها، أو الكتب والمجاميع التي اطلع عليها، والمكاتبات التي وقف عليها، بل كان دائم البحث متيقظ الذهن، يمعن النظر في ما نقش وكتب في اللوحات والقبور المختلفة، والآثار...

فلقد تأخر عن الركب ليشاهد ما كتب من أبيات شعر على شوكة خارج قصر المجاز، تحكي تلك الأبيات الشعرية قصة امرأة أندلسية من قرطبة دفنت هناك[115] وكان صاحبه أبو العباس بن شعيب هو الذي نبهه إلى هذه الأبيات الأربعة التي قرأها النميري في غاية من الاحتفال والاهتمام.

وحينما صلى الجمعة إلى جانب السلطان بقصر كتامة (القصر الكبير) التفت إثر الصلاة إلى ثريا الجامع فوجدها بديعة الصنعة قد صنعت من فخار وقرأ مكتوبا عليها أبياتا ثلاثة أثبتها في مذكراته[116].

ولم تصرفه مسؤوليته، وهو بمنتزهات صاحب تلمسان، عن الاهتمام بخسة وسط قبة وصفها بما يدل على إعجابه واحتفاله بها فقال : «وأعلاه (أي المنزه) قبة (مناهة) قد علت وفي وسطها خسة كان بها الماء جاريا وهي في بساط قد احكمت فيه الصنائع العجيبة والزليج ويدور بالخسة أبيات بالزليج المنجور خمسة آخر بيت منها مختل الوزن والاعراب»[117] ويثبت في المذكرات أبياتا أربعة منها. ودخل بعد ذلك إلى المدرسة التي بناها أبو الحسن بداخل أنفى، فرأى بها أبياتا جميلة تتحدث عن باني هذه المدرسة، أثبتها أيضا في تقييداته[118].وتجدر الاشارة إلى أن بقاءه فترة

---

(114) نفسه 483 ورقة 2أ_ 2 ب المرقونة ص 171 _ 173.

(115) نفسه 1734 الورقتان 6ب _ 7أ المرقونة ص 32 _ 33.

(116) نفسه 19 ب المرقونة ص 83.

(117) نفسه ورقة 40 أ المرقونة ص 97.

(118) نفسه 483 ورقة 17 ب المرقونة ص 222.

طويلة بفاس صحبة الموكب السلطاني، أتاحت له فرصة التأمل فيما صدر عنه من شعر ونثر، ومكنته من الرجوع إلى بعض آثاره ومدوناته (تقييداته) فأعاد النظر فيها، ونقحها، وأدرج ضمن هذه المذكرات ما استعادته ذاكرته من الأشعار التي كان قد قالها في مناسبات سابقة.

ومن الأشعار التي أثبتها في مذكراته لهذه الفترة، القصيدة التي رثى بها خاله أبا عبد الله ابن[119] عاصم الذي كان قد توفي في سنة 743هـ لكن النميري لم يتمكن من رثائه بفاس إلا بعد مرور سنتين، والسبب في استعادة هذه الذكرى الحزينة، هو أن أحد الأصحاب قد أنشده نصف بيت في نومه، فكان ذلك فاتحة لقصيدة من سبعة وأربعين بيتا قالها النميري مباشرة بعد استيقاظه من النوم[120].

---

(119) مذكرات النميري 483 الورقتان 28ب ــ 29ب المرقونة ص 123 ــ 125.

(120) نفسه النميري 483 الورقتان 30 ب، 45أ ــ 46أ المرقونة ص 127، 153، 156.

فيــض العبــاب

هو الكتاب الذي يتضمن الرحلة الرسمية الثانية التي قام بها ابن الحاج النميري أيضا صحبة أبي عنان المريني، وإذا كنا قد رأينا أن مجال الرحلة السابقة التي استوعبتها مذكراته لا تخرج عن إطار المنطقة الشمالية من المغرب الحالي، فإن الرحلة التي بين أيدينا تتعدى هذا الاطار إلى أبعد نقطة في المغرب الأوسط.

ومع ذلك يمكن اعتبارها رحلة داخلية نظرا إلى أن أحداثها ومراحلها لم تخرج عن الاطار المريني، فالمغارب في هذه الفترة قد أصبحت فعلا تحت نفوذ بني مرين، وفي ظل سيادتهم.

والرحلة ما زالت مخطوطة بالخزانة الحسنية بالرباط[121]، وهي النسخة الفريدة التي تعرف لحد الآن، ويعتقد أن هناك نسخة ثانية من هذه الرحلة أتم وأكمل، توجد محفوظة بدير كنيسة مدينة مليلية[122].

ومخطوط الخزانة الحسنية يبدو عليه التأنق في الكتابة والميل إلى الزخرفة والتنميق باستعمال الألوان الحمراء والخضراء والسوداء واختيار الورق الرفيع لكونه سجل رحلة ملك، وكتب من أجل إهدائه للملك، ولكنه قد تعرض لبتر كثير ذهب منه بكلمات وجمل أحيانا، بل وبصفحات كاملة أحيانا أخرى[123].

---

(121) نشر أخيرا بتحقيق وتقديم ودراسة للدكتور محمد بن شقرون وبما أننا قد اعتمدنا في إحالاتنا على المخطوط، فقد اكتفينا بإضافة الاحالات إلى صفحات المطبوع أيضا.

(122) الجذوة 1 : 92 تعليق المحقق رقم 118.

(123) الصفحات المبتورة هي 2، 3، 5، 12، 59، 60.

ومع الأسف فإن هذا البتر استهدف الصفحات المزخرفة والمنمقة ذات الورق الرفيع، بينما احتفظت الأوراق العادية بوضوحها في الغالب.

وإذا كنا قد سايرنا ابن الحاج في مذكراته وهو يتنقل بين المنازل ويقطع المسافات صحبة أميره في رحلاته التفقدية دون أن نتمكن من معرفة سبب هذه الجولة وهدفها، فإننا هنا لا نجد صعوبة في معرفة الباعث على حركة أبي عنان المريني، فلقد أفصح النميري نفسه عن هذه البواعث والأسباب في كثير من المناسبات.

والعنوان الذي وضعه لهذا الكتاب يكاد يحصر أهداف هذه الحركة ويلخص أسبابها، وهكذا فالعنوان هو «فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب»[124] فالرحلة إذن حركة تأديبية تستهدف أعراب هذه المناطق الشرقية، لذا اعتبرت هذه الحركة في المصادر التاريخية غزوا انتهى بفتح قسنطينة وتونس[125].

ولقد كانت الرحلة، بدون شك، من أجل ردع الخارجين عن الطاعة وعقاب المثيرين للقلاقل والفتن، كما يبدو من خلال ما التزم به أبو عنان، وهو يتهيأ للخروج في هذه الحركة إلى قسنطينة، في قوله «وسوف نجعلها إن شاء الله للامنة قرارا، ولجميل الادارات دارا، ونأخذ من عربها الذي ثار بغيهم ثأرا»[126].

ويدخل مجهود أبي عنان هذا في ما كان لسياسته من طموح عريض في توسيع دائرة حكمه، ومجال نفوذه، فلقد كان وهو بعاصمته «متشوفا لما يدخل من البلاد في ملكه، وينتظم من الأقاليم الشاسعة في سلكه»[127].

ومع ذلك فإن الهدف المتوخى من الرحلة — كما ورد في العنوان — هو ضم قسنطينة إلى سلطانه بدليل أنه لما تحقق هدفه هذا لم يفكر في اجتياح المناطق

---

(124) فيض العباب ص 3 الكتاب المطبوع ص 1.

(125) الاستقصا 3 : 201.

(126) فيض العباب ص 19 الكتاب المطبوع ص 9.

(127) نفسه ص 95 ص المطبوع ص 71.

الأخرى، مع أن جيوشه منتصرة، وكلمته مسموعة ذلك «أن هذه الحركة السعيدة إنما أفردت لأخذ قسنطينة وتمهيد أوطانها، وجعل ذلك شأوا لا تتجاوزه حلبة ميدانها»(128) كما أكد أبو عنان للوفود التي قدمت عليه ترغبه في دخول تونس أيضا.

ويذكر النميري سبباً آخر لهذه الحركة، وهو السبب الذي يدخل ضمن مسؤوليات أبي عنان والتزاماته نحو المسلمين، والعقيدة الاسلامية فالمراد من حركته «أن تجمع كلمة الاسلام ويلتئم أحزابها أحسن الالتئام، وتتخلى الدواعي لجهاد عبدة الأصنام ويستطاع السبيل لحج بيت الله الحرام وزيارة سيدنا ومولانا محمد خير الأنام عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ، وينحسم داء الفتنة وينقضي أمد المحنة ويمحو العدل الفساد، ويرتفع الظلم الذي اغتر به اللئم فساد»(129).

فالاقدام على هذه الحركة لا يقل في أهميته الدينية عن تأدية مناسك الحج، والسعي إلى البقاع المقدسة وهكذا ضمنت هذه الحركة أمن المناطق التي قصدتها «وشهدت أن ليس لمضيها جزاء إلا الجنة كالحج المبرور وبشرت المسلمين بالسعادة الشارحة للصدور»(130) كما ذكر ابن الحاج وهو يتحدث عن الرحلة.

فالهدف الرئيسي إذن هو العمل على استتباب الأمن في المناطق التي يشملها نفوذ السلطة المرينية، ويتمثل ذلك في تأمين الطرق، وإزالة العوائق أمام الحجاج، وتعتبر الرسالة التي خاطب بها أبو عنان الشرفاء والفقهاء والأشياخ والصلحاء والأعيان وغيرهم، وهو ببلدة المسيلة في عودته من رحلته، تعتبر تلخيصا لهذه الحركة وأهدافها، جاء فيها «وقد علمتم ما كان من إقامتنا بظاهر قسنطينة حرسها الله لتمهيد أوطانها التي نجمت بها الفتن وتسكين رعاياها التي طالما فجعتها المحن... فصلحت أمورها بعد الفساد، وأحيى الله بها كلمة العدل الصادق الاشهاد»(131).

ــ تدوين الرحلة :

وأول ما يعلمه القارىء، من خلال ما بقي من مقدمة الكتاب، أنه لم يصلنا بالشكل الذي تركه مؤلفه عليه، إذ جمعه ونسق أخباره وكتبه بخطه ابن أخيه ابراهيم

(128) فيض العباب ص 199 المطبوع ص 161.

(129) نفسه ص 81 المطبوع ص 58.

(130) فيض العباب 21 المطبوع ص 11.

(131) نفسه ص 328 المطبوع ص 273.

بن أبي عمرو بن الحاج ليرفعه إلى السلطان أبي فارس الثالث بن أبي العباس المتوكل قال محددا دوره وموضحا مسؤوليته : «وكان الكتاب متفرقا في تقاليد مبددة ووقائع مسددة، فطمح العبد ليكتسب الشرف الواضح السبيل والثناء الرائق الجميل بنسخ هذا الكتاب وتأليفه»(132).

ولعل التأليف الذي يعنيه هنا هو التنظيم والترتيب، لا الخلق من عدم، لأن فيض العباب يتحدث عن قضايا ويورد أخبارا حضرها النميري بل كان طرفا مهما فيها.

فهل ما كتبه ابن الحاج إذن لا يعدو أخبارا ومذكرات ومعلومات وقصائد ورسائل ووثائق مختلفة مما دونه في هذه الرحلة أو كان قد أنشأه بنفسه على غرار ما كان قد فعله وهو بصحبة أبي الحسن المريني ؟

من الصعوبة التماس جواب حاسم، لأسباب عديدة في مقدمتها صعوبة التمييز بين أسلوب الكتاب كله، وأسلوب المقدمة التي مهد بها الناسخ، فأسلوب يلتزم فيه صاحبه السجع وانتقاء الألفاظ ومراعاة التوازن بين الجمل، وتعاقبها على معنى واحد... مما يبين عن مستوى الناسخ الرفيع الذي لا يقل عن مستوى عمه ابن الحاج النميري، فمن العسير إذن الاهتداء إلى جعل حد بين أسلوب كل من الرجلين.

ثغرات في الرحلة :

والمهم أن الكتاب بشكله الذي وصلنا به لايخلو من نقص، زيادة على ما أصابه من بتر وخروم إليها سابقا، فالقارىء المتمعن يتفطن إلى ثغرات كثيرة لا ندري من يتحمل مسؤوليتها، هل الكاتب أو الناسخ ؟

ولعل الناسخ لم يهتد إلى قراءة بعض الكلمات فيما دونه عمه أو لم يتأكد من الوجه الصحيح لهذه القراءة، فترك بياضا ظل ثغرة في الرحلة التي بين أيدينا، ومن المؤسف أن بعض هذه الثغرات تواريخ لتنقل أبي عنان أو وقوع معركة أو إعلان نصر (133).

وإن كنا في بعض فقرات هذا الكتاب وصفحاته، نكاد نقتنع بأن مسؤولية بعض هذه الثغرات لا يتحملها الناسخ وحده، فلقد أخبرنا ابن الحاج النميري بأنه

(132) نفسه ص3، المطبوع ص 1.

(133) فيض العباب ص 263، 323 المطبوع ص 116، 272.

هو الذي أنشأ كتابا بمناسبة فتح بلد العناب لكنه عوض أن يدرج نص الكتاب في هذا السياق يخبرنا بأنه «ذهب وانصاع، وكان زهرا بمجتمع رياح فلا غرو وأن ضاع»(134).

وهناك ثغرات أخرى من السهولة تبينها، فالكاتب قد وعد بالرجوع إلى التفصيل في بعض الأخبار مع أنه لم يفعل، كما أشار إلى أنه قد سبق ذكر بعض الأحداث والأخبار مع أنه لم يكن قد فعل فيما هو بين أيدينا الآن من هذا الكتاب.

وإذا كنا نقبل منه السلوك الأول ونحمله على النسيان أو ضيق الوقت لكونه لم يستطع تنفيذ كل ما كان قد جعله ضمن مشروعه، فكيف يمكن أن يقع ذلك بالنسبة لأشياء يذكر بأنه سبق تفصيلها ؟ فليس هناك إذن إلا تفسير واحد وهو أن الكتاب تعرض لبتر أو حذف أو ضياع أجزاء منه.

فلقد تحدث النميري عن صاحب زراية الذي تشفع له ابن مزني عند أبي عنان فقبل شفاعته، وأحله مكانا رفيعا، إلى أن صدرت عنه أشياء وعدنا النميري بالتفصيل فيها فيما بعد، مع أنه لم يعد إلى هذا الموضوع من جديد(135)

وأشار إلى معركة التقى فيها جيش أبي عنان بالجيش الرومي، تلك المعركة التي رجحت فيها الكفة للجانب المريني، فأملى المسلمون على الروم الشروط «وخلعوا السنة النواقيس بحلم الأذان وكسروا أصلاب الصلبان»(136)، إلا أنه يسكت عن تفاصيل هذا الحدث الهام مكتفيا بقوله : «وخبر هذه الحركة قد تقدم في هذا الديوان»(137) مما يزيدنا اقتناعا بما رجحناه من قبل وهو أن أجزاء مهمة من الرحلة قد سقطت أو ضاعت.

محتوى فيض العباب

إن الرحلة التي وصفها وتضمن مراحلها كتاب فيض العباب واضحة المخطط والهدف، فقد كانت تستهدف الجهات الشرقية وبالتحديد قسنطينة وبلاد الزاب

(134) نفسه ص 196 المطبوع ص 160.

(135) فيض العباب ص 317 المطبوع ص 263.

(136) نفسه ص 41 — 42 المطبوع ص 27 — 28.

(137) نفسه ص 42 المطبوع ص 28.

لتأديب العصاة، وإعادة الأمن والطمأنينة إلى النفوس، وإشعار الكل بقوة الحكم المريني وهيبته.

وبالرغم من أن الاستعداد لهذه الحركة بدأ في فاتح رجب عام 757هـ لكنه لم يقع الشروع فيها إلا في 20 جمادى الأولى عام 758هـ أي بعد انصرام أحد عشر شهرا أمضاها أبو عنان في ترتيب الأمور وحل القضايا المختلفة حتى يتفرغ لهذا الأمر العظيم، وهكذا هيأ النفوس، ورتب الأحوال، للمضي إلى قسنطينة التي سيجعلها بهذه الحركة للأمن قرارا، ويثأر من عربها المثيرين للفتن بها[138]، لذا جهز اسطولا يقوده ابن الأحمر، وشرع في حشد الجيوش والمتطوعة.

إلا أنه وقبل الانطلاق في هذه الحركة قام أبو عنان بكثير من الأعمال الصالحة كحمل الناس على الصلاة[139]، وإخراجه أموالا عظيمة لأداء ما على المسجونين من الديون[140]، ورصد أوقاف لافتداء الأسرى[141]، وبناء المدارس والزوايا والمارستانات[142]، والتوسيع على المساكين والضعفاء[143]، وإصلاح المساجد والمؤسسات الدينية[144].

وبالاضافة لهذه الأعمال الصالحة فقد استجاب لرغبات الروم بابرام المعاهدات معهم، وهكذا وقع عهود الصلح مع كثير من ملوكهم مثل ملك البرتغال[145] وصاحب قشتالة[146] (والجنويين[147]، وسلطان أراغون[148]، وصاحب

---

(138) فيض العباب ص 18 المطبوع ص 9

(139) فيض العباب ص 21 المطبوع ص 11.

(140) نفسه ص 24 المطبوع 13.

(141) نفسه ص 28 المطبوع ص 16.

(142) نفسه ص 30 المطبوع ص 17.

(143) نفسه ص 31 المطبوع ص 18.

(144) نفسه ص 32 المطبوع ص 19.

(145) نفسه ص 41 المطبوع ص 27.

(146) نفسه ص 43 المطبوع ص 28.

(147) نفسه ص 46 المطبوع ص 30.

(148) نفسه ص 47 المطبوع ص 31.

ميورقة...[149] يقول النميري : «فما من رسول توجه عن مولانا أيده الله إلى ملك من ملوك الروم، وفض ختام الأماني يحمل الكتاب المختوم إلا وأعطاه الوفاء برسم فداء الأسرى وأحيى ذلك الفرض الذي ينال به الفوز في الأولى والأخرى، واشتد في ذلك اشتدادا انحلت به العقود»[150]، لكنه وبعد أن تهيأت لأبي عنان كل لوازم القيام بهذه الحركة السعيدة أراد أن تكون آخر أعماله زيارة أضرحة والديه وأجداده بشالة. وهكذا قام برحلة داخلية أخرى اتجه فيها نحو غرب البلاد.

وبالرغم من أن هذه الرحلة قصيرة جدا لكونها لا تشغل في فيض العباب أكثر من ثلاث عشرة صفحة[151]، إلا أنها هامة في التعرف على بعض المعالم والآثار بكل من الرباط وسلا، والتحدث عن أهم أنشطة أبي عنان ومنجزاته بالمدينتين معا.

وإذا كان النميري لم يرشدنا فيما دونه إلى تاريخ الشروع في هذه الرحلة الزيارية، أو تاريخ العودة منها، فاننا، مع ذلك، ندرك من خلال الاشارات الواردة في الكتاب، أن رحيله هذا تم خلال فترة الاستعداد المشار إليها آنفا، وهي فترة قاربت السنة، كما أننا نعرف عن طريق ما ورد في مصادر معاصرة، أنه قام بهذه الرحلة في عام سبعة وخمسين وسبعمائة، وهي السنة التي حاول فيها أبو عنان لقاء الشيخ ابن عاشر بسلا[152].

ولم تكن هذه الرحلة الزيارية «الميمونة» مقصودة في هذا الكتاب، بل أوردها المؤلف على أنها أهم الأعمال التي قام بها أبو عنان في نطاق الاستعداد لحركته الكبرى، لذلك لم يطل النميري في ذكر اخبارها، ولم يقف للحديث عن مراحلها ومنازلها، ولم يصف موكب السلطان وهو يقطع هذه المسافة الطويلة بين فاس والرباط، وهي نفس المسافة التي كانت تقطعها القوافل السريعة في ثمانية أيام، فالنميري نفسه قد أشار في مذكراته إلى أنه حين تأخر بفاس عن موكب السلطان أبي الحسن، لم يتمكن من اللحاق به في الرباط إلا بعد مرور ثمانية أيام كاملة[153]

---

(149) نفسه ص 47 المطبوع ص 31.

(150) فيض العباب ص 50 المطبوع ص 34.

(151) نفسه ص 53 ــ 66 المطبوع ص 36 ــ 46.

(152) النجم الثاقب ص 67 السلسل العذب ص 42، تحفة الزائر ص 3.

(153) مذكرات ابن الحاج 1734 ورقة 25 أ المرقونة ص 156.

وهكذا لم يتحدث النميري في هذه المدة الطويلة وهو بجانب أبي عنان إلا عن انصراف السلطان الى الصيد، فوصفه وصفا شاعريا رائعا[154]، أما ما يتعلق بالمراحل والمواقع فقد أجمل القول فيه إجمالا مخلا يقول : «ومازال مولانا أيده الله في سرور متجدد وخير بتردده في المنازل الكريمة متردد، حتى حل ركابه العلى رباط الفتح»[155]. وإذا كان النميري قد سكت عن كثير من مشاهداته، وهو بجانب أبي عنان في الطريق الى شالة، فإنه قد أمدنا ــ من حسن الحظ ــ بمعلومات مهمة عن أنشطة السلطان في كل من الرباط وسلا.

ومن هذه المدونات نعرف أن أهم ما ميز مقام أبي عنان بالرباط هو انصرافه إلى النشاط الروحي[156] وميله إلى الجانب الزهدي والصوفي، فلقد أكثر في هذه المدة من مجالس الذكر والوعظ، ورتب طلبة لقراءة القرآن في أوقات منتظمة، وأشرف بنفسه على دفن الشيخ أبي زيان أمام القبة العظمى بشالة[157]مظهرا عنايته بضريح هذا الولي، وأشرف أيضا في هذه القبة نفسها على دفن أخته الكريمة الحرة[158] وهي التي كان قد حضر من قبل دفنها بالبيضاء حيث توفيت، لكنه رأى أن نقلها إلى الرباط ودفنها بشالة أبلغ في برها وتكريمها، فشالة هذه تحتضن قبور الايالة المرينية الكريمة، ومن حرصه على البر بأجداده واسترداد الرحمة عليهم أنه رتب بهذه البقعة«الطاهرة» أفواجا من القراء يواصلون ختم القرآن صباحا ومساء[159].

ومن مظاهر تفقد أبي عنان لرعيته، وعمله على إشاعة العدل، وإزالة الظلم والفساد في الجهاز القضائي والاداري اطلاعه على السلوك السيء للقاضي البجائي «الذي حاد عن نهج السداد»[160] ثم الحاقه العقاب به جزاء انحرافه عن السلوك القويم.

---

(154) فيض العباب ص 54 المطبوع ص 37.

(155) فيض العباب ص 54 المطبوع 38.

(156) نفسه ص 54 المطبوع ص 38.

(157) نفسه ص 60 المطبوع ص 41.

(158) نفسه ص 55 المطبوع ص 38.

(159) نفسه ص 54 المطبوع ص 38.

(160) نفسه ص 61 المطبوع ص 42.

واتيح للنميري والوفد المرافق للسلطان، الوقوف على المدرسة التي كان ابو عنان قد بناها بشالة، ووصفها ابن الحاج النميري بأنها «مدرسة شامخة البناء وثيقة الأساس، منفسحة الارجاء، حيطانها كالأسوار، وسقفها كالفلك إلا أنه ليس بالدوار، لابسة البياض كالقراء إذا برزوا في أحسن ثيابهم»(161).

وهكذا يستمر في وصفه الرائع، لكن هذا الوصف ـــ مع الأسف ـــ قد ضاع وانمحى بسبب الخروم التي استهدفته، فلم نتمكن بذلك من معرفة المزيد عن هذه المدرسة.

ولم تقتصر أنشطة أبي عنان على الجانبين الروحي والاجتماعي، ولكنه اهتم أيضا بالجانب الحربي، إذ أعطى أمره باعداد الأجفان لتقوية الأسطول.(162)

وفي مدينة سلا كانت له أيضا أنشطة مهمة، تدخل ضمن الاطار الروحي الاجتماعي كدخوله الزاوية التي كان قد بناها للفقراء والمساكين «فجاءت من أبدع الزوايا وأنفس الخبايا»(163)، وتفقده للماريستان الذي كان قد شيده هناك لعلاج المرضى.(164)

ولا ندري لماذا سكت النميري عما أشارت إليه المصادر المعاصرة لهذه الفترة(165)، وهو ابداء أبي عنان رغبته في الاتصال بالشيخ ابن عاشر، والتماس نصحه ودعائه.

وتنتهي هذه الرحلة الزيارية، دون أن يذكر النميري باقي أنشطة السلطان أبي عنان، بل يفاجئنا بخروج الموكب السلطاني عائدا الى مدينة فاس.

ولقد أشار النميري من حسن الحظ إلى بعض المنازل التي توقف بها أبو عنان في طريق العودة من سلا والرباط، كنزوله بمقربة من شالة، وتوقفه بمرج

---

(161) نفسه ص 58 المطبوع ص 40.

(162) فيض العباب ص 61 المطبوع ص 42.

(163) نفسه ص 62 المطبوع 42.

(164) نفسه ص 63 المطبوع 43.

(165) انظر مثلا النجم الثاقب ص 67.

حمام،(166) وتوجهه إلى المعمورة التي استمتع فيها بالصيد على عادته،(167)،ومروره بالجمعة لزيارة ضريح مؤسس الدولة المرينية عبد الحق بن محيو،« وهو مدفون بالموضع المسمى بالجمعة في قبة تتصل بجامع شامخ البناء».(168)

ولم يتحدث بعد ذلك عن مرحلة أخرى أو منزل آخر توقف به أبو عنان أو مارس به نشاطا معينا، فلا نشعر إلا وأبو عنان يدخل مدينة فاس في سرور وحبور. يقول : « ولم ينشب أيده الله ان قدم على حضرته العلية في طالع السعود ووفد عليها وفادة الغيث على التهائم والنجود»(169)ويخصص النميري حيزا هاما لوصفه مؤسسات أبي عنان ومنجزاته بفاس، وعلى الخصوص الزاوية العظمى(170)التي كان قد أمر ببنائها. ولقد أطال النميري في وصف هذه الزاوية وما امتازت به من جمال وروعة، وما خصها به أبو عنان من اهتمام إذ أشرف بنفسه على ترتيب الفقراء والمريدين بها، وتعيين مرتبات للقائمين بخدمتها، والانفاق بسخاء على تجهيزها وتحسين مرافقها، واسناد مسؤولية الاشراف عليها إلى أبي عبد الله بن أبي مدين.

الحركة إلى قسنطينة والزاب :

أما الرحلة الكبرى أو« حركة أبي عنان إلى قسطينة والزاب»فكان الشروع فيها في 20جمادى الأولى عام758 (171)، بعد انقضاء سنة كاملة أمضاها أبو عنان في تسوية قضايا داخلية وخارجية، وتنظيم أمور عديدة، والاستعداد بما يلزم لهذه الحركة.

وهكذا انطلق نحو الجهات الشرقية في موكب ضخم حشد له الأعداد الهائلة من الجيش والمتطوعة، واستعد له بما يلزم من العدد المتطورة والتجهيزات المهمة.(172)

---

(166) فيض العباب ص 64 المطبوع ص 44.

(167) نفس المصدر والصفحة.

(168) فيض العباب ص 65 المطبوع ص 45.

(169) نفسه ص 65 المطبوع ص 45.

(170) فيض العباب قص 67 ــ 77 المطبوع ص 47 ــ 56.

(171) نفسه ص 83 المطبوع ص 60.
ويؤرخ الناصري البداية في ربيع الأول عام 758 الاستقصاء 3 : 201.

(172) فيض العباب ص 83 ــ 95 المطبوع عن 60 ــ 71.

وكانت مدينة تازا هي المرحلة التي تكامل فيها وصول كل عناصرهذا الموكب في تنظيم وتنسيق رائعين. ومن أهم تلك العناصر تلك الجيوش الجرارة التي استعرضها أبو عنان هناك وأمر أفرادها« أن يميزوا بتلك الأباطح المتسعة تمييزا، ويعرضوا بتلك المسارح الرحيبة عرضا عزيزا»[173]واستعرض أيضا الفرق التي تمثل القبائل المختلفة، فمرت أمامه «قبيلا بعد قبيل، ورعيلا على أثر رعيل».[174] وتصدر هذه القبائل جميعها قبيل الخلط لمكانتهم السامية وصلتهم الوثيقة بالمرينيين، فهم أخوال أبي سعيد وقرابته، ثم تبعتهم القبائل الأخرى فأمراء العرب ووزراؤهم في ترتيب عجيب ونظام محكم[175]، مما أحدث الرعب في القلوب والخوف في نفوس الخارجين عن السلطة والمتمردين، فتركوا العناد واثارة الفتنة، وأسلموا قيادهم للسلطة الشرعية. وهكذا لم يجتز موكب أبي عنان بلدة المدية في المغرب الأوسط حتى بدأت الوفود تقدم عليه لتعلن البيعة والولاء والطاعة.

وأول من أخذ مبادرة المثول أمام حضرة السلطان الشيخ يعقوب بن علي الذي وفد على أبي عنان يتقدم وجوه القبائل وزعماءها، وأشراف العرب وسادتهم وأمراء أولاد هلال بن عامر وقادتهم.[176]وتتابع قدوم الوفود المبايعة، كوفد شيوخ أولاد يحيى، وإخوانهم أولاد ميمون وغيرهم من الأعراب،[177]كما قدم عليه وفد بجاية في موكب« غص بالفقهاء الأعلام»[178] فشمل أبو عنان الجميع بعطفه وإنعامه، وصرفهم إلى بلدانهم صرفا حسنا.

وحين نزول الموكب السلطاني ببلدة بني يمل، وفد عليه أيضا الشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن سلمة الأندلسي[179]، حاملامعه بيعات بلدان مختلفة كبيعة أهل قابس، وبيعة قفاقس، وبيعة قرقمة... وكل هذه البيعات المكتوبة تعلن التأييد وتعترف بشرعية السلطة المرينية. وبقي ابن سلمة هذا بجانب أبي عنان في صحبة الموكب السلطاني إلى أن دخل إلى قسنطينة ظافرا منتصرا.

---

(173) نفسه ص 97 المطبوع عن 72.

(174) نفسه ص 98 المطبوع ص 73.

(175) فيض العباب ص 98 المطبوع ص 73.

(176) نفسه ص 107 المطبوع ص 80.

(177) نفسه ص 110 المطبوع ص 82.

(178) نفسه ص 111 المطبوع ص 83.

(179) نفسه ص 114 المطبوع ص 86.

ويذكر النميري بأن تلاحق هذه الوفود على الموكب السلطاني لقي من أبي عنان الرضي والقبول، وأدخل عليه السرور فأمر بالكتابة[180] إلى المناطق المختلفة لابلاغ الأهالي خبر هذه البيعات، والانتصارات، ومظاهر التأييد التي يلقاها في كل مكان.

وهكذا فتحت مدينة بجاية أبوابها لاستقباله، وخرج إليه أهلها للترحيب به، فدخلها دخول المنتصر وسط جيوشه التي أقبلت«اقبال أمواج البحر إلى البر»[181] على حد تعبير النميري،وبذلك تعد هذه المدينة المرحلة الهامة في هذه الحركة، فمنها تم الإشراف على أهم بلدان المغاربة المختلفة، وبها تكامل وصول الجيوش المنضوية تحت لواء أبي عنان برا وبحرا. فبمقدم أبي عنان لهذه المدينة رسا بمينائها أسطوله الضخم الذي يصفه النميري بقوله : « فما شوهد أبدع من تلك الأجفان السعيدة وقد قرعت طبولها التي حكت اصطكاك أجرام الهواء»[182].

ومن أجل التعرف على هذا البلد وامكانياته المختلفة، والعمل على ضبط أموره، ركب أبو عنان أحد قوارب هذا الأسطول وتجول في جنبات بجاية وشواطئها، وكان بصحبته في هذه الجولة الاستطلاعية التفقدية ابن الحاج النميري الذي ازداد بذلك تشريفا واحتراما[183]. ولقد تاتي له بعد ذلك وهو ببلاد بني سيلين أن يعلن في القبائل بأن« مطالب العرب قد ارتفعت عن الأوطان، وأكفهم قد كفت عن الأقاليم والبلدان وضرائبهم قد أزيلت».[184]

وتوالت انتصاراته في كل البلدان التي مر عليها في طريقه، إلى أن وصل إلى مدينة قسنطينة[185] التي كانت هدفه الأساسي من الحركة، ففتحت أبوابها لموكبه، ورفعت أعلام التأييد والولاء لسلطة بني مرين وسيادتهم، وتم ذلك بعد حوالي ثلاثة أشهر من خروجه من فاس، فتاريخ دخوله لقسنطينة، وإن لم يشر إليه النميري، إلا أن ابن قتفد يحدده بـ 12 شعبان عام 758هـ[186]. وصارت هذه المدينة بعد

---

(180) نفسه ص 115 المطبوع ص 87.

(181) فيض العباب ص 119 ـ 126 المطبوع ص 91 ـ 97.

(182) نفسه ص 127 ـ 131 المطبوع ص 97 ـ 102.

(183) نفسه ص 133 المطبوع ص 104.

(184) نفسه ص 137 المطبوع ص 108.

(185) نفسه ص 143 ـ 147 المطبوع ص 113 ـ 118.

(186) الفارسية ص 182، العبر 7 : 618.

انقيادها لأبي عنان وفتح أبوابها وحصونها له، حضرته ومقرا لحكمه، منها تنطلق الجيوش وتصدر الأوامر، وتبعث الرسائل والوفود، وتستقبل البعثات ووفود القبائل المبايعة فدخول قسنطينة سهل عملية الاستيلاء على المناطق الأخرى، والقضاء على العصاة والمتمردين. وبعد أن تم له الأمر بالقضاء على المناوئين، انصرف إلى ترميم البلاد، وانجاز اصلاحات ومشاريع، كاستكثاره من آلات الحصار، ونصبه لوسائل الدفاع المختلفة، وبنائه أبراجا بباب الحمة، وباب القنطرة وباب الجابية... وتدميره حصون الأعداء، وازالة شعاراتهم...[187].

فاقتنع المخالفون لبني مرين والمعارضون لهم بأنهم لا طاقة لهم بما شاهدوه من قوة أبي عنان عددا وعدة، خاصة بعد أن استعرض جيوشه بالفحص الأبيض في قسنطينة[188]، ولم يبق حينئذ للأمير الحفصي أبي العباس صاحب قسنطينة إلا أن يعترف بالسيادة لأبي عنان طالبا صفحه عما صدر منه، فرفعت الرايات المرينية وأزيل كل أثر لبني حفص هناك[189]، وأمر أبو عنان كاتبه النميري صاحب فيض العباب بأن يعلن هذه البشرى، ويكتب إلى الشرفاء والفقهاء والوجوه والأعيان والأعضاء والخاصة والعامة في مختلف الأقاليم والمناطق بخبر هذا الفتح العظيم[190].

ولقد كان الاستيلاء على قسنطينة ــ كما ذكرناه ــ الهدف الأول من حركته، لذلك عم الفرح بهذا الانتصار، وأقيمت مجالس تقبل فيها أبو عنان التهاني واستمع إلى قصائد الشعراء[191]. إلا أن هناك عناصر سعت إلى الفتنة، وأعلنت خروجها عن أبي عنان، كأولئك الذين شقوا عصا الطاعة بعد أن أبدوا اعتراضا على التكريم الذي لقيه الأمير الحفصي المذكور من أبي عنان. أو أولئك الفقهاء الذين عارضوا في انتقال السلطة إلى بني مرين، ومن هؤلاء الفقهاء الخطيب حسن بن خلف بن باديس، وأخوه أبو القاسم[192]. ولكن تم إخماد هذه الفتنة بسرعة، وألقي القبض

---

(187) فيض العباب ص 148 ــ 152 المطبوع ص 118 ــ 122.

(188) نفسه ص 153 ــ 162 المطبوع ص 123 ــ 131.

(189) نفسه ص 163 ــ 168 المطبوع ص 131 ــ 135.

(190) نفسه ص 168 ــ 173 المطبوع ص 135 ــ 139.

(191) نفسه ص 173 ــ 180 المطبوع ص 139 ــ 144.

(192) نفسه ص 180 ــ 184 المطبوع ص 145 ــ 148.

على دعاة الانشقاق والتفرقة فأرسلوا إلى فاس، وفي المقابل كوفىء الذين ثبت إخلاصهم لأبي عنان، كالشيخ حسن بن خلف الله بن القنفد الذي قربه منه واستعمله في خدمته[193].

وبعد أن عم الأمن الربوع في قسنطينة وما حولها، ولم يبق بها منازع لسلطة أبي عنان، وقع الاهتمام حينئذ بتنظيم البلاد وإصلاح أمورها، فرصد أموالا مهمة لانعاش الأحوال الاقتصادية[194] التي وصفتها بعض المصادر المعاصرة بالتدهور، والغلاء الشديد[195].

وذكر النميري بأن أبا عنان أكثر من الانفاق لتغيير مستوى معيشة أهالي البلاد، فتصدق على الضعفاء والمساكين، وأمر بتأدية الديون عن المسجونين العاجزين عن الأداء، والأموات، والانفاق على المسجونين الضعفاء. كما أمر بإقامة احتفال ليلة المولد النبوي على الطريقة المعهودة، ورتب بالجامع الأعظم في قسنطينة جملة من القراء، وفرض مرتبات لشيوخ مساجدها...

وابن الحاج النميري نفسه هو الذي كتب ظهيرا بهذه الأعمال. ثم بدأ أبو عنان تنظيم الجهاز الاداري بتخير ولاة الأقاليم، وتعيين صاحب الصلاة، فصلحت بذلك أمور الدين والدنيا معا[196].

وأثناء هذه الفترة أعلن بلد العناب طاعته لأبي عنان وانضواءه تحت لوائه، بعد أن كان قد أغلق أبوابه أمام جيوش السلطان، وتمنع بقيادة ابن تفراجين ثم بقيادة خلفه قاضي البلد محمد بن عبد السلام الفحصبلي الذي ما فتىء أن استجاب لميل الأهالي إلى بيعة السلطان ورغبتهم في القدوم عليه، فقدم على أبي عنان بقسنطينة على رأس وفد ضم وجوه البلد وأعيانه إظهارا للطاعة وتعبيرا عن الولاء، فصفح أبو عنان عن خطايا هذا القاضي، لذلك اكتفى في عقابه له بارساله إلى الغرب حيث سجن[197].

---

(193) نفسه ص 185 المطبوع ص 148.

(194) فيض العباب ص 186 ــ 187 المطبوع ص 149 ــ 150.

(195) الفارسية ص 180.

(196) فيض العباب ص 187 المطبوع ص 151.

(197) نفسه ص 188 ــ 194 المطبوع ص 151 ــ 156.

وتزامن مع هذه الأحداث اظهار كثير من البلدان رغباتها في الدخول تحت امرة سلطة من بني مرين.

وهكذا قدم أهل بلدة نفطة لتقديم بيعتهم للسلطان، وإعلان ولائهم، فلقى ذلك رضى وقبولا من أبي عنان[198] الذي صرفهم صرفا حسنا. وقدم أيضا *الوفد التونسي مرغبا السلطان* في التوجه إلى فتح بلدهم، لأن أهل هذا البلد يتشوفون إلى الانضمام إلى حكم أبي عنان الذي لم يجد بدا من تلبية رغبتهم بالرغم من أنه لم يكن ينوي الوصول إلى تونس في هذه الحركة[199].

وهكذا ــ وبعد أن حصل منهم على الرهائن والضمانات ــ عين جيشا كثير العدد بقيادة الشيخ أبي زكرياء يحيى بن رحو للانصراف معهم إلى فتح هذا البلد[200]. وأمر في نفس الوقت قواد أساطيله بالتوجه إلى السواحل، فلم ينفع ابن تافراجين حاكم تونس حينئذ إلا الفرار ليلا خوفا من هذه الجيوش البرية و البحرية التي لاقبل له بها، وبذلك تم الاستيلاء على تونس بسهولة، واهتم الرئيس ابن الأحمر قائد قواد أساطيل بني مرين بضبط البلد وتلقي[201] بيعة أهله إلى أن وصلت الجيوش المرينية البرية التي يقودها أبو زكرياء ابن رحو، الذي تسلم مسؤولية تسيير تونس من يد ابن الأحمر، فأحكم ضبط الأمور، والتزم بالوفاء بما بيد العرب من العهود التي نصت عليها الظهائر والسجلات، وعاقب المفسدين المثيرين للقلاقل، والمعتدين على الأموال والأنفس، فطردهم عن المدينة وأبعد خطرهم عن الناس، فاستبشر الناس خيرا وصلحت أحوالهم[202]. ولما وردت لقسنطينة أخبار هذا الفتح والوفود المقدمة للبيعة والمظهرة للطاعة، عمت الأفراح[203]، فأقيمت الاحتفالات وعقدت المجالس لتقبل تهاني الشعراء[204]، وكتبت الرسائل لابلاغ

---

(198) نفسه ص 196 ــ 197 المطبوع ص 158 ــ 160.

(199) فيض العباب ص 199 المطبوع ص 161.

(200) نفسه ص 205 المطبوع ص 166.

(201) نفسه ص 206 ــ 216 المطبوع ص 167 ــ 176.

(202) نفسه ص 217 المطبوع ص 176 ــ 177.

(203) نفسه ص 218 ــ 222 المطبوع ص 177 ــ 181.

(204) نفسه ص 228 ــ 232 المطبوع ص 186 ــ 189.

هذه الأخبار المفرحة إلى الأقاليم المختلفة، حتى يعرف الجميع ما صادفته هذه الحركة من توفيق وما حصلت عليه من نصر في كل مكان حل به موكب أبي عنان[205].

وهكذا أصبحت للجيش المريني هيبته، وأضحى أسطول المرينيين ذا منعة وقوة، قادرا على حراسة السواحل وردع المتسللين والقراصنة. ففي هذه الفترة أخذ جفن للروم وأسر كل من كان فيه، ثم اقتيدوا جميعا للمثول أمام أبي عان[206] فلم يجرؤ أحد بعد ذلك على مواجهة هذه القوات، لذلك توالت البيعات وتكاثرت وفود القبائل والبلدان التي تستبق إلى تقديم طاعتها وولائها للسلطان أبي عنان، فدانت المغارب كلها له بالاذعان والطاعة، واعترف الجميع بسيادة السلطة المرينية فأمنت السبل وعمت الطمأنينة...[207].

لكن في هذا الوقت كانت حركات التمرد قد سرت ـــ مع الأسف في صفوف العرب الخارجين عن طاعة أبي عنان المريني، وكان أول من أعلن هذا التمرد وجاهر بموقفه العدائي للمرينيين هو يعقوب بن علي شيخ رياح[208]، ثم أعلن التمرد أيضا أولاد سباع، ولكنهم سرعان ما أتو إلى السلطان واستسلموا أمام قوته، وامتثلوا لأحكامه، بل صاروا من أتباعه، معلنين الطاعة لما يصدر عنه من أوامر[209]، ولقد سلكت توبة أيضا طريق التمرد والعصيان، لكنها منيت كذلك بهزيمة شنعاء أمام حاجب الخلافة الشيخ أبي عثمان سعيد بن موسى[210].

فلم يكن أمام أبي عنان في هذا الوضع المضطرب، إلا التوغل في الصحراء لملاحقة المتمردين من العرب، وانزال العقاب بهم، فخرج بنفسه على رأس جيوشه في هذه الحملة التأديبية، إلا أن حركة مثل هذه محفوفة بالأخطار والمتاعب لذا استعد لهذا نفسيا وماديا، فأنعم على جيشه بعطايا ومكافآت، وهيأ ما يلزم لمواجهة طبيعة الصحراء القاسية، كاعتماده على الجمال في حمل الأثقال، والتزود بما يكفي من الأطعمة في هذه الوجهة الخطيرة[211].

---

(205) نفسه ص 222 ـ 228 المطبوع ص 181 ـ 186.

(206) نفسه ص 194 ـ 195 المطبوع ص 157 ـ 158.

(207) فيض العباب ص 232 المطبوع ص 189.

(208) نفسه ص 243 ـ 246 المطبوع ص 198 ـ 201.

(209) نفسه ص 251 ـ 256 المطبوع ص 205 ـ 209.

(210) نفسه ص 256 ـ 259 المطبوع ص 210 ـ 212.

(211) نفسه ص 261 المطبوع ص 215.

وجولته هذه في القبائل والبلدان الصحراوية تهدف إلى الانتقام من المتمردين والمثيرين للفتن، وتسعى إلى ادخال الرعب في قلوب الأعراب،واقناعهم بضرورة ترك الشغب، والادعان للسلطة الشرعية، لذلك اختار أبو عنان في هذه الحركة أسلوب الحرق والهدم والتخريب.

فلقد هدم في تيجمامين قصرعثمان بن علي الرياحي، وقصر ابن عمه سعيد بن موسى الرياحي[212].

وقضى ليلته في باتنة ليتمكن بها من« تعفية ما بقي من رسوم القصور اللميسية والقلاع...»[213]

وعندما وصل إلى حضيض جبل أوراس أمر بمحو آثار قصر يعقوب بن على المتقدم الذكر وتحطيم أسواره[214].

أما في الوطاية فقد أمر بهدم الحصن المعروف بالجديد، واضرام النيران فيه[215].

وأوعز الى جيوشه بهدم حصن فلق الشامخ[216] العالي البناء. وفي طولقة من بلاد الزاب أمر بالقبض على صاحبها وحزبه مع هدم قصبته[217]. واستئصاله جميع ما بها من النخيل، فلم تمض ستة أيام حتى قضى على كل أشجارها «فكأنه طالب حدائقها بالأوتار ولم يغض عما شجر بين الأشجار، وما هو إلا القهر للمفسدين الأشرار»[218].

وحين وصل إلى سفيان، أمر وزيره أبا على الحسن الفودودي بهدم ذلك الموضع وتعفية آثاره بمساعدة حاجب الخلافة المذكور[219].

---

(212) نفسه ص 264 ـ 266 المطبوع ص 217 ـ 219.

(213) نفسه ص 270 المطبوع ص 222.

(214) فيض العباب ص 271 ـ 273 المطبوع ص 223 ـ 225.

(215) نفسه ص 276 المطبوع ص 228.

(216) نفسه ص 279 المطبوع ص 230.

(217) نفسه ص 285 ـ 287 المطبوع ص 235 ـ 237.

(218) نفسه ص 299 المطبوع ص 246.

(219) نفسه ص 311 المطبوع ص 257.

وعين حاجبه كذلك بهدم قلاع ريغة التي كانت «مأوى لكل سارق ومنافق» فتوجه بجموع من الخيل والرجال وآلات الهدم وعفي على تلك القلاع[220].

ووجه فرقا من جيوشه لهدم قصور زراية، إلا أنه تراجع عن ذلك مراعاة لمنزلة ابن مزني عنده[221].

وعاد اثر ذلك الى قسنطينة في 12 شوال عام 758هـ وقد «أمن الناس أمان حمائم الحرم، ولم يروا الموت أفضل نزال على الحرم وساروا حيث شاءوا وكما شاءوا بالنعم والنعم»[222].

وبهذه الحركة الزابية قد حقق أبو عنان كل الأهداف التي رحل من أجلها، بل حصل على أكثر مما يطمح إليه بدخوله تونس، إضافة إلى استيلائه على قسنطينة، وفرض سيادته على القبائل العربية وغيرها ببلاد الزاب.

ومع ذلك فقد صمم العزم على دخول بلاد توبة أيضا لاسترجاع ما بأيديها من القلاع[223]، والتوجه إلى تبسة «التي هي مركز دائرة الأقاليم، ومجمع الأوشاب الاعرابية والأصاميم»[224]، ذلك أن صاحب هذا البلد أرسل إلى أبي عنان يخبره بنزول أولاد أبي الليل هناك مؤازرين بقبيلة رياح، فارين من القائد أبي زكرياء يحيى بن رحو المذكور[225]، لذا عزم أبو عنان على استئصالهم جميعهم.

وهكذا خرج الموكب السلطاني من قسنطينة قاصدا هذه المناطق التي التجأت إليها القبائل والعناصر الفارة، حتى نزل بتحسست وهو مكان صحراوي قفر، فالماء فيه أعز من المال، إلا أن أولاد أبي الليل سارعوا إلى الفرار في الصحراء تجنبا للقاء الجيوش المرينية، مما جعل أبا عنان يعدل عن ملاحقتهم وتتبع أثرهم، فاتباعهم يعد مغامرة غير مأمونة العواقب، للطبيعة الصحراوية القاسية، ولتساقط الأمطار

---

(220) نفسه ص 312 المطبوع ص 258.

(221) نفسه ص 317 المطبوع ص 263.

(222) نفسه ص 320 المطبوع ص 265.

(223) فيض العباب ص 322 المطبوع ص 268.

(224) نفسه

(225) نفسه

والثلوج...[226] بل إن هناك عاملا آخر جعل أبا عنان يعدل عن المقام في مدينة قسنطينة والبلاد المشرقية ويفكر في العودة إلى حضرته فاس، وهذا العامل يتمثل فيما طرأ على النفوس من انعدام الثقة، وما طبع علاقة أبي عنان بمساعديه من توجس وحذر بعد أن نجح عمر بن ميمون بن أمصمود في زعزعة تلك الثقة التي كانت متبادلة بين السلطان ووزيره أبي زيان فارس بن ميمون ودرار، إذ استطاع عمر بن ميمون اقناع السلطان بمطامع الوزير ومطامحه الخطيرة، وأبلغه وشاية كاذبة وهي أن الوزير جاهر بعصيان أوامر السلطان بامتناعه عن إكرام رجال تبسة وإنزالهم ضيوفا عنده[227] وأوهمه أيضا أن الوزير متفق مع شيوخ بني مرين على غدره، وحبك مؤامرة ضده[228].

فكان لكل هذا أثره في نفسية أبي عنان الذي صدق هذه الوشاية وغضب على الوزير«فأوسعه توبيخا وتقريعا، وسبه على رؤوس الحاضرين سبا شنيعا، ولم يكن وبخه مدة خلافته ولا سبه»[229] وأضحى لا يفكر بعد ذلك إلا في اللحاق بحضرته مدينة فاس.

وبالطبع فان عدوله عن توغله في الصحراء لملاحقة الأعراب، ومواصلته حروب الهدم والتخريب، بالاضافة إلى سريان شعور الحذر وسوء النية في النفوس، كل هذا أذكى عزمه على العودة من هذه الحركة بأسرع وقت ممكن مما أشاع السرور والفرح في محلاته جميعها، فجيوشه قد «سئمت من قطع المراحل وإنضاء الرواحل وصدع الفلوات والمجاهل[230]».

وتمهل أبو عنان في قسنطينة يومين حتى اكتمل الاستعداد لرحيل العودة، ثم غادرها متجها بجيوشه نحو المغرب، سالكين الطريق الصحراوي «إشفاقا على حملة الأثقال من سلوك عراعر الجبال[231]» كما ذكر النميري.

---

(226) نفسه ص 326 ـ 328 المطبوع ص 270 ـ 272.

(227) نفسه ص 326 المطبوع ص 270 ـ 271.

(228) نفسه ص 327 المطبوع ص 272.

(229) فيض العباب ص 326 المطبوع ص 271.

(230) نفسه ص 327 المطبوع ص 272.

(231) نفسه ص 328 المطبوع ص 273.

وحينما وصلوا إلى بلدة المسيلة، أمر كاتبه النميري بإنشاء كتاب إلى الطبقات النيرة في الأقاليم المختلفة معلما اياها بتفاصيل انتصاراته وأخبار حركاته وجولاته. فلقد تمت «هذه الحركة المباركة على أفضل ما يتمنى مخير أن يكون»(232). ورغم أن النميري يسلك مع الموكب هذا الطريق الصحراوي لأول مرة فإنه ـــ مع الأسف ـــ لايصف المراحل والمنازل التي صادفوها في طريقهم، وإنما ينتقل فجأة إلى الحديث عن دخول الموكب لتلمسان وما خصص له من استقبال رائع، وكان النزول في الصفيصيف ثم في منزل يمامة(233).

وتكاد انشطة أبي عنان تقتصر على زيارة أضرحة الأولياء والصالحين، فلقد زار ببقعة العباد ضريح شيخها أبي مدين، واتجه إلى ضريح أبي اسحاق الطيار فصلى هناك العصر وتوسل بأدعية(234).

ويتحدث النميري عن آثار معمارية ومؤسسات يرجع الفضل في تأسيسها إلى أبي عنان كجامع الخطبة الأعظم، والزاوية، والمدرسة... وإن كنا نرجح أن هذه الانجازات ربما حدثت في فترات سابقة لهذه الحركة، إذا لم يبق بهذه المدينة أثناء عودته من حركته وقتا يمكنه من القيام بهذه الأعمال العظيمة(235).

وهكذا، فبعد زيارته للأولياء، وتفقده أحوال المدينة، غادرها في اتجاه حضرته، إلا أنه وابتداء من مدينة وجدة أخذ يحاسب مرافقيه في الموكب على كل ما صدر منهم، مما يعتبر خيانة، أو إخلالا بالأمن، أو استهانة بالواجب، وبدون شك فإن أغلب هؤلاء كانوا ضحية وشاية كاذبة، فمن السهولة في تلك الظروف الاتهام بالتآمر والشك في النوايا، مما جعل أبا عنان يتنكر هناك لأقرب أقربائه بازالة ما كان يتمتع به من امتيازات ونعم، ثم مناقشته الحساب واسلامه أمامه إلى السجن(236).

---

(232) نفسه ص 328 ـ 331 المطبوع ص 273 ـ 276.

(233) نفسه ص 332 المطبوع ص 276.

(234) نفسه ص 334 المطبوع ص 278.

(235) فيض العباب ص 335 المطبوع ص 279.

(236) نفسه ص 336 المطبوع ص 280.

وباجتيازه لمدينة تازا اتخذ مواقف أخرى لملاحقة كل من له مسؤولية ـ في اعتقاده ـ في افشال الحركة، فأصدر مراسيم بأخذ الهاربين، وأمر بثقاف جملة من الأشياخ..[237]

وهكذا وبعد الاحتفاء به في حضرته وقد عاد إليها ظافرا في موكبه الفخم المهيب، بدأ في تنفيذما كان يؤجله قبل وصوله لفاس، فلقد أمر بحمل الوزير ابن ودرار إلى السجن إلى أن يتم اعدامه، وألقى القبض أيضا على جملة من شيوخ بني مرين وعلية القوم[238]. وكانت عودته لفاس في غرة ذي الحجة من عام 758هـ[239].

وقد ساق ابن قنفد بعص تفاصيل هذه الأحداث، وما صاحبها من تدابير زجرية فقال : «...وعند رجوعه إلى المغرب عاقب أكثر الناس لا بايتهم عن التشريق وثقف في غدوة يوم وروده مدينة فاس أربعة وتسعين شيخا من شيوخ بني مرين وقتل وزيره فارس بن ودرار وجماعة من وجوه الجند وثقف الفقيه الذي أرسل لابنة الخليفة وهوالمحدث أبو عبد الله محمد بن مرزوق التلمساني[240].

وصف المسالك والأماكن :

ومن هذا التلخيص لكتاب «فيض العباب»، وما حواه من أخبار، وما أشار إليه من مراحل وبلدان، تبين لنا أن هناك رحلتين أولاهما قصيرة تدخل ضمن الاستعداد للحركة الكبرى، وتنحصر رحلته القصيرة هذه بين فاس والرباط، قام بها من أجل زيارة أضرحة المرينيين بشالة.

وكان بالامكان أن تكون أهم رحلة تصف المسالك والطرق، وتتحدث عن المنازل والأماكن بين مدينتين، نظرا لقلة هذا النوع من الرحلات الداخلية كما ألمحنا إلى ذلك من قبل. ولكن النميري قد أوجز ـ مع الأسف ـ في هذه الرحلة ايجازا فوت علينا التعرف على كثير من هذه المراحل والمنازل. فاهتمامه في طريقه ورحلته

---

(237) نفسه ص 341 ـ 342 المطبوع ص 284 ـ 285.

(238) نفسه ص 342 ـ 348 المطبوع ص 285 ـ 292.

(239) تاريخ ابن خلدون 7 : 619، الاستقصاء 3 : 203.

(240) الفارسية ص 175.

كلها كان منصبا على صاحب الرحلة ومنفذها أبي عنان، تحدث عنه وهو يتسلى بالصيد في الذهاب والأياب، أو وهو يقف على ضريح جده عبد الحق بالموضع المعروف بالجمعة يستلهم التوفيق والبركات بأضرحة شالة ومؤسساتها الروحية.

ومن هنا لم يكن النميري يحرص على ضبط التنقلات والتحركات في هذه الرحلة بتحديد زمني واضح، مما جعلنا نعجز نحن أيضا عن معرفة تواريخ هذه الرحلة الزيارية، ونقف أحيانا كثيرة عند حدود التخمين والافتراض لمحاولة تعيين هذه التواريخ.

فلقد أشار إلى أنه وقع الشروع في هذه الرحلة الزيارية بعد أن « أفاق مولانا أيده الله من المرض المذكور»[241].

والنميري لم يذكر فيما مضى مرضا واحدا، إذ سبق أن أخبرنا بأن أبا عنان قد اعتراه مرض حاد «بشر بالحسنى» على حد تعبيره، شفي منه بعد سبعة أيام فقط، وكان ذلك في شهر رجب عام 757هـ[242].

كما أخبرنا أيضا بأن هذا المرض قد عاوده مرة أخرى بعد أن عمت البشرى بشفائه وجلس لتقبل تهاني الشعراء[243]، ولعله هو الذي يعنيه حين يقول : «كان استقلال مولانا أيده الله من المرض الذي ذكرنا عوده في شوال من عام سبعة وخمسين وسبعمائة[244]»فهل قام أبو عنان برحلته الزيارية هذه بعد شهر رجب من عام 757هـ ؟ أم أنه لم يرحل إلا بعد شوال من نفس السنة؟

ليس باستطاعتنا الآن الاطمئنان إلى رأي واضح بالاعتماد على هذه الاشارات المذكورة، وإن كنا نميل إلى ترجيج الاحتمال الثاني، فزيارته لاضرحة شالة تكاد تكون آخر أعماله قبل الشروع في حركته الكبرى نحو قسنطينة والزاب كما سبق تفصيل ذلك، بينما كان في الفترة الأولى منصرفا إلى تلك الأعمال الصالحة، والاصلاحات المهمة التي باشرها من حضرته فاس وهو يمهد للقيام بالحركة. وأهم

(241) فيض العباب ص 53 الكتاب المطبوع ص 36.

(242) نفسه ص 5 ـ 6 الكتاب المطبوع ص 2 ـ 3.

(243) نفسه ص 6 الكتاب المطبوع ص 3.

(244) فيض العباب ص 33، الكتاب المطبوع ص 19.

ما تضمنته هذه الرحلة الزيارية، الحديث عن بعض المؤسسات التي أنشأها أبو عنان هناك، كالمدرسة التي أمر ببنائها في شالة، والزاوية والماريستان اللذين أعدهما بسلا للفقراء والمرضى ...أما الرحلة التانية فهي حركته التي خطط لها، ووفر لها كل عناصر النجاح، وهي المقصودة بتأليف كتاب «فيض العباب»، لذلك كانت أكثر تفصيلا فيه.

وتنحصر هذه الحركة — كما ذكرنا — بين فاس وقسنطينة مرورا بتازا والمدية فبجاية، ثم ينطلق الموكب لتنفيذ الشطر الثاني من هذه الحركة ويتمثل في جولته ببلاد الزاب ينزل خلالها في كل من تيجمامين، ولميس، وباتنة والقنطرة، وبسكرة، وطولقة، وتقاوس...

وكان سيكتب لهذه الحركة أن تتوسع، وتتخذ وجهة أو وجهات أخرى لم تكن من أهدافها، لولا أن أمورا وعناصر جديدة نسفت كل ما رواد أبا عنان وهو مقدم على الخروج من قسنطينة في اتجاه الشرق، لمواصلة ملاحقة الأعراب في بلاد توبة، وهكذا لم يستطع تنفيذ ما عزم عليه، بل كر راجعا بعد مرحلتين فقط لأسباب أشرنا إلى بعضها.

وبالرغم من أن النميري فصل في كثير من الأخبار والأوصاف، إلا إننا مع ذلك نلمح ثغرات كثيرة في الرحلة مردها إلى أنه لم يكن يهتم بذكر كل المراحل والمنازل التي مر منها موكب أبي عنان، وإنما كان ينتقي منها بعض المشاهد واللوحات فقط، ويورد أهم الأحداث ويسجل بعض المجالس الشعرية والعلمية، وينص على بعض الرسائل والمكاتبات...

وهكذا نصاحب جميعا موكب أبي عنان منذ خروجه من فاس إلى المدية[245]، في مسافة استغرق قطعها حوالي شهر، فلا نجد من النميري اهتماما بوصف الطرق التي مر بها والأماكن التي نزل فيها، والمراحل التي قطعها، لأن اهتمامه الأكبر كان منصبا على مخدومه وما له علاقة به، وهكذا أطال في وصف جيشه وكثرة أعداد كتابه وروعة تنظيمه، وفصل في وصف المجلس الشعري الذي تطارح فيه الشعراء النظم الجيد، وتسابقوا في أفانين القول، حين نزل الموكب في عيون القصب، وقد توصل أبو عنان بكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني[246]، كما فسح هذه

---

(245) فيض العباب ص 83 — 107 المطبوع ص 60 — 80.

(246) نفسه ص 99 — 104 المطبوع ص 74 — 78.

الصفحات لوصف مجالس أخرى[247]، ترأسها أبو عنان أيضا تنوولت فيها بعض الكتب الأدبية كالكتاب العزيزي في تفسير غريب القرآن، ومجموع أشعار من مرويات أبي عنان نفسه. واكتفى في وصف حفل توديع أهل فاس لأبي عنان بإثبات أبيات قالها أبو عبد الله الفشتالي في وداعه[248].

شخصية أبي عنان في فيض العباب :

ولعل سبب إهماله لوصف الطرق والمسالك، وانصرافه عن التفصيل في المراحل والمنازل، وعدم تحديده بدقة لتواريخ الانتقال من هذه المرحلة أو تلك...، لعل سبب ذلك كله يعود إلى أن الاهتمام الكامل كان منصبا على صاحب هذه الحركة ومنفذها أبي عنان، حتى أضحى محور كل ما في فيض العباب من أخبار. فالكتاب وصف لأبي عنان، وتعداد لأعماله ومنجزاته في هذه الرحلة، وهو ذكر لما راج في مجالسه، وصورة لمواقفه ومبادراته. فصار فيض العباب وكأنه قطعة مترابطة متكاملة في مدحه.

وهكذا رسم له النميري صورة مثالية يبدو لنا من خلالها قويا، يتصف بالحكمة والحزم والورع وغيرها من الصفات النبيلة. ولقد أبرز قوته وشجاعته من خلال تنويهه أحيانا بعظمة جيشه وهيبة أسطوله، وحزمه في اتخاذ المواقف وحسم الأمور.

فالجيش الذي انطلق تحت قيادة أبي عنان في هذه الحركة، اتسم بالكثرة عدة وعددا، والانضباط في التحرك، والتغلب على الأعداء المناوئين. واهتمام النميري بالحديث عن هذا الجيش تكرر في مناسبات عديدة، إذ لم يترك فرصة إلا وأشار إلى بعض ما تميز به من صفات كالقوة والروعة والتنظيم.

فوصف استعراضه الذي ترأسه أبو عنان بفاس[249]، كما وصفه وهو متأهب للخروج في هذه الحركة[250] «السعيدة» ضمن الموكب الضخم. هذا الموكب

---

(247) نفسه ص 105 ـ 106 المطبوع ص 78 ـ 80.

(248) نفسه ص 95 المطبوع ص 71.

(249) فيض العباب ص 19 المطبوع ص 9.

(250) نفسه ص 83 ـ 94 المطبوع ص 60 ـ 71.

الذي أطال في وصفه وذكر عناصره حين استعرض أبو عنان بتازا كتائب جيشه من القبائل والأقطار المختلفة «فكادت تكاثر النجوم الطالعة في رفعة الفلك الدوار»[251] حسب وصف النميري.

وتحدث مرة أخرى عن هذا الجيش في ضواحي بلدة المدية بعد أن أصيب الأعراب بالرعب «مما شاهدوه من الجيوش التي ملأت الأرض حزونا وسهولا والكتائب التي فاضت على البسيطة سيولا»[252]، وحدث مثل هذا الرعب في نفوس أهل قسنطينة الذين أعلنوا استسلامهم بعد أن تكامل وصول هذه الجيوش بضواحي بلدهم «ورأوا أنه لا طاقة لهم بما شاهدوه عيانا، ولو أنهم اتخذوا جيوش كسرى بن هرمز أنصارا وأعوانا[253]» فندموا على ما صدر عنهم من تمنع وعصيان[254]، ولا غرابة في ذلك، فبقدر كثرة أعداد هذا الجيش وهيبته، بقدر ما اتسم به من تنوع في فرقه، وأسلحته، فلقد كان يضم فرسانا شجعانا يمتطون صهوات خيول أصيلة من مختلف الأنواع «بحار ركبتها بحار» ذكر النميري عشرة من هذه الأنواع التي كان يشتمل عليها هذا الجيش[255].

وأشار النميري إلى هذه الكثرة والتنوع حينما حلت هذه الجيوش ببلدة بسكرة[256]، بينما ركز على ما تتوفر عليه من الأفراس، والموكب يدخل إلى الحضرة فاس عائدا من الحركة، فذكر أربعة عشر صنفامنها[257] عدا الأنواع الأخرى التي لم ينص عليها في وصفه.

وإلى جانب الأفراس فقد كان هذا الجيش مجهزا بما يلزم من العدة المتطورة من دروع ومصفحات، ومغافر، وبيضات، وسيوف، ورماح[258].

---

(251) نفسه ص 98 المطبوع ص 73.

(252) نفسه ص 110 المطبوع ص 83.

(253) نفسه ص 153 المطبوع ص 123.

(254) نفسه 161 المطبوع ص 131.

(255) نفسه ص 157 ـ 158 المطبوع ص 126 ـ 127.

(256) نفسه ص 288 المطبوع ص 238.

(257) نفسه ص 345 ـ 348 المطبوع ص 289 ـ 291.

(258) فيض العباب ص 154 ـ 155 المطبوع ص 124 ـ 125.

واهتم النميري أيضا بالقوات البحرية المتمثلة في الأسطول الضخم القوي الذي ملأت أجفانه متسع الفضاء، فوصفه كذلك مرات عديدة، في مدينة بجاية وقد حضر لقاء أبي عنان لقواد هذا الأسطول، والذين زودهم بالنصائح والأوامر اللازمة بعد أن تفقد أجزاء هذا الأسطول ومعداته المختلفة المتطورة[259]، كما يشهد تفقده لبعض وحدات الأسطول بمرسى القل واجتماعه بقواده وولاته الذين «عهد إليهم بالشخوص على السواحل الأفريقية ليشرفوا على مراقيها ومراسيها وينبسطوا في أدانيها وأقاصيها»[260] كما جاء في وصف النميري.

من أجل هذا تجنب الأعداء مواجهة الجيوش المغربية بقواتها البرية وأساطيلها، بل طلبوا ودها وتقربوا إلى أبي عنان بالهدايا المختلفة، فذكر النميري أن كل ما أنعم به أبو عنان على ابن مزني من كسى مثقلة بالذهب وديباج وحرير... كان «مما أهدته ملوك الروم»[261]. ولا نعتبر هذا من قبيل المبالغة. فهذا الجيش المتنوع هو الذي كان قد ألحق بالروم الهزائم المختلفة فتسابقوا إلى طلب الصلح معه. ومن الذين أبدوا رغبتهم في إبرام معاهدة الصلح، ملك البرتغال[262]، وملك قشتالة[263]، وسلطان أراغون[264]، والجنويون...[265] فظهرت قوة المسلمين وافتدي أسراهم[266].

وقوة أبي عنان تتمثل قبل كل شيء، في شخصية المتميزة، والسمات التي عرفت بها هذه الشخصية، كالشجاعة في خوض الحروب واتخاذ المبادرات، والحزم في التسيير، والجرأة على إصدار الأوامر والنواهي...

فلقد بدا أبو عنان، من خلال فيض العباب، السلطان الكفء الذي لا يتوانى في إلحاق العقاب بالمذنبين، ولا يتساهل مع المثيرين للفتن والقلاقل، أو الخارجين عن الطاعة.

---

(259) نفسه ص 127 ــ 131 المطبوع ص 97 ــ 102.

(260) نفسه ص 206 ــ 209 المطبوع ص 167 ــ 170.

(261) نفسه ص 284 المطبوع ص 235.

(262) نفسه ص 42 المطبوع ص 28.

(263) نفسه ص 43 المطبوع ص 29.

(264) نفسه ص 47 المطبوع ص 31.

(265) نفسه ص 46 المطبوع ص 30.

(266) نفسه ص 50 المطبوع ص 34.

وهكذا بعث ــ وهو بقسنطينة ــ العصاة والمتمردين إلى فاس لابقائهم تحت الحراسة(267)، وألقى القبض بقسنطينة أيضا على خطيبها ابن باديس وأخيه وأتباعهما هناك من دعاة الفتنة فبعث بجميع هؤلاء إلى فاس(268)، ورأينا بأنه لم يتردد في تنفيذ أحكامه القاسية على كثير من شيوخ بني مرين ووزيره ابن ودرار بمجرد العودة من حركته الكبرى، إذ قتل البعض منهم، وأبقى على البعض الآخر في السجن(269).

ولكن إلى جانب هذا الحزم في مواجهة القضايا والتدابير، فقد كان حليما يتصرف بأناة، فلا يتسرع في فعل يندم عليه، ويمتاز برجاحة العقل، والحكمة فيما يصدر عنه من أقوال وأفعال. ومن هنا فقد عفا، في كثير من الحالات، عن المسيئين الذين أعلنوا التوبة وأظهروا الندم على ما بدا منهم في فترة مروقهم وضلالهم، رغم أنه يملك القدرة على الانتقام، والعقاب الشديد. وفي هذا السياق قبل اعتذار وفود قبائل رياح، وأنعم على شيخها يعقوب بن علي، مجزلا لهم جميعهم العطاء، فانصرفوا مسرورين منعما عليهم(270)، وعفا أبو عنان عن علي بن ثابت الذي مال إلى المتمردين المفسدين، ثم تقدم إلى السلطان طالبا الصفح، معلنا التوبة، فقبل منه توبته، وجدد له ظهير الشياخة(271).

ولم يؤاخذ أهل قسنطينة لاعلانهم العصيان، وتمنعهم بالحصون وإغلاقهم أبواب البلد أمام الجيش المريني، ولكنه بمجرد أن تم فتح قسنطينة وإسلام زمام أمورها إلى أبي عنان حتى بادر إلى الانعام عليهم وغمرهم بالاحسان والعطف. يقول النميري واصفا ما فعله السلطان حين دخوله لقسنطينة : «فكان أول ما صنعه أيده الله أن عين مالا وافيا ورفدا كافلا كافيا، وأمر أن يصدق جميعه على الضعفاء من أهل قسنطينة والمساكين»(272)، وكان رؤوفا كذلك بأهل بلد العناب الذين وفدوا عليه

---

(267) فيض العباب ص 182 المطبوع ص 146.

(268) نفسه ص 184 المطبوع ص 147.

(269) نفسه ص 249 المطبوع ص 293.

(270) نفسه ص 107 ــ 109 المطبوع ص 80 ــ 82.

(271) نفسه ص 143 المطبوع ص 112.

(272) نفسه ص 186 المطبوع ص 149.

لطلب صفحه عنهم وإعلان التوبة، وإظهار الندم على ما بدر منهم من عصيان قادهم إليه قاضيهم محمد بن عبد السلام الفحصبلي الذي تزعم التمرد وجاهر بالعداوة. فقبل منهم أبو عنان التوبة وعفا عنهم، بل أدخلهم إلى مجلسه، ثم صرفهم صرفا حسنا، «ونظر في مصالحهم النظر الجميل»[273] على حد تعبير التميري.

واهتم التميري بجانب آخر من شخصية أبي عنان، ويتمثل فيما اشتهر به من ورع وتقوى، واستقامة ونزاهة. لم يغتر بقوته وسلطانه، ولم تشغله دنياه عن آخرته. وفي فيض العباب أمثلة كثيرة لزهده وانصرافه للعبادة وحبه للفقراء والمساكين واهتمامه بالمتصوفة، وسعيه لزيارة الأولياء والصلحاء... ولقد سبقت الاشارة إلى بعض هذه الأمثلة في عرضنا لمحتوى الكتاب...

ومن هنا لم يكن موكبه في هذه الحركة، مجهزا بالمعدات الحربية فقط بل كان يضم كذلك قبتين، الأولى فيها مصحف عثمان، والثانية فيها صحيح البخاري وصحيح مسلم[274].

ومن مواقفه الدالة على عمق تدينه أنه كتب إلى عماله ــ وهو يتأهب لهذه الحركة ــ بأن يحملوا الناس على إقامة الصلاة ويشتدوا في ذلك غاية الاشتداد[275].

لذلك كان أول عمل دشن به تسييره لأمور قسنطينة هو تعيينه لصاحب الصلاة الذي «يحض الناس على أداء الصلوات في الجماعات»[276]. وعرف الناس عن كثب ورعه وتقواه وهم يرون ثباته في دينه وصبره على الأذى، حينما ضعفت عزائمهم وانهارت قواهم فاضطروا إلى الافطار في رمضان بسبب ما أصابهم من جهد ومشقة للحرارة المفرطة في صحراء بلاد الزاب. إلا أن أبا عنان بقي متحملا لم يصبه وهن ولا ضعف، بل ظل «مصابرا العطش الفادح، مغتنما حسن المثوبة على ذلك العمل الصالح»[277].

---

(273) فيض العباب ص 192 المطبوع ص 158.

(274) نفسه ص 85 المطبوع ص 62.

(275) نفسه ص 22 المطبوع ص 11.

(276) نفسه ص 187 المطبوع ص 151.

(277) نفسه ص 275 المطبوع ص 227.

وإلى جانب كل ما تقدم، يبدو أبو عنان — من خلال فيض العباب — أديبا متذوقا، وعالما متمكنا، يبدي رأيه في الشعر، ويشارك في قرضه، ويعقد المجالس الأدبية والعلمية رغم الطبيعة الحربية التي اكتسبتها هذه الحركة[278]. ولا نعدم في فيض العباب أيضا ما يلقي الضوء على ميوله وهواياته، من ذلك هواية الصيد التي عرفناها له في ذهابه إلى شالة أو إيابه منها[279]. وهكذا، فشخصية أبي عنان تبرز في كل فقرة من كتاب «فيض العباب» بل ان الكتاب كله يكاد يكون قطعة واحدة في مدحه وذكر خصاله. ولا عجب في ذلك ما دام قد ألف من أجله، وكتب لاحصاء فعاله في هذه الحركة. فالاهتمام بغيره لم يحصل إلا بإيعاز منه، لذا كان مدح النميري لأبن مزني امتثالا لأوامر أبي عنان، وتنفيذا لرغبته. يقول : «وفي الحين أمرني مولانا أيده الله بالزيادة على ثلاثة الأبيات وقال لي اذكر ابن مزني فيما تنظمه بأحسن الصفات، فهو حسنة هذه البلاد، وبوجوده أنس الأغوار منها الأنجاد»[280].

شخصية النميري في فيض العباب :

أما إذا عدنا إلى الكتاب لنبحث بين سطوره عن شخصية كاتبه النميري فلا نعثر إلا على شخصية باهتة، تطل علينا بين الفينة والأخرى في استحياء، مستظلة بشخصية أبي عنان، لائذة بحماه، ومع ذلك نتعرف منذ البداية مسؤوليته في هذه الحركة، وأهميته في الموكب، وحظوته لدى أبي عنان، ومنزلته العالية عنده، يبدو ذلك حين يكلفه بالكتابة الى جهات معينة، أو يحضر المجالس التي يعقدها أبو عنان لانشاد الشعر والمساجلة فيه، ولقد صرح هو نفسه في أكثر من مناسبة إلى أنه قد «صدرت تلك الأوامر الكريمة بتعريفي الذي حكم بتشريفي»[281].

وهكذا كان — في كل مراحل الحركة — الكاتب الذي أنشأ الرسائل والظهائر بنفسه أو أشرف على تدبيجها وإنشائها، إذ كان هو الذي يرأس هيئة الكتاب العاملين في بلاط السلطان.

---

(278) نفسه ص 99، 291 المطبوع ص 74، 240.

(279) فيض العباب ص 54، 64 المطبوع ص 37، 44.

(280) نفسه ص 292 المطبوع ص 241.

(281) نفسه ص 28، 80 المطبوع ص 16، 58.

ويؤكد على هذه المسؤولية في أكثر من مناسبة، يقول مثلا معتذرا عن عدم ايراده لكل القصائد التي قيلت بعد إتمام فتح قسنطينة : «إلا أني شغلت عن استيفاء جمعها وشغلتني الخدم عن صون فرائد منها بعد رفعها»[282]. ويقول وقد حملت الوفود نبأ فتح تونس لمخيم أبي عنان بقسنطينة : «وقطعت سحابة ذلك اليوم منفذا لما نيط بي من الأوامر العلية والخدم السلطانية»[283]

وتكررت أوامره له بالكتابة إلى الأقاليم بخبر الفتوح والانتصارات، فأنشأ كتابا متعدد النسخ حين تم فتح بلاد العناب[284]، وأمره مولاه حينما توقف الموكب بظاهر المسيلة وهو في طريق العودة من الحركة بإنشاء كتاب على أتم السرعة لابلاغ الأقاليم ما صادف هذه الحركة من توفيق[285]، أما الظهائر والرسوم التي أمر بها مولاه أبو عنان فقد صدرت كلها بتعريفه[286]، حتى تلك التي صدرت في فترة الاستعداد للحركة، فهو الذي كتب لابلاغ من يعنيهم الأمر بما عين من أحباس برسم المدارس والزوايا والمارستانات[287]، وهو الذي كتب جميع الأوامر الصادرة عن أبي عنان في فترة التأهب للحركة[288].

والظاهر أن كتابته لهذه الظهائر والرسائل والأوامر تنسب إليه تجاوزا، لأنه في كثير منها لم يكن الكاتب الفعلي، باعتباره رئيس هيئة الكتاب والمنشئين، يدل على ذلك قوله بعد أن أمره أبو عنان بإنشاء كتب تحاط فيها القبائل علما ببيعات أهل قابس، وطرابلس، وقفاقس، وقرقمة. يقول : «فاستوفى الكتبة بالديوان الشريف بعد الانتشاء اكتتابها، وأحضرتها بالبساط الشريف واصلا أسبابها»[289].

(282) نفسه ص 173 المطبوع ص 139.

(283) فيض العباب ص 222 المطبوع ص 181.

(284) نفسه ص 197 المطبوع ص 160.

(285) نفسه ص 328 المطبوع ص 273.

(286) نفسه ص 74، 187، 201 المطبوع ص 53، 150، 163.

(287) نفسه ص 32 المطبوع ص 18.

(288) نفسه ص 29 المطبوع ص 16.

(289) نفسه ص 115 المطبوع ص 87.

وبعد أن حصل تقريبه وملازمته لأبي عنان لم يعد ينتظر أوامره، وإنما كان يسارع إلى استفساره، أو الاقتراح عليه. فلقد استأذن مولاه في أن يكتب لقاضي بلاد العناب الفحصبلي[290]، يحذره من مغبة الخروج عن الطاعة والسيادة، ويحضه على المبادرة بعقد البيعة، ورغب من أبي عنان في بلدة تقاوس بأن يترك بها أثرا معينا[291].

وكتب إلى مولاه في تلمسان يستفسره عن القرآن الذي يأمر بقراءته قبل صلاة الجمعة[292].

كل هذا يظهر مكانة النميري ومنزلته عند أبي عنان الذي لا تأتيه فرصة إلا ويظهر عنايته به وتشريفه له وإعلاء قدره. فلقد أوقف الجفن في بجاية حتى يصعد النميري لمصاحبته في جولته. يقول : «أمر أيده الله بالتوقف حتى دعاني للركوب معه وعوجل بصعودي إلى المحل الذي جمع من أشتات المحاسن ما جمعه»[293] وشرفه مولاه باستدعائه إلى حضور حفل غنائي بفاس عقب الاياب من الحركة، فيشاركه المتعة والطرب، ثم يتلقى منه أوامر تدخل ضمن مسؤوليته. يقول : «...إلى أن وجه عني السلطان فحضرت بين يديه مع بعض الأصحاب وأفاض معي في الحديث المطال المطاب والمغنيات بالقرب منا فائهات عن أشهى من المورد العذب»[294]

وهكذا يبدو النميري من خلال فيض العباب أنه ظل في كل مراحل الرحلة خادم السلطان وتابعه، والأمين على أسراره والقائم بما يكلف به من مهام، وما يسند إليه من مسؤوليات، وما يوجه إليه من أوامر. فلا يلتفت لنفسه إلا لابراز علاقته بالسلطان، أو إظهاره الاعتزاز بمنزلته لديه، وبما حصل عليه من الحظوة والتكريم. وإن كنا مع ذلك لا نعدم من حين لآخر بروز هذا الجانب الذاتي فيتصرف بمعزل عن هذه الأوامر والمسؤوليات.

---

(290) نفسه ص 192 المطبوع ص 155.

(291) نفسه ص 307 المطبوع ص 254.

(292) نفسه ص 332 المطبوع ص 277.

(293) فيض العباب ص 133 المطبوع ض 104.

(294) نفسه ص 343 المطبوع ص 287.

فلقد رأيناه بتلمسان وبعد أن رافق أبا عنان بها في أنشطته الرسمية التي زار فيها بقعة العباد، يتفرغ إلى أعمال وأنشطة أخرى لا تدخل في نطاق منصبه ومسؤوليته. دافعه في ذلك حنينه إلى ما له بهذا البلد من ذكريات في زياراته السابقة. يقول : «وأقمت معه هناك ما شاء الله، ثم خرجت برسم لقاء أصحابي الذين كنت معهم هنالك منقطعا، ولآثارهم في الزهد وسلوك الرشد متبعا، فرفع إليه بعد إنصرافي بعض الشكايات، وكتبت قصة لم تأل في تقرير الحالات، فدعاني رضي الله عنه حتى وعيت مقتضاها وطالعته بمنطوقها وفحواها»(295). وهكذا ينفرد عن الموكب السلطاني للقاء أصحابه بعيدا عن الجو الرسمي الذي تميزت به الحركة

(295) نفسه ص 334 المطبوع ص 278.

المقارنة بين المذكرات وفيض العباب

وإذا عدنا إلى الكتابين معا، لنحاول الموازنة بينهما والمقارنة، فمن السهولة التنبه إلى الفروق التي تميز أحدهما عن الآخر شكلا ومضمونا، بالرغم من أن الظروف الباعثة على الرحلة في كل منهما تكاد تكون متقاربة ومتشابهة وبالرغم من أن الذي دون الرحلتين وصاحب الموكبين هو الكاتب النميري نفسه.

ولقد أشرنا في عرضنا السابق إلى بعض هذه الاختلافات والفروق، لذلك سنكتفي هنا بايراد ملاحظات أخرى نستوحيها من القراءة لهما. وأول هذه الفروق ما يلاحظ من اهتمام النميري في رحلته الأولى مع أبي الحسن المريني بما صادفه في هذه الرحلة من أشخاص أو أحداث أو بما سمعه من أشعار أو بما رواه من آثار أدبية وأخبار مختلفة. فلم تكن الرحلة إلا فرصة له كي تزداد معارفه ويكتمل تكوينه. ومن هنا كان دائم السؤال، مستمر البحث لا يفتر عن التدوين، يتلقف كل ما يسمعه من أشعار ورسائل ونوادر وألغاز وأخبار، بل يهتم بما رآه في النوم أيضا، وهذا شيء غريب مثير للعجب والتساؤل، فكيف نتصور رحلة يقوم بها كاتب مسؤول في ديوان ملك، يرحل اذ رحل، وينزل اذا نزل، ومع ذلك تخلو مذكرات هذه الرحلة من وصف لموكب هذا الملك مثلا، أو استقبالاته، أو الرسائل التي تبادلها مع غيره، أو ما يكون قد مدح به من أشعار، أو صدر عنه من أوامر ومراسيم وظهائر ورسائل...

فاهتمامه في كل بلد دخله، كان منصبا على من التقى بهم هناك، أو ما جمعه من معلومات وفوائد، وكانه لا يصاحب أبا الحسن في رحلته، لهذا لا يتحدث بشيء عن نشاطه واستقبالاته، ولقد ذكرنا من قبل أمثلة لهذه الظاهرة.

ففي حديثه مثلا عن وصول الموكب إلى سلا، لا يزيد على إخبارنا بأن السلطان قد التحق بهذه المدينة بجملة مختصرة يقول فيها : «دخل مولانا قصبة سلا بعد زيارة التربة المطهرة»(296).

ثم يعود بسرعة إلى اهتماماته الذاتية فيقول : «وها أنا أبدأ بما استفدناه من سلا»(297).

ولا يهتم أيضا ــ في قصر المجاز ــ بالسلطان أبي الحسن وقد صلى الجمعة به، بل يتأخر عن الموكب مع صاحبه أبي العباس بن شعيب ليرى تلك الأبيات المنقوشة على قبر أندلسية هناك فيدونها ويعرف قصة صاحبة القبر(298).

وهكذا يمكن القول في كل أجزاء هذه الرحلة ومراحلها. أما في رحلته الثانية مع أبي عنان، تلك التي تضمنها كتابه «فيض العباب» فالنميري ــ على العكس من ذلك ــ مخلص لواجبه، قائم بمهمته أحسن قيام، ويمكننا ــ بتتبع ما دونه هنا من أوصاف وأخبار ــ التعرف بسهولة على منصب النميري ومنزلته في الموكب. فهو كاتب السلطان أو رئيس لهيئة الكتاب بجانب أبي عنان. لذلك لاحظنا من قبل أن شخصية النميري قليلة البروز في فيض العباب. فاهتمامه منصب على السلطان ومواقفه ومنجزاته و أعماله، وصفاته الخلقية والخلقية، من شجاعة وحلم وقدرة على الانتقام، وسعة صدر. بالاضافة إلى جيشه القوي وأسطوله الضخم، وموكبه الفخم.

فالنميري وهو يرحل، سواء كان واصفا أو مخبرا أو كاتبا أو شاعرا لا يغيب عنه شخص السلطان لحظة واحدة، فلا يلتفت إلى نفسه أو ما حوله، مما حدا بنا إلى القول بأن فيض العباب يكاد يكون كله مدحا لأبي عنان وذكرا لأعماله وأخباره. مع أن رحلته هذه جمعته بعلية القوم وأكابر العلماء والشعراء والصلحاء والمتصوفة والشيوخ المسؤولين الذين هم أيضا على حظ كبير من العلم والفقه والأدب...

---

(296) المذكرات 1734 ورقة 25 أ المرقونة ص 156.

(297) نفس المصدر ورقة، المرقونة ص 156.

(298) المذكرات ورقة 6ب 7أ المرقونة ص 32 ــ 33.

وهكذا ذكر أسماء اثني عشر شاعرا، أنشدوا قصائدهم في المجالس الشعرية التي يعقدها أبو عنان، أو في المناسبات المختلفة من وداع واحتفال بنصر...كما ذكر مجموعة من الفقهاء والصلحاء كالفقيه أبي عبد الله بن أبي مدين، والخطيب ابن باديس، والصوفي أبي عبد الله الصفار...وكانت الرحلة مناسبة أيضا للقائه بأهم القواد والرؤساء والشيوخ، ذكر أكثر من أربعين منهم في مناسبات مختلفة.

إلا أنه لم ىبد رغبة في الأخذ عنهم والتعرف إلى مروياتهم وأسانيدهم، على عكس ما لاحظناه في رحلته الأولى.

فما السر في هذا الاختلاف ؟ لعل السبب يكمن في أنه قام بالرحلة الأولى صحبة أبي الحسن وهو شاب متطلع للعلم ولقاء العلماء، حريص على الرواية والاستفادة، بينما كان في رحلته الثانية صحبة أبي عنان قد بلغ المستوى العلمي الرفيع، وارتقى منصب رئاسة هيئة الكتاب فلم يكن بذلك يجد من نفسه ميلا إلى الاستفادة من غيره، أو يشعر بالحاجة إلى الأخذ عنهم، خاصة وأن من جمعته الرحلة بهم لم يكونوا أكثر منه علما واطلاعا، وأعلى منه مركزا وأرفع مكانة، كما يبدو من بعض النماذج والأمثلة الواردة في فيض العباب.

فلقد أشار إلى مناظرة شعرية ساهم فيها النميري إلى جانب غيره من الشعراء، لكن أبا عنان اختار بيت النميري وفضله على ما عداه. يقول : «ولما وقف مولانا أيده الله على مجموع هذه الأبيات لم يستحسن منها إلا هذا البيت الأخير وأولاه القبول الذي ينسي ربح القبول»[299] ويعني بالبيت الأخير بيته هو نفسه.

ومنزلته تعلو على الكتاب والشعراء جميعهم، فإليه تقدم القصائد كي يرفعها إلى أبي عنان، وهكذا التجأ إليه كل من أبي العباس بن عبد المنان[300]، وشاعر مكناس أبي عبد الله بن جابر[301] ليرفع إلى أبي عنان قصيدتيهما بمناسبة فتح تونس. ويمكن أن يعزى عدم اهتمامه بأعلام هذه الرحلة إلى أنه كان يتقلد في حركة أبي عنان إلى قسنطينة والزاب، مناصب رفيعة كما ذكرنا، فمسؤولياته ومهامه الكثيرة لم تبق له وقتا كافيا حتى ينصرف للعلم والأخذ والرواية عن العلماء والاستفادة منهم،

---

(299) فيض العباب ص 99 المطبوع ص 74.

(300) نفسه ص 228 المطبوع ص 186.

(301) نفسه ص 231 المطبوع ص 188.

بدليل أن نصوصا كثيرة لم يدونها بكاملها، ونصوصا أخرى اكتفى بإدراج نماذج، وفقرات أو أبيات منها في كتابه فيض العباب.

وهناك جانب آخر يمكن أن يكون موضوعا للمقارنة، وهو المتمثل في علاقة النصين معا بفن الرحلة، وبمعنى آخر ما النص الأكثر صلة بهذا الفن ؟ للاجابة عن هذا السؤال يجدر بنا التذكير أولا بأن هذا النوع من الرحلة وهو ما أطلقنا عليه الرحلات الرسمية، يجب أن يعتبر رحلة تجاوزا، لعدم توفرها على العنصر الذاتي الذي يعد أول ما يميز الرحلة ويعطيها خصوصيتها وطابعها. وإذا كنا لاحظنا في مجال عرضنا للرحلتين أن الرحلة الثانية التي كان فيها النميري مع أبي عنان، أقرب من سابقتها إلى أدب الرحلة من وجوه عديدة، فلقد تم فيها تحديد المراحل والمنازل بوضوح، إذ الرحلة انطلقت من فاس نحو قسنطينة في طريق يمكن معرفته وتحديده من خلال ذكره للأماكن التي نزل بها الموكب. كما أنه بامكاننا معرفة البلدان التي مر بها أبو عنان في صحراء الزاب، ونفس الشيء يمكن أن نقوله عن طريق الاياب من قسنطينة مرورا بسطيف ثم المسيلة، ثم وجدة، فتازة إلى أن حل الموكب بفاس.

ورغم أن القاريء ربما لا يعرف تاريخ الحلول ببلد معين أو تاريخ الارتحال عنه نظرا لعدم التزام النميري في كل مراحل الرحلة بتدوين التواريخ، بل كان يكتفي أحيانا بكتابة تاريخ مبهم مثل «وفي هذا اليوم، وفي يوم نزول المحلة...»[302].

إلا أننا نعرف أهم تفاصيل الرحلة من خلال وصفه لأبي عنان، ومنجزاته وطريقة مداهمته للبلدان التي تغلب عليها، وذكره للأوامر الصادرة عنه، وحديثه عن أحواله وأعماله... بل إننا نعرف كثيرا من الظروف والظواهر الطبيعية التي اكتنفت الرحلة وهكذا تحدث عن السيل الذي دهمهم بحضيض جبل بني يمل[303] وعن الرياح الهوجاء في سفوح جبل أوراس التي رمت بالاخبية والخيام لمحلة السلطان[304]، وعن الأمطار الطوفانية التي أضرت بالمحلة بعد انفصالها من ايسلي في اتجاه فاس وصفها بقوله : «حتى تركت الأرض بحارا زاخرة وكادت تكون من الأمواج

---

(302) فيض العباب ص 63، 112، 114، 119 المطبوع ص 44، 85، 86، 91.

(303) نفسه ص 116 المطبوع ص 88.

(304) نفسه ص 271 المطبوع ص 223.

المتلاطمة ساخرة»[305]، وعن الحرارة المفرطة في صحراء الزاب اضطر بسببها الناس في منزل القنطرة، إلى الافطار في شهر رمضان[306].

أما المذكرات، وإن كان النميري نفسه يعتبرها رحلة[307]، إلا أننا لا نجد عنده ميلا إلى وصف المسالك التي مر منها، والظروف التي تمت فيها هذه الرحلة، والمدن التي نزل بها، وأحوال الموكب السلطاني... وكل ما نعرفه هو تاريخ حلوله ببلد ما أو مغادرته له بإيجاز كبير.

وهناك أيضا ناحية أخرى يمكن أن تكون مجالا للمقارنة، وتتمثل في الشكل الذي كتبت به الرحلتان معا، فكل منهما سلك فيه النميري طريقة معينة، واحتار منهجا خاصا لتأليفه، فإذا كان فيض العباب بتتبعه للتفاصيل وذكره لكل الأحداث ووصفه لجميع ما له علاقة بأبي عنان وموكبه، كالجيش والأسلحة والأساطيل والمنازل، والخيام والأخبية، مع اهتمامه بوصف الظروف الطبيعية والأحوال السياسية، فأشبه بذلك كتب التاريخ المعاصرة له مع تجاوز بسيط، فالعناوين التي فصلت بين فقرات الكتاب تصلح أكثر في مجال التأليف التاريخي مثل (فصل، ذكر).

فإن المذكرات قد اشبهت في منهجها وطريقتها ما عرف بالفهارس أو البرامج، لأن اهتمام النميري هنا ينصب على ذكر من التقى بهم من الأعلام وتدوين أسانيدهم العالية، ورواياتهم، واملاءاتهم، وأشعارهم...

أما إذا عدنا إلى الرحلتين من جديد لنقارن بينهما من حيث الأسلوب فإن أول ما نلاحظه هو التباين بين أسلوبيهما، فإذا كان يراعي في أسلوب فيض العباب التفنن في التعبير، والتزام الصنعة والزخرفة اللفظية والميل إلى الخيال الشعري وتوظيف المعارف المختلفة، بالاضافة إلى مراعاة التوازن بين الجمل...

فإن أسلوب المذكرات — كما أوضحنا من قبل — لا يلتزم أي شكل من أشكال هذه الصناعة اللفظية، يبدو وكأنه وصلنا دون تنقيح، بل كما دونه صاحبه في مسودة مذكراته.

---

(305) نفسه ص 338 المطبوع ص 281.

(306) نفسه ص 275 المطبوع ص 227.

(307) المذكرات 1734 ورقة 12 أ المرقونة ص 39.

رحلة الكفيف الزرهوني

إن معرفتنا بالكفيف الزرهوني تكاد تكون منعدمة، فكل معلوماتنا عنه تتمثل فيما ذكره ابن خلدون في مقدمته حين تحدث عما استحدثه أهل الأمصار بالمغرب من الأعاريض الزجلية، المزدوجة الشبيهة بالموشح، التي سموها بعروض البلد.

ومن النماذج التي أوردها ابن خلدون لهذا النوع من الزجل، ما نظمه الكفيف في ذكر رحلة أبي الحسن المريني. يقول ابن خلدون عن العمل وصاحبه : «وكان لهذه العصور القريبة من فحولهم بزرهون من ضواحي مكناسة رجل يعرف بالكفيف، أبدع في مذاهب هذا الفن، ومن أحسن ما علق له بمحفوظي قوله في رحلة السلطان أبي الحسن وبني مرين إلى افريقية يصف هزيمتهم بالقيروان، ويعزيهم عنها ويؤنسهم بما وقع لغيرهم بعد أن عيبهم على غزاتهم إلى افريقية في ملعبة من فنون هذه الطريقة(308)».

فالكفيف عاش إذن في عصر أبي الحسن المريني، وربما شهد ما بعد عصره أيضا، والباحث لا بد أن يتساءل وهو يطلع على هذا الأثر، هل صاحب هذه الرحلة الزجلية رافق السلطان المريني في رحلته هذه لافريقية عامة والقيروان خاصة ؟ فيدخل عمله حينئذ في عداد ما أطلقنا عليه الرحلات الرسمية ؟

أم أن وصفه لهذه الحركة يرتكز على الأخبار التي انتشرت عنها في الأقطار المختلفة، ويعتمد على الأصداء التي تركها هذا الحدث العظيم فيكون عمله هنا لا يتعدى دور المؤرخ ؟

---

(308) مقدمة ابن خلدون ص 1163 ـ 1164.

ونحن وإن كنا لا نملك إجابة حاسمة ورأيا قاطعا، فإننا نميل إلى ترجيح الاحتمال الأول لسببين؛ أولهما أن موكب أبي الحسن في هذه الحركة كان يضم عددا كبيرا من العلماء والأدباء والفضلاء. يقول ابن خلدون : «وكان في جملة السلطان أبي الحسن جماعة كبيرة من فضلاء المغرب وأعيانه، هلك كثير منهم في الطاعون الجارف بتونس، وغرق جماعة منهم في أسطوله لما غرق وتخطت النكبة منهم آخرين إلى أن استوفوا ما قدر من آجالهم»(309).

ولقد سبق أن أشرنا إلى أن ابن بطوطة قد التقى بجماعة من هؤلاء العلماء والأدباء في حضرة أبي الحسن بتونس، حينما كان عائدا من رحلته في الشرق وآسيا(310).

ولا نشك في أن الكفيف كان مؤهلا ليكون أحد هؤلاء الذين ساروا في موكب أبي الحسن.

والسبب الثاني أن حديثه عن الأحوال الاجتماعية المتدنية في تونس، لا يستقي مادته من السماع وأقوال الناس وحكاياتهم، فعباراته ترشدنا إلى أن وصفه لهذه الأحوال كان نتيجة المشاهدة والاحتكاك واطلاعه عليها عن كثب(311). يقول :

لما أرسينا بتونس الغرا	وجدنا المنكر فيها على الحيطان
والنسوان يشربو بلا ستبرا	والمعلوم يشرى من الدكان
أما عربان افريقيا تعلم	أرب ما جرت به الأقلام
عايشة المعصيا صحيح عندم	بأموال الحج بالصحيح تغنم

فهل الكفيف الزرهوني هو الذي يورده ابن العماد الحنبلي ضمن من توفوا في سنة 773هـ بقوله : «وفيها شرف الدين يحيى بن عبد الله الزرهوني، الفقيه المالكي، اشتغل ومهر ودرس بالشيخونية والحديث في «الصغر عتمشية» وله تخاريج وتصانيف، وتخرج به المصريون. توفي في ثالث شوال»(312).

---

(309) التعريف بابن خلدون ص 44 ــ 45.

(310) رحلة ابن بطوطة ص 643.

(311) رحلة الكفيف مصور الخزانة العامة رقم 1118 ص 14 ــ 15.

(312) شذرات الذهب 6 : 230.
فبالرغم من أنه لم يصفه بالكفيف، إلا أن التاريخ الذي ذكره لوفاته لا نستبعد أن يكون المعني به هو الكفيف الزرهوني.

بحثنا في مختلف المظان فلم نجد ما يهدينا إلى هذه الشخصية، ويزيح الستار عنها، ويعرفنا بها وبمؤهلاتها. ورجعنا في هذا الصدد إلى الكتاب الموضوعي للأستاذ الجراري(313)، فوجدناه قد اعتمد في كل ما أورده في التعريف بهذه الشخصية على ما سبقت الأشارة إليه في مقدمة ابن خلدون.

أما الرحلة فما زالت مخطوطة بخزانة مراكش تحت رقم ك 184 منها صورة على الشريط بالخزانة العامة تحت رقم 1118 وهي التي رجعنا إليها في هذا البحث، مع الاشارة إلى أن ابن خلدون ضمن مقدمته تسعة وثلاثين بيتا كنموذج من هذه الرحلة، بينما المخطوطة المشار إليها تقع في اثنتين وعشرين صفحة وتشتمل على حوالي خمسائة بيت. وكتب في بداية المخطوط للتمهيد لهذه الرحلة ما يلي : «هذه قصيدة يذكر فيها حركة أبي الحسن المريني رحمه الله إلى القيروان وانهزامه بذلك المكان وهي للكفيف رحمة الله علينا وعليه»(314). فالعنوان يشبه عنوان رحلة النميري مع أبي عنان في إفادتنا بأن الدافع لكل من أبي الحسن وأبي عنان هو الحركة لتمهيد البلاد والسيطرة عليها، والقضاء على الخصوم والمتمردين بها. ومن الواضح أن المخطوط كتب بعد وفاة صاحب هذه الرحلة كما يفهم من عبارة الترحم عليه.

أما الهزيمة التي تكبدها أبو الحسن بالقيروان، فقد كانت فعلا حدثا عظيما، فنتائجها كان لها الوقع الكبير على السياسة في أقطار شمال إفريقيا فبسببها تغير ميزان القوى بين دول هذه المنطقة، لذا يعتبر ابن قنفذ هذه الهزيمة من الأحداث الجسام حين يقول : «وفي أواخر هذه السنة كانت على بني مرين وقيعة القيروان وهي أشد من وقيعة طريف»(315) والسنة التي يقصدها هي سنة 748هـ مع أن ابن خلدون يؤرخ هذه الهزيمة بفاتح السنة الموالية(316).

ويبتدىء الكفيف زجله بهذا المطلع الذي يعتبره ابن خلدون «من أبدع مذاهب البلاغة في الاشعار بالمقصد في مطلع الكلام وافتتاحه، ويسمى براعة الاستهلال»(317). يقول الكفيف :

---

(313) القصيدة ص 545.

(314) مصور الخزانة العامة رقم 1118.

(315) الفارسية ص 170.

(316) التعريف بابن خلدون ص 27، الاستقصاء 3 : 160.

(317) المقدمة ص 1164.

سبحان مالك خواطر الأمرا ونواصيها في كل حين وزمان
إن طعناه أعظم لنا نصرا وإن عصيناه عاقب بكل هوان

وبعد إيراده لما يناسب المقام من الأبيات التي تأمل من خلالها في الأحداث والوقائع التاريخية العديدة ليأخذ من ذلك العبرة، ينتقل إلى الحديث عن حركة أبي الحسن إلى إفريقية والقيروان، حيث توجه في جيش عرمرم يضم عناصر وأصنافاً من مختلف الأجناس. ومما قاله في هذا الموضوع[318] :

ومن السوس جلبة إلى شرشال قب وعلام وخيل ومطايا
وبقى عام تتجمع عليه الأبطال تشرق رايا وتنزو رايا
ما خل لا عرب ولا قربا لاجار ولا خلط ولا سفيان
وزنات الناصبا على الفرا وأهل التدريس حمالة القرآن
كان فيها من صناديد بني مرين بين عشر ألف أو تنيف عاد
أولاد زيان راس بني لجيز مع معرف ورهط عبد الواد
لكن الشوك ما يكون بالتين أو يجنى الورد من عروق الداد
وأعيان الغرب وبنو الحضرا والروم والغز والرما صنفان
بتلمسان جمع الجيوش وطلع هذا الزرع كف بدا يحصاد

وهكذا ضم جيش أبي الحسن المريني في هذه الحركة جموعا كثيرة سدت الآفاق وملأت البلدان الواقعة بين السوس وشرشال. وترجع هذه الضخامة إلى تنوع أصنافه، واختلاف عناصره من عرب، وبربر، وروم، وغز، وخاصة وعامة...

ويتفق هذا الوصف مع ما ورد عند العمري في كتابه «المسالك والممالك»[319] عند حديثه عن عناصر جيش أبي الحسن أيضا.

ويعرض الكفيف إلى سبب هزيمة أبي الحسن بالقيروان، وهي كما يذكر المؤرخون تعود إلى تصرفه بالحزم اللازم في مباشرة أمور البلاد الأفريقية فلم يبق لعرب بني سليم وبني هلال هناك ما كان لهم من امتيازات في فترة الحكم الحفصي، مما جعلهم يكيدون لأبي الحسن ويؤلبون عليه بعض فرق الجيش، وخاصة الذين ينتمون منهم

---

(318) مصور الخزانة العامة ص 13.

(319) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار
نشر الأستاذ المنوني في مجلة البحث العلمي 1 : 134 ـ 135.

لبني عبد الواد. وهكذا فبمجرد التقاء الجمعين تخلوا عن السلطان وانحازوا إلى صف العرب المتمردين، الذين عملوا من أجل إعادة الأمور لبني حفص، فانهزم جيش بني مرين هزيمة منكرة. وينقل الكفيف في قصيدته بعض العبارات التي رددتها أصوات العرب مبدية عدم رغبتها في الوجود المريني :

أمولاي أبو الحسن خطينا الباب	في قضية سرنا إلى تونس
في غنى كنا عن الجريد والزاب	واش ليك في أعراب إفريقيا والقوبس

ولقد تعرض ابن قنفد لهذه الهزيمة مشيرا إلى بعض أسبابها فقال : «وسبب وقيعة القيروان أنه خرج بجيشه طالبا من عصاه من العرب، ولما قربت المنازل خانته أنصاره من بني مرين وفرت طائفة كبيرة من بني عبد الواد إلى المغرب»(320).

وهكذا غلب السلطان على أمره، فحوصر هو ومن بقي معه بالقيروان وقطع عليه خط الرجعة إلى تونس حيث ترك بعض جيوشه هناك، وأصبح كالسجين بالقيروان قليل المال والجند، بعد أن نهب معسكره، ووقع الاستيلاء على ذخيرته والكثير من حرمه، ولم يستطع أبو الحسن التخلص من هذا الحصار إلا بعد ما يقرب من ثلاثة أشهر. ولقد سجل الكفيف ظروف وأحوال السلطان إبان هذا الحدث المؤلم بقوله(321) :

خرج السلطان في ليلة الجمعا	في عشرين من ربيع الأول
كانت تونس أرقتا والسوق	تضرب مثل شابل الشبكا
والقيروان كان على الأمر مغلوق	والقصب مطروق مثل مضرب السكا
دخل السلطان في يوم عاشورا	القيروان ضعيف قليل المال
وأبقى فيها وهو مسجون	سبعين ليلة يقال وسبع ليال(322)
والسلطان في الصحن على سورا	يتوسل بالصالحين ولا يقبل
جالس بين المدرسين يقرا	بين المشايخ الخسران
سحنون والقابسي وما جرا	وابن أبي زيد ملتقى البحران

(320) الفارسية ص 170، الاستقصاء 3 : 160.

(321) مصور الخزانة العامة ص 17 ــ 21.

(322) كانت الهزيمة في 7 محرم سنة 749هـ أما نجاته إلى تونس بحرا فقد تمت في ربيع الأخير سنة 749هـ. الاستقصاء 3 : 160 ــ 162.

لكن من حسن حظ أبي الحسن أن العرب اختلفوا فيما بينهم بشأن بقائه في هذا الحصار، اذ سارع أولاد مهلهل إلى العمل على الافراج عنه، فمنعوه من العرب الآخرين، وهيأوا له أمر خروجه من القيروان في حمايتهم، فأوصلوه ليلا إلى مأمنه في مدينة سوسة، بعد أن كان قد فقد كل شيء، وتعرض للنهب والسلب، وكانت أحوال من رافقه في هذه الحركة أسوأ، عرفوا الكثير من المحن والشدائد، وجردوا من كل شيء، وأهينوا في كرامتهم وهم من علية القوم. ولقد أشار ابن قنفد لهذه الحالة المأساوية بقوله : «خرج إلى تونس وليس معه إلا خواص الفرسان والفقهاء والكتاب والعلوج والوصفان، ورجعت بنو مرين مشاة بالمرقعات إلى المغرب»(323).

وهي نفس الأحوال التي يعرضها الكفيف الذي كان شاهد عيان لسوء المنقلب الذي تعرض له أبو الحسن ومرافقوه :

ان نـاس عـاريين بـلا سـتـرا	نس جهلا لا قرن ولا إمكـان
ما يدرو كف يصورو الـكسرا	أو كف دخلو مدينـة الـقيروان
لو كان من باب تونس غربـا	لمدينـة فـاس سد لاسكنـدر
ما أعوصها من أمور وما شرا	لو تقرأ كل يوم على الديـوان
لجرت بالـدم وانصدع حجــرا	وهوت الخراب وخافت الغـزلان

ولعل من أسباب هذه الهزيمة، وضعف جانب السلطان وانفضاض بعض أتباعه عنه، ما حاكه من أظهر الطاعة له من مؤامرات، وما حبكه من دسائس ومكائد كتلك التي سجلها التاريخ لأبي محمد بن تافراجين الذي أظهر الطاعة لأبي الحسن المريني مؤملا أنه سيوليه شؤون افريقية ويفوضه أمر تسييرها. لذلك قلب له ظهر المجن بعد أن انقطع أمله فيما كان يطمح إليه، وانحاز إلى طائفة المتمردين. لكن بمجرد إزالة الحصار عن السلطان وتوجهه إلى تونس فر ابن تافراجين إلى مصر(324). ويذكر ابن بطوطة بأن المغاربة أرادوا قتل ابن تافراجين هذا بالاسكندرية وآذوه انتصارا منهم للشرعية المرينية(325). ويرى الكفيف رأيهم أيضا فيحمل ابن تافراجين المسؤولية في هذه الهزيمة المنكرة :

---

(323) الفارسية ص 170.

(324) الاستقصا 3 : 160 ــ 161.

(325) رحلة ابن بطوطة ص 643.

وتعلـق بـالملك خـا الطفـلا والشيـخ ابـن تافراجين الغـراق
كف حز الراس وقطع الـبشرا وخلط دم النسا مع الصبيـان

فأعماله الشنيعة ودسائسه ومكايده هي التي حالت دون تحقيق الأهداف النبيلة التي كان أبو الحسن يهدف إلى تحقيقها من خلال هذه الحركة :

وأعظم مـن ذا وأجـل تقـديسا تفتـح طريـق الحج للحجـاج
وتنـقيها مـن الغـدر اليـبسا حتـى تمشي فيها المرا بالبـاج
تذكـر بها إلى قيـام عـيسى وفي جبل عرفا إذا التقت لفواج
وأبحل هـذا المطامـع الغـرا يتم الاولاد ورمـل الـنسوان
وترك سيـدان بنـي مريـن عبرا تلقطهـا في افريقيـا السيفـان

جـ ـــ الرحلات العلمية والسياحية

كنا قد أشرنا من قبل إلى أن الفترة المرينية عرفت نشاطا علميا كبيرا: ففيها كثرت المدارس، وتعددت المجالس العلمية، فرحل الكثيرون للقاء العلماء والجلوس إلى الشيوخ في الحلقات الدراسية المتعددة، فصارت العواصم العلمية بالمغرب غاصة بالعلماء والباحثين والطلبة الذين وفدوا عليها من أجل الدراسة والتحصيل والرواية عنهم، أو من أجل بث العلم واقرائه هناك.

وفي نفس الوقت كانت تتاح لهؤلاء الوافدين الفرص للقيام بجولات يجوبون فيها مناطق كثيرة، ويقفون أثناءها على ما يلاحظون من معالم أثرية، ويحتكون خلالها بالأهالي، فيخبرون العادات والتقاليد، ويطلعون على الأحوال المختلفة.

فهل تحدث كل هؤلاء الرحالة عن هذه الجولات والتنقلات من أجل طلب العلم، أو السياحة ؟ وهل دونوا ما أخذوه عن الشيخ، وما قرأوه عليهم من كتب، وما رووه عنهم من أشعار وفوائد، وما تلقوه من علوم وفنون في المجالس العلمية التي لازموها وترددوا عليها ؟

ثم هل وصفوا ما شاهدوه أثناء تجوالهم، من مناظر طبيعية أو صور اجتماعية، في الطرق التي سلكوها والأماكن التي نزلوا بها ؟

إننا، وفي ضوء ما نعرف من نصوص في هذا المجال، لا نملك الجواب القاطع، فالرحلات الداخلية المدونة قليلة جدا، وأغلب الذين دونوا هذه المذكرات كانوا من الوافدين على المغرب لسبب ما، مما يؤكد الملاحظة السابقة وهي أن المغاربة قلما كانوا ينصرفون إلى تدوين رحلاتهم الداخلية.

وهكذا سنتناول في هذا المبحث رحلات كل من ابن الخطيب، والمقري وابن خلدون، وعبد الباسط.

1 ــ رحلة ابن الخطيب

تشد ابن الخطيب إلى البلاد المغربية روابط قوية، وصلات وثيقة، فإليها التجأ، وبها احتمى، وفي ربوعها التقى بأعلام من مختلف المشارب والمستويات، وألف كثيرا من الكتب والرسائل، وأنشد العديد من القصائد والمقطوعات.

وفي تناول هذه الشخصية لا نسير على الوتيرة التي اتبعناها، ولا نسلك المنهاج الذي ألفناه مع الأعلام السابقين، لخصوبة حياة ابن الخطيب من جهة ولكثرة من تناولوه من جهة ثانية. لذلك سنكتفي بالاحالة على أهم المصادر والمراجع[1] التي اهتمت به، إما بإفراده بالتأليف والدراسة، أو بتخصيصه بترجمة ضافية.

---

(1) من أهم هذه المصادر والمراجع :
1 ــ الاحاطة بأخبار غرناطة 4 : 438 ــ 640.
2 ــ تاريخ ابن خلدون 7 : 689 ــ 697، 707 ــ 710.
3 ــ نثير فرائد الجمان ص 242 ــ 292.
4 ــ الدرر الكامنة 3 : 469 ــ 474.
5 ــ نيل الابتهاج ص 264 ــ 265.
6 ــ جذوة الاقتباس 1 : 308 ــ 311.
7 ــ درة الحجال 2 : 271 ــ 274.
8 ــ نفح الطيب (في جل أبوابه وفصوله).
9 ــ أزهار الرياض 1 : 186 ــ 336.
10 ــ شذرات الذهب 6 : 244.
11 ــ هدية العارفين 2 : 167.
12 ــ سلوة الأنفاس 3 : 187 ــ 191.
13 ــ الاعلام للمراكشي 4 : 443.
14 ــ فهرس الفهارس 1 : 379.

وتعرض تراجمه المختلفة في هذه المظان المشار إليها وكثير غيرها، إلى أهمية المغرب بالنسبة لابن الخطيب (713 ـ 776) شأنه شأن معظم الأندلسيين في هذه الفترة، إذ كان المغرب ملجأ الفارين الأندلسيين وحاميهم وشط الأمان لهم. وهكذا أشارت هذه المصادر إلى أن ابن الخطيب قد تردد على المغرب في أربع مناسبات مختلفة :

الأولى : كانت في بداية حكم أبي عنان(2)، إذ وفد عليه سفيرا سنة 752هـ حاملا رسالة أبي الحجاج سلطان غرناطة إلى أبي عنان في التعزية في وفاة أبيه والتهنئة باعتلائه العرش، وتذكر المصادر بأنه وفق في سفارته هذه إلى أبعد الحدود كما يفهم من قول ابن خلدون «فجلى في أغراض سفارته»(3). وأشار ابن الخطيب نفسه إلى أنه قد كان بصحبته في هذه السفارة أستاذه وشيخه أبو عبد الله محمد الخولاني المتوفي عام 754هـ. يقول عنه «وهو أستاذي قرأت عليه القرآن وكتابي الجمل والايضاح وحضرت عليه دولا من الكتاب، ولازمته مدة وعاشرته، وتوجه صحبتي في الرسالة إلى المغرب»(4).

والمناسبة الثانية كانت في عهد أبي عنان كذلك، حينما قدم عليه سفيرا من لدن صاحب غرناطة سنة 755هـ، لابلاغه حقيقة أوضاع الأندلس وأحوال المسلمين بها، وللاستنجاد به على تحرشات الأعداء القشتاليين الذين اشتدت أطماعهم في فترة استلام الغني بالله زمام الأمور بغرناطة.

ولقد وفق ابن الخطيب أيما توفيق في هذه المهمة السفارية أيضا، فلبيت كل المطالب التي حملها، تحدث هو نفسه عن النجاح الذي حالفه فقال : «بعثني إلى

⇐ 15 ـ الاستقصا 3 : 192، 4 : 13، 31، 46، 62.
16 ـ لسان الدين ابن الخطيب لعنان.
17 ـ ابن الخطيب من خلال كتبه للفقيه التطواني.
18 ـ الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى 2 : 473 ـ 483.
19 ـ قصة الأدب في الأندلس 1 : 321 ـ 341.
20 ـ مقدمة تحقيق كتاب روضة التعريف.
21 ـ مقدمة تحقيق كتاب معيار الاختيار.
22 ـ مقدمة تحقيق الاحاطة.

(2) تبين لي فيما بعد أنه زار المغرب في مناسبة أخرى قبل هذا التاريخ، فلقد جاء في ترجمته لأبي سالم ابراهيم التسولي التازي (ت 748هـ) قوله : «حضرت مجالسه بمدرسة عدوة الأندلس من فاس ولم أر في متصدري بلده أحسن تدريسا منه» الاحاطة 1 : 372.

(3) تاريخ ابن خلدون 7 : 690، أزهار الرياض 1 : 205، الاستقصاء 3 : 191.

(4) الاحاطة 3 : 36، 4 : 324.

بابه رسولا على أثر بيعته وتمام أمره، وخاطبا أثره ووده مسترفدا من منحة قبوله فألفيت بشرا مبذولا، ورفدا ممنوحا، وعزا باذخا، يضيق الزمان عن جلالته وتقصر الألسنة عن كنه وصفه، فكان دخولي عليه في الثامن والعشرين من شهر ذي قعدة عام خمسة وخمسين»[5].

ومن الذين قدموا معه في هذا الوفد القاضي أبو القاسم الشريف السبتي الذي قال وهو يرى سفارتهم برئاسة ابن الخطيب قد حققت أهدافها : «لم يسمع بسفير قضى سفارته قبل أن يسلم على السلطان إلا هذا»[6]، مشيرا إلى ابن الخطيب.

وذكر ابن خلدون الذي كان حاضرا في حفل تقبل أبي عنان أوراق السفير ابن الخطيب بأن هذا الأخير بادر إلى انشاد السلطان رائيته المشهورة[7] :

خليفة الله ساعد القدر	علاك ما لاح في الدجى قمر
ودافعت عنك كف قدرته	ما ليس يسطيع دفعه البشر
وجهك في النائبات بدر دجى	لنا وفي المحل كفك المطر
والناس طرا بأرض أندلس	لولاك ما أوطنوا ولا عمروا
وجملة الأمر أنه وطن	في غير علياك ما له وطر
ومن به مذ وصلت حبلهم	ما جحدوا نعمة ولا كفروا
وقد أهمتهم بأنفسهم	فوجهوني إليك وانتظروا

فكان لهذا الشعر أثره، اذ استمال نفسية أبي عنان، فأظهر اهتماما بالملف المطلبي الذي أتى به، مطمئنا إياه بالموافقة على كل ما نص عليه قبل أن يطلع على تفاصيله. يقول ابن خلدون واصفا الأثر الحسن الذي خلفه إنشاد القصيدة : «فاهتز السلطان لهذه الأبيات، وأذن له في الجلوس وقال له قبل أن يجلس ما ترجع إليهم إلا بجميع طلباتهم، ثم أثقل كاهلهم بالاحسان، وردهم بجميع ما طلبوه»[8].

وهكذا احتفى به وبالغ في إكرامه والاعتناء به وبالوفد الذي في صحبته، فدعاه لحضور حفل التسلية بمشاهدة مصارعة الأسد والثور. وهذه حظوة لاينالها إلا خاصة

---

(5) الاحاطة 2 : 19.

(6) تاريخ ابن خلدون 7 : 691.

(7) تاريخ ابن خلدون 7 : 691 الأزهار 1 : 206، النفح 5 : 98.

(8) نفس المصادر

الخاصة، لذلك اغتنم ابن الخطيب هذه الفرصة فمدح أبا عنان بأبيات افتتحها بقوله :

انعـــام أرضك تقهـــــر الاسادا طبعـــا كسا الأرواح والأجسادا

فكان هذا له وقع حسن أيضا، إذ أعجب أبو عنان بالوصف الجيد في هذه الأبيات، نقل ابن الخطيب نفسه عبارات الاستحسان التي بدرت منه فقال : «فاستحسن تأتي القريحة، وإمكان البديهة، مع قيد الصفة وهيبة المجلس، وكان الانصراف بأفضل مما عاد به سفير»(9) وما ذلك إلا لأن ابن الخطيب قد استجمع كل شروط النجاح، وتوفر على قدرة بلاغية تمكنه من الاقناع والتأثير بالاضافة إلى أنه كان مثالا للسفير اللبق، المتمرس بمجالس الملوك، والعارف بطبائعهم يدل على هذا أنه لم يعبر للعدوة الأندلسية حتى كتب إليه من سبتة مبديا سروره بنجاح مسعاه، شاكرا حسن فعاله شعرا ونثرا، ولقد التزم فيها ابن الخطيب بإيراد حرف السين في كل كلمة منها، ومما جاء فيها قوله(10) :

أنست بمسرى سيبه، وتـأنست بساحته نفسي، وأسعد نـاسي
ويسرت لليسرى ويسر مـرسلي وسدد سهمي، واستقام قياسي

ولم يكن الاحتفاء به من قبل أبي عنان فقط، وإنما أبان عن هذا الشعور نفسه جموع الأدباء والمفكرين الذين هبوا للترحيب بمقدمه على لسان ابن مرزوق مما يظهر الشهرة التي كانت لابن الخطيب في هذا الوقت، وعلو كعبه في الميادين العلمي والأدبي، والمجال السياسي. ومما خاطبه به ابن مرزوق بمنزل الشاطبي على مرحلة من فاس قوله(11) :

يـا قادمـا وافى بكـــل نجاح أبشر بما تلقـاه بكـل أفـــراح
هذي ذرى ملك الملوك فلذ بها تنـل المنـى وتفـز بكـل سماح

إلى آخر ما كتبه شعرا ونثرا في هذه الرسالة، فراجعه ابن الخطيب كذلك برسالة مماثلة، زاوج فيها بين الشعر والنثر، وهي مؤرخة في 27 ذي قعدة عام 755هـ(12).

---

(9) الاحاطة 2 : 20.

(10) نثير فوائد الجمان ص 289 — 292.

(11) الاحاطة 3 : 107، الاستقصا3 : 192

(12) الاحاطة3 : 108، الاستقصا 3 : 193.

ولا نستبعد أنه أتيح له في هذه السفارة التجول في البلاد المغربية إذ مكث بها حوالي الشهر والنصف، فرسالته التي بعث بها لأبي عنان من سبتة مؤرخة بتاسع محرم عام 756هـ[13].

ويلتحق ابن الخطيب مرة ثالثة بالمغرب، لا للقيام بسفارة عاجلة أو مهمة خاصة، بل وفد عليه لاجئا صحبة سلطانه الغني بالله الذي خلع عن عرشه بغرناطة.

وكان وصول الركب الغرناطي إلى فاس يوم الخميس 6 محرم عام 761هـ فاستقبل الوفد جميعه بحفاوة بالغة تحدث عنها ابن خلدون الذي حضر هذا الاستقبال بصفته كاتب سر فقال : «وأجاز لذي القعدة من سنته، وقدم على السلطان بفاس، وأجل قدومه، وركب للقائه، ودخل به إلى مجلس ملكه، وقد احتفل ترتيبه وغص بالمشيخة والعلية، ووقف وزيره ابن الخطيب فأنشد السلطان قصيدته الرائية يستصرخه لسلطانه، ويستحثه لمظاهرته على أمره، واستعطف واسترحم بما أبكى الناس شفقة ورحمة»[14].

ومن أبيات هذه القصيدة[15] الطويلة التي أبكى بها السامعين، واستدر عطفهم ورحمتهم قوله في الاستنجاد بأبي سالم لنصرة سلطانه المخلوع :

قصدناك يا خير الملوك على النوى لتنصفنا مما جنى عبدك الدهر
كففنا بك الأيام عن غلوائها وقد رَابَنَا منها التعسف والكبر

وفي هذا السياق :

وهذا ابن نصر قد أتى وجناحه مهيض ومن علياك يُلتمس الجبر
غريب يرجى منك ما أنت أهله فإن كنت تبغي الفخر قد جاءك الفخر

ولا ينسى نفسه، وهو يطلب عون أبي سالم وإغاثته :

ولولا حنان منك داركتني به وأحييتني لم تبق عين ولا أثر

---

(13) نثير فرائد الجمان ص 292.

(14) تاريخ ابن خلدون 7 : 638، أزهار الرياض 1 : 203.

(15) اللمحة البدرية ص 122 ـ 125، تاريخ ابن خلدون 7 : 638 ـ 642، أزهار الرياض 1 : 196 ـ 200، النفح 5 : 86 ـ 89.

فكان لرائيته الأثر الكبير في نفوس أبي سالم والحاضرين جميعهم، لذلك أبدى الجميع تعاطفا مع السلطان المخلوع والوافدين معه وفي مقدمتهم ابن الخطيب الذي وصف هو نفسه رد فعل السامعين عقب إنشاده لقصيدة بقوله : «فهاج الامتعاض، وسالت العبرات، وكان يوما مشهودا، وموقفا مشهورا، طال به الحديث، وعمرت به النوادي»[16].

وأحيط الغني بالله بعناية كبيرة، فأعيد إليه اعتباره، وعومل المعاملة اللائقة به، «فلم يفقد من ألقاب ملكه إلا الآلة أدبا مع السلطان»[17] كما يقول ابن خلدون.

أما رفيقه ووزيره ابن الخطيب فقد لقي أيضا من صنوف التكريم والعناية إذ صرف له مرتب يكفيه متطلبات العيش، وبولغ في إكرامه باصدار ظهير يضمن له امتيازات كثيرة في حله وترحاله[18]. واستمر موضع تكريم وعناية طيلة مقامه بالمغرب، إلى أن عبر إلى الأندلس سنة 763هـ، ليلتحق بالغني بالله هناك وقد استعاد عرشه.

ويعود بعد عشر سنوات إلى المغرب، فاراً مما كان يدبر له بغرناطة من دسائس ومكايد، ومحتميا بالسلطة المرينية من غضب سلطان غرناطة، فيلقى كل ما يؤمله من حماية وتكريم، مما زاد في استعداء الخصوم عليه، فألبوا عليه الغني بالله، والرأي العام في غرناطة، وهكذا اتهموه تارة بالالحاد[19]، وتارة أخرى بالتآمر ضد الحكم الغرناطي، بل إنهم نجحوا في دفع المسؤولين هناك إلى إحراق كتبه، وإصدار الحكم على صاحبها بالاعدام. إلا أنهم لم يستطيعوا إقناع المسؤولين المغاربة بتنفيذ هذا الحكم، إلا بعد تولية أبي العباس بن أبي سالم المريني، فلقي إبن الخطيب نهايته المحزنة بفاس سنة 776هـ[20] وهو ينشد ضمن أبيات :

فقل للعدا ذهب ابـن الخطـيب   وفات ومن ذا الذي لا يفوت

---

(16) الاحاطة 2 : 29

(17) تاريخ ابن خلدون 7 : 642، أزهار الرياض1 : 203.

(18) الاحاطة 4 : 453 ــ 455.

(19) المرقبة العليا ص 202، تاريخ ابن خلدون 7 : 696 ــ 697.

(20) تاريخ ابن خلدون 7 : 709، أزهار الرياض 1 : 231، النفح 5 : 104.

نفاضة الجراب :

تبين لنا من هذا العرض الموجز للمهام والظروف التي قادت ابن الخطيب إلى المغرب، أنه قد تردد على هذا البلد في أربع مناسبات مختلفة، لعوامل ودوافع أيضا مختلفة.

فهل دون مذكراته في كل هذه الرحلات والزيارات المغربية ؟ لعله من التسرع أن نبادر إلى الجواب بالنفي أو الاثبات، وإن كنا لا نستعبد أن يكون قد دون رحلاته المغربية كلها، لما يعرف عنه من إدمانه على الكتابة والتدوين، وحرصه على ذكر الأحداث المهم منها والتافه على السواء، لذلك كان تراثه ضخما ومتنوعا من كتب ورسائل وأشعار ومقامات[21].

فكيف لا يهتم مع هذا بأسفاره إلى المغرب ؟ ونجاحه في سفاراته إليه ؟

إن الأثر الوحيد الذي يعرف لابن الخطيب في هذا المجال، هو الذي يعرض لتفاصيل الجولات التي قام بها أثناء زيارته الثالثة للمغرب في الفترة التي لجأ فيها إليه مع ولي نعمته الغني بالله، والأثر الذي نقصده هو كتاب «نفاضة الجراب في علالة الاغتراب» لأن المذكرات التي يتضمنها هذا الكتاب تشير إلى أحداث ووقائع لها إتصال بما عاشه المغرب في فترة لجوء ابن الخطيب إليه (761 — 763).

ومن هنا، فإن ما ورد في آخر الأحاطة من أن «كتاب النفاضة» «قد ألفه بالعدوة بعد صرفه من الأندلس واستقراره بالعدوة بآخرة من عمره وقرب وفاته، ولذلك سماه نفاضة الجراب»[22].

يمكن أن يكون هذا القول استنتاجا للناسخ، لأن الأحداث والمواقف التي يشير إليها تتعلق بفترة اللجوء مع سلطانه في المدة (761 — 763). وبالرغم من أن ابن الخطيب نفسه يذكر بأن كتابه هذا يقع في أربعة أسفار[23]. لكن من المتفق عليه بين الباحثين أن الكتاب لا يتجاوز ثلاثة أسفار، فالسفر الثالث المخطوط بالخزانة العامة هو السفر الأخير من هذا الكتاب كما يظهر من هذه العبارة التي ختم بها

---

(21) الاحاطة 4 : 461، النفح 7 : 97، ابن الخطيب من خلال كتبه1 : 62.

(22) الاحاطة 4 : 637.

(23) نفسه 4 : 459، الاعلام للمراكشي 4 : 445.

وهي : «تم السفر الثالث وبتمامه تم جميع الديوان»(24)، ولعل ابن الخطيب يقصد هذا الكتاب حينما أشار إليه بعنوان كتاب «الرحلة»(25) إذ لا يعرف كتاب آخر لابن الخطيب يصف فيه رحلته وتنقله داخل المغرب غير النفاضة.

ولازالة هذا الالتباس عمد أبو عبد الله ابن غازي المكناسي إلى الجمع بين العنوانين معا حين أورد تراجم علماء التقى بهم ابن الخطيب في مكناس «حسبما ذكر في رحلته المسماة بنفاضة الجراب فيمن بقي من الأصحاب»(26)، فالنفاضة إذن هي التي تسمى بالرحلة.

ولم تكن «نفاضة الجراب» منتشرة بين الناس على نطاق واسع، فابن الأحمر قد أعياه البحث عنها دون فائدة، يقول في ترجمته لابن الخطيب التي نقلها عنه المقري في أزهاره : «ونفاضة الجراب في أربعة أسفار وهي من أحسن تآليفه، ولم أزل أكثر البحث في هذا التاريخ عنها، فلم أقف منها على عين ولا أثر الاعدة أوراق متفرقة، وقد كنت قبل هذا التاريخ رأيت بعضها»(27).

وربما كانت نكبته من عوامل الحد من انتشار كتبه وآرائه وآثاره عامة، ونفاضة الجراب خاصة.

أما عن سبب هذه الرحلة التي يصفها كتاب «نفاضة الجراب» فيفترض أن يكون قد عرض له ابن الخطيب في مقدمة السفر الأول من هذا الكتاب، إلا أن عدم ظفرنا بهذا السفر يجعلنا لا نعرف ما مهد به المؤلف، ولكننا وجدنا — لحسن الحظ — في تأليف آخر له ما يرشدنا إلى سبب هذه الرحلة والباعث عليها. يقول إبن الخطيب ممهدا للظهير الذي خصه به أبو سالم : «وقد تشوفت إلى مطالعة بلاده الغربية، وجهاتها المراكشية بقصد لقاء أهل الصلاح والعبادة وزيارة ملاحد السادة»(28).

---

(24) نفاضة الجراب، مخطوط الخزانة العامة رقم ك 256 ص 290.

(25) الاحاطة 4 : 217.

(26) الروض الهتون ص 44، 60.

(27) أزهار الرياض 1 : 189.

(28) الاحاطة 4 : 452.

فالرحلة إذن سياحية وزيارية، تستهدف الاطلاع على المناطق الغربية من البلاد ولقاء الأعلام بها، وزيارة أضرحة المرينيين بشالة. كما أن الظهير المذكور قد حدد برنامج هذه الرحلة ورسم خطوطها، فبعد نصه على الاذن لابن الخطيب بزيارة التربة المقدسة بشالة يقول : «وقد أذنا له في مشاهدة تلك الجهات من حضرتنا العلية إلى مراكش المحروسة للقاء الأعلام، واجتلاء المعاهد الكرام، والآثار الباقية على الأيام كيف أحب، وعلى ما شاء من إراحة أو إلمام، مصحبا بمن ينوه به في طريقه من الخدام...على أن يدخله إلى المساكن العلية بقصبة مراكش حرسها الله ليشاهد الاثار السلطانية»[29].

فالظهير يمنحه الترخيص بالتجول في المناطق والبلدان الواقعة بين فاس ومراكش، من أجل الاتصال بأعلامها، والوقوف على ما بها من آثار.

أما ابن خلدون فيشير إلى سبب آخر لهذه الرحلة حين ذكر بأن ابن الخطيب «استقر بسلا منتبذا عن سلطانه طول مقامه بالعدوة»[30]، فهل الرحلة إذن كانت من أجل البعد عن سلطانه الغني بالله ؟ ثم لماذا انتبذ عنه وتنحى وعاش بعيدا عنه طيلة الفترة ؟ فهل الرحلة فعلا كانت من أجل زيارة الأضرحة بشالة ؟ أم يعزى الرحيل إلى وقوع جفوة بين ابن الخطيب وسلطانه ؟

تلك أسئلة نكتفي بطرحها الآن، وإن كنا نميل إلى اعتبار الأمرين معا باعثا لهذه الرحلة، فقيها أتيح لابن الخطيب الاطلاع على الجديد، والتعرف على البلدان والأماكن، والتبرك بالأولياء، وزيارة الأضرحة، وهي في نفس الوقت كانت فرصة للابتعاد عن صاحبه إن كانت الجفوة شيئا قد وقع فعلا.

محتوى نفاضة الجراب :

سبقت الاشارة إلى أن كتاب النفاضة يقع في ثلاثة أسفار، لكننا لا نعرف منها إلا الثاني والثالث، بينما يعتبر الأول في حكم الضائع المفقود

ولعل هذا السفر المفقود قد خصصه ابن الخطيب لوصف بداية الرحلة من مدينة فاس إلى جبل هنتاتة، كما يرى أكثر الباحثين، فلقد كتب الأستاذ المنوني على أول

---

(29) نفسه 4 : 454.

(30) تاريخ ابن خلدون 7 : 693.

ورقة من السفر الثالث المخطوط بالخزانة العامة ما يلي : «إن الجزء الذي لا يزال ضائعا هو الأول، وهو الذي اقتبس منه ابن غازي في الروض وهو أيضا بدون شك الذي يفصل رحلة ابن الخطيب بفاس»(31).

وهكذا، فقد أفادنا إبن غازي كثيرا حينما ضمن كتابه الروض الهتون نصوصا من النفاضة، تلك التي تحدث فيها ابن الخطيب عن مكناسة الزيتون.

ومن هذه النصوص ما دونه ابن الخطيب في وصف المدينة. قال(32) : «وأطلت مدينة مكناسة في مظهر النجد، رافلة في حلة الدوح، مبتسمة عن شنب المياه العذبة، سافرة عن أجمل المرأى قد أحكم وضعها الذي أخرج المرعى».

فمدينة مكناسة ــ في نظر ابن الخطيب ــ تفضل كثيرا من مثيلاتها في صفات مختلفة كالهواء الجميل، وكثرة الفواكه، وامتلاء الخزائن. لذلك لم يكن ابن عبدون مبالغا في قوله(33) :

إن تفتخر فاس بما في طيها وبأنها في زيها حسناء
يكفيك من مكناسة أرجاؤها والأطيبان هواؤها والماء

ويستعرض النص ما تتوفر عليه المدينة من ساحات فسيحة، وأشجار ملتفة، وآثار خالدة كالزاويتين، والخان البديع المجاور لهما، والمدارس الثلاث التي أسست لنشر العلوم والمعرفة، وهي آية في الحسن والتنظيم(34).

والتفت ابن الخطيب إلى جبل زرهون الذي يسامت مكناس شرقا، فوصفه بأنه ظاهر البركة، متزاحم العمران، كثير الزياتين والأشجار، منبجس العيون، ونظن أن هذه الصفات ما زالت تنطبق على هذه المنطقة إلى الآن.

ويخلد ابن الخطيب زيارته لهذه المدينة بأبيات شعرية من وحي هذه المناسبة، يعدد فيها مظاهر الحسن والجمال التي يلاحظها الزائر، منتهيا إلى القول(35) :

---

(31) مخطوط الخزانة العامة رقم ك 256.

(32) الروض الهتون ص 69 ــ 71، النفح 6 : 211.

(33) الروض الهتون ص 70.

(34) نفسه ص 69 ــ 70.

(35) نفسه ص 70 ــ 71.

حييت من بلـد خصيب أرضه مثوى أمـان أو منـاخ أمـون
وضفت عليك من الالـه عنايـة تكسوك ثـوبي أمنـة وسكـون

إلا أن هذه الصورة الجميلة، وهذا الشعور بالرضى، يناقضهما ابن الخطيب نفسه في كتابه «معيار الاختيار»، جريا على منهجه في هذا الكتاب، في التنقيب عن عيوب البلدان التي تحدث عنها فيه. فمكناسة، بالرغم من مزاياها الكثيرة ومنشآتها العديدة «إلا أن طينها ضحضاح، لذي الظرف فيه إفتضاح، وأزقتها لا يفارقها القذر، وأسواقها يكثر بها الهذر، وعقاربها لا تبقي ولا تذر، ومقبرتها لا يحتج عن إهمالها ولا يعتذر»[36].

وأورد ابن غازي أيضا نصا آخر من [37] «نفاضة الجراب» وهو الذي ترجم فيه ابن الخطيب لمن التقى بهم في رحلته من علماء مكناس وأدبائها. يقول ابن غازي في معرض حديثه عن أعلام هذه المدينة :

«ومنهم الجماعة الذين لقيهم أبو عبد الله ابن الخطيب بها عام إحدى وسبعين[38] وسبعمائة حسبما ذكر في رحلته المسماة بنفاضة الجراب فيمن بقي من الأصحاب[39] قال لما دخلها نزل بدار حافلة وأتت إليه القضاة والعدول والأدباء والفضلاء»[40] وهكذا سعى إليه فضلاء المدينة والنخبة الممتازة بها، لما له من مكانة رفيعة في المجالين العلمي والأدبي، بالاضافة إلى شهرته في مجال السياسة والحكم، ونجاحه فيما أسند إليه من وزارة وسفارة...

ولم يذكر ابن غازي في كتابه كل هؤلاء القضاة والعدول والأدباء والفضلاء الذين التقى بهم ابن الخطيب في مدينة مكناس، وإنما اقتصر على سبعة أعلام فقط من هؤلاء.

---

(36) معيار الاختيار ص 172.

(37) الروض الهتون ص 44 ــ 50.

(38) صوابه واحد وستين.

(39) العنوان المعروف «نفاضة الجراب في علالة الاغتراب».

(40) الروض الهتون ص 44.

ومن الذين ذكرهم :

ـــ الشيخ الفقيه القاضي بمكناس أبو محمد عبد الحق بن سعيد بن محمد[41] الذي كان من أهل المعرفة والفصاحة، والقائم على كتاب أبي عمرو بن الحاجب فيما دون تلمسان، لأنه تخرج فيه على عالميها ابني الامام المشهورين. قرأ عليه ابن الخطيب تأليفه المسمى «الجازمة على الرسالة الحاكمة» عقب فيه ابن سعيد على فتوى ابن العربي.

ـــ الفقيه الفاضل الخير يونس بن عطية الونشريسي[42] الذي ولي القضاء بقصر كتامة (القصر الكبير)، كانت له عناية بفروع الفقه.

ـــ الفقيه العدل أبو علي الحسن بن عثمان ابن عطية الونشريسي[43]، ويعرفه ابن الخطيب بأنه «من أهل الحساب والقيام على الفرائض والعناية بفروع الفقه ومن ذوي السذاجة والفضل، ويقرض الشعر، وله أرجوزة في الفرائض»

ـــ الفقيه العدل الخير أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي عفيف[44]، وجده ابن الخطيب «متصدرا لقراءة كتاب الشفا النبوي، ولديه جملة حسنة من أصول الفقه، أشف بها على كثير من نظرائه.»

ـــ الفقيه الأستاذ في فن العربية أبو علي عمر بن عثمان الونشريسي[45] .ذكر ابن الخطيب بأنه حضر مذاكرته في مسألة بلاغية نحوية أعوزت عليه وطال عنها سؤاله.

ـــ الشيخ الفقيه العدل الأديب الاخباري المشارك أبو جعفر أحمد بن محمد ابن إبراهيم الأوسي الجنان[46]، ووصفه إلى جانب ما تقدم في تحليته بقوله عنه : «من أهل الظرف والانطباع والفضيلة كاتب عاقد (للشروط) ناظم ناثر مشارك في فنون من العلم».

---

(41) نفسه ص 44.

(42) نفسه ص 44.

(43) نفسه ص 45.

(44) نفسه ص 45.

(45) الروض المتون ص 45 ـ 46

(46) نفسه ص 46 ـ 47

رأى له تصنيفا حسنا فناوله إياه وأذن في حمله عنه، كما أنشده كثيرا من شعره، ومن خلال ما أورده ابن غازي يبدو التجاوب كبيرا بين ابن الخطيب وأبي جعفر الجنان. يقول ابن الخطيب :

«وفاتحته محركا قريحته ومستثيرا ما عنده بقولي :

إن كانت الآداب أضحت جنة فلقد غدا جنانها الجنان
أقلامه القضب اللدان بدوحها والزهر ما رقمته منه بنان»

وأتبع البيتين برسالة نثرية لم يوردها ابن غازي ـــ مع الأسف ـــ مكتفيا بقوله : «وذكر ابن الخطيب بعد البيتين سجعا بليغا». أما جواب الجنان الذي زاوج فيه أيضا بين الشعر والنثر، فقد أورده ابن غازي بكامله[47] .يقول في مفتتح هذا الخطاب :

يا خاطب الآداب مهلا فقد ردك عن خطبتها ابن الخطيب

ـــ الشيخ الفقيه الخير القاضي بمكناس أبو عبد الله محمد بن أبي رمانة[48]، وصفه ابن الخطيب بأنه «شيخ فاضل من أهل الحياء والحشمة وذوي السذاجة والعفة» يذكر بأنه داعبه بشعر ونثر، اكتفى ابن غازي بايراد الأبيات الثلاثة قائلا : «وذكر بعده نثرا بديعا يوقف عليه في محله» ومن حسن الحظ أن المقري أورد هذا العتاب بكامله شعرا ونثرا[49].

وبالاضافة إلى هذه الافادات التي تكامل فيها أبو العباس المقري مع ابن غازي، فإننا نجد المقري قد نقل في مواضع أخرى من النفاضة أيضا، واغلب ظننا أن النقل كان من السفر الأول المفقود، فلقد أورد المقري ملخصا لما كتبه ابن الخطيب عن أبي العباس ابن عاشر بسلا. يقول المقري : «كان لسان الدين حريصا على لقائه

---

(47) نفسه ص 48 ـــ 49.

(48) نفسه ص 50.

(49) النفح 5 : 143 ـــ 144.

بسلا أيام كان بها. وقد لقيه و لم يتمل منه لشدة نفوره من الناس خصوصا أصحاب الرياسة، ولذا قال لسان الدين لما ذكر أنه لقيه في نفاضة الجراب ما صورته يسر الله لقاءه على تعذره»(50).

ولقد قدمه ابن الخطيب في نفاضته بقوله : «ولقيت من أولياء الله تعالى بسلا الولي الزاهد الكبير المنقطع القرين، فرارا عن زهرة الدنيا، وعزوفا عنها، وإغفاء في الورع، وشهرة بالكشف، وإجابة الدعوة، وظهور الكرامة، أبا العباس ابن عاشر»(51)

ومما نقله المقري عن النفاضة ما كتبه ابن الخطيب عن سلطانه الغني بالله من فاس مخاطبا ضريح أبي العباس السبتي(52)، والرسالة عبارة عن خمسة أبيات شعرية متبوعة برسالة نثرية.

كما أورد المقري أيضا الأبيات التي قالها ابن الخطيب وهو يشرف على مراكش، جاء فيها(53) :

حتى إذا ما المنار الفرد لاح لنا صحت ابشري يا مطايا جاءك الفرج
قربت من عامر دارا ومنزلة والشاهد العدل هذا الطيب الأرج

ولا ندري من أين وقع هذا النقل عن ابن الخطيب، لأن هذه الأبيات لم ترد في السفرين الباقيين من النفاضة(54).

وأورد شعرا آخر له قاله عند حلوله بمراكش كذلك وهو يتأمل في أحوالها وما آل إليه أمرها، مما جاء فيه(55) :

بلد قد غزاه صرف الليالي وأباح المصون منه مبيح

(50) النفح 5 : 354، الاستقصاء 4 : 24.

(51) النفح 6 : 492.

(52) نفسه 3 : 100.

(53) نفسه 6 : 481، الأزهار 1 : 265.

(54) بل وردت في السفر الثالث كما سيأتي.

(55) نفسه 6 : 485، الأزهار 1 : 290، الاستقصاء 4 : 16.

إلى أن يقول :

ساكن الدار روحها، كيف يبقى جسد بعدما تولى الروح ؟

وتستوقفنا الأبيات التي صدر بها ابن الخطيب رسالته إلى الوالي محمد بن حسون بن أبي العلاء، تلك التي أثبتها المقري في كتابه «أزهار الرياض»(56)

فهل نعد هذا النص من ضمن ما يحتويه السفر الأول المفقود من النفاضة ؟ إن الذي يحملنا على مثل هذا الاعتقاد ما أورده ابن الخطيب في السفر الثاني، في معرض ذكره لمن التقى بهم من أعلام مدينة آسفي، حيث قال : «ومنهم والي الوطن، ومؤمّن السبل وجماعة مال الجباية الشيخ الرئيس الفقيه أبو عبد الله بن حسون بن أبي العلاء وقد مر بعض ذكره»(57)، مع العلم أنه لم يرد ذكره في الصفحات التي سبقت هذا القول من السفر الثاني.

وقبل أن ينقل عن النفاضة كل من ابن غازي والمقري، فمؤلفها نفسه قد نقل عنها بعض النصوص أيضا، وضمنها كتاب الاحاطة مثلا، فلقد أورد في الاحاطة القصيدة الطويلة لأبي القاسم البرجي في المولد النبوي، ممهدا لها بقوله : «ثبت في كتاب نفاضة الجراب من تأليفنا عند ذكر المدعى الكبير بباب ملك المغرب ليلة ميلاد رسول الله ﷺ، وذكر من أنشد ليلتئذ من الشعراء ما نصه»(58).

ولعله يقصد المولد النبوي لسنة 761هـ ، حيث كان ابن الخطيب ما زال في الحضرة المرينية لم ينطلق بعد في رحلته. فمن المعروف أن تاريخ حلوله بفاس مع سلطانه المنفي هو سادس محرم عام 761هـ(59)، بينما لم يحصل على ترخيص أبي سالم له بالذهاب إلى شالة والبلدان الأخرى إلا في 21 ربيع الثاني عام 761هـ(60).

فمن المرجح إذن أن تكون هذه القصيدة المولدية قد وردت في السفر الأول المفقود، بل وفي أول هذا السفر، وابن الخطيب ما زال يستعد لجمع مستلزمات هذه الرحلة.

---

(56) الازهار 1 : 289.

(57) النفاضة ص 59.

(58) الاحاطة 2 : 295، النفح 6 : 69.

(59) اللمحة البدرية ص 122.

(60) الاحاطة 4 : 455.

أما السفر الثاني، وهو الذي طبع من النفاضة[61]، فقد خصصه ابن الخطيب لرحلته في الجنوب المغربي، زار خلالها على التتابع جبل هنتاتة فبلدة أغمات، فمدينة مراكش، ثم آسفي قبل أن يلتحق بشالة آملا البقاء إلى جوار ضرائح بني مرين. وهكذا يبتدىء هذا السفر بالحديث عن الشروع في الصعود إلى جبل هنتاتة، الذي كان توجهه إليه من أهداف الرحلة «وأقوى بواعث الوجهة، وأخلص مقاصد الرحلة»[62] لكون هذا الجبل يحتضن مكانين مباركين هما الدار التي استقر بها أبو الحسن المريني في آخر حياته، ودار المهدي بن تومرت ومسجده.

ولقد أعرب عن سروره وهو يقصد ذلك المكان، في المخاطبة التي خص بها عميده أبا ثابت عامر الهنتاني، فزيارته بمثابة الحج الذي تهفو النفوس إلى تحقيقه، وتشعر بالسعادة وهي تسعى بين جوانب هذه البقعة. يقول في الأبيات التي صدر بها هذه الرسالة[63]

تقول لي الأظعان والشوق في الحشا ... له الحكم يمضي بين ناه وآمر
إذا جبل التوحيد أصبحت فارعا ... فخيم قرير العين في دار عامر
وزر تربها المعصوم إن مزارها ... هو الحج يمضي نحوه كل ضامر

وكانت هذه المخاطبة داعية إلى الانجاح، إذ احتفى عميد المنطقة المذكور بقدومه فأكرم وفادته وهيأ مأدبة فاخرة للاعراب عن هذا التقدير والاحتفاء[64]، فهان ما كابده ابن الخطيب ومرافقوه للوصول إلى هذا الجبل من طريق وعر، وبرد قارس، وثلج متراكم...[65]

وكان هذا الاحتفال جلسة سمرية، أثيرت فيها قضايا لها صلة بأخبار المنطقة تاريخيا، وما اشتهر من أخبار أبي الحسن أثناء لجوئه إليها[66].

---

(61) نشر بتحقيق د. أحمد مختار العبادي، ومراجعة د. عبد العزيز الاهواني.

(62) نفاضة الجراب ص 43.

(63) نفسه ص 44.

(64) نفسه ص 46 ــ 47.

(65) نفسه ص 45 ــ 46.

(66) نفسه ص 47 ــ 48.

واهتم في هذه الزيارة بدخول دار أبي الحسن، والوقوف على آثار المهدي هناك، والاطلاع على مجتمع الأهالي لهذ المنطقة.

ومن حسن الحظ أنه وصف كل ذلك بدقة متناهية، فلم يهمل أي شيء من مشاهداته وملاحظاته، كما يبدو من وصفه للطريق التي سلكوها إلى دار أبي الحسن يقول : «ومن الغد كان التوجه إلى ذلك المحل المبارك، فاقتحمنا وعرا نزل فيه الذر، ولا يسلكه مع الحلم الطيف، وتسنمنا شعابا تعجز عنها العصم، وتجاوزنا مهاوي مدت فيها أسراط من الخشب ترتفع عند الضرورة الفادحة فتقطع عمن وراءها الآمال إلى أن أفضينا و لم نكد إلى المحل المقصود وهي دار فوراء نبيهة البنية بالنسبة إلى جنسها»[67]. ولكن بالرغم من وعورة المسالك المؤدية إليها ووقوع هذه الدار في الأماكن الشاهقة، فإنها مقصودة من الكثيرين، لأجل التبرك بها، وشفاء مرضاهم، ولا غرابة في هذا، فصاحب الدار من أحسن من يتبرك به لاستجماعه صفات مثالية كالعدل، وبر الوالدين، والورع، والعلم، والعطف، والرفق بالضعيف والمسكين، والزهد في الحياة...[68]

وبقدر ما كانت تحظى به هذه الدار من منزلة رفيعة في هذه المنطقة كانت دار المهدي ومرافقها، على النقيض، مهملة، خاملة الذكر، مهجورة، ومع ذلك فقد وقف ابن الخطيب على هذه الآثار والمرافق من مسجد المهدي وداره، وأثر مدرسته، وسجنه، فوجد «كل ذلك من الخمول واللطو واستهجان الآلة على حال شبيهة بمباني الدبر، وقرى النمل، وأعشاش الخشاش من الطير»[69]، وهذا ما جعله يعجب من هذا التحول، ويعتبر من هذا الانقلاب. فبعد العز الرفيع، والملك الواسع الذي عرفه عهد المهدي أصبحت داره خربة مهجورة...

ويقصد بعد ذلك منازل أهالي هذه المنطقة، فيغمرونه ومن معه بكرمهم وعطايهم وتحفهم وهداياهم الثمينة.

ولاحظ ابن الخطيب بأنهم متشبتون بدينهم في مظهرهم ومخبرهم معا، فلقد شاهد — وهو يزور أغلب منازلهم — «من أجناس الفرش المرفوعة، والمراتب المقدرة،

---

(67) نفاضة الجراب ص 48.

(68) نفسه ص 49.

(69) نفسه ص 50.

والستر الديباجية المسدولة على الأرائك الممهدة، والسيوف المعلقة تتخللها العدة من أصونة مدمج القرآن وصحيح الحديث ساكنة منها في جفون منقوشة محلاة بالابريز مقلدة بمحامل الحرير النسيج»[70]

وكانت زيارته محل وفاة أبي الحسن هناك ذات أثر كبير في نفسيته المرهفة اذ خلدها بقصيدة طويلة[71] يقول في مطلعها :

يــا حسنها مــن أربــع وديــار أضحت لباغي الأمن دار قــرار

وبدا من خلال هذه القصيدة شاعرا مقتدرا، لبقا في قدرته على الجمع بين الأضداد، إذ تضمنت قصيدته معاني رثاء أبي الحسن، ومعاني مدح ابنه أبي سالم، مع الثناء على قبيلة هنتاتة التي نصرت أبا الحسن وآوته.

وبعد أن أنهى زيارته لجبل هنتاتة، اتجه نحو أغمات وريكة، وهو مكان له مكانته التاريخية والأدبية، لذلك كان وصفه لها أهم وثيقة تاريخية وجغرافية، فموقع المدينة سهل فسيح، كثير الماء والعشب، أسوارها تراب محمر اللون، وبالمدينة مسجد جامع يصفه بأنه «عتيق عادي كبير المساحة رحيب الكنف، متجدد الألقاب ومئذنته لا نظير لها في معمور الأرض»[72].

وتقع بين هذا المسجد والنهر المار بازائه قبة عظيمة فخمة في وسطها «فوارة خرقاء في خصة من الحجر الأدكن»[73] ولاحظ ابن الخطيب بأن حافاتها قد تثلمت نظرا لقدم عهدها.

وتحدث ابن الخطيب عن أطلال وبقايا دور هناك، بلغت قمة الفن وروعة الجمال، وبساتين وجنات كثيرة، إلا أن الاهمال باد عليها زمن زيارته لها، لذلك يرى بأنه «لم يبلغ الخراب من مدينة ما بلغ من هذه الأيم المهتضمة، فتشعثت محاسنها، وأخلقت ملابسها، وأوحش عمرانها، لتتابع الفتن وعبث الشرار»[74].

---

(70) نفاضة الجراب ص 51.

(71) نفسه ص 52، النفح 6 : 217.

(72) نفسه ص 55.

(73) نفسه ص 56.

(74) نفسه ص 56.

ويلتفت إلى أهل هذه البلدة فيذكر بأنهم «ينسب إليهم نوك وغفلة» صارت موضوعاً للتندر والسمر[75]. وهذا يتفق مع الوصف الذي ساقه ابن الخطيب نفسه في كتابه «معيار الاختيار»[76].

ولا تذكر أغمات إلا وذكر معها دفينها وسجينها ابن عباد، لذلك سعى ابن الخطيب إلى خارجها للوقوف على قبره، واستعادة ما حكاه التاريخ من مجد أدبي وسياسي لهذا الأديب الأمير في قصيدة أنشده إياها مناجيا ومترحما[77] :

قد زرت قبرك عن طوع بأغمات رأيت ذلك من أولى المهمات
...كرمت حيا وميتا واشتهرت علا فأنت سلطان أحياء وأموات

وينقل المقري في أزهاره تمهيدا لهذه الأبيات فيه بعض التغيير يقول فيه ابن الخطيب بأنه وقف على قبر ابن عباد في حركة راحة أعملها إلى الجهات المراكشية باعثها لقاء الصالحين ومشاهدة الآثار عام واحد وستين وسبعمائة[78].

وهذا يلقي الضوء على باعث رحلته إلى أغمات، فلم يذهب إليها إلا من أجل ما بها من الصالحين والآثار، لذلك تأمل آثارها المعمارية وزار أضرحة أوليائها، وكانت خاتمة هذه الجولة الزيارية وقوفه على قبر الولي أبي عبد الله محمد الهزميري[79].

ويبدي عجبه وهو ينصرف إلى مراكش من خصوبة الأراضي الواقعة بين المدينتين وغناها، فمنذ خروجه من أغمات وهو يماشي «أدواح الزيتون والأشجار تساوقها جريات الأنهار، تتخللها أطلال الحلل والديار»[80].

---

(75) نفاضة الجراب ص 55.

(76) معيار الاختيار ص 164.

(77) النفاضة ص 57، الازهار 1 : 297، النفح 6 : 495.

(78) أزهار الرياض 1 : 297، النفح 6 : 495.

(79) النفاضة ص 58.

(80) نفاضة الجراب ص 58.

وحينما يدخل مراكش تنتابه لحظة تأمل يقارن فيها بين ماضي هذه المدينة المشرق العظيم وحاضرها الباهت، فيرثي حالها ويعتبر بما صارت إليه في أبيات شعرية لم يضمنها ابن الخطيب كتابه النفاضة. يقول فيها(81) :

بلد قد غزاه صرف الليالي وأباح المصون منه مبيح

إلى أن يقول :

كم معان غابت بتلك المغاني وجمال أخفاه ذاك الضريح
وملوك تعبدوا الدهر لما أصبح الدهر وهو عبد صريح

وهكذا غادرها في تأثر بين إلى مدينة آسفي، وذلك في يوم الأحد 23 جمادى الآخرة عام 761هـ(82).

ويذكر بأنه خرج في صحبتهم جماعة من أشياخ هذه المناطق لحمايتهم من أعراب تلك الجهات(83)، وهكذا لم يفارقهم إلا بعد الاطمئنان عليهم والاجتياز بهم من أحياء بني الحارث، وبني جابر، وبني ماقر، ولعلها مناطق لم يكن المسافر يأمن بها على نفسه وماله.

وحينما يصل موكب ابن الخطيب إلى مدينة آسفي يتلقاه أهلها وعلى رأسهم شيخ المدينة حفيد الولي أبي محمد صالح مما أثلج صدر ابن الخطيب وأدخل السرور عليه، فوصفها بما يظهر ارتياحه وإعجابه يقول : «وهذا البلد فسيح، طيب الهواء، كريم التربة، خصيب الجناب، وأهله أولو خيرية وجنوح إلى الصلاح»(84) فلم يذكر بعض عيوب هذه المدينة إلا في كتابه« معيار الاختيار»(85) جريا على منهجه وطريقته فيه. وأول عمل قام به في أسفي هو توجهه إلى رباط الشيخ أبي محمد صالح(86)، الذي خصه بوصف واف، يبدو من خلاله ما كان يلقاه هذا الرباط من عناية واهتمام من لدن أهل البلد والوافدين على السواء.

---

(81) الازهار 1 : 290، النفح 6 : 485.

(82) النفاضة ص 68

(83) نفسه ص 68 ـ 69.

(84) نفسه ص 71.

(85) معيار الاختيار ص 160 ـ 161.

(86) نفاضة الجراب ص 71.

ولقد وجد ابن الخطيب بهذه البلدة مدرسة وماريستانا، إلا أنه يفيض في ذكر مميزات مسجدها الجامع الذي صلى به، يقول في وصفه : «وهو مبني عتيق، ومجمع فسيح متعدد الزيادات والصحون والتعاريج... وبصحن هذا المسجد جباب للماء ينتابها الناس لسقيهم ووضوئهم فيحسبهم، ويقابل القبلة من جوفي الصحن زاوية بها فقراء يدعون ذكراً لله فيعاطون مقام التوكل، فلا يغب عنهم التفقد»(87)

وكانت هذه المدينة هي أبعد نقطة في رحلة ابن الخطيب جنوبا، إذ بعد يومين فقط من مقامه بها، يغادرها في اتجاه الشمال قاصدا شالة.

ولقد توقف في طريقه في أهم المنازل كمنزل أبي خدّو(88)، حيث اعتنى به صاحبه وأكرمه وعمل على حمايته ومؤانسته ثم نزل في سور موسى من مجامع دكالة(89)، فوصف هذا المكان بإسهاب وتحدث عن إمكاناته، ثم اجتاز موكبه بحصن أسايس(90)، بدكالة أيضا، ثم بمكان يعرف باسكاون(91)، ثم توقف بأزمور(92)، فمدينة أنفا(93)، إلى أن نزل بشالة بجوار قبر أبي الحسن المريني كما يتجلى من قوله : «ثم كان الارتحال إلى التربة المولوية المحترمة بشالة فألقيت بها البرك وحططت الرحل»(94). ولعل هذا النزول بشالة كان في شهر رجب عام 761هـ، فرسالته إلى أبي سالم المريني بعد عودته من رحلته مؤرخة بأحد عشر رجب من نفس السنة(95).

وبذلك انتهت هذه الرحلة التي تضمنها السفر الثاني، بعد أن التزم في رسالته المذكورة بملازمة أضرحة المرينيين في شالة والبقاء بجوارها.

---

(87) نفاضة الجراب ص 72.

(88) نفسه ص 73، النفح 6 : 486.

(89) نفسه 74 ــ 75

(90) نفسه ص 77.

(91) نفسه ص 78.

(92) نفسه ص 78.

(93) نفسه ص 79.

(94) نفسه ص 81.

(95) نفسه ص 81.

لقاء الأعلام :

تحدث ابن الخطيب في هذا الجزء من الرحلة عمن التقى بهم من أعلام في البلدان التي دخلها، وهم يناهزون عشرين علما من مختلف الأصناف والمستويات، فلقد التقى في هنتاتة بشيخها أبي ثابت عامر الهنتاتي الذي وصفه «بالرجاحة والرأي والسياسة المتفق فيه على إفاضة العدل، وكف اليد والتجافي عن مال الجباية»[96].

والتقى في أغمات بخطيبها الذي أطرفه «بأخبار من اعتقل فيها من مخلوع ملوك الأندلس وأمراء طوائفها»[97].

أما في مدينة مراكش فقد لقي جملة من أولى الدين والدنيا على حد تعبيره.

فمن أهل العلم والدين الشيخ الفقيه القاضي أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله الهرغي الزقندري[98] الذي خصه بترجمة وافية، تحدث فيها عن أهم صفاته، كسعة الاطلاع، وحسن المجالسة، وطيب المعاشرة. كما لخص رحلته التي حج فيها، وأخذ بها عن شيوخ كثيرين ذكر بعضهم ابن الخطيب في هذه الترجمة منهم المراكشيون، وأهل أغمات، والفاسيون، وأهل تازا، والتلمسانيون، والتونسيون، وأهل الاسكندرية وأهل مصر، وأهل دمشق، ومن الصالحية، وأهل مكة،وأهل المدينة... وذكر أنه ولي قضاء مراكش واغمات وسبتة.

ومن أهل العلم والدين أيضا الشيخ العدل القاضي برباط آسفي عبد الرحمن بن علي بن أبي العيش القيسي[99]، وصفه بالجد في البحث والميل إلى المذاكرة، والتمكن العلمي،إذ «يخوض في كل فن، ويلقي دلوه إلى كل حوض»

ومن هؤلاء الأستاذ المتفنن النظار أبو عبد الله محمد بن عبد الله ابن الفخار[100]، الذي كان يقرىء بالمدرسة العظمى علم اللسان، والأصلين، والفروع.

---

(96) نفاضة الجراب ص 44.

(97) نفسه ص 56.

(98) نفسه ص 62 ـ 66.

(99) نفسه ص 66.

(100) نفسه ص 66 ـ 67.

وأبو عبد الله محمد بن القاسم بن عمر بن عبد الله الصيرفي[101]، وصفه بأنه «من أهل النبل والظرف»، كتب عن الأمراء بمراكش.

والتقى في مراكش من أهل الدنيا جماعة من المسؤولين كالفقيه علي ابن العباس بن موسى بن أبي حمو[102]، كان «نائب الملك، وحافظ الرسم، وجار القصر» وأبي عبد الله ابن حسون[103] الذي كان يقوم بمهام «والى الوطن ومؤمّن السبيل، وجماعة مال الجباية» مدحه ابن الخطيب بقصيدة جاء فيها[104] :

من زار ربعك لم تبرح جوارحه   تروي أحاديث ما أوليت من منن
فالعين عن قرة والكف عن صلة   والقلب عن جابر والأذن عن حسن

ومن أهل الدنيا أيضا أبو الحسين[105] بن أبي محمد عبد الله بن أبي مدين، الذي كان يتولى مهمة «صاحب الأشغال ملك الحضرة المراكشية» يقول عنه بأنه جالسه فرأى ذكاءه متوارثا، ويبدو أنه كان أديبا شاعرا متمكنا فهو الذي خاطب ابن الخطيب بقصيدة يقول فيها[106] :

أيا سيـــدا حـــاز سبـــق العـــلا   بـفضل النهى والسجايـــا الحسان
ويـــا نخبـــة الـــوقت والمقتـــدى   بـــه في فنـــون علـــوم الـــلسان
ويـــا أوحـــد الـــعصر في نثره   وفي نظم شعـر كنظـم الجمـــان

والتقى ابن الخطيب في مدينة آسفي، بحفيد الولي أبي محمد صالح أحمد بن يوسف[107] الذي قال عنه بأنه «جالس السلطان، وقاد ركب الحجاز وجر ببلده دنيا عريضة واقتعد غارب غنى جم»، خاطبه برسالة نثرية صدرها ببيتين من الشعر في مدحه والثناء على الفخر الذي ورثه.

---

(101) نفسه ص 67.

(102) نفاضة الجراب ص 59.

(103) نفسه ص 59.

(104) نفسه ص 60 ـ 61.

(105) نفسه ص 61.

(106) نفسه ص 62.

(107) نفسه ص 69 ـ 70.

كما التقى بها بصاحب السوق ومقيم رسم الماريستان الحاج أبي الضياء الهاشمي الجزيري[108]، ووصفه بأنه «حسن الخط، جميل العشرة».

وفي دكالة تلقاه الشيخ أبو عبد الله اللجائي[109] في جملة من أتباع الخدمة والقاضي بها الحاج أبو عبد الله محمد بن سعيد الصنهاجي الزموري[110] الذي خصه بترجمة وافية أدرج ضمنها ما خاطبه به بعد توصله بإجازته له.

وهناك في أزمور يلتقي كذلك بالحسن بن يحيى بن حسون[111] الذي لم يفارقه ابن الخطيب إلا ولسانه ينطق بالثناء قائلا :

إحسانكم يا بني يحيى بن حسون أزرى على كل منثور ومـوزون

وحينما يحل بمدينة أنفا يلتقي بأعلام[112] يصفهم بالأفاضل، كالقاضي الشيخ الفقيه الحاج أبي بكر عثمان بن صالح المسراتي المراكشي، الذي تتلمذ على علماء مراكش، وحاحة، وأغمات، ورحل للديار المقدسة، واشتغل بالاقراء في مدرسة أنفا، كما تولى القضاء في بلدان مغربية عديدة.

والعدل السري أبي العباس أحمد بن شرف بن علي الشلي من أهل تامسنا.

والعدل أبي العباس أحمد بن أبي بكر البرغواطي.

والشيخ الخطيب الخير أبي الحسن علي بن أبي حدو.

وأولاد الفقيه القاضي أبي عمر بن محمد الزناتي.

ولا يمكننا استبعاد الفترة التي قضاها بسلا، فرغم أن إقامته بها قاربت السنتين إذ لم يغادرها إلا حينما استدعي للعودة إلى الأندلس، لكن نشاطه بها وحرصه على أن يدون كل علاقاته واهتماماته، وما شاهده هناك من أحداث، وما صدر عنه بها من رسائل وأشعار وكتب، كل ذلك يعد من صميم الرحلة التي نحن بصددها.

---

(108) نفسه ص 72 ــ 73.

(109) نفسه ص 75.

(110) نفاضة الجراب ص 75 ــ 77.

(111) نفسه ص 78.

(112) نفسه ص 79 ــ 80.

مخاطباته بسلا :

فالمخاطبات والرسائل التي صدرت عنه من سلا كثيرة ومختلفة، تضمن هذا السفر أكثر من أربعين منها.

وإذا حاولنا استقراء هذه الرسائل، فإننا نجدها تلقي الضوء على ظروف ابن الخطيب، وتطرح مشاكله، وتعكس الأجواء التي انتقل إليها، وتفيدنا في التعرف على الأشخاص الذين كان يتعامل معهم أو يخاطبهم ويحاورهم، وهم في أغلبهم ممن لهم صلة بالمسؤولية والسلطة. فلقد كان يتوجه برسائله إلى السلطان ومن حوله من الوزراء والمسؤولين والكتاب وشيوخ القبائل والجهات كأبي سالم، وأبي زيان، وعماد الدولة أبي علي عمر بن عبد الله، وعميد مراكش عامر الهنتاتي، والشيخ يحيى بن رحو، وشيخ العرب مبارك الخلطي، وأصحاب العلامة، والكتاب... وغيرهم.

وهكذا كاتب أبا سالم في هذه الفترة ثلاث مرات، طلب منه في المرة الأولى المؤرخة في 11 رجب عام 761هـ[113] التدخل لدى سلطان غرناطة ليشفع له في رد ما أخذ منه هناك، أما في المرة الثانية[114] فقد شكره على مساعيه الناجحة بالأندلس من أجل إرجاع ما أخذ منه، مؤكدا له ملازمته لقبر أبيه، بينما تمت المكاتبة الثالثة[115] عقب فتح تلمسان في 17 شعبان من نفس العام، لذلك هنأه في رسالته بهذا الفتح الذي «ألحف الخلق ظلا ممدودا، وفتح باب الحج وكان مسدودا، وأقر عيون أولياء الله الذين يذكرون الله قياما وقعودا».

وحينما تولى أبو زيان زمام الأمور، بادر ابن الخطيب إلى مراسلته لتهنئته، وتذكيره بملازمة الأضرحة في شالة حتى تبقى الجراية مستمرة[116].

وخاطب عميد الدولة خمس مرات[117]؛ إحداها كانت لتهنئته بعودته من زيارة الصالحين بباديس[118]، وإظهار شوقه إليه.

---

(113) نفاضة الجراب ص 81، أزهار الرياض 1 : 277.

(114) النفاضة ص 88.

(115) نفسه ص 91 ــ 101. أزهار الرياض 1 : 286.

(116) نفسه ص 354 ــ 358.

(117) نفاضة الجراب ص 196، 198، 200.

(118) نفسه ص 200 ــ 203.

وخاطب أيضا كلا من الشيخ يحيى بن رحو[119]، وعماد الدين عمر الياباني[120] يرجو منهما في الرسالتين تقديم المساعدة إليه.

وبالاضافة إلى هذه المكاتبات التي كان يهدف منها إلى عرض مشاكله المختلفة، والتماس المساعدة في حلها، فإنه خاطب في نفس الوقت أفراداً من الطبقة العليا في البلاد، لتناول موضوعات أخرى تقتضيها المجاملة والمعايشة اليومية كالتهنئة والتعزية وغيرهما مما يهدف إلى تمتين علاقته بهؤلاء الأعيان، ومد جسور الصداقة بينه وبينهم لاستثمارها من جانبه في إزالة كل العراقيل والمشاكل التي تواجهه. وهكذا خاطب ابن خلدون في هذه الفترة مرتين، هنأه في الأولى بازدياد ولد له[121] وهنأه في المرة الثانية بنعمة الخلاص من الشدة وجمع شمله بأبنائه[122].

وهنأ صاحب الأشغال أبا عبد الله بن أبي القاسم بن أبي مدين بتقلد الخطة مرة[123]، وبإبلاله من مرضه ورفع الشدة عنه مرة أخرى منيبا ولده عنه بلثم يده وخدمته[124].

وكاتب أيضا قاضي الجماعة محمدا بن أحمد الفشتالي معربا له عن فرحه وتهنئته له بالخروج من الشدة والضيق اللذين تعرض لهما حين ساءت علاقته بالسلطان، وأتبع هذه الرسالة بمراجعة وردت من الفشتالي يشكره فيها على اهتمامه به ومشاركته له[125].

وهنأ كذلك صاحب العلامة في الدولة المتقدمة أبا الحسن ابن السعود بخلاصه من الشدة[126].

---

(119) نفسه ص 351 ــ 352.

(120) نفسه ص 358 ــ 359.

(121) نفاضة الجراب ص 131 ــ 136.

(122) نفسه ص 348 ــ 349.

(123) نفسه ص 136 ــ 137.

(124) نفسه ص 348.

(125) نفسه ص 143 ــ 145، النفح 6 : 206.

(126) نفسه ص 349.

وكاتب الشيخ أبا الحسن علي بن بدر الدين بن موسى بن رحو يهنئه أيضا بنجاحه في الفرار من الأندلس، مقترحا عليه بأن يعملا معا على الخروج في الرحلة الحجازية(127).

وبادر إلى تهنئة الوزير عمر بن عبد الله الياباني بعد أن تمكن من قبض زمام أمور الدولة بيده(128)، وصار هو الحاكم الفعلي. ويذكر ابن الخطيب بأن هذه الفترة عرفت استقراراً في ظله «فاتسقت الطاعة ودانت الجبال الشم، وانتشرت الرفق، وأمنت السبل»(129)، وكانت بين الرجلين صداقة، لذلك مدحه ابن الخطيب، فأجيب إلى كل طلباته(130). وبعث بخطابه كذلك إلى شيخ العرب مبارك بن ابراهيم الخلطي يهنئه بما حصل عليه من شهرة وسيادة، ويبلغه شوقه إليه واحتياجه إلى مساعدته(131).

وفي هذا الاتجاه كاتب كلا من صاحب أشغال الدولة يوسف بن الكناني لتهنئته بالولاية(132)، وصاحب خطة العلامة الفقيه أبي سعيد بن رشيد لتهنئته بالاستقلال برياسة القلم الأعلى والرتبة الفضلى(133).

وهدف أحيانا من مكاتبته إلى التقرب عن طريق المديح والثناء، فلقد خاطب والي مكناسة برسالة(134)، زاوج فيها بين أداتي الشعر والنثر للثناء عليه.

لو لم يكن لبلاد الغرب محمدة   إلا بكونك يا قطب العلى فيها

(127) نفسه ص 148 ــ 150.

(128) نفسه ص 358 ــ 359.

(129) نفسه ص 280.

(130) نفاضة الجراب ص 281 ــ 282.

(131) نفسه ص 363 ــ 365.

(132) نفسه ص 354.

(133) نفسه ص 352 ــ 353.

(134) نفسه ص 143.

وخاطب صاحب قصبة مراكش مسعود بن يوسف بن فتح الله[135] متوددا إليه ومادحا إياه.

وخصص خطابه أيضا لوالي درعة وبلاد القبلة[136] أبي محمد عبد الله بن محمد لشكره على اعتنائه بولد ابن الخطيب، والثناء على صفاته :

والي الولاة وواحد الزمن الذي تبآى الملوك بمثله وتفاخر

وهناك لون آخر من المكاتبات لم يهدف منه ابن الخطيب إلى تهنئة أو مدح، ولكنه أظهر فيه تأثره، ومواساته لبعض الأشخاص ومشاركته لهم في مصابهم كتعزيته للرئيس عامر بن محمد الهنتاتي[137] في وفاة أخيه عبد العزيز، فلقد قال في مفتتح رسالته الشعرية النثرية :

أبا ثابت كن في الشدائد ثابتا أعيذك أن يلفى حسودك شامتا
عزاؤك عن عبد العزيز هو الذي يليق بعز منك أعجز ناعتا

ومن هذا القبيل مواساته لابن رضوان في مرضه[138] وتألمه بما عاناه أثناء هذا المرض. ولقد أجابه ابن رضوان للاعراب عن شكره على هذه المشاركة الوجدانية النبيلة[139].

وكانت رسالته أيضا إلى أبي عبد الله الكناني[140] من أجل مواساته بعد أن تعرض لنقل تأديبي، وصرف عن خطة الأشغال إلى الخدمة بسجلماسة جاء فيما كتب به إليه قوله : «فإن كانت سجلماسة قبل اليوم يجلب منها التبر إلى دار الملك، فقد رد إليها الذهب الابريز من بعد السبك، ولا بد أن يصول الحق على الشك فتعود الأمور إلى معتادها، وتحلك العليا محل فؤادها».

---

(135) نفسه ص 209 ـ 210.

(136) نفسه ص 210 ـ 211.

(137) نفسه ص 206 ـ 209.

(138) نفسه ص 140 ـ 141.

(139) نفاضة الجراب ص 141.

(140) نفسه ص 141 ـ 142.

أما مخاطبته لوالي مكناسة أبي سعيد بن حبوس[141] فقد ضمنها معاتبته إياه على عدم إكرامه له، يقول : «فبت بجوارك ليلتين أكلت فيهما من زادي، وشربت من ماء الوادي، وجعلت الأرض مهادي وطال لاجل البراغيث سهادي»

وتعرفنا أيضا من هذه المكاتبات على وجه آخر من حياة ابن الخطيب العادية، فلم يكن لجوؤه هذا ليصرفه عن الترف والحصول على الاملاك، ولم يكن ليدفعه إلى الانكماش واليأس.

وهكذا خاطب في هذه الفترة الرحالة الشهير ابن بطوطة[142] الذي كان قاضيا بتامسنا يبلغه عزمه على شراء الأرض بجواره هناك. وأرسل إلى الشريف الفاضل أبي عبد الله بن نفيس[143] خطابا ومعه ثمن مسكن اشتراه منه، وكان قد أهداه فرسا عتيقا.

ومن خلال كل الرسائل الواردة في هذا السفر، والتي لم نشر إليها جميعها نتبين علاقات ابن الخطيب وأحواله في هذه الفترة التي اعتبرناها جزءا من رحلته وأغلب هذه الرسائل قد بعثها إلى من له صلة بالمسؤولية والسلطة يهدف منها إلى حل مشكل إداري، أو استمرار جراية، أو تمتين الصلة بعلية القوم... وهكذا لم نجد مراسلات علمية أو أدبية تبحث موضوعا علميا، أو تعالج قضية أدبية، أو تستجيز شيخا أو عالما أو أديبا، باستثناء نصين فقط يتمثلان في إجازته هو لولد أبي القاسم ابن رضوان[144] على ظهر مجموع من شعره انتسخ له، والرغبة التي أبداها في الحصول على إجازة الشيخ أبي عبد الله اللجائي[145] واكتتاب شيء من منظومه.

شعره في هذه الفترة :

ومما له صلة بتلك المخاطبات أشعاره الكثيرة التي ضمنها هذا السفر، والتي خاطب بها أعلاما من مختلف المستويات وفي العديد من المناسبات.

---

(141) نفسه ص 212 ـ 213.

(142) نفسه ص 137 ـ 138.

(143) نفسه ص 138 ـ 140.

(144) نفسه ص 366 ـ 369.

(145) نفاضة الجراب ص 76.

وإذا كنا لاحظنا أن مراسلاته النثرية لا تسمو في أغلبها عن الموضوعات اليومية العادية المتصلة بحياة ابن الخطيب وظروفه في هذه الفترة، فإن أشعاره هنا أيضا لا تتنكب هذا الطريق، ولا تشذ عن هذا النهج، فالغاية نفعية يتوخى فيها المصلحة الشخصية، ويهدف إلى تحقيق رغباته والابقاء على امتيازاته، لذلك كانت أغلب قصائده في غرض المديح.

وهكذا مدح أبا سالم المريني في أكثر من مناسبة، اعترافا بالجميل وأملا في تحقيق ما يطمح إليه.

ومن أهم قصائده المديحية فيه قصيدته[146] التي أنهى بها كتابه إليه في بداية مقامه بشالة، يقول فيها :

مولاي ها أنا في جوار أبيكـــا   فابـذل مـن البر المقـدر فيكـــا

وقصيدته الطويلة[147] التي بارك فيها فتحه لتلمسان جاء فيها :

عجبت لمن يبغي الفخار بدعوة   مجردة مـن غير تحقيـق برهـــان
وسنة إبراهيم في الفخر قد أتت   بكـل صحيـح عـن علي وعثمان

ومقطوعته[148] التي أرسلها إليه وهو منقطع بضريح أبي الحسن بشالة، مذكرا إياه بما يستحقه من عطف وعناية :

عن باب والدك الرضا لا أبرح   يأسو الزمان لأجل ذا أو يجرح
أنا في حماه وأنت أبصر بالذي   يرضيه منك فوزن عقلك أرجح

إلى جانب الموشحتين[149] اللتين نظمهما أيام إقامته بسلا، حيث استطرد فيهما كذلك إلى مدح السلطان المريني أبي سالم.

---

(146) نفسه ص 85 ــ 86

(147) نفسه ص 94 ــ 101، النفح 5 : 32 ــ 37.

(148) نفسه ص 162 ــ 163، أزهار الرياض 1 : 276.

(149) نفاضة الجراب ص 167 ــ 170.

وكانت مناسبة المولد النبوي أيضا تجعل الشاعر يجدد صلته بممدوحه أبي سالم، إذ كانت القصائد المولديات تختم عادة بمدح السلطان[150]، ولا عجب في ذلك، فمواقف السلطان في نظره تهدف إلى خدمة الدين[151].

أبا سالم دين الالاه بك اعتلى   وأيد ركن منه واعتز جانبه
دعا بابك الأعلى الفتوح فأقبلت   أتمنع حظا والمهيمن واهبه
أجرت وآويت الغريب وإنها   سجية من عزت وطابت مناسبه

ويسلك الطريقة نفسها حين تم الأمر لأبي زيان، فقد خاطبه بقوله[152] :

أبشر فأنت مجدد الملك الذي   لولاك أصبح وهو رسم دائر

فمحبته ملكت علي ابن الخطيب كل عواطفه وإحساساته، وكيف لا يحبه وهو الأمل الذي يستند إليه :

مولاي عندي في علاك محبة   والله يعلم ما تكن ضمائر
قلبي يحدثني بأنك جابر   كسري وحظي منك حظ وافر

وحظي من هم دون الملوك بقصائد ابن الخطيب في المديح، كالوزير عمر الياباني[153] الذي أصبح صديقا حميما له، ذكر أنه زاره في منتبذه من مدينة سلا بتاريخ ثاني ذي الحجة عام 762هـ، وبالغ في الاحتفاء به، مما جعل لسان الدين ابن الخطيب ينطق بالثناء ويلهج بالمديح :

إلى عمر بن عبد الله حنت   ركابي فهي تستبق استباقا
إلى الغيث الذي راع الأعادي   وأمن رفق سيرته الرفاقا
...شكوت لك التغرب قبل هذا   وها أنا بعده أشكو الفراقا
فلولا ما توالى من حديث   بعزك لم أكن ممن أفاقا

---

(150) نفسه ص 172 ــ 177.

(151) نفسه ص 266.

(152) نفسه ص 354 ــ 355، النفح 6 : 382.

(153) نفسه ص 281 ــ 282.

وفي الرسالة التي خاطب بها صاحب خطة العلامة أبا سعيد بن رشيد[154]، يمهد بأبيات يخصصها لمدحه بتولية المنصب المذكور، يقول :

بك الخطـط الرفيعـة فلتهنـا   فـإنك سعدهـا لفظـا ومعنـى
إذا ذكـر العـلاء فـأنت أعلى   وإن ذكر السنـاء فـأنت أسنـى

ومدح وزير الدولة محمد بن موسى الملقب بالسبيع[155]، يقول فيه :

أيـا سبـع الميـدان غير مدافـع   إذا برقت تحت العجاج المناصل
ومـن شأنـه والله يرفـع شأنـه   (عفـاف وإقـدام وحـزم ونائـل)

ومدح كذلك شيخ العرب مبارك بن إبراهيم الخلطي بأبيات مهد بها الرسالة بعث بها إليه جاء فيها[156] :

يا فارس العرب الذي من بيته   حـرم لها حـج بـه ومنـاسك

أما ابن مرزوق فقد كان ملجأه فيما يعرض إليه، ومقصده فيما يعن له، يحتمي به، ويستشفع به في كثير من المناسبات، فلقد أرسل إليه قصيدة يشتكي فيها ابن الربيب الذي لم يوفه حقه من الجراية بعد أن كلف بصرف هذه الجرايات، يقول[157] :

غدوت لضيم ابن الربيب فريسة   أمـا ثـار قومـي لـنصري ثائـر

وخاطبه طالبا منه تحقيق غرضه في الشفاعة فقال[158] :

برئت لله من حولي ومن حيلي   إن نام عني وليي فهو خير ولي

ووجه إلى ابن مرزوق قصيدة بعد اطلاعه بمدينة سلا على شرحه لكتاب «الشفا» جاء فيها قوله[159] :

---

(154) نفاضة الجراب ص 352.

(155) نفسه ص 360.

(156) نفسه ص 363 ــ 364.

(157) نفسه ص 129 ــ 130، أزهار الرياض 1 : 274 ــ 275.

(158) نفسه ص 163 ــ 164، الازهار 1 : 302.

(159) نفسه ص 190 ــ 192.

كفاك إعجازا كتاب الشفا والصبح لا ينكر عند الوضوح

وكتب إليه يعتذر عن تخلفه عن لقاء ولد ابن مرزوق، بسبب مرضه فقال(160) :

صدني عن لقاء نجلك عذر يمنع الجسم عن تمام العبادة

وهكذا بقي المدح هو القاسم المشترك لكل هذه القصائد التي صدرت عنه في هذه الفترة باستثناء رثائه لزوجته التي توفيت في السادس من ذي القعدة عام 762هـ، وكتب هذا الرثاء على ضريحها(161) :

روع بالي وهاج بلبالي وسامني الثكل بعد إقبال
ذخيرتي حين خانني زمني وعدتي في اشتداد أهوال.

إنتاجه التأليفي لهذه الفترة :

ويمكن أن يلتمس نشاطه أيضا،وهو مقيم حول شالة، فيما ذكره عن إنتاجه(179) خلال هذه الفترة.

ويبدو من خلال استعراضه لعناوين الكتب والتآليف التي أنجزها أن إنتاجه غزير ضخم إذا قيس بالفترة الزمنية المحدودة والتي لا تتعدى سنتين، فبالاضافة إلى الرسائل والقصائد الكثيرة التي أثبت بهاحضوره الثقافي والفكري، وفرض بها وجوده في الساحة الأدبية، هناك التآليف والتصانيف المختلفة في موضوعاتها ومناهجها، وأحجامها كرجزه المعنون «برقم الحلل في نظم الدول»، وكتابه «معيار الاختيار» يصفه هو نفسه بأنه «كتاب غريب مصور لم يسبق متقدم إلى غرضه»(163) ومنظومة في فن أصول الفقه عدة أبياتها ألف بيت، وأرجوزة في فن العلاج من صنعة الطب عدة ابياتها نحو ألف وستمائة بيت، وأرجوزة في فن السياسة، وكتابه «مثلى الطريقة في ذم الوثيقة»، ورجز في الأغذية، ومجموع يشتمل على أناشيد سماه «السحر والشعر».

---

(160) نفسه ص 171.

(161) نفاضة الجراب ص 205.

(162) نفسه ص 121 ــ 122، 187 ــ 189، 343

(163) نفسه ص 122.

ولقد شرع في هذه الفترة في تأليف كتاب «اللمحة البدرية في الدولة النصرية»، بالاضافة إلى كتابه «نفاضة الجراب». ويستوقفنا هنا كتابه «مثلى الطريقة»[164] الذي ألفه لذم احتراف الشهادة والتوثيق تعريضا بأحد هؤلاء الموثقين أبي العباس القباب. فالباحث لا يمكنه إلا أن يتساءل وهو يتابع ابن الخطيب فيما كتبه في فترة لجوئه بسلا وشالة، عن عدم الاشارة إلى القباب في كتابه نفاضة الجراب ؟ فلماذا لم يرد ذكر لأبي العباس في معرض حديثه عن الاعلام والأنشطة لهذه الفترة ؟ ولماذا لم يتعرض ابن الخطيب في نفاضته إلى تلك الحادثة التي اغضبته وألف بسببها رسالته «مثلى الطريقة» ؟ مع أنه قد أفرد لأبي العباس القباب في كتبه الأخرى حيزا مهما، مما يظهر مكانته العلمية، واتصاله به منذ حلوله بالمغرب.

يقول متحدثا عنه في كتابه الاحاطة : «تعرفت به بمدينة فاس فأعجبتني سمته، ووصل مدينة سلا في غرض اختبار واستطلاع الأحوال السلطانية، واستدعيته فاعتذر ببعض ما يقبل»[165]

ويعرض ابن الخطيب في كتابه «مثلى الطريقة» إلى ما تبع هذا الاعتذار من غضبه وخروجه عن إتزانه فكتب إلى القباب مقطوعة شعرية جاء فيها[166] :

أبيتم دعوتي اما لبأو ... وتأبى لؤمه مثلى الطريقة

إلا أن هذا الأخير ترفع عن مسايرته في هذا الاتجاه وانحداره إلى مستوى السباب والشتم والهجاء، مما جعل ابن الخطيب يستفزه بمقطوعة أخرى[167]، فأمسك القباب أيضا عن الجواب، وازداد حنق ابن الخطيب بعد أن تصدى أحد الموثقين في سلا للرد عليه، فعمد حينئذ إلى تأليف «مثلى الطريقة» التي لم ينل فيها من القباب وحده، ولكنه تحامل فيها على كل الموثقين وعرض بكل من اشتغل بالثوتيق والعدالة.

أما السفر الثالث من نفاضة الجراب الذي سبقت الاشارة إلى أنه مخطوط بالخزانة العامة[168]، فهو الذي يلخص الفترة الأخيرة من رحلته، ويصف مراحل عودته

---

(164) نشرته دار المنصور بالرباط في سنة 1973.

(165) لاحاطة 1 : 187، مثلى الطريقة ص 12 ــ 13.

(166) مثلى الطريقة ص 13 ــ 14.

(167) نفسه ص 14 ــ 15.

(168) توجد نسخة أخرى بالخزانة الملكية تحت رقم 6593 مبتوق الاول والاخر. انظر فهرس الخزانة الملكية 1 : 343.

برفقة ولد السلطان النصري إلى غرناطة. وأول ما يلاحظ القارىء هو تكرار بعض مواد السفر الثاني، إذ أن هناك نصوصا قد وردت في نهايته أثبتها ابن الخطيب في بداية السفر المخطوط[169]، كمخاطبته للوزير عمر الياباني[170] ويحيى بن رحو[171]، وأبي سعيد بن رشيد[172]، ويوسف الكناني[173]، والسلطان أبي زيان[174]، وأبي ثابت عامر الهنتاتي[175]، وكإجازته لولد أبي القاسم بن رضوان على ظهر مجموع يضم مختلف أشعاره[176].

فهل يعزى هذا التكرار إلى الناسخ الذي ربما لم يتفطن إلى نقله لبعض مواد هذا الكتاب مرتين ؟ أم ان المسؤولية يتحملها ابن الخطيب نفسه ؟ وهذا بعيد، أو أن السبب يرجع إلى اختلاف النساخ. وعلى أي حال فإننا لا نلتقي بالمادة الجديدة إلا في الصفحة الواحدة والعشرين، حين يتحدث ابن الخطيب عن جفاف قاسي منه الناس والطبيعة معا، إذ أحرقت المحاصيل الزراعية واستؤصلت أوراق الشجر لولا عناية الله التي أرسلت سحابا داكنا «فاهتزت جبال الغيم تقلقلها هائلة الرعود فسالت الأرض وفهقت الأغوار وتقلقل الرعد وانبسطت النفوس»[177]

وهكذا يصور ابن الخطيب بأسلوبه الشاعري هذا التغيير الذي ترك أثره على الطبيعة والنفوس معا، فقال في ذلك مرتجلا[178] :

لقد زالت اللأواء وارتفع الجهد   وأطنب في شكر الحيا الوهد والنجد

---

(169) نفاضة الجراب مخطوط الخزانة العامة رقم ك 256 ص 1 — 21.

(170) نفاضة الجراب السفر الثاني المطبوع ص 346.

(171) نفاضة الجراب ص 351.

(172) نفسه ص 352.

(173) نفسه ص 354.

(174) نفسه ص 354).

(175) نفسه ص 358.

(176) نفسه ص 359.

(177) مخطوط ك 256 ص 21.

(178) نفاضة الجراب مخطوط ك 256 ص 22.

ويتحدث ابن الخطيب عن توجهه لأبي زيان في بداية توليه الحكم، ورحلته إليه في يوم السبت 24 من الشهر(179) لتقديم البيعة أو على حد تعبيره «لأداء حق الدولة الدائلة»(180).

وكانت هذه الرحلة شاقة، لقي فيها الشدائد، يقول في وصفها : «ولقينا من وعثاء السفر نصبا لاغراق المطر وانسكاب الغيم»(181). وتم دخوله إلى البلد الجديد في يوم الجمعة الموفى ثلاثين لشهر تاريخه(182) إذ فتحت له أبواب قصر أبي زيان ومكن من «غشيان خلوة لذته في بحبوحة قصره(183)»، وهذه مكانة لا يصل إليها إلا من كان من علية القوم.

وهناك نقطة في حاجة إلى التوقف، فالبلد الجديد الذي قصده ابن الخطيب ليس هو سلا حتما ــ كما ورد في نص المخطوط ــ لأن هذا الاسم يطلق على حضرة المرينيين مدينة فاس، ثم ان ابن الخطيب رحل سبعة أيام للوصول إلى باب السلطان، وهذا هو الزمن الذي يمكن فيه قطع المسافة بين الرباط وفاس كما رأينا في مذكرات ابن الحاج(184).

ولقد هيأ لرحلة البيعة هذه ثلاث قصائد، الأولى مدح فيها السلطان أبا زيان، وهي طويلة تقع في ستين بيتا، يقول في مطلعها(185) :

لمن علم في هضبة الملك خفاق أفاقت به من غشية الهرج آفاق

وفي هذه القصيدة عرض قضيته أمام السلطان :

وليس لكسري غيرك اليوم جابر ولا ليدي إلا بمجدك أعلاق

(179) لعله يقصد شهر ربيع الاول.

(180) نفاضة الجراب ك 256 ص 22.

(181) نفسه ص 23.

(182) نفسه ص 23.

(183) نفسه ص 23.

(184) المذكرات ورقة 25أ المرقونة ص 156.

(185) نفاضة الجراب ص 23.

ولي فيك ود واعتداد غوسته فراقت به من يانع الحمد أوراق

ومدح في قصيدته الثانية الوزير عمر بن عبد الله بن علي الياباني(186). أما الثالثة فقد مدح بها صاحب العلامة جاء فيها : (187)

سيدي أنت عمدتي فاحتملني وتغمد بالفضل منك جفاء

لذلك كانت وفادته على أبي زيان ناجحة عبر عن ذلك بقوله : «وعدت منه ببر كبير واحترام شهير»(188) فحصل منه على ظهير يضمن استمرار الجرايات له، وتوالى احترامه في ظل الوضع الجديد رعياً لما مضى من خدمته وإخلاصه، وهكذا جدد له الأمر بالابقاء على كل الامتيازات التي كان يحظى بها، «فلا يطلب في شيء من ذلك بمغرم ولا وظيف، ولا يتوجه فيه إليه بتكليف، يتصل له حكم ما ذكر في كل عام تجديدا تاما واحتراما عاما»(189). والظهير مؤرخ في عاشر ربيع الأخير عام 763هـ، وكان قد حصل منه على ظهير آخر مؤرخ بالسادس من شهر ربيع الأخير عام 763هـ، يأمر فيه الولاة بمساعدة ابن الخطيب، ويجدد له فيه حكم الظهير الصادر في عهد أبي سالم «بالاذن في زيارة المشاهد المقصودة، والأماكن المحسوبة المعدودة، والمحال التي يقصدها أهل الفضل والدين، والرغبة في لقاء الأولياء والصالحين ومطالعة محاسن البلاد والتمتع بأفانين الكرامة الواضحة الاشهاد، فليعمل الوجهة المباركة متى شاء محمولا على سبيل العناية معتمدا بجزيل الكرامة والحفاية»(190).

ويتحدث ابن الخطيب عن رحلة لمراكش شرع فيها في يوم السبت 23 ربيع الأخير(191)، إلا أنه لم يصفها بما يكفي للتعرف على زمانها ومكانها، بل اكتفي بالقول : «وتضمنت هذه الحركة رحلة لم تقع العناية باتصال آخرها بأولها لكونها كانت خراجا».

---

(186) نفاضة الجراب مخطوط ك 256 ص 27 ــ 28.

(187) نفسه ص 28 ــ 30.

(188) نفسه ص 26.

(189) نفسه ص 30 ــ 32 الاحاطة 4 : 455 ــ 457 النفح 6 : 5 ــ 7.

(190) نفاضة الجراب مخطوط ك 256 ص 32 ــ 33.

(191) نفسه ص 41 ــ 42.

ويشير في الوقت نفسه إلى الاضطراب — في هذه الفترة الانتقالية — الذي عم المناطق التي تدين لأمراء العرب، مما جعله يحجم عن ارتيادها، يقول :
«فأنفت من اقتحام حدودهم التي لا تلوح بأعلامها هيبة الملك، ولا تخفق فوق سمائها ألوية الامنة»

ولا ندري سبب هذه الرحلة نحو الجنوب لكن الظاهر أنها لم تتم بسبب مرضه، كما جاء في رسالة بعثها إلى أبي زيان : «ويطالع بأنه انصرف بنية الرحيل إلى مراكش، وأهم الأغراض أن يلتمس الدعاء لمقام مولاه من المشاهد المشهورة بقبول السؤال، المتكلفة ببلوغ الآمال، فلما توسط تامسنا شعر بالضعف عن الحركة وأحس بأسباب المرض منفردة ومشتركة فانكفأ راجعا مستعينا بالله وببركة المولى الذي عرفت رحمته وعمرت في الظعن والاقامة نعمته، خوفا من ألم يستحكم أو مرض يسري في هذه البنية الضعيفة ويلحم، ونرجو الله أن نقضي لكم الدعاء من هذا الولي الذي من الله بجواره من بركات هذا البلد آثاره إلى أن يتيح الله تعالى نشاطا مستأنفا للحركة التي كان قد أزمعها وييسر الاعانة ويسوغ مشرعها»(192).

فرحلته هذه كانت من دون شك بتكليف من أبي زيان وبتوجيه منه فتدخل حينئذ ضمن الرحلات الرسمية، إلا أننا لا ندري سبب خروجه في هذه الوجهة المراكشية، هل من أجل الدعاء لمولاه في المشاهد المشهورة كما التزم بذلك في رسالته ؟، أم أن هدفها كان سياسيا، للعمل على استثمار علاقة ابن الخطيب بشيوخ القبائل لصالح الأمن والاستقرار في هذه الفترة الانتقالية المضطربة ؟

ونص في رسالته المذكورة على أن رحيله يدخل ضمن ما أسند إليه من خدمات يقول : «وقد كان العبد عني برحلة تصف المراحل والمنازل والحادي والنازل مطرزة باسمكم السعيد مشرفة من فصولها وفروعها وأصولها تقرر أن الحركة والسكنة بالخدمة معمورة(193).

ويبدأ بعد ذلك في سرد المراحل والمنازل التي مروا بها منذ خروجه من فاس، ولا ندري هل خرج ابن الخطيب صحبة موكب أبي زيان بعد أن قصده للمبايعة

---

(192) نفسه ص 43 — 44.

(193) نفاضة الجراب مخطوط ك 256 ص 44.

وتقديم فروض الطاعة، والتماس المساعدة والحماية ؟ فتكون هذه الرحلة حينئذ شبيهة بفيض العباب لها الطابع الرسمي ؟ أم أنه قطع هذه المراحل بمفرده ؟ وكيفما كان الأمر، فان ابن الخطيب يوجز وصفه لهذه الرحلة ويبالغ في تلخيصها إذ لا تتجاوز في هذا السفر اثنتي عشرة صفحة[194].

وتبدأ هذه الرحلة التي خص بها أبا زيان بالفعل، أو نسبها إليه تشريفا بقوله : «خرجنا من أم القرى ومجمع الورى وكعبة السير والسرى مدينة فاس دار الملك الأصيل والعز المشرف الأثيل[195].

ولقد اعتبر الاستاذ عنان[196] ـــ وصف هذه الرحلة من فاس إلى تامسنا مرورا بمكناسة ـــ من السفر الأول الضائع، إلا أن هذا قد يكون بعيدا عن الحقيقة ـــ في نظرنا ـــ لسببين اثنين : أولهما أن هذا الوصف مثبت في السفر الثالث المخطوط، صدر به ابن الخطيب تلك الرحلة التي طرزها باسم السلطان أبي زيان حينما وفد عليه بفاس مبايعا. وثانيهما أن الأسلوب الذي كتبت به أسلوب مقامي، يميل إلى الايجاز ويكتفي بالاشارة الدالة. وهذا بعكس النماذج التي احتفظ لنا بها ابن غازي من السفر الأول من النفاضة.

ويذكر ابن الخطيب بأنه خرج لتشييعهم جملة من الصدور بمدينة فاس مما يجعلنا نميل إلى أنه خرج في موكب أبي زيان، وعلى أي فلحظة الوداع كانت مؤثرة، إذ أثار ذلك أشجانه وتذكر قول شيخه أبي البركات البلفيقي[197] في وصف معاناة الفراق :

يـا مـن إذا رمت توديعـه ودعت قلبي قبل ذاك الـوداع

وأول مرحلة نزل بها الركب للمبيت هي دشار البوير من أحواز فاس وهو دشار «أعدم الله المروءة من فتاه وكهله[198]» كما وصفها ابن الخطيب.

---

(194) نفسه ص 45 ـــ 58.

(195) نفسه ص 45.

(196) لسان الدين ابن الخطيب ص 58 ـــ 59.

(197) نفاضة الجراب ص 45.

(198) نفسه ص 46.

ووصل ركبهم في الغد إلى مدينة مكناسة، لكنه لايلتفت إليها في هذه الرحلة، وإنما أخبرنا مباشرة بأن الرحيل عنها كان مثيرا للاسى. يقول : «قمنا نستشعر التجلد للبين وهو يفضح، ونجمل حكم الوجد والدمغ يشرح فودعنا الخليط المصاحب وسلكنا الطريق غير اللاحب وقد طبق ضباب به على الأرض اكباب حجب الجهات... فضللنا لولا أن الله هدانا وسرنا، وقد ألحفنا السحاب وردانا»(199).

ويواصل طريقه في اتجاه حصن العرا(200) الذي وصفه بأنه «حصن مثلوم مهدوم، موجود الأنس به معدوم» ولا شك أنه قريب من مكناس. ويذكر ابن الخطيب بأنهم لم يبيتوا بهذا المكان، ولم يدخلوا البلد، وإنما خيموا بظاهره «خيفة برغوثه».

ويستمر في وصف الطريق بأسلوب يجنح فيه إلى الخيال، ويميل إلى المحسنات، فلا تكاد تتضح معه الصورة. يقول : «وعند الصباح شرعنا في الارتحال وعين الشمس من الضباب مفتقرة إلى الاكتحال، فسلكنا خندق هرون فحصن خراز مازق براز ومظان احتراز، إلى دشار مكول وهو إلى الفنا موكول، وبرجل الخراب من الأعراب موكول، ولما رأينا جنابه غير مأنوس وقد امتاز بلبوس البوس جزناه إلى ماغوس، دشار الزاوية ومركز الخطوط المتوازية ومناخ الرفق السارية وحاضرة تامسنا(201).

وهكذا لا تتضح لنا معالم هذه الطريق التي سلكها نحو مراكش، ولعلها الطريق الأطلسية التي تربط مكناس بهذه المدينة. فالأماكن التي يذكرها ربما كانت محطات ومنازل صغيرة يقصدها المسافرون للاستراحة والمبيت، لذلك من الصعوبة تحديدها الآن، خاصة وأن وصف ابن الخطيب لها ربما يزيدها غموضا، فبلدة ماغوس مثلا كانت على عهده حاضرة تامسنا(202)، وتقع في مفترق الطرق، بها يسكن القاضي،

---

(199) نفسه ص 46.

(200) نفسه ص 47.

(201) نفسه ص 47.

(202) ورد في معلمة المدن والقبائل ص 259 قوله : «ماغوسة احدى جماعات دائرة امزميز ــ عمالة مراكش ــ وكانت تعرف بادسيل».

مما يدل على اتساع هذه البلدة وأهميتها في المنطقة ومع أنه يزيدنا تعريفا بها، إلا أن أسلوبه المثقل بالمحسنات، والمقيد بالصناعة والزخرفة، يجعل صورتها باهتة. فلقد جاء في وصفه بأن «ماغوس دشار كبير يأكل من هري ويشرب من بير، فقد النضارة وعدم مرافق الحضارة، إلا أنه على الاخترار أمين، ولحفظ الحبوب ضمين ما لم تعث شمال للفساد ويمين، فاتخذ به مسجد شان النقص من مناره لقصور ديناره»(203)

ومن الواضح أن البلدة لم ترقه في مظهرها ومخبرها معا، بل جمعت المساوىء في نظره، ولم يرتح فيها إلا لكاتب الشروط بها الذي أكرمهم وغير وحشتها أنسا، لذلك شكره وحده. أما بلدة ماغوس فقد انصرف عنها وهو يقول(204) :

ماذا لقينا بماغوس من اللغط	ليلا ومن هرج الأحراس والشرط
ومن رداءة ماء لا يسوغ لنا	شراب جرعته إلا على شطط
ومن لغات حوالينا مبربرة	كأننا من بلاد الزنج والنبط
جرداء لا شجرات يستظل بها	ولا أنيس يريح النفس من قنط

واتجه الركب في الغد إلى محلة سفيان، وهي منطقة متسعة آهلة يبدو عليها الغنى والخصب، لكن ابن الخطيب ومن معه وجدوها في وضع سيء، وقد اجتاحها مرض الطاعون فصار يفتك بأهاليها، ويحصد العديد منهم، قال واصفا هذه الحالة المؤلمة : «ووجدنا الطاعون في بيوتهم قد نزل، واحتجز منهم الكثير إلى القبور... فلا تبصر إلا ميتا يخرج، وكميتا إلى جنازة يسرج. وصراخا يرفع، وعويلا بحيث لا ينفع»(205).

لذلك تجنبوا الاختلاط بهم وتراوغوا عن العمران خوفا من العدوى وأسرعوا إلى الرحيل عن هذا المكان الموبوء حتى لا يصيبهم أي مكروه. قال واصفا حالة

---

(203) نفاضة الجراب ص 47.

(204) نفسه ص 47.

(205) نفسه ص 48.

الرعب التي فارقوا عليها هذا المكان : «وركضنا نبغي اللحاق بالبروج حيث مخيم شيخ تلك القبيلة ونروم المبيت بالمنزلة غير الوبيلة وقلت:

ترى لهذا السير من منتهى بناء أعضائي به قد وهى
قالوا نريد البروج قلت ارجعوا عن سهوكم قد جزت برج السهى[206]

ويلقى هو ومرافقوه استقبالاً حسنا من شيخ البروج، فيغمرهم بكرمه وإحسانه يقول : «وبادر الشيخ فرحب، وبسط وتسحب، رجل قد اكتمل، وعلى الوخط قد اشتمل، تدل منه المنايشة على نبل تحت جهامه، وتنشق منه كامة الفهاهة عن فهامه، ولم يقصر عن طعام نظيف واحتفال مضيف»[207].

ويذكر بأن هذا الشيخ عاملهم بلطف وكرم إلى أن ودعهم بما يليق بهم من عناية، فركب لوداعهم في مركب لجب.

ويستمر الركب في سيره مارا بمرحلة أبي كثير، ثم مرحلة مهدي بن موسى التي لم يلقوا بها ترحيبا على نحو ما وجدوه بالبروج، يقول واصفا مقامهم بها : «فانتبذنا عن جوارها، وأصحرنا عن قورة دوارها، ولم يجد صاحبها فينا مرغوبا لجوده الذي بذله، ولا قبولا لقراه الذي عجله، واجتنبناه اجتنابا ما أخجله، وبتنا وقاية ضفا جناحها إلى أن اشتعل في فحمة الليل صباحها فركضنا تحت رواق ضباب ساتر، ورذاد له مستأثر لم تزل الشمس ترشفه، والرياح تستكشفه، حتى تقشع وبان الاهل من البلقع»[208].

ولقد واصل ومن معه الطريق إلى أن نزلوا بالزاوية حيث قبر زمام وأبي ذمام، فرحب بهم الجميع، إلا أنهم يستمرون في رحلتهم فينزلون بتيط أفوران[209]، ولا ندري أين تقع، فحديثه عن هذا المكان لا يرشدنا إلى موقعه، ولا يزيدنا تعريفا به. يقول : «وما أدراك ما تيط، حيث الجناب القبيط، والنشر والبسيط، والبحر

(206) نفاضة الجراب مخطوط ك 256، ص 48.

(207) نفسه ص 49.

(208) نفسه ص 49.

(209) ورد في الموسوعة المغربية معلمة المدن والقبائل ص 45 مايلي «أفورار إحدى جماعات دائرة واويزغت ـــ عمالة بني ملال».

المحيط، تفجرت بها للزلال عين، كما سال لجين، أو صقل صفحة السيف قين، وتسنم ذروة البيوت منها قصر مشيد، أتلع منه جيد، وأغرى به تحكيم وتجنيد، ودارت البيوت كما نسج العنكبوت، واتجهت إليه الطرق والسموت، وعج بإزائه السنوق»[210]

ويذكر بأنه قال هذه الأبيات وهو يحل بهذا المكان[211] :

نزلنا حلة الخلط الكرام بأخت الركن والبلد الحرام
ومن يك من ضيوف أبي كثير غني بالفعال عن الكلام
وإن بيوته لكما سمعنا بيوت الخيل والنعم الجسام
تظللها الفوارس بالعوالي وتفرشها الولائد بالطعام

ولقد استعد للقاء صديقه الشيخ عامر بن محمد الهنتاتي بقصيدة لتكون تحفة قدومه عليه بجنوب مراكش. وهذه القصيدة طويلة في ثمانين بيتا[212]. مدح فيها هذا الشيخ وأثنى على عشيرته متخلصا في لباقة إلى الربط بين مدحه والعمل من أجل رفعة الدولة التي بيدها الأمر. ومما جاء في مدح الشيخ أبي ثابت :

فتى الحي من هنتاتة جيرة الهدى وخير أصحاب الامام الموحد
وكوكب أفق الغرب لم يبق بعده وبعد ابنه من كوكب متوقد

فعشيرته حازت المكارم والعلى، وقومه اهتدى بهم الكثيرون فانتصر بهم الدين واعتز بهم الاسلام في هذه المنطقة الغربية، ولا عجب في ذلك ما داموا يسيرون على هدي إمام الموحدين

خلائف عبد المومن الملك الذي بسر من الهدى قد كان يهتد
ودوخ أكناف البسيطة بعده وأعلن بالتوحيد في كل مسجد

ومع ذلك فهو الآن سند قوي لبني مرين :

وياعدة الملك المريني كلما استجار به في اليوم والأمس والغد
ركضت إليك الجرد أفلى بها الفلا وأذرع منها فدفدا بعد فدفد

(210) النفاضة (مخطوط ك 256) ص 50.

(211) نفسه

(212) نفاضة الجراب (مخطوط ك 256 ص 51 ــ 53).

والحقيقة أن ابن الخطيب كان وفيا لهذه الصداقة، فلم يترك فرصة إلا ومدحه فيها، وأثنى على صفاته وأفعاله كقصيدته التي أنشدها وهو يتأمل أطلال المنار بالمرحلة القريبة من مراكش جا فيها[213] :

حتى إذا ما المنار الفرد لاح لنا صحت ابشري يا مطايا جاءك الفرج
قربت من عامر دارا ومنزلة والشاهد العدل هذا الطيب الأرج

ومن أشعاره التي تعد من نتاج هذه الرحلة، قوله وقد توسط بحر تامسنا[214]

كأنا بتامسنا نجوس خلالها وممدودنا في سيره ليس يقصر
مراكب في البحر المحيط تخبطت ولا جهة تُدْرى ولا بر يبصر

وفجأة يتوقف سرده للمراحل والمنازل، ولا يستمر في وصف هذه الرحلة التي طرزها بإسم أبي زيان، فلا نشعر إلا وهو في سلا يسجل أنشطته بها واتصالاته بأعلامها.

ولقد ظل حريصا على ربط الصلة بعلية البلد وأعيانه يدل على ذلك ما حكاه عن نفسه من أن الوزير مدبر الدولة قد أصابت وجهه نارنج أثناء اللعب فأثرت فيما حول عينيه فقال له[215] :

إذا نال منك العين ضر فإنما أصيب به الاسلام في عين عينه

وهي خمسة أبيات متبوعة برسالة نثرية.

ويذكر أن مما أنتجه في هذه الفترة كتابه «الاشارة إلى أدب الوزارة» الذي وصفه بأنه «ككتاب دمنة وكليلة صغير الحجم كثير الفائدة، غريب المأخذ»[216]

وترد عليه بسلا في 27 جمادى الثانية 763هـ أخبار تغلب رفيقه الملك النصري على أعدائه بالأندلس، وتمكنه من استرجاع ملكه في غرناطة فيخلد هذه المناسبة بقصيدة طويلة تقع في 204 بيت سماها «المنح الغريب في الفتح القريب» مطلعها :

الحق يعلو والأباطل تسفل والله عن أحكامه لا يسأل

---

(213) نفسه ص 56. تقدمت الاشارة إلى البيتين.

(214) نفسه ص 55، أزهار الرياض 1 : 265.

(215) نفاضة الجراب (مخطوط ك 256) ص 57.

(216) نفسه ص 59.

ويبعث بهذه القصيدة إلى الملك الغرناطي من سلا، إلى أن تتاح له فرصة إنشادها بين يديه بعد التحاقه به في غرناطة، لذلك أثبت القصيدة في السفرين معا[217].

ولا ينسى أن يذكر جهوده في وساطته لدى أبي زيان ووزيره في شأن إرجاء الأمير يوسف ولد الملك الغني بالله صاحب غرناطة الذي كان قد خلفه بالحضرة المرينية. وهنا يتحدث ابن الخطيب في زهو عن نجاح مسعاه هذا[218] لارجاع الأمير إلى أبيه بالأندلس نتيجة لمركز ابن الخطيب ومكانته، ولعلاقته الحسنة مع رجال عصره. وكان ابن الخطيب هو الذي كلف بمرافقة الأمير المفرج عنه، إلى الأندلس، إلا أنه قبل أن ينطلق في هذه الرحلة، والعودة إلى الملك الذي انتبذ عنه في شالة، أرسل إليه قصيدة ممهدة لهذا اللقاء، يهنئه فيها بما أحرزه من انتصارات، ويذكره بما كان يجمعهما من روابط وأواصر، ويبدي فرحه بما صادف من عز وسؤدد[219] :

فإني أنا العبد الصريح انتسابه ... كما أنت مولاي العزيز وسلطاني
إذا كنت في عز وملك وغبطة ... فقد نلت أوطاري وراجعت أوطاني

ويغادر سلا ليلتحق بالركب الأميري في فاس، والظاهر أنه كان لا يفكر في الاستقرار بعيدا عن هذه المدينة التي آوته، فلقد كان يأمل العودة إلى سلا بعد قيامه بالمهمة الرسمية التي وكلت إليه وهي مرافقة الأمير وإيصاله إلى أبيه، يقول : «فكان الخروج من مدينة سلا في خف من الرحل وعلى قدم تجريد ونية عودة، يوم السبت الرابع عشر من شهر رجب عام 763هـ»[220]

ولا يصف في هذه المرة رحلته إلى فاس لاصطحاب الأمير، فلم يذكر أي شيء عن هذه المسافة التي تفصل بين سلا وفاس، والتي تطلبت منه أسبوعا كاملا، كل ما نعرفه أنه وجد الموكب الأميري قد أعدت كل مستلزماته، بالاضافة إلى ما أحيط به من عناية ورعاية، وهكذا حمله أبو زيان رسالة كتبها لصاحب غرناطة مؤرخة

---

(217) السفر الثاني المطبوع ص 287 ــ 297، مخطوط ك 256 ص 104 ــ 105 أزهار الرياض 1 : 262 ــ 265.

(218) مخطوط ك 256 ص 96 ــ 97.

(219) نفاضة الجراب (مخطوط ك 256) ص 105.

(220) نفسه ص 96 ــ 97.

بالثاني والعشرين من رجب عام 763هـ أي بعد أسبوع من مغادرة سلا. يقول ابن الخطيب عن بداية رحلة العودة من فاس : «ولما وردت الباب السلطاني المريني مجرى الرسم من العز، والمنة لله، ومقتضب الخلع المفضلة والمراكب الفارهة شرعت في الارتحال بالأمير ومن تعلق به من ذيل وحرمة»[221].

ويذكر ابن الخطيب بأن الموكب الأميري ضم كذلك شخصيات سامية كلفت من أبي زيان بمرافقته إعرابا لابن الأحمر عن الود وإبقاء على الصداقة التقليدية بين غرناطة وفاس، ومن أهم هذه الشخصيات الفقيه أبو يحيى بن محمد بن أبي القاسم بن أبي مدين الذي حظي بتقدير كبير هناك فبولغ في إكرامه وحمل رسالة شكر من الملك الغرناطي[222] إلى أبي زيان. ولقد اختصر ابن الخطيب ــ مع الأسف ــ كلامه عن رحلة العودة إلى الأندلس اختصارا مخلا، فلم يذكر المنازل التي توقفوا بها، ولم يصف الطريق التي سلكوها، يقول : «وصحبت العناية من الله والستر، فكان المحمل سهلا والمنزل خصبا ودفئا والهواء ظلا والمورد نهلا وعلا، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها، وردنا سبتة فكان بها التربص ريثما تلاحقت أساطيل الأندلس وبها ظهير الدولة ويعسوب الكتيبة الزيانية الشيخ الشهير بموالاة الأمر ومظاهرة الدولة المستولي على الخلال الكريمة من مشهور المحاولة. وإحكام الثقافة إلى الخط والرجاحة وحسن المجلس والكلف بالأدب وذكاء الطبع تبرع بخوض البحر ومباشرة إجازة الامارة. فهيأ الله ذلك، ورام الأسطول قصد مالقة فاضطره البحر إلى النزول بجبل الفتح يوم الثلاثاء الحادي عشر شعبان، ثم كان النزول بمالقة إثر صلاة الجمعة الرابع عشر منه»[223]. فلقد أغفل أحداثا مهمة أشار إليها مؤرخو هذه الفترة، كسكوته عن صداقته الحميمة وعلاقته الحسنة بعلماء سبتة وشيوخها وفي مقدمتهم أبو العباس السبتي الصقلي الذي كان كثيرا ما ينزل ابن الخطيب في وجهاته المغربية عنده[224]، والغالب أنه كان يلذ له البقاء بجانبه مدة طويلة، فلقد ورد في أزهار

---

(221) نفسه ص 97.

(222) نفسه ص 109 ــ 113.

(223) نفاضة الجراب (مخطوط ك 256) ص 103.

(224) أزهار الرياض 1 : 32، الوافي بالادب العربي في المغرب 2 : 483.

الرياض أيضا أن الشريف السبتي هذا كان يخرج معه ابن الخطيب للنزهة في قرية يليونش التي أظهر إعجابه بها في إحدى هده النزه، فقال عنها[225]

هي جنة الدنيا التي من حلها نال الرضا والروح والريحانا

واستمر ابن الخطيب يصف رحلة العودة هذه برفقة الموكب الأميري إلى أن استقبلوه بغرناطة في عشرين من شعبان[226]، ذلك الاستقبال الكبير الذي أفاض في وصفه والحديث عنه.

ولكن الذي يعنينا هنا هو ما كتبه عن رحلاته وتنقلاته في المناطق المغربية، فمجال الرحلة الداخلية في السفر الثالث لا يتجاوز الثلث، والباقي ألصق بالاندلس وأخبارها.

ومما تجب الاشارة إليه أن بقاءه في الأندلس قد فرض عليه، وألزم به، فقد رأينا من قبل أنه لم ينه كل التزاماته بسلا و لم يكن يفكر في العيش بعيدا عن هذه المدينة. لذلك ظل متعلقا بها، راغبا في العودة إليها، بالرغم من تقلده مناصب رفيعة، بالأندلس، وبلوغه منتهى النفوذ والجاه هناك.

ولعل قصيدته الطويلة[227]التي نظمها بغرناطة تهدف إلى ترجمة هذا الاحساس، وتعرب عن هذه الرغبة. فلقد تغنى فيها بمدينة سلا، متشوقا إلى كل ما تركه هناك من أهل وولد وأملاك وأماكن وأصدقاء وزوايا، مسترجعا ذكرياته الجميلة المقترنة بربوعها وأعلامها.

وبما أن هذا يعد من صميم الرحلة الداخلية، يجدر بنا أن نثبت من هذه القصيدة بعض ما يتعلق بذكر هذه الأماكن والأشخاص الذين تعرف إليهم ابن الخطيب أثناء إقامته في هذه المدينة. ومن الجدير بالذكر أن ما ورد في ثنايا هذه القصيدة قد يكمل ما أحسسناه من تقصير في صمته عن ذكر الأعلام بسلا ووصفه لأماكنها.

ويبدو تعلقه بهذه المدينة فيما مهد به لقصيدته. يقول : «وقلت وقد بعثت بها إلى مدينة سلا حيث أهلي وولدي إلى هذا العهد»[228]. ونعرف منذ البداية معاناة الشاعر، وصدق عاطفته. يقول في مطلعها :

---

(225) أزهار الرياض 1 : 34.

(226) نفاضة الجراب ص 104.

(227) نفاضة الجراب (مخطوط ك 256) ص 187 ــ 190.

(228) نفسه ص 187.

خدع الشوق فؤادي فانخدع أفلا أقصر شيئا وارتدع

فهو يعيش صراعا مستمرا بين واقعه وهو بعيد عن المكان الذي عشقه، وأمله الذي لا يكل في السعي إلى تحقيقه :

هل لهذا البين من مجتمع أو لهذا المرتجى من مترجع
طمعت نفسي بزور غرّها فهل تجني بعده عقبي الطمع
والذي أظما لو شاء سقي والذي فرق لو شاء جمع

فمن المستحيل أن ينساها، بل من الغدر أن يفكر في غيرها :

إن سلا قلبي من بعد سلا فإلى الغدر بلا شك نزع
ثمر القلب بها خلفته هل لقلبي بعدها من منتجع

وهكذا فلا نبالغ إذا قلنا أننا أمام شعر غزلي يبثه صاحبه شوقه إلى محبوبه، ويسكب فيه الآمه مما يعانيه من الهجر، يتلذذ بالحديث عنه والتغني بصفاته، ومن هنا فالشاعر ابن الخطيب يجد متعة وهو يستعيد تلك الأماكن التي لم تفارق ذاكرته فيمر بهامتسائلا متأملا :

يا نسيم الريح إن جئت الحمى بعدما طبق غيم وارتفع
وتلومت بأكناف سلا ترفع الدوح قليلا وتضع
قل لواد القبط هل من عودة يصل الانس لديها ما قطع
أو على مرج حمام خطوة ما سرت في خاطري إلا انجمع

ويسترسل في ذكر هذه الأماكن، واقفا على كل منها محييا، ومظهرا شوقه إليها، ثم يعدد الأشخاص الذين تركوا الأثر في نفسه حين التقى بهم في سلا :

وإذا جئت ربعا بعدها فعل الله بقلبي وصنع
أبلغن صحبي بها ممحوضة ناظر المسك شذاها فانقطع
بولي الله فابدأ واقتصد واحد الأحد في باب الورع

ومن الذين ذكرهم بالاضافة إلى أبي العباس إبن عاشر، عشرة أعلام نشير إليهم حسب الترتيب الذي ذكروا به في القصيدة وهم : عبد العزيز، ابن رضى، ابن حمدين، أبو القاسم بن داود، ابن غياث، عثمان، ابنه حسن، عبد الله الصباغ، أبو السعد شقرون...

ومع الأسف فإن ذكر أسمائهم غير كاف للتعريف بهم، وإبراز منحاهم الثقافي،

ومستواهم العلمي، ومكانتهم الاجتماعية، وأهميتهم في عصرهم. وعلى أي حال فإن ابن الخطيب ينهي قصيدته، وهو يكابد من البعد عن أحبائه وأصدقائه :

يـــا لهم مـــن سادة جرعنـــي بينهم من مضض البين جـرع

ومما يدخل أيضا في مجال الرحلة الداخلية، ويلقي الضوء على كثير من الزوايا في علاقة ابن الخطيب بغيره من الأعلام الذين التقى بهم في المغرب رسالته الواردة في السفر الثاني المسماة «قطع الفلاة بأخبار الولاة»(229)، وهي رحلة مقامية تكاد تكون مستقلة، أهم ما يميزها هو الاغراق في الخيال، والمسحة المقامية التي تطبعها، إلا أن التعامل فيها دون شك ليس مع رموز مختلفة ونماذج بشرية مبتكرة على الطريقة المقامية، ولكن مع أعلام نستطيع التعرف عليهم بسهولة من خلال كتب التراجم والتاريخ، ولكننا ـــ مع الأسف ـــ لا يمكننا الاهتداء إلى بعض هؤلاء الأعلام، نظرا إلى أن هناك ثمانية مواضع حذف فيها الاسم وبقي بياضا. ولاندري من يتحمل مسؤولية هذا البتر ؟ هل ابن الخطيب أم ناسخ هذا السفر من النفاضة ؟ المهم أن هذا البتر ضيع علينا فرصة معرفة ثمانية أسماء

ومن أهم الشخوص الباقية في هذه الرحلة المقامية : ابن القوار، وابن جدار، وابن الربيب، ووالي مكناسة عبد الله بن محمد، وزكرياء بن يحيى، ووالي تيط ابن بطان، ومشرف دكالة اللحائي، والغفاري، والوالي محمد بن أبي العلى.

طابع النفاضة :

تبين لنا من خلال هذا العرض أن كتاب «نفاضة الجراب» لم يقتصر فيه ابن الخطيب على وصف المسالك والمدن فقط، ولكنه ضمنه كذلك قضايا تاريخية وأدبية أضحى معها وثيقة مهمة لا يستغنى عنها في دراسة البيئة والعصر ـــ ومن أهم ما تميز به :

1 ـــ اهتمامه التاريخي : فلقد عقد ابن الخطيب فصولا طويلة في السفرين الباقيين لتناول الأحداث التي عرفتها العدوتان معا، كالاضطرابات السياسية والانقلابات والدسائس. وهكذا تتبع في السفر الثاني أحداث الأندلس في الفترة الفاصلة بين خلع السلطان الغني بالله واسترجاع عرشه بغرناطة كما استعرض ـــ في إسهاب ـــ

(229) نفاضة الجراب، السفر الثاني ص 151 ـــ 162.

أحداث المغرب منذ عهد أبي عنان، إلى آن صار الأمر لأبي زيان، ولذلك كان هذا السفر أهم مصدر عن هذه الفترة وما اتسمت به من قلاقل واضطرابات وتصارع على الحكم بين الطامعين وأصحاب الشرعية، أما السفر الثالث فقد خصص الجزء الأكبر منه لتدوين مذكراته بالأندلس ذاكرا أثناء ذلك تفاصيل تاريخية كان طرفا في صنع أحداثها، أو أحد الذين وجهوا هذه الأحداث، وهكذا دون الأشعار التي أنشدت في الوليمتين اللتين أقامهما صاحب غرناطة، ووصف الحفل الكبير الذي نظم لاستقبال الأمير الغرناطي، وتحدث عن خبر اعتقال ابن كاشة الحضرمي وابن رحو، ونظن أن ابن الخطيب قد سار على نفس النهج في السفر الأول المفقود. فلقد استأثر التاريخ في كتاب «النفاضة» كله بحظ كبير، إذ المواد المتعلقة بالرحلة في الكتاب لا تتعدى الثلث، والباقي يذكر فيه ابن الخطيب ما سمعه أو رواه من أخبار تاريخية، ويدلي فيه بشهادات عن أهم أحداث العصر في العدوتين معا، مما دفع الباحثين إلى اعتبار النفاضة أحد كتب التاريخ[230].

2 ـــ الاهتمام الفهرسي : وإلى جانب الاهتمام التاريخي الذي طبع الكتاب فإن النفاضة تعد مصدرا مهما للتعرف على الأشخاص الذين التقى بهم ابن الخطيب في الحواضر والقرى التي مر بها داخل البلاد. ونظرا إلى أن اتصالاته كانت متنوعة وعديدة، مع أشخاص من مستويات مختلفة، فإنه ضمن كتابه هذا حشدا مهما من الاعلام والأشخاص الذين كان لهم دور في توجيه الحياة الفكرية والثقافية والسياسية لذلك العصر، مما حدا ببعض الباحثين إلى اعتبار النفاضة من الفهارس والبرامج[231].

3ـــ الاهتمام الأدبي : فكتاب النفاضة غني بالنصوص الأدبية شعرا ونثرا، فالسفر الثاني وحده يضم أكثر من أربعين رسالة تبادلها ابن الخطيب مع أعلام التقى بهم أو احتك بهم في رحلته، كما يضم أكثر من مائة وألف بيت شعري تكاد تكون كلها من نظم ابن الخطيب. خاطب بها أعلاما مختلفين في المراتب والدرجات، في أغراض أشرنا إلى بعضها من قبل.

---

(230) نثير فرائد الجمان ص 245.

(231) فهرس الفهارس 1 : 379، الروض الهتون ص 41، الاعلام للمراكشي 4 : 445.

فمثل هذا الانتاج الأدبي الغزير، وما كان له من صدى وما لقيه من تجاوب بين أدباء العصر وأعلامه، اعتبر وجود ابن الخطيب في هذه الفترة عاملا ساهم في تنشيط الحركة الأدبية بالمغرب، وعمل على انعاشها بدفع الكثيرين إلى الانتاج.

فكان لاحتكاك ابن الخطيب بعلماء المغرب وأدبائه في هذه الفترة ــ كما يقول أستاذنا ــ «أثره القوي وصداه البعيد في تأريث شعلة الأدب وتنوير معالمها في فاس ومكناس وسلا ومراكش وغيرها من المدن وحتى القرى»[232]

(232) الوافي بالادب العربي في المغرب الاقصى 2 : 473.

2 — رحلة المقري

وهذه إحدى الرحلات التي اهتمت أيضا بالبيئة المغربية، واتجه صاحبها إلى الحواضر العلمية بالمغرب للأخذ عن علمائها، وملازمة مجالسها العلمية وترجع أهميتها إلى أن المقري قصد هذه المجالس وتردد بين هذه الحواضر في فترتين مختلفتين، قبل أن يستقر نهائيا بمدينة فاس ويشتغل فيها بالتعليم والقضاء معا.

ومن خلال حديثه عن هاتين الرحلتين في كتابه «نظم الآلى في سلوك الأمالي»(233) تتبين لنا اتصالاته الكثيرة بعلماء المغرب، ورواياته العديدة عنهم، في كل المدن والقرى المغربية شرقا وغربا، يقول : «ثم بلغت بالرحلة إلى أغمات، ثم وصلت إلى سبتة فاستوعبت بلاد المغرب ولقيت بكل بلد من لا بد من لقائه من علمائه وصلحائه»(234). وبعد أن يرحل إلى المشرق ويزور أهم مراكز العلم به، يتجه مرة أخرى إلى البلاد المغربية وكأنه أراد أن يكمل ما فاته في الرحلة الأولى، يقول : «ثم رجعت إلى المغرب فدخلت سجلماسة ودرعة»(235).

ويحسن بنا، قبل أن نسايره في رحلته هاته، وننتقل معه في الحواضر المغربية، أن نستعرض بإيجاز أهم المراحل العلمية في حياته، محيلين على أهم المصادر والمراجع التي تفيد في الالمام بحياته(236).

---

(233) أزهار الرياض 5 : 12.

(234) نفسه ص 74.

(235) نفسه ص 75.

(236) أهم المصادر والمراجع :

1) الاحاطة في أخبار غرناطة 2 : 191 — 226. ⇐

نشأ أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد المعروف بالمقري الجد في مدينة تلمسان، التي كانت تعرف في أوائل القرن الثامن الهجري ازدهارا علميا على غرار باقي حواضر المغرب الأخرى، فلم تعد هذه المدينة ذات كيان مستقل عن المغرب، بل أضحت حضرة بني مرين في عهد كثير من ملوكهم مما جعلها تحظى باهتمام كبير ثقافيا وعلميا وعمرانيا، فكان لذلك أثره في تكوين المقري وثقافته المتنوعة. وبالرغم مما لحق تلمسان من تخريب وتقلبات بسبب ما توالى عليها من اضطرابات وحروب، وفترات حصار وصراع بين المرينيين وبني عبد الواد، فإن المؤسسات الثقافية لم ينلها التخريب ولم تتأثر بظروف هذه القلاقل والاضطرابات. يقول المقري : «ومن جملة ذلك خزانة كبيرة من الكتب وأسباب كثيرة تعين على الطلب فتفرغت بحول الله عز وجل للقراءة، فاستوعبت أهل البلد لقاء، وأخذت عن بعضهم عرضا وإلقاء، سواء المقيم القاطن والوارد والظاعن»(237).

وهكذا كانت الاستفادة كبيرة. فإلى جانب إطلاعه على ما كانت تضمه هذه الخزانة الغنية من النفائس والنوادر، فإنه جلس إلى علماء كثيرين مقيمين بتلمسان أو وافدين عليها. فالمدينة بحكم موقعها الهام، وخضوعها في فترات كثيرة من هذا العهد للسيادة المرينية، أصبحت تغص بعلماء المغرب وغيرهم، مما أتاح للمقري

2) المرقبة العليا ص 169 ــ 170.
3) الديباج المذهب ص 288 ــ 289.
4) التعريف بابن خلدون ص 59 ــ 62.
5) بيوتات فاس الكبرى ص 64.
6) نيل الابتهاج ص 249 ــ 254.
7) البستان ص 154 ــ 164.
8) درة الحجال 2 : 43 ــ 44.
9) جذوة الاقتباس 1 : 298 ــ 300.
10) نفح الطيب 5 : 203 ــ 350
11) أزهار الرياض 5 : 12 ــ 78.
12) شذرات الذهب 6 : 193 ــ 196.
13) الاعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الاعلام 4 : 382 ــ 408.
14) فهرس الفهارس 2 : 682 ــ 683.
15) الاعلام للزركلي 7 : 37.

(237) نفح الطيب 5 : 206.

الأخذ عن شيوخ كثيرين، ذكر سبعة وعشرين منهم في كتابه «نظم اللآلى». ويشكل علماء المغرب نحو الثلث من هؤلاء الذين قصد مجالسهم العلمية بتلمسان للرواية والأخذ.
ومن أهم شيوخه المغاربة في تلمسان :

أبو إسحاق إبراهيم بن حكم السلوي الذي يقول المقري عنه بأنه «ورد تلمسان بعد العشرين ثم لم يزل إلى أن قتل يوم دخلت على بني عبد الواد، وذلك في الثامن والعشرين من شهر رمضان عام سبعة وثلاثين وسبعمائة»[238].

أبو علي حسن بن يوسف بن يحيى الحسيني السبتي. ولقد استقر بتلمسان في قفوله من رحلته المشرقية[239].

أبو الحسن علي بن أبي بكر بن سبع بن مزاحم المكناسي، وهو كذلك أقام بتلمسان أعواما حين عودته من المشرق[240].

أبو محمد عبد المهيمن بن محمد الحضرمي السبتي[241]، وهو أحد أعمدة الثقافة المغربية في النصف الأول من القرن الثامن الهجري.

أبو عبد الله محمد بن سليمان بن علي السطي[242]، وهو ايضا ذو شهرة علمية كبيرة.

أبو عبد الله محمد بن أحمد بن شاطر الجمحي المراكشي[243]، الذي استفاد منه المقري في الجانب الروحي، فعرف كثيرا من أخباره وأحواله.

أما من غير المغاربة فلقد أخذ عن العالمين ابني الامام[244]، والحافظ أبي موسى عمران بن موسى بن يوسف المشدالي الذي كان يدرس بتلمسان الحديث والفقه

(238) نفسه ص 224، الازهار 5 : 32.

(239) النفح 5 : 232.

(240) نفسه 5 : 238.

(241) نفسه 5 : 240.

(242) نفسه 5 : 241.

(243) نفسه 5 : 248.

(244) نفسه 5 : 215.

والاصلين والنحو والمنطق والجدل والفرائض. وصفه المقري بأنه «كان كثير الاتساع في الفقه والجدل، مديد الباع فيما سواهما مما ذكر»(245)، والعالم أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن أحمد العبدري الآبلي التلمساني(246)، الذي اشتهر في كل من المشرق والمغرب بتضلعه في المعقول والمنقول معا.

وغادر مسقط رأسه تلمسان سنة 737هـ، وهي السنة التي تم فيها لأبي الحسن القضاء على حكم بني عبد الواد بها، يقول المقري : «ولما دخلت تلمسان على بني عبد الواد تهيأ لي السفر منها»(247) فأتيح له القيام برحلات كثيرة، تردد فيها على أهم الحواضر العلمية في المشرق والمغرب، فأخذ بالمغرب العربي عن شيوخ بجاية وتونس وفاس وتازا، واستفاد بالمشرق من شيوخ مصر ومكة والمدينة ودمشق وبيت المقدس...

فكانت رحلاته المختلفة واتصالاته العديدة وتكوينه المتنوع سببا لشهرته وتفوقه في الميدان العلمي. وصفه معاصره ابن الخطيب بقوله : «هذا الرجل مشار إليه بالعدوة المغربية اجتهادا ودؤوبا، وحفظا وعناية واطلاعا ونقلا ونزاهة»(248) وقال عنه ابن خلدون بأنه «كبير العلماء بالمغرب»(249). أما أبو الحسن النباهي الأندلسي فيقول عنه بعد أن عرفه وخالطه بأنه «في غزارة الحفظ وكثرة مادة العلم عبرة من العبر، وآية من آيات الله الكبر، قلما تقع مسألة إلا ويأتي بجميع ما للناس فيها من الأقوال ويرجح ويعلل ويستدرك ويكمل»(250).

ويشير ابن فرحون إلى أن المقري قد برز في أهم العلوم والفنون الاسلامية(251). فلا غرابة إذا اشتهر أمره، وعرفت مكانته العلمية، وبادر أبو عنان إلى تقريبه، إذ وقع عليه اختياره لكتابة البيعة بتلمسان، وقراءتها على جموع الوافدين،

---

(245) نفسه 5 : 223.

(246) نفسه 5 : 244.

(247) نفسه 5 : 249.

(248) الاحاطة 2 : 194.

(249) التعريف ص 247.

(250) المرقبة العليا ص 169.

(251) الديباج ص 288.

ثم «اجتذبه وخلطه بنفسه واشتمل عليه وولاه قضاء الجماعة بمدينة فاس»(252)، ورتبه ضمن أعضاء مجلسه العلمي(253)، وكلفه بتدريس صحيح مسلم يقول ابن الأحمر إن أبا عنان «لما بنى المدرسة التي بطالعة فاس استعمل قاضي القضاة يدرس بها صحيح مسلم بن الحجاج وهو الفقيه العلامة المدرس المفتي محمد بن محمد بن أحمد المقري التلمساني القرشي، وكان أبو عنان يأتي إلى مجلسه بالمدرسة ليحضره عند التدريس»(254).

والحقيقة أن المقري قام بالمهمتين معا أحسن قيام، فلقد أتيح لابن الخطيب حضور بعض مجالس قضائه في إحدى سفارتيه المذكورتين إلى المغرب فخرج بانطباع لخصه بقوله : «حضرت بعض مجالسه للحكم فرأيت من صبره على اللدد وتأتيه للحجج، ورفقه بالخصوم، ما قضيت منه العجب»(255).

ولعل ما تميز به من مرونة وصبر وذكاء ولباقة في عرض الحجج والمناقشة إلى جانب التمكن العلمي والاطلاع الواسع، لعل ذلك كله هو بعض أسباب نجاحه. ومن أمثلة هذه اللباقة ما حكاه ابن الأحمر(256) عن دفاعه عن خلافة أبي عنان بإلغائه شرط القرشية، فسر أبو عنان لهذا الموقف وكافأه على انتصاره له.

فهذا الموقف وأمثاله أكسبه مكانة خاصة لدى أبي عنان وأحله منزلة رفيعة عنده، وهكذا كان أبو عنان نفسه يسعى لحضور دروسه ويقصد مجالسه العلمية. كما أننا وجدناه يقوم مع أعضاء مجلسه لمزوار الشرفاء إذا دخل إلا المقري فإنه كان لا يقوم في جملتهم(257)، وهذا يدل على علو منزلته واعتزازه بنفسه.

والمعروف أنه بقيت له هذه المكانة إلى أن توفي بفاس في سنة 759هـ(258) ولم يقتصر نشاط المقري الجد على ما ألقاه من دروس وما تقلده من مناصب، بل عرف

---

(252) الاحاطة 2 : 195.

(253) مخطوط القرويين رقم 643.

(254) بيوبتات فاس ص 64.

(255) الاحاطة 2 : 195.

(256) بيوتات فاس ص 64.

(257) البستان ص 162.

(258) الاحاطة 2 : 226.

نشاطه في الكتابة والتأليف أيضا. فلقد ذكر حفيده بأن «تآليفه كثيرة»(259) اكتفى بذكر ستة عشر تأليفا، في علوم وفنون مختلفة كالفقه والتصوف والحديث والشعر. ومن أهم هذه التآليف كتاب «رحلة المتبتل» «وكتاب» نظم اللآلي في سلوك الأمالي».

رحلته :

أشرنا من قبل إلى أن جولاته بالمغرب كانت واسعة، شملت أهم حواضره واستوعبت بلاد المغرب كلها على حد تعبيره، لأن رحلته إليه كانت في فترتين مختلفتين قبل أن يقصده في المرة الثالثة، وقد استقدمه أبو عنان إلى فاس ليتولى بها منصبي القضاء والتدريس.ويبدو من خلال ما دونه في كتابه «نظم اللآلى» أنه قام برحلتيه المذكورتين إلى المغرب من أجل الطلب والتحصيل ولقاء الأعلام والشيوخ. فجولاته في البلدان المغربية كلها في تلك السن المبكرة لم تكن حتما من أجل السياحة أو البحث عن عمل، لأنها تمت في فترة تكوينه العلمي، وفي زمن تطلعه للقاء العلماء والأخذ عنهم.

فمن خلال النصوص المختلفة، والاشارات الواردة في كتب العصر، نعرف أن رحلته إلى المغرب تمت حول العشرين من عمره. فلقد أشار ابن خلدون عرضا — وهو يتجول بين دروب القاهرة وسككها — إلى أن رحلة المقري الثانية إلى المغرب كانت سنة 740هـ، يقول : «سألت صاحبنا قاضي الجماعة بفاس وكبير العلماء بالمغرب أبا عبد الله المقري مقدمه من الحج سنة أربعين فقلت له كيف القاهرة قال من لم يرها لم يعرف عز الاسلام»(260).

وإذا كنا نعرف أن ولادة المقري كانت في عهد أبي حمو موسى (261) بن عثمان الذي انتهت فترة حكمه بتلمسان سنة 718هـ ، نتأكد من أن رحلته إلى المغرب تمت حول العشرين من عمره، وهذه هي مرحلة الطلب والدراسة عادة.

---

(259) النفح 5 : 284 — 310.

(260) التعريف بابن خلدون ص 247.

(261) النفح 5 : 206.

ولقد أوضح المقري نفسه في أكثر من إشارة إلى أنه لم يكن كبير السن حين أقدم على رحلته إلى المغرب وغيره، إذ أشار إلى أنه كان صغيرا في سنة 729 هـ حين روى بتلمسان مسلسل المصافحة عن الشيخ أبي عثمان سعيد الخياط[262] كما ذكر بأنه كان حديث السن حين حضر مجلسا أقامه السلطان أبو تاشفين ابن حمو (718 — 737) بتلمسان. فأبدى جرأة — رغم صغر سنه — في اشتراكه في المناقشة العلمية التي تمت بين العالمين أبي زيد ابن الامام، وأبي موسى عمران المشدالي[263]

من كل ما تقدم يتبين أن الباعث على الرحلتين معا كان علميا، وبالرغم من أنه دون لقاءاته ورواياته بالمغرب ضمن كتابه «نظم اللآلى في سلوك الأمالي» إلا أن ما دونه لم يصلنا — مع الأسف — كاملا، إذ لا نملك منه — لحد الآن — إلا الملخص الذي أورده حفيده أبو العباس المقري في كتابيه النفح والأزهار فلقد ختم ما أورده من هذا الكتاب بقوله : «انتهى ما قصدناه من رحلة أشهر أسلافنا الامام القاضي أبي عبد الله المقري»[264].

وقد اكتفى أحيانا في هذا التلخيص بالاشارة فقط إلى أسماء الأعلام الذين التقى بهم جده وهو ينتقل بين المناطق المغربية المختلفة. فما هي الكتب التي قرأها على هؤلاء الشيوخ ؟ وما هي رواياته وسماعاته عنهم ؟ وما هي المناقشات التي تكون قد أثيرت في مجالسهم العلمية ؟ ثم من هم هؤلاء الذين كانت تضمهم تلك المجالس العلمية ؟

كل هذه الأسئلة تبقى بدون جواب في هذا التلخيص الذي وصلنا، ومع ذلك فإن فائدته لا تنكر في التعرف على شيوخ العصر وعلمائه.

ومن الجدير بالذكر أن ابن الخطيب ذكر بعض محتوى هذه الرحلة العلمية[265]، إلا أنه مع الأسف لم يذكر غير الشيوخ الذين أخذ عنهم المقري بتلمسان وبجاية وتونس ومكة والشام وبيت المقدس. بينما أغفل ذكر الشيوخ الذين

---

(262) النفح 5 : 241.

(263) نفسه 5 : 218.

(264) أزهار الرياض 5 : 75 — 76.

(265) الاحاطة2 : 200 — 203.

أخذ عنهم في البلاد المغربية، وأهمل الحديث عن سماعاته ورواياته بها. ولعل سبب هذا يعود لما أشرنا إليه سابقا من أن الرحلة التي كان يحتفل بها وتلقى الاهتمام والتجاوب هي الرحلة المشرقية.

يمكننا التعرف على بعض أخبار رحلته إلى المغرب، من خلال ما احتفظ به الملخص من إشارات، وما تحدث عنه من مدن وأعلام. فلقد ذكر المقري بأنه كان يرافقه في رحلته الأولى نحو المغرب أحد القسنطنيين الذي سايره في طريقه منذ خروجهما من تونس يقول : «ولقيت بتونس غير واحد من العلماء والصلحاء يطول ذكرهم ثم قفلت إلى المغرب يسايرني رجل من أهل قسنطينة يعرف بمنصور الحلبي، فما لقيت أكثر أخبارا ولا أظرف نوادر منه»(266).

ويكتفي هذا الملخص بذكر إحدى هذه النوادر الطريفة التي أتحفه بها مرافقه القسنطيني، متناسيا وصف مشاهداته في رحلته، فلا نعرف الطريق التي سلكها، ولا المنازل التي توقف بها، والمسافة التي قطعها، أو الزمن الذي أمضاه في الطريق إلى المغرب، بل إننا نفاجأ ونحن نشهد رحيله عن تلمسان، فلم يمكنا هذا النص من معرفة أحواله، وأخباره في هذه المسافة الطويلة الفاصلة بين تونس وتلمسان، فبمجرد خروجه من تونس يبادر إلى القول «ثم رحلت من تلمسان إلى المغرب»(267).

ونعرف أن المقري توقف في تازا فالتقى بأعلام كثيرين ذكر ثلاثة منهم فقط. يقول : «وكنت قد لقيت بتازا الفقيه أبا عبد الله ابن عطية، والأستاذ أبا عبد الله المجاصي، والشيخ أبا الحسن الجيار». منهيا لائحة الأعلام الذين التقى بهم في هذه المدينة بقوله : «وغيرهم ممن لا يحتمل هذا المختصر تعدادهم ولا يمكن استيفاؤهم»(268)، فالعدد كثير لا يمكن الالمام به وإلا لكنا قد تعرفنا على أعلام كان لثقافتهم وإنتاجهم الأثر الكبير في ثقافة العصر، والأشخاص الثلاثة الذين ذكرهم، لو لم يكن قد نص على أسمائهم لكانوا عرضة للنسيان والاهمال، وهكذا بحثنا عنهم في كتب التراجم والوفيات فلم نظفر بشيء يزيدنا تعريفا بهم وبإمكاناتهم العلمية.

---

(266) الأزهار 5 : 72.

(267) النفح 5 : 252.

(268) النفح 5 : 253، الازهار 5 : 74.

أما في مدينة فاس فلقد لقي العديد من العلماء، أورد الملخص أسماء حوالي تسعة منهم، مشيرا إلى أن هذا العدد لا يمثل كل من التقى بهم المقري في مدينة فاس. يقول : « ولقيت غير هؤلاء ممن يكثر عددهم»(269) ومن الأعلام الذين نص عليهم في هذا الملخص(270) :

ـــ الشيخ الفقيه الحاج أبو إسحاق ابراهيم بن عبد الله اليزناسي، وهو من أهم علماء عصره، كان مفتيا بفاس. وردت بعض فتاويه في كتاب المعيار(271).

ـــ الشيخ الفقيه أبو محمد عبد المومن الجاناتي (ت 746) الذي كان من أعرف الناس بالمدونة، وهو الذي خلف أستاذه أبا الحسن الصغير في مجلسه بعد وفاته، ذلك المجلس الذي كان يؤمه نحو الأربعمائة معمم من حفاظ المدونة(272).

ـــ الفقيه أبو الضياء مصباح بن عبد الله اليالصوتي الذي وصفه المقري بأنه «كان حافظ وقته وقال عنه التنبكتي : «من أكبر أصحاب أبي الحسن الصغير، كان فقيها صالحا حافظا نوازليا، وهو أول من درس بمدرسة أبي الحسن المريني بفاس فنسبت إليه»(273) كما أن له فتاوي نقل بعضها في المعيار(274).

ـــ أبو زيد عبد الرحمان بن عفان الجزولي وصفه بشيخ الشيوخ، عرف بتضلعه في فقه المذهب المالكي، لذا كان مجلسه يضم أكثر من ألف فقيه، معظمهم يستظهر المدونة. وهكذا أخذ عنه أبو الحسن الصغير وغيره من علماء العصر. ونعتقد أن المقري الجد استفاد من مجلسه هذا في رحلتيه معا، لأن الشيخ الجزولي توفي سنة 741هـ بعد وقعة طريف(275).

---

(269) نفس المصدرين.

(270) النفح 5 : 252 ـــ 253، الازهار 5 : 73.

(271) الجذوة 1 : 86، نيل الابتهاج ص 38 شجرة النور ص 218.

(272) وفيات الونشريسي ضمن ألف سنة ص 115، الجذوة 2 : 447، الدرة 3 : 172.

(273) نيل الابتهاج ص 344

(274) لقط الفرائد ضمن ألف سنة ص 203، درة الحجال 3 : 17.

(275) الوفيات لابن قنفد ص 351، النيل ص 165، الجذوة 2 : 401، الدرة 3 : 75.

ـ الأستاذ أبو العباس المكناسي لعله هو أحمد بن عبد الرحمان اليفرني المكناسي (ت 753) الذي وصفه التنبكتي، بأنه من الفقهاء والأساتذة. رحل من فاس إلى مكناسة للأخذ عن أبي عبد الله محمد بن قاسم الأنصاري المالقي، فلما رجع إلى بلده صار يدعى المكناسي، روى عن ابن الزبير و ابن سليمان الودآشي وابن هاني وابن رشيد، وأبي يعقوب الباذشي[276]

ـ ويذكر المقري بأنه كان في مجلس شيخه أبي عبد الله محمد الآبلي بفاس حين مر عليهما هناك أبو عبد الله الدباغ المالقي المتطبب وحدثهما بحديث اللظافة[277]

ولا شك أن هذا الاجتماع تم بعد أن استقدم أبو الحسن المريني أبا عبد الله الآبلي إلى فاس للالتحاق بمجلسه العلمي، وكان ذلك عقب استيلائه على تلمسان سنة 737هـ يقول عنه التنبكتي : «فاستدعاه من فاس فنظمه في طبقة العلماء فعكف على التدريس والتعليم، ولازمه وحضر معه وقعة طريف والقيروان»[278]

ولا شك في أن المقري قد استمر في رحلته متنقلا بين مدن مغربية أخرى، باحثا عن الأعلام والشيوخ للرواية عنهم و الاستفادة منهم. فقد أشار في نص سابق إلى أنه دخل في هذه الرحلة الأولى مدينتي أغمات وسبتة، مما يدل على أن مشاهداته ولقاءاته شملت شمال المغرب وجنوبه، كما أوضح هو نفسه. يقول ملخصا أهم ما استفاده : «فاستوعبت بلاد المغرب ولقيت بكل بلد من لا بد من لقائه من علمائه وصلحائه»[279]

وبعد إعماله الرحلة إلى الحجاز التي تأتَّى له فيها تأدية الفريضة ولقاء الأعلام، يعود المقري إلى المغرب من جديد لاكمال مشاهداته ولقاءاته للعلماء والشيوخ، ودخول البلدان التي لم يتمكن من دخولها في رحلته الأولى.

ونعتقد أن رحلته الثانية كانت أطول زمنا وأوسع مكانا، لأنه وإن كان متعجلا في رحلته الأولى التي تمت في الفترة الممتدة بين سنة 738هـ وسنة 740هـ التي عاد

---

(276) نيل الابتهاج ص 69.

(277) النفح 5 : 245، الازهار 5 : 62.

(278) نيل الابتهاج ص 245.

(279) أزهار الرياض 5 : 74.

فيها من الحج، فإنه في هذه المرة لم يبق ما يدفعه إلى هذه العجلة. ومن هنا لا نشك في أنه زار مدنا أكثر من قبل، واتصل بأعلام عديدين. إلا أن الملخص لا يزيد في وصفه لهذه الرحلة على قوله : «ثم رجعت إلى المغرب فدخلت سجلماسة ودرعة ثم قطعت إلى الأندلس»(280)

ومن المؤكد أنه مر في طريقه إلى الأندلس بمعظم المدن المغربية، فما هي أوصافه لهذه المدن ؟ ومن هؤلاء العلماء الذين التقى بهم في جولاته ؟ مع العلم أن هذه الفترة كانت من أزهى العصور المرينية، تمتلىء حواضرها وقراها بالعلماء والأدباء والفقهاء كما سبقت الاشارة إلى ذلك في المدخل. إن الملخص لا يفيدنا إلا في رسم مخطط هذه الرحلة الثانية، فلا يقدم لنا وصفا لكل هذه المدن التي تقع في طريقه من جنوب المغرب إلى شماله وهو يتوجه إلى الأندلس.

ومن أهم الاعلام الذين يفترض أن المقري التقى بهم في رحلته واستفاد منهم :

ـــ أبو سالم إبراهيم بن عبد الرحمن التسولي التازي (ت 749هـ)(281) الذي كان قيما على التهذيب والرسالة، حضر ابن الخطيب بعض دروسه في مدرسة عدوة الأندلس بفاس فلم ير أحسن تدريبا منه، وهو الذي استعمله السلطان في السفارة.

ـــ أبو العباس ابن شعيب الجزنائي (ت 749هـ)(282) وصف بأنه كان مشاركا في الفنون وخصوصا في علم الأدب، حافظا للشعر، وقد لقيه ابن خلدون حين ذهب الجزنائي إلى تونس صحبة موكب أبي الحسن المريني، فوصفه بأنه «برع في اللسان والأدب والعلوم العقلية من الفلسفة والتعليم والطب»(283).

ـــ أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي (284) (ت 749هـ) الذي «كان خاتمة الصدور وصاحب القلم الأعلى بفاس» لذلك كان يعتبر إمام المحدثين والنحاة بالمغرب. لذلك لا نستبعد استفادة المقري منه في هذه الرحلة بعد أن عرف مستواه الجيد حين التقى به في تلمسان.

---

(280) أزهار الرياض 5 : 75، النفح 5 : 254.

(281) الاحاطة 1 : 372، الجذوة 1 : 85.

(282) التعريف بابن خلدون ص 48، الاحاطة 1 : 272، الجذوة 1 : 119.

(283) التعريف ص 48.

(284) التعريف ص 20، الجذوة 2 : 444.

ـ أبو عبد الله محمد بن علي السطي[285] (ت 749هـ) الذي كان يعتبر شيخ الفتيا بالمغرب وامام مذهب مالك.

ـ أبو عبد الله محمد بن الصباغ (ت 749هـ) الذي وصفه ابن خلدون بأنه «كان مبرزا في المنقول والمعقول وعارفا بالحديث وبرجاله وإماما في معرفة كتاب الموطأ واقرائه»[286].

ـ أبو فارس عبد العزيز القروي (ت 750هـ) وهو الشيخ الفقيه الذي كان استاذ جيل عصره، اخذ عنه جماعة منهم موسى العبدوسي[287].

ـ أبو عبد الله ابن مرزوق الخطيب (ت 781 هـ) الذي كان ملازما في تلك الفترة لحضرة أبي الحسن المريني[288]

(285) التعريف ص 19، الجذوة 1 : 228.

(286) التعريف ص 45.

(287) الجذوة 2 : 451.

(288) التعريف ص 49، الديباج ص 305، النيل ص 267.

3 ـــ رحلة ابن خلدون

وهذا أثر آخر يهتم مؤلفه في جزء منه بالبيئة المغربية، فينقل إلينا ملاحظاته وهو يتجول فيها، ويتحدث عن أعلام كان لها أثرها في هذه البيئة سياسيا وثقافيا.

ونعني بهذا الاثر كتاب أبي زيد عبد الرحمان بن خلدون (732 ـــ 808) المعنون بكتاب «التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا» وهو عبارة عن سيرة ذاتية ألحقها المؤلف بكتابه «العبر»، تناول فيه كل مراحل حياته من نشأته إلى تاريخ انتهائه من كتابة هذا التأليف في سنة 807هـ. إلا أن عرضه للاحداث والتنقلات المختلفة جعل الكتاب أقرب إلى فن الرحلة، والعنوان نفسه يصنفه مع كتب الرحلات، مما يدل على أن ابن خلدون كان يقصد من هذا التأليف وصف رحلاته وذكر مشاهداته، ولقاءاته في هذه الرحلات. ومن هنا فقد اكتفى بعض الباحثين بوصفها بالرحلة، إذ يشيرون إليها بعنوان «رحلة ابن خلدون»(289).

والقارىء لهذا الكتاب يجده أشبه في كثير من موضوعاته بالرحلات الفهرسية التي تتوخى التعريف بالشيوخ والاعلام الذين أخذ عنهم أو التقى بهم، وتهتم بنقل الأسانيد التي حصل عليها، والكتب التي درسها، وذكرالمجالس العلمية التي حصل فيها على السماع والرواية والاجازة...

ولعل الذي جعل كتاب «التعريف» شبيها بالرحلة هو أن صاحبه لم يعرف الاستقرار في بلد معين، فحياته موزعة بين بلدان عديدة في غرب العالم الاسلامي

(289) كشف الظنون 1 : 385، الاعلام للمراكشي 8 : 110.

وشرقه، وإن كان للمغرب النصيب الأوفر من هذه الرحلات، يتجلى ذلك في المنهاج الذي اتبعه المؤلف من ميل إلى التفصيل في حديثه عن رحلاته بالمغرب وعلاقاته بشخصياته وعلمائه، بينما كان حديثه عن المشرق متسما بالايجاز والاقتضاب، حتى في الموقف الذي كان ينتظر منه تفصيل أخباره وأوصافه كتأديته لفريضة الحج(290).

ومثل هذا المنهج يكشف عما للمغرب من منزلة خاصة في نفسيته، وما لرحلاته داخل المغرب من أثر في تكوينه العلمي وتألقه وشهرته. فوفادته عليه زادته ثقافة وعلما، جلس أثناءها إلى الشيوخ والعلماء للأخذ عنهم، بينما حل ببلدان أخرى وهو مكتمل الثقافة يكلف فيها بالمناصب العلمية كالقضاء والتدريس، وينصرف إلى التأليف والفتوى وإفادة غيره.

نصل إلى هذا الاستنتاج من خلال قراءتنا للعبارات التي استعملها وهو يحل بالبلدان التي شملتها رحلاته المختلفة، فلم يصرح بانشغاله بقراءة العلم والأخذ عن المشيخة إلا إذا كان موجودا في المغرب، أما في البلدان الأخرى فهو يقصد للأخذ عنه والاستفادة منه، وهكذا يقول ــ وقد حل بالمغرب لأول مرة ــ «وعكفت على النظر والقراءة ولقاء المشيخة»(291) فيجد بغيته الفكرية في أعضاء مجلس أبي عنان الذي انضم إليه وكانت فائدته عظيمة يخصها بقوله «كلهم لقيت وذاكرت وأفدت منه وأجازني بالاجازة العامة»(292) وهكذا ظل يعتبر مدينة فاس مدرسته التي يزداد بها علما ومعرفة، فإذا غادرها يصبح من واجبه تعليم الآخرين وإفادتهم، فبمجرد حلوله بتلمسان يأخد في تدريس العلم(293) وتلقينه لغيره، يقول عند عودته الأخيرة من فاس وقد دخل تلمسان : «واستقررت بها بالعباد، ولحق بي أهلي وولدي من فاس، وأقاموا معي، ذلك في عيد الفطر سنة ست وسبعين وأخذت في بث العلم»(294).

(290) التعريف بابن خلدون ص 261.

(291) التعريف بابن خلدون ص 59.

(292) نفسه ص 66.

(293) نفسه ص 135.

(294) نفسه ص 227.

أما في مدينة بجاية فقد ذكر بأنه كان يقسم وقته بين منصب الحجابة، وما أسند إليه من مناصب علمية كالخطابة والتدريس، يقول : «وقدمني للخطابة بجامع القصبة، وأنا مع ذلك عاكف ــ بعد انصرافي في تدبير الملك غدوة ــ إلى تدريس العلم أثناء النهار بجامع القصبة لا أنفك عن ذلك»[295].

ونجده قد عاد إلى مسقط رأسه تونس عالما متمكنا وشيخا يؤخذ عنه يقول : «ولما قدمت تونس انثال علي طلبة العلم من أصحابه وسواهم يطلبون الافادة والاشتغال»[296] يشير إلى ابن عرفة الذي استبدت به الغيرة من مستواه الرفيع.

ويتبوأ أيضا المقام الرفيع في المشرق فتسند إليه ولاية القضاء، ويكلف بالتدريس في مدرسة القمحية، ومدرسة صلاح الدين. وحينما يصاب بفجيعة غرق أهله يعفيه السلطان من الوظيفة للتخفيف من ألم المصاب، ومع ذلك فلم يتسل عن مصابه إلا بانصرافه إلى التدريس، يقول : «وفرغت لشأني من الاشتغال بالعلم تدريسا وتأليفا»[297].

ومن هذه الامثلة المذكورة يبدو اعتراف ابن خلدون بما للمغرب من أثر في ثقافته وتكوينه العلمي، بل وفي عاداته وسلوكه، فليس من المبالغة إذا اعتبر «ثمرة من ثمرات العهد المريني»[298] فالمعروف عنه أنه رغم تقلده المناصب الرفيعة في مصر، فإنه ظل يعترف بفضل المغرب عليه، ويبقي على صلته به ولهذا لم يخلع زيه المغربي[299] رغم توليه القضاء الذي كان له زي متميز معروف، كما أنه بقي محتفظا بذكرياته الطيبة عن المغرب، فإذا طلب منه تيمورلنك التعريف ببلده يفيض في الحديث عن المغرب الجواني ويكتب ملخصا في إثني عشر كراسا يقدم فيه بلده إلى هذا القائد المغولي[300].

---

(295) نفسه ص 98.

(296) نفسه ص 233.

(297) التعريف بابن خلدون ص 285.

(298) الوافي بالادب العربي في المغرب 2 : 525.

(299) أنباء الغمر 2 : 340، الضوء اللامع 4 : 145، شذرات الذهب 7 : 77.

(300) التعريف ص 370 بحث د. عبد الهادي التازي ضمن أعمال ندوة ابن خلدون ص 376.

ثم هناك ناحية أخرى جديرة بالملاحظة، وتتعلق بتراث ابن خلدون، فمن المعروف أن هذا التراث لم يحفظ ــ فيما عدا المقدمة والتاريخ ــ إلا في المغرب(301) وهذا دليل آخر على متانة الروابط التي تشده لهذا البلد.

ولقد أسهبنا في علاقة ابن خلدون بالمغرب، لاعتقادنا بأن المغربية فيه أقوى من غيرها. لذلك سنكتفي فيما يتعلق بمراحل حياته الأخرى بأن نحيل على أهم المصادر والمراجع التي ترجمت له(302).

محتويات الرحلة :

ولن نهتم هنا بكل ما تضمنته رحلته الواسعة التي شملت بلداناً في المشرق والمغرب، واستوعبت تفاصيل حياته كلها، بل سنقصر اهتمامنا على ما خص به المغرب في هذه الرحلة.

1 ــ بداية الصلة بالمغرب :

ولم تكن البداية في البلاد المغربية بالمفهوم الحالي، وإنما كانت في تونس. وقد أصبحت حضرة أبي الحسن المريني، غاصة بالعلماء الذين جاءوا في ركبه، مما كان له الأثر المحمود في إنعاش الثقافة والفكر بهذا البلد، وكان ابن خلدون أحد الذين رشفوا من رحيق هذه الثقافة، وارتووا من مناهل هذا الفكر الخصب. فبقي هؤلاء العلماء بالنسبة له ولأمثاله مصدر اعتزاز وفخر بأستاذيتهم ومشيختهم.

---

(301) مقال د. ابن شريفة ضمن أعمال ندوة ابن خلدون ص 163.

(302) من أهمها مصادر معاصرة له، أو قريبة من عصره، أولها طابع بيليوغرافي :

1) التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا.
2) الاحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب 3 : 497 ــ 516.
3) نثير الجمان لابن الاحمر ص 297 ــ 310.
4) درر العقود الفريدة للمقريزي، نشر مجلة المجمع العلمي العراقي مجلد 13 ص 201 ــ 246.
5) إنباء الغمر لابن حجر 2 : 339 ــ 340.
6) الضوء اللامع للسخاوي 4 : 145 ــ 149.
7) نيل الابتهاج للتنبكتي ص 169 ــ 170.
8) درة الحجال لابن القاضي 3 : 84 ــ 86
9) جذوة الاقتباس لابن القاضي 2 : 410 ــ 413.
10) شذرات الذهب لابن عماد الحنبلي 7 : 76 ــ 77. ⇐

ورغم أنه لم يعدد كل العلماء الوافدين على تونس، واقتصر منهم على اثني عشر فقط(303)، فإن ما كتبه يعد مصدرا مهما للتعرف على العصر وثقافته وأعلامه. وفي تمهيده لذكر هؤلاء العلماء يقول : «وكان قدم علينا في جملة السلطان أبي الحسن، عندما ملك إفريقية سنة ثمان وأربعين، جماعة من أهل العلم، كان يلزمهم شهود مجلسه، ويتجمل بمكانهم فيه»(304).

ولقد أخذ عن هؤلاء الشيوخ، وتتلمذ عليهم في العلوم المختلفة. فمن هؤلاء الفقيه، والمقرىء، والمحدث، والمبرز في التعاليم والفنون الحكمية، مما جعل استفادته كبيرة. يقول عن السطي : «فكنت أنتاب مجلسه وأفدت عليه»(305)، ويقول عن الحضرمي : «لازمته وأخذت عنه سماعا وإجازة»(306).

ومن الجدير بالذكر أن أغلب هؤلاء العلماء كانوا يتولون مناصب سامية بجانب أبي الحسن المريني، ولهم اختصاصات مختلفة، ولعل اختصاره كان يهدف منه إعطاء النموذج. ومن أهم هؤلاء الذين ذكرهم :

ـ أبو عبد الله محمد بن سليمان السطي، شيخ الفتيا بالمغرب وإمام مذهب مالك(307)، وأحد أعضاء المجلس العلمي الذي كونه أبو الحسن المريني(308)، ذكر

---

11) الحلل السندسية للوزير السراج 3 : 665 ـ 667.

12) البدر الطالع للشوكاني 1 : 339.

13) شجرة النور الزكية لابن مخلوف ص 227 ـ 228.

14) الاعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام للمراكشي 8 : 105 ـ 110.

15) مؤلفات ابن خلدون لعبد الرحمن بدوي.

16) أعمال ندوة ابن خلدون سنة 1979 بالرباط.

17) مصادر الدراسة الأدبية ليوسف أسعد داغر 1 : 285 ـ 290.

18) مجلة الحياة الثقافية التونسية عدد ماي 1980 خاص بابن خلدون.

(303) التعريف ص 19 ـ 55.

(304) نفسه ص 19

(305) نفسه ص 20.

(306) التعريف بابن خلدون ص 20

(307) نفسه ص 19، الجذوة 1 : 228

(308) نفسه ص 31.

ابن خلدون بأنه لم يكن يجارى في الفقه حفظا وفهما[309]، حضر مع أبي الحسن واقعة القيروان، وبعدها استقر في تونس فكان مقصد الطلاب، فلقد أشار ابن خلدون إلى أن أخاه محمدا قرأ عليه كتاب تبصرة اللخمي في مجالس عديدة، ولا ندري ما قرأه ابن خلدون نفسه على هذا الشيخ.

ــ أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي[310]، كاتب السلطان وصاحب علامته، وصفه ابن خلدون بإمام المحدثين والنحاة بالمغرب، لذلك لازمه وأخذ عنه سماعا وإجازة كتبا حديثية كثيرة، يقول عنه : «وكانت بضاعته في الحديث وافرة ونحلته في التقييد والحفظ كاملة». ويذكر بأنه كانت له خزانة من الكتب تزيد على ثلاثة آلاف سفر في مختلف الاختصاصات من حديث، وفقه، وعربية، وأدب، ومعقول.

ــ أبو عبد الله محمد بن الصباغ المكناسي[311]، ولقد قدمه ابن خلدون بقوله : «كان مبرزا في المنقول والمعقول، وعارفا بالحديث وبرجاله، واماما في معرفة كتاب الموطأ وإقرائه» ولذلك استدعاه السلطان لملازمة مجلسه.

ــ أبو عبد الله محمد بن النجار[312] شيخ التعاليم، وهو وإن كان من تلمسان، إلا أن ثقافته حصل عليها بالمدن المغربية، فدرس بسبتة علم الهيئة علي ابن هلال، وأخذ بمراكش على ابن البناء.

ــ أبو العباس أحمد بن شعيب[313]، وهو عالم موسوعي جمع اختصاصات عديدة فلقد «برع في اللسان والأدب والعلوم العقلية من الفلسفة والتعاليم والطب وغيرها» بالاضافة إلى شعره الذي سابق به الفحول. كما كانت له إمامة في نقد الشعر أيضا، لهذا كان الكاتب والطبيب في عهد كل من أبي سعيد وابنه أبي الحسن.

ــ ومن هؤلاء قمة شيخ العلوم العقلية أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي[314]، وارث مقام ابن البناء في العلوم العقلية التي أخذها عنه، قربه كل من

---

(309) نفسه ص 32.

(310) نفسه ص 20، الجذوة 2 : 444.

(311) نفسه ص 45. نيل الابتهاج ص 244 ــ 245.

(312) التعريف ص 47.

(313) التعريف بابن خلدون ص 48.

(314) نفسه ص 21.

أبي سعيد وابنه أبي الحسن «وهو من خلال ذلك يعلم العلوم العقلية ويبثها بين أهل المغرب حتى حذق فيها الكثير منهم من سائر أمصارها، وألحق الأصاغر بالأكابر في تعليمه»(315).

ــ ومنهم الشيخ أبو العباس أحمد الزواوي(316) الذي وصفه بإمام المقرئين بالمغرب، فسمع عليه عدة كتب، وحصل منه على الاجازة العامة.

ــ ومنهم أيضا كاتب السلطان أبي الحسن وصاحب علامته أبو القاسم عبد الله بن رضوان المالقي(317)، وصفه بأنه من مفاخر المغرب في براعة الخط وكثرة العلم، وحسن السمت والاجادة في فقه الوثائق والبلاغة في الترسيل والشعر والخطابة، لذلك صاحبه عندما قدم تونس، واستفاد منه وإن لم يتخذه شيخا لمقاربة السن.

وهكذا كانت استفادة ابن خلدون عظيمة متنوعة، احتك بهؤلاء العلماء ولازم كلا منهم في مجال اختصاصه، فقرأ على أبي العباس الزواوي القرآن بقراءاته السبع(318)، وأخذ عن الحضرمي كتبا كثيرة في الحديث(319)، وقرأ المنطق والأصلين وسائر الفنون الحكمية والتعليمية على أبي عبد الله الآبلي حتى شهد له بالتبريز في تلك العلوم(320) ولا نشك في أنه استفاد من الباقين أيضا فيما أتقنوه من علوم وما اشتهروا به من اختصاصات كالفقه والأدب والطب...

ولقد اعتبرنا هذه اللقاءات من صميم الرحلة الداخلية بالمغرب، لأن كل هؤلاء العلماء الذين استفاد منهم، وفدوا على تونس ضمن الموكب السلطاني، كما أن تونس نفسها أضحت مدينة تابعة للمرينيين.

---

(315) نفسه ص 22.

(316) التعريف ص 20.

(317) نفسه ص 22.

(318) نفسه ص 20.

(319) نفسه ص 20.

(320) نفسه ص 22.

II ــ الرحلة إلى المغرب :

ولقد بدأ تفكيره الجدي في هذه الرحلة بعد أن انفض جمع العلماء الذين أحس بالمتعة إلى جانبهم في تونس وهو يتنقل بين مجالس الاختصاصات العلمية المختلفة. ففراق هؤلاء العلماء أحدث فراغا كبيرا، وتأثرا شديدا في نفسية ابن خلدون كما يبدو من قوله : «وقد كنت منطويا على مفارقتهم لما أصابني من الاستيحاش لذهاب أشياخي وعطلتي عن طلب العلم، فلما رجع بنو مرين إلى مراكزهم بالمغرب، وانحسر تيارهم عن إفريقية، وأكثر من كان معهم من الفضلاء صحابة وأشياخ، فاعتزمت على اللحاق بهم»(321).

وظل هذا الشعور يلازمه، فأضحت الرحلة إلى المغرب أمله ورغبته، يسعى جادا لتحقيقها وإشباع نهمه في الدراسة والتحصيل بإعادة الصلة بالشيوخ والعلماء المغاربة. ورغم أنه تولى كتابة العلامة بتونس عن سلطانها الحفصي، إلا أن اللحاق بالشيوخ كان كل أمله، لذلك ترك المنصب والجاه في بلده، وارتحل إلى المغرب. وفي طريقه إليه التقى في بلدة البطحاء قرب تلمسان بالحاجب ابن أبي عمرو الذي احتفى به ورده معه إلى بجاية حيث بقي معه إلى أن انصرم عام 754هـ(322).

وفي السنة الموالية(323) أرسل إليه أبو عنان يستدعيه للالتحاق بمجلسه العلمي في فاس، بعد أن أثنى عليه بعض أعضاء هذا المجلس لما خبروه من ذكائه وعلمه حين اجتماعهم به في تونس. وهكذا التحق ابن خلدون فورا بفاس لينضم إلى هذا المجلس العلمي ويعيد الصلة بشيوخه العلماء الأعلام، فأتيح له أثناء ذلك الاستفادة من العلماء المقيمين بفاس المنضوين تحت هذا المجلس العلمي، أو الذين كانوا يفدون على هذه المدينة. يقول : «وعكفت على النظر والقراءة ولقاء المشيخة من أهل المغرب، ومن أهل الاندلس الوافدين في غرض السفارة، وحصلت من الافادة منهم على البغية»(324).

---

(321) التعريف ص 56.

(322) نفسه ص 58.

(323) يجعل ابن الخطيب وفادته على فاس عام 753هـ (الاحاطة 3 : 498) وهذا ما ذهب إليه ابن حجر في رفع الاصر، وابن تغرى بردى في المنهل الصافي. أنظر مؤلفات ابن خلدون ص 327، 337.

(324) التعريف بابن خلدون ص 59. وأنظر أيضا ص 305.

ومن أعضاء المجلس العلمي الذين خصهم ابن خلدون بالذكر، نجد الأستاذ أبا عبد الله محمد بن الصفار[325] المراكشي كان إمام القراءات لوقته، وهو تلميذ الرحالة ابن رشيد، ويذكر ابن خلدون بأنه كان مقربا من أبي عنان يعارضه القرآن بالروايات السبع.

ومن أبرز أعضاء المجلس أيضا أبو عبد الله المقري[326] الجد، الذي سبق التعريف به، وحدثنا ابن خلدون عن نفور أبي عنان منه وغضبه عليه بعد أن بعثه في سفارة إلى الأندلس[327]، إلا أنه رضي عنه بعد أن أرسل إليه ابن الأحمر شفيعين في شأنه «فقبلت الشفاعة وأنجحت الوسيلة»[328]، والشفيعان هما القاضيان بغرناطة أبو القاسم الشريف السبتي، وأبو البركات محمد بن الحاج البلفيقي، فكانت وفادة هذين الشفيعين مناسبة لابن خلدون كي يأخذ عنهما ويستفيد من علمهما. يقول : «حضرت بمجلس السلطان يوم وفادتهما سنة سبع وخمسين وكان يوما مشهودا»[329].

ومن الأعضاء كذلك الامام العالم الفذ فارس المعقول والمنقول، وصاحب الفروع والأصول أبو عبد الله محمد بن أحمد الشريف الحسني العلوي[330]. وهو من الذين استقدمهم أبو عنان للانضمام إلى مجلسه العلمي، «فملأ المغرب معارف وتلاميذ».

ومن هؤلاء الأعضاء الكاتب القاضي أبو القاسم البرجي الأندلسي[331]. كان كاتب أبي عنان وصاحب الانشاء والسر في دولته منذ أن حمله معه من تلمسان. ومنهم الرحالة أبو عبد الله محمد بن عبد الرزاق الفاسي، الذي كان يتولى القضاء، زمن أبي الحسن المريني، وقربه أبو عنان «فكان يأخذ عنه الحديث، ويقرأ عليه القرآن

---

(325) نفسه ص 59.

(326) نفسه ص 59.

(327) نفسه ص 60.

(328) نفسه ص 61.

(329) نفسه ص 61.

(330) نفسه ص 62.

(331) نفسه ص 64.

برواياته في مجلس خاص إلى أن هلك»[332]. ولا يستمر ابن خلدون في ذكر كل العلماء الذين التقى بهم في فاس، مكتفيا بقوله :

«إلى آخرين وآخرين، من أهل المغرب والأندلس، كلهم لقيت وذاكرت وأفدت منه، وأجازني بالاجازة العامة»[333].

ومن المعروف أن المجلس العلمي لأبي عنان كان يضم العدد الكبير من العلماء، فلقد نقل أبو زيد عبد الرحمان الجادري في أواخر مختصره لشرح بردة البوصيري[334]، أسماء ثمانية وعشرين عالما عضوا في هذا المجلس، منهيا لائحته بقوله : «قلت وغير ذلك ممن تركنا ذكره ويطول به الكتاب».

ومن الذين لم يذكرهم الجادزي ابن خلدون، فهل إغفال ذكره جاء عفوا دعا إليه الاختصار ؟ أم أن السكوت عنه كان مقصودا ؟ فالجو كان قد تكدر بين ابن خلدون والسلطان أبي عنان الذي أمر باعتقاله في 18 صفر عام 758هـ[335].

ولم تكن استفادته مقصورة على احتكاكه بأعضاء المجلس العلمي وأخذه عن الشيوخ بفاس، بل نال حظوة ممتازة لدى أبي عنان وارتقى في ظله إلى مناصب رفيعة، فلقد قربه وألزمه شهود الصلوات معه، وولاه منصبي الكتابة والتوقيع بين يديه[336].

ويلقى نفس الحظوة عند أبي سالم الذي استعمله في كتابة سره والترسيل عنه والانشاء لمخاطبته[337]، ثم ولاه في آخر حكمه «خطة المظالم» فوفاها حقها[338].

ولا ينسى أن يتحدث عن المكايد والمؤامرات والدسائس التي كان ضحية لها في عهد أبي عنان[339]، فلقد اتهم ابن خلدون بالتآمر مع الأمير محمد صاحب بجاية

---

(332) التعريف بابن خلدون ص 65.

(333) نفسه ص 66.

(334) مخطوط القرويين رقم 643، الخزانة العلمية بالمغرب ص 26 ــ 27.

(335) التعريف ص 67.

(336) نفسه ص 59.

(337) نفسه ص 70.

(338) نفسه ص 77.

(339) نفسه ص 66.

للاستقلال ببلده والخروج عن طاعة أبي عنان، الذي أصدر أمره بالقبض عليه، فبقي في معتقله إلى أن توفي أبو عنان. ويذكر أنه خاطب السلطان من سجنه مستعطفا بقصيدة طويلة في نحو مائتي بيت[340]، ولان قلب أبي عنان فوعد بالافراج عنه لولا مرضه الذي توفي منه قبل أن يفي بهذا الوعد[341].

ويتحدث ابن خلدون عن دوره في التمكين لأبي سالم المريني، وذلك بالتنسيق مع ابن مرزوق الذي «بث دعوته سرا بفاس واستعان بي على أمره لما كان بيني وبين أشياخ بني مرين من المحبة والائتلاف، فحملت الكثير منهم على ذلك وأجابوني إليه»[342] كما يقول ابن خلدون.

ويصور هذه المرحلة الانتقالية[343] التي توزعت فيها ميول الناس وأهواؤهم، فمنهم من يناصر منصور بن سليمان المريني، ومنهم من يتبع الوزير الحسن بن عمر وسلطانه السعيد بن أبي بكر، ومنهم من نزع إلى السلطان أبي سالم وفيهم ابن خلدون الذي قصده للسير في ركابه واستمالة شيوخ بني مرين مرتين وأمرائهم، حتى أجابوا لما دعاهم إليه، وتم دخول أبي سالم إلى دار ملكه — وفي ركابه ابن خلدون — في منتصف شعبان سنة 760هـ. ولا يهمل أحواله وأنشطته في ظل أبي سالم كمساهمته الشعرية في إحياء ليلة المولد النبوي لسنة 762هـ[344]، التي اغتنمها للثناء على أبي سالم وتوفيق الله له في الاستيلاء على زمام الأمور. جاء في هذه المولدية :

لازلت مسرورا بأشرف دولة | يبدو الهدى من أفقها المرقوب
تحيي المعالي غاديا أو رائحا | وجديد سعدك ضامن المطلوب

وكحضوره حفل تسلم هدية ملك السودان التي تتضمن الزرافة[345].

---

(340) أوردها ابن الأحمر بكاملها في نثير الجمان ص 299 — 310.

(341) التعريف ص 67.

(342) نفسه ص 68.

(343) نفسه ص 68 — 70.

(344) نفسه ص 70 — 74.

(345) نفسه ص 74 — 76.

ويشير ابن خلدون إلى أن علاقته بالمسؤولين ــ بعد عهد أبي سالم ــ سارت من سيء إلى أسوأ بسبب طموح ابن خلدون، وتقلب الأحوال الداخلية وهكذا لم يرض بما فعله الوزير عمر بن عبد الله لارضائه، من إقراره على ما كان عليه من الوظائف والاقطاعات وزيادته في الجراية، بل تطلعت نفسه إلى ما هو أرفع. يقول : «وكنت أسمو بطغيان الشباب إلى أرفع مما كنت فيه وأدل في ذلك بسابقة مودة معه»(346)، وهذا هو سبب تنكر الوزير له وإعراضه عنه(347)، فلم يبق لابن خلدون إلا أن يغادر هذا الجو الخانق، وهكذا أذن له الوزير في الرحيل إلى الأندلس، ومن حسن حظ ابن خلدون أن بينه وبين سلطان غرناطة حبلا من المودة. وعلى أي حال فقد توجه إلى العدوة الأندلسية مارا بسبتة، حيث احتفى به كبيرها في ذلك الوقت الشريف أبو العباس أحمد بن الشريف الحسني الصقلي، وهو الذي كان قد أفرده أبو عنان «برياسة الشورى في سبتة، فلم يكن يقطع أمر دونه»(348) ويذكر بأنه لما مر به سنة أربع وستين أنزله ببيته إزاء المسجد الجامع وأركبه الحراقة ليلة سفره، يباشر دحرجتها إلى الماء بيده، مما يظهر اعتناءه به وسمو أخلاقه لذلك يصفه قائلا : «وكان معظما، وقورالمجلس، هش اللقاء، كريم الوفادة، متحليا بالعلم والأدب، منتحلا الشعر، غاية في الكرم، وحسن العهد، وسذاجة النفس»(349).

III ـــ العودة إلى المغرب :

ويعود ابن خلدون مرة أخرى إلى المغرب في عهد أبي فارس عبد العزيز المريني (767 ــ 774هـ) الذي اعتقله بمرسى هنين ظانا أنه يحمل رسالة من أبي حمو إلى ابن الأحمر في الأندلس، إلا أنه حينما تأكد من سلامة طويته أنس إليه وعفا عنه، وقربه، مستغلا ما لابن خلدون من ذكر حسن بين القبائل وصلات متينة بأعرابها. يقول : «فاستدعاني من خلوتي بالعباد عند رباط الولي أبي مدين، وأنا قد

---

(346) التعريف بابن خلدون ص 77.

(347) نفسه ص 77 ــ 79.

(348) نفسه ص 80 ــ 82.

وهو نفسه الذي كان كثيرا ما ينزل ابن الخطيب عنده. أزهار الرياض 1 : 32.

(349) التعريف ص 81.

أخذت في تدريس العلم، واعتزمت على الانقطاع فآنسني وقربني ودعاني إلى ما ذهب إليه من ذلك، فلم يسعني إلا إجابته وخلع علي وحملني»(350) وذلك في عاشوراء عام 772هـ.

وقد وفق في مهمته واستطاع التأثير على أعراب قبائل رياح وحملهم على طاعة السلطان عبد العزيز(351)، لكن الفتنة قد اشتدت بين الأحياء العربية وعمت المغرب الأوسط، فانقطع ابن خلدون ببسكرة وحيل بينه وبين سلطانه ولم يعد الاتصال ممكنا إلا عن طريق المراسلة، وبلغه في تلك الأثناء مفر ابن الخطيب من الأندلس وقدومه على السلطان بتلمسان(352)، إذ توصل منه برسالة يعرفه فيها بخبره وأحواله(353)، كما وصله أمر السلطان له بالخروج من بسكرة على رأس أشياخ الدواودة لحصار تيطري. يقول : «وكتب إلي يأمرني بالمسير بهم لذلك، فاجتمعوا علي وسرت بهم أول سنة أربع وسبعين»(354).

وتلقى أمرا آخر من السلطان المريني بالمسير للقبض على أبي زيان(355)، فنفذ هذه الأوامر على الفور مخبرا إياه بما جد من أمور. يقول : «وأقمت منتظرا أوامره حتى جاءني استدعاؤه إلى حضرته فارتحلت إليه»(356). ويرحل من بسكرة بالأهل والولد في يوم المولد النبوي الكريم سنة أربع وسبعين، فلم يكد يصل مليانة حتى تعرف على خبر وفاة السلطان(357)، فارتحل جمع كبير إلى المغرب عن طريق الصحراء في حماية الجيش، ومع ذلك فقد أغار عليهم بنو يغمور من عرب المعقل وانتهبوا جميع ما كانوا يحملون معهم، وتقدم النص الذي يصف فيه ابن خلدون هذا العمل الاجرامي ونتيجته المأساوية يقول فيه : «وأرجلوا الكثير من الفرسان

---

(350) نفسه ص 135.

(351) تعريف بابن خلدون ص 136 ــ 137.

(352) نفسه ص 139.

(353) نفسه ص 140.

(354) نفسه ص 154.

(355) نفسه ص 155.

(356) نفسه ص 155.

(357) نفسه ص 216.

وكنت فيهم وبقيت يومين في قفره ضاحيا عاريا إلى أن خلصت إلى العمران»[358].

وكان لهذا أثره على جسمه طيلة حياته، يقول المقريزي الذي اجتمع بابن خلدون في مصر : «ومن حينئذ حدث له وجع في أعضائه ما برح يتألم منها حتى مات، وكادت هذه الشدة تأتي على النفس لولا لطف الله وجميل صنعه»[359] ويقول عنه كذلك : «ومات وهو قاض موتا وحيا من غير تقدم مرض سوى أنه ثار به ما كان يعتريه من وجع الأعصاب في يوم الأربعاء لاربع بقين من شهر رمضان سنة ثمان و ثمانمائة»[360].

وعلى أي حال فابن خلدون قد واصل سيره إلى فاس بالرغم من هذه الحادثة المؤلمة التي كان لها الأثر الكبير على حياته، فوفد على الوزير أبي بكر بفاس حيث لقي منه كل حفاوة وتكريم[361].

لقد أشار إلى ما كان يطبع العلاقة بين المغرب والأندلس من توتر سببه إيواء ابن الخطيب بالمغرب والترحيب به وحمايته من أعدائه، فأدى ذلك إلى مناوشات واضطرابات[362]، ومحاولات ابن الأحمر النيل من الكيان المغربي والعمل على زعزعة أركانه والتدخل السافر في شؤونه الداخلية

وهكذا كان لابن الأحمر دوره في تنصيب ملوك هذه الفترة بالمغرب أو عزلهم. فهو الذي غذى الاضطرابات والقلاقل التي شهدها هذا العهد، كالصراع الذي نشب بين الوزير أبي بكر بن غازي وابن عمه[363] والذي انتهى بعزل الصبي السعيد بن عبد العزيز ومبايعة أبي العباس أحمد ابن أبي سالم. كما أدى هذا الصراع أيضا إلى تقسيم مناطق النفوذ بالمغرب بين أبي العباس ابن أبي سالم والأمير عبد الرحمان.

---

(358) نفسه ص 218.

(359) درر العقود للمقريزي، مجلة المجمع العلمي العراقي 13 : 226.

(360) نفسه 13 : 226.

(361) التعريف بابن خلدون ص 218.

(362) نفسه ص 219.

(363) نفسه ص 223.

وفي ظل هذا الوضع المضطرب لم يعلن ابن خلدون عن هواه السياسي و لم يغامر بإظهار انتمائه لهذا الفريق أو ذاك، وإنما مال إلى الاشتغال بالعلم والدراسة. يقول : «وأما أنا فكنت مقيما بفاس في ظل الدولة وعنايتها منذ قدمت على الوزير سنة أربع وسبعين كما مر عاكفا على قراءة العلم وتدريسه»(364)، لذلك كان يتودد للفريقين معا، فلقد ذكر بأنه كان يخرج في جملة رجال الدولة من فقهاء وكتاب وجند إلى تحية كل من أبي العباس المريني، والأمير عبد الرحمان في كدية العرائس في ضواحي مدينة فاس حيث نزلا بجيوشهما(365) ويحدثنا عما كان يلقاه من اهتمام واحتفاء لدى الأمير عبد الرحمان الذي اتخذه مستشاره الخاص، فأغضب ذلك الوزير محمد بن عثمان الذي أغرى سلطانه أبا العباس بالقبض عليه، إلا أن الأمير عبد الرحمان يطلقه من غده(366).

ولعل كل هذه الأحداث كانت سبب رحيله عن فاس، في صحبة ركاب الأمير عبد الرحمان الى مراكش، وهو يعتزم الابحار إلى الأندلس من ميناء آسفي، إلا أن عودة صديقه ابن ماساي غيرت مخططه، وعاد ابن خلدون إلى السلطان أبي العباس بفاس يتقدمه شفيعه ونزمار بن عريف كي يأذن له السلطان المريني في الجواز إلى الأندلس(367).

وتم له ما أراد فانطلق إلى الأندلس في ربيع سنة ست وسبعين وسبعمائة «بقصد الفرار والانقباض، والعكوف على قراءة العلم»(368) كما يقول هو بنفسه.

ولقي في جوازه الثاني إلى الأندلس كل ترحيب وبر من طرف ابن الأحمر، لكن هذه المعاملة قد تغيرت، وأضحى ابن خلدون شخصا غير مرغوب فيه بالأندلس، وساءت علاقته بابن الأحمر الذي علم ما بذله ابن خلدون من مساعٍ لاطلاق سراح ابن الخطيب بفاس(369).

---

(364) نفسه ص 224.

(365) نفسه ص 224.

(366) نفسه ص 225.

(367) التعريف ص 225.

(368) نفسه ص 226.

(369) نفسه ص 226 — 227.

ومما زاد في توتر هذه العلاقة ما كان قد بعثه ابن الخطيب من سجنه من مكاتبات مستصرخا فيها ابن خلدون ومستنجدا به ومتوسلا إليه، وما بذله ابن خلدون من محاولات لتخليص صديقه من قبضة أعدائه وإخراجه من سجنه، لكن تلك المحاولات والمساعي قد باءت بالفشل الذريع، فكانت تلك النهاية المفجعة لابن الخطيب[370].

ويرتحل ابن خلدون إلى مرسى هنين قرب تلمسان، حيث كان صاحبها أبو حمو ما زال ناقما عليه. يقول ابن خلدون يصور جو علاقتهما : «والجو بيني وبين السلطان أبي حمو مظلم بما كان مني في اجلاب العرب عليه بالزاب[371]»، لكن ابن عريف عمل على تصفية هذا الجو، وثنى أبا حمو عما كان قد هم به من إلحاق الأذى بابن خلدون والنيل منه، فأعلن صفحه عنه، وسمح له بدخول تلمسان. يقول : «فبعث عني إلى تلمسان واستقررت بها بالعباد ولحق بي أهلي وولدي من فاس وأقاموا معي وذلك في عيد الفطر سنة ست وسبعين، وأخذت في بث العلم»[372].

فكان ذلك آخر عهد له بالمغرب بعد أن أمضى به حوالي عشرين عاما تقلد فيها أسمى المناصب، واكتمل تكوينه العلمي باتصاله بالشيوخ والعلماء، في المجالس العلمية الرسمية، أو في حلقاتهم العلمية بالمساجد والمدارس.

---

(370) نفسه ص 227.

(371) نفسه ص 227.

(372) التعريف بابن خلدون ص 227.

4 ــ رحلة عبد الباسط

وهي نموذج للرحلات التي انطلقت من المشرق في اتجاه البلاد المغربية لأهداف علمية وتجارية، فكانت هذه الرحلة فريدة في بابها لما سبقت الاشارة إليه من أن الرحلات المشرقية التي توجهت نحو المغرب قليلة بالقياس إلى تلك الرحلات المغربية الكثيرة التي استهدفت المشرق لأسباب سبق تفصيلها.

إلا أن هذه الرحلة ــ مع الأسف ــ لم تكتمل، إذ لم يتأت لصاحبها استكمال مشروعه بزيارة المغرب الأقصى، فلم يتجاوز مدينة تلمسان في زياراته ومشاهداته.

ومع ذلك فيمكن اعتبارها من الرحلات الداخلية الهامة، فالبرغم من أن صاحبها لم يتمكن من مواصلة رحلته نحو فاس وغيرها من المدن المغربية إلا أن ما دونه من أخبار وما ذكره من تفاصيل عن أحوال فاس وأوضاعه جعله وكأنه كان حاضرا هناك يرقب الأحداث ويشاهد تطوراتها. فكان ما كتبه وثيقة مهمة تؤرخ للاضطرابات السياسية والأحداث الخطيرة التي صاحبت أفول الحكم المريني بالمغرب وإسدال الستار على هذا العهد بقتل آخر الملوك المرينيين.

أما الرحالة فهو عبد الباسط بن خليل الملطي ثم القاهري (844 ــ 920هـ) لأن تكوينه تقاسمته البلاد الشامية والمصرية، نظرا إلى أن أباه تولى مناصب إدارية سامية في هذه البلاد جميعها. مما ساعد الرحالة عبد الباسط على الانكباب على الدراسة والتحصيل في علوم شتى كالفقه واللغة والبيان والمنطق، إلى أن أصبحت له مكانته العلمية المتميزة. فعرف بتضلعه في الفقه الحنفي، ومع ذلك لم يكن راغبا في نيل المناصب الادارية أو السياسية، بل فضل الاشتغال بالأعمال الحرة التجارية، حتى يتمكن من مواصلة الطلب والأخذ عن الشيوخ.

ولقد كان الأمران معا، شغفه بالدرس والتحصيل، ورغبة الكسب والتجارة، حافزه إلى الرحيل نحو المغرب، ودافعه لزيارة بلدانه المختلفة.

وهكذا، فلم يكد يبلغ العشرين من عمره حتى كان قد تهيأ للرحيل في اتجاه الغرب الاسلامي، فأبحر من الاسكندرية في شهر شوال من سنة 866هـ يونيو 1462م، لينزل بمرسى تونس في شهر ذي الحجة من نفس السنة(373).

رحلته :

لقد استغرقت رحلته في الغرب الاسلامي خمسة أعوام كاملة (شوال 866هـ شوال 871هـ) زار خلالها أهم مدن هذه المنطقة(374)، فبالاضافة إلى مدينة تونس، دخل القيروان، وقسنطينة وبجاية، والجزائر، ومازونة، وتلمسان، ووهران، ومالقة، وغرناطة.

وأنهى جولاته في الغرب الاسلامي بدخوله مدينة طرابلس، ولم تصرفه عن مواصلة الرحلة في البلاد المغربية ومدنها إلا تلك الأحداث الخطيرة التي شهدتها فاس في آخر الحكم المريني، فأضحت الرحلة إلى هذه المنطقة آنذاك مغامرة غير مأمونة العواقب.

ومما يجدر ذكره هو أن عبد الباسط لم يسلك طريقة الرحالين الآخرين فيخص رحلته هذه بكتاب مستقل يصف فيه ما شاهده، ويتحدث عمن التقى بهم من الأعلام وعما حصل عليه من علوم وفوائد، بل وردت كل هذه المعلومات والأخبار

---

(373) يرجع في التعريف به وبرحلته إلى المراجع التالية :

1) deux recits de voyage inédits en afrique du nord au XV siecle.R.brunchvig.

2) كشف الظنون 1 : 918.

3) هدية العارفين 1 : 494.

4) بحث «ديلافيدا» في مجلة هسبريس مجلد 19 ص 198.

5) بحث محمد عبد الله عنان في مجلة معهد الدراسات الاسلامية مجلد 15 ص 95 ــ 111 سنة 1970.

6) بحث محمود بوعياد في مجلة الأصالة الجزائرية عدد 24 ص 124 ــ 135.

7) دليل المؤرخ المغربي 2 : 341 ــ 342.

8) الاعلام للزركلي 3 : 270.

(374) أنظر كتاب برانشيفيق ص 17 ــ 68.

والفوائد متناثرة في كتابه التاريخي الذي يسمى «الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم»(375) إذ تضمن مؤلفه هذا تفاصيل الأحداث والأخبار مرتبة بالتتابع الزمني علي نمط التآليف التي اتبعت طريقة الحوليات في التاريخ، وتأتي أهمية هذا الكتاب من أن اهتمام صاحبه لم ينحصر في المضمون التاريخي، ولكن صفحاته غنية بالمعلومات والأخبار الطريفة والوثائق المهمة عن عادات وتقاليد البلدان التي دخلها(376) من خلال حديثه عن الأعلام الذين التقى بهم وتسجيله لبعض ملاحظاته عن نواحي إدارية وتجارية واقتصادية واجتماعية، خاصة وأنه اختلط بالناس في نزههم وأعيادهم وأسواقهم وحفلاتهم...

ولذلك حينما جمعت تلك المشاهدات والأخبار في كتاب مستقل، بدت وكأنها رحلة متساسلة الحلقات مترابطة الأجزاء. ويعود الفضل في هذا التنسيق والتنظيم والانتقاء إلى المستشرقين ليفي ديلافيدا، وروبير برانشيفيك. فلقد جمع المستشرق الايطالي «ديلافيدا» المشاهدات التي تخص القسم الأندلسي من الرحلة(377)، والمشاهدات المتعلقة بطرابلس(378)، أما المستشرق الفرنسي «برانشفيك» فقد اهتم بمشاهدات الرحالة في أقطار المغرب العربي(379)، وبقي كتاب الروض الباسم مخطوطا في خزانة الفاتيكان في نسختين متكاملتين(380)، ولم يكن له فضل السبق في التعريف بهذا الكتاب إلا المستشرق الايطالي الآنف الذكر، فهو الذي نبه إلى أهمية ما يتضمنه من معلومات. فلقد ذكر البغدادي لعبد الباسط ثمانية وعشرين مؤلفا لم يكن كتاب الروض من بينها(381)، بينما اكتفى صاحب كشف الظنون بالاشارة إليه(382).

---

(375) عنوانه في كشف الظنون 1 : 918 هكذا «الروض الباسم في أخبار من مضى من العوالم».

(376) محمود بوعياد في مجلة الأصالة عدد 24 ص 134.

(377) نشره بمجلة الأندلس العدد الأول سنة 1933.
مجلة هسبريس مجلد 19 ص 198، نهاية الأندلس ص 167.

(378) deux récits de voyage P: 9-10

(379) نفسه، النص بالعربية من ص 17 ــ 68 مع ترجمته من ص 69 ــ 136.

(380) نفسه ص 10، الاعلام للزركلي 3 : 270.

(381) هدية العارفين 1 : 494.

(382) كشف الظنون 1 : 918.

ولقد أشرنا من قبل إلى أن رحلته هذه تجمع بين الاهتمامات العلمية والتجارية، وفي اعتقادنا أن اهتمامه الأول هو الذي كان يوجهه في هذه الرحلة. ولعل اشتغاله بالتجارة كان الدافع إليه توفير موارد مالية ثابتة ليتأتى له التفرغ بعد ذلك إلى العلم والتحصيل، يتبين ذلك من السلوك الذي لازمه طيلة الرحلة، من بحثه الدائم عن العلماء وسعيه إلى لقائهم، وهكذا لم يدخل مدينة في رحلته بالمغرب العربي إلا وقصد علماءها وحضر مجالسها العلمية وأخذ عن شيوخها. فنراه بمجرد حلوله بالقيروان يقصد عالمها ومفتيها وطبيبها أبا علد الله البلوي المعروف بابن البكوش، فيلازمه ويواظب على حضور مجالسه ودروسه، فاستفاد منه فائدة كبيرة تحدث عنها بقوله : «وأخذنا عنه العلم الكثير في الوقت اليسير باجتهاد وكثرة ترداد ما بين قراءة بنفسنا عليه وسماع، واستفدنا منه نبذا جيدة في صناعة الطب، وحصلنا الفوائد الجمة الجليلة إلى الغاية والنهاية وأجاز لنا[383].

ويبادر في مدينة بجاية إلى الاجتماع بعالمها أبي القاسم محمد المشدالي فيسمع منه الكثير من الفوائد[384]، ويقصد العلامة عبد الرحمن الثعالبي في مدينة الجزائر فيتبرك به ويسمع شيئا من فوائده[385].

أما في تلمسان فيلتقي بعلماء كثيرين[386] ويحضر دروسهم، ومن هؤلاء قاضي الجماعة أبو عبد الله العقباني، وأخوه خطيب جامع تلمسان الأعظم أبو سالم ابراهيم العقباني، والعالم ابن مرزوق، ومفتي تلمسان الشيخ محمد بن زكريا، وخطيب العباد أبو عبد الله ابن العباس والطبيب محمد بن علي بن فشوش... «وجماعة أخرى من الفضلاء والأدباء والأطباء» كما يقول.

ونظن أنه لو قدر له دخول فاس لكانت فائدته كبيرة، ولزادنا معرفة بأحوال العلم والعلماء بالمغرب في هذه الفترة، ومع ذلك فقد ضمن كتابه الروض الباسم تلك الأخبار التي كانت تصله بتلمسان عن طريق التجار العائدين من فاس[387].

---

(383) برانشفيك ص 37.

(384) نفسه ص 41.

(385) نفسه ص 41.

(386) نفسه ص 43 — 44.

(387) نفسه ص 58.

ومن خلال ما ذكره يمكننا معرفة الأوضاع السياسية والاجتماعية لهذه الفترة التي عرفت نهاية الحكم المريني، وفي رأيه أن من أهم أسباب انتزاع الحكم من المرينيين وإزالة شرعيتهم ومصداقيتهم تلك الممارسات التي لا تتفق مع الدين، ولا تنسجم مع طبيعة المجتمع الاسلامي. يقول : «وفيه، أعني ربيع الأول في أوائله (869)هـ تواترت الأخبار من قبل فاس ونحن بتلمسان بعظم أمر اليهود بها وشأنهم بواسطة الوزير اليهودي الذي أقامه صاحب فاس عبد الحق المريني بعد قتل عدة من الوزراء من بني وطاس ومعاداته لآخرين، وإخراج جماعة من بني وطاس وقيامهم عليه بخارج فاس، وأن اليهود بفاس تسلطوا على المسلمين بالظلم والأذى وعظم شأنهم وكثرت شوكتهم»[388].

ويعرض للأحداث الناتجة عن هذا التسلط اليهودي، ومن أهمها قيام الأهالي على اليهود بفاس وقتلهم عن آخرهم، فلم يسلم منهم إلا خمسة ذكور وست إناث أو أقل، وذلك في شوال سنة 869هـ. وتنتهي هذه الأحداث بذبح عبد الحق آخر ملوك بني مرين، ومبايعة الشريف محمد بن عمران[389].

وهذه المعلومات التي ذكرها تتفق مع ما أشار إليه العديد من المؤرخين، فلقد تعرض أبو العباس الونشريسي لهذه الأحداث وملابساتها في معرض حديثه عن سنة 869هـ قائلا : «قامت عامة فاس وخاصتها على سلطانها أبي محمد عبد الحق بن السلطان أبي سعيد فخلعوه وبايعوا لمزوار الشرفاء بها محمد بن علي بن عمران الجوطي، وقتل عبد الحق»[390].

ولم تختلف رواية أبي محمد عبد السلام القادري في كتابه «الدر السني»[391] عما ساقه عبد الباسط في كتابه «الروض الباسم» باستثناء ما ذكره الرحالة عبد الباسط من أن الذي أفتى بمشروعية الثورة على السلطان عبد الحق هو إمام القرويين أبو عبد الله محمد القوري، ومن المعلوم المتفق عليه بين المؤرخين عموما عو أن

---

(388) برانشفيك ص 45 ــ 46.

(389) نفسه ص 49 ــ 50 ــ 55.

(390) ألف سنة من الوفيات ص 148.

(391) الدر السني مخطوط د. 1456 ورقة 21 أ.

هذه الثورة كانت بتحريض وفتوى من الخطيب أبي محمد عبد العزيز موسى الورياغلي[392].

ويعرض عبد الباسط إلى تلك النتائج الخطيرة التي أعقبت هذا الانقلاب وفي مقدمتها ظهور بوادر التدخل الأجنبي في الشؤون الداخلية. يقول : «ووقع بعد ذلك بفاس وأعمالها خطوب وحروب وفتن وأهوال وفساد عظيم، وخراب بلاد، وهلاك عباد وأخذت الفرنج في تلك الفترات عدة مدن من بر العدوة منها طنجة وأصيلا وغير ذلك. ثم آل الأمر بعد ذلك أيضا إلى أن ملك بنو وطاس فاس»[393].

ونشير إلى أن نفوذ الشريف محمد بن عمران لم يكن يتعدى مدينة فاس. أما ما عداها من البلدان خارج فاس فكان بيد بني وطاس[394]. كما يشير إلى الخلاف الذي كان بين جناحي بني وطاس وما انتهى إليه من فتن وشرور[395].

ومن أهم ما احتفظت لنا به رحلة عبد الباسط مقتطفات من الرسالتين اللتين تبادلهما الشريف العمراني بفاس والوزير الوطاسي الذي كان بمكناسة فمن خلال هاتين الرسالتين نتبين حجج كل من الطرفين في اعتقاده بشرعيته في خلافة بني مرين في الحكم. يقول الوزير الوطاسي في رسالته : «إنك رجل شريف وعافية ومن الحضر، وهذا الأمر يحتاج إلى من يقوم بأعبائه ونحن أولى من الغير لمكان حرمتنا وملكنا قبل ذلك وتصرفنا لئلا يطمع في هذا الملك الطامع بولايتك له فيخرج عنك وعنا ولا تجد مثلنا في مراعاتك، ونحن نؤمنك على نفسك وعلى ما أردت أن نؤمنك عليه، ومهما أمرت به فعلناه لك، واسترح نفسك من هذا الأمر، فإنا أولو الأمر في الحقيقة»[396].

ويبدي الشريف العمراني في جوابه تمسكه بما بيده، ودفاعه عن شرعيته فيقول : «وإن هذا الأمر قد أتانيه الله تعالى بغير حول مني ولا قوة، فلا أخلع من

---

(392) نفسه ورقة 21 ب، درة الحجال 3 : 156 ــ 160 الاستقصا 4 : 99.

(393) برانشفيك ص 55. أورد صاحب الاستقصا لائحة طويلة لهذه المدن التي سقطت في يد الاستعمار في الفترة التي تمتد من سنة 818هـ إلى سنة 920هـ، الاستقصا 4 : 110.

(394) برانشفيك ص 56.

(395) نفسه.

(396) نفسه ص 66.

عنقي ما أرادني الله تعالى وشرفني به زيادة على شرفي ونحن ذرية المختار عليه السلام صاحب الأرض والبلاد وأرباب السيف والقلم أصلا وفصلا، وأنت إن أطعت الله تعالى ووليه فلك عاقبة الخير والسلامة... ومهما قلته لنا إنك تفعله معنا على تقدير ما تزعمه أن لو أجبناك فنحن نفعله معك إن أجبتنا... فلا فائدة في الشر، وإطفاء النائرة خير من إيقادها، وعصمة الأنفس والأموال واجبة، فلا تكن سببا لاثارة الفتن بعد سكونها وتحريكها بعد ركونها»(397).

ويعقب عبد الباسط على ما أورده من هاتين الرسالتين بقوله : «ثم لم يزل الأمر يتردد بينهما، إلى أن وقعت بعد سفرنا من المغرب الخطوب المدلهمة والأمور المغمة، وآل الأمر في ذلك بآخره إلى تملك الشيخ الوطاسي وإخراج السيد محمد، على ما سيأتي ذلك في محله من سنة خمس وسبعين وثمانمائة»(398)

وأشار عبد الباسط إلى ما استشعره صاحب تلمسان من ألم لما أصاب حليفه عبد الحق بفاس. يقول : «ولما بلغ صاحب تلمسان ما وقع لعبد الحق وقتله على ذلك الوجه المشروح حصل عنده بذلك الباعث لما كان بينه وبين عبد الحق من الموادة وإظهار الصحبة، وأنه معه فيما عساه يدهمه، وكان يظن أنه ينجده على صاحب تونس، فلما بلغه ما حل به انفعل لذلك»(399).

ولقد كانت هذه الأحداث جميعها ذات أثر كبير على عبد الباسط نفسه إذ أجبرته على تغيير وجهته في هذه الرحلة. يقول : «ولقد كنت في عودي لتلمسان هذه المرة عزمت على التوجه منها لجهة فاس لأراها، فلما بلغني ما وقع بها من هذه الفتن والخطوب، فتر عزمي عن ذلك، فعدت إلى وهران بشيء تسوقته من تلمسان لأجل بيعه بالأندلس وعزمت على التعدية والجواز من بر العدوة لبر الأندلس»(400).

---

(397) نفسه ص 66.

(398) براشفيك ص 67.

(399) نفسه ص 56.

(400) نفسه ص 56.

الفصل الثالث

الرحلات مضمونا وشكلا

حاولنا في الفصلين السابقين تقديم صورة عن الرحلات وأصحابها، مشيرين بايجاز إلى أهم القضايا والاشكاليات التي يطرحها النص.

ونعود في هذا الفصل إلى نفس الرحلات للنظر فيها من حيث المضمون والشكل فلقد تكاملت هذه الرحلات في إبراز المستوى العلمي والأدبي إبان هذه الفترة، واستطاعت أن تعكس بأمانة ما كان يطبع البيئة جغرافيا واجتماعيا وحضاريا في البلدان والمناطق التي شملتها تلك الرحلات.

ويجدر التذكير إلى أنه نظرا لما لاحظناه من اختلاف هذه الرحلات في قوالبها وأشكالها وأساليبها، فإنها لذلك تتكامل في تقديم صورة واضحة عن الأنماط والأشكال التعبيرية التي عرفها العصر المريني.

I — مضامين الرحلات

ليس بإمكاننا الالمام بكل المضامين التي تستنتج من الرحلات المشار إليها، نظرا لكثرة هذه المضامين وتشعبها، مما يجعل الاحاطة بها امرا شاقا ولهذا سنقصر اهتمامنا على المضمون الأدبي الذي سنفرده ببعض التفصيل في هذا البحث مكتفين فيما يرجع للمضمونين الجغرافي والاجتماعي بالتلميح والايجاز.

أ — المضمون الجغرافي

ولسنا في حاجة إلى التذكير بأهمية ما تتوفر عليه الرحلات في الجانب الجغرافي من وصف للمسالك والطرق، والبلدان والمدن، والآثار المختلفة، والظواهر الطبيعية، والنواحي البشرية والاقتصادية... فمثل هذا الجانب يستحق وحده بحثا منفردا، لذلك فعملنا هنا لا يتعدى الاشارة السريعة.

فمن الرحلات نستطيع تبين الطرق التي كان يسلكها الحاج المغربي برا وبحرا من تونس إلى الاسكندرية، ومن القاهرة إلى الحجاز، عبر ميناء عيذاب، أو مرورا بالشام.

ونستطيع من خلال رحلة ابن بطوطة خاصة رسم معالم الطرق التي كان يتبعها المتجول في بلدان العالم في آسيا وافريقيا وأوربا.

وترشدنا الرحلات الداخلية إلى المسالك والطرق التي كانت تربط بين المدن المغربية المختلفة.

ونستطيع في كل ذلك التوصل إلى ضبط المسافات الفاصلة بين هذه البلدان انطلاقا من ذكرهم للمراحل وتحديدهم للزمن.

وفي الرحلات اهتمام بوصف البلدان التي مر بها الرحالون أو نزلوا فيها، وإن تفاوتوا طبعا في الاهتمام بوصف هذا البلد أو ذاك.

ولعل المدن التي نالت حظا كبيرا من طرف الرحالين تلك التي قصدوها في البقاع المقدسة بالحجاز والشام، أو التي مروا عليها في الطرق إلى المشرق، أو التي صادفوها في رحلاتهم السياحية الواسعة، وهكذا وصفت بلدان في آسيا وافريقيا وأوربا. والأمثلة كثيرة في رحلة كل من ابن رشيد، والعبدري، والتجيبي، وابن بطوطة، وابن الخطيب، وابن قنفذ.

وأعار الرحالون اهتماما خاصا أيضا لمشاهداتهم أثناء تجوالهم داخل البلدان والمدن التي دخلوها، فوصفوا الاثار المختلفة وتحدثوا عن الأضرحة والزوايا... وهكذا وصفوا منار الاسكندرية وعمود السواري بها[1]، والاهرام[2]، وأسطوانة[3] مسجد الرسول عليه السلام، والشاذروان[4] بمكة، وهيكل[5] مدينة أخميم، وروضة الشافعي[6]، وقبر أبي حنيفة[7]، وقبر البخاري[8] ولم يغفلوا الاشارة إلى نواح أخرى طبيعية واقتصادية كحديثهم عن السيول والأمطار والثلوج، وجراد التمر، والأسعار، والأزمات الاقتصادية، والصناعات، والحيوانات، والموارد الاقتصادية المختلفة[9].

---

(1) رحلة ابن رشيد 3 : 20، الرحلة المغربية ص 91، رحلة ابن بطوطة ص 17.

(2) رحلة التجيبي ص 143.

(3) رحلة ابن رشيد 5 : 8.

(4) نفسه : 5 : 21.

(5) رحلة ابن بطوطة ص 169.

(6) رحلة التجيني ص 143.

(7) رحلة ابن بطوطة ص 220.

(8) نفسه ص 354.

(9) رحلة ابن رشيد 5 : 54، رحلة التجيني ص 376، 164 انس الفقير ص 70 ـ 71 رحلة ابن بطوطة ص 56 / 59 / 63 / 78 / 483.

ب ــ المضمون الاجتماعي :

ونصادف في الرحلات ملامح اجتماعية هامة، قد لا نعثر عليها في غيرها، فلم يكن الرحالون يكتفون بلقاء الاعلام وتدوين الروايات وإنما كانوا يختلطون بافراد المجتمعات، ويجالسونهم ويتحدثون إليهم، مما جعلهم على اطلاع واسع بأحوالهم، وعاداتهم وانماط سلوكهم، وكانت رحلة ابن بطوطة على الخصوص سجلا حافلا بأخبار الناس وعاداتهم وأخلاقهم ومذاهبهم، فمنها نتعرف غلبة الكفر على أهالي سيلان والصين[10]، وكثرة الروافض في الكوفة، والقطيف، وما نشب بينهم وبين السنيين من فتن في كل من أصفهان وخراسان[11]، وهكذا يرشدنا إلى المذاهب والفرق في كل البلدان التي دخلها فالخوارج في اليمن، والامامية في مدينة الحلة، والأباضية في عمان، والمذاهب الفقهية الاربعة تدرس في المدرسة المستنصرية ببغداد...[12]

ويهتم كذلك كل من ابن رشيد والعبدري والتجيبي بالحديث عن البدع التي انتقدوها في البلدان التي مروابها وعلى الأخص ما شاهدوه في البقاع المقدسة[13].

وتحدث الرحالون جميعهم عن عادات الشعوب[14] التي خالطوها واحتكوا بها، فأشاروا إلى عادة الاحتفال بالمولد النبوي، وشيوع التصوف، ومنزلة الأولياء والزهاد، ومعاملة الحجاج، وطريقة قراءة القرآن، ووصف الاحوال الامنية في الطرق والبلدان التي دخلوها.

ج ــ المضمون العلمي :

وهو الجانب الأوفر في رحلات هذه الفترة، فلقد تبين لنا من قبل أن من حوافز الرحلة في هذا العصر لقاء الشيوخ، والاطلاع على المكتبات، والحصول على الأسانيد

---

(10) رحلة ابن بطوطة ص 208، 626.

(11) نفسه ص 195، 214، 270، 368

(12) نفسه ص 219، 262، 273، 283.

(13) رحلة ابن رشيد 5 : 18، 52، 53، 54، 56 رحلة العبدري ص 127، 175، 230. رحلة التجيبي ص 265 رحلة ابن بطوطة ص 45.

(14) رحلة ابن رشيد 3 : 97 رحلة العبدري ص 201، 220، 237. رحلة التجيبي ص 308، رحلة ابن بطوطة ص 188 التعريف بابن خلدون ص 85.

والروايات والاجازات، وجمع القصائد والدواوين الشعرية، والفهارس، والبرامج والكتب النادرة

ولسنا في حاجة إلى أن نعيد ما سبق أن وضحناه في أسباب الرحلات من أن طلب العلم والرواية أضحى مقترنا بالرحلات لا ينفصل عنها، وحتى ابن بطوطة الذي ضرب في الأرض وكان منتهى أمله هو السياحة والتجوال لم يقصر في الاهتمام بالعلم والاستفادة من الشيوخ سبق أن أشرنا إلى بعضهم في هذه الرحلة الواسعة، لكننا نكتفي هنا بالاشارة إلى وصفه لأحد المجالس العلمية التي كان يعقدها الشيخ شرف الدين موسى بن الشيخ صدر الدين سليمان بمدينة تستر في فارس يقول : «وهذا الشيخ من أحسن الناس صورة وأقومهم سيرة، وهو يعظ الناس بعد الجمعة بالمسجد الجامع، ولما شاهدت مجالسه في الوغط صغر لدى كل واعظ رأيته قبله بالحجاز والشام ومصر، ولم ألق فيمن لقيتهم مثله»[15]، ويستمر متحدثا عن خطبته وتمكنه في التفسير والحديث واستحضاره للأدلة والشواهد.

ولقد أفاض الرحالون جميعهم — كما رأينا — في ذكر الشيوخ والتحدث عن مجالسهم العلمية، والعلوم والفنون التي نوقشت في هذه المجالس والقضايا التي أثيرت فيها، سبق أن تعرفنا على كل هذا مع كل من ابن رشيد، والعبدري، والتجيبي، والنميري في مذكراته، وابن بطوطة، وغيرهم...

ومن هنا كان مقياس نجاح الرحلة وتوفيق صاحبها مرهونا بما استطاع جمعه في غيبته عن بلده من معلومات ونصوص وكتب وإجازات فلقد حمل ابن رشيد معه الرسائل والاستجازات في ذهابه وعودته، كاستدعاء الاجازة الذي كتبه أبو الفضل التجاني لعلماء سبتة[16]، وكالاستدعاء الذي استجاز فيه لعلماء المغرب وعددهم أربعة عشر ومائة عالم[17]، إلى جانب إجازات أخرى حصل عليها من لدن أغلب الشيوخ الذين التقى بهم في رحلته[18] وهم حوالي خمسين ومائتي عالم.

---

(15) رحلة ابن بطوطة ص 188.

(16) رحلة ابن رشيد 7 : 45.

(17) الاستدعاء الكبير مخطوط بالقرويين نشر ملحقا بالجزء الثالث من الرحلة ص 463 — 487.

(18) رحلة ابن رشيد 6 : 101ب، 56ب، 2 : 45ب.

ومن أمثلة ما استفاده من هذه الرحلة ما ذكره من أنه جلب معه من الديار المصرية المختصر الوجيز المسمى بالبدر المنير في علم التعبير لشيخه أبي العباس أحمد المقدسس الحنبلي[19]، كما ذكر بأن ابن النحاس أباح له مكتبته[20] فرجع من رحلته وهو محمل بالكتب والوثائق والمدونات بدليل أنه لم يعرج على الاسكندرية في عودته من الحجاز إلا لأخذ كتب كان قد أودعها هنالك[21]. ومثله العبدري الذي ذكر في رحلته بأن أبا زيد الدباغ أعطاه بالقيروان أكثر من عشرة أجزاء من فوائده وفوائد شيوخه وفهارسهم[22].

ولم يكن الطابع العلمي مقتصرا على الرحلات المتوجهة من المغرب، بل رأينا الرحلات الداخلية أيضا لا تقصر في هذا المجال وهكذا أمكننا التعرف على كثير من شيوخ المغرب وعلمائه في هذا العصر من خلال ما دونه النميري، وابن الخطيب، والمقري، وابن خلدون، وابن قنفذ.

ولعل أهم هذه الرحلات الداخلية التي اتسمت أكثر من غيرها بالطابع العلمي هي مذكرات النميري الذي أوضحنا حرصه على لقاء الأعلام والرواية عنهم والبحث عن الفوائد والاجازات والكتب.

ونظرا لهذا الحرص على جمع الفوائد وجلب الكتب، فإن الرحالة كثيرا ما يعلن أسفه على عدم تمكنه من إشباع نهمه العلمي حينما لا تسعفه ظروف الرحلة باستيفاء ما يرغب فيه من المعارف، أبدى هذا الأسف كل من ابن رشيد[23]، والعبدري[24]، والتجيبي...[25]

---

(19) رحلة ابن رشيد 7 : 36.

(20) نفسه 3 : 23ب.

(21) نفسه 6 : 1.

(22) الرحلة المغربية ص 67.

(23 رحلة ابن رشد 3 : 32ب، 48ب، 85، 93أ، 104ب، 6 : 7أ، 7 : 36ب

(24) الرحلة المغربية ص 42.

(25) مستفاد الرحلة ص 15.

ومن خلال الرحلات يمكننا التعرف على العلوم التي كانت سائدة في المجالس العلمية، فيبدو من مذكرات التميري أن علم القراءات كان في أوجه بالمغرب[26]، كما يتجلى الاهتمام بالفروع الفقهية[27]، والدراسات الحديثية[28]، وكتب الكرامات والتصوف[29].

فاهتمام المغاربة كان منصبا بالدرجة الأولى على الفقه وما له علاقة به، مما جعل ابداعهم الأدبي يتأثر بذلك كما أشار إلى ذلك المقري في أزهاره، حين ذكر أن ملكة العلوم النظرية قاصرة على البلاد المشرقية ولا عناية لحذاق القرويين والافريقيين إلا بتحقيق الفقه فقط[30].

ومن هنا ذم العبدري ما لاحظه من انصراف القاهرين إلى علم المنطق يقول : «ومن الأمر المنكر عليهم، والنكر المألوف لديهم تدارسهم لعلم الفضول وتشاغلهم بالمعقول عن المنقول في انكبابهم على علم المنطق واعتقادهم أن من لا يحسنه لا يحسن أن ينطق»[31]

د ـــ المضمون الأدبي :

إذا كنا قد اكتفينا فيما سبق بالاشارة إلى أهمية ما تزخر به الرحلات من مضامين جغرافية واجتماعية وعلمية، فإننا سنتمهل بعض الشيء في استقراء المضمون الأدبي بها شعرا ونثرا ونقدا.

وتجدر الاشارة في البداية إلى أننا لا نقصر اهتمامنا على انتاج الرحالين فقط، وإنما ستتسع دائرة اهتمامنا لتشمل جميع ما تضمنته هذه الرحلات من نصوص أدبية شرقا وغربا رواها الرحالون أثناء رحلاتهم، ومن هنا لن يكون الانتاج المغربي وحده

---

(26) مذكرات التميري 1734 ورقة 17أ النسخة المرقونة ص 78.

(27) أنس الفقير ص 77 / 78، 68.

(28) نفسه ص 9، 26.

(29) نفسه ص 25.

(30) أزهار الرياض 3 : 26.

(31) الرحلة المغربية ص 130.

موضع الدراسة، وإنما سنتناول كل النماذج التي ساقها الرحالون فيما دونوه خلال رحلاتهم سواء كان أصحاب هذه النماذج من شعراء وكتاب المشرق أو المغرب.

وتعتبر الرحلات مصدرا هاما للانتاج الادبي في الفترة المرينية والتي قبلها بما تضمه من نصوص ونماذج أدبية تكاد تكون نادرة، فأضحت بذلك ديوان كثير من الشعراء الذين لا توجد لهم دواوين تجمع أشعارهم وتحفظ إنتاجهم. وهكذا أورد ابن رشيد حوالي ستمائة بيت لأبي اليمن ابن عساكر[32] وأكثر من أربعمائة بيت لأبي بكر ابن حبيش[33]، وأكثر من ثلاثمائة وألف بيت لأبي الفضل التجاني[34].

وذكر النميري أشعارا كثيرة لاعلام مغمورين لا تعرف أشعارهم إلا من خلال المذكرات، فأورد لأبي الحسن ابن عسيلة حوالي مائتي بيت[35]، وأورد أشعارا كثيرة لأبي علي بن تدرارت[36]، ولأبي سعيد بن قريعات[37]، ولأبي العباس القراق[38] وغيرهم...

ويعود الفضل للرحلات في الاحتفاظ بآثار لولاها لكانت عرضة للاندثار والنسيان، ومن امثلة هذه الآثار النادرة قصيدة ابن الفكون في رحلته من قسنطينة إلى مراكش[39]، وقصيدة أبي زكرياء يحيى بن علي الشقراطسي[40] التوزري، وما احتفظ لنا به النميري في مذكراته، كرسالة ملك غرناطة إلى أبي يعقوب المريني[41]،

(32) رحلة ابن رشيد 5 : 30ب — 52أ.

(33) نفسه 2 : 1 — 8، 6، 33ب — 54ب.

(34) نفسه 7 : 4ب — 51أ.

(35) مذكرات النميري 1734 ورقة 41أ — 46أ النسخة المرقونة ص 98 — 110.

(36) مذكرات 483 ورقة 33ب — 35ب النسخة المرقونة ص 9 — 17. 1734 ورقة 1أ — 2ب النسخة المرقونة ص 17 — 23.

(37) مذكرات 1734 ورقة 29أ — 39أ، المرقونة ص 48 — 73.

(38) مذكرات 483 ورقة 43أ — 44ب المرقونة ص 148 — 152.

(39) الرحلة المغربية ص 34 — 35.

(40) نفسه ص 45 — 49.

(41) مذكرات النميري 1734 ورقة 21أ — 24أ النسخة المرقونة ص 86 — 96.

وبرنامج أبي الحسن المطماطي[42]، ومختصر برنامج عبد الله بن جابر الوادياشي[43].

وهكذا احتضنت الرحلات نصوصا أدبية كثيرة في الشعر والنثر والنقد، لا يستغنى عنها في دراسة أدب هذه الفترة، فحتى الرحلات التي كان يحدو أصحابها طلب الحديث والرواية وعلو السند، كان للشعر فيما دونته الحظ الوافر والنصيب الكبير.

ويكفي أن نلقي نظرة على المضمون الشعري في الرحلات المختلفة لنتبين صحة هذا الاستنتاج، فرحلة ابن رشيد مثلا تضم ما يربو على ستمائة وأربعة آلاف بيت[44]، ورحلة العبدري تضم حوالي سبعمائة وألف بيت، ويحوي الجزء الباقي من رحلة التجيبي حوالي ستمائة بيت، وكذلك الأمر بالنسبة للنفاضة ورحلتي النميري، والتعريف لابن خلدون، فأغلب الرحالين حرصوا على نقل الأشعار وروايتها، وسجلوا لأنفسهم أيضا قدرا مهما من القصائد الشعرية، فكانت هذه الرحلات بمثابة دواوين لأصحابها، خصوصا إذا علمنا أن أكثرهم لا تعرف لهم أشعار إلا من خلال ما أثبتوه في رحلاتهم.

فالعبدري مثلا يضمن رحلته حوالي خمسين ومائتي بيت من شعره بالاضافة إلى رحلته المنظومة في خمسة ومائة بيت، أما ابن رشيد فضمن رحلته حوالي خمسين ومائتي بيت من أشعاره، وضمن كل من ابن الخطيب، وابن خلدون والنميري رحلاتهم معظم ما نظموه في هذه الجولات أو قبلها. فما هي الأغراض التي كثر فيها القول ؟

---

(42) نفسه 483 ورقة 6ب ـ 10أ النسخة المرقونة ص 183 ـ 201.

(43) نفسه 483 ورقات 10أ ـ 12ب النسخة المرقونة ص 202 ـ 210.

(44) حسب إحصاء الاستاذ الحدادي في رسالته عن ابن رشيد.

1 ـــ الشعر في الرحلات :

إذا رجعنا إلى النصوص الشعرية الواردة في الرحلات، سواء كانت لأصحابها أنفسهم أو لغيرهم، فإننا نجدها تتقاسم الأغراض الشعرية المعروفة، إلا أن هناك أغراضا كثر فيها القول فتعددت قصائدها ونماذجها، ومن أهم هذه الأغراض :

المديح النبوي :

وإن نظرة متفحصة في أشعار الرحلات تثبت لدينا ما سبق أن أشرنا إليه من أن الشعر في هذا العصر قد أكثر من القول في هذا الغرض، فاتجه الشعراء إلى المديح النبوي مغتنمين فرصة حلول عيد المولد النبوي، أو موسم الحج، أو المناسبات الأخرى، كليلة القدر، والانتصارات على الأعداء، ومدح الملوك أيضا.

وليس باستطاعتنا الوقوف عند كل هذه القصائد والمقطوعات لكثرتها، وإنما يكفينا أن نشير إلى أننا يمكننا التماس هذا الغرض في موضوعات ومواقف عبر فيها الشاعر بطريقة مباشرة أو غير مباشرة عن عاطفته نحو الرسول عليه السلام كالأشعار التي تم التعبير فيها عن الشوق إلى الحرمين الشريفين أو القدس الشريف، وكالرسائل التي بعث بها أصحابها إلى القبر النبوي، وكالأشعار التي قالها أصحابها وهم يتملون بمشاهدة البقاع المقدسة، وكالقصائد التي قصروها على مدح الرسول عليه السلام، ومن هذا القبيل تلك الأشعار التي قيلت في المولد النبوي الشريف، والمعارضات الطريفة التي حولت القصائد عن أغراضها الأصلية، وأخضعتها للمديح النبوي، ومقدمات القصائد والمقطوعات التي مدحوا بها الملوك.

ولقد عبر عن الشوق إلى الحجاز عامة والمدينة المنورة خاصة، كثير من الشعراء الذين أثبتت الرحلات نماذج من أشعارهم، فلقد تكرر التعبير عن هذه العاطفة من

لدن أبي العباس أحمد بن أبي الشرف الحسيني، في قصيدته الطويلة التي أنشدها ابن الحاج النميري بسبتة جاء فيها[45] :

خليلي ما قصدي العقيق ولا الحمى ولا الغور من شاني ولا مطلبي نجد
ولا لي في ليلى ولبنى لبانة ولا من هوى نفسي سليمي ولا هند
ولكن قصدي من بيثرب لحده فبورك ما ضم الهدى ذلك اللحد

ويعبر عن هذا الشوق أيضا أبو عبد الله الشاطبي الكناني في شعره الذي رواه عنه العبدري في بجاية، يقول[46] :

متى يشتفي قلبي بلثم ترابه ويسمح دهري بالمزار بخيل

وإلى جانب أشعار الشوق إلى البقاع نجد ذلك الشعر الذي صدر عن أصحابه وهم يفارقون هذه البقاع المقدسة، فعبروا فيه عن الحنين إلى العودة إلى قبر الرسول عليه السلام، والاستمتاع بجواره، وهذا الشعر كثير، إذ لا نكاد نجد رحالة عاد من الديار المقدسة إلا وعبر عن هذه العاطفة، فذرف الدموع، وشكا الفراق، وأعرب عن أمله في العودة، يعلن العبدري عن هذه العاطفة حين يقول وقد غادر مكة[47] البلد الذي ظل مغرما به :

منذ فارقته فدمعي سيل والأسى غيمه وخدي مسيل
ورمى بعده بعي لساني لست أدري من بعده ما أقول

ويصيح في قصيدة أخرى للتعبير عن هذه العاطفة فيقول[48] :

ألا ليت شعري هل يساعدني الوقت وتدني لي الأيام ما نحوه تقت
وهل لي إلى تلك المعاهد عودة فسكنى مغان قربها كل ما اشتقت

ولابن رشيد أشعار كثيرة قالها عقب عودته من رحلته وحجه، أظهر فيها أسفه على الفراق وأمله في تحقيق اللقاء، عبر عن هذا فيما نظمه بتونس عام خمسة وثمانين

---

(45) مذكرات النميري 483 ورقة 31 أ النسخة المرقونة ص : 1.

(46) الرحلة المغربية ص : 30.

(47) نفسه ص : 170 وانظر أيضا ص : 254، 269.

(48) نفسه ص : 171.

وقد دخلت أشهر الحج متذكرا أيام العج والثج[49]، وهكذا يعدد الأماكن التي مر بها الحاج وهو يؤدي مناسكه. وتستبد به هذه العاطفة فينظم قصيدة أخرى في خمسة وعشرين بيتا يمهد لها بقوله : «وقلت أيضا وقد أرقت ليلة وسمعت مغنيا يغني قصيدا حجازيا فشغل بالي وهيج بلبالي فنفثتها نفثة المصدور متذكرا أيام السرور بتلك المعاهد اللائحة النور»[50]، وأضحى هذا الشعور يلازمه، وظلت الرغبة في الذهاب إلى الحجاز تعاوده باستمرار، والحنين إلى البقاع لا يفارقه في بداية كل موسم من مواسم الحج، يقول في موسم عام ستة وثمانين وستمائة، بعد عودته لبلده سبتة، قصيدته الطويلة التي تقع في خمسة وخمسين بيتا افتتحها بقوله[51] :

أقول إذا هب النسيم المعطر   لعل بشيرا باللقاء يبشر
وعل الصبا مرت على ربع جيرتي   فعن طيبهم عرف النسيم يعبر
وأذكر أوقاتي بسلع [52] وبالحمى   فتذكو لظى في أضلعي حين أذكر
ربوع يود المسك طيب ترابها   ويهوى حصى فيها عقيق وجوهر

وينظم في موسم عام سبعة وثمانين قصيدة طويلة في ستة وخمسين بيتا بعد أن سمع النداء لسفر بعض المراكب إلى المشرق، جاء في هذه القصيدة قوله[53] :

أهوى الحجاز وإن لم يمس لي وطنا   ولم يكن أهله أهلي وجيراني

وعمد الشعراء في هذا المقام إلى تعداد الأماكن التي يقف بها الحاج وهو يؤدي مناسكه كقصيدة المحب أبي محمد الطبري التي يقول فيها[54] :

الوجد يشهد أنني مقتول   يهوى المحجب، والغرام كفيل
أسر الفؤاد جميله وجماله   فالقلب فيه (كثير) و(جميل)

---

(49) رحلة ابن رشيد 7 : 50 العج : رفع الصوت بالتلبية، والثج : ذبح الهدي، (لسان العرب).

(50) نفسه 7 : 51.

(51) رحلة ابن رشيد 7 : 66، الاحاطة 3 : 138.

(52) سلع بفتح أوله وإسكان ثانيه بعده عين مهملة : جبل متصل بالمدينة. (معجم ما استعجم ص : 779).

(53) رحلةابن رشيد 7 : 67.

(54) نفسه 5 : 49 أ.

إلى أن يقول :

يا معهد الأحباب هل من عودة ويضم شملي ظلك المأهول
أو هل ب (تنعيم) الحمى من وقفة أو هل إلى (وادي الاراك) سبيل ؟
أو هل أرى من أرض (مكة) معلما ؟ أو يبدون لي (شامة) و(طفيل)

وهكذا يبقى ذلك التواصل الروحي بين الشاعر والبقاع المقدسة فتصبح العودة هاجسه وشعوره في النوم واليقظة، يجدر بنا أن نذكر في هذا المقام ذلك الشعر الذي صدر عن ابن رشيد وهو على ظهر المركب في طريقه إلى تونس، لخص فيه ما سعد به إذ رأى في منامه، وكأنه يزور قبر الرسول عليه السلام قال فيه[55] :

رأيت كأني أزور النبي وأهدي السلام إليه حفيا
وأثني عليه ثناء حفيلا صلاة وحمدا ومدحا رضيا
وأدنو من القبر قيد ذراع وقفت كذاك لديه مليا
أروح دنوا ولثما فياتي وقار وخوف أفيضا عليا

وغالبا ما كان رحيل ركب الحجاج مناسبة لتحميله بالرسائل الموجهة إلى الحرمين الشريفين، أو إلى قبر الرسول عليه السلام بالشعر والنثر معا، على غرار تلك الرسائل الشعرية الأربع التي بعث بها أبو الحسن ابن عسيلة من تلمسان، وهي التي أورد النميري نماذج منها في مذكراته يقول في إحدى هذه الرسائل[56] :

يا قاصدين إلى الحما أو ما تروا قلبي حميا ناشج وحريق
تحدو الحداة بكم لأ شرف بقعة فتحن أجمال لذاك ونوق
حتى متى أقفو الرحال مشيعا فكأنني الترحال لست أطيق
قد فاز غيري بالمنى وحرمته والذنب عن سبل المراد عيوق

وسواء كانت توجه هذه الرسائل إلى الأماكن المقدسة، أو يكتفى بتدوينها في الكنانيش والمقيدات، فإنه من المعروف أنها كانت ترفع إلى الملوك والسلاطين كأثمن هدية، إذ العادة أن تختتم هذه الرسائل بقصيدة في مدح المهدى إليه كما فعل ابن عسيلة المراكشي مع القائد هلال صاحب تلمسان[57].

---

(55) رحلة ابن رشيد 6 : 1 ب 2 أ.

(56) مذكرات النميري 1734 ورقة 41 أ ــ 42 أ، النسخة المرقونة ص : 98 ــ 100.

(57) مذكرات النميري 1734 ورقة 41 أ، ص : 98 من النسخة المرقونة.

ومن هذه الأشعار التي عانقت شعر المديح النبوي ما خامر الشعراء من أحاسيس وهم في البقاع المقدسة وما استشعروه وهم يتنقلون بين مشاهدها، ويؤدون المناسك، ويقفون على الأماكن والبقاع التي ترتبط بالتاريخ الاسلامي، وأعلامه منذ بدء الرسالة ومن هذا القبيل، شعر أبي الحسن التجاني الذي رواه عنه ابن رشيد بالروضة الكريمة يقول فيه[58] :

أقول إذا ما نحن صرنا بطيبة نزلنا بحمد الله بالمنزل الرحب
نزلنا بمغنى أكرم الخلق كلهم قرأنا عليه اليوم مغفرة الذنب

ويحس ابن رشيد بالارتياح وقد أكمل المناسك، واجتمع بأصحابه فوق جبل عرفات، فيعبر عن شعور الرضى والفرح بقصيدة يضمنها أحاسيسه ويتأمل فيها جمع الحجاج وخيامهم نتتشر في كل مكان جاء في هذه القصيدة[59] :

وفي حمى عرفات أهلي وعرفاني وعند جمع تلاقى جمع إخواني
أكرم بهم معشرا كالزهر قد طلعوا في مشعر أشعروا فيه بغفران
وجز مليا بخيمات لنا بطحت عقدا تألق من در ومرجان
قيد البصائر والأبصار بهجتها تفز وصفا على قس وسحبان
تخال ألوانها زهرا تفتح في روض فما شئت من أصناف ألوان
بتنا ونحن من الأفراح في شان ولا رفث ولا واش ولا شان

ويصيح أبو القاسم خلف القبتورري مكبرا ومهللا بعد أن أشرف على بيت الله الحرام، الذي تخيله كالعروس في جماله، وتصوره قد أربى في عظمته على كل عظيم يقول[60] :

الله أكبر لاح بيت الآهي متسر بلا خلع السنا والجاه
مثل العروس بدا بصفحة خدها خال لديه شفاء ظمء شفاه
أعظم به بيتا تضاءلت البيوت الساميات لعظمه المتناهي

(58) رحلة ابن رشيد 5 : 56 ب.

(59) نفسه 5 : 20 ب.

(60) مستفاد الرحلة ص : 228.

وتغمر السعادة أبا بكر ابن مسدي وهو يحط الرحال بفناء قبر الرسول عليه السلام، فيعبر عن شعوره، في قصيدة تشتمل على تسعة وأربعين ومائة بيت[61]، يقول في مطلعها :

أورد ظماءك قد بلغت الموردا   لن يحمد الأصدار من لا أوردا
ألف العصا واشكر مغبات الهوى   وانزل هديت فهذه نار الهدى

ويعلن في ثنايا هذه القصيدة الطويلة عن اطمئنانه وهو يلتجيء إلى القبر النبوي :

هذي قصيدي تنتجيك بمقصدي   فاسمع نتيجة قاصد قد قصدا
أنزلت حاجاتي ونعم المنتدى   هذا الجناب وأنت نعم المجتدى
من أم في الحاجات بابك لم يكن   يوما ليقرع باب نجح موصدا

ومن هنا فالكثير من زائريه، غادروه وهم يذرفون الدموع أسفا وتألما للفراق، مثل ابن رشيد الذي أفصح عن ذلك بقوله[62] :

أودعكم وأودعكم جناني   وأنثر عبرتي نثر الجمان
وقلبي لا يريد لكم فراقا   ولكن هكذا حكم الزمان

أما قصائد مدح الرسول عليه السلام فهي كثيرة، ونعني بها تلك القصائد التي لم تكن المناسبة سببا مباشرا لها، فالقصائد التي أشرنا إليها لا تخلو هي أيضا من مدح الرسول إذ تخصص جزءا مهما منها لذكر ما كان يتحلى به الرسول من صفات حميدة، واستحضار مواقفه من السيرة الغراء فهي تنتظم أيضا في سلك المدائح النبوية، ولكننا هنا بصدد قصائد الدافع إلى قولها هو مدح الرسول ومضمونها لا يتجاوز ذلك.

وهذا النوع من القصائد المديحية كثير جدا في الرحلات، فمن ذلك القصيدة التي نقلها ابن رشيد عن ابن حبيش بتونس والتي تسمى بالتحيات الاعجازية والأريحيات الحجازية[63]، وقصيدة ابن السماط التي تقع في واحد وخمسين بيتا يقول في مطلعها[64] :

---

(61) نفسه ص : 406.

(62) رحلة ابن رشيد 5 : 56 ب.

(63) نفسه 6 : 42 أ.

(64) نفسه 6 : 7 أ.

أعـد الحديث فلـيس بالمملـول   عن خير مبعـوث وخير رسول

وكقصيدة أبي اليمن بن عساكر التي نقلها ابن رشيد عن رفيقه ابن الحكيم الذي كان سبقه إلى الحجاز، والقصيدة طويلة لكن بها بتر كثير(65)، وكقصيدة تاج الدين الغرافي المسماة «ذات الشفا في مدح المصطفى» وهي طويلة في واحد وخمسين بيتا، سمعها عنه العبدري بالاسكندرية جاء في هذه القصيدة(66) :

يا سيد الهادين يا خير الورى   حسبا وأوسعهم نـدا وتكرمـا
يا خاتم الرسل الكرام ومن له   الآيات تحكي في السماء الأنجما

والعبدري نفسه ينظم قصيدة في اثنين وأربعين ومائة بيت يمدح فيها الرسول، ويصف بأبياتها فعاله وأخلاقه يقول فيها(67) :

أعيا بلاغة ذي البلاغة مدحُـه   فالواصف النطيق مثل المفـرد
نور جلا ظلم الضلالة فـانجلت   وبه استنار فؤادي ذي قلب هدي
أربى على الشمس المنيرة بالضحى   فغـدت لديـه شبيهة بالفرقـد
أضحى المسيح مبشرا بقدومـه   وغدا به قس خطيب المشهد.

ولا ننسى في هذا المجال القصائد المديحية المشهورة التي تناقلها الرواة، وحرص الرحالون على قراءتها وسماعها، كقصيدة أبي زكرياء يحيى بن علي الشقراطسي التوزري المعروفة بالقصيدة الشقراطسية، قرأها العبدري بتونس على أبي عبد الله ابن هريرة وأوردها بكاملها في رحلته وهي تقع في ثلاثة وثلاثين ومائة بيت(68)

وكان ابن رشيد قد أسمعه إياها ابن المروش في تونس «بقراءته جميع القصيدة الشقراطسية»(69).

ولقد أولع الناس بهذه القصيدة فاشتغل بها كثيرون شرحا وتخميسا وقراءة(70).

(65) نفسه 5 : 40 ب — 44 أ.

(66) الرحلة المغربية ص : 116 — 118.

(67) نفسه ص : 208 — 213.

(68) الرحلة المغربية ص : 45 — 51.

(69) رحلة ابن رشيد 6 : 109 ب.

(70) رحلة التجاني ص : 376، رحلة البلوي II : 101، فتح المتعال ص : 326.

ومن المجالات والميادين التي تسابق الشعراء في هذا العصر إلى النظم والانشاد فيها، وتنافسوا في التفنن والاجادة فيها، تلك الأشعار التي ارتبطت بمناسبات المولد النبوي، والتي انصرف إليها الشعراء وقد وجدوا مجالا للقول، والاسترسال في التصوير، وذكر الجزئيات مما جعل القصائد تطول، وتكثر صورها وجزئياتها، مع أن كثيرا من الشعراء لم يشتهر بمطولاته إلا في هذا الغرض المعروف بالمولديات.

والظاهرة التي تسترعي الانتباه، وتستحق الاهتمام هي أن الرحالين الذين أشاروا إلى شعر هذا الغرض، وضمنوا نماذج منه كانو كلهم من القرن الثامن الهجري، إذ لم يشر إلى هذا الشعر كل من ابن رشيد، والعبدري، والتجيبي وغيرهم من الذين رحلوا في القرن السابع الهجري، ولا ندري سببا واضحا لذلك، فالاحتفال بهذه المناسبة كان معروفا في القرن السابع، على الأقل في المشرق، تحدث ابن دحية عن احتفال بالمولد النبوي حضره بأربل سنة 604هـ[71]، فهل الاحتفال كان يقتصر على الانشاد والذكر وتقديم الأطعمة ؟

وعلى أي حال فإن رحلات القرن الثامن الهجري قد أولت هذا الغرض اهتماما خاصا وأوردت مولديات أنشدها أصحابها أو غيرهم من شعراء العصر، فمن ذلك قصيدة في ثلاثة وثلاثين بيتا أنشدها الكاتب أبو العباس القراق[72] في احتفال بمناسبة المولد النبوي أقامه أبو الحسن المريني، وإن كنا لا ندري هل الاحتفال كان ليلة المولد أو في سابعه كما يبدو من القصيدة، ومما ورد فيها قوله :

يا من يحب رسول الله مولده ... أسنى المواسم فأفرح فيه مجتهدا
وكيف لا تؤثر الأفراح فيه وقد ... هدى وألهمنا التوفيق والرشدا
فالحمد لله إعظاما لنعمته ... إذ بان طالعه في أسعد وبدا
أهلا بمولده الأسنى وسابعه ... ووقت عرسهما الميمون إذ وفدا.

ومن هذا القبيل المولدية التي رفعها ابن الخطيب من سلا إلى أبي سالم المريني، وهي قصيدة طويلة تقع في خمسة وثمانين بيتا، قال فيها مخاطبا الركب المتوجه إلى الحجاز[73].

(71) نفح الطيب 2 : 104.

(72) مذكرات التميري 483 ورقة 43 ب ص : 150 من النسخة المرقونة.

(73) نفاضة الجراب ص : 172 ـ 177.

نشدتك يا ركب الحجاز تضاءلت
لك الأرض مهما استعرض السهب وامتدا
وجم لك المرعى واذعنت الصوى
ولم تفتقد ظلا ظليلا ولا وردا
إذا أنت شافهت الديار بطيبة
وجئت بها القبر المقدس واللحدا
وآنست نورا من جناب محمد
يداوي القلوب الغلف والأعين الرمدا
فنب عن بعيد الدار في ذلك الحمى
واذرىء به دمعا وعفر به خدا
وقل يا رسول الله عبد تقاصرت
خطاه وأضحى من أحبته فردا

وكان ابن خلدون بجانب أبي سالم في هذا الحفل، لذلك أنشد هو أيضا قصيدة يتغنى فيها بالذكرى وصاحبها، ويسلك فيها نفس الطريقة التي اتبعت في المولديات، فيسير على الوتيرة التي ألمحنا إليها سابقا من التركيز على معاناة الشاعر وهو بعيد عن الحجاز، حيث تتجه أفواج الحجاج إلى زيارة قبر الرسول عليه السلام صاحب الذكرى لينتقل بعد ذلك إلى مدح الرسول وتعداد معجزاته، وينهي قصيدته بمدح أبي سالم الذي كان يقيم هذا الاحتفال قال مناجيا الرسول ومعربا عن شوقه وأمله في زيارة القبر النبوي(74) :

إني دعوتك واثقا بإجابتي
يا خير مدعو وخير مجيب
قصرت في مدحي فإن يك طيبا
فبما لذكرك من أريج الطيب
ماذا عسى يبغي المطيل وقد حوى
في مدحك القرآن كل مطيب
يا هل تبلغني الليالي زورة
تدني إلي الفوز بالمرغوب
أمحو خطيئاتي بإخلاصي بها
وأحط أوزاري واصر ذنوبي.

ولم يتخلف ابن خلدون بعد ذلك عن انشاد القصائد في مناسبات المولد النبوي الشريف، فلقد رفع قصيدتين إلى صاحب غرناطة الذي كان يحتفل بالمولد النبوي «اقتداء بملوك المغرب»(75)

ومما له اتصال بالمديح النبوي تلك الأشعار التي اهتمت بمثال النعل، فهناك قصائد كثيرة(76) قيلت في النعل النبوي أو في مثالها، وهكذا تضمن الجزء الثاني من رحلة

---

(74) التعريف بابن خلدون ص : 70 ــ 74.

(75) التعريف بابن خلدون ص : 85 ــ 89.

(76) رحلة ابن رشيد 2 : 25 أ ــ 25 ب المطبوع 199 ــ 203.

ابن رشيد نماذج كثيرة لهذا الغرض الشعري أنشده إياها بتونس أبو عبد الله ابن حيان الشاطبي وهي نماذج نظمها أدباء عصره كأبي الحسن التجاني، وابن مناد، وابن بزيزة، وأبي الربيع ابن سالم، وابن الابار، وابن محرز، وأبي الحسن ابن سعد الخير،

فمما قاله ابن الابار :

لمثال نعل المصطفى اصفي الهوى وأرى السلوخطِّية لن تغفرا
وإذا أصافحه وامسح لاثما أركانه، فمعززا وموقرا
سر اعتزازي في جهار تذللي لجلاله، أثرا بقلبي أثرا

أما أبو الحسن التجاني فيثير لديه المثال شجنا وأسى تنهمر معهما دموعه، يقول :

أوطأته خدي وقلت : تعززي ما شئت يا نفسي بهذا وأشرفي
وتمسكي أبدا بحب محمد فعساك أن تنجو به في الموقف

ولقد خاض الكثيرون في هذا الموضوع وتفننوا في وصف النعال وأعربوا عن عواطفهم نحوها، ولعل ابن رشيد هو الذي أشاع هذا الغرض الشعري في مدينة سبتة ينقل المقري من رحلته قوله : «ولما وافيت سبتة بلدنا حماها الله تعالى عائدا من وجهتي أريت ذلك المثال شيخنا البليغ الناظم الناثر القاسم القبتوري فنظم في ذلك قصيدة»(77)

ولذلك يخاطب القبتوري ابن رشيد قائلا في هذه القصيدة(78) :

ويا مبصر النعل الكريمة نفسها غنمت وبيت الله أنفس مغتنم
ونلت منى كم همة قد أهمتها بإدراكها تسر والمسرات كل هم
ويا عجبا إني أطقت اجتلاءها ألم يعشك الالآء من نورها ألم

وهكذا حرك مثل هذا الشعر الهمم، فأسهم شعراء عديدون، فالمقري يرى أن الذين «تعرضوا للمثال من علماء المغرب أكثر من الذين تعرض له أهل

(77) فتح المتعال ص : 359.

(78) نفسه.

المشرق»[79] ويعلل ذلك بأن «المغاربة لم يمكنهم إلا المثال ومن ارتحل منهم إلى المشرق وراى النعل النبوية كابن رشيد مثل عليها»[80]

ومن حسن الحظ يسعفنا المقري بأبيات ابن رشيد نقلا عن الجزء الرابع الضائع من الرحلة يقول ابن رشيد في تمهيده لأبياته الخمسة[81] :

«لما دخلت إلى دار الحديث الأشرفية برسم رؤية النعل النبوية الكريمة بالمصطفى ﷺ ولثمها حضرتني هذه الأبيات ونصه ولما حذوت على نعل القدم الكريمة قلت في وصفها هذه الأبيات نفع الله تعالى بها :

هنيئا لعيني أن رأت نعل أحمد فيا سعد جدي قد ظفرت بمقصد
وقبلتها أشفي الغليل فزادني فيا عجبا زاد الظما عند مورد
فلله ذلك اللثم لهو الذ من لمى شفة لميا وخد مورد
ولله ذاك اليوم عيدا ومعلما بتاريخه أرخت مولد أسعد
عليه صلاة نشرها طيب كما يحب ويرضى ربنا بمحمد»

وكثر القول في الموضوعات التي لها علاقة بمدح الرسول عليه السلام بمناسبة أو غيرمناسبة، بل وجدنا شعرا عمد فيه أصحابه إلى نقض معاني قصائد في أغراض الغزل، وهكذا قرأ العبدري على أبي الحسن التجاني قصيدة حازم القرطاجني[82] «وهي المقلوبة من قصيدة امرىء القيس في مدح المصطفى ﷺ» فأعجب بها العبدري وأثبتها بكاملها في رحلته لأنها في نظره «مما ينبغي أن يقيد ولا يهمل».

وهي قصيدة طويلة في ثمانين بيتا، يقول حازم في مطلعها[83] :

لعينيك قل إن زرت أفضل مرسل قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل

---

(79) فتح المتعال ص : 110.

(80) نفسه ص : 178 أزهار الرياض 3 : 262.

(81) نفس المصدر.

(82) الرحلة المغربية ص : 258.

(83) نفسه ص : 258 ـ 261، أزهار الرياض 3 : 178 ـ 182. النفح 5 : 520 ـ 523 قصائد ومقطعات ص : 179 ـ 184.

ويحذو أبو الحسن ابن عسلية حذو حازم فينظم قصيدة في تسعة وتسعين بيتا يفتتحها بقوله[84] :

أقــول لخلي وقفتــي وتـــرحلي قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
ولا تسأما سيرا ولا تخشيا عدى بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فأشواقنا للمصطفى قـد تزايـدت لما نسجتها مـن جنـوب وشمال

ولقد توسع فن المدائح النبوية، وذاع في ظل ازدهار التصوف، إذ كثيرا ما تكون المدائح مناسبة للتعبير عن ما ينتاب الشاعر أثناء مديحه من مشاعر دينية وعواطف سامية، وميل إلى النزعة الزهدية وما يصدر عن الشاعر من أشعار التضرع والتوسل كالبيتين اللذين قرأهما العبدري على أبي محمد الخلاسي وهما لأبي الحسن المقدسي[85] :

يارب عفوك عن ذي زلة عظمت بـه المهابة حتـى لاذ بالكـرم
إن لم يكن هو أهلا أن تسامحه فإنه من جميل الظن في حـرم

وقرأ العبدري على ابن رزين قوله[86] :

نصيبك مـن دنياك أيسر بلغـة قليـل لـديها صحّـة وفـراغ
فمـا بالنـا نلهـو ونغتـر بمالنـا كأن ليس للأخرى الغداة بلاغ

وترتفع الأصوات الداعية إلى الزهد في الحياة والتزود للآخرة بالعمل الصالح وحب الرسول عليه السلام، فلقد أورد النميري في مذكراته أبياتا لأبي علي بن رشيق كان أنشده إياها قاضي أنفا أبو محمد الخزرجي[87] :

أبصرت أبواب الملوك تغص بالـ ـراجلين إدراك العـلا والجاه
مترقـبين لها فمهمـى فتـحت خـروا لأذقـان لهم وجبـاه
ورأيت باب الله ليس عليه من متزاحـم فـقصدت بـاب الله

(84) مذكرات النميري 1734 ورقة 42 أ ــ 45 أ ص : 101 ــ 107 النسخة المرقونة.

(85) الرحلة المغربية ص : 251 وانظر أيضا ص : 249، 270 ــ 272.

(86) نفسه ص : 253، رحلة ابن رشيد 6 : 77.

(87) مذكرات النميري 483 ورقة 19 ص : 225 من النسخة المرقونة.

وفي أنس الفقير أشعار كثيرة تناهز المائة بيت، كلها تخدم هذا الغرض، وتدعو إلى الزهد والصلاح والاكثار من العبادة، والعمل على إذلال النفس وحب المتصوفة والاعتراف بالذنب، وما إلى ذلك مما يدخل في باب التصوف، ومن هذه النماذج ما قاله ابن قنفذ في الدعوة إلى الزهد في الدنيا(88) :

تـروم الخلـد في دار الرزايـــا وكم قـد رام غيرك ما تـــروم

شعر الاستصراخ :

فمن خلال هذه الأشعار التي نقلها الرحالون في رحلاتهم نتبين حقيقة الأوضاع في الغرب الاسلامي عامة، والاندلس على الخصوص، بعد أن سقطت كثير من مدن الأندلس في يد العدو، مما جعل ابن خلدون يعد سنوات منتصف القرن السابع الهجري «فترة ضاعت فيها ثغور المسلمين واستبيح حماهم، والتهم العدو بلادهم وأموا لهم»(89).

وهكذا سقطت في هذه الفترة على التوالي قرطبة، وبلنسية، ودانية، وجيان، وشاطبة، واشبيلية، ومرسية...وغيرها، فتعالت نداءات الاستصراخ والاستنجاد، واستسلم بعضهم للبكاء والتسليم بالأمر الواقع، وكانت الأشعار مواكبة لكل هذه الأحداث معبرة عن الاتجاهات المختلفة، ومن أهم هذه القصائد في هذا الباب تلك التي نزل بها حازم القرطاجني على أبي زكرياء الحفصي بتونس مستنصرا إياه ومستنجدا به، وهي قصيدة تقع في مائة بيت، وقد سمعها ابن رشيد على أبي الفضل التجاني بتونس، بعد أن كان قد قرأها من قبل على شيخه حازم، يقول في مطلعها(90) :

منى النفس تدني منكم والنوى تقصي فكم ذا يطيع الدهر فيكم وكم يعصي

وجاء في هذه القصيدة :

عسى الله أن ينتاش أندلسا بها ويأخذ فيها للهدى أخذ مقتصى

(88) انس الفقير ص : 92.

(89) تاريخ ابن خلدون 7 : 392.

(90) رحلة ابن رشيد 7 : 40 ب ـــ 42 أ، قصائد ومقطعات ص 146 ـــ 153.

فيضحي بها شرق الجزيرة مشرقا وتطلع أنوار البشائر في حمص
أمير الهدى من يدن منك فإنه بقربك من صرف الحوادث قدا قصي

ويعود إلى الموضوع مرة أخرى فيعرض رغبة الأندلسيين أمام السلطان الحفصي في رائية يقول فيها(91) :

ورجوا لأندلس، وأهليها بكم نصرا يدوم على الزمان مؤزرا
فعد الجزيرة نصرة، تقرى بها أشلاء طاغية النصارى الأنسرا
أنت الحقيق بأن تلبي صوتها وبأن تريق لنصرها كأس الكرى

وينشد ابن الآبار سينته أمام أبي زكرياء الحفصي أيضا لنفس الغاية إذ يستنجد به ويطلب إغاثته وعونه، بعد أن ترك بلده بلنسية محاصرا من طرف العدو، ولقد أدت القصيدة مهمتها التأثيرية إذ «بادر السلطان بإغاثتهم وشحن الأساطيل بالمدد إليهم من المال والأقوات والكسا فوجدوهم في عسرة الحصار إلى أن تغلب الطاغية على بلنسية ورجع ابن الآبار بأهله إلى تونس»(92) كما ورد في أزهار الرياض.

وكانت القصيدة مشهورة، قرأها العبدري على أبي الحسن التجاني بتونس في صدوره من الحجاز. ومطلع القصيدة(93) :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا

وبعد استعراض أحوال الأندلس المؤلمة والأوضاع المزرية التي تردت إليها يتخلص إلى القول :

يا أيها الملك المنصور أنت لها عليا ءتوسع اعدا ءالهدى تعسا
وقد تواترت الأنباء أنك من يحيى بقتل ملوك الصفر أندلسا
طهر بلادك منهم إنهم نجس ولا طهارة ما لم نغسل النجسا
وأوطىء الفيلق الجرار أرضهم حتى يطأطىء رأسا كل من رأسا
وانصر عبيدا باقصى شرقها شرقت عيونهم أدمعا تهمى زكا وخسا.

---

(91) قصائد ومقطعات ص : 130 ـ 133.

(92) أزهار الرياض 3 : 205.

(93) الرحلة المغربية ص : 257، سبك المقال ص : 194 المؤنس ص : 132. أزهار الرياض 3 : 207.

ومن الأشعار التي عكست هذه الأوضاع أيضا وساهمت في إثارة الحمية وبعث الحماس في النفوس تلك القصائد التي تسمى برثاء البلدان، فمن ذلك قصيدة في خمسين بيتا رثى بها أبو العباس ابن القصير مدينة إشبيلية، أوردها ابن رشيد في رحلته، جاء في هذه القصيدة قوله[94] :

أسل من دموعك مدرارها ... وساجل من الأرض أنهارها
وبح بالخفايا ونح شاكيا ... فلن تحمد اليوم اضمارها
أبعدك يا حمص من سلوة ... لنفس غدوت لها جارها
أينساك يا حمص ذو لوعة ... وهل تترك الطير أوكارها
فيا أيها الخطب رفقا فقد ... هتكت الحياة واستارها

فالقصيدة استسلام وبكاء ونحيب، ومن دون شك فإن هذه الأشعار قد أثارت الحمية وبعثت الغيرة في النفوس وخاصة لدى سكان العدوة المغربية، ولقد رأينا من قبل بأن هناك أصواتا كثيرة انبعثت من مناطق عديدة كسبتة وفاس تدعو إلى الجهاد ومواجهة العدو[95]، فمن الأشعار الداعية إلى الجهاد قصيدة أبي العباس أحمد بن أبي الشرف الحسيني التي أنشدها التميري بمنزله في سبتة وهو في رحلته صحبة أبي الحسن المريني جاء في القصيدة[96] :

فماذا التأني فانتضوها صوارما ... يذرن بلاد الكفر قيعان مأتم
ويسبين منها كل عذراء كاعب ... فقدن أبا ذمرا وينظرن لابنم
يقدن أسارى كاسدات لكثرها ... فيامن رأى عذراء بيعت بدرهم
وما منكم إلا على متن ضامر ... أقب والا فوق نهد مطهم.

ونعتقد أن شعر الحماس والجهاد قد كثر في هذه الفترات التي قويت فيها أطماع المسيحيين كقصيدة ابن المرحل التي قرئت بصحن جامع القرويين فبكى الناس عند سماعها وانتدب كثير منهم للجهاد، ونعني بها الميميّة التي يقول فيها[97] :

لا تسلموا الاسلام يا إخواننا ... وأسرجوا لنصره والجموا

---

(94) رحلة ابن رشيد 6 : 97.

(95) الذخيرة السنية ص 69، 112؛ 102.

(96) مذكرات التميري 483، ورقة 31 ب ص : 3 من النسخة المرقونة.

(97) الذخيرة السنية ص : 98.

وهكذا تعانقت الحماسة ورثاء الممالك في أشعار هذا العهد، على نحو قصيدة أبي علي بن تدرارت التي رثى بها الجزيرة بعد أن احتلت من طرف المسيحيين سنة 744هـ / 1344م جاء فيها قوله مظهرا ما يحس به من ألم وتفجع[98] :

أمن بعد رزء بالجزيرة فاجع نسر بشيء أو نرى الشمل جامعا
فعن غير لاي نكر الكفر عرفها وغير منها بالكنيسة جامعا
ومن بعد ذكر الله فوق منارها أحل نواقيس الضلال الصوامعا
ألا يا بني الاسلام أين امتعاضكم لدين سقى التقوى بأحلى المراضعا
فثورا ملوك الأرض للحق وانهضوا ولا تتركوا أمر الشريعة ضائعا

والظاهر أن هذه الاشعار جميعها قد أتت أكلها، وكانت لها النتيجة المرجوة في الوقوف أمام المد المسيحي وإنجاد سكان العدوة، فهناك أشعار سجلت هذه الحروب والاشتباكات، كتلك الرائية التي قالها ابن تدرارت أيضا في قتال يوم الجمعة المشهور بوادي «اللاطنة» جاء فيها[99] :

وقد وجهت رايات الاذفنش نحونا وجاء بها فيمن له جمع الصفر
ألوف يكل العد من دون حصرها وما أن تعدى الأربعين بنا الحصر
منعناهم في حربنا عن مرادهم لنا بعد نيل منهم عله الأجر
وما بلغوا منا منالا يسرهم بل انقلبوا عنا وقد رغم الكفر.

المدح :

وهو من الأغراض الأكثر شيوعا في الأدب العربي القديم عامة، لذلك لا تخلو رحلة من قصائد هذا الغرض الشعري من هنا يتعذر علينا التعرض لكل القصائد والنماذج والأمثلة الواردة في هذه الرحلات، وسنكتفي في هذا المجال بالاشارة إلى بعض الأمثلة فقط، فمن ذلك قصيد ابن المرحل في مدح الوزير أبي علي بن خلاص أورد التجيبي منه قوله[100] :

يسيل ماء الندى من بين أنمله حتى يكاد نداه يغرق الجلسا

---

(98) مذكرات التميري 483 ورقة 34 أ ـــ 34 ب النسخة المرقونة. ص : 10 / 13.

(99) مذكرات التميري 483 ورقة 35 أ ـــ ب النسخة المرقونة ص : 14 ـــ 15.

(100) مستفاد الرحلة ص : 447.

كف تسالم من يلقاه مستلمـاً   كما تفاسم من يأتيه ملتـمسا
فتشبـه الحجـر المرفـوع ملـتثما   وتشبـه الحجـر المحمـول منبـجسا

وكقصيدة أبي عبد الله بن أبي تميم الحميري التي مدح بها أبا عبد الله الهنتاتي مهنئا إياه بختمة حفيده وإعذاره، لذلك سماها «رقم العذار في التهنئة بالختمة والاعذار»، وكان الحميري قد أفاد بها ابن رشيد في تونس وكتبها له بخطه، جاء في نهاية هذه القصيدة الطويلة(101) :

فاحك في الرفعة الكواكب واصحب   عـزة مـا تصاحب الفرقـدان
وابق والعز في جنـابك بـاق   وأعـاديك عـرضة للتفـاني

وكقصيدتي أبي الفضل التجاني(102) اللتين رواهما عنه ابن رشيد بتونس دون أن يصرح بإسم الممدوحين فيهما، والقصيدتان أول شعر ينظمه التجاني لكنه تعمد إهمالهما وضيعتهما، كما ذكر له، ولاننسى قصيدة ابن بطوطة في مدح سلطان دهلي، وهي النص الشعري الوحيد الذي نعرفه له، إلا أنه مع الأسف لم يدرج من هذه القصيدة في رحلته غير سبعة أبيات وهي(103) :

إلـيك أمير المؤمـنين المبجـلا   أتينا نجد السير نحوك في الفـلا
فجئت محلا من علائك زائـرا   ومغنـاك كهـف للزيـارة أهـلا
فلـو أن فـوق الشمس رتبـة   لكـنت لأعلاهـا إمامـا مؤهـلا
فأنت الامام الماجد الأوحد الذي   سجاياه حتما أن يقـول ويفعـلا
ولي حاجة من فيض جودك أرتجي   قضاها وقصدي عند مجدك سهلا
أأذكرها أم قـد كفـاني حيـاؤكم   فـإن حيـاكم ذكـره كان أجملا
فعجـل لمن وافى محلك زائـرا   قضى دينـه إن الغـريم تعجـلا.

ويبعث ابن الخطيب من سلا سنة 761هـ قصيدة مدحية إلى أبي سالم مستعطفا إياه وراجيا بره وإحسانه(104).

---

(101) رحلة ابن رشيد 2 : 58 أ ــ 59 ب، النسخة المطبوعة ص : 379 ــ 382.

(102) رحلة ابن رشيد 7 : 6 ب : 8 أ.

(103) رحلة ابن بطوطة ص : 504.

(104) نفاضة الجراب 2 : 85 / 86.

كما يبعث إليه بقصيدة طويلة تناهز المائة بيت يمدحه فيها ويهنيه بفتح تلمسان، جاء في نهايتها قوله[105] :

فدونكها من بحر فكري لؤلـؤا يفصل من حسن النظام بمرجان
وكان رسول الله بالشعر يعتنـي وكم حجة في شعر كعب وحسان
ووالله ما وفيت قـدرك حقـه ولكنه وسعـي ومبلـغ إمكـاني

أما فيض العباب فإن الشعر الوارد فيه والذي يناهز أربعين وثلاثمائة بيت شعري كله في غرض المديح، أو على الأصح كل قصائده ومقطوعاته في مدح أبي عنان ووصف بطولته ومواقفه وذكر فتوحاته وانتصاراته باستثناء عشرة أبيات مدح بها النميري ابن مزنى صاحب بسكرة[106]، تنفيذا لأمر أبي عنان نفسه وذلك لتكريم ابن مزني وتشريفه والاعتناء به

ومن شعر المديح في فيض العباب ما أنشده أبو عبد الله الفشتالي قاضي فاس في حفل توديع أبي عنان وهو متهيء للخروج في حركته إلى قسنطينة والزاب[107].

أيا ملك تحدى الركاب لبابـه ومنه لكف البغي تحدى الركائب
بمثل الذي قدمت من كل صالح تـيسَّر آمـال وتدنـو مطـالب
وكل الورى مثني بما أنت أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب
فسر في ضمان الله سعدك قاهر وجيشك منصور، وسيفك غالب
وسعيك في مرضاة ربك ناجـح وسعي العدى فيما يرومون خائب

ولا تخلو المذكرات من أشعار في هذا الغرض أيضا، فلقد أورد النميري منتخبات من قصائد مديحية كتلك التي مدح بها أبو عبدالله ابن راجح السلطان أبا الحسن المريني بمناسبة فتحه لمدينة تلمسان سنة 737هـ جاء في القصيدة قوله[108] :

وصير عيد الفطر أضحـى لأنـه به في العدى بالقضب أضحى له نحر
وكل بنيكم لا أحاشي له عـلا على فوق علياء الملوك له خطر

---

(105) نفسه ص : 94 / 101.

(106) فيض العباب ص : 291 / 292 النسخة المطبوعة ص : 241.

(107) فيض العباب ص : 95 ـــ النسخة المطبوعة ص : 71.

(108) مذكرات النميري 483 ورقة 5 ب ـــ 6 أ، النسخة المرقونة ص : 181 / 182.

وهل ينبت الخطي إلا وشجيه كذا الشبل مثل الليث يلقى له هصر
هم أنجم الدنيا وزينتها كما بها أنتم الشمس المنيرة والبدر

ونقل في مذكراته القصيدة التي أنشده إيَّاها ناظمها أبو سعيد فرج بن محمد ابن قريعات، وكان قد رفعها للسلطان أبي سعيد مادحا ومهنئا بمناسبة إعادة سبتة إلى السلطة المرينية سنة 728هـ يقول في نهايتها(109) :

واهنأ بأسعد عيد فطر عائد بالعفو والتمكين من كفارها
وقبل صوم ترتجي بركاته وليهن سبتة أن حللت بدارها
خذها إليك سعدت أن حلت حما من راحتيك وفزت باستقرارها
لازلت في نعم ترف ظلالها ويمدها الرحمان باستمرارها

ومن الأشعار المديحية تلك القصيدة التي أثبتها ابن خلدون في تعريفه، كان مدح بها أبا سالم في حفل تسلم هدية ملك السودان المتضمنة للزرافة، فمما جاء فيها بشأن تسجيل هذا الحدث الفريد قوله(110) :

جاءتك في وفد الأحابش لا يرجون غيرك مكرم الوفد
وافوك أنضاء تقلبهم أيدي السرى بالغور والنجد

الرثاء

ولا تخلو الرحلات كذلك من التعرض لبعض نصوصه، والاشارة إلى بعض نماذجه، كقصيدة أبي الفضل التجاني في رثاء شيخه ابن أبي الدنيا الصدفي المتوفي بتونس، يقول في مطلعها(111) :

أطلق دموعك ولتدع إمساكها قد حل خطب ناثر أسلاكها
وأتى الزمان بنيه بالرزء الذي أسر النفوس فما تطيق فكاكها
من بعد موت أبي محمد الرضا حييت لواعجها وكن هلاكها.

---

(109) نفسه 1734 ورقة 38 أ/ 39 أ المرقونة ص : 71 / 73.

(110) التعريف بابن خلدون ص : 74 / 76.

(111) رحلة ابن رشيد 7 : 8 أ.

وكشعره أيضا في رثاء الأديبين أبي عبد الله ابن أبي تميم الحميري، وأبي الحسن حازم القرطاجي، اللذين توفيا بتونس، وبين وفاة كل منهما نحو الشهر، جاء في هذا الرثاء قوله(112) :

ثوى ابن أبي تميم ثم حازم ... فحزني بعد دفنهما ملازم
هما الشيخان إن ذكرت شيوخ ... تشد إلى لقائهم الحيازم
هما العلمان إن ذكرت علوم ... تعرفها يعد من اللوازم
حذفت الصبر بعدهما ولم لا ... وخطبهما لفعل الصبر جازم

ومن هذا القبيل ما أثبته النميري في مذكراته إذ أورد ثلاث قصائد في الرثاء قالها في مناسبات مختلفة، ومقتطفات من قصيدة طويلة لأبي عبد الله بن أبي المكارم منديل الكناني(113).

ولعل أروع نماذج الرثاء ما قاله ابن الخطيب وقد اشتد جزعه وعظم حزنه بوفاة زوجته في سلا سنة 762هـ، تقدم بيتان من هذه القصيدة فيما سبق إلا أنه نظرا لأهميتها وطرافتها نثبتها بكاملها يقول(114) :

روع بالي وهاج بلبالي ... وسامني الثكل بعد إقبال
ذخيرتي حين خانني زمني ... وعدتي في اشتداد أهوال
حفرت في داري الضريح لها ... تعللا بالمحال في الحال
وغبطة توهم المقام معي ... وكيف لي بعدها بإمهال
سقى الحيا قبرك الغريب ولا ... زال مناخا لكل هطال
قد كنت مالي لما اقتضى زمني ... ذهاب مالي، وكنت آمالي
أما وقد غاب في تراب سلا ... وجهك عني فلست بالسالي
والله حزني لا كان بعد على ... ذاك الشباب الجديد البالي
فانتظريني فالشوق يقلقني ... ويقتضي سرعتي وإعجالي
ومهدي لي لديك مضطجعا ... فعن قريب يكون ترحالي
واسمك مقلوبه يبين لي ... مآل أمري في معرض الفال

---

(112) نفسه 7 : 8 ب — 9 أ.

(113) مذكرات النميري 483 ورقات 29 ب، 30 أ، 45 أ، النسخة المرقونة ص : 124 / 126، 153 مذكرات 1734 ورقات 26 ب المرقونة ص : 160.

(114) نفاضة الجراب ص : 205 من الجزء المطبوع.

فهو شبيه في تأثره وحزنه بابن رشيد حين فقد ابنه محمدا بغرناطة والنص ليس من موضوعنا، إذ لم يرد ضمن الرحلة[115]، إلا أنه يكفينا من هذه القصيدة التي تعد قمة في التعبير الرائع والاحساس المرهف قوله :

وتالله ما لي بعد عيشك لـذة   ولا راقنـي مـرأى لعينـي رائـق

وقوله :

فأين التفت فالشخص للعين ماثل   وان استمع فالصوت للأذن طارق

وبذلك يشبه ابن الرومي في اللوعة والحزن وجمال الشعر في رثاء ابنه الأوسط.

الاخوانيات

تضم الرحلات قدرا مهما من الشعر، يمكننا ضمه إلى الاخوانيات[116]، وهو ما تبادله الأصدقاء والأصحاب في مناسبات التوديع، والتهنئة، والاتحاف، وما إلى ذلك مما يكون عاملا في تمتين علاقة الصداقة والود، ومجالا للافصاح عن حرارة العواطف وتأجج المشاعر، وصدق الأحاسيس.

وتحتضن رحلة ابن رشيد على الخصوص نماذج كثيرة لهذا اللون الشعري، فبإلقاء نظرة على الرحلة نتبين متانة الروابط التي كانت تجمع ابن رشيد بغيره من الأعلام الذين احتفل بهم في هذه الرحلة، بل إن الكثير منهم صار جزءا منه بدءاً من رفيقه في وجهته الحجازية ابن الحكيم، إلى الذين أخذ عنهم أو صاحبهم بتونس خاصة كابن حبيش، وأبي العباس الكتاني، وأبي الفضل التجاني، وابن رزين، وغيرهم.

وإذا كان الأول قد رافقه في الرحلة وانسجم معه وكانت بينهما «معاهدة ومعاقدة»[117]، أعطت الحق لابن الحكيم في التحدث باسمهما معاً فعرفا بذلك

---

(115) الاحاطة 3 : 141.

(116) يرجع إلى :
- رحلة العبدري ص : 72، 106.
- مذكرات التميري 1734 ورقة 1 أ، 2 أ، ص : 18 / 28 من النسخة المرقونة.
- نفاضة الجراب ص : 62، 76، 129، 132، 136.
- التعريف بابن خلدون ص : 28، 209.

(117) رحلة ابن رشيد 7 : 52 ب

وخوطبا مقترنين شعرا ونثرا، وقرآ معا، وحصلا على الاجازة معا... بل ناب كل منهما عن صاحبه فحصل ابن الحكيم على إجازات بالحجاز لصديقه الذي تأخر عنه، ودون ابن رشيد من جانبه السماعات والأشعار التي خوطب بها صاحبه ابن الحكيم وكأنها تعنيه هو أيضا(118).

فإن أبا بكر بن حبيش نال منزلة خاصة في نفس ابن رشيد أيضا، لأنه لقيه بتونس في الورود والصدور، «بكل فن يونس» على حد تعبيره، فانتزع هذا الحدب والعطف من ابن رشيد أبياتا في شكره والثناء عليه، كتب بها إليه يستدعي أنسه، ويحرك نفسه الكريمة، ويشكره على ما صدر عنه من بر واحتفاء، ومما جاء فيها قوله(119) : (الطويل)

وصلت أبا بكر غريبا لتونسا ... فأقررت عينا بالقدوم لتونسا
وقابلني منك القبول تفضلا ... فأنسيتني ذكر اغترابي مؤنسا
وقد كان لي ليل من الوحش حالك ... فَمُذْ لاح صبح الانس منك، تنفسا
فشكر أبي بكر علي فريضة ... أؤديه ما لاح الصباح أو المسا

وهي قصيدة في خمسة عشر بيتا، وكان ابن حبيش قد ألزم نفسه في ذلك الوقت بالا ينظم بيت شعر إلا في توحيد الله تعالى، لذلك أجاب ابن رشيد أبو محمد عبد الواحد بن محمد بن مبارك نيابة عن شيخه ابن حبيش يقول ابن مبارك مخاطبا ابن رشيد في قصيده من خمسة عشر بيتا أيضا(120) :

وردت فأوردت المنى ما تبجسا ... لديك من الفضل الذي خل مؤنسا
ابنت لنا عن مغرب عاد مشرقا ... بما عاد من شمس اعتلائك مشمسا
حوت سبتة في الفضل سبقا لأن رمت ... بسهمك أغراض الكمال مقرطسا
وصارت رياضا كلها لأن اغتدت ... لغصن المعالي منك والعلوم مغرسا
فيا ابن رشيد ذا الفخار محمدا ... وباسمك أضحى الوصف منك مجنسا
لقد طابق اسما منك معنى حويته ... كما طابق الروض الشذى المتنفسا
فحز من ودادي كنزه غير باحث ... عليه، ومن شكري البناء المؤسسا

(118) انظر مثلا مخاطبات ابن الحكيم لابن حبيش في رحلة ابن رشيد 2 : 5 ب — 7 أ النسخة المطبوعة ص : 111 — 116.

(119) رحلة ابن رشيد 2 : 5أ ص : 109 من طبعة ابن الخوجة وأيضا الرحلة المخطوطة 6 : 44 ب.

(120) رحلة ابن رشيد 2 : 5 أ ب ص : 110 / 111 من النسخة المطبوعة.

وهما قصيدتان على مستوى حميد في المضمون الانساني، والعواطف الصادقة، إلى جانب الاجادة فيما اعتمدنا عليه من صور واستعارات بليغة.

أما أبو العباس الكتاني فإن تكرر لقاء ابن رشيد له في مجلس أبي العباس بن الغماز للرواية والأخذ عن شيخهما معا، قرب بين ميولهما وعواطفهما فتكونت بينهما صداقة متينة، وزمالة علمية أفصحت عنها المطارحات الشعرية التي تبادلاها، وهكذا خاطب ابن رشيد صاحبه بقوله[121] :

سمت بابي العباس أفعاله العلا إلى حيث لا تسمو النجوم الشوارك
فكم من يد بيضاء أولى تتابعا تفصر عمرا عن مداها المدارك
لقد رمت وردا لديكم ومصدرا كا غيركم ضاقت عليه المسالك
نقر لكم بالفرق حقا وحسبنا بكم سادة فضلا فنحن الممالك

فيجيبه صاحبه أبو العباس الكتاني بعشرة أبيات معترفا أثناءها بتفوق ابن رشيد في مجال الشعر والأدب والعلم، فمما جاء في هذه القصيدة قوله[122] :

ترفق أبا عبد الاله فإننا لما قد حويتم من فعال صعالك
ألست الذي برزت علما وسؤددا فمالك في التحصيل مثل مشارك
ففي الحفل سحبان وقس خطابة وفي النظم حسان وفي الفقه مالك

وهكذا يستمر في تعداد فحول العلم والشعر والخطابة الذين لا يقل ابن رشيد عن مستواهم ومقدرتهم في مجالاتهم المختلفة لذا يبادر الكتاني إلى القول :

تكلفني نظم القريض إجابة ايشبهكم مثلي بليد وتارك
فمهلا أبا عبد الاله فإنني لما قد علمتم من حديثي هالك

وأهم هؤلاء الذين تجاوب معهم ابن رشيد، هو صاحبه أبو الفضل التجاني كما سبق الذكر، فقد لازمه أكثر من غيره وجالسه في نزه ومجالس أدبية كثيرة، وخصه بما يقرب من مائة صفحة من رحلته، مما جعل كلا منهما ذا مكانة خاصة في نفس صاحبه، لذلك يجد ابن رشيد الحرج في نفسه إذا تغيب عن زيارة صاحبه يوما واحدا، فلنسمع إلى ما مهد به لبيتي اعتذار يقول : «وفي أثناء إقامتنا بحضرة تونس

(121) رحلة ابن رشيد 6 : 94 أ.

(122) نفسه 6 : 94 أ.

مرض صاحبنا واصل الغاية أبو الفضل مرضا شديدا، ثم تداركه الله وفرج عنه فكنت أتردد إلى زيارته فغبت عنه يوما، فلما عدت لعيادته عتب علي مغيبي فأنشدته في ذلك[123] :

أبا الفضل عذرا عن مغيبي بالامس   فإن لم أعد جسما فقد عدت بالنفس
وما غبت إلا أن عيني لم تطق   مشاهدة عدوى الكسوف على الشمس

ويبدو أن ابن رشيد قد انسجم مع كل من التقى بهم في رحلته عامة وبتونس على الخصوص حيث اتيح له الاجتماع بأعلام كثيرين في نزه ومسامرات أدبية، ففي نزهة جمعته بفضلاء الأدباء[124]، وكانت هي نزهته الأولى بتونس، تسابق الحاضرون إلى إنشاد الشعر، وأسهم ابن رشيد بقصيدة تظهر ذلك التجاوب وجو الأدب والصفاء الذي كان يطبع هذه المجالس ويهيمن عليها.

ومن الأدباء الذين انشدوا أشعارا في هذه النزهة ابن الحكيم، وأبو العباس الأشعري، وأحمد المرسي، وأبو محمد عبد الواحد ابن مبارك.

ومما جاء في القصيدة التي خاطب بها ابن رشيد صاحبه ابن مبارك قوله[125] :

أبا محمد المحمود يا ابن مبارك   سبقت إلى التأنيس مبتدرا
أريتموني غرسا من نظامكم   تجلو بدائع سحر تسحر الفكرا
ومن لمثلي بها بالنفس لو بذلت   بضائع الشعر لا تكفي لها مهرا
لئن تقاصر وصفي للذي جمعت   للشغل بالشكر عنه أوجب القصرا

ويشير إلى ما أحس به من المتعة في هذه النزهة :

أعظم بها ساعة للأنس قد قصرت   ياحسنها وعليها الحسن قد قصرا
ما ضرها قصر والحسن طولها   فيا لها لحظة اعتدها عمرا
أفديه من زمن قد راق مختصرا   ولم يزل زمن الافراح مختصرا

---

(123) رحلة ابن رشيد 7 : 24 أ، سبك المقال ص : 181.

(124) نفسه 2 : 60 أص : 385 من النسخة المطبوعة.

(125) نفسه 2 : 61 أ، ص : 389 من المطبوع.

فراجعه ابن مبارك بقصيدة قدم لها برسالة نثرية تفنن فيها وتأنق، مما جاء في هذه القصيدة قوله متحدثا عن شخص ابن رشيد، وتقديره لما يتحلى به من صفات حاز بها المجد والسؤدد[126] :

محمد بن رشيد من حوى كرما   واسما حميدين طابا الخبر والخبرا
روض ومن يجتن أو يجتل ثمر الـ   ـآداب والعلم يؤت الزهر والثمرا
أضحت أماني منه في الأمان من أن   ترى بما قد صفا من وردها كدرا
يا سيداً شمل الأفهام سؤدده   بشملة العجز عن أن تدرك الأثرا
يكفي ذوي المجد إذ لم يبلغوا أثرا   من شأو مجدك أن منه اقتنوا أثرا

وفي مذكرات النميري أيضا، نصوص شعرية تكشف عن هذا المنحى الانساني والأخوي وتظهر التجاوب الذي كان يطبع علاقة الأدباء فيما بينهم، فمن ذلك تلك المقطوعة التي استقبل بها النميري بفاس من طرف ابن رضوان مرحبا بحضوره ومهنئا له بسلامة العودة من تلمسان يقول ابن رضوان[127] :

قدومك أم ثغر المنى وهو باسم   وعودك أم غيث الرضا وهو ساجم
أما والذي أحيا بك الفضل والعلا   وما حزت من مجد بنته المكارم
لقد كان يستهوي السرور تثبتي   على حين وافى من جلالك قادم
وقربك أقصى ما أؤمله وهل   لقربك في قلب المحب مقاوم
بقيتم كما ترضون ما همع الحيا   وما غردت فوق الغصون الحمائم

وأطرف ما أثبته النميري في مذكراته، خمسة أبيات أنشده إياها أبو عبد الله بن أبي مدين، وهي أبيات كتبت بها امرأة من فاس إلى أبي الحسن الجكيك تستدعيه إلى مجلس أدبها. تقول في مطلعها[128] :

تفضل يا أبا حسن علينا   وصل لازلت يصحبك الوفاء

ومن هذه الأشعار التي لها الطابع العاطفي الانساني، تلك القصيدة التي عبر فيها ابن رشيد عن عاطفة الشوق إلى أبنائه بعد أن وافاه بتونس كتابهم الذي بعثوه

---

(126) رحلة ابن رشيد 2 : 61 ب ص : 390 من النسخة المطبوعة.

(127) مذكرات النميري 483 ورقة 23 أ، ص : 111.

(128) نفسه 1734 ورقة 4 ب ص : 26 من النسخة المرقونة.

من سبتة، فأثار هذا الكتاب لديه كوامن الشوق، وحرك تلك العاطفة الأبوية لدى ابن رشيد، وكان قد مضى على رحيله وفراقه لأبنائه أكثر من ثلاث سنوات يقول(129) :

أتـاني كتـاب فـراخ صغـار فعـذب بـالي وأتـعب فكـري
فكـدت أطير إشتياقـا ولكـن عدتنـي عـواد رمتنـي بنكـر
فقصت جناحي وحصت ريـاشي فمـا أستطيـع نهوضا لوكـر
وكيـف السبيـل للقياهـم وعـرب ببر وعجـم ببحـر
فبا لله حسبي ونعم الوكيـل ففـي يـده كل نفـع وضر
رضيت بحالي فمـا لي اعتـراض وأسلمت وجهي وفوضت أمري
إذا أشتـد أمـر تـلاه انفـراج فـيسران لا يغلبـان بـعسر
فيـا رب جمع بـأهلي شملي . وسهـل علي بقـرب ويسر.

واستبدت عاطفة الشوق بالعبدري أيضا وهو يبعث رسالته الشعرية من القيروان إلى ابنه الذي خلفه في حاحة وهي قصيدة طويلة لم يكتف العبدري فيها بالتعبير عن عاطفته وإحساسه ولكنه ضمنها كذلك نصائحه لأبنه ووصيته له، فكانت هذه القصيدة أخصب وأفسح في المجال الفكري والانساني معا، ومن أبياتها العاطفية قوله(130) :

وقـد فتت نـواكم في فـؤادي وأشجت بـالأسى قلبـي الخلي
وأبـدلت الامـاقي عـن كراهـا دموعـا فيضهـا مثـل الاتي
ولـولا أن حكـم الـبين حتم يمر على المطـاوع والأبي
لعالجنـي الأسى بـقضاء نحبـي ووافتني النـوى بـردى وحـي

الغزل :

كان للفقهاء والمحدثين والعلماء في هذه الفترة موقف معين من هذا الغرض الشعري، وهو موقف يتسم بالعزوف عن النظم في هذا الغرض، والنفور من الاشتغال به رواية وإنشاداً، فإن صدر عن بعضهم في مرحلة الصبا ونزوة الشباب

(129) رحلة ابن رشيد 7 : 50 ب.

(130) الرحلة المغربية ص : 72.

ونزقه، لايفتأ يستغفر الله ما بقي من عمره على ما فرط منه فيما لا ينفع كما يبدو مما يمهد به عادة من يقدم على روايته أو إنشاده، يقول ابن الخطيب في تقديم ما صدر عنه في هذا الغرض : «ومن أغراض النسيب قولي في الأوليات والله ولي المغفرة»(131)، ويستعمل ابن رشيد أيضا أسلوبا مماثلا في تقديم بعض ما رواه من هذا الشعر حين يقول مثلا : «وله عفا الله عنه يتغزل»(132) وكثيرا ما انصاع الشعراء في هذه الفترة لهذا السلوك الاخلاقي والموقف الفقهي فتنكبوا عن هذا الغرض، بل وجدنا من يسأل عن الحكم الشرعي فيما يسلكه الشعراء الغزلون كما يظهر مما أورده صاحب المعيار من أن الرحالة ابن رشيد سئل عن الشاعر هل له رخصة في وصف الخدود والقدود والنهود أم لا ؟ فأجاب اختلف العلماء في الرخصة للشاعر في وصف الخدود والقدود فمن محرم ومن مبيح»(133)

ولعل هذا الموقف كان له أثره على الرحالين فيما دونوه في رحلاتهم من أشعار، إذ لم ترد نماذج من الغزل في هذه الرحلات بالكثرة التي وردت بها أغراض أخرى كالمديح النبوي، والتصوف...

فالعبدري بالرغم مما تتضمنهُ رحلته من أشعار كثيرة في أغراض مختلفة(134) إلا أنه يحرص على ألا يورد شعرا غزليا.

وابن رشيد لا يمثل هذا الغرض في رحلته إلا حيزا ضئيلا جدا بالقياس إلى ما رواه من أشعار في أغراض أخرى، ومع ذلك فيلتمس لتضمينه رحلته هذه النماذج الغزلية تبريرا بمواقف الصحابة والعلماء وأفعالهم، مما يدل على قوة التيار المناهض للغزل خاصة في أوساط الفقهاء والعلماء الورعين، يقول ابن رشيد عما ضمنه رحلته «وكذلك وقع فيها من الأشعار الغزلية والأوصاف التي هي مستعملة عند أهل الطريقة الأدبية ما لعله قد يأبى كتبه أو إنشاده أهل الورع»(135)، لكنه ينبه إلى أنه بفعله هذا لم ينحرف عن طريقة الائمة والسلف الصالح «وقد أتى بمثل ما

(131) الاحاطة 4 : 483.

(132) رحلة ابن رشيد 2 : 59 ب النسخة المطبوعة ص : 382

(133) المعيار 11 : 48.

(134) تتضمن الرحلة حوالي سبعمائة وألف بيت.

(135) رحلة ابن رشيد 7 : 64 ب.

أتيت به من أبيات الغزل الغربية وألفاظ التورية العجيبة غير واحد من أئمتنا وشيوخنا، وليسوا مدفوعين عن باب الورع من المتقدمين والمتأخرين، وكتبهم وفوائدهم مملوءة بذلك وفيهم الأسوة وبهم القدرة»[136].

ومع هذا الاستنكاف والرفض لهذا الشعر والانشاد الخجول له والرواية المحرجة، فالرحلات تحتضن — في أغلبها — نماذج كثيرة لهذا الغرض، ففي رحلة ابن رشيد[137] مثلا نماذج غزلية لأبي بكر ابن حبيش، وأبي الفضل التجاني، وأبي حيان الغرناطي، وابن أبي تميم الحميري، والقاضي النعماني، وابن رزين...وغيرهم.

وفي رحلة التجيبي[138] أشعار غزلية لأبي الطيب الحلاوي، وأبي نصر محمد بن الحكم الطبري، وأبي حيان الجياني، والقاضي النعماني..

وفي مذكرات النميري[139] أشعار غزلية أيضا لأبي سعيد بن قريعات، ولأبي القاسم ابن رضوان، وأبي إسحاق الساحلي.

ونكتفي في هذا المقام بأبيات من قصيدة لأبي الفضل التجاني رواها عنه ابن رشيد في رحلته، جاء في هذه القصيدة الطويلة قوله[140] :

سقى الله هاتيك المعاهد والربى   عهادا يحييها فتحيا الجنادل
ليسق الحيا وادي العقيق وادمعي   مذاب عقيق فوق خدي سائل
وتسحب في نجد وغور ذيولها   سحاب وفي الأجفان سحب هواطل

ويسلك نهج الأقدمين فيسعى إلى محبوبته على طريقة العاشقين ويرحل من أجل الوصال فيستسهل الصعاب للبلوغ إلى هذا الهدف يقول :

وراحلتي قد أضعف السير والسرى   قواها، وعن جهد تكل الرواحل

---

(136) نفس المصدر ونفس الصفحة.

(137) انظر مثلا من رحلة ابن رشيد 2، 7 أ، 58 أ، 3 : 53 أ، 5 : 75. 6 : 50 / 52، 66، 7 : 4، 6، 14، 18

(138) انظر من رحلة التجيبي صفحات 77؛ 78؛ 141؛ 405.

(139) انظر من المذكرات 1734 ورقة 30 أ، 6 ب ص : 50؛ 76 من النسخة المرقونة.
483 ورقة 24 أ، 42 أ، 3 ب ص : 113، 135؛ 175 من النسخة المرقونة.

(140) رحلة ابن رشيد 7 : 5 ب — 6 أ.

تحمل جسمي وهي في ضعف ضعفه كما حملت جسم الحسام الحمائل
إلى أن طرقت الحي من آل عامر ولا عامر إلا الجياد الصواهل

الوصف :

تكاد كل الأغراض الشعرية تنهل في صور التعبير والأخيلة من الوصف وتعتمد عليه، ومن هنا يرى ابن رشيق بأن الشعر إلا أقله راجع إلى باب الوصف.

لكننا هنا نقصد الوصف الخالص كوصف الطبيعة مثلا، حيث نجد في الرحلات قدرا مهما من الأشعار التي اهتمت بوصف بعض مظاهر الطبيعة من طيور وأنهار وأمطار ورياض وما إلى ذلك.

وهكذا أورد ابن رشيد في رحلته أمثلة كثيرة لهذا الغرض نكتفي منها بتلك الأشعار التي أوحى بها الجو المرح الذي كانت تتيحه فرص النزه الكثيرة.

فلقد حضر نزهة في أول قدومه على تونس جمعته بنخبة طيبة من الأدباء تسابقوا جميعهم إلى الانشاد، وتنافسو في الاجادة في الشعر الوصفي، وكان ابن رشيد أول المسارعين إلى النظم. ويحسن أن ننقل العرض الذي كتبه ابن رشيد عما دار في هذه النزهة(141) يقول :

«وكان بين أيدينا خسة بديعة تفور بالماء، وتثير بحسنها أفكار الألباء فبدرت فقلت للفقيه السري أبي محمد بن مبارك أجز يا أبا محمد :

وفائرة سلت من الماء مرهفا

فأجاز وزاد، وقال فأجاد :

وما عرضته، بل أقامت ذبابه
رأت زردا حاكته أيدي الصبا لها فأهوت بذاك النصل تبغي ضرابه

وسألت الفقيه المحدث أبا العباس الأشعري إجازته فقال ناسجا

على ذلك المنوال وواسجا في ذلك المجال : فراعت بذاك السيل منه حبابه
فسال لجينا ذاب بعد جموده وما غير ترويح الحسام اذابه

---

(141) رحلة ابن رشيد 2 : 60 أ ب ص : 385 من النسخة المطبوعة.

وأجزته أنا لنفسي، متشبها بأبناء جنسي، وجاريا في مضمارهم، ومهتديا بأنوارهم، ومقتديا بآثارهم، فقلت :

يروق بمرآه وليس يروعنا

ولكن تروع الحادثات بروقه فتغرب من خوف فيبدو سرورنا»

ويسترسل في عرض المجيزين من الذين جمعتهم هذه النزهة معه، كأبي العباس المرسي، وأبي محمد ابن مبارك، والوزير أبي عبد الله ابن الحكيم، ويتحدث ابن رشيد في مناسبات أخرى عن نزه[142] حضرها بتونس في صدوره من الحجاز جمعته أيضا بطائفة من الأصحاب الأدباء في مقدمتهم صاحبه أبو الفضل التجاني، فتناشدوا كذلك الأشعار وجرت بينهم «مشاعرات ومذاكرات أرق من النسيم وأشرق من الوجه الوسيم»[143] كما جاء في وصف ابن رشيد لاحدى هذه النزه. ومن اسهام ابن رشيد في هذه النزهة ما قاله في وصف نهر[144] :

ونهر كذوب اللجين وشاه نضار ذكا بكف النسيم

وليس ممكنا الالمام بكل أشعار الوصف في الرحلات جميعها، فذلك قد يدعونا إلى استعراض نماذج كثيرة من شعر هذا الغرض في رحلة العبدري[145]، ورحلة التجيبي[146]، ورحلتي النميري....[147]

وأهم تلك الأشعار ما أثبته النميري في مذكراته لأبي العباس أحمد بن أبي الشرف الحسيني من أوصاف للحرب، والمساء، والمدامة ومدرسة أبي الحسن بسبتة، والرياض، ونكتفي بأبيات وصف فيها الحسيني شمسات مدرسة أبي الحسن بسبتة يقول فيها[148] :

إن الشموس من الشمسات للناظر في حسنهن البديع الرائق الناضر

(142) نفسه 7 : 38 ب. 39 أ ب.

(143) نفسه 7 : 38 ب.

(144) نفسه.

(145) انظر مثلا ص 112 / 113 /206 ـــ 253.

(146) انظر مثلا ص : 126 / 127 / 228.

(147) انظر مثلا المذكرات 483 ورقات 32 أ / 33 أ ـــ 1734 ورقة 40 أ.

(148) مذكرات النميري 483 ورقة 32 ب ـــ 33 أ ص : 7 من النسخة المرقونة.

أضأن حتى ترى ما خلفهن فما يكاد يحجب عنك الباطن الظاهر
وليس تكتم سر الحسن ما كتمت نمت به فهي تبدي حسنها الزاهر
كأنما هن روضات أزاهرها منوعات تروق القلب والناظر
من أصفر فاقع وأبيض يقق أو أحمر ناصع أو أخضر ناضر
أشاد بنيتها للذكر بعمرها على الملوك علي دام من آمر

ونقف أيضا مع تلك اللوحات الشعرية التي ضمنها النميري رحلته فيض العباب، وتتمثل فيما وصف به الشعراء موكب أبي عنان وهو منطلق من تازا صوب قسنطينة، فتبارى في هذا الوصف كل من النميري وابن مصادف، وابن أبي شامة، وابن النعمان...

فقال الفقيه الكاتب أبو الحسن بن مصادف في وصف هذا الموكب(149) :

هدرت دم العشاق بين قبابها فحذار من تلك الظباء حذار

وأنشد أبو العباس أحمد بن أبي شامة متمما الوصف :

يبدون كالازهار راقت منظرا وخدورهن تمائم الأزهار

وأكمل أبو العباس بن النعمان الصورة بقوله :

والعابثات خلال ميدان الهوى بفوارس الألباب والأفكار

وختم هذا الوصف صاحب الرحلة ابن الحاج النميري فقال :

والظاعنات قدودهن بني الوغى بين الصوارم والقنا الخطار
فكأنما الأجفان أجفان الظبا وكأنما الأشفار حد شفار

الاجازة وطلب الحديث :

ومن الأشعار الكثيرة التي لا تكاد تخلو منها رحلة(150) في هذه الفترة، تلك الأبيات التي تضمنت النطق بالاجازة، أو أوصت بطلب الحديث، ودعت إلى الاهتمام به، وغالبا ما اقترن الموضوعان معا في مقطوعة واحدة.

---

(149) فيض العباب ص : 99 من المخطوط النسخة المطبوعة ص : 74.

(150) يرجع مثلا إلى :
ـــ رحلة ابن رشيد 2 : 22 ب، 47 ب، 3 : 73 ب، 95 ب.
ـــ رحلة العبدري ص : 111، 251، 255، 272. ⇐

ونكتفي في هذا المقام، بالاشارة إلى الأبيات التي أجاز بها الضياء أبو الهدى السبتي كلا من ابن رشد والتجيبي، تلك التي يقول في مطلعها[151] :

أجزت لمن سمى بها ما يجوز لي   روايته بالشرط في كل مسند

كما نكتفي أيضا بإيراد الأبيات التي حث فيها أبو القاسم ابن عساكر على طلب الحديث ووصف رجاله، ولقد أثبت هذه الأبيات كل من ابن رشيد والنميري في رحلتيهما، جاء فيها قوله[152] :

واظب على جمع الحديث وكتبه   واجهد على تصحيحه في كتبه
واسمعه من أربابه نقلا كما   سمعوه عن أشياخهم تسعد به
واعرف ثقات رواته من غيرهم   كي ما تميز صدقه من كذبه
فهو المفسر للكتاب وإنما   نطق النبي لنا به عن ربه

← — رحلة التجيبي ص : 76 / 77.
— مذكرات النميري 483 ورقات 1 أ، 7 أ، 7 ب، 8 ب.

(151) رحلة ابن رشيد 3 : 95 ب، مستفاد الرحلة ص : 91.
تقدمت الأبيات في دراستنا لرحلة التجيبي.

(152) رحلة ابن رشيد 2 : 22 ب، ص : 188 من النسخة المطبوعة.
مذكرات النميري 483 ورقة 7 أ ص : 187 من النسخة المرقونة.

2 ــ نصوص النثر في الرحلات :

وإذا عدنا إلى الرحلات لنتعرف على النصوص النثرية التي أوردتها، فإننا ــ كما تبينا من قبل ــ لا نظفر بالكثير في هذا الباب على عكس ما لاحظناه في الجانب الشعري، وقد يكون السبب كامنا في أن اهتمام أغلب الرحالين ــ وخاصة الذين توجهوا إلى المشرق - ينصب على رواية مسلسلات الحديث، والحصول على أسانيد عالية، ورواية النصوص الشعرية الطريفة لأنها هي النصوص التي قد يجدون المتعة في إثباتها ونقلها.

ولعل لهذا السبب لا نجد في الجزء الباقي من مستفاد الرحلة أي نص أدبي يمكن أن نعده نموذجا للنثر، بينما لا نظفر في الرحلة المغربية إلا بنص يتيم نقله العبدري مما كتبه ابن جبيش في إجازة أبي العباس أحمد بن ميمون الأشعري، جاء في هذه الاجازة : «غير أني أقول واحدة، ما سريرتي لها جاحدة، واصرح بمقال، لا يسعني كتمه بحال، والله ما أنا للاجازة بأهل، ولامرامها لدي بسهل، إذ من شرط المجيز أن يعد في من كمل، ويعد العلم والعمل، اللهم غفرا، كيف ينيل من عدم وافر، أو يجيز من أصبح صِدره من المعارف قفرا، وصحيفته من الصالحات صفرا..»(153).

إلى آخر هذه الاجازة التي مال فيها ابن حبيش إلى تنميق أسلوبه بالسجع دون مبالغة في باقي أوجه الصناعة اللفظية

ولعل أهم الرحلات التي تتضمن نصوصا نثرية من رسائل وإجازات هي رحلة ابن رشيد، ومذكرات التميري، وفيض العباب، ونفاضة الجراب. وهكذا تحتضن ملء

(153) الرحلة المغربية ص : 269.

العيبة نصوصا نثرية مهمة تتمثل في المراسلات، والاجازات، والمسلسلات الحديثية والصوفية، أغلب هذه النصوص مما استفاده بتونس في الورود والصدور معا

ولعل أهم المراسلات التي أثبتها ابن رشيد في رحلته تلك التي تبادلها مع أبي محمد بن مبارك، وابن رزين، وأبي الفضل التجاني، ورفيقه ابن الحكيم.

فمن هذه الرسائل ما كتبه أبو محمد بن مبارك جوابا على رسالة تسلمها من ابن رشيد، إلا أن ما كتبه ابن رشيد يعتبر ضائعا لبتر استهدف ورقة المخطوط، فلم تسلم من الرسالة إلا الأبيات التي ذيلت بها، سبق إيراد بعضها في الحديث عن الشعر الوارد في الرحلات يقول ابن مبارك في رسالته الجوابية : «...فعذرا عذرا من التقصير الواضح، وسترا سترا لما اشتملت به من العيب الفاضح، ولعلها على تعريها من أثواب الجمال، تحظى بنيل القبول منك والاقبال، وإن لم يكن لها لولا قصد ذلك الجلال، غير لفظ الاطراح ولحظ الاهمال»(154)

وكان ابن رشيد قد طلب منه أن يقيد له شيئا من كلامه ويتحفه بما نظمه من شعر، فكتب له معلنا موافقته على طلبه وتهيبه من عرض شعره وإنتاجه عليه، جاء في آخر رسالة ابن مبارك الجوابية : «لم أكن مبدي السهى مع القمر، ولا مهدى الأصداف إلى الدرر، ولكن لجفن المعارف وهو النافذ إغضاء، ولشخص العوارف وهو الناقد إرضاء، فإن جلبت سقطا موضوعا فإني عليه محمول، وإن لم أكن فيه مطبوعاً فتغاضيكم عنه المسؤول. أبقاكم الله لأنواء السماح سماء، ولأنوار المعارف والعلوم سناء، إنه سميع مجيب»(155)

ونرى من خلال النموذجين أن ابن مبارك مولع بالبديع مغرم بالصناعة اللفظية والتفنن في التعبير، باستخدام السجع والجناس والترصيع، ومراعاة التوازن بين الجمل، والحرص على استغلال معلومات ومصطلحات المنطق والأصول.

أما ابن رزين فقد كان له مع تلميذه ابن رشيد مراسلات أيضا، بدا فيها التقدير المتبادل، لمكانة ابن رشيد عند شيخه، ومستواه الرفيع، وهكذا يبدي إعجابه به في رسالته إليه، فيثني على بلاغته التي لا تجارى، بل يقف دونها الأدباء الفحول من مستوى لبيد وطرفة وامرىء القيس وزهير والخنساء والبحتري والمتنبي وأبي فراس والجاحظ... وغيرهم من جهابذة الشعر والنثر.

---

(154) رحلة ابن رشيد 2 : 61 ص : 390 من النسخة المطبوعة.

(155) نفسه 2 : 62 أ ص : 392 من النسخة المطبوعة.

فيجيبه ابن رشيد برسالة يشكر فيها فضله وحدبه عليه، ويظهر فيها إعجابه بأسلوبه الرفيع وكلامه الفصيح «هبت نسمة حجازية النشر، ودبت نفحة سامية النجر، عجيبة السبب متساوية النسب، يحيي الانوف طيبها، ويحيي النفوس طبيبها، فالند يستمرئها والعبير يستجديها»(156).

وأهم نماذج المراسلات تلك التي أثمرتها علاقته بصاحبه أبي الفضل التجاني وصداقته له وانسجامه معه، فلقد أثبت ابن رشيد في رحلته أربعا من هذه الرسائل كتبت متسلسلة ومتلاحقة. وسبب هذه الرسائل الأدبية الاخوانية الرفيعة بيتان(157) كتبهما ابن رشيد في الاعتذار عن تخلفه عن زيارة صاحبه التجاني في أزمته المرضية، لذلك لما أبل التجاني من مرضه كتب إليه رسالة طويلة تقع في ثلاث صفحات، فأجابه ابن رشيد برسالة أطول منها قليلا. وكان للتجاني رد مماثل، إلى أن ختم ابن رشيد هذه المراسلات المتسلسلة برده على الرد السابق، ومما يجدر ذكره أن الرسائل الأربع على مستوى عال من البلاغة والاسلوب الادبي الرائع، لحرص الكاتبين على التانق والتنميق والتزامهما باستعمال البديع من سجع وجناس وطباق، وإكثارهما من التضمين والاقتباس، واستغلالهما لما يحسنان من علوم وفنون، فبدا من هذه الرسائل مستوى الرجلين معا. وجاء في الرسالة الختامية الطويلة، ما كتبه ابن رشيد في وصف بلاغة صاحبه إذ يقول «فالبلغاء والفصحاء والشعراء والخطباء وجملة الكتاب وحملة الأداب أعجزهم فصل خطابك، وأعجبهم فضل مقالك وخطابك، فكل دهش بما رآه، وشده لما عراه، فقس أياد، يلقي إليك مقاليد التسليم بكل ناد»(158)، ولم تحد الرسائل الأربع عن هذا الأسلوب، فإلى جانب عدم نزولها عن المستوى الأدبي الرفيع، فإنها أبرزت ما يكنه كل من الرجلين لصاحبه من عواطف أخوية ومشاعر طيبة، مما يدرجها ضمن الاخوانيات

ومن النصوص أيضا تلك الرسالة التي رواها ابن رشيد بمصر عن أبي الفضل الدميري وهي التي كتبها نصارى الشام إلى عمر بن الخطاب حين أبرم الصلح معهم، يذكرونه فيها بما التزم نحوهم من الأمان للانفس والأهل والأموال، ويتعهدون بتنفيذ

(156) رحلة ابن رشيد 6 : 80 ب.

(157) نفسه 7 : 24 أ تقدم البيتان في شعر الاخوانيات.

(158) رحلة ابن رشيد 7 : 29ب.

ما اشترط عليهم في نص المعاهدة(159). وفي الرحلة أيضا رسالة ابن الحكيم التي بعثها إلى رفيقه ابن رشيد من الأندلس ملتمسا منه زيارته حين العودة إلى بلده، فمما جاء فيها قوله «لئن لم تصل وتجعل طريقك إلى سبتة على هذا الموضع لأهلكن أسفا، فبالله العظيم لا تخيب ظني في رؤيتك»(160)

وأورد النميري في مذكراته عشر رسائل سبق أن أشرنا إلى بعضها في عرضنا لمحتوى المذكرات، لذلك سنكتفي هنا بالاشارة إلى أسماء الكتاب الذين لم نشر إلى رسائلهم من قبل كابن رضوان وابن الخطيب، وأبي عبد الله المستحيي، وابن ياليل، وابن الحاج النميري نفسه(161)

ولم يورد النميري في فيض العباب من الرسائل التي كتبها أثناء حركة أبي عنان غير ثلاث رسائل صدرت عنه في فتح قسنطينة، وفتح تونس، وحين وصول الموكب السلطاني إلى بلدة المسيلة في نهاية الحركة(162)، مشيرا إلى ضياع أصول الرسائل الأخرى التي كتبت لتسجل أهم الاحداث التي عرفتها الحركة(163).

وعلى العكس من ذلك حرص ابن الخطيب على تدوين كل الرسائل والنصوص التي لها علاقة برحلته في نفاضة الجراب، فلقد أشرنا من قبل إلى أن السفر الثاني فقط من النفاضة، يتضمن أكثر من أربعين رسالة في موضوعات مختلفة كالاخوانيات، والسعي إلى حل المشاكل، وقضاء الأغراض الشخصية وما إلى ذلك(164).

وتزخر رحلة ابن رشيد أيضا بنصوص الاجازات المختلفة، كتلك التي يجيز بها ابن خلفون الشيخ أبا إسحاق ابن الحاج، وقف عليها ابن رشيد بآخر سفر من كتابه «المنتقى في اسماء الائمة والمحدثين والرواة»(165).

---

(159) نفسه 3 : 104 أ ص : 407 من النسخة المطبوعة.

(160) نفسه 7 : 53 ب.

(161) مذكرات النميري 1734 ورقات 9 ب، 11 ب، 27 أ، 40 أ، 42 أ. صفحات النسخة المرقونة 36، 46، 137، 140، 164.

(162) فيض العباب ص : 169، 223، 328، النسخة المطبوعة ص : 136، 182، 273.

(163) نفسه ص : 197 الصفحة في المطبوع 160.

(164) انظر ما كتبناه عن محتوى النفاضة.

(165) رحلة ابن رشيد 2 : 12 ب ص : 143، من النسخة المطبوعة.

وكالاجازة التي حصل عليها ابن رشيد من أبي إسحاق بن حبي القرموني جاء في ديباجتها قوله : «الحمد لله والسلام على عباده، سألتني أيها السيد الجليل، والصاحب الخليل، والذي برز في ذكائه ونحوه على الخليل أن أجيزك وبنيك السعداء أقر الله بهم إنسان عينك، وعوضهم من الخير عنك بمشاهدة عينك، فحملتني وصل الله سعادتك، ويمن إبداءك وإعادتك، عبئا لا أنوء به، ولا أقدر على النهوض بسببه»(166) إلى آخر الاجازة، ومن هذا القبيل ما كتبه أبو بكر بن حبيش في جواب استجازة(167).

(166) نفسه 6 104

(167) نفسه 2 : 4 ب ص : 108 من المطبوع.

3 ـ النـقـد :

لا يمكننا تبين المضمون الأدبي والتعرف على مجالاته وجوانبه إلا بالاشارة إلى ما تمتلىء به الرحلات من نظرات نقدية، كالتصويبات والآراء والأحكام التي عبر عنها الرحالون وهم يستعرضون النماذج النثرية والشعرية. مع التنبيه إلى أننا لا نستطيع الالمام بكل الاشارات والنظرات النقدية في هذه العجالة، إذ مثل هذا الجانب وحده يستحق البحث والدراسة على حدة، لما تتوفر عليه الرحلات من رصيد نقدي مهم، فللعبدري في رحلته أكثر من خمسين توقفا نقديا، ولابن رشيد أكثر من هذا العدد بكثير.

وسنحاول الاقتراب من هذه الآراء النقدية المختلفة سواء ارتكزت في استخلاص أحكامها على الأساس الذوقي، أم اللغوي، أم البلاغي، أم العروضي.. وغير ذلك.

ونشير منذ البداية إلى أننا سنقصر اهتمامنا على النظرات النقدية التي صدرت عن الرحالين أنفسهم.

1 ـ النقد الذوقي :

وهو مما ارتكز عليه الرحالون فيما أصدروه من أحكام نقدية في رحلاتهم، إذ كثيرا ما كانوا يحتكمون إلى الذوق في تمييز الجيد من الرديء وفي تعاملهم مع النصوص المختلفة ودراستها. ونعتنا لمثل هذه الأحكام بالنقد الذوقي فيه الكثير من التجاوز، فلم يكن ذوقهم فطريا ساذجا، وإنما هو ينهل من ثقافتهم الموسوعية، فهو ذوق مثقف لا يمكنه أن يقبل إلا ما وافق قواعد اللغة والبلاغة، والعروض مثلا، ومن هنا فإننا نستشف من هذه الأحكام مستوى أصحابها.

وأهم ما يميز هذه الأحكام النقدية المرتكزة على الذوق أنها تأتي في الغالب موجزة تكتفي أحيانا بالاشارة الدالة واللمحة السريعة دون تعليل أو تحليل، ومن أمثلة هذه الأحكام الموجزة تعقيب ابن رشيد على بيتين لأبي محمد بن مبارك نظمهما في نزهة بتونس حضرها معه ابن رشيد و البيتان هما :

ودوح كساه الغيث خضراء سندس وأبدى بياض الزهر فيه عجابه
كأن سماء زهرها الزهر إنما بها لم يخف شيطان لهوي شهابه

فعقب ابن رشيد بقوله : «وهذا البيت الأخير فيه تأخر وتكلف ولو قال فحاكت سما لكان أقرب وأعرب»(168)

ويبدو الأساس الذوقي أيضا فيما علق به ابن رشيد على أبيات أبي بكر بن رفاعة حيث يقول : « وهذا من السهل البديع الممتنع الرفيع»(169)

وبمثل هذا التعليق ينظر إلى قول عمر الوراق السراج :

يا نازح الطيف مر نومي يعاودني فقد بكيت لفقد النازحين دما

لينتهي ابن رشيد إلى هذا الحكم «وهذا من النظم البديع والنسج الرقيق»(170)
ولقد أتت أحكامه في بعض الأحيان تميل إلى التفصيل والتعليل، وإن لم ينسق فيها مع التفريع والتحليل وذكر الجزئيات، كتعليقه على ما أسمعه جمال الدين البزاز بالاسكندرية من شعره الذي يقول فيه :

عرج بباب المنحنى وقبابه واسأل أهيل الحي عن أعرابه

فقال ابن رشيد : «انتهت القصيدة وهي وإن كان في بعض أبياتها لطافة وحلاوة، وعلى بعضها طلاوة، فهي عديمة التلاؤم، غير متناسقة الأبيات»(171)

ويجنح إلى التفصيل بعض الشيء في حكمه على أبي محمد الشريشي يقول : «وله نظم جيد في المعرب، وإحكام للطريقة الزجلية يتصرف في ذلك على الطريقة الصوفية»(172)

(168) رحلة ابن رشيد 2 : 60 ب ص : 387 من النسخة المطبوعة.

(169) نفسه 6 : 90 رحلة العياشي 2 : 253.

(170) نفسه 6 : 42.

(171) نفسه 5 : 80 ب.

(172) رحلة ابن رشيد 2 : 17 أ ص : 163 من النسخة المطبوعة.

ونجده في بعض الأحيان يصدر أحكاما أكثر تفصيلا وأدق تعليلا، مما يدل على أن الأحكام كانت نتيجة تأنيه في الدراسة، وتعمقه في فهم النصوص ومن أمثلة ذلك ما حكاه عن شيخه ابن رزين : «سألني شيخنا أبو الحسن يوما بمنزلي وقد تفاوضنا في أنواع من الآداب، ما معنى قول أبي العباس التطيلي رحمه الله :

أعد نظرا في روضتي ذلك الخد فإني أخاف الياسمين على الـورد

وقال سألت عنه أبا عبد الله ابن الآبار رحمه الله فلم يأت بما أرضي واستشكله، وقال إن هؤلاء العمي يغوصون على معان بعيدة أو نحو هذا فقال لي أبو الحسن أعندك في هذا شيء فقلت له على البديهة إن المحبوب إذا نظر إليه ربما احمر خده من الخجل، فإذا غفل عنه نصع احمرار ذلك الخجل فعاد البياض المشبه بالياسمين، فغلب على حمرة الخجل المشبهة بالورد فأمر الشاعر بإعادة النظر إليه خيفة أن يغلب الياسمين على الورد، وهذا معنى بديع رفيع ولعله لم يسبق إليه ولا توهم عليه فقبل ذلك شيخنا واستحسنه»[173].

ولعله بمثل هذا الغوص والتعمق كان يهتز للشعر وينفعل بالجيد منه، ومن هنا يطرب لقصيدة ابن حبيش[174].

والعبدري شبيه بابن رشيد في أن أحكامه النقدية تستند على ما أسميناه بالذوق المثقف الذي لا يبارح الأرضية العلمية الخصبة فمن ذلك تعليقه على بيتين أنشدهما إياه أبو عبد الله محمد الزناتي المازوني بالاسكندرية بقوله : «هذا معنى ابتكره حسن جدا»[175].

ويعلق على أبيات لأبي بكر بن خطاب المرسي بقوله : «نظام هذه الأبيات يدل على باع في الأدب، مديد وطبع فاضل، ومقول مجيد»[176].

---

(173) رحلة ابن رشيد 6 : 82 ب.

(174) نفسه 6 : 41.

(175) الرحلة المغربية ص : 121.

(176) الرحلة المغربية ص : 18.

ويميل إلى بعض التفصيل في كثير من نظراته النقدية الذوقية كتعليقه على وصف أبي زكرياء الشقراطسي[177] لمنبر مسجد الرسول عليه السلام، وكتعليقه على شعر ابن خميس[178].

ونكتفي هنا ببعض ما علق به على شعر ابن خميس يقول :

«هذه القصيدة مهذبة الألفاظ والمعاني، ألذ من نغمات المثالث والمثاني، إلا أن مقطعها قلق ناب، لا يلين ولو مضغ بضرس وناب، ليس يلتئم بما قبله ولا يمتزج، ولا يزال السمع به يقلق وينزعج، وقد زاولته ليلتحم فأبى، وحاولته ليلتئم فنبا»[179] فبمثل هذا الذوق الرفيع المدعم بالاطلاع الواسع على التراث الأدبي العربي، يميِّز الرحالون بين جيد النصوص الأدبية ورديئها.

2 ـــ النقد اللغوي :

ويعتمد الرحالون في كثير من آرائهم النقدية على الأساس اللغوي، فينطلقون في أحكامهم من صحة اللفظ والتركيب في اللغة من حيث موافقتها لقواعد النحو والصرف وما إلى ذلك.

ولقد أظهر الرحالون في هذا الميدان مستوى عاليا في فهم اللغة ودقائقها فغالبا ما كانت آراؤهم صائبة، ومناقشاتهم للنصوص مفحمة.

يتحدث ابن رشيد عن حضوره بمجلس أبي المكارم الأصفهاني في مصر مناقشة معنى الحرف في اللغة، فكان لرأيه الذي أدلى به في هذا المجلس أثره في المناقشة وقدرته على الاقناع يقول : «ولما حضرت مجلسه جرى الكلام بين يديه في قولهم الحرف ما دل على معنى في غيره أو الحرف لا يستقل بالمفهومية فقال ما معناه : إن مرادهم بذلك أن الحرف لا يدل على معناه المفرد إذا لم يذكر متعلقه، فضايقته في ذلك، ففسح على نفسه بأن قال : هذا راجع إلى النقل عما فهم عن العرب، وقد نقله ابن الحاجب وهو معتمد فليعتمد، فسكت تأدبا، ولم يقنعني الجواب وظننت

---

(177) نفسه ص : 218.

(178) نفسه ص : 15 / 18.

(179) نفسه ص : 15.

أنه قصد دفعي عن المكالمة، قلت وابن الحاجب في ذلك إنما هو ناقل عمن تقدمه من النحويين»[180] إلى آخر هذه المناقشة، ومن تصويبات ابن رشيد ونظراته النقدية وتطبيقاته اللغوية، توجيهه قراءة بيت أبي الطاهر السلفي في شرف الحديث وأهله :

إذا ذكــرت بحار العلــم يومــا فقــول المصطفــى لا غير بحري

فقد علق بايجاز على لفظة «غير» التي وردت منصوبة في البيت بما كتبه «كذا، الرفع أجود»[181] يشير بذلك إلى أن (غير) تبنى على الضمة الطارئة حين وقوعها اسما للا النافية للجنس.

ومن هذا القبيل مناقشته لكلمة (درع) هل هي مؤنثة، أو مذكرة[182] ومناقشته لوجوه الأعراب في قوله تعالى : «ولا ينبئك مثل خبير»[183]، وتنبيهه على الصحيح في النسب إلى بني حنيفة، وأبي حنيفة[184]، ومناقشته لاستعمال (أرأيت) مع أي الاستفهامية[185].

أما العبدري فإن تمكنه اللغوي جعله يتصدى في مناسبات كثيرة لتصويب الأخطاء، وينساق في تحليله ونقده معتمدا على تعمقه في اللغة، ومن هنا كانت وقفاته كثيرة جدا مثل مناقشاته لبعض الاستعمالات اللغوية في شعر ابن خميس[186]، وهكذا يتوقف مع الشآم بالمد، وتشديد الياء من اليماني، واستعمال أرعد وأبرق عوض رعد وبرق، وهو في كل هذه الامثلة يتعرض للأوجه اللغوية كلها مستشهدا بأمثلة من الشعر العربي.

---

(180) رحلة ابن رشيد 3 : 88 ب ص : 353 من النسخة المطبوعة.

(181) نفسه 2 : 49 أ.

(182) نفسه 3 : 67 ب ص : 277 من النسخة المطبوعة.

(183) نفسه 5 : 66.

(184) نفسه 3 : 20 ب ص : 94 النسخة المطبوعة.

(185) 6 : 96.

(186) الرحلة المغربية ص : 16 / 17.

ويعلق على بيتي أبي محمد عبد الرحيم الاندلسي(187) :

تكتب العلم وتلقي في سفط ثم لا تحفظ لا تفلح قط
إنما يفلح من يحفظ من بعد فهم وتوق من غلط

فيقول : «لم يسمع في كلام العرب إدخال قط على الفعل المضارع وإنما يدخلونه على الفعل الماضي فيقول لم أفعل هذا قط، وذلك إن لم تصير الفعل في المعنى ماضيا ولا يقولون لا أفعله قط»، وهكذا يسترسل في تقرير القواعد اللغوية في تمكن واضح مشيرا إلى استعمال الخاصة والعامة، كما يعلق على شعر القاضي أبي حفص بن عمر(188).

أجعلتم العلماء حمرا موكفه....الأبيات. برأيه المفصل الذي يقول فيه : «قلت : خفف القاضي رحمه الله الحمر والتخفيف في فعل مطرد إلا فيما يلتبس، وهو هنا يلتبس بجمع أحمر فينبغي ألا يخفف ولم يقرأ في السبع «كأنهم حمر مستنفرة» إلا بالتثقيل»، وعلى هذا النحو من النقد والنقاش يستمر في ذكر الأشباه والنظائر.

ومناقشاته وآراؤه في هذا المجال كثيرة، كملاحظته على مدرس تلمسان خطأه النحوي في (كلا وكلتا)(189)، وتفصيله في (ما) الاستفهامية الواردة في شعر ابن خميس(190)، وملاحظاته على استعمالات عرب برقة لنماذج فصيحة من غريب اللغة(191)، وغير هذه الأمثلة كثير، وتجدر الاشارة إلى أنه لم يكتف في نقده بالاعتماد على قواعد اللغة الفصيحة، بل استغل معرفته باللهجة البربرية ليناقش البكري في لفظة تاد للاشارة(192) الواردة في قوله «تاد مكة». أما التجيبي فيتجلى اهتمامه بالناحية اللغوية في تعقيباته على الحديث النبوي وشرحه لبعض ألفاظ اللغة(193).

---

(187) الرحلة المغربية ص : 119.

(188) نفسه ص : 23.

(189) نفسه ص : 11.

(190) نفسه ص : 17.

(191) نفسه ص : 88.

(192) نفسه ص : 159.

(193) انظر مستفاد الرحلة ص : 135/140، 172، 196، 230، 240، 280، 435.

ونذكر في هذا المجال إحدى الوقفات النقدية لابن بطوطة ونعني بها ملاحظته على خطيب البصرة الذي لحن في خطبته لحنا جليا[194].

3 ـــ النقد البلاغي :

وهو وجه آخر من أوجه التذوق، لكنه تذوق أقرب إلى العلم والدقة، إذ ينبني الاعجاب فيه بصورة شعرية، أو بتعبير حسن، على الأساس البلاغي من معرفة بعلوم البيان والمعاني والبديع. وهكذا انبنت أحكام نقدية كثيرة في الرحلات على مراعاة جوانب بلاغية مختلفة.

فابن رشيد مثلا يعيب على الشعراء عدم فهمهم لمعنى التورية في نهاية تعقيبه على أبيات لحازم القرطاجني أشار فيها إلى شيء من علم النحو يقول ابن رشيد : «قلت وهذه التوريات في غاية الانطباع...وكثيرا ما وقع الصدع لجماعة من الشعراء ولم أر من تفطن له ولا نبه عليه، ولا أرشد إليه»[195].

وصدرت عن ابن رشيد في مناسبات أخرى آراء صورت لنا مدى ما آلت إليه العلوم البلاغية والنقدية في عصره من ضعف في الذوق وكساد، يقول عن مستوى هذه العلوم بالاسكندرية «وهذا الشأن بالاسكندرية ضعيف، ولم يبق بها بعد ناصر الدين بن المنير رحمه الله من يعتبر»[196].

ومن تعليقاته التي استغل فيها إطلاعه البلاغي والنحوي تنبيهه إلى ولع الشعراء بالتصغير حين أنشد، لما وافى المكان المعروف بخليص، قصيدته التي يقول فيها :

وخلـيص إذ وردنـا خـلصه فرعـى الله أو يقـات الـورود

يقول : «وذلك أن الشعراء أكثروا من التصغير في محال إما لضرورة وزن، أو لقصد ضعيف غير قوي، وربما ندر فيما صدر عنهم ما يستحسن»[197]. وكان في أحيان كثيرة لا يكتفي بإصدار حكمه النقدي المرتكز على البلاغة، وإنما كان يتعمق

---

(194) رحلة ابن بطوطة ص : 182.

(195) رحلة ابن رشيد 7 : 36 ب.

(196) نفسه 5 : 80.

(197) رحلة ابن رشيد 5 : 15 ب.

بالاشارة إلى النكتة البلاغية، وتقرير الأوجه البلاغية المقبولة، فتتحول وقفاته إلى دروس بلاغية، كمناقشته لصاحبه ابن القوبع في التجنيس والتضمين وغيرهما يقول[198]. «ودخل علي يوما صاحبنا أبو عبد الله المذكور — ابن القوبع — وأنا أفكر في مسألة بيانية مما يتعلق بالقوافي وقد عرض لي فيها إشكال وكنت أفاوضه بما يعرض لي من ذلك فيتضح بالمذاكرة مشكله، وينحل مغلقه» .وهكذا فاوضه في التجنيس، ففي نظره أنه «لو كان مما يحسن ويؤثر لكثر في شعر العرب»، وكذلك التضمين حيث كان الشعراء يقصدون «إجادة القوافي ويتوخون فيها التضمين اللفظي»، وينقل العياشي[199] من رحلة ابن رشيد تعقيبه على شعر كل من ابن الوردي، وابن رزين برأيه الذي أفاض فيه في توضيح ما يجب أن يراعى في التشبيه المفرد المطلق والمقيد.

ولم يكن العبدري أقل من ابن رشيد في الاعتماد على البلاغة حين إصداره الأحكام النقدية، فمن ذلك تعليقه على القصيدة الشقراطسية بقوله[200] : «على أنه رحمه الله قد أكثر فيها لأجل الصناعة التصنع وتكلف منها ما هو بعيد المرام شديد التمنع» إلى أن يقول ملخصا ما انتهى إليه «ولكن قصيدته بالجملة قد حلت من البلاغة في حصن ممنع، وجلت وجهاً زهاه الحسن أن ينقنع».

ومن هذا القبيل ذكره للاوجه البلاغية التي أعتمد عايها في إجابة من سأل عن سر التكرار في قوله تعالى : «أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى» إذ يرى «أن إعادة لفظ (إحداهما) لتعادل الكلام وتوازن الألفاظ في التركيب وتماثل أقسام الكلام فيما اشتملت عليه من المفردات وهو المعنى في الترصيع، ولكن هذا أبلغ وأبدع لأن الترصيع توازن الألفاظ من حيث صيغتها، وهذا من حيث تركيبها وكأنه ترصيع معنوي وقلما يوجد إلا في نادر من الكلام»[201] وعلى هذا النحو يسترسل في بسط رأيه مستشهدا بابن جني.

---

(198) نفسه 6 : 117 ب.

(199) رحلة العياشي 2 : 243.

(200) الرحلة المغربية ص : 50.

(201) الرحلة المغربية ص : 61.

وانطلاقا من هذا المنحى البلاغي يصف شعر أبي عمرو عثمان بن عتيق الذي خمس الشقراطسية بقوله : «وشعره مجموع ووقفت عليه بخطه، وأكثره قعقعة ما ترسل بغيث مزنا، وكما قيل جعجعة ولا أرى طحنا»(202)

ولقد احتكم التميري أيضا إلى البلاغة في بعض أحكامه النقدية، كتعليقه على قول أبي الحسن ابن الرقاص :

هـبت نعامـى والفـؤاد تعامـى من ذي أؤام في المدامع عامـا

بما يلي : «هذا البيت تضمن من ألقاب البديع التجنيس الخطي والتجنيس الاشتقاقي ونوعا من المطابقة ولزوم ما لا يلزم»(203).

4 ــ النقد العروضي :

وتناول الرحالون في نقدهم أحيانا الجانب العروضي إذ أظهروا استحسانهم واستهجانهم انطلاقا من علم العروض، ولعل هذا راجع إلى تمكنهم من هذا العلم، فمنافشاتهم وتعليقاتهم أبانت عن مستواهم الرفيع في علم القافية، ففي المناقشة العلمية الرزينة التي جرت بين ابن رشيد وابن جون المراكشي(204) على ظهر المركب من الاسكندرية ما يكفي لاثبات هذا التعمق في العروض والاطلاع الواسع. ومن هذه النظرات النقدية التي استغلت العروض واستثمرته حين التعليق والتعقيب، ما صدر عن العبدري بصدد نقده لقصيدة ابن خميس واعتباره إبقاء الألف في عبارة «على ما ذدت» خطأ نحويا كما سبق الذكر ولذلك يرى هنا أنه «لو حذف الألف منها لصح الوزن وكان الجزء معقولا ولكنه زحاف قبيح»(205)

وله وقفة عروضية أخرى مع تخميس أبي عبد الله المصري لقصيدة المنفرجة يقول بصدد تعليقه على هذا التخميس : «قلت وفي كثير من هذا التخميس مقال، وليس لبعض أقسامه بالبيت اتصال، واما ما خمس به أولا قوله وأبي عمرو ذي النورين

(202) نفسه ص : 50.

(203) مذكرات التميري 483 ورقة 18 أ ص : 223 من النسخة المرقونة.

(204) رحلة ابن رشيد 6 : 2.

(205) الرحلة المغربية ص : 17.

فغلط لا شك فيه، لأنه يؤدي إلى قطع همزة المستهدي وبقطعها ينكسر البيت لزيادة حرفين على وزن الخبب»(206) وهكذا يسترسل في الاشارة إلى ما لحق هذا التخميس من كسر وزحافات وعلل.

وبهذا التمكن والدقة يتناول العبدري أبيات شيخه ابن الغماز، يقول : «قلت أتى شيخنا حفظه الله بعروض البيت الأول تامة وإنما سمعت مقبوضة إلا أن الترصيع الذي في البيت ربما سوغ ذلك كما في التصريع وقد وقع مثله في شعر المتنبي وتعقب عليه»(207). وفي إشارة التميري المقتضبة ما يكفي لاظهار اعتماده أيضا في نقده على هذا العلم يقول متحدثا عن خسة بديعة رآها بمنتزهات سلطان تلمسان «ويدور بالخسة أبيات بالزليج المنجور خمسة آخر بيت منها مختل الوزن والاعراب»(208)

5 ــ النقد الحديثي :

ونشير إليه هنا لاظهار الحاسة النقدية القوية التي كانت تلازم الرحالين في كل المواقف، والميادين، وإلا فمثل هذا النقد الصق بعلم الجرح والتعديل.

وإن نظرة إلى رحلة ابن رشيد تظهر كثرة ما تتوفر عليه من نقد حديثي، مثل ملاحظته على شيخه ابن صادق القرشي بأنه كان يستعمل التدليس في رواياته الحديثية(209)، ومثل ما علق به على مسلسل يوم العيد الذي سمعه علي أبي اليمن ابن عساكر حين قال : «وفي الحديث وهم شنيع، وغلط ظاهر فظيع، لا يخفى على الحفاظ النقاد، والذين لهم بصر بالاسناد»(210)

وبمثل هذه الاشارات يعلق على حديث «دخل النبي صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة وعليه عمامة سوداء»(211)، وعلى مسلسل «أضافنا وأطعمنا التمر والماء» الذي يرويه عن أبي محمد الخلاسي(212).

---

(206) نفسه ص : 59.

(207) نفسه ص : 243.

(208) مذكرات التميري 1734 ورقة 40 أ ص : 97 من النسخة المرقونة.

(209) رحلة ابن رشيد 5 : 64 أ.

(210) نفسه 5 : 30 ب.

(211) نفسه 5 : 54 أ.

(212) نفسه 2 : 49 ب ص : 343 من النسخة المطبوعة.

وكان للعبدري أيضا رأي واضح فيما يرويه من الأحاديث[213]، أما التجيبي[214] فالنقد الحديثي عنده ظاهرة تطبع معظم رحلته، فهو يقارن بين الروايات ويشير إلى المظان والكتب.

6 ـ النقد التفسيري :

وإلى جانب الاهتمام الحديثي واستغلاله في النقد، اعتمد الرحالون أيضا على العلوم التي تنهض بتفسير القرآن، ومن أمثلته نسوق مناقشة ابن رشيد لشيخه ابن زيتون في القراءة الشاذة في قوله تعالى : «إنما يخشى الله من عباده العلماء» برفع الكلمة الشريفة ونصب العلماء[215]

ونشير أيضا إلى مناقشة العبدري لابن عبد السيد لما حضر بطرابلس درسه في مادة التفسير[216].

7 ـ نقد الشيوخ :

وبدت في الرحلات جرأة الرحالين على إبداء آرائهم في الشيوخ من حيث المستوى العلمي والسلوك الاخلاقي.

وهكذا يصرح ابن رشيد بأنه لم يقرأ على البوني الشرابي، لأنه «شيخ في أخلاقه شكاسة وكبر وعدم فهم»[217]

ويصف ابن التونسي بأنه يشهد في المكوس لذلك لم يخرج عنه حديثا[218].

ويزهد في استجازة أبي الفضل عباس التجيبي لأنه «لم يكن له علم بشيء من مروياته ولا كان يذكر ذلك»[219]

---

(213) الرحلة المغربية ص : 226.

(214) مستفاد الرحلة ص : 134 / 136.

(215) رحلة ابن رشيد 6 : 14 أ.

(216) الرحلة المغربية ص : 78.

(217) رحلة ابن رشيد 3 : 1 ب ـ 2 ب.

(218) نفسه 3 : 2 ب.

(219) رحلة ابن رشيد 2 : 12 ب ص : 144 من الطبعة.

وبنفس الصراحة يقدم أبا عبد الله السلاوي بقوله : «وكان فاضلا حافظا سمحا بما يكتب بخطه، وإن كثر،غير أنه لا يجيد إقامة الاعراب وربما تصفحت عليه أسماء الرجال إذ لم يكن هذا من شأنه»(220)

أما العبدري فقد ذكرنا بأن منهجه انبنى على الصراحة في كل ما دونه، وفي وصف من التقى بهم وروى عنهم. يقول بعد أن حضر مجلسين لقاضي بيت المقدس ابن جماعة :

«فلم أخرج منهما بطائل، وكلمته في أشياء تخبط فيها وتعسف، فلم أجد من نفسي اذعانا للأخذ عنه، على قلة همته في الرواية»(221)

ويصف أبا علي منصور الزواوي المشدالي بأن له حظا وافرا من الأصول والفروع «ولكنه غير معتن بالرواية»(222)

8 ـــ الرد إلى الأصول :

وهذا النوع من النقد أقرب إلى ما عرف بالسرقات الأدبية، ويظهر من خلال هذه الاشارات الاطلاع على التراث الأدبي العربي والثقافة الواسعة.

ومن أمثلة هذه النظرات النقدية ما يقوله التجيبي معلقا على شعر أنشده إياه شمس الدين الجياني دون نسبته لقائله «قلت وهذه القطعة الأخيرة التي لم ينسبها الشيخ من نظم الفقيه الحافظ أبي الوليد عبد الله بن محمد المعروف بابن الفرضي وهي أتم من هذه، وها أنا أوردها بتمامها، وأتبعها بقصيدة الاقليشي التي يقال إن أولها مأخوذ من قطعة ابن الفرضي»(223). ويرجع ابن رشيد جملة معان في شعر ابن الخيمي إلى شعر أبي الطيب المتنبي، وأبي حامد الغزالي(224).

---

(220) نفسه 6 : 85 ب.

(221) الرحلة المغربية ص : 231.

(222) نفسه ص : 277.

(223) مستفاد الرحلة ص : 449.

(224) رحلة ابن رشيد 3 : 48 أ، ص : 208 من النسخة المطبوعة.

خلاصة :

يمكننا في الأخير رسم معالم النقد من خلال استعراضنا لآراء الرحالين وأحكامهم النقدية، وتعرفنا على المناهج النقدية التي استعملوها من اعتمادهم على مقاييس ذوقية، ولغوية، وبلاغية، وما إلى ذلك مما جعل طرق النقد وأساليبه عندهم مختلفة، وهكذا يمكننا تصنيف أحكامهم النقدية في نظائر ثلاثة :

1 ـــ فمنهم من يكتفي في بعض الأحيان بالاشارة السريعة الدالة والعبارة المركزة، عن طريق استعمال عبارة التوقف (كذا، وهم)[225] أو بالتعقيب الموجز جدا، مثل التعقيب بلفظ «حسن» أو «له شعر جيد» أو «وهو غير مقنع»[226].

2 ـــ ومنهم من لم يكتف بعبارة واحدة وإنما أوضح رأيه في كلمات مختصرة، فجاء الحكم النقدي مكثفا، مركزا دون تحليل أو توضيح مفصل اعتمادا على ذكاء القارىء وعلمه، ومثل هذا النقد كثير في الرحلات التي لها الطابع الفهرسي ويمكننا أن نعتبر ما أشرنا إليه سا بقا نماذج لهذا النوع النقدي.

3 ـــ إلا أننا وجدناهم في بعض الأحيان لا يكتفون بالعبارة المركزة، ولا الرأي الموجز، بل يميلون في أحكامهم إلى التفصيل والتوضيح والمقارنة مع الاعتماد على أمثلة تراثية من مختلف العصور. واتسم هذا النوع من النقد بالطابع التكاملي فلم يقع التعامل فيه مع النصوص تعاملا جزئيا فيكتفي بالنظر إليها من خلال البلاغة أو اللغة وما إلى ذلك، ولكن هذا النوع يوظف كل هذه المقاييس وينظر من كل الزوايا التي رأيناها متفرقة، ومن ثم يسلك السبل كلها من تحليل وشرح وتوضيح.

ويكثر هذا النقد المتكامل في رحلتي العبدري وابن رشيد فهناك وقفات كثيرة للعبدري استغل فيها معرفته الواسعة وتمكنه العلمي، كتعليقه الطويل على رحلة ابن الفكون إذ مزج في تعليقه بين جوانب مختلفة كالذوق واللغة ومحاولة إرجاع المعاني إلى أصولها[227]، ويسلك المنهاج نفسه في وقفته الطويلة مع بائية ابن خميس التلمساني[228].

---

(225) انظر رحلة ابن رشيد 2 : 11 أ ب، 23 أ، 46 ب، 48 ب، 49 أ.

(226) الرحلة المغربية ص : 20، 123، مذكرات التميري 1734، 4 أ، 29 ب، 19 أ، 20 أ.

(227) الرحلة المغربية ص : 37/35.

(228) نفسه ص : 18/15.

أما في رحلة ابن رشيد فيتجلى النقد المتكامل من خلال وقفته الطويلة مع بائية ابن الخيمي[229]، حيث لم يترك أداة إلا وعالج بها هذا النص يبدأ بمعارضة النسخ ثم ينظر إليه من نواحي عديدة كإرجاع معانيها وصورها إلى أصولها، والنظر إليها من الناحية البلاغية.

كما يبدو هذا النقد المتكامل أيضا في تلك المناقشة النقدية الطويلة التي رد فيها ابن رشيد على صاحبه ابن عبد الملك فيما كان كتبه في نقد شعر ابن المرحل.

وبالرغم من أن أصل هذه المناقشة النقدية ضاع ضمن ما ضاع من رحلة ابن رشيد، إلا أن المقري ــ من حسن الحظ ــ أورد النصين المتضمنين لهذه المناقشة في كتابه فتح المتعال[230].

---

(229) رحلة ابن رشيد 3 : 48/46 النسخة المطبوعة ص : 209/202.

(230) فتح المتعال ص : 222/217، 286/282.
الذيل والتكملة 1 : 331، 334.
أزهار الرياض 3 : 263.

II ــ مناهج الرحلات وقوالبها :

تبين لنا من استعراضنا للرحلات أن هناك قالبين تعبيريين توزعا الرحلة في هذه الفترة :

أولهما : القالب الشعري :

وبالرغم من أننا لا نتوفر على رحلات شعرية بقدر ما هو معروف من الرحلات النثرية، إلا أن ما بأيدينا من هذه النماذج الشعرية يجعلنا نفترض أن هناك قصائد وأشعاراً أخرى في الرحلة لم نهتد إليها بعد.

ومن الرحلات الشعرية المعروفة في هذا المجال :

ــ منظومة العبدري التي ختم بها رحلته المشهورة، وهي قصيدة من بحر الوافر في خمسة ومائة بيت مطلعها[1] :

عليك بالنصح رده بكل حي   وإن الفيت وارده فحي

والقصيدة لا تضيف شيئا لما فصله في رحلته النثرية، إلا إفصاحه عن عاطفته المتأججة نحو الحجاز، واعتباره بما آل إليه أمر البلدان التي شملتها رحلته، مما دفعه إلى النصح بالزهد في الحياة وعدم الاستكانة إلى الحياة الزائلة.

---

(1) الرحلة المغربية ص 280 / 284.

ومن المعروف أن العبدري قد عارض بقصيدته هذه قصيدة ابن الفكون التي تقع في اثنين وثلاثين بيتا، سبقت الاشارة إلى أنه قيدها بقسنطينة عن أبي علي حسن ابن باديس وأوردها في رحلته. وكان ابن الفكون قد وصف فيها المراحل التي يقطعها المسافر بين قسنطينة ومراكش. يقول في مطلعها[2] :

ألا قـل لـلسري بـن السري أبي البـــدر الجواد الاريحي

ورغم أن وجهة الرحلة مختلفة، فإن العبدري كان ينظر إلى هذه القصيدة وهو ينظم رحلته، فنسج على منوالها وزنا وقافية ونسقا.

ــ أما النموذج الشعري الثاني فيتمثل في الزجل العامي الذي اختاره الكفيف الزرهوني ليخلد به رحلة أبي الحسن المريني إلى البلاد الافريقية وهزيمته بالقيروان.

وهي من النماذج التي اعتبرها ابن خلدون خروجا عن المألوف كما سبق أن أوضحنا[3].

ولعل الميل إلى القالب الشعري في تسجيل الرحلات قد كثر في هذا العصر، بدليل أن كتب التراجم تنسب لكل من ابن سعيد الرعيني[4] وابن غازي[5]، نظما في مراحل الحجاز وإن كنا ــ مع الأسف ــ لم نهتد بعد إلى ما ألف في هذا المجال.

ويمكننا إلحاق قصيدة ابن الخطيب بالنماذج المذكورة، تلك القصيدة التي بعثها من الأندلس مستحضراً فيها الأماكن التي ترتبط بها ذكرياته في سلا أثناء رحلته التي سجلها بالنفاضة، ومشيرا إلى الأشخاص الذين التقى بهم هناك أو خالطهم[6].

وبدون شك، فإن التعبير الشعري عن الرحلة أضحى بعد ذلك شائعا مطروقا لدى كثير من الشعراء، على نحو ما سنجد في الرحلة العامرية[7]، في القرن الثاني

---

(2) نفسه ص 34 / 35.

(3) مقدمة ابن خلدون ص 1163.
أنظر أيضا المبحث الذي خصصناه لرحلة الكفيف الزرهوني.

(4) نيل الابتهاج ص 272، جذوة الاقتباس 1 : 235.

(5) نيل الابتهاج ص 334.

(6) نفاضة الجراب (المخطوط) 3 : 187 / 190.

(7) ركب الحاج المغربي ص 88 / 104.

عشر الهجري، والتي يبتدئها أبو عبد الله محمد العامري بقوله :

أزمـــــع السير إن دهت أدواء   لشفيـــع الانـــام فهـــو الـــدواء

والقصيدة مهمة في وصف الطريق التي كان يسلكها الركب الفاسي نحو الحجاز[8].

ثانيهما : الرحلات النثرية :

وهي الأكثر شيوعا في الرحلات عموما، لما يتيحه النثر من قدرة على الاستيعاب والتفصيل في كل الميادين التي يراد طرقها عامة وفي الرحلات على الخصوص حيث يهتم بالوصف وتدوين الأخبار والمعارف والروايات والأسانيد...

فما هو منهج هذه الرحلات النثرية ؟ أو على الأصح ما هي المناهج التي التزمت بها ؟

لقد تبينا في إشاراتنا السابقة إلى أن المناهج تختلف باختلاف أشكال هذه الرحلات، وباختلاف فترات تدوينها، وهكذا فللرحلات الفهرسية منهج معين يختلف عن منهج الرحلات الصوفية، أو الرحلات التاريخية الجغرافية.

أ ــ منهج الرحلات الفهرسية

الرحلات الفهرسية هي الرحلات التي أشبهت الفهارس، إذ يورد الرحالون فيها أخبار الرجال الذين لقوهم أثناء الرحلة أو الشيوخ الذين تتلمذوا عليهم، والكتب التي رووها أو أطلعوا عليها في مجالس هؤلاء الشيوخ، وكذلك الأشعار والفوائد التي حصلوا عليها في جولاتهم.

فالفهرس كما عرفه أبو عبد الله الرهوني هو «الكتاب الذي يجمع فيه الشيخ شيوخه وأسانيده وما يتعلف بذلك»[9]

(8) لعل آخر من تناول الرحلة الحجازية نظما ــ في رأي أستاذنا ــ هو الفقيه العالم الاديب مولاي أحمد بن المامون البلغيتي. وهي الرحلة المطبوعة بفاس سنة 1346هـ، تحت عنوان : «النحلة الموهوبة النجازية، في الرحلة الميمونة الحجازية».

(9) فهرس الفهارس 1 : 69، مقدمة تحقيق الاكسير ص : ذ.

وهكذا يهتم الفهرس بمختلف طبقات العلماء والرواة وتآليفهم وأسانيدهم، ومختلف طرق هذه الأسانيد. ولقد تعرض صاحب فهرس الفهارس إلى مدلول هذا المصطلح وتداول هذا النوع من التآليف في المشرق والمغرب فقال : «اعلم أنه بعد التتبع والتروي يظهر أن الأوائل كانوا يطلقون لفظة المشيخة على الجزء الذي يجمع فيه المحدث أسماء شيوخه ومروياته عنهم ثم صاروا يطلقون عليه بعد ذلك المعجم، لما صاروا يفردون أسماء الشيوخ ويرتبونهم على حروف المعجم، فكثر استعمال وإطلاق المعاجم مع المشيخات وأهل الأندلس يستعملون ويطلقون البرنامج، أما في القرون الأخيرة فأهل المشرق يقولون إلى الآن الثبت وأهل المغرب إلى الآن يسمونه الفهرسة»(10).

وأتينا بهذا النص على طوله لأنه يحدد بوضوح هذا النوع من التأليف الذي هو الصق في منهجه وأسلوبه بعلم الحديث وطرق تحمله(11).

ويرى الاستاذ الأهواني أن التأليف على هذا النحو قد «شغف به العلماء من الأندلسيين شغفا كبيرا، وشارك المتقدمون منهم والمتأخرون في انتاجه مشاركة قوية»(12). ولعل إسهام المغاربة في هذا المجال لا يقل عن الأندلسيين.

ومن الرحلات التي اتبعت منهج الفهارس في هذه الفترة رحلة ابن رشيد، والعبدري، والتجيبي، والمقري، ومذكرات النميري.

1 ـــ ملء العيبة :

تبينا من قبل الجانب الفهرسي التوثيقي في هذه الرحلة فأطلق عليها بسبب ذلك الفهرس أو البرنامج، منذ أن نعتها عبد المهيمن الحضرمي باسم البرنامج حين كتب في آخر سفر منها بخطه ما نصه «أكملت قراءة هذا البرنامج في يوم الأحد الحادي عشر لرجب عام عشرين وسبعمائة»(13).

ذلك لأن ابن رشيد ظل طيلة الرحلة حريصا على حضور مجالس العلماء والشيوخ والمحدثين، والأخذ عنهم، مما جعل رحلته تضم أسانيد وتقييدات وسماعات وإجازات ومراسلات وأشعاراً...

---

(10) فهرس الفهارس 1 : 67.

(11) أنظر عن طرق تحمل الحديث : فهرست السراج ص 26 / 36.

(12) مجلة معهد المخطوطات مجلد 1 ج1 : ص : 91 مايو 1955.

(13) رحلة ابن رشيد 7 : 67 ب، 64أ.

ومن هنا فإن منهجه ــ كما حدده بنفسه ــ قد تأثر بطبيعة ما حرص على جمعه أثناءها، كما تأثر بفترة التدوين، فلقد أشرنا من قبل إلى أنه دون رحلته بعد أن اكتملت له المادة، فكان أقدر بذلك على التنظيم والتبويب المحكم، يقول : «إني لم أكن قصدت به مقصد التصانيف المهذبة ولا التآليف المركبة وإنما قيدته بحسب ما يسر لي مما كنت كتبته على ظهور الكتب وفي بطون البطائق مما قيد للتذكار بتلك المعاهد اللائحة الأنوار فقصدت أن أضم بدده وأجمع عدده»[14]

ويعرض في هذا التحديد المنهجي الذي احتفظ الجزء السابع ببعضه ــ لحسن الحظ ــ إلى أهم ما تضمنته الرحلة فيقول : «وإن كنت أودعته من الفوائد ما لعله لا يحصره ديوان ويعز وجوده على ذي البحث والتنقير والافتنان من مسائل حديثية، وأصلية، وأدبية، وبيانية بعضها منقول عن أئمتنا وأشياخنا، وبعضها مما فتح الله فيه من فضله العميم... وقد ضمنت هذا المجموع من الأحاديث النبوية والغرائب الأصلية والفقهية واللطائف الأدبية والنكت العروضية... وتضمن من حكم الأشعار ومدح النبي المختار»[15].

ويوضح بعد ذلك المنهاج الذي اتبعه، والطريقة التي سلكها في تقديم هذه المضامين المختلفة والمتنوعة فيقول : «وفيه أيضا مواضع في الأسانيد والمتون والآداب ذوات الفنون، وقع الغلط فيها من غيري في سند أو متن، فما علمت وجه الصواب فيه أوضحته وأقمت صوابه، ونبهت على أني أصلحته، وبعض بقي على حاله مقفلا فكتب مغفلا، وضبب عليه، أو جعلت في الحاشية علامة نظر ترشد إليه... وكذلك من وصفته من شيوخنا وأصحابنا بصفة أو حليته بحلية، فلم أتجاوز في أوصافهم بل جئت بما هو أقرب إلى انصافهم»[16].

فمنهجه دقيق واضح في الأبواب، وفي المضامين التي أثبتها في رحلته، وفي التعابير والألفاظ التي استعملها مستعيرا منهج المحدثين وطريقتهم في الضبط، يتجلى ذلك في الأسانيد والمسلسلات التي رواها عن الشيوخ في هذه الرحلة، وفي الاجازات التي حصل عليها. ومن هنا كان حذرا في النقل متريثا في الرواية، متثبتاً في التدوين،

(14) رحلة ابن رشيد 7 : 64أ.

(15) نفسه 7 : 64.

(16) رحلة ابن رشيد 7 : 64.

نتبين ذلك من كل ما ساقه من أخبار وروايات، ومن الأمثلة في هذا الباب قوله : «ومما قرأته بخط شيخنا أبي اليمن بن عساكر رضي الله عنه مما نسبه لنفسه، وقد أورده أيضا في الجزء الذي خصه في صفة النعل الكريمة معرفا بأنه من نظمه وبينه وبين هذه التي نقلت من خطه بعض اختلاف، وكانت تلك النسخة مسموعة عليه، وأنا أورد بحول الله هذه الأبيات على ما نقلته من خطه، ثم اتبع ذلك بما وقع من الاختلاف بينه وبين المسموع عليه»[17].

فهذا العمل لا يختلف عن التحقيق في التثبت والمقارنة بين النسخ وما إلى ذلك. ويبدو هذا المنهج الصارم أيضا في نقله للبيتين اللذين قرأهما مكتوبين في وجه الخزانة التي تقابل الروضة الكريمة بالمدينة المنورة[18].

ولذلك فقد سلك في كل ما أورده في الرحلة من نصوص شعرية أو نثرية أو أخبار أو آراء، منهج التحري والنقد التوثيقي فلا يقبل ما يورده اعتباطا بل لا يثبت إلا ما ينقله عن شيوخه وأصحابه الذين يكتبون له بخط أيديهم، ولقد تمثل هذا الاحتياط في استعماله لعبارات وألفاظ معينة منها : كتبه إلي، وكتب لنا[19]، وأنشدنا، وأنشدني بلفظه[20]، ونقلته من خطه[21]، أو من إملائه علي[22]، أو كتبه لي بخطه[23]، أو قرىء على الشيخ وأنا أسمع[24]، وأنشدت بلفظي على الشيخ[25]،

(17) نفسه 5 : 45أ، أزهار الرياض 3 : 262.

(18) نفسه 5 : 56أ.

(19) نفسه 2 : 6، 3 : 29أ، 73ب.

(20) نفسه 2 : 17 / 18، 6.

(21) رحلة ابن رشيد 2 : 10أ، 6 : 12، 102.

(22) نفسه 3 : 30.

(23) نفسه 2 : 23، 30، 67.

(24) نفسه 3 : 8.

(25) نفسه 3 : 74.

أنشدنا لنفسه[26] أنشدني بقراءة غيري[27] وانشدني بعضه[28]، ومن نظم فلان ما أجازه لنا[29]، أجاز لي مشافهة[30].

وبالاضافة إلى هذا فإن ابن رشيد سلك منهجا آخر في الجزءين السابع والخامس من الرحلة إذ نجده في الجزء السابع يعيش أجواء خاصة مع صاحبه وقرينه الأديب أبي الفضل التجاني ويحضر معه مجالس أدبية ومسامرات ونزها، مما جعل إنتاجه في هذا الجزء ومنهجه فيه وما دونه منطبعا بالطابع الأدبي.

ونجده في الجزء الخامس يولي الناحية الجغرافية اهتماما خاصا فاتسم الجزء بالسمة الجغرافية، وهكذا انصب اهتمامه منذ خروجه من دمشق على وصف الطريق التي سلكها الركب نحو الحجاز والبلدان التي مر بها كبصرى، وحوران، وجفار، وتبوك، والحجر، .والعلى، ووصف كذلك البلدان التي مر بها داخل الحجاز نفسه بين مكة والمدينة المنورة، أو الأماكن التي ترتبط بمناسك الحج وأركانه.

ومثل هذا لا نجده في الأجزاء الأخرى، إذ لم يعر اهتمامه هناك لغير العلماء ومجالسهم العلمية فإن التفت إلى البلدان تكون التفاتته موجزة.

2 ـ الرحلة المغربية :

أما العبدري فقد اتضح لنا من قبل بأنه كان في رحلته وفيا للمنهج الذي حدده منذ البداية، وبما أننا كنا رسمنا بعض خطوط هذا المنهج من قبل فإننا سنكتفي بالتذكير بأهم المحاور التي حددها العبدري وهو يستعرض المنهج مقتصرين على النماذج والنصوص التي لم يسبق إيرادها.

يقول العبدري في تقديم ما دونه من رحلته : «وأذكر مع ذلك مما استفدته من خبر أو أنشدته من درر ما أضم في الأوراق متبدده، وأعقل بعقال الخط متشرده،

(26) نفسه 2 : 6ب.

(27) نفسه 2 : 6ب.

(28) نفسه 2 : 8 .

(29) نفسه 6 : 64.

(30) نفسه 3 : 3 ب.

وأثبت في خلال ذلك من نظمي ما يتغلغل إليه الكلام، أو تجنح إلى تحصيله ضوامر الأقلام، وأضيف إلى ذلك ما يضطر إليه البيان فيما قصر فيه العيان، من نبذ مذكورة، ونتف مشهورة، ونكت مرسومة في الكتب مسطورة،... مثبتا في كل رسم بعض الأحاديث التي رويتها، والآثار التي وعيتها»(31)

ومن خلال هذا التقديم يمكننا التعرف على المضمون الذي اعتزم العبدري في منهجه الالتزام به وعدم تجاوزه، إلا أن أهم ما يجب التنبيه إليه هو الجانب الآخر لمنهجيته في الرحلة، ويتمثل في تلك الممارسة التطبيقية، فلقد قدم هذا المضمون بأسلوب عرف به، وهو أسلوب صارم واضح صريح «من غير تورية ولا تلويح، ولا تقبيح حسن ولا تحسين قبيح»(32).

وكان لهذا الأسلوب الصارم الذي لا يعرف الوسط أو المداراة، أثره في اختيار الألفاظ الدقيقة الصارمة التي وصفت أحيانا بالتحامل، ووصفت مرة أخرى بالجرأة في التعبير والنقد اللاذع(33)، وهكذا لم يتردد في استعمال ألفاظ جارحة في وصف البلد وأخلاق أهله، ومستواهم العلمي...

والتزم العبدري إلى جانب ذلك بمنهج المحدثين أيضا، من خلال الألفاظ التي تفيد التحري والدقة والتثبت في الرواية والسند والأخذ عن الشيوخ فهو شبيه في هذا بسابقه ابن رشيد ومن سياتي بعده من أصحاب الرحلات الفهرسية. لذلك نكتفي هنا بالاشارة إلى معاناة العبدري في البحث عن رواية رحلة ابن الفكون بقسنطينة يقول : «ورمت أن أجد من أروي عنه قصيدته المشهورة في رحلته من قسنطينة إلى مراكش فلم أجده فقيدتها هنالك غير مروية»(34).

ووفاؤه للمنهج الذي عرض خطوطه جعله يخصص حيزا من اهتمامه ورحلته، لرسم لوحات للبلدان والطرق التي شملتها الرحلة وبذلك أقام جسرا بين الرحلات الفهرسية والرحلات الجغرافية التاريخية، وبذلك كانت الطريقة التي سلكها في أغلب

---

(31) الرحلة المغربية ص 2.

(32) نفسه ص 1.

(33) المشرق في نظر المغاربة والاندلسيين ص 71.

(34) الرحلة المغربية ص 33.

ما كتبه، والمنهج الذي لازمه، هو أنه يصف البلد الذي يدخله فيحدد موقعه بدقة ويذكر مواصفاته، من تحصنه، وخصوبته أو قحطه، وكونه في السهل أو الجبل، وما إلى ذلك، ثم يلتفت إلى أهل البلد فيشير إلى اخلاقهم ومستواهم العلمي، بصراحته المتميزة، مقارنا في ذلك بين الماضي والحاضر.

والتزاما بالمنهج الذي حدده العبدري ظل طيلة الرحلة حريصا على تسجيل الأشعار والنصوص بكاملها ولو كانت طويلة، متبوعة في الغالب بآرائه وتحليلاته وأحكامه النقدية.

3 ــ مستفاد الرحلة :

أشار ابن حجر إلى مضمون هذه الرحلة الفهرسية ومنهجها قائلا بأن أبا القاسم التجيبي «قد حذا فيها حذو ابن رشيد وكان رحل قبله بنحو عشر سنين، وزاد هو على رحلة ابن رشيد بتضمين الرحلة مشيخة له مستوعبة بذكر ترجمة الشيخ وما يمكن من مروياته، وبين ما سمعه منه بأسانيده، ويخرج عنه بعد ذلك شيئا من حديثه وفوائده وإنشاداته، ويفعل ذلك في كل بلد دخلها»(35).

ونحن وإن كنا لا نملك نصا للتجيبي نفسه، على غرار زميليه السابقين، يوضح فيه مخططه في هذه الرحلة لضياع الجزءين الأول والأخير منها. إلا أنه من تتبعنا للتجيبي في رحلته نستنتج أن منهجه كان فعلا أشبه بمنهج ابن رشيد في جمع الأسانيد الحديثية والاهتمام برواة الأحاديث، والاستفادة من الاعلام مما يدل على أنه حذا حذوه وتأثر به في منهجه، ولكننا نرى من المقارنة بينهما أن التجيبي أكثر تفصيلا وإيرادا للراويات المختلفة والأسانيد المتنوعة، وأكثر اهتماما بأوصاف الطرق والبلدان والآثار وذكر القضايا والأوضاع الاجتماعية والفكرية، وأحسن تبويبا لفصول الرحلة وموادها، وضبطا لنصوصها ومعلوماتها، نتبين هذا من المقارنة بينهما مثلا في وصف القاهرة وذكر أحوالها فابن رشيد لا يفيدنا إلا في الحديث عن أعلامها، بينما التجيبي يقدم لنا تعريفا وافياً وأخبارا مفصلة لتاريخ المدينة وآثارها ومشاهدها وأهميتها وأعلامها...فلم يترك صغيرة ولا كبيرة عن القاهرة إلا ذكرها وفصل القول فيها،

---

(35) الدرر الكامنة 3 : 240.

وصحح الأخطاء الشائعة عنها، معتمدا في ذلك على المشاهدة والأخبار التاريخية من أفواه الرجال أو أمهات الكتب والمصادر، ومن هنا كان ابن حجر على حق حينما لاحظ بأن التجيبي زاد على ابن رشيد في رحلته، ولعل ذلك يعود إلى أن ابن رشيد كان همه الاتصال بأكبر عدد من الأعلام والشيوخ على عكس التجيبي الذي تعددت اهتماماته من فهرسية وجغرافية وتاريخية...

إلا أنه في كل ذلك كان ملتزما بالمنهج الحديثي في التحري والتثبت وذكر الروايات المختلفة، ومناقشة السند وتنويعه والتوقف مع المتن الذي يرويه، سواء كان حديثا، أم شعرا، أم خبرا تاريخيا، أم أي نص آخر.

فاهتمامه الكبير بالحديث الشريف ومروياته، وسعيه إلى الحصول على الاجازات، وإلتزامه بالمنهج الحديثي. كل ذلك أظهر الرحلة وكأنها كتاب في الحديث والسند، ولعلها هي السمة التي انطبعت بها الرحلات الفهرسية جميعها، لذلك انتشرت في مستفاد الرحلة أيضا تلك الألفاظ التوثيقية الدقيقة التي أشرنا إلى بعضها من قبل في رحلة ابن رشيد خاصة.

4 ـــ مذكرات النميري :

سبق تصنيف هذه المذكرات ضمن الرحلات الرسمية الداخلية لأن صاحبها النميري دونها وهو بصحبة أبي الحسن المريني في رحلته، لكننا أوضحنا بأن لهذه المذكرات شبها كبيرا بكتب البرامج والفهارس بالرغم من كونها تمت بموازاة مع الحركة السلطانية الرسمية.

فلقد تبينا من صاحبها نهمه الشديد في التحصيل، ورغبته المستمرة في لقاء الاعلام والرواية عنهم، فأتيح له الاتصال بحشد من العلماء، وتمكن من الحصول على الروايات والأسانيد العالية، وظفر بالاجازات، ودون أشعارً و مكاتبات... وما إلى ذلك، ونظرا لكون ما دونه عبارة عن مذكرات ويوميات لم ينقحها صاحبها فإنه لم يهتم فيها بغير الفوائد والأعلام، إذ لم يصف الموكب السلطاني، و لم يلتفت إلى وصف الطرق[36] والبلدان[37].

---

(36) أنظر مثلا مذكرات 1734 ورقة 11أص : 37 من النسخة المرقونة .

(37) أنظر مثلا مذكرات 1734 ورقات 19ب، 20ب، 40ب صفحات 82، 85، 97 من النسخة المرقونة.

ب ـ منهج الرحلات الأخرى :

لم يسلك أصحاب الرحلات الأخرى منهجا واحدا في تقديم ما دونوه، بل اختلفت مناهجهم تبعا لاختلاف الموضوع والوجهة وطبيعة المادة التي اهتموا بها.

وهكذا سلك ابن بطوطة في رحلته منهجا معينا، اتسم بعدم مراعاة التوازن في الاهتمام بالجانبين الجغرافي والاجتماعي، إذ مال أحيانا فيما أملاه إلى الاطناب في ذكر التفاصيل والجزئيات بينما اتسم أسلوبه أحيانا أخرى بالايجاز الشديد، مكتفيا بالاشارة إلى بعض المعالم والأشياء والأشخاص.

وأهم ما تميز به منهاجه هو مراعاة وحدة الموضوع مع الاحاطة والمقارنة، وبذلك سلمت الرحلة من التفكك الذي يجعل منها رحلتين متباعدتين في الزمان بالنسبة للبلدان والطرق التي مر منها في الذهاب والاياب، فحديثه عن هذه البلدان والطرق يلخص ما طرأ عليها طيلة ربع قرن من أحداث وتغيرات.

ويسلك النميري في فيض العباب منهجا وصفيا اهتم فيه بقص الأخبار، وتقديم تقرير عن الرحلة السلطانية، وإثبات النصوص التي لها علاقة بهذه الرحلة، ومن هنا كان من مخططه الاطناب في الوصف، والتفصيل في الأخبار، بأسلوب ملائم.

أما ابن الخطيب في نفاضته فقد جمع بين منهجين مختلفين منهج وصفي اتبعه أثناء الرحلة في وصف البلدان والطرق والأشخاص، ومنهج تاريخي قص فيه الأحداث التي تزامنت مع هذه الرحلة، كما دون ما صدر عنه في فترة الرحلة من مؤلفات وقصائد ورسائل، بالاضافة إلى عرضه للتطورات والأحداث التي عرفها كل من غرناطة والمغرب قبيل الرحلة وأثناءها.

أما منهج الرحلات الصوفية فيهتدي أصحابها عموما بكتب الكرامات وتآليف الصوفية، لذلك يكثر فيها الحديث عن الخوارق والحكايات والأخبار الغريبة، ومن هنا يندر وضع مخطط واضح ثابت واختيار منهج قار في بداية الرحلة، لأن الرحلة مجموعة من المفاجآت والأقاصيص الطريفة، ولعل الرحلات التي تبدو فيها هذه السمات بوضوح هي رحلة زروق وتحفة المغترب،فلقد رأينا من قبل أن زروقا لم يضع منهجا لرحلته، و لم يخطط مراحلها منذ البداية، فالرحلة كانت بمثابة سنجن لم يختره كما لم يختر الوجهة والبلدان والطرق.

وأشرنا كذلك إلى أن الاهتمام بالكرامات يبدو أكثر في تحفة المغترب، فمنهجه يعتمد على الحكايات، والأخبار، والأقاصيص، مما جعل التسلسل منعدما بين

موضوعات الكتاب، لكن أنس الفقير يختلف بعض الشيء في الطريقة والمنهج، فمنهجه تاريخي ووصفي استخدم مؤلفه المنهج التاريخي في إثبات ما سمعه من حكايات ونوادر وأخبار وكرامات مما يحكى عن المتصوفة الذين ذكرهم من شيوخ أبي مدين وأصحابه وإخوانه.

واستعمل المنهج الوصفي الذي هو الصق بالرحلة، إذ تحدث من خلاله عما أتيح له من مشاهدة أو اتصال أثناء تجواله كحديثه عن الأضرحة، وموسم المتصوفة بدكالة، و تعداده للطوائف الصوفية.

ج ـ منهج تراجم الاعلام في الرحلات الفهرسية :

أهم ما يميز الرحلات الفهرسية على الخصوص أن تراجم الشيوخ والرجال فيها هو اللب والأساس، فهدفها كما أوضحناه يكاد ينحصر في جمع الفوائد والكتب والاستفادة من الاعلام، لذا يحسن التوقف معهم في المنهج الذي ساروا عليه في تعريفهم بالأشخاص، وسيكون مجال المقارنة محصورا بين الرحلات الحجازية الثلاث فحسب، لأنها هي التي أولت الأعلام ما تستحقه في تراجمها، ولكون الرحلات الأخرى التي اهتمت بمن لهم علاقة بالرحلة، لم يكن ما كتبته ينهض بتراجم تتحدد معها سمات المترجم لهم.

فمذكرات النميري لا تزيد على تحلية الشخصية بايجاز شديد، وأهم ما تورده عقب هذه التحلية هو بعض إنتاج المتحدث عنه.

أما ابن خلدون فلم يترجم في تعريفه إلا لتلك الصفوة من العلماء الذين استفاد منهم بتونس، حينما وفدوا في ركب السلطان أبي الحسن المريني.

واكتفى المقري أيضا بالاشارة السريعة والعبارة المختصرة، فما بأيدينا الآن لا يفيدنا كثيرا في معرفة الشخص وأحواله.

وما كتبه ابن الخطيب في النفاضة بالنسبة للاعلام لم يكن كافيا في تحديد سمات المترجم لهم، فبالرغم من كثرة من أشار إليهم من الاعلام في السفرين الأول والثاني إلا أن عمله لا يتعدى في الغالب التحلية، أو إيراد بعض النماذج لهؤلاء الأعلام، أو إثبات ابن الخطيب لبعض إنتاجه الذي له علاقة بالمتحدث عنهم.

ولا يختلف انس الفقير عن النفاضة في اهتمامه الجزئي بالنسبة للأعلام، فحديثه عنهم لا يشكل ترجمة كاملة، وإنما عبارة عن نتف يركز فيها على ما استفاده من

ذلك العلَم، أو يشير فيها إلى زهده وصلاحه، موردا بعض ما يحكى عن كراماته...

ومن هنا فإن أهم الرحلات الفهرسية التي يمكن أن نقارن بينها في منهج التراجم هي ملء العيبة، والرحلة المغربية، ومستفاد الرحلة.

وتجدر الاشارة إلى كثرة التراجم في هذه الرحلات التي لاحظنا بأنها أشبه بالرحلات الفهرسية، فرحلة ابن رشيد تضم أجزاؤها الباقية فقط ثلاثين ومائة ترجمة، ويخص العبدري تسعة وثلاثين علما بالترجمة في رحلته التي انصرف فيها أحيانا إلى الوصف الجغرافي والاجتماعي، أما التجيبي فيترجم في الجزء الباقي من رحلته لستة وثلاثين علما.

وتختلف هذه التراجم كما وكيفا، فهناك تراجم مسهبة جدا يتوخى الرحالة فيها الاحاطة بالمترجم وتآليفه وآثاره ورواياته وأحواله المختلفة، ونصادف تراجم أخرى موجزة جدا لم يتعد الرحالة فيها الاشارة السريعة، بينما نجد تراجم اتسمت بالاعتدال توسط فيها بين الايجاز والتفصيل.

ففي ملء العيبة مثلا نجد أبا الفضل التجاني قد حظي بترجمة وافية أنافت على تسعين صفحة[38]، كادت تستأثر بالجزء السابع كله. وتقترب منها ترجمة أبي اليمن ابن عساكر إذ تحتل أربعا وأربعين صفحة من الجزء الخامس[39]، ومثلها ترجمة ابن رزين[40].

ويحظى آخرون بترجمات متوسطة كتلك التي خص بها كلا من الغرافي[41] وابن النحاس[42] وابن دقيق العيد[43] وأبي جعفر اللبلي[44] بينما لم يحظ آخرون إلا

---

(38) رحلة ابن رشيد 7 : 4ب ــ 51أ كما سبق.

(39) نفسه 5 : 30ب ــ 52أ.

(40) نفسه 6 : 64أ ــ 83أ.

(41) رحلة ابن رشيد 3 : 10أ ــ 21ب.

(42) نفسه 3 : 22ب ــ 30ب.

(43) نفسه 3 : 57ب ــ 63أ، 5 : 66أ، 67ب.

(44) نفسه 2 : 27أ ــ 34ب.

بترجات قصيرة جدا كابن هلال التميمي القماح[45] الذي لم ينل من الرحلة أكثر من نصف صفحة، ومثقال الحبشي[46] الذي اكتفى ابن رشيد في تعريفه ببضعة أسطر.

أما العبدري في رحلته، فتراجمه على العموم كانت موجزة بالمقارنة مع تراجم ابن رشيد، فأطول ترجمة في هذه الرحلة لا تتعدى اثنتي عشرة صفحة، وهي التي خص بها تاج الدين الغرافي[47]، وخص كلا من ابن المنير[48] وأبي محمد الخلاسي[49] بتسع صفحات، وترجم لكل من أبي زيد الدباغ[50] وابن دقيق العيد[51] في سبع صفحات، ولابن رزين[52] في أربع صفحات، بينما لم تظفر منه بغض التراجم إلا بأسطر معدودة، فلقد خص ابن مزروع البصرى[53] وعلاء الدين الأعمى[54] بصفحة واحدة، وبدر الدين ابن جماعة[55] بأقل من صفحة، ولم يعرف بابن عبيد[56] إلا في نحو سطرين.

ونلحظ هذا التفاوت أيضا في تراجم التجيبي، إذ أن أطول ترجمة تصل إلى ست وأربعين صفحة وهي التي عرف فيها بأبي محمد التوني[57]، تليها ترجمة أبي إسحاق

---

(45) نفسه 3 : 9ب ــ 10أ.

(46) نفسه 3 : 3أ ــ ب.

(47) الرحلة المغربية ص 109 ــ 120.

(48) نفسه ص 100 / 108.

(49) نفسه ص 244 / 252.

(50) نفسه ص 66 ــ 72.

(51) نفسه ص 138 ــ 145.

(52) نفسه ص 252 ــ 256.

(53) نفسه ص 207 / 208.

(54) نفسه ص 220 / 221.

(55) نفسه ص 230 / 231.

(56) نفسه ص 236.

(57) مستفاد الرحلة ص 37 ــ 82

الطبري[58] في ست وثلاثين صفحة، ثم ترجمة ابن دقيق العيد[59]، في اثنتين وعشرين صفحة، أما ابن النحاس[60] فلم تتعد ترجمته ست صفحات، وأبو حيان النحوي[61] لم يظفر من الرحلة بأكثر من صفحتين، لكن أقصر التراجم هي التي خص بها التجيبي من لقيهم من العباد والزهاد بمكة[62].

وبالرغم من تفاوت هذه التراجم واختلافها من حيث الطول والقصر فإنها تتشابه في المنهج والطريقة، بما أبدته من تثبت الرحالين وترويهم في عرض المعلومات والحقائق عن الشخصية المترجمة، كتحقيق الاسم والنسب وتاريخ الولادة والوفاة، والتحدث عن علم المترجم، وأحواله، وكتبه، ورواياته، وشيوخه، ومجيزيه، ومن روى عنهم من العلماء والمحدثين...

كما برزت من خلال هذه التراجم دقة الرحالين في وصف المترجمين وذكر أخبارهم فلم يقولوا شيئا لم يتأكدوا منه، ولم يصفوا من ترجموهم بما لم يلاحظوه بأنفسهم، ويحسن أن نورد ما قاله ابن رشيد في توضيح بعض خصائص هذا المنهج المتشدد المتحري يقول : «وكذلك من وصفته من شيوخنا وأصحابنا بصفة أو حليته بحلية، فلم أتجاوز في أوصافهم، بل جئت بما هو أقرب إلى إنصافهم، وإن سلك في بعضها على عادة أهل الأدب من الشعراء والكتاب، فما قلت إلا بما علمت بعد، ويشهد لهم بذلك مالهم من السؤدد والمجد، ولم أذكر منهم ما لعله ينقم علي ذكره إلا النادر ممن عرف أمره، ولم أورد عنه إلا شيئا من نظمه، أو ما أنشده لي من غيره، وأشرت إلى التنبيه على أحوالهم من غير إفصاح، وذلك مغن عن الايضاح»[63]

والقارىء لهذه التراجم المختلفة في الرحلات المشار إليها ينتهي إلى ما يلي :

1 ــ إن لتراجم الرحالين سمة خاصة ونكهة معينة، تختلف بها عما نجده في

---

(58) نفسه ص 380 ــ 415.

(59) نفسه ص 16 ــ 37.

(60) نفسه ص 82 / 88.

(61) نفسه ص 140 / 142.

(62) نفسه ص 455 / 458.

(63) رحلة ابن رشيد 7 : 64أ.

كتب التراجم والطبقات، فبالرغم من أن الرحالة يعود من حين لآخر إلى مصادر معينة، إلا أن أهم الأخبار والمعلومات التي اعتمد عليها كانت ثمرة احتكاك واتصال، فالشخص المترجم في الرحلة من أصدقاء الرحالة ورفقائه في الطريق والمجالس العلمية، والنزه والمسامرات...[64]

2 ـــ يمكن اعتبار هذه التراجم من التراجم الذاتية أيضا فهي ترجمة للرحالة نفسه بطريقة غير مباشرة، تلقي الضوء على أحواله ومستواه العلمي ومواقفه المختلفة والأماكن التي ارتادها للقاء العلماء، والكتب التي اشتغل بها، والفوائد التي حصل عليها، والآراء التي أبداها ونالت إعجاب الشيخ المترجم.

والأمثلة كثيرة في التراجم العديدة كترجمة ابن رشيد لكل من ابن النحاس[65]، وابن دقيق العيد[66]، وإبن حبيش[67]، والتجاني[68]، ونلحظ الشيء نفسه في ترجمة العبدري لكل من ابن المنير[69] وتاج الدين الغرافي[70]، وابن دقيق العيد[71].

3 ـــ وفي التراجم أيضا تفاصيل عمن يحضر مجالس الشيخ المترجم من أقران الرحالة وأصحابه، وهكذا نعرف أخبار كثيرين من الذين كانوا يقرأون في مجالس الدرس التي يعقدها المترجمون، ففي ترجمة ابن رشيد لابن الغمار نعرف أن القارىء هو أبو العباس أحمد بن يوسف الكتاني، وكان بطيء القراءة، ويحب مع ذلك المباحثة[72].

---

(64) مستفاد الرحلة ص 432 مثلا وكذلك ابن رشيد والعبدري .

(65) رحلة ابن رشيد 3 : 22ب.

(66) نفسه 3 : 57.

(67) رحلة ابن رشيد 2 : 1.

(68) نفسه 7 : 4ب.

(69) الرحلة المغربية ص 101.

(70) نفسه ص 120.

(71) نفسه ص 139.

(72) رحلة ابن رشيد 6 : 21ب.

4 ــ لا تكتفي هذه التراجم بذكر الأحوال المألوفة للمترجم، وهي التي تتعلق ببيئته وأخلاقه وثقافته، بل تلقي الضوء على النواحي العقلية والمزاجية للمترجمين، مما يجعلها ذات أهمية خاصة تنفرد بها، ويمكننا أن نجد أمثلة في كل التراجم الواردة في الرحلات كترجمة ابن دقيق العيد في كل من الرحلة المغربية[73]، ومستفاد الرحلة[74] إذ يشيران معا إلى ما عبر عنه العبدري بقوله عن ناحية من شخصيته، وهي «وسوسة تصحبه وأخلاق يجل عنها منصبه»[75]

ويتعمق ابن رشيد شخصيات كثيرة كابن حبيش[76] وابن رزين[77]، وأبي جعفر اللبي...[78]

5 ــ وتفيدنا هذه التراجم أيضا في التعرف على أخلاق المترجمين التي كثيرا ما تهمل في كتب التراجم والطبقات، إذ نتبين مما ورد فيها بأن الناحية الخلقية كانت هي الأساس في التربية والأخذ عن الشيخ والترجمة له، فابن رشيد يتحامى حضور مجلس أبي العباس أحمد بن يوسف الغمري «لضجر في خلقه»[79]. والعبدري انصرف عن مجلس ابن عبيد بطرابلس لأنه رآه قليل التوقير لمجلس العلم[80].

كما أنها تحتوي على تفاصيل يعز وجودها في الكتب الأخرى كمكان الاقراء وأحوال الشيخ وما إلى ذلك.

---

(73) الرحلة المغربية ص 138.

(74) مستفاد الرحلة ص 16.

(75) الرحلة المغربية ص 139.

(76) رحلة ابن رشيد 2 : 1أ، 6 : 33ب.

(77) نفسه 6 : 64أ.

(78) نفسه 2 : 27أ.

(79) نفسه 6 : 63ب.

(80) الرحلة المغربية ص 236.

وهكذا فإن المعلومات التي نظفر بها في تراجم الرحلات لا نعثر عليها حتما في كتب التراجم والطبقات والكتب الموضوعية، لأن الرحالة لا يعتمد فيما يدونه على ما يمكن أن يستفيده من المصادر والمراجع، بل يستفيد إلى جانب ذلك من اتصالاته المباشرة مع المترجمين كحديثه عن لقاءاته بالمترجمين، وما جرى فيها من أحاديث ومناقشات، وما ألقي من دروس ومناظرات، إلى جانب اهتمام الرحالة بزوايا كثيرة من شخصية المترجمين، مما له علاقة بنواحي عقلية ومزاجية ونفسية.

III ــ أسلوب الرحلات :

بعد استعراضنا للرحلات المختلفة التي تنتمي إلى هذه الفترة يستوقفنا سؤال مهم، وهو ما الأسلوب الذي استعمل في كل هذه الرحلات ؟ هل انساقت في تعبيرها مع التيار الذي كان طبع حينئذ الكتابة في المشرق ؟ وهو الولوع بالزخرفة والتصنيع الذي أضحى بدعة العصور الوسطى في رأي شوقي ضيف[81] ؟ أم إنها سلكت نهجا مغايرا لهذا التيار في الأسلوب والتعبير ؟

الحقيقة أن هذه الرحلات لم تتبع منهجا واحدا في أسلوبها و لم تنسج على منوال معين في تعبيرها، بل تعددت طرق هذا التعبير تبعا لتعدد مناهجها وأنواعها، إذ تأثر الأسلوب بالمنهج أو الشكل الذي التزم به الرحالة في رحلته.

فالرحلات الفهرسية عموما بدا فيها التأثر بأسلوب المحدثين وطرقهم التعبيرية ومصطلحاتهم، فلم يكد ينفلت أحد من تأثير هذا المنهج والأسلوب الحديثيين.

بينما اتسمت الرحلات الصوفية بطابع معين فاختطت لنفسها أسلوباً مغايرا يميل إلى البساطة في التعبير والتركيب، أما الرحلات الأخرى (سياحية، علمية، رسمية) فلها طابع مغاير إذ أنها تتأرجح في أسلوبها بين الاندفاع نحو الصنعة والزخرف والمحسنات البديعية، أو الميل إلى البساطة والتعبير العفوي البعيد عن التكلف.

---

(81) الفن ومذاهبه في النثر العربي ص 385.

أ ــ أسلوب الرحلات الفهرسية :

بالرغم من تأثر الرحلات الفهرسية في أسلوبها بالطريقة الحديثية، واستعارتها المصطلحات والألفاظ والتراكيب منها، فإن أسلوبها مع ذلك يختلف تبعا لأسلوب صاحب الرحلة، أو لطريقة تدوين هذه الرحلات وما إلى ذلك، ومن هنا يحسن التوقف مع كل منها على حدة.

1 ــ أسلوب رحلة ابن رشيد :

إن النتيجة التي ينتهي إليها المطلع على ملء العيبة هي أن أسلوبها لم يتسم بالتكلف ولم يتقيد بالسجع أو المحسنات البديعية إلا لماماً وبطريقة عفوية، وهكذا لم نلحظ حرص ابن رشيد على هذا التأنق في الأسلوب، إلا في مواطن معدودة، كتقديمه للشيوخ، ووصفه لبعض الآثار والمسالك والنزه، وبعض رسائله إلى الأقران والأصحاب.

وتختلف ديباجاته الفنية في تقديم الشيوخ من حيث الطول والقصر فبعضها لا يتجاوز جملا معدودة، وبعضها ناله شيء من الأطناب. ولعل من أهم التحليات والتراجم التي حرص فيها على التفنن في التعبير والتأنق في الأسلوب ما قاله في ديباجة التعريف بابن حبيش[82] وأبي عبد الله ابن أبي تميم الحميري[83]، وأبي محمد

---

(82) رحلة ابن رشيد 2 : 1أ.

(83) نفسه 2 : 58.

الطبيري[84]، وأبي عبد الله ابن الخيمي[85]، وابن دقيق العيد[86]، وابن النحاس[87]، وابن جون المراكشي[88]، وأبي الفضل التجاني[89]....

وكما تختلف هذه الديباجات المشار إليها طولا وقصرا فإنها تختلف أيضا من حيث الميل إلى استعمال البديع والتفنن في الأسلوب، ففي بعضها يكتفي ابن رشيد ببعض السجعات يدرجها ضمن سياق الترجمة يقول مثلا في تقديم ابن النحاس : «أحد أعلام علماء الديار المقدسة المصرية، إمام في العربية والآداب والخلاف، وله نظم رائق، ونثر فائق، وكرم ذات، وفضل أدوات، ومروءة ظاهرة، وخلق طاهرة، ورواء وبهاء»[90].

لكنه قد يميل في بعض التراجم إلى العناية بالأسلوب وذلك بالتزام المحسنات البديعية، والتأنق في التعبير، وتتجلى العناية الأسلوبية بوضوح في الترجمة التي خص بها صاحبه أبا الفضل التجاني جاء فيها قوله :

«يشارك في فنون من الطلب، نحو ولغة وبيان، ويتقدم في الكتابة والخطابة ونحوهما بأبلغ معنى، وأحصف نسج وأفصح لفظ واتقن رقم وأحسن وشي وُشيَ ببيان، ويحكم أنواعا من الخط، كلها رفيع غير منحط، تفوق صناعتها، وتروق نصاعتها، ويحفظ ما ابتدعه وأنشأه، وإن أخر زمن إيراده وأنسأه، ويأتي به كأنه بين يديه مشاهد، أو متداول حفظه له ومتعاهد»[91]

ويبدو من خلال هذا النص حرصه الكبير على التزام السجع واستعمال المحسنات البديعية، كالترصيع والجناس والترادف ومراعاة التوازن بين الكلمات والجمل،

---

(84) نفسه 2 : 17أ.

(85) نفسه 3 : 46أ.

(86) نفسه 3 : 57ب.

(87) نفسه 3 : 22ب.

(88) نفسه 6 : 1ب.

(89) نفسه 7 : 5أ.

(90) نفسه 3 : 22ب.

(91) رحلة ابن رشيد 7 : 5.

لاحداث إيقاع موسيقى، وتناسب صوتي معين، ولعل ميله إلى الاكثار من الصنعة في ترجمة التجاني خاصة راجع بدون شك إلى المستوى الأدبي الرفيع لهذا الأخير وما كان بينهما من تجاوب وانسجام.

ويمكن أن نلحظ أيضا هذه العناية بالأسلوب ونحس الرغبة في تنقيح العبارات وتنميقها، في بعض ما صدر عنه من أوصاف لما شاهده في رحلته، كوصفه للنزهة[92] التي جمعته بتونس مع فضلاء الأصحاب، ووصفه لمنار الاسكندرية[93]، ووصف حوران[94]، ومغادرته للمدينة المنورة[95]، ودخوله لمكة البلد الأمين...[96] إلا أن عنايته بالأسلوب متفاوتة، فتارة يتأنق في أسلوبه بطريقة لا يبتعد فيها عن العفوية، إذ لا يثقل أسلوبه بالمحسنات البادية التكلف، وإنما يستعمل منها القدر الذي لا يمجه الذوق ولا يرفضه الطبع، كقوله في وصف الاسكندرية : «ومن عجائب الاسكندرية منارها الذي يعجز عنه الواصف، ويحار فيه الراصف، وضخامته من داخله أكثر مما هي من خارجه، وهو من عجائب المصنو عات وغرائب المرئيات قاس أحد أصحابنا جانبه البحري مائة ونيفا على عشرين قدما»[97] إلا أننا نلحظ في وصفه للرحيل عن المدينة جريه وراء المحسنات وميله إلى الأسجاع يقول :

«...وارتفعت الأصوات بالتلبية، ورجي من المنعم الوهاب قبول تلك الأدعية، ورحلنا من هناك قريب الظهر راغبين من الله في قبول الزيارة، وتتميم ما شرعنا فيه من العمل الرابح التجارة، داعين إلى الله أن يصحبنا السلامة، في كل حال وترحال، في الأبدان والأقوال والأفعال، اللهم أتمم علينا نعمتك، وبلغنا حرمك، وأفض علينا كرمك...»[98].

---

(92) نفسه 2 : 60أ.

(93) نفسه3 : 20ب

(94) نفسه 5 : 2ب.

(95) نفسه 5 : 15أ.

(96) نفسه 5 : 16أ.

(97) رحلة ابن رشيد 3 : 20ب.

(98) نفسه 5 : 15أ.

فالحرص على التأنق باد في سجعاته، إذ يتصيد اللفظة المناسبة التي يكتمل بها الايقاع، مع أنه كان بالامكان الاكتفاء بالأسلوب المرسل.

وأهم النماذج التي تظهر نثره الفني في الرحلة تلك الرسائل التي تبادلها في تونس مع كل من أبي الفضل التجاني[99] وابن رزين[100] فلقد بدا فيها متأثرا بأسلوب ابن العميد، من التزام السجع ومراعاة الجناس، وميل إلى الأطناب والترادف، بل إنه يمتح في بعض هذه الرسائل من أسلوب القاضي الفاضل باعتماده على التشخيص في إبراز الأفكار والمعاني، واستغلاله للمصطلحات العلمية وخاصة مصطلحات الفقه والحديث والعلوم الانسانية المختلفة كما يتبين مما قاله في مراجعته على جواب لأبي الفضل التجاني يقول :

«...فبالله يا ذا الفضائل، ورب العقائل، أنظر إلي بعين الرفق، وانظرني إلى زمن اليسر في أداء هذا الحق، فقد أفلست وأعسرت، ونصبت ركيتي ونصبت بديهتي ورويتي، وأكديت وأجبلت، ودع فكري ينزع قليلا، فقد تركته عليلا فليلا، وانشقى من لدنك نسيما بليلا، وإن رضيت ياذا المجد، بدلا عن النقد بوافر الشكر والحمد، فحناني لا يعرف غيره، ولساني لا يسير إلا سيره، ولشد علي من اقتضاء دين الجواب، ما إن لم اؤده عدلت عن الصواب، وهو إرضاء الضرتين، والعدل في القسم بين الزوجتين، فقد نثرت الأولى علي، لما رأت من حظوة الثانية لدي، فقلت لها انت وإن كان لك سبق، فللداخلة عليك حق، وليس الأمر ببدع، وأما في الباطن فقد عفا عنه عالم السرائر، وإن تماديت على النشوز فلأ خطبن إليه ثالثة، فقالت علي للوفا يمين، ومثلي فيها لا يمين، وإني لأخالها بعد الحلف ناكثة...»

وهكذا يسترسل في هذا الحوار الذي يشخص فيه الرسالتين وكأنهما ضرتان زفتا إليه

والنص يعكس المستوى الجيد لابن رشيد، فإلى جانب ثراء معجمه اللغوي المتمثل في قدرته على اختيار اللفظة المناسبة لاكمال السجعات، تبدو ثقافته الفقهية التي استغلها في إجراء الحوار المتخيل بين الرسالتين «الضرتين» فاطلاعه الفقهي هو

---

(99) نفسه 7 : 31أ.

(100) نفسه 6 : 80 / 81.

الذي يهديه ويوجهه، وبذلك كثرت المصطلحات الفقهية كالنشوز والقسم في المبيت، والحنث...وفي النص ولوع بالمحسنات البديعية والصنعة كاستعماله للجناس والمقابلة وتضمين الحديث الشريف...

ويتجلى الاهتمام بالتنميق في الأسلوب، والميل إلى الصنعة، فيما كتبه في آخر رحلته لتوضيح مقاصده من تدوين الرحلة وتفصيله لمنهجه فيها،حيث التزم بكل أشكال البديع، طيلة عرضه لهذا المخطط الذي تجاوز أربع صفحات، يكفينا أن نجتزىء منها ببعض الجمل للتعرف على المنحى الأسلوبي يقول : «ولما أنعم الله سبحانه بتيسير الغرض، من هذا التقييد الذي كسي ببركة التوجه لاداء المفترض، سنح ببالي أن بعض ما ذكر فيه قد يعترضه من أعرض، ممن لا يفرق بين الجوهر والعرض، فرأيت أن أبين كيف وقع الحال، في ما اشتمل عليه بين الحل والترحال فأقول، والله في العفو والصفح المسول، أني لم أكن قصدته مقصد التصانيف المهذبة، ولا التآليف المركبة...»[101] ويستمر على هذا المنوال بأسلوب مهذب ومنقح، يبدو فيه ملتزما بالسجع، والجناس، والمقابلة...

ولا شك أن الجزءين المفقودين من الرحلة تضمنا نصوصا أخرى من هذا القبيل على نحو ما كتبه في التعريف بحازم القرطاجني والذي أورده كل من السيوطي[102] والمقري[103]

ونفترض أنه أسهب في مقدمة الجزء الأول لايضاح الهدف من التدوين، والطريقة التي اختارها في تنظيم رحلته، جريا على عادته في تقديم كتبه، حتى في الكتب التي أفردها للعلوم الحديثية ككتابيه إفادة النصيح[104] والسنن الابين[105].

وفي غير هذه المواطن والنماذج المشار إليها لم يكن ينتقي ألفاظه وتعابيره، بل يبدو أسير علم الحديث رواية ودراية وأسلوبا ومصطلحات، ولا يستغرب ذلك

أ

---

(101) رحلة ابن رشيد 7 : 64أ.

(102) بغية الوعاة 1 : 491.

(103) أزهار الرياض 3 : 172، تقدم النص في المبحث الخاص برحلة ابن رشيد.

(104) إفادة النصيح ص 1 / 2.

(105) السنن الابين 1 / 6.

من شخص يصفه ابن الخطيب بأنه كان «تام العناية بصناعة الحديث، قيما عليها، بصيرا بها، محققا فيها»(106) لذا أكثر في غالب النصوص الواردة في الرحلة من استعمال المصطلحات الحديثية، وسلك منهج المحدثين في الحرص على ضبط الكلمات وتحقيقها(107)

إلا أن النماذج النثرية الفنية المذكورة كافية للتعرف على قدرته في الصياغة الأسلوبية الرائعة، ففيها يتجلى لنا رصيده الفني وتحكمه في اللفظة والجملة، مما جعل أسلوبه رغم انجذابه إلى المحسنات والتزامه بالسجع، يبدو أقرب إلى السليقة والعفوية منها إلى التكلف، ولعل هذا ما حذا بأبي البركات البلفيقي إلى وصفه بأنه «يجود النثر ويبصر موافع حسنه»(108).

ولا بد من الاشارة هنا إلى أنه رغم مستواه الفني الجيد، لم يكن يتهافت على هذا اللون من الزخرفة اللفظية، بدليل أنه لم يقدم على جواب التجاني بهذا اللون الفني إلا بإلحاح الأصدقاء وتأثيرهم عليه، ومن هنا فأسلوبه المتحرر المرسل هو الذي يغلب على الرحلة، إذ النماذج الفنية التي أوردناها قليلة بالقياس لغيرها وهذا هو الذي انتهى إليه أستاذنا حين يقول : «فأسلوبه فيها متحرر غالبا، إلا عندما يتعرض لتحلية رجل أو لتنويه ببقعة مباركة... وفيما عدا هذا فإنه في الرحلة ينطلق غالبا في سرد الوقائع ولا يستجيب للمحسنات والحذلقات اللفظية أو المعنوية»(109)

2 ــ أسلوب الرحلة المغربية :

لخص الباحث الروسي كراتشكوفسكي رأيه في أسلوب العبدري قائلا : «فعلى الرغم من أن أسلوبه لا يخلو من التكلف إلا أنه يكتب في نفس الوقت بحرية ويسر، بحيث لايصل إلى درجة المبالغة الممجوجة التي نلتقي بها لدى ممثلي الأجيال التالية»(110)، فإلى أي حد ينطبق هذا الحكم على الرحلة المغربية ؟

---

(106) الاحاطة 3 : 135.

(107) رحلة ابن رشيد 5 : 57، 6 : 104.

(108) الأزهار 2 : 348.

(109) الوافي بالادب العربي 2 : 387 / 388.

(110) تاريخ الادب الجغرافي 1 : 368.

إن نظرة متأنية إلى فصول الرحلة وأجزائها تجعلنا نتبين أيضا أسلوب العبدري فيها، فلم يستمر في كل الصفحات على وتيرة واحدة، ولم يلتزم منحى معينا في الكتابة، وهكذا فالقارىء للرحلة ينتقل عبر ثلاثة مستويات أسلوبية :

الأول : لاتوجد عليه أية مسحة للتأنق والزخرفة وهذا هو الذي ينتظم أغلب التراجم والأوصاف والسرد والمناقشات المختلفة، أما الثاني فتبدو فيه عناية الكاتب واحتفاله بالأسلوب، وتفننه في الاسجاع وتصيده لمصطلحات البديع، ومع أن كل من درس العبدري أشار إلى مبالغته وتكلفه البديعي إلا أننا نرى أن هذا النمط الأسلوبي لا ينتظم في سلكه إلا أربع تراجم وعشرة مواضع اهتم فيها بوصف البلدان.

أما المستوى الثالث فيتمثل في تلك الفقرات التي جمع فيها بين مستويي الكتابة وزاوج فيها بين الأسلوبين وامتطى المركبين معا.

ومن نماذج أسلوبه المرسل[111] ما كتبه في التعريف بابن خميس التلمساني، وابن هريرة، وأبي القاسم اللبيدي، وابن رزين، وأبي عبد الله الأزدي، جاء في تقديم ابن خميس قوله : «وما رأيت بمدينة تلمسان من ينتمي إلى العلم ولا من يتعلق منه بسبب سوى صاحبنا أبي عبد الله محمد بن محمد بن خميس، وهو فتي السن مولده عام خمسين، وله عناية بالعلم مع الراغب فيه والمعين عليه، وحظه وافر من الأدب وطبع فاضل في قرض الشعر» إلى آخر النص الذي يبدو الاهتمام فيه منصبا على الفكرة والحرص على وضوحها بتجنب الكلمات الغريبة، والمحسنات البديعية والتعقيد اللفظي. وهكذا مال العبدري إلى البساطة والتحلل من تعقيدات الأسجاع في ميدان قلما ينفصل عن السجع وهو ميدان الوصف فلقد وصف بأسلوبه المتحرر كلا من القدس، وغزة، والمدينة المنورة، ومعالم مكة، والاهرام، ومنار الاسكندرية، وجامع القيروان، وما إلى ذلك.

ونكتفي من هذه النماذج الوصفية المتحررة من السجع في الأسلوب، بما قاله في المدينة المنورة واصفا معالمها :

«مدينة مليحة ظاهرة الشراقة والرونق، وموضوعة في مستوى من الأرض على واد به غابة عظيمة من النخل، وأرضها سبخة، وبظاهرها حرة سوداء ووعر

(111) أنظر الرحلة المغربية ص 13، 44، 243، 252، 263.

وسورها قد أثر فيه القدم، وتربته حمراء، ولها جملة أبواب لا أحصي عدتها، والبقيع شرقيها، وجبل أحد شمالها، وهو جبل عال إلى الحمرة وليس بمفروط العلو، وقباء منها في جهة الشرق تلوح مبانيه. وصومعته من المدينة وبينهما نحو من ثلاثة أميال، وفي البقيع زاده الله طهارة من المزارات الشريفة ما لا يحصره وصف من قبور الصحابة والتابعين والعلماء والصالحين، وعلى أكثرها مبان وقباب متقنة»(112)

فالأسلوب بسيط عارٍ من كل الأصباغ والمحسنات البديعية، متحرر من السجع وقيود الصنعة المختلفة، يحدو الكاتب فيه توصيل الأفكار، وتأدية المعاني ومن هنا لم يحد عن استعمال الألفاظ الواضحة والتراكيب العادية السليمة في إبراز هذه الأفكار دون تعتيم أو تأويل أو تحليق في أجواء الخيال، وتدخل ضمن مجال هذا الأسلوب المتحرر أبحاثه الفقهية والفصول التي خصصها لمناقشة بعض المسائل والقضايا العلمية المختلفة في اللغة والفقه والتفسير(113).

وإذا تدرجنا مع العبدري في رحلته فإننا نصادف أسلوبا يمكن أن نعتبره جسرا بين ذلك الأسلوب المتحرر الذي تحدثنا عنه وأسلوبه المنمق الذي سنفصل فيه القول فيما بعد ذلك لأن هذا الأسلوب «الجسر» جمع فيه العبدري بين النمطين معا في الوصف خاصة، وهو في ذلك قد سلك طريقتين مختلفتين أيضا، فتارة يبدأ وصفه بأسلوب متحرر مرسل لينتهي إلى أسلوب مسجع منمق بالمحسنات البديعية على نحو ما نجده في وصف مدينة تلمسان(114) ومدينة سوسة(115).

وتارة أخرى يبدأ وصفه بأسلوب يلتزم فيه الزخرفة والصنعة ثم يتخلى عنه إلى الانسياب مع التعبير البسيط والأسلوب المتحرر كما هو الحال في وصف مدينة تونس(116)، ومدينة الخليل(117)، وكأن هذه اللوحات المسجوعة وقفات يستريح فيها الكاتب ثم يتحرر من قيود البديع والصنعة.

---

(112) الرحلة المغربية ص 203.

(113) أنظر مثلا صفحات 60، 123، 188.

(114) الرحلة المغربية ص 11.

(115) نفسه ص 238.

(116) نفسه ص 39.

(117) نفسه ص 221.

ونصل إلى المستوى الأسلوبي الثالث الذي مال فيه العبدري إلى التأنق والزخرفة، وتفنن في التعبير والتزم السجع والمحسنات البديعية المختلفة، وكتب على هذا النحو بعض التراجم، وكثيرا من الأوصاف.

فلقد اصطنع العبدري هذا الأسلوب الفني المنمق فيما ترجم به لكل من ابن دقيق العيد، وعلاء الدين الأعمى، وأبي العباس الغماز، وأبي العباس الأشعري(118)، ونكتفي في هذا الباب بما كتبه في تقديم شخصية ابن دقيق العيد يقول : «...لقيت منه حبرا يحق له اللقاء، وبحرا من علم لا تكدره الدلاء، وطبا آسيا يشفي بقوله الداء العياء، له تفنن في فنون العلوم، وتسلط عليها بذهن يرد المجهول إلى المعلوم، وقلما يلفى له في سعة المعارف نظير، أو يوجد من يماثله في صحة البحث والتنقير، وله في البلاد ذكر شهير، وصيت مستطير، وخطر يضرب في كل فن بسهم مصيب، ويحظى منه بأوفر نصيب»(119)

فالتزامه هنا بالبديع واضح، لايكتفي فيه بالتزام السجع وإنما يراعى أيضا التوازن بين الجمل، والاكثار من الجناس المتعدد الأشكال، وما إلى ذلك.

ولعل الميدان الذي أكثر فيه من الصنعة والتأنق، واصطنع النثر الفني، هو ميدان الوصف، وخاصة فيما كتبه عن مليانة، وبجاية، وقسنطينة، وبونة، والقيروان، والقاهرة، ومكة، والمدينة، وتونس، في الصدور. وما وصف به الطريق بين غزة والشام(120).

ونلمس في هذه الأوصاف جميعها شدة عناية العبدري بالاسلوب المنمق، ومسايرة المدرسة البديعية من التزام السجع في نهاية الجمل، ومراعاة التوازن بين أجزاء الجملة الواحدة باستغلال ما يحدثه السجع الداخلي، من تلوين صوتي وإيقاع موسيقي بالاضافة إلى تضمين القرآن والحديث والشعر والأمثال والاكثار من الاشارات التاريخية، واستغلال مصطلحات العلوم المختلفة، والاعتماد على التشخيص والتصوير...

---

(118) أنظر الرحلة المغربية ص 138، 220، 240، 267.

(119) نفسه ص 138 / 139.

(120) الرحلة المغربية ص 24، 26، 32، 37، 64، 126، 170، 201، 233، 239.

ولا يمكننا الالمام بكل مظاهر هذا الأسلوب البديعي المنمق إلا بالوقوف على كل النصوص المشار إليها لذلك سنكتفي هنا بالاقتراب من بعض نماذج هذا الأسلوب على نحو ما وصف به قسنطينة حيث يقول : «ثم وصلنا إلى البلد الذي نشفت الخطوب معينه وأبت الأقدار أن تكون له معينة، بلد الوضع العجيب، والموضع الخصيب، مدينة قسنطينة جبر الله صدعها، وكفاها من نوائب الدهر ما واصل قرعها، وهي مدينة عجيبة حصينة، غير أنها لخطوب الزمان مستكينة، قد ذبلت ببوارح الغير وفوادح الضرر رياضها، ونضبت بسهائم الآفات وعظائم الملمات حياضها، حتى صارت كالحسناء لبست أسمالا، والكريم فقد مالا، والبطل أثخنته الجراحة حتى لم يطق احتمالا»(121)

والنص كما لا يخفى حوى كثيرا من معالم المدرسة البديعية، فهناك التزام للسجع بين الجمل، و لم يكتف بايراده في أواخر الجمل، فلقد راعى أسجاعا داخلية قصيرة مخالفة للسجعة الطويلة في نهاية الجمل، مما أكسب الجمل ذلك الايقاع المحبب والتلوين الصوتي المعين، ولعل حرصه على توفير هذا الايقاع هو الذي دفعه إلى تنويع الجمل وعددها، فهناك الطويل والقصير، وهناك التوافق بين أربع سجعات أو ثلاث وأحيانا لا يراعى هذا السجع إلا بين جملتين، ثم إن حرصه على توفير السجع جعل النص مملوءا بالجناسات المختلفة، مما خدم الجانب الايقاعي وساعد على اكتماله.

ولقد اعتمد على التشخيص في إبراز الصور المختلفة انطلاقا من التشبيه والاستعارة، فقسنطينة يصيب رياضها الذبول، بعد أن نشفت الخطوب معينها، فالمدينة كالحسناء لبست أسمالا... والبطل أثخنته الجراحة...وهكذا يأتي النص في قمة المدرسة البديعية نظرا للاطلاع الواسع والتعمق اللغوي والعلمي اللذين عرف بهما العبدري، واستطاع توظيف كل ذلك في إغناء الصور التعبيرية وإثرائها كما يبدو في وصفه لمدينة بونة إذ يقول : «ثم وصلنا إلى مدينة بونة، فوجدناها بلدة بطوارق الغير مغبوبة، مبسوطة البسيط، ولكنها بزحف النوائب مطوية مخبونة، تلاحظ من كثب فحوصا ممتدة، وتراعى من البحر جزره ومده، تغار لها العيون من جور

(121) نفسه ص 32.

النوائب، وتأسى لها النفوس من الأسهم الصوائب وقد أزعج السفر عن حلولها، فلم أقض وطرا من دخولها»(122)

والنص يكشف عن ثقافة العبدري من خلال تتبعه لمصطلحات العروض فلفظة «بونة» تقود إلى سلسلة من المصطلحات التي تناسب بنيتها وتتواقف معها لتأتي السجعة مناسبة، كما تتراءى لنا ثقافته الموسوعية من خلال إكثاره من الاقتباسات والتضمينات والاشارات التاريخية فيما تحدث به عن أهل القاهرة يقول : «فجوادهم أبخل من الحباحب، وشجاعهم أجبن من صافر الجنادب، وعالمهم أجهل من فراش، ورفيعهم أوضع من خشاش، ورصينهم أحير من خداش، وجميلهم أقبح من غول، وصحيحهم أسقم من مذبول، وفصيحهم أعيى من باقل، وعزيزهم أذل من سائل، يمشي الكرم بينهم مطرقا ومقنعا، وينفق اللؤم لديهم مفرقا ومجمعا»(123).

وهكذا نحس بأن زاده العلمي لا ينفذ فاطلاعه الواسع على التاريخ والأدب العربيين يتجلى من كل ما دونه في الرحلة.

فلقد تبينا من استعراضنا لنماذج من الرحلة قدرة العبدري على اقتحام الميدانين معا، ونعني بهما كتابته بأسلوب متحرر من كل القيود، وكتابته بأسلوب يهتدي فيه بمعالم المدرسة البديعية، وهكذا تدرجنا معه في مستوياته الأسلوبية، من أسلوب مرسل بسيط، وهو الذي ينتظم أغلب ما في الرحلة، وأسلوب زواج فيه بين أسلوبين مختلفين وهو الذي اعتبرناه جسرا بين المستوى الأول المتحرر، والمستوى الثالث الذي أبدى فيه قدرة نادرة على اقتحام ميدان البديع بكل ما يستلزمه من سجع، وجناس، وترادف، وتكرار، وتلوين إيقاعي، ولقد رأينا أن الغرام بالأسلوب البديعي المثقل بالصنعة والزخرفة لم يتملكه إلا في نصوص معدودة من الرحلة أشرنا إليها من قبل، وهذا يتفق مع ما انتهى إليه أستاذنا بعد استعراض نموذجين لأسلوبه الوصفي : «ففي هذا الوصف نجد أسلوبين مختلفين، كما وجدنا في رحلة ابن رشيد، نجد عند التنويه التزام الصنعة، التزاماً كليا، يطغى عليها السجع طغيانا غامرا، يجعل صاحبه يتصيد الجمل ليحصل في نهايتها على سجعة تنسجم مع سابقتها أو لاحقتها»(124).

---

(122) الرحلة المغربية ص 37.

(123) الرحلة المغربية ص 126.

(124) الوافي بالادب العربي 2 : 394.

ومن هنا فالباحث المتأني لا يمكنه أن يسم أسلوبه كله بالتكلف والتعقيد، ففي نظرنا أن كتابته لم تنحدر إلى درك التكلف حتى في المستوى الثالث، الذي أغرم فيه بالبديع والصنعة. ولا ندري كيف اعتبر مؤلف «الجغرافيون العرب» أسلوب العبدري دون أسلوب ابن بطوطة يقول : «وهو يشبه ابن بطوطة في طريقة روايته لأخبار رحلته، ولكنه يفترق عنه فيما يبدو على أسلوبه من تكلف وجري وراء الألفاظ(125)» فلم يكن صاحب تاريخ الأدب الجغرافي مبالغاً حين وصف عرض العبدري في الرحلة «بالصدق والدقة في الرواية والحيوية والرشاقة في الأسلوب»(126).

3 ـــ أسلوب مستفاد الرحلة :

أهم ما يميز أسلوب التجيبي في مستفاد الرحلة أنه أسلوب لم يتقيد فيه صاحبه بألوان البديع و لم يثقله بالمحسنات المختلفة، إلا أنه بدا متأثرا فيه بالطريقة الحديثية في التعابير والتراكيب، وهكذا كثرت مصطلحات أهل الحديث مما هو مستعمل عندهم في الرواية والاسناد والقراءة والتحمل والاجازة... كما انتشرت في الرحلة أيضا ألفاظ مصطلح الحديث وعلم الجرح والتعديل كقوله مثلا في التعليق على حديث «اللهم إليك أسلمت نفسي..»:

«هذا حديث صحيح، عال عشاري الاسناد، متفق على صحته وثبوته»(127)
وبالرغم من عدم التزامه بالزخرف اللفظي والصنعة البديعية، في أسلوبه، إلا أنه قد تنفلت منه بعض السجعات العفوية في معرض أوصافه أو في ديباجات التعريف ببعض الأعلام يقول مستقبلا مكة المكرمة :

«ثم حلقت رأسي بالمروة، وأحللت من عمرتي، ونلت بحمد الله بغيتي، فالحمد لله الذي أنالنا المتمنى، ويسر لنا وسني، من الوصول إلى حرمه الشريف أفضل ميسر ومسنى، وكان نزولنا بهذا البلد الأمين بدار ملاصقة لباب الصفا المعظم وكان في حائطها القبلي طاق فيه شباك حديد، يبصر القاعد خلف هذا الشباك البيت المعظم

---

(125) الجغرافيون العرب ص 88.

(126) تاريخ الادب الجغرافي 1 : 367.

(127) مستفاد الرحلة ص 24.

ويلوح له، ويقابل الحجر الأسود، وفي وصف هذا البيت الشريف أنشدنا سيدنا ورفيقنا الامام العلامة الأديب أبو القاسم خلف بن عبد العزيز الغافقي ثم القبتوري لنفسه»(128)

فلقد بدأ حديثه بتنميق التعبير فاستعمل سجعا لكنه لم يكن متكلفا، ثم ما لبث أن عاد إلى أسلوبه المرسل، مورداً الأشعار التي أنشده إياها رفيقه القبتوري وإن لم يعقب عليها بالنقد كما يفعل العبدري وابن رشيد.

ومن نماذج ديباجاته في تراجم الأعلام الذين التقى بهم في الرحلة ما كتبه في التعريف بابن النحاس يقول :

«ومنهم الشيخ الفقيه الرئيس الفاضل، الصدر الكبير الامام الكامل، حجة العرب وعمدة أهل الأدب، أبو عبد الله محمد ابن الصدر الاجل العدل، محيي الاسلام إبراهيم بن محمد الشافعي الحلبي، نزيل القاهرة المعزية، حاضرة الديار المصرية، المنعوت ببهاء الدين المعروف بابن النحاس شيخ البلاد المشرقية قاطبة في علم اللسان، والمقر له في ذلك بالاجادة والاحسان،سابق غايات العلوم، وسائق رايات المنثور والمنظوم، حالب درر فصاحة اللسان، وخالب درر ملاحة البيان...»(129).

فالعناية بالأسلوب واضحة من خلال بعض الاسجاع ومراعاة التوازن بين الجمل، والحرص على التنميق باستعمال الجناس، والترادف، والمقابلة، وتظهر هذه العناية في قوله :

«حالب درر فصاحة اللسان، وخالب درر ملاحة البيان»

فالجملتان تضمّان عناصر بديعية مهمة كالجناس التام والناقص، والسجع، إلى جانب التوازن الذي قد يختل إذا نقص حرف واحد من كلمة في إحدى الجملتين.

ويكفي أن نتابعه في وصفه لعاصفة داهمت ركبه في عرض البحر وهم في الطريق إلى الحجاز، لنقف على هذا المستوى الثقافي الجيد يقول : «فلما قاربنا التوسط بين الحجاز الشريف وبر عيذاب الوحش عصفت علينا الريح، وجاء منها ما أشفينا به على التلف، وعظم الموج حتى حال بيننا وبين المركب المذكور فلم نعلم من حيث

(128) مستفاد الرحلة ص 228.

(129) نفسه ص 82 / 83.

ذهب، واظلم البحر، واشتد سواده، وأرانا أهواله الفرعونية سلط الله عليه اليبس، وأخافنا ما شاهدناه من الحال، وأجمع رأي الملاحين وربانهم على أن الرجوع إلى بر عيذاب الوحش إرجاء لسلامتنا، فكررنا راجعين طائعين وجلين، فيسر الله تعالى علينا ودخلنا مرسى من مراسي بر عيذاب يعرف بالواسعة، فلم ينتفع بفال اسمه، وضاقت علينا فيه الأرض بما رحبت ولم يكن به ماء ولا ظل، ولا انس ولا وحش ولا إنس، فأقمنا فيه يوما وبعض آخر ثم أقلعنا منه ملحجين»(130)

وهكذا لم ينجذب إلى الأسجاع رغم أن موضوع الوصف يغري بالتفنن في التعبير، وتلوين العبارات، والتأنق في الأسلوب وإن لم يخل وصفه من التضمين والاشارات التاريخية كتوظيفه لقصة غرق فرعون الواردة في القرآن الكريم.

4 ــ أسلوب مذكرات النميري :

انصب اهتمام النميري في مذكراته، على الافادات والمعلومات التي جناها من رحلته، مما سمح لنا بضمها إلى كتب الفهارس والبرامج، ولذلك فإن أسلوبه فيها بسيط متحرر من الأسجاع والمحسنات البديعية سواء في الوصف أو ديباجات تقديم الأعلام وإنتاجاتهم. وربما كان سبب عدم التأنق في الأسلوب، راجعا إلى أنه لم يكن قد تفرغ بعد لتنقيح هذه المذكرات فوصلتنا بطريقة اليوميات التي كتبت على عجل وكأن القصد منها المادة المدونة.

ويحسن إيراد نموذج من نثره في ديباجة ترجمة أبي عبد الله محمد بن الدراج الذي التقى به في سبتة يقول عنه :

«...ونشأ هذا الحاج طالبا للعلم، وحج مرتين إحداهما عام أربعة وعشرين وسبعمائة، والأخرى عام ستة وعشرين بعده، وقرأ على أبي إسحاق الغافقي شيئا من الجمل، وأخذ عنه القرآن بحرف نافع وسمع عليه كثيرا من الموطأ، وأجاز له وقرأ على أبي القاسم ابن الشاط القرآن بحرف نافع، وسمع عليه مجالس في الحديث، وبعض علوم الحديث لابن الصلاح، وبعض دروس في الاصلين وأجاز له، ومن شيوخه أبو القاسم ابن الطيب قرأ عليه القرآن بحرف نافع ولم يجزه ومنهم أبو بكر

(130) مستفاد الرحلة ص 212 ــ 213.

بن عبيدة، سمع عليه مجالس في النحو و لم يجزه. ومنهم أبو القاسم سمع عليه الأربعين حديثا التي ألفها إلى غير ذلك من الأجزاء وأجازه ولقي بالمشرق علاء الدين القونوي بمصر...»(131)

ونؤكد هنا على ما قلناه سابقا من أن الكتابة الفهرسية متأثرة بطريقة أهل الحديث في دقتهم التعبيرية واستعمالهم لمصطلحاتهم (قرأ، أخذ، سمع، أجاز، أنا، أخبرنا....)

وإذا كنا وجدنا في رحلة التجيبي بعض الميل إلى التعبير الفني، فإننا هنا في المذكرات لا نلمح أي أثر للنثر الفني في السرد والحكاية والتعريف بالاعلام لأن الكتابة فيها تستهدف الأخبار وتدوين النقط والمعلومات التي يحصل عليها النميري في جولته.

ولذلك كان الأسلوب غير متكلف فلم يبالغ النميري في تنقيحه أو تنميقه بل نجده لا يبارح البساطة في التعبير والتركيب حتى في المواقف والموضوعات التي قد تغري بالانجذاب إلى الصنعة اللفظية، وتبدو هذه البساطة في وصفه لمنتزهات صاحب تلمسان(132)، وإن لم يتكىء في هذا الوصف على مصطلحات المحدثين وتعبيراتهم ربما لانعدام التلاؤم والتشابه بين الموضوعين.

بينما نجد نصا نثريا وحيدا وهو عبارة عن رسالة للنميري لا نعرف المخاطب فيها ولكنها نموذج للتأنق والتكلف والتزام مالا يلزم فإلى جانب التزام حرف السين في كلماتها فإنها امتلأت بكل ما أتى به البديع من سجع وجناس وطباق وتشخيص معتمد على تشبيه أو استعارة...

يقول في هذه الرسالة : «سلام تستنشق مسكا أنفاسه، وتحتسى سلافا أكواسه، وتستمد الشمس سناه، وتستطيب النسيم مسراه، وتتسم الحسان السابيات بمسماه...حسن البستان، واستقل بواجس نيسان، فأمسى النرجس بحسنه سقيما، والبنفسج لنسامته مستقيما، والياسمين باستيحاشه سليما، والنسرين يستريب لسريانه، والسوسن يستنجده نفائس سيلانه»(133) إلى آخر هذا الأسلوب الشاعري الذي يعد النميري من أهم رواده كما سنتبين في كتابه فيض العباب

---

(131) مذكرات النميري 1743 ورقة 6أ ص : 30 من النسخة المرقونة.

(132) مذكرات النميري 483 ورقة 42 ب ص 137 من النسخة المرقونة.

(133) أنظر المذكرات 1734 ورقة 40أ ص 97 من النسخة المرقونة.

ب ــ أسلوب الرحلات الداخلية :

تجدر الاشارة في البداية إلى أن هذه الرحلات مختلفة في الأسلوب، متنوعة في طرق الكتابة وأنماطها، فتناولنا لها مجتمعة على هذا الشكل، نابع من إرادتنا في الابقاء على التصنيف الذي راعيناه في الدراسة.

وبما أننا تناولنا المذكرات ضمن دراستنا للشكل في الرحلات الفهرسية، فإننا سنحصر اهتمامنا هنا في دراسة شكل الرحلات الداخلية التالية : فيض العباب، ونفاضة الجراب، والتعريف بابن خلدون.

1 ــ أسلوب فيض العباب :

سبقت الاشارة ــ في معرض المقارنة بين فيض العباب والمذكرات ــ إلى أسلوب النميري وطريقته في التأليف، لذلك نكتفي هنا بالتذكير بأهم سمات أسلوبه في هذه الرحلة الرسمية.

ومن السهولة تبين قدرة النميري التعبيرية ومبالغته في التنميق والزخرفة، فالالحاح على الصنعة البديعية، والجري وراء المحسنات ظاهرة تنسحب على كل ما في الكتاب، فبدا وكأنه لوحة فنية اختيرت فيها الأصباغ والألوان بعناية فائقة. وأول ما ينتبه إليه القارىء هو ثقافة النميري الواسعة، يتبينها من كل سطر من سطور هذا الكتاب، ففي نظرنا أن فيض العباب يعكس اطلاع مؤلفه وتعمقه العلمي، وذلك من خلال المصطلحات التي يستعملها في كتابته وتعبيراته، وهي مصطلحات يستعيرها من الفقه والأصول والتوقيت والحديث والمنطق...

فموسوعيته جعلته لا يتهيب أي ميدان علمي فإذا صادف كلمة لغوية انساق مع معلوماته اللغوية بطريقة تنم عن تمكنه، فتأتي توررياته وأسجاعه وجناساته وكناياته

وتشبيهاته واستعاراته مستمدة من نحو أو صرف أو بلاغة وحينما تصادفه كلمة لها علاقة بالتاريخ فإنه ينهل في أسجاعه وصناعته من نبعه الثر، وهكذا في باقي العلوم فأسلوبه في هذا الكتاب عبارة عن سلسلة غير متناهية الحلقات، فكل حلقة تسلم إلى حلقة أخرى إلى درجة يصعب على القارىء أحيانا تتبعه وملاحقته ومسايرة تدفقه الأسلوبي البديعي، فمن ثغرة بسيطة ينفذ إلى استطراد كبير ومنه إلى استطراد آخر يقودنا إلى عالم من الأخيلة والتوريات والكنايات ...

وبإمكاننا الوقوف على أمثلة عديدة لهذا النحو من أسلوب النميري في نصوص كثيرة من الكتاب، بل إن فيض العباب كله أمثلة متلاحقة لهذا النثر الفني الرائع، لذلك نكتفي هنا بأحد هذه النصوص وهو النص الذي يصف فيه فرفر بصحراء الزاب بعد أن قطعت أشجارها وهدمت حصونها بأمر أبي عنان يقول : «...حتى لم يبق بمساكن أهل الضلال ما له ظل، ولا طلل مطل، ولا مقيل مقل، ولا مسرح لناظر بناضر، ولا مبد لخاطر مسلى خاطر، ولا عرجون يسند عن جبر، ويروي حديث الفضل عن يسر، ولا زرع يرقص في الروض بأكمامه، ولا زهر يروي عن السائب لكن من غمامه، ولا حمام فروعي، ولا نبات أصولي، ولا بلبل منطقي، ولا نور عددي، ولا ماء فرضي، ولا أس ولا آس، ولا كاس ولا كاس، ولا راض ولا راضع، ولا شاف ولا شافع، ولا طلع ناجم، ولا نجم طالع، ولا مال للفجرة ينمو ولا أحاديث تنمى، ولا حمى للغدرة ينزل ولا منزل يحمي، ولا حديقة تحمد الانتقال وتبذل النقل، ولا روضة تسال عينها فتأخذ العقل، ولا جنة يهدى النسيم أنفاسها المعطرة، وتلحفها البروق بأرديتها المعصفرة، ولا بستان يتوضأ النبات بفضل سحائبه، ويصلي في أشجاره النسيم فيجعل العود على حاجبه، ولا رستاق يروي عن صالح لكن من غروساته، ويسند عن الخلواني لكن من ثمراته. وأصبحت فرفر أوحش من الرمس وأكره من الجسم بعد فراق النفس، كأن لم تغن بالأمس، ولا طلعت زهر أزاهرها على رغم أنف الشمس، ولا وقف النسيم على غصونها فقد قميصه من قبل، ولا ضربت خيام الغيوم من ظلالها في أفسح سبل، ولا أمست الطير من شق ستائر أوراقها في شغل، ولاحفت مجرة نهرها بكواكب السعد، ولا راع حصاه حالية الغواني فلمست جانب العقد...»(134)

(134) فيض العباب ص 299 / 300 من المخطوط ص 247 من النسخة المطبوعة.

والنص لا تنتهي صوره وتعابيره، فليس من السهولة اجتزاء نص من فيض العباب لكثرة الاستطرادات، ولتسلسل تداعي المعاني والأفكار.

ولعله من غير التعسف والمبالغة اعتبار النص قطعة في الرثاء، فكل الألفاظ والعبارات تحسر وتأسف على ما آلت إليه بلدة فرفر من تقلب الحال وغروب شمس العز عنها وتحولها من جنة فيحاء إلى صحراء مقفرة.

ومن هنا فالنص يقترب في بنيته وصوره وإيقاعه من الشعر، إذ حشد فيه الألوان البديعية المختلفة ووصف فيه الكثير من المحسنات، فإلى جانب السجع الذي لا يختص به هذا النص وحده تتراءى لنا ظاهرة إلحاحه على الجناس باستخدامه لكثير من أنواعه التام منها والناقص.

وإذا حاولنا التمثيل له من النص فسيقودنا ذلك إلى استخراج أغلب الكلمات والألفاظ فيه، ويكفينا استحضار قوله «ولا أس ولا آس، ولا كاس ولا كاس، ولا راض ولا راضع، ولا شاف ولا شافع، ولا طلع ناجم ولا نجم طالع» لاظهار ولعله بهذا الجناس، وللتأكد من شيوع هذه الظاهرة في الكتاب كله[135]، وهي ظاهرة وإن كانت تبرز ثقافة الكاتب واطلاعه، إلا أنها، من جانب آخر، دليل على ما انحدرت إليه الكتابة من تصنع في استعمال المحسنات وتكلف في رصف العبارات، والحقيقة أن براعته في الجمع بين السجع والجناس أكسبت الأسلوب إيقاعا موسيقيا محببا، عمل على توفيره في فقراته وجمله، لا في نهاية هذه الجمل فقط، ولكن في أجزائها أيضا ومقاطع من كلماتها.

وتتابع في النص الاستعارات والتشبيهات بما يخدم هذه اللوحات الوصفية ويخلق عالما خياليا شعريا نتصور فيه النسيم وهو يهدي أنفاسه العطرة والزرع وهو يرقص، والبروق تلحف البستان بأرديتها...

وأغلب هذه الصور مستمد من مخزونه الثقافي الذي سبق التنويه به، فالنبات يتوضأ، والنسيم يصلي، بعد أن طهر البستان بفضل السحاب، وهكذا تنعكس ثقافة التميري في أغلب ما استعمله من صور وألفاظ، كتوريته بأسماء العلوم المختلفة، واستعارته لمصطلحاتها، وتضمينه وإشاراته العديدة.

---

(135) أنظر مثلا ص 213 من المخطوط ص : 174 من المطبوع.
290 من المخطوط ص 240 من المطبوع.
313 من المخطوط ص 258 من المطبوع.

فتكثر التوريات بعلوم كثيرة كالفقه والأصول والفرائض والمنطق والعدد والتنجيم، ويوظف علم الحديث باستغلال مصطلحاته (يسنده، يروي...) كما يقع الاقتباس من القرآن الكريم (كأن لم تغن بالأمس، قدَّ قميصه...).

وتضمين الصور المختلفة من الشعر العربي، كتضمينه للبيت المشهور المنسوب إلى الشاعرة الأندلسية حمدونة بنت زياد المؤدب، وهو قولها(136)

يروع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

ولسنا في حاجة إلى التذكير بأن ظاهرة الأسلوب الفني المثقف تلازم النميري في كتابه فيض العباب كله، فجميع تشبيهاته وصوره وتعبيراته تتحكم فيها ثقافته ويوجهها تكوينه العلمي، ومن أمثلة تسلط هذه الثقافة واستبدادها بقلمه وصفه للأسطول المريني وهو يرسو ببجاية، يقول :

«...وأقبلت الأجفان السعيدة مائلة متسع الفضاء، ومهبا للزعزع والرخاء، مزهرة كالأرض، زاهرة كالسماء، خافضة كالاضافة رافعة كالابتداء، متصرفة كأصول الأفعال متمكنة كأصول الأسماء، جامعة مانعة كالحدود الحقيقية، صحيحة الموضوع والمحمول كالمقدمة الاقترانية، مرتبطة المقدم بالتالي كالقضية الاستثنائية، غير منعكسة كالموجبة الجزئية، موصلة إلى المقصود كالبراهين القطعية، ظاهرة حروفها ولا غرو فهي مجرورات، مفتقرات إلى الصلات والعوائد، ولا غرو فهي موصولات، ذات أبحر ودوائر كالعروض، غير محمولة علي التراخي كالأمر بالمعروض، عارفة بالمنقول دون المعقول، جامعة بين الفورع والأصول، لا تعرف فساد الوضع ولا فساد الاعتبار، ولا تؤدي ما كلفت به إلا في وقت الاختبار... تعرف المدارك، وتريك المسالك والممالك، متحركة دائما كأوائل الكلم، وربما سكنت كالمعتل الآخر المنجزم، جوار وطؤها حلال، لها عند بني النجار اجلال... مجموعة جمع السلامة، مودعة بالبر والكرامة... مفتوحة المواخر، كالأفعال الماضية... تبصر منها الجار والمجرور، وتشاهد من حبائلها الممدود والمقصور... ذوات تصريف قوي كأنما تصريفها لابن جني...»(137)

---

(136) نفح الطيب 4 : 288. وورد البيت في «ريحانة الكتاب» منسوبا إلى قاضي ميلة مع تغيير هكذا (حالية الغواني).

(137) فيض العباب ص 128من المخطوط ص 98 من المطبوع.

ولا يختلف هذا النص عن سابقه في الولوع بالأسجاع، والافتتان بالمحسنات البديعية من جناس وطباق وما إلى ذلك بالاضافة إلى مراعاة التوازن بين الجمل، مما جعله أقرب إلى الشعر في التناسق والتآلف، والانسجام مثل قوله : «مزهرة كالأرض زاهرة كالسماء، خافضة كالاضافة رافعة كالابتداء...»

ويستمر على هدا المنوال ينشد هذه الموسيقية، ويبحث عن هذا التقابل الصوتي، ليس في هذا النص وحده، وإنما يتعهد هذه الظاهرة، ويرعاها في جميع نصوص الكتاب(138).

أما استغلال النميري لثقافته، فلقد كان النص ميدانا لعرض معلوماته ومعارفه، فهو أفضل نص يعكس المبالغة في توظيف ما يتوفر عليه الكاتب من رصيد ثقافي ومحصول معرفي، ويظهر الاندفاع نحو التصنع الذي أضحى غاية ما يسعى إليه الكتاب والمنشئون

وهكذا فالنص يكاد يكون شبكة من المعلومات والمصطلحات المختلفة التي أوجد النميري علاقة بينها إما بجناس أو طباق أو مقابلة أو تشبيه وغير ذلك مما وفر المناسبة للتورية بهذه المصطلحات، فهناك التورية بمصطلحات نحوية تضمنت أغلب القواعد والأبواب النحوية، أو بمصطلحات عروضية، أو مصطلحات منطقية وأصولية، وهناك التورية أيضا بأسماء الكتب كمدارك عياض، والمسالك والممالك، وتصريف ابن جني...

وترد في فيض العباب نصوص كثيرة من هذا القبيل، بل تبدو بعض النصوص وكأنها دروس يقتصر كل منها على ترويج مصطلحات مادة معينة كمادة النحو في وصف الأسطول ببجاية(139)، والأصول في معرض الحديث عن الدولة المرينية وقد ساد سلطانها في قبائل صحراء الزاب(140).

وثقافته الواسعة هي التي تلهمه في صوره وتشبيهاته وتوجهه في اختيار عباراته وإشاراته وأمثلته المختلفة، فأوصافه تغرف من تلك الثقافة التراثية التي هضمها النميري وتشبع بها، ففي كثير من هذه الأوصاف يمكن إرجاع الصور والتعابير إلى مصادرها

---

(138) أنظر مثلا ص 207 من المخطوط ص 168 من المطبوع.

(139) فيض العباب ص 130 من المخطوط ص 99 من المطبوع أنظر أيضا ص 196 من المخطوط.

(140) نفسه ص 256 من المخطوط ص 209 من المطبوع.

وأصولها، لأنه نسج على منوال الشعراء والكتاب السابقين وحذا حذوهم، ففي وصف بنايات طولقة(141)، وهي تحترق وتخرب بأمر أبي عنان، نحس وكأن النميري ينظر فيما كتبه إلى وصف أبي تمام لفتح عمورية، ووصف المتنبي لمعركة الحدث، ويهتدي بشعرهما ويستوحي صورهما، ونلمح التشابه أيضا فيما وصف به النميري أفراس جيش أبي عنان(142)، فلا شك أنه قد استلهم كثيرا من تشبيهاته مما كان وصف به امرؤ القيس فرسه. وإن كان ما كتبه النميري أدق تصويراً وأكثر تفصيلا في الأنواع والألوان والأشكال، وسبق أن أشرنا إلى تميز أسلوبه بالاطناب في التفصيل، وذكر الجزئيات والاحاطة بالصور.

نخرج من هذا العرض الموجز بنتيجة مؤداها أن النميري يعد في قمة الكتاب المجيدين فلقد صاحبناه في أسلوبه الفهرسي (بالمذكرات) العاري من كل زخرف وصنعة، وصاحبناه وقد بلغ بأسلوبه قمة الصنعة في فيض العباب وارتفع بنثره إلى أجواء الشعر الرحبة، ومن هنا لا نعرف الجانب الذي بنى ابن الخطيب حكمه عليه حين جعل «نثره تلو نظمه في الاجادة»(143)

2 ــ أسلوب نفاضة الجراب :

وصف أغلب الذين تحدثوا عن ابن الخطيب بأن أسلوبه يعتبر قمة ما وصل إليه النثر في الأندلس والمغرب في عصره، وأهم هؤلاء صاحبه ابن خلدون الذي قال عنه «وكان الوزير ابن الخطيب آية من آيات الله في النظم والنثر والمعارف والأدب، لا يساجل مداه، ولا يهتدى فيها بمثل هداه»(144).

فأصبحت له المكانة الممتازة في عصره تحدث عنها صاحب السلوة حين وصفه بأنه كان «أديبا بليغا شيخ أهل البلاغة في العلوم العقلية والنقلية، يضرب به المثل كتابة وشعرا وأدبا، ومعرفة سائر العلوم»(145).

---

(141) نفسه ص 297 من المخطوط ص 245 من المطبوع.

(142) نفسه ص 345 من المخطوط ص 289 من المطبوع.

(143) الاحاطة 1 : 358.

(144) التعريف بابن خلدون ص 155.

(145) سلوة الانفاس 3 : 187.

ومن ثم اعتبر ممثلا للنثر الأندلسي ونموذجا يحتذى في الكتابة آنذاك، تلك الكتابة التي غلب عليها السجع والبهارج اللفظية، في رأي الأستاذ حسين مؤنس فاشتد سلطانها على الأدباء «حتى بلغت ذروتها على يد ابن الخطيب»(146)

فكيف كان أسلوبه في النفاضة ؟ هل ينطبق عليه ما وصف به من تكلف وتصنع ؟(147)

الحقيقة أننا إذا رجعنا إلى نصوص النفاضة وجدنا ابن الخطيب لا يلتزم فيها السجع دائما، ولا يجري وراء المحسنات، بل اتسم أسلوبه بالاعتدال، فكتابته في النفاضة لا تنحدر كلها إلى درك التصنع والتكلف ومن ثم فمن التعسف تعميم الحكم عليها، لأننا لسنا أمام نمط واحد في الكتابة استمر عليه ابن الخطيب في نفاضته والتزم به، ولكننا أمام ثلاثة أنماط تنقل بينها من حين إلى آخر، فكان يتكلف البديع ويتقيد بالسجع حينا، ويتخلى عن التصنع والأسلوب المزخرف حينا آخر، بينما نجده في بعض الأحيان يقف موقفا وسطا فيزاوج بين الأسلوبين معا وأمثلة تحرره في الأسلوب كثيرة يمكن أن نجد لها نماذج في الوصف والتراجم.

فمن ذلك ما قاله في وصف مدينة آسفي : «وانصرفنا إلى المحل المعين للنزول، وهذا البلد فسيح طيب الهواء، كريم التربة، خصيب الجناب، وأهله أولو خيرية وجنوح إلى الصلاح، وهو لبنة التمام للمسورات بالمغرب»(148)

فاهتمامه بتأدية المعنى واضح من خلال هذا النص، فلم ينجذب فيه إلى البديع والصنعة، وهو نفس ما يمكن أن نجده في وصفه لمدينة أغمات(149)، إذ لم يحد في الوصفين معا عن الأسلوب المرسل المحرر من القيود البديعية، بل نراه تنكب عن السجع، وتجنب التصنع حتى في وصف الرحلة والحديث عن أماكن النزول، مثل وصفه لرحلته إلى جبل هنتاتة، الذي نقتطف منه هذه الجمل : «وفي يوم الاثنين المتصل بيوم القدوم، توجهنا إلى الجبل في كنف أصحابه، تحت إغراء بره، ومركب

---

(146) حسين مؤنس صحيفة معهد الدراسات الاسلامية مجلد 11 / 12 ص 297.

(147) الفن ومذاهبه في النثر، ص 334. تطور الاساليب النثرية ص 313.

(148) نفاضة الجراب 2 : 71.

(149) نفسه 2 : 55.

قرة عينه، فخرجنا نستقبل بين يديه السهل، ونساير الجهة، ونشاهد الآثار، ونتخطى المعاهد، وننشق النسيم البليل القريب العهد، بمادة الثلج، وعنصر البرد، ولما بلغنا درج الجبل وانتحينا طريقه من السفح...»(150)»

ويستمر وصفه على هذا المنوال من حيث الميل إلى التحرر من قيود البديع إلا بضع سجعات وردت عفوا، إلا أننا مع هذا نلمح ذلك التوازن الذي روعي بين الجمل مما ساهم في إحداث نوع من الايقاع الذي لا يعتمد على السجع والمقاطع المتشابهة، ولكن يرتكز على التلاؤم والتساوي بين الجمل والألفاظ، ومن مميزات أسلوبه المتحرر اختياره للعبارات المركزة السهلة.

ولم يصطنع هذا الأسلوب المتحرر في الوصف فقط ولكن أيضا في كثير من تراجمه بالنفاضة على نحو ما كتبه في التعريف بقاضي دكالة ابن سعيد الزموري الذي يقول عنه «رجل مختصر البنية والثوب قد طرقه الوخط على حداثة، يحفظ غثاء من منقول كتب التفسير وغيرها، ذاكر لمسائل متعددة، مسترسل اللسان في أسلوبه، يفضحه الاعراب عادة لا جهلا بقانون النحو، شموس عند المذاكرة في المسائل العلمية»(151)

فلم ترد في أسلوبه أسجاع، بل إن التعبير الكتابي هنا يخدم الفكرة ويقدمها واضحة دون غموض أو إبهام.

ونلتقي بابن الخطيب في جانب آخر من النفاضة يضفي على كتابته حلة منمقة، وزخرفة مقصودة، يرصف فيها العبارات، ويلتزم الأسجاع، ويتكيء على المحسنات البديعية المختلفة، ولقد اصطنع هذا الأسلوب بصورة خاصة في مكاتباته، يقول مثلا فيما كتب به لتهنئة قائد الأسطول : «أبقاك الله أيها القائد الذي بأسه ضرم، وشأنه شجاعة وكرم، ومحل ولايته من العدو حرم، لا تسأل عن شوقي إلى قربك وعكوفي على حبك، وضراعتي في صلة سعادتك، إلى الله ربي وربك، وبلغني الطالع لديك، والوارد من حضرة المواهب الالاهية عليك، جعله الله أسعد مولود على والد، ووفقك لما يرضيك من مقام الشاكر الحامد، وأقر عينك منه بالقائد ابن القائد،

---

(150) نفسه 2 : 45.

(151) نفاضة الجراب 2 : 75.

وقد كنت أعدك به تفاؤلا واستفتاحا وسؤالا من الله واستمناحا، فالحمد الذي صدق الزجر، ووضح الفجر»[152].

ويبدو في هذا النص حريصا على تنقيح العبارة واختيار اللفظة وتوشية الأسلوب بالسجع، وإن لم يوصله سجعه إلى تقبل الألفاظ، الغريبة المتكلفة، على عكس ما نجده في الأسلوب الذي اصطنعه في صفحات معدودة[153] من السفر الثالث من النفاضة، إذ لم يلتزم السجع في السفر الثالث إلا في هذه الصفحات وهي التي يصف بها رحلته من فاس بعد تهنئته لأبي زيان بانتقال الحكم إليه، ولقد أكثر في هذا الوصف من الأسجاع إلى درجة المبالغة والتكلف، يقول واصفا مغادرته لمكناس : «...حتى إذا الشمس همت بتملق الجدرات وقادت أهلها إلى وراء الحجرات، وطفق عسجدها يذهب لجين الضحى وموساها الموشية تحلق خد الأرض بعدما التحى، قمنا نستشعر التجلد للبين وهو يفضح، ونجمل حكم الوجد والدمع يشرح، فودعنا الخليط المصاحب، وسلكنا الطريق غير اللاحب وقد طبق ضباب له على الأرض إكباب، حجب الجهات ولابس الأمهات، فضللنا لولا أن الله هدانا وسرّانا، وقد الحفنا السحاب وردانا، والنبت قد اطلع ولدانا، ونواحل الطلول قد عادت بدانا»[154].

فأسلوبه هنا اقترب من الشعر، لا في الايقاع الذي حرص على توفيره بالتزام السجع، ومراعاة التوازن بين الجمل وكلماتها، ولكن أيضا في ميله إلى تشخيص المعاني والاكثار من الصور متوسلا بالاستعارات التى عملت على خلق جو أقرب إلى الشعر منه إلى النثر فالشمس تقود أهلها. وتحلق موساها خد الأرض المتلحي، والسحاب يلحف ركب ابن الخطيب، ونواحل الطلول صارت بدانا.. ويقترب النص في أسلوبه من الشعر أيضا في صورة الوداع التي شخصها. وألح عليها متأثرا في ذلك ـــ دون شك ـــ بشعر الغزل حين يصف مواقف الوداع المؤثرة.

ولقد بلغ قمة غرامه بهذا النوع من الكتابة الفنية بإغراقه في الصناعة البديعية، وإغرابه في التضمينات والاقتباسات، وإيغاله في الاشارات التاريخية والأدبية، في تلك

(152) نفسه ص 2 : 193.

(153) نفسه 3 : 45 / 53.

(154) نفاضة الجراب 3 : 46.

الرسالة المقامية(155) التي أنشأها بسلا متحدثا فيها عن شخوص وأعلام عصره، تلميحا وتصريحا، بأسلوب يغرق في الخيال، ويطغى عليه السجع ويكلف بالمحسنات من جناس وطباق وتضمين، والغالب أنه كان ينظر فيها إلى المقامات الحريرية.

أما النمط الثالث الذي زاوج فيه ابن الخطيب بين الأسلوبين المرسل والمسجع فنصادفه في نصوص أخرى من النفاضة اتسم أسلوبها بالاعتدال في التنميق والتأنق، وغلب عليها التحرر من أي قيد أو التزام إلا بضع سجعات تنفلت من الكاتب في غير تكلف وتعمل.

ومن أمثلة هذا النوع من الأسلوب والتناول ما كتبه ابن الخطيب في التعريف بالقاضي أبي محمد عبد الله اهرغي الزقندري يقول :

«فاضل متفنن، حسن الهيئة، راجح الوزن، كثير الوقار، بعيد عن الدخلة، متساوي الظاهر والطوية، مضطلع بفنون، سديد النظر، جم المشاركة في حديث ورواية وتاريخ وخبر وكلام وفقه ونظم ونثر إلى فضل المجالسة وحسن العشرة، والغفلة، عن نصيب النفس والاحتطاب في حبل الرفق، وإقطاع غبيط السذاجة وفضل الفكاهة، والجهر بالتلاوة في سبيل الورد المترتب ناشئة الليل ومبادىء الأسحار، رحل وحج ولقي كثيرا من الفضلاء، وأخذ عن كثير من أهل المغرب دراية ورواية...»(156).

فمن خلال هذه النماذج كلها تتضح لنا معالم أسلوب ابن الخطيب في نفاضة الجراب الذي لم يلزم فيه شكلا واحدا أو طريقة معينة بل اكتسى هذا الأسلوب ثلاثة أشكال وصب في ثلاثة قوالب متميزة، وتبينا أن ميله إلى التأنق في أسلوبه وتنقيح عباراته، وإلباسها ثوبا بديعيا غلب على رسائله ومخاطبته، ونال بعض أوصافه كما أشرنا من قبل، إلا أننا لم نره في رسائله خاصة قد تكلف كثيرا، وطلب المحسنات لذاتها أو سعى إلى الأطناب، كما يزعم شوقي ضيف حين يرى بأن رسائل ابن الخطيب «تمتاز بالاطناب المسرف وما يطوى في هذا الأطناب عادة من لف ودوران»(157)

(155) نفسه 2 : 151 / 162.

(156) نفاضة الجراب 2 : 63.

(157) الفن ومذاهبه في النثر العربي ص 334.

ولعل شوقي ضيف قد استنتج هذا الحكم مما أثبته ابن خلدون في كتابه التعريف[158]، أو ما ورد من هذه الرسائل في ريحانة الكتاب

أما أنيس المقدسي فيرى بأن ظاهرة السجع والتفنن في الكتابة في أسلوب ابن الخطيب لا تختص برسائله ولكنها ظاهرة عامة تنتظم جميع نواحي الكتابة عنده يقول المقدسي : «ومما يدلك على ولع ابن الخطيب بالسجع أنه لم يحصره في رسائله بل كان أسلوبه الانشائي في ترجماته وقصصه»[159]

ولا يخفى أن مثل هذا الحكم فيه الكثير من التسرع لا ينسجم مثلا مع الترجمة التي أوردنا بعضها قبل قليل، ولعل المقدسي، توصل إلى هذا الاستنتاج من تراجم الكتيبة الكامنة، أو ما نقله ابن الخطيب نفسه في الاحاطة من كتابه التاج المحلى.

ومن هنا نرى أنه من التعسف وصف أسلوب ابن الخطيب بأنه «متكلف مكدود يشق على القارىء فهم معانيه أو تتبع مقاصده»[160] كما يرى الأستاذ المقدسي، فمثل هذا الحكم لا ينطبق إلا على جزء قليل من أسلوبه في النفاضة كما رأينا عن كثب.

3 ــ أسلوب ابن خلدون في تعريفه :

لقد تحدث ابن خلدون نفسه عن أسلوبه وهو بجانب أبي سالم بقوله : «فرعى لي السابقة واستعملني في كتابة سره، والترسيل عنه، والانشاء لمخاطبته، وكان أكثرها يصدر عني بالكلام المرسل أن يشاركني أحد ممن ينتحل الكتابة في الأسجاع، لضعف انتحالها، وخفاء العالي منها على أكثر الناس، بخلاف المرسل، فانفردت به يومئذ، وكان مستغربا عندهم بين أهل الصناعة»[161]

وأشار معاصره المقريزي إلى طريقة الكتابة التي عرف بها ابن خلدون حين ولاه أبو سالم كتابة السر والانشاء فذكر بأنه «صدر عنه أكثرها بالكلام المرسل الذي انفرد به في هذا العصر، وحاكى طريقة عبد الحميد بن يحيى الكاتب، والصابي،

---

(158) أنظر ص 104 / 105.

(159) تطور الاساليب النثرية ص 313 / 314.

(160) نفسه ص 315.

(161) التعريف بابن خلدون ص 70.

والجاحظ، وما أدراك ما أولئك»(162). أما معاصره وصاحبه ابن الخطيب فقد لخص خصائص أسلوبه بقوله : «وأما نثره وسلطانياته مرسلها ومسجعها فخلج بلاغة، ورياض فنون، ومعادن إبداع، يفرغ عنها يراعه الجريء شبيهة البداءات بالخواتم، في نداوة الحروف وقرب العهد بجريه الوداد، ونفوذ أمر القريحة واسترسال الطبع»(163).

فما هو الأسلوب الذي قدم به ابن خلدون مذكراته وأخباره في التعريف ؟ هل ظل وفيا لأسلوبه المرسل ؟ وهل حذا حذو كل من عبد الحميد والجاحظ والصابي كما ذكر المقريزي ؟ وبذلك لا يكون له أسلوب متميز واضح.

وقبل محاولة الجواب عن هذه الأسئلة يحسن أن نورد نصا لنتعرف عن كثب على هذا الأسلوب، وسنقترب منه فيما تحدث به عن أحواله في فترة الانقضاض على أبي سالم يقول : «ولما قام الوزير عمر بالأمر، أقرني على ما كنت عليه، ووفر إقطاعي، وزاد في جرايتي وكنت أسمو بطغيان الشباب إلى أرفع مما كنت فيه، وأدل في ذلك بسابقة مودة معه، منذ أيام السلطان أبي عنان، وصحابة استحكم عقدها بيني وبينه وبين الأمير أبي عبد الله صاحب بجاية فكان ثالث أثافينا، ومصقلة فكاهتنا، واشتدت غيرة السلطان لذلك كما مر، وسطا بنا»(164) فمن خلال هذا النص تبدو كتابته أقرب إلى كتابة عبد الحميد الكاتب والجاحظ ففي أسلوبه شيء من طريقتيهما كالقصد في استخدام المحسنات وعدم تكلف السجع، والبحث عن العبارة المؤدية للفكرة بوضوح دون غموض وإبهام، مع مراعاة التوازن بين الجمل التي غالبا ما تكون قصيرة يربط بينها بأداة عطف معينة، ويسعى إلى التلاؤم بين صيغها والتوافق بين أزمنتها فتارة تأتي الأفعال المعطوفة ماضية (أقر، وفر، زاد)، وتارة أخرى تأتي هذه الأفعال مضارعة (أسمو، أدل).

وهكذا يقترب في أسلوبه من الرواد الأوائل للنثر العربي لذا نرى أن المقريزي على حق حين جعله محاكيا لأسلوبي عبد الحميد والجاحظ وإن كنا لا نوافقه حين يجعله مقتديا بأسلوب أبي إسحاق الصابي الذي وصفه شوقي ضيف بأنه «كان أستاذا

---

(162) درر العقود للمقريزي مجلة المجمع العلمي العراقي 13 : 223.

(163) الاحاطة 3 : 507.

(164) التعريف بابن خلدون ص 77.

ماهرا في فن التصنيع لعصره وكان وما يزال يتفنن في رسائله حتى يخرجها في صورة بديعة من الزخرف والتنميق»[165].

ولعلنا نستطيع ــ من النص السابق ــ تبين منحى ابن خلدون الأسلوبي، فرغم أنه لم يحد عن الأسلوب المرسل المتحرر من السجع والقيود، إلا أن جمله قصيرة قد قسمت بإتقان، ورصفت كلماتها بدقة.

وموقف ابن خلدون من الأسجاع والمحسنات البديعية واضح لخصه في مقدمته بقوله عن الكتابة بأنها «إذا برئت من التكلف سلم الكلام من عيب الاستهجان، لأن تكلفها ومعاناتها يصير إلى العقلة عن التراكيب الأصلية للكلام، فتخل بالافادة من أصلها وتذهب بالبلاغة رأسا، ولا يبقى في الكلام إلا تلك التحسينات، وهذا هو الغالب اليوم على أهل العصر، وأصحاب الأذواق في البلاغة يسخرون من كلفهم بهذه الفنون، ويعدون ذلك من القصور عن سواه»[166]

وفي رأيه أن «الكلام المصنوع بالمعاناة والتكليف قاصر عن الكلام المطبوع»[167]

فلم يكن عدوله عن السجع والمحسنات راجعا إلى قصبوره وتخلفه عن مسايرة غيره كما قد يفهم من قوله في مكاتبة ابن الخطيب : «فأجبته عن هذه المخاطبات وتفاديت من السجع خشية القصور عن مجالسته فلم يكن شأوه يلحق»[168]

ونعتقد أن ادعاءه الخشية والخوف من القصور عن ملاحقته نوع من المجاملة واللباقة وضرب من التواضع، ومع ذلك فإننا نلحظ في أسلوب رسالته الجوابية[169] هاته بعض التأنق إذ ترد في مفتتحها سجعات عفوية كان ابن خلدون موفقا في إيرادها بدقة وتنظيم.

ونستدل على اعتقادنا بأنه لم يتخل عن السجع بسبب العجز والقصور، ما أبان عنه من مقدرة نادرة على التزام الاسجاع والمحسنات البديعية في تلك الخطب

---

(165) الفن ومذاهبه في النثر العربي. ص 222.

(166) مقدمة ابن خلدون ص 1120.

(167) نفسه ص 1121.

(168) التعريف بابن خلدون 123.

(169) التعريف بابن خلدون 140.

التي افتتح بها دروسه بالمدرسة القمحية(170)، والمدرسة الظاهرية(171)، والمدرسة الصرغتمشية(172).

فهل انساق ابن خلدون مع التيار البديعي وتخلى عن موقفه السابق ؟ إننا نعتقد أن نقلته هذه سببها ما لاحظه من أن المشرق في ذلك الوقت كان لا يهتم إلا بهذا النوع من الكتابة ولا يحفل إلا بهذا الأسلوب المسجع فأراد بهذه الخطب أن يلفت الأنظار إليه خاصة وأنه يطمع في نيل المناصب الرفيعة هناك كالتدريس والقضاء، بدليل أنه لم يكد ينتهي من خطبته الأولى حتى احتل المكانة التي يطمح إليها يقول «وانفض ذلك المجلس، وقد شيعتني العيون بالتجلة والوقار، وتناجت النفوس بالأهلية للمناصب»(173) واستشعر نفس هذا الشعور وهو يختم خطبتي افتتاح الدروس بالمدرستين الأخريين(174).

ومما يدل على أنه قصد إلى إظهار مقدرته في السجع قصدا، هو أنه لم يلتزمه في رسالة كتبها بعد ذلك من المشرق إلى سلطان المغرب، ليخبره فيها بما دار بينه وبين تيمرلنك(175).

نستطيع القول في الأخير ان ابن خلدون لم يكن متناقضا في دعوته، وممارسته التطبيقية، فما ورد في أسلوبه مما يخالف ذلك كان لغاية معينة. فهل كان ابن خلدون نسيج وحده في دعوته إلى نبذ التكلف ؟ الحقيقة أن ما أورده في المقدمة حول هذا الموضوع يجعلنا نعتقد أن الريادة في هذا الباب لم تكن مقصورة عليه.

يذكر ابن خلدون بأنه سمع شيخه أبا البركات البلفيقي يحذر تلاميذه من «أن يتعاطوا هذه الصنعة، فيكلفون بها، ويتناسون البلاغة»(176).

---

(170) نفسه ص 280.

(171) نفسه ص 286.

(172) نفسه ص 294.

(173) التعريف بابن خلدون ص 285.

(174) نفسه ص 310.

(175) نفسه 380.

(176) المقدمة ص 1121.

أما شيخه أبو القاسم الشريف السبتي فكان يقول : «هذه الفنون البديعية إذا وقعت للشاعر أو الكاتب فيقبح أن يستكثر منها لأنها من محسنات الكلام ومزيناته، فهي بمثابة الخيلان في الوجه يحسن بالواحد والاثنين منها، ويقبح بتعدادها»(177).

بل إنه بنى نظريته على رأي شيخيه يقول بعد استعراضه هذين الرأيين : «وهذا كله يدلك على أن الكلام المصنوع بالمعاناة والتكليف قاصر عن الكلام المطبوع لقلة الاكتراث فيه بأصل البلاغة، والحاكم في ذلك الذوق»(178)

ونظرا لممارسته التي اشتهر بها ووفائه لهذه الطريقة الأسلوبية وقدرته في التعبير وتطويع اللغة فإنه أضحى أحسن من يمثل هذا الاتجاه الأسلوبي الذي ينبذ التكلف والتعقيد وينشد الوضوح والتحرر في التعبير، ولا ندري على أي أساس اعتمد كراتشوفكسي في اعتبار كتابة ابن خلدون نموذجاً لعصر الانحطاط يقول :

«أما من ناحية أسلوبه الكتابي فإن ابن خلدون أبعد من أن يعد نموذجا يحتذى». فإنه تنعكس فيه بوضوح آثار عصر التدهور التي تبدو في غلبة السجع والمحسنات البديعية والتشبيهات والاستعارات المبالغ فيها»(179) ولعله وصل إلى هذا الاستنتاج انطلاقا من تلك الخطب المشار إليها، وإلا فإن أسلوبه في التعريف وفي كتاب العبر ومقدمته لا ينطبق عليه هذا الحكم.

---

(177) المقدمة ص 1121.

(178) المقدمة ص 1121.

(179) تاريخ الأدب الجغرافي 1 : 444.

جـ ـ أسلوب رحلة إبن بطوطة :

إن القارىء لرحلة ابن بطوطة يلاحظ في مجملها الحرص الكبير على تأدية المعاني، أي إن الأسلوب فيها خادم للفكرة، ولم يكن مقصودا لذاته، ومن هنا انعدم الاهتمام بزخرفة الأسلوب وتطريزه وتنميق العبارات وترصيفها على حساب التفريط في الفكرة.

فإن مال في بعض الأحيان إلى تنقيح الكلام وتحسينه واختيار عباراته فلا يقصد إلى ذلك قصدا، وكأن تلك التوقفات التي يميل فيها إلى التنميق والسجع هي لحظات يؤخذ فيها بالتأمل أو الاعجاب، وحتى في هذه الوقفات القصيرة القليلة جدا لا ينحدر أسلوبه إلى المبالغة والمغالاة. وإنما يبقى أقرب إلى البساطة والعفوية، ولقد أحصيت هذه الوقفات فوجدتها لا تتعدى ثلاث عشرة وقفة في أوصافه المختلفة(180) كوصفه لدمياط، ومصر، ومدينة الخليل، وحمص، وحماة، وشيراز...

فمن أمثلة هذا الأسلوب الذي ناله بعض العناية والتنقيح ما جاء في وصف مدينة شيراز :

«وهي مدينة أصيلة البناء، فسيحة الأرجاء، شهيرة الذكر، منيفة القدر، لها البساتين المونقة، والأنهار المتدفقة، والأسواق البديعة، والشوارع الرفيعة، وهي كثيرة العمارة متقنة المباني، عجيبة الترتيب، وأهل كل صناعة في سوقها لا يخالطهم غيرهم، حسان الصور، نظاف الملابس، وليس في المشرق بلدة تداني مدينة دمشق في حسن أسواقها وبساتينها وأنهارها، وحسن صور ساكنيها الاشيراز»(181).

(180) رحلة ابن بطوطة ص 28، 31، 51، 61، 62، 198.

(181) نفسه ص 198.

ويسترسل على هذا النحو في وصفه الذي نلحظ فيه اهتمامه بتنقيح العبارة والجملة دون الانسياق مع الأسجاع المتكلفة بل إننا نجده سرعان ما يتخلى عن الأسجاع إلى أسلوب متحرر بسيط، وهذه هي طريقته في كل الأوصاف التي افتتحها بهذه الأسجاع فأسلوبه لم يثقله البديع، بل بقي أقرب ما يكون إلى العفوية والوضوح.

أما فيما عدا هذه الوقفات القليلة التي أشرنا إليها فإن أسلوبه بسيط في تراكيبه وفي استعمال المألوف من الألفاظ، لحرصه على افهام سامعيه كل ما عبر عنه من أفكار، بل إنه كان يصحب العبارات بشروحها إذا كانت غامضة أو لها محلية معينة أو أجنبية، مما جعل أسلوبه يقترب من الأسلوب العلمي الهادىء كقوله عن شيراز : «ولقد شاهدت مرة رجلا تجره الجنادرة وهم الشرط»(182)

وهكذا كان حريصا على شرح كل الألفاظ غير العربية، وهي كثيرة في الرحلة، وقد أحصيت هذه المواضع التي توقف فيها لشرح ألفاظ فارسية أو تركية فوجدتها تنيف على مائة موضع وتختلف باختلاف المناسبات والمواقف، فتارة لا يورد إلا شرح كلمة أو جملة، وتارة أخرى يورد جملا باللغة الفارسية أو التركية، يقول عن أهل هرمز : «ويقولون بلسانهم خرما وما هي لوت باد شاهي معناه بالعربي : التمر والسمك طعام الملوك»(183).

وورد في حديثه عن طرمشيرين سلطان ما وراء النهر قوله :

«فقال لي بالتركية : خشن ميسن يخشي ميسن قطلو ايوسن، ومعنى خشن ميسن : في عافية أنت، ومعنى يخشي ميسن : جيد أنت، ومعنى قطلوا أيوسن : مبارك قدومك»(184).

ويقول في وصفه لمشهد حرق المرأة نفسها بعد موت زوجها بالهند :

«فرأيت إحداهن لما وصلت إلى تلك الملحفة نزعتها من أيدي الرجال بعنف، وقالت لهم : مارا ميترساني ازاطش (انش) من ميدانم او اطش است رهاكني مارا، وهي تضحك، ومعنى هذا الكلام : أبا لنار تخوفونني ؟ أنا أعلم أنها نار محرقة»(185)

---

(182) نفسه ص 202.

(183) رحلة ابن بطوطة ص 264.

(184) نفسه ص 356.

(185) نفسه ص 398.

فالاهتمام اللغوي يطغى على قصه الأخبار والحكايات رغبة في الوضوح وكأنه معلم يريد ألا يترك إبهاما أو غموضا في كل ما يمليه على سامعيه، ومن هنا تكثر في الرحلة تدقيقاته الغوية، وتدخلاته لتقويم الألفاظ وتوجيهها وضبطها على نحو لا يترك أي غموض في الفهم والتصور يقول مثلا :

«ووصلنا بعد أربعة أيام إلى بلدة ماجول على وزن فاعول وجيمها معقودة»(186)

وهناك ناحية أخرى لا ينبغي أن تغيب عنا ونحن نتحدث عن لغة ابن بطوطة في رحلته وهي ظاهرة التأثر الديني، فإذا كنا قد لاحظنا انطباعها بالدين وتعاليمه هدفا وسلوكا، فإننا نلاحظ بأن الاهتمام الديني قد انعكس أيضا على عباراته وتراكيبه الأسلوبية، فالرحلة تمتلىء بآيات قرآنية وأحاديث نبوية كريمة، وألفاظ دينية كثيرة، كمصطلحات العبادات وقصص الانبياء، والاشراف والعلماء والائمة والقضاة والعباد والشيوخ والمساجد والزوايا والأضرحة والمزارات وما يصاحب ذلك من ذكر لكرامات وأدعية، وابتهالات بل إنه قد أورد حزب الشيخ أبي الحسن الشاذلي بكامله(187) وفصل في أخبار الأماكن المقدسة بالحجاز(188).

ويجمل بنا في معرض استخلاص أهم ما يميز أسلوب الرحلة الاشارة إلى ما يثار عادة حول نسبة هذا الأسلوب، فهل يحق لنا أن ننسب نسيج هذه الرحلة وصناعاتها إلى كاتبها ابن جزي ؟ أم إلى صاحبها ابن بطوطة الذي أملاها عليه ؟

إن الطريقة التي كتبت بها الرحلة تجعلنا مطمئنين إلى نسبة الأسلوب إلى صاحبها، فابن جزي اتسم بالدقة والحذر والتحفظ في إضافة نص أو فكرة أو وصف أو شعر وما إلى ذلك، إذ كان يفصل بين النص الأصلي لابن بطوطة وإضافاته المختلفة بعبارة قال ابن جزي مما يساعدنا على تمييز كلام ابن بطوطة من غيره، وهكذا قمت بإحصاء المواضع التي تدخل فيها ابن جزي لاتمام وصف أو إضافة شعر فوجدتها لا تتعدى ثلاثة و ثلاثين موضعا.

---

(186) نفسه ص 186.

(187) رحلة ابن بطوطة ص 21.

(188) نفسه ص 108.

ويمكن الفصل أيضا بين كلام ابن بطوطة وإضافة ابن جزي بالاعتماد على الأسلوب وطبيعته، وهذا هو الذي بنى عليه المستشرق كراتشكوفسكي رأيه في أسلوب الرحلة يقول : «ومن حسن الحظ أن أسلوب الكتاب لايسير في جميع صفحاته على وتيرة واحدة، إذ كثيرا ما تتخلل العرض لغة ابن بطوطة القصصية البسيطة التي تميل أحيانا نحو لغة المحادثة، محتفظة في ذات الوقت برزانتها وغناها بالتفاصيل فوق ما تتميز به من الحيوية الدفاقة والعاطفة الجياشة، وإلى جانبها يبدو أسلوب ابن جزي ثقيلا يغلب عليه الحشو والتكلف، كما تنعكس فيه على الدوام محاولة واضحة إلى جمع قصص ابن بطوطة المتفرقة في وحدة متماسكة، وتزويقها بصورة تجعلها أقرب إلى النصوص الأدبية»(189)

(189) تاريخ الادب الجغرافي 1 : 426.

د ــ أسلوب الرحلات الصوفية :

إذا كنا لاحظنا من قبل أن لكل رحلة مميزاتها الأسلوبية ونمطها التعبيري فإننا هنا في الرحلات الصوفية لا نكاد نلمح أي إختلاف بين نحس معه بالفرق بين الرحلات، فأسلوبها يتشابه وطريقتها تتماثل، فتبدو وكأنها متكررة في هذا الأسلوب الذي يتسم بالبساطة في التعبير والتركيب، والتحرر على العموم من القيود كلها، فلا نجد في هذه الرحلات أي ميل إلى زخرفة أو تصنيع ولا نلمح أي تهافت على البديع، أو افتتان بالسجع، ولم يكن هذا الأسلوب ميدانا لاظهار المعلومات وتطبيق المعارف عن طريق الاقتباس والتضمين، وما إلى ذلك.

ومن أهم ما يتميز به الأسلوب الصوفي غلبة الجانب القصصي فالحكاية هي لب الكتابات الصوفية وروحها، لذا فالرحلات الصوفية شبكة من قصص وأخبار لها علاقة بالرحلة، أولها صلة بزهاد متصوفة لهم دور في توجيه هذه الرحلة وصاحبها.

وكنا قد اعتبرنا سابقا بأن هذه الرحلات أشبه بكتب الكرامات من حيث جمع الحكايات والأقاصيص التي اشتهر بها الشيخ المتصوف في حله وترحاله. ولهذا السبب تكثر المفاجآت التي قد لا ينتظرها الرحالة المتصوف ولا يتوقعها القارىء فانطبع الأسلوب بهذه السمة أيضا، وهذا هو السر في الاكثار من استعمال إذا الفجائية، فالتعبير بها يكشف عن جانب من ظروف الرحالة المتصوف وأحواله كما يتجلى ذلك في رحلتي البادسي وزروق مثلا، أو في كل الكتابات الصوفية نظرا لاعتماد هذه الكتابات على الكرامات والمفاجآت.

وتعرفنا من قبل أن أبا العباس زروقا لم يخرج في هذه الرحلة عن اختيار، ولكنه اعتبرها سجنا قدر عليه، فمن المعقول والمنطقي أن تكون كل مرحلة من مراحل

هذه الرحلة مفاجأة لم يكن يتوقعها قال وهو يتحدث عما واجهه بعد سلامته من الغرق في نهر ملوية : «...فصعدت للجبل ومشيت وحدي حتى كان العصر، فإذا أنا برجل في يده مقرع كبيرة، فلما رآني جلس كأنه يبول فقصدته، فإذا به قام وقال من أين جئت، ومد يده لبرنسي فآخذه ثم مشى به يسيرا، وإذا به يناديني ويقول خذ برنسك بيني وبينك الله ما هذه عنايتك حتى تمشي وحدك قلت الله عز وجل فأخذته ثم مشى، فإذا به يعرج وما كان به قبل ذلك ثم مشيت حتى أتيت غديرا يقال له جب الكريمة وإذا عليه نساء يسقين...»(190)

فالتأكيد على المفاجأة يدل عليه تكرار إذا خمس مرات في هذه الفقرة فقط، وتلاحظ ظاهرة أسلوبية أخرى وهي اعتماد الحوار في الحكاية والقصة مما يضفي على النص طابعا مسرحيا، لايكتفي فيه بالرواية والسرد القصصي.

ويتسم النص أيضا بما أشرنا إليه في البداية، ونعني البساطة في التعبير والتركيب، فالألفاظ بسيطة في متناول الشخص العادي والتراكيب تركت كما استعملت في الحوار العادي دون تنقيح أو تحوير، فاقترب الأسلوب بذلك من الاستعمال الشعبي العامي، ولا يختص هذا بما دونه زروق في هذه الرحلة، فالرحلات الصوفية كلها لها ذلك الطابع العامي في أغلب التعابير والتراكيب، إذ استعملت كلمات عامية في الصيغة أو التداول أو كلمات فصيحة لكنها ابتذلت باستعمال العوام لها.

ومن أمثلة هذه التعابير العامية في «انس الفقير» سواء تلك التي استعملها ابن قنفذ نفسه أو ساقها في حكاية كلام بعض الصوفية. وصفه للثور بأنه أكحل اللون(191) فإطلاق هذا المعنى على اللون استعمال عامي، وجمع المخدة(192) على المخايد، تابع فيه الاستعمال العامي الدارج وغيرهما من العبارات كقوله عن العبدوسي إنه «يخرج للضعفاء تسعة أعشار صابته ويتمسك بالعشر»(193) فالصابة بمعنى المحصول استعمال عامي، وكعبارة خمل بمعنى جمع في قوله «حضر وخمل

(190) كناش زروق ص 69.

(191) انس الفقير ص29.

(192) نفسه ص 68.

(193) نفسه ص 25.

ثوبه»[194] ويدخل ضمن هذا التأثر بالاستعمال العامي استعماله للبئر[195] بصيغة التذكير واستعماله للكساء[196] مؤنثا وتراكيب مثل «أعطني سرجك نركب بها»[197] ومثل «لي أربعون سنة نقرىء المدونة»[198] ومثل قوله عن اللجائي بأنه «اخترع اسطرلابا ملصوقا في جدار»[199].

ويمكننا استخراج استعمالات عامية كثيرة من الرحلة القصيرة لزروق أيضا مثل ملوية تزيد[200] والوادي حامل[201]، وفي يده مقرع...[202].

ونلحظ هذا الاستعمال العامي أيضا في تحفة المغترب كاستعماله للزنبيل[203] بمعنى الاناء.

فما سبب شيوع هذه الظاهرة الأسلوبية في الرحلات الصوفية ؟ لعل السبب يكمن في أن أصحاب هذه الرحلات يتحدثون فيما دونوه عمن اختلطوا بهم فيها، وصاحبوهم في الطريق وفي الأماكن التي ارتادوها وأغلب هؤلاء الذين خالطوهم من الزهاد والعباد والمتصوفة والبسطاء من العامة الذين يؤخذون بما يحكى عن الأولياء من كرامات وأقاصيص فتدوين الرحالة لهذه الأخبار وحديثهم عن عالم هؤلاء البسطاء يتسم أيضا بالبساطة، فينقل عنهم أحاديثهم دون تغيير أو تحوير، فتبدو الكتابة هنا أقرب إلى الاستعمال العامي، ومن هنا فلا علاقة لهذا الأسلوب بمستوى صاحب الرحلة، فلا يمكن اعتباره نموذجا لكتابة الرحالة وأسلوبه، إذ بالرغم من

---

(194) نفسه ص 53.

(195) نفسه ص 86.

(196) نفسه ص 24، 87.

(197) نفسه ص 51.

(198) نفسه ص 25.

(199) نفسه ص 68.

(200) كناش زروق ص 69.

(201) كناش زروق ص 68.

(202) نفسه ص 69.

(203) تحفة المغترب ص 96.

المستوى الجيد الذي عرف به الرحالون المتصوفون في كتبهم وما اشتهروا به من كثرة التآليف في مختلف العلوم والفنون، فإنهم ظهروا هنا بمستوى متواضع جدا، نتبين ذلك من عقد مقارنة بين نماذج من رحلاتهم وتآليفهم الأخرى، وسنقتصر في مقارنتنا على ابن قنفذ وزورق لكوننا لا نعرف مؤلفا آخر للقشتالي صاحب تحفة المغترب.

فبالنسبة لابن قنفذ في انس الفقير، إذا أستثينا مقدمته للكتاب التي تأنق فيها ونمق أسلوبها جريا على عادة كتاب عصره في الاحتفال بمقدمات الكتب وعناوينها، فإن أسلوبه في صلب الكتاب ظل بسيطا عاديا لم يعتن بتنميقه أو تنقيحه بل إنه نزل عن المستوى الذي نجده له في كتبه الأخرى يقول مثلا عن الصالحة عزيزة السكسيوية : «وتبركت بها وجلست معها وهي متوجهة في صلح بين فئتين عظيمتين، ولها أتباع من الرجال وأتباع من النساء وكل طائفة اشتغلت بالمجاهدة والعبادة في جهة ما يخصها ويضرب لها قيطون بالوسط بمقربة من طائفة النساء ولا يتحرك أحد إلا عن أمرها وإذا جلست للناس تلقى عليها كساء لا تترك فيها من أين تنظر إلى أحد...»(204) فلقد تأثر هنا بالاستعمال العامي، لأن لفظة قيطون بمعنى الخيمة، هي لفظة عامية ما زالت مستعملة إلى الآن، وكذلك تأنيثه للكساء، وهكذا يطل علينا من حين لآخر في أسلوبه هنا ذلك الاستعمال العامي، إما لكون اللفظة عامية، أو اكتسبت معنى بتداولها بين العامة نلمح ذلك في قوله : «وكان الشيخ أبو هادي يتردد في بلاد افريقية، وأكثر استقراره بقسنطينة وحوزها ، وله نوادر في طرف الكلام، ويباسط ببعض الكلمات المضحكة(205)، فاستعماله للحوز بمعنى الناحية، ويباسط بمعنى يمازح ربما كان متأثرا في ذلك بما هو متداول عند العامة.

وعلى العكس من ذلك نجد أسلوبه في كتبه الأخرى جزلا فصيحا غير مشوب بما أشرنا إليه من تأثر بالاستعمال الدارج بين عامة الناس، ويمكننا أن نجد أمثلة عديدة، على نحو ما كتبه في الفارسية يقول : «وفي سنة أربع وثمانين تحرك أمير المؤمنين إلى بسكرة وأقام ببئر الكاهنة مدة حتى دبر أمره، ثم ارتحل إليها، وضاق أمر أحمد بن يوسف بن مزني الوالي بالمشيخة عليها. ولم يبق له غير البدار والتسليم،

---

(204) انس الفقير ص 86 / 87.

(205) انس الفقير ص 52.

والوصول إلى الباب الكريم، ودعوة المظلوم قد تمكنت منه، وإزالة ما اعتاد من الستر عنه وكانت نية الخليفة إبقاءه على ولايته، ولشناعة ظلمه وشكاية رعيته، أمر الشرع بإزالته فأصرف إلى الحضرة، ودخل أمير المؤمنين بسكرة في يوم السبت السابع لجمادى الأخرى من سنة أربع وثمانمائة، وقد مرت لهم في المشيخة المستقلة بها نحو مائة وأربعين عاما، منها لأحمد بن يوسف هذا أربعون سنة، وأقام الخليفة بها مدة، وانصرف بالغنيمة إلى الحضرة الكريمة، وجعل فيها قائدا من قواده، وكانت هذه من غرائب استفتاح بلاده»(206)

فالنص لم ينزل في أسلوبه عن المستوى الفصيح، إذ لا نجد أية كلمة اشتهرت باستعمالها بين العامة، بالاضافة إلى أننا نلمح فيه ميلا إلى بعض التفنن والعناية بالصيغ والتراكيب فلقد وردت فيه سجعات من غير تكلف أو تصنع، بل صدرت عن عفوية كست الأسلوب مسحة فنية مقبولة.

والاتكاء على الاستعمال العامي والتعبير الشعبي المتداول يكثر في أسلوب أحمد زروق أيضا بل يبدو في رحلته أكثر إستعمالا لهذه التعابير البسيطة المتداولة يقول واصفا ما لقيه في رحلته وقد نجاه الله من مكر شخص بات عنده : «فصرفني مع سبع شبان من أهل كبدانة فمروا بي حتى أتينا في طرف ملوية آخر النهار فإذا بها تزيد فتدخلتها وهي إلى السرة، فلما توسطتها زادت فما خرجت منها حتى رفعتني فأخذني منها رجلان بعضدي والقياني في السلام»(207).

وبالرغم من أن الكلمات ليست عامية، إلا أن التراكيب تقربنا من الاستعمال العامي (فإذا بها تزيد...السلام) وهو نفس ما نستشعره ونحن نتابعه في وصفه يقول : «ثم انصرفت فجئت موضعا يقال له تبوله عند القايلة فإذا بدوار عرفوني فنزلت فإذا عندهم لحم ضربوه وأنا ما أكلته قط فأطعموني منه فما قدرت عليه...»(208)

فمثل هذا التركيب لا تجيزه الفصحى «دوار عرفوني» وكذلك قوله «لحم ضربوه» ولفظة «القايلة» رغم أنها فصيحة إلا أنها ابتدلت باستعمال العامة لها في

---

(206) الفارسية ص 198 وأنظر منه مثلا ص 199، 197، 194، 193، 192.

(207) كناش زروق ص 69.

(208) نفسه ص 70.

هذا المعنى، ونشير أيضا إلى هذا الالحاح على (إذا) الفجائية التي قلنا إنها كثرت في الكتابة الصوفية، وإذا كنا نلاحظ هذا التواضع الأسلوبي في رحلة زروق، فإننا على العكس من ذلك نجده في تآليفه الأخرى يسمو في كتابته ويتأنق في أسلوبه ونكتفي في هذا المجال بمثالين أحدهما من رسائله إلى المتصوفة والثاني من كتابه (عدة المريد).

جاء في رسالته إلى المتصوفة قوله : «إياكم وعلم الكلام فإنه مضر باليقين، فقد قيل الناظر في علم التوحيد كالناظر في الشمس كلما ازداد نظرا ازداد عمى، وقد اتفق مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وأبو يوسف على تحريم علم الكلام، وقال بعض العلماء الضلال بعد الهدى علم المنطق وقال عليه الصلاة والسلام ما ضل قوم بعد هدي إلا حرموا العمل وألهموا الجدل، وليكن جدكم في طلب الفقه وأصوله، وفي بعض النحو وفصوله، وانتحلوا فقه الحديث والعمل به، ولا ترجعوا للقصور على إحداهما، فتقعوا في الحيرة والخجل»[209]

ففي الرسالة جزالة تعبير، ومتانة تركيب، ووضوح في عرض الأفكار، وتجنب مطلق لكل غريب مستهجن وعامي مبتذل، مع الاستناد في عرضه لآرائه على أدلة وحجج من الكتاب والسنة وأقوال الأئمة السابقين.

والأهم من ذلك أن أسلوبه متحرر من الصنعة، بريء من التكلف والتعقيد وهي سمته أيضا في أسلوبه بكتاب «عدة المريد» فباستثناء مقدمته[210] التي مال فيها إلى السجع وانتقاء التعابير جريا على العادة التي استحكمت بين الكتاب في عصره فإن أسلوبه في الكتاب لم ينحدر فيه إلى التكلف و لم يستعمل الألفاظ الغريبة أو الكلمات العامية على نحو ما رأينا في رحلته فمما قاله في كتابه عدة المريد عن ظهور المشايخ والمشيخة : «اعلم أن الأوائل من القوم لم يكن لهم ترتيب في المشيخة معروف، ولا اصطلاح في السلوك مألوف، وإنما كانت الصحبة واللقاء، فكان الأدنى منهم إذا لقي الأعلى استفاد برؤيته أحوالا، لأن من تحقق بحالة لم يخل حاضروه منها، والأحوال موروثة، فلذلك قال ابن العريف كيف يفلح من لم يخالط مفلحا»[211].

---

(209) مخطوط بالخزانة العامة رقم 2795 د ص 107.

(210) عدة المريد مخطوط بالخزانة العامة رقم 1657 د ورقة 1 / 2.

(211) نفسه ورقة 10.

فأسلوبه هنا خال من أي أثر لتكلف أو تعقيد أو تصنع، فالسجعتان اللتان توجدان في بداية النص لا تجانبان الطبع ولا ينبو عنهما الذوق السليم. ويبدو الأسلوب مركزا جزلا، فلا نجد فيه حشوا أو كلمة لا دور لها في الجملة.

خاتمة

حاولنا في هذه الدراسة المتواضعة، إلقاء الضوء على فن الرحلة في العصر المريني، لاعتقادنا بأن هذا الفن يعكس البيئة بمختلف صورها وأشكالها السياسية والثقافية والأدبية. ومن هنا كان لزاما علينا، قبل معرفة أنماط هذه الرحلات وأصنافها، التمهيد لذلك بما يلقي مزيدا من الضوء على العصر سياسيا وثقافيا واجتماعيا وحضاريا، لنتعرف على المحيط الذي نما فيه هذا الفن وترعرع، وليتأتى لنا بعد ذلك معرفة الدوافع والبواعث والتوجهات المختلفة لرحلات الفترة المدروسة.

ولاحظنا منذ البداية ما يزخر به العصر المريني من رحلات، على عكس العصور السابقة، محاولين تعليل هذه الظاهرة، وإرجاع أسباب هذا التكاثر إلى دوافع دينية وعلمية وسياسية، معتمدين في استنتاجنا على ما استخلصناه من قراءاتنا للرحلات المدونة نفسها أو ما عثرنا عليه من إشارات في ثنايا كتب التاريخ والتراجم والطبقات.

وتبينا من تتبعنا للتطور الذي انتاب الرحلة في هذا العصر، والتغير الذي طرأ عليها، من أن الرحلة شهدت فترتين متباينتين، الأولى عرفت فيها ازدهارا وتوثبا وانتعاشا، فتكاثرت الرحلات وتطورت في أشكالها ومضامينها، وخاصة الرحلات الحجازية، بينما اعترى هذا النوع من الرحلة في الفترة الثانية ضمور وفتور، مرده في نظرنا إلى مستوى العلاقات المشرقية المغربية آنذاك، والظروف الأمنية التي كانت تسود المغرب حينئذ.

وكان الباب الثاني من هذه الدراسة مجالا للبحث في نصوص هذه الرحلات والتعرف على أصحابها. وهكذا فمن خلال الرحلات التي وقفنا عليها واعتمدناها في دراستنا ــ وعددها خمس عشرة رحلة ــ تبين لنا أنها تختلف في الهدف والوجهة

والمضمون والشكل، فأفردنا فصلا لصنف من الرحلات، انطلق أصحابه من المغرب نحو وجهات ومناطق مختلفة، وإن كان أغلب هؤلاء الرحالين قد جد السير نحو الحجاز وانجذب نحو بقاعه المقدسة، واعتبرنا خمس رحلات ممثلة لهذا الصنف من الرحلة وأعني بها رحلات كل من ابن رشيد والعبدري والتجيبي وابن بطوطة والبادسي.

وتناولنا في الفصل الثاني من هذا الباب صنفا آخر من الرحلة لم يخرج الرحالون فيه من المغرب، وإنما كانوا يجوبون مناطقه وأقاليمه الداخلية لغايات ودوافع مختلفة، كالسياحة الصوفية، أو مصاحبة المواكب السلطانية أو الرحلة إلى الحواضر والمركز العلمية، أو التجوال....

ومن هنا افترضنا أن تكون الرحلات من هذا النوع كثيرة، بالرغم من أننا لم نعثر في دراستنا إلا على عشرة نصوص ممثلة للرحلات التي كان المغرب ميدانها ومقصدها، معللين هذه الظاهرة بأن المغاربة لم يكونوا يحرصون على تدوين رحلاتهم داخل المغرب، لأن الأخبار والأقاصيص التي تلقى الاهتمام، وتترك أثر لدى السامعين، وينال صاحبها التقديروالاعجاب، وتثير حب الاستطلاع، هي ما يحكيه الرحالة أو يدونه عن بلدان بعيدة، فلا غرابة إذن إن وجدنا أغلب الرحلات الداخلية لغير المغاربة.

وكان عملنا في هذين الفصلين يهدف بالدرجة الأولى إلى تقديم العمل وصاحبه وان تجنبنا الاسهاب وذكر التفاصيل. فاقتضى منا ذلك التعريف الموجز بالرحالة مع الاحالة على أهم مصادر ومراجع ترجمته،متبعين كل هذا بإلقاء نظرة على الرحلة ورسم خطوطها العريضة وتلخيص محتواها.

وحاولنا جهد المستطاع الكشف عن جوانب وزوايا مختلفة من حياة الرحالين، مستنتجين أغلب ما توصلنا إليه مما دونوه هم أنفسهم في رحلاتهم أو كتبهم الأخرى.

كما أننا استطعنا ـــ في عرضنا لمحتوى هذه الرحلات ـــ سد الكثير من الثغرات التي يحسها القارىء فيما وصلنا من نصوص هذه الرحلات، وهكذا التمسنا كثيرا من هذه النصوص والأجزاء المفقودة أو الضائعة، في كتب العصر وأرجعناها إلى مكانها في الرحلة، فتعرفنا على كثير مما يتضمنه السفران الأول والرابع المفقودان من رحلة ابن رشيد، وتوصلنا إلى معرفة الأسانيد والشيوخ والاخبار التي يتضمنها الجزآن الأول والثالث الضائعان من رحلة التجيبي واستخرجنا من الروض الهتون والنفح أهم مواد السفر الأول المفقود من النفاضة.

كما نبهنا على الثغرات التي يتفطن إليها القارىء الدارس في رحلات هذا العصر مشيرين على الخصوص إلى ما لاحظناه من ثغرات ومظاهر الخلل والنقص في رحلات كل من ابن بطوطة والمقري والتميري.

ولقد أولينا الاعلام والشيوخ في هذه الرحلات اهتماما خاصا، إذ عرفنا بهم في إيجاز، سواء كان هؤلاء الأعلام من الذين تتلمذ عليهم الرحالة أو صاحبهم أثناء رحلته، أو التقى بهم. وأشرنا من قبل إلى أن عددهم يشق عن الحصر. وأهمية هؤلاء الأعلام المذكورين أن كثيرا منهم لم يعرف إلا من خلال ما كتب عنه في الرحلة.

وأمكننا في الفصل الأخير من هذا الباب النظر ــ من جديد ــ إلى هذه الرحلات من حيث المضمون والشكل، فاستعرضنا بعض ما استخلصناه من مضامين جغرافية، واجتماعية، وعلمية، إلا أننا، وبالرغم من تأكيدنا على أهمية هذه المضامين وغناها، فلم يتسع مجال البحث ولم يمكن التفصيل إلا في عرض المضمون الأدبي، شعرا ونثرا ونقدا. وتوقفنا مع منهج الرحلات وأسلوبها، فوجدناها لم تنسج على منوال واحد، ولم تسلك طريقة موحدة، بل اختلفت منهجا وأسلوبا. وهكذا ميزنا بين مناهج وأساليب الرحلات الفهرسية، والرحلات الصوفية، والرحلات الداخلية...

ومن أهم نتائج هذه الدراسة :

1) الرحلات مصدر مهم لمعرفة الحياة الثقافية والبيئات العلمية ــ مشرقا ومغربا ــ في هذه الفترة، ففيها ذكر لأهم المراكز العلمية، ومجالس الدرس والتحصيل، والكتب المعتمدة في الدراسة، والعلوم التي كانت هدف الرحالين والطلبة...

2) إن علماء المغرب لم يكونوا أقل في تكوينهم العلمي من غيرهم من علماء الشرق والأندلس وتونس، فلقد بدت شخصية العالم المغربي ــ من خلال الرحلات ــ متكافئة مع زملائه الذين التقى بهم في الرحلة، إن لم نقل متفوقة عليهم. فلقد أشارت الرحلات إلى كثير من المواقف التي أبدى فيها الرحالة آراءه التي كثيرا ما تخلق أصداء الاعجاب والتقدير، والأمثلة كثيرة في رحلات ابن رشيد، والعبدري، والتجيبي على الخصوص. ومن هنا فلم تكن الرحلة إلى المشرق تتوخى ــ دائما ــ التلمذة والدرس والطلب وإنما كانت من أجل أهداف وغايات أخرى كزيارة المراكز الثقافية والحصول على الرواية والسند العالي، وجلب الكتب، ولقاء العلماء،

ومجالستهم، والحصول على الاجازات، وبناء الشخصية العلمية، أو القيام بسفارة لدى ملوك مصر خاصة، أو حمل المصاحف إلى الأماكن المقدسة هناك...

3) إن العصر المريني كان عصر سيادة التصوف، وشيوع الزهد في الحياة، وذيوع الطرق الصوفية المختلفة. ففي الرحلات أمثلة كثيرة لسيادة هذا الجانب الروحي وتمكنه من النفوس، شعبيين ورسميين؛ وهكذا كثرت الرحلات الزيارية والرحلات السياحية من أجل ملازمة الشيخ وما إلى ذلك، بل إن هناك مؤتمرات يقصدها المتصوفة من نحو ذلك الذي حضره ابن قنفد بدكالة مع من لايحصى من الفضلاء. ومن مظاهر هيمنة الناحية الروحية، لم تخل رحلة من الحديث عن كرامات الصلحاء والأولياء والشيوخ، وروايات سند خرقة التصوف، وإثبات الورد أو حزب الشيخ...

4) تعتبر الرحلات مصدرا فريدا لكثير من النصوص الأدبية شعرا ونثرا. فلقد انفردت برواية كثير من النصوص، وهكذا فأغلب الرحالين حرصوا على أن تضم رحلاتهم النوادر، كما أنهم أدرجوا في رحلاتهم كثيرا من قصائدهم الشعرية ورسائلهم النثرية مما له علاقة بظروف الرحلة مما جعل الرحلات ذات أهمية خاصة، فأكثر الرحالين لم تعرف لهم أشعار أو كتابات إلا من خلال ما ورد في رحلاتهم. ومن أجل ذلك اعتبرنا الرحلات بمثابة دواوين لأصحابها، ومجاميع ضمت ألوانا من إنتاج علماء العصر وأدبائه.

5) وللرحلات أهميتها أيضا فيما احتضنته من تراجم لأعلام التقى بهم الرحالون وخبروا أحوالهم واطلعوا على ظروف حياتهم، مما جعل لهذه التراجم طابعا معينا، وخصوصية مميزة، تختلف بها عما تضمه كتب التراجم والطبقات، إذ الرحالة يستقي معلوماته من الاتصال المباشر به والاحتكاك بالمترجم له في مجالس الدرس، أو في البيت، أو في المسجد، أو النزهة، أو الشارع... وبذلك لم تكن إفادته في هذه الترجمة مقتصرة على الجانب العلمي، وإنما يتعمق الشخصية فيفيدنا بما له علاقة بنواحي عقلية ونفسية ومزاجية...

6) والرحلات مصدر هام أيضا لدراسة الحركة النقدية في هذه الفترة. فمن خلال ما صدر عن الرحالين من آراء نقدية وتصويبات وتعليقات، تكون لدينا رأي واضح عن الاتجاهات والمقاييس النقدية التي أرجعناها إلى مقاييس ذوقية، ولغوية، وبلاغية، وعروضية، وتكاملية...

7) من خلال دراسة شكل الرحلات لاحظنا ــ عن كثب ــ أن الأسلوب فيها لم يكن مثقلا بالصنعة والزخرف اللفظي، وإنما اتسم ــ في معظمه ــ بوضوح الفكرة وجمال التعبير وإشراقه، وبساطة الجملة وسلامتها من التكلف والتصنع، وحتى في المستويات الأسلوبية الأخرى لم ينحدر إلى درك التكلف والتصنع اللفظي والتعقيد المعنوي. ومن هنا، فمن الخطأ والتسرع في الحكم الاعتقاد بأن النثر المغربي صورة للنثر المشرقي ينحو نحوه ويحتذي حذوه. فمثل هذا التعميم يجانب المنهج العلمي والبحث الرصين المتأني.

فهرس المصادر والمراجع

1 ـ المخطوطات :

ـ أحمد زروق وطريقته في التصوف لمؤلف مجهول
ضمن مجموع مخطوط بالخزانة العامة رقم د 2100.

ـ إنباء الغمر بأنباء العمر لابن حجر العسقلاني
مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط رقم 3824.

ـ بيان غربة الاسلام لابن ميمون الغماري
مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم ك 2123.

ـ تحفة الزائر لأحمد بن عاشر الحافي
مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم د 533.

ـ تلخيص شرح البردة لابن الأحمر، تأليف أبي زيد عبد الرحمن الحاديري
مخطوط خزانة القرويين رقم 643/40.

ـ جلب النعمة ودفع النقمة لأحمد بابا التنبكتي
مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم ك 383ضمن مجموع
ص 215 ـ 276.

ـ الحوادث والبدع لأحمد زروق
مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم ك 1157.

ـ خطب ابن عباد. مخطوط مجموع بالخزانة الحسنية رقم2688.

ــ الدر السني في بعض من فاس من أهل النسب الحسني.
تأليف عبد السلام القادري، مخطوط الخزانة العامة رقم د 1456.

ــ دور الكتب في ماضي المغرب لمحمد المنوني
مخطوط الخزانة الحسنية رقم258.

ــ الرحلة الكبرى لابن عبد السلام الناصري
مخطوط الخزانة العامة رقم د2327، مخطوط الخزانة الحسنية رقم 5658.

ــ الرحلة الصغرى لابن عبد السلام الناصري
مخطوط الخزانة الحسنية رقم121.

ــ رسائل أحمد زروق إلى المتصوفة
ضمن مجموع مخطوط بالخزانة العامة رقم د2795.

ــ رسائل ابن عباد. مخطوط الخزانة الحسنية رقم255.

ــ الرسائل الصغرى لابن عباد. مخطوط الخزانة العامة رقم د1717.

ــ رسالة الاخوان من أهل الفقه وحملة القرآن
تأليف ابن ميمون الغماري، مخطوط الخزانة العامة رقم ق95 (ضمن مجموع)

ــ الرسالة الميمونية في توحيد الاجرومية لابن ميمون الغماري.
مخطوط الخزانة العامة رقم ق 95 (ضمن مجموع)

ــ الروض العطر الأنفاس لابن عيشون الشراط.
مخطوط الخزانة العامة رقم ك2401.

ــ ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب لابن الخطيب.
مخطوط الخزانة الحسنية رقم2195.

ــ سبك المقال لفك العقال لابن الطواح
مخطوط الخزانة الحسنية رقم2/105.

ــ السلسل العذب والمنهل الأحلى لابن بكر الحضرمي
مخطوط الخزانة الحسنية رقم4354.

ــ شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام لتقي الدين الفاسي

مخطوط الخزانة الحسنية رقم1911.

ـ عدة المريد لأحمد زروق
مخطوط الخزانة العامة رقم د1657.

ـ فهرسة يحيى السراج. مخطوط الخزانة العامة رقم ك1242.

ـ فهرسة المنتوري. مخطوط الخزانة الحسنية رقم1578.

ـ فهرسة ابراهيم بن هلال. مخطوط الخزانة العامة رقم ك271.

ـ فيض العباب وإفاضة قدح الآداب لابراهيم النميري
مخطوط الخزانة الحسنية رقم3267.

ـ قصيدة حركة أبي الحسن المريني إلى القيروان للكفيف الزرهوني
مصورة الخزانة العامة رقم1118.

ـ القواعد لأبي العباس القباب
مخطوط الخزانة الحسنية رقم2250.

ـ كتاب الامتاع والانتفاع لابن الدراج السبتي
مخطوط الخزانة العامة رقم د3663.

ـ كتاب عجالة المستوفظ لابن مرزوق
ضمن مجموع مخطوط بالخزانة الحسنية رقم7559.

ـ كناش زروق. مخطوط الخزانة العامة رقم ك1385.

ـ اللسان المعرب لمحمد السليماني.
مخطوط الخزانة الحسنية رقم297.

ـ مذكرات ابن الحاج النميري.
مخطوطة الاسكوريال رقم1734.

ـ المسافة السنية في اختصار الرحلة العبدرية لابن قنفد.
مصور الخزانة العامة رقم476.

ـ المسند الصحيح الحسن في أخبار مولانا أبي الحسن، لابن مرزوق
مخطوط الخزانة العامة رقم ق111.

ـ ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة. للرحالة ابن رشيد، مصورة معهد مولاي الحسن بتطوان

ـ مقتطفات من رسائل ابن عباد الكبرى
تأليف عبد الرحمن الشاذلي. مخطوط الخزانة العامة رقم د1717.

ـ مناقب أبي العباس الحضرمي
مخطوط الخزانة العامة رقم ق1385 (ضمن مجموع)

ـ النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب لابن صعد الانصاري
مخطوط الخزانة الحسنية رقم2491.

ـ نصح ملوك الاسلام لابن السكاك
مخطوط الخزانة العامة رقم ك383 (ضمن مجموع)

ـ نفاضة الجراب في علالة الاغتراب (السفر الثالث) لابن الخطيب
مخطوط الخزانة العامة رقم ك256.

ـ هداية من تولى لأبي حفص عمر الرجراجي
مخطوط الخزانة العامة رقم ك383 (ضمن مجموع ص85 ـ 214)

ـ الوسيلة إلى المرغوب في كرامة الشيخ الولي أبي يعقوب
تأليف أبي محمد الأوربي
مخطوط بالخزانة الحسنية رقم9447 (ضمن مجموع229 ـ 247)

2 ـ المطبوعات :

ـ آسفي وما إليه لابي عبد الله الكانوني العبدري (بدون تاريخ ومكان الطبع)

ـ أبو الربيع سليمان الموحدي للدكتور عباس الجراري، الدار البيضاء 1974

ـ أبو الوليد ابن الأحمر لعبد القادر زمامة، الدار البيضاء1399/1979

ـ إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس لعبد الرحمن ين زيدان الرباط 1352/1933.

ـ الاحاطة في تاريخ غرناطة لابن الخطيب
تحقيق محمد عنان. القاهرة 1393/1973.

ـــ أحمد زروق والزروقية. تأليف د. خشيم علي فهمي، بيروت 1975.

ـــ أخبار المهدي بن تومرت، تأليف أبي بكر البيدق، الرباط 1971

ـــ اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار
تأليف محمد الأنصاري السبتي. تحقيق الأستاذ محمد بن تاويت
نشر بمجلة تطوان عدد 3ـــ4 سنة 1958.

ـــ أدب الرحلة عند العرب، تأليف د. محمد حسين حسيني، مصر 1976.

ـــ الأدب المغربي، تأليف محمد بن تاويت بالاشتراك مع محمد الصادق عفيفي
بيروت 1960.

ـــ أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض لأبي العباس المقري
نشر وزارة الأوقاف ـــ الرباط

ـــ الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى لأبي العباس الناصري. الدار
البيضاء 1956

ـــ أشهر رحلات الحج (ج1) لحمد الجاسر منشورات دار الرفاعي بالسعودية
بالسعودية 1402هـ/1982م

ـــ الأصول التاريخية للحضارة العربية الاسلامية في الشرق الأقصى
تأليف فيصل السامر، باريس

ـــ أعجب الرحلات في التاريخ، تأليف أنيس منصور، الاسكندرية 1972

ـــ الاعلام لخير الدين الزركلي. بيروت

ـــ الاعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام
تأليف عباس بن ابراهيم المراكشي، المطبعة الملكية بالرباط.

ـــأعلام المغرب العربي (ج2) تأليف عبد الوهاب بن منصور المطبعة الملكية
بالرباط 1399هـ/1979م

ـــ إفادة النصيح في التعريف بسند الجامع الصحيح لابن رشيد
تحقيق د. ابن الخوجة، تونس.

ـــ الاكسير في فكاك الأسير لابن عثمان المكناسي
(مقدمة محمد الفاسي لتحقيقه) الرباط1965.

ـــ ألف سنة من الوفيات (وفيات ابن قنفد، والونشريسي، وابن القاضي)
(تحقيق د. محمد حجي، الرباط 1976/1396).
ـــ إنباء الغمر بأنباء العمر، لابن حجر العسقلاني
تحقيق د. حسن حبشي. القاهرة 1971/1391.
ـــ أنس الساري والسارب، تأليف محمد بن أحمد السراج.
تحقيق محمد الفاسي، فاس 1968/1388
ـــ أنس الفقير وعز الحقير لابن قنفد
تحقيق محمد الفاسي وأدلف فور، الرباط 1965.
ـــ الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس
تأليف ابن أبي زرع الفاسي، ط دار المنصور. الرباط 1973
ـــ إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون
تأليف اسماعيل باشا البغدادي، مكتبة المثنى. بغداد
ـــ بدائع السلك في طبائع الملك لابن الأزرق
تحقيق د. علي سامي النشار. ط بغداد 1977
ـــ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع
تأليف محمد بن علي الشوكاني، القاهرة 1348هـ.
ـــ برنامج التجيبي، تحقيق عبد الحفيظ منصور، ليبيا ـــ تونس 1981.
ـــ برنامج الودياشي. تحقيق محمد محفوظ. بيروت 1982.
ـــ البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، لابن مريم
تحقيق ابن شنب. الجزائر 1908/1326.
ـــ ابن بطوطة. تأليف فؤاد بدوي، ط القاهرة 1963.
ـــ ابن بطوطة. تأليف فؤاد أفرام اليستاني. سلسلة الروائع أعداد 4، 5، 6
ـــ ابن بطوطة في أفغانستان، تأليف خليل الله خليلي، بغداد 1971
ـــ ابن بطوطة ورحلته، تأليف د. شاكر خصباك. بغداد 1971.
ـــ ابن بطوطة في العالم الاسلامي. تأليف د. ابراهيم العدوي، مصر 1954

ـــ بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد لأبي يحيى ابن خلدون الجزائر 1903/1321.

ـــ بغية الوعاة لعبد الرحمن السيوطي. دار الفكر 1979/1399

ـــ بلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب. مؤلف مجهول. نشر بتحقيق الأستاذ ابن تاويت في مجلة تطوان عدد 9 سنة 1964.

ـــ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذارى. ط. بيروت

ـــ بيوتات فاس الكبرى. شارك في تأليفه اسماعيل بن الأحمر نشر دار المنصور. الرباط 1972.

ـــ تاج العروس (ج 19) لمحمد مرتضى الزبيدي. تحقيق عبد الحليم الطحاوي، ط. الكويت.

ـــ تاج المفرق في تحلية علماء المشرق. وهو رحلة خالد بن عيسى البلوي تحقيق الحسن السائح. مطبعة فضالة، المحمدية.

ـــ تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان، ط. الثانية، بيروت 1978

ـــ تاريخ الأدب الجغرافي للمستشرق كراتشوفسكي ترجمة صلاح الدين هاشم. القاهرة 1963.

ـــ تاريخ ابن خلدون، انظر كتاب العبر

ـــ تاريخ افريقيا الشمالية (الجزء الثاني) تأليف شارل أندري جوليان تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، تونس 1978/1398

ـــ تاريخ الجزائر العام (الجزء الثاني) لعبد الرحمن الجيلالي. الجزائر 1955/1375.

ـــ تاريخ الجغرافية والجغرافيين لحسين مؤنس. مدريد 1967/1386

ـــ تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية لأبي عبد الله الزركشي. تونس 1966

ـــ تاريخ سبتة الأستاذ ابن تاويت. ط دار الثقافة بالدار البيضاء 1982

ـــ تاريخ الشعر والشعراء بفاس لأحمد النميشي. فاس 1343.

ـــ تاريخ الشعوب الاسلامية لكارل بروكلمان. تعريب نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي. الطبعة السابعة. بيروت 1977.

ـ تاريخ الفكر الأندلسي، تأليف أنخيل جنثالث بالنثيا
تعريب حسين مؤنس القاهرة 1965

ـ تاريخ قضاة الأندلس المسمى كتاب المرقبة العليا لأبي الحسن النباهي، ط بيروت

ـ تاريخ كشف افريقيا واستعمارها للدكتور شوقي الجمل، القاهرة 1971.

ـ تاريخ المغرب للاستاذ عبد العزيز بنعبد الله. ط الدار البيضاء

ـ تحفة الألباب لأبي حامد الغرناطي، نشره فراند بالجريدة الأسيوية سنة 1925

ـ تحفة المغترب ببلاد المغرب لمن له من الاخوان في كرامات الشيخ أبي مروان لأحمد بن ابراهيم الأزدي القشتالي. تحقيق دي لاجرانخا مدريد 1974.

ـ تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار
وهي رحلة ابن بطوطة. ط دار التراث بيروت 1968/1388

ـ تذكرة الحفاظ لشمس الدين الذهبي. ط دار أحياء التراث. لبنان

ـ ترتيب المدارك للقاضي عياض مع مقدمة تحقيق الجزء الأول منه نشر وزارة الأوقاف، الرباط

ـ الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، لأبي القاسم الزياني تحقيق عبد الكريم الفيلالي، المحمدية 1967/1397.

ـ تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي لأنيس المقدسي، ط 5، بيروت 1974

ـ التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا لعبد الرحمن بن خلدون القاهرة 1951/1370.

ـ التعريف بالقاضي عياض لولده أبي عبد الله محمد
تحقيق د. محمد بنشريفة، نشر وزارة الأوقاف

ـ التعريف بالمغرب. مجموعة محاضرات لمحمد الفاسي. القاهرة 1961

ـ توشيح الديباج وحلية الابتهاج لبدر الدين القرافي.
تحقيق أحمد الشتيوي، بيروت 1983/1403.

ـــ التيارات الفكرية في المغرب المريني لمحمد المنوني فصلة طبعت مستقلة صدرت بفاس 1391هـ/1972م

ـــ جامع القرويين (ج2) تأليف د. عبد الهادي التازي، بيروت 1972.

ـــ جذوة الاقتباس لابن القاضي. نشر دار المنصور. الرباط 1973.

ـــ الجغرافية والرحلات عند العرب. تأليف نقولا زيادة. بيروت 1980

ـــ الجغرافيون العرب لمصطفى الشهابي، مصر 1962.

ـــ جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس لعلي الجزنائي، المطبعة الملكية الرباط 1387 / 1967.

ـــ جواهر الكمال في تراجم الرجال لأبي عبد الله الكانوني. القسم الثاني، البيضاء 1356

ـــ حرب الريف التحريرية (ج 1) لأحمد البوعياشي ط. طنجة 1974م

ـــ الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية (الجزء الثالث) تأليف الأمير شكيب أرسلان مصر 1358 / 1939.

ـــ الحلل السندسية في الأخبار التونسية لمحمد السراج (ج 3) تونس 1970.

ـــ الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية لمؤلف مجهول تحقيق الأستاذين زكار، وزمامة. الدار البيضاء 1979.

ـــ الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية بشفشاون تأليف عبد القادر العافية، الرباط 1982.

ـــ حياة الوزان الفاسي وآثاره لحمد المهدي الحجوي، الرباط 1354 / 1935

ـــ الخزانة العلمية بالمغرب لمحمد العابد الفاسي، الرباط 1380 / 1960

ـــ ابن الخطيب من خلال كتبه للفقيه التطواني محمد بن أبي بكر ط.تطوان 1954

ـــ دائرة معارف الشعب (ج 1) ط. القاهرة 1959

ـــ درة الحجال في أسماء الرجال لابن القاضي، القاهرة 1390 / 1970

ـــ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني. مصر 1385 / 1966.

ــ دليل الحج والسياحة لأحمد الهواري (تقريظ كل من ابن زيدان وعبد الحي الكتاني) المطبعة الرسمية 1935.
ــ دليل مؤرخ المغرب الأقصى. تأليف عبد السلام بنسودة. البيضاء 1965
ــ دوحة الناشر لابن عسكر، تحقيق د.محمد حجي، الرباط 1936 / 1976
ــ الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب لابن فرحون
دار الكتب العلمية، لبنان.
ــ الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية لابن أبي زرع الفاسي
ط. دار المنصور، الرباط 1972.
ــ ذكريات. سلسلة في التعريف برجال المغرب للأستاذ عبد الله كنون
الأعداد 18، 21، 23، 25، 27.
ــ الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي، ط. دار الثقافة، بيروت
ــ من ذيول العبر للذهبي والحسيني تحقيق محمد رشاد عبد المطلب. ط. الكويت
ــ الرحالة العرب لنقولا زيادة، القاهرة 1956.
ــ الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، تأليف د. زكي محمد حسن
دار المعارف مصر 1945.
ــ الرحلات تأليف د. شوقي ضيف ط. 3 القاهرة.
ــ الرحلة في طلب الحديث لأبي بكر البغدادي، تحقيق نور الدين عتر
دار الكتب العلمية، لبنان 1395 / 1975.
ــ رحلة إلى جزر مالديف لمحمد بن ناصر العبودي. الرياض 1401 / 1981
ــ رحلة التجاني أبي محمد عبد الله، تقديم حسن حسني عبد الوهاب
تونس 1981.
ــ رحلة ابن جبير أبي الحسين أحمد، دار صادر، لبنان 1400 / 1980
ــ رحلة ابن جبير ورحلة ابن بطوطة، لمحمد مصطفى زيادة، القاهرة 1939
ــ رحلة الحشائشي محمد بن عثمان، تحقيق علي مصطفى المصراتي، لبنان 1965
ــ رحلة ابن رشيد السبتي (دراسة وتحليل) رسالة جامعية تقدم بها أحمد الحدادي

لكلية الآداب بفاس سنة 1981 / 1982، نسخة مرقونة.
ــ الرحلة العياشية (ماء الموائد) لأبي سالم العياشي، الرباط 1397 / 1977
ــ رحلة مع ابن بطوطة لمحمود الشرقاوي، القاهرة 1968.
ــ الرحلة المغربية لأبي عبد الله العبدري، تحقيق محمد الفاسي، الرباط 1968.
ــ الرحلة المغربية، تحقيق أحمد بن جدو. ط. قسنطينة.
ــ رسائل ابن العربي أبي بكر، تحقيق عصمت دندش، مجلة المناهل 9 : 149
ــ رسالة ابن فضلان أحمد، تحقيق د. سامي الدهان، دمشق 1977.
ــ ركب الحاج المغربي للاستاذ محمد المنوني. تطوان 1953.
ــ الروض الباسم لعبد الباسط بن خليل الملطي. نشر برنشفيك.
ــ الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون لابن غازي، الرباط 1384 / 1964
ــ روضة التعريف لابن الخطيب تحقيق محمد الكتاني ط. بيروت 1970
ــ روضة النسرين في دولة بني مرين لابن الأحمر، المطبعة الملكية الرباط 1382 / 1962
ــ السعادة الأدبية لابن الموقت المراكشي، الدار البيضاء 1342.
ــ سلوة الأنفاس لمحمد بن جعفر الكتاني. طبعة حجرية
ــ السنن الأبين لأبي عبد الله ابن رشيد، تحقيق د. ابن الخوجة تونس 1397 / 1977.
ــ شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لابن مخلوف، بيروت 1349.
ــ شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي طبعة بيروت
ــ شفاء السائل لتهذيب المسائل لعبد الرحمن بن خلدون. تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، استانبول 1958.
ــ صبح الأعشى في صناعة الانشا لأبي العباس القلقشندي طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة

ـــ صلة الصلة لأبي جعفر ابن الزبير، نشر بروفنصال، الرباط 1937.

ـــ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، تأليف محمد بن عبد الرحمن السخاوي ط. بيروت

ـــ الطب والأطباء بالمغرب لعبد العزيز بنعبد الله، ط. 1960

ـــ العبر في خبر من غبر للحافظ الذهبي، تحقيق د. صلاح الدين المنجد الكويت 1386 / 1966.

ـــ عنوان الدراية لأبي العباس الغبريني، تحقيق عادل نويهض بيروت 1969.

ـــ الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية لابن قنفذ
تحقيق وتقديم الشاذلي النفير وعبد المجيد التريكي، تونس 1968.

ـــ فاس في عصر بني مرين تأليف روجي لوتورنو، تعريب نقولا زيادة، بيروت 1967

ـــ فتح الشكور في معرفة علماء التكرور تأليف أبي عبد الله الولاتي التكروري تحقيق محمد ابراهيم الكتاني ومحمد حجي، بيروت 1401 / 1981

ـــ فتح المتعال في مدح النعال لأبي العباس المقري، طبعة الهند

ـــ فضائل الشام ودمشق لأبي الحسن علي الربعي، تحقيق د. صلاح الدين المنجد ط. المجمع العلمي بدمشق 1950.

ـــ الفكر السامي في تاريخ الفقه الاسلامي لمحمد بن الحسن الحجوي المدينة المنورة 1397 / 1977

ـــ الفن ومذاهبه في النثر العربي، تأليف د. شوقي ضيف، ط. القاهرة 1971

ـــ فهارس مخطوطات الخزانة الحسنية (ج 1) لمحمد المنوني، المطبعة الملكية 1403 / 1983.

ـــ فهرس ابن غازي، تحقيق محمد الزاهي، الدار البيضاء 1399 / 1979

ـــ فهرس الخزانة الملكية (ج 1) لمحمد عبد الله عنان الرباط 1400هـ / 1980

ـــ فهرس المنجور تحقيق د. محمد حجي الرباط 1976.

ـــ فهرس الفهارس لعبد الحي الكتاني، تحقيق د.إحسان عباس، بيروت 1402 / 1982.

ـــ فيض العباب لابراهيم النميري. تحقيق د. محمد ابن شقرون الرباط 1984

ـــ قانون التأويل لأبي بكر ابن العربي. حققه مصطفى الصغيري لنيل دبلوم الدراسات العليا في دار الحديث الحسنية بالرباط سنة 1977. نسخة مرقونة

ـــ قصائد ومقطعات لحازم القرطاجني، تحقيق ابن الخوجة، تونس 1972.

ـــ قصة الأدب في الأندلس لمحمد عبد المنعم خفاجة. بيروت 1962

ـــ القصيدة : الزجل في المغرب. تأليف د. عباس الجراري، الرباط 1970.

ـــ كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار لمحمد بن عبد المنعم الحميري تحقيق د. إحسان عباس، بيروت 1975.

ـــ كتاب العبر لعبد الرحمن بن خلدون، بيروت 1959.

ـــ كتاب معجم ما استعجم لأبي عبيد البكري، تحقيق فرديناند وسطنفليد باريس 1877.

ـــ كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب لأبي عبيد البكري، نشر وترجمة دوسلان باريس 1965.

ـــ كتاب الوفيات لابن قنفذ، تحقيق عادل نويهض، بيروت 1978

ـــ كتابات مضيئة في التراث الجغرافي تأليف د. شاكر خصباك بغداد 1979

ـــ الكتيبة الكامنة لابن الخطيب، تحقيق د. إحسان عباس لبنان 1963.

ـــ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة، ط. بغداد

ـــ كناسة الدكان بعد انتقال السكان لابن الخطيب تحقيق محمد كمال شبانة. القاهرة 1968.

ـــ الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة لنجم الدين الغزى ط 2 بيروت 1979.

ـــ لسان الدين ابن الخطيب لمحمد عبد الله عنان القاهرة 1968.

ـــ لسان العرب لابن منظور طبعة بيروت.

ـــ اللسان المعرب عن تهافت الأجنبي حول المغرب لأبي عبد الله السليماني الرباط 1391 / 1971

ـــ اللمحة البدرية في الدولة النصرية لابن الخطيب بيروت 1978.

ـــ متنوعات محمد الفاسي الرباط 1967.

ـــ المحاضرات للحسن اليوسي إعداد محمد حجي الرباط 1396 / 1976.

ـــ المدخل لابن الحاج العبدري بيروت 1401 / 1981.

ـــ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لأحمد العمري.
تحقيق حسن عبد الوهاب تونس

ـــ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار للعمري نشر الاستاذ المنوني بمجلة البحث العلمي عدد 1

ـــ مستفاد الرحلة والاغتراب للتجيبي، تحقيق عبد الحفيظ منصور
ليبيا ـــ تونس 1395 / 1975.

ـــ مستودع العلامة ومستبدع العلامة لابن الأحمر تحقيق بن تاويت التطواني ومحمد التركي التونسي تطوان 1384 / 1964.

ـــ مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب جمع وتحقيق د. أحمد المختار العبادي الاسكندرية 1958.

ـــ المشرق في نظر المغاربة والأندلسيين في القرون الوسطى تأليف د. صلاح الدين المنجد بيروت 1963.

ـــ مصادر الدراسة الأدبية (ج 1) تأليف يوسف أسعد داغر لبنان 1961

ـــ مظاهر الثقافة المغربية تأليف د. محمد بنشقرون.

ـــ مظاهر النهضة الحديثية في عهد يعقوب المنصور الموحدي
تأليف عبد الهادي الحسيسن تطوان 1402 / 1982.

ـــ المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي.
تحقيق سعيد العريان ومحمد العلمي ط 7. البيضاء 1978.

ـــ معجم البلدان لياقوت الحموي بيروت 1399 / 1979.

ـــ معجم المطبوعات العربية والمعربة ليوسف سركيس. مصر 1346 / 1928

ـــ معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة بيروت.

ـ المعيار المعرب والجامع المغرب... لأحمد الونشريسي نشر وزارة الأوقاف بالرباط 1401 / 1981.

ـ معيار الاختبار في ذكر المعاهد والديار لابن الخطيب
تحقيق محمد كمال شبانة ط. المحمدية

ـ المغرب عبر التاريخ (الجزء الثاني) لابراهيم حركات، البيضاء 1398 / 1978.

ـ مقدمة ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني ط 2 بيروت 1961

ـ المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف لعبد الحق البادسي
تحقيق سعيد أعراب، المطبعة الملكية بالرباط 1402 / 1982.

ـ مكانة الجغرافية في الثقافة الاسلامية لعبد الفتاح وهيبة
جامعة بيروت 1979

ـ ملء العيبة (الجزآن 2، 3) للرحالة ابن رشيد تحقيق د. ابن الخوجة
تونس 1402 / 1982.

ـ منهاج البلغاء لحازم القرطاجني (مقدمة ابن الخوجة في تحقيقه)
ط 2 بيروت 1981.

ـ المنهاج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح، تأليف أحمد ابن أبي صالح مصر 1352 / 1933.

ـ المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي لابن تغري تحقيق أحمد يوسف نجاتي القاهرة 1375 / 1956.

ـ مهذب رحلة ابن بطوطة تأليف أحمد بك العوامري ومحمد أحمد جاد ط بولاق 1939

ـ الموسوعة المغربية للاعلام البشرية والحضارية لعبد العزيز بنعبد الله طبع وزارة الأوقاف بالرباط

ـ مؤلفات ابن خلدون لعبد الرحمن بدوي ليبيا ـ تونس 1399 / 1979.

ـ المؤنس في أخبار افريقيا وتونس لابن أبي دينار تحقيق محمد شهام تونس 1387 / 1967.

ـ نبذ تاريخية في أخبار البربر في القرون الوسطى
جمع ليفي بروفنصال الرباط 1934.

ـ النبوغ المغربي في الأدب العربي، تأليف عبد الله كنون، بيروت 1961.

ـ نثير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان لابن الأحمر،
تحقيق د. محمد رضوان الداية لبنان 1976.

ـ نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان لابن الأحمر
تحقيق د. الداية دار الثقافة بلبنان 1967.

نشر المثاني لمحمد بن الطيب القادري، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق
الرباط 1977.

ـ نفاضة الجراب في غلالة الاغتراب (السفر الثاني) لابن الخطيب
تحقيق د. أحمد مختار العبادي القاهرة1976

ـ نفح الطيب لأبي العباس المقري. تحقيق د. إحسان عباس
بيروت 1388 / 1968.

ـ نظم السلوك في الأنباء والخلفاء والملوك لعبد العزيز الملزوزي
المطبعة الملكية بالرباط 1382 / 1963.

ـ نهاية الأندلس لمحمد عبد الله عنان القاهرة 1386 / 1966

ـ نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التنبكتي (بهامش كتاب الديباج)
بيروت

ـ هدية العارفين لاسماعيل باشا البغدادي ط أوفست بغداد.

ـ الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى للاستاذ محمد بن تاويت
الدار البيضاء 1981.

ـ الوافي بالوفيات لخليل الصفدي طبعة 1381 / 1962.

ـ وحدة المغرب المذهبية خلال التاريخ تأليف د. عباس الجراري
الدار البيضاء 1396 / 1976.

ـ ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين للاستاذ المنوني
الرباط 1399 / 1979.

— الوسيلة إلى المرغوب، في كرامات الشيخ الولي أبي يعقوب، لأبي عبد الله الأوربي. نشر أحمد البوعياشي ضمن كتابه حرب الريف التحريرية (ج 1) مطبعة دار أمل طنجة 1975.

— وصف افريقيا للوازن الفاسي. ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر الرباط 1400 / 1980.

— وفيات الأعيان لابن خلكان تحقيق د. إحسان عباس بيروت 1972.

3 - المجلات والدوريات :

أشرت في الهوامش إلى أعداد المجلات التي رجعت إليها وذكرت صفحاتها بدقة ، ونظرا لكثرة هذه الاحالات نكتفي هنا بالاشارة إلى سنوات المجلات أو مجلداتها أو اعدادها

- مجلة رسالة المغرب التي صدرت في عام 1942 م (العددان 1، 11) .
- مجلة الثقافة المغربية التي صدرت في 1941 (السنة 2 الأعداد 1، 7، 8)
- ملحق جريدة المغرب التي صدرت في 1938 م (عدد 3)
- مجلة المغرب التي صدرت في 1932 م (مجلد 2)
- مجلة معهد المخطوطات بمصر (المجلات 1 ، 5 ، 10)
- مجلة معهد الدراسات الاسلامية لمدريد (المجلدات 9 – 10 / 11 – 12 / 15 / 21)
- مجلة تطوان (العددان 3 – 4، 9)
- مجلة البينة التي كانت تصدر في الستينات (الأعداد 2، 6، 8، 10)
- مجلة الثقافة المغربية التي كانت تصدر في السبعينات (العددان 4،5)
- مجلة المجمع العلمي العراقي (المجلدات 2، 13، 14، 19، 29)
- مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (العددان 1، 3 من المجلد 40) 4C
- مجلة تراث الانسانية (الأعداد 3/1 ، 10/2 ، 2/3
- مجلة المورد (الأعداد 4،1/3 ، 4/9)
- مجلة دعوة الحق (السنوات 2 ، 3 ، 4 ، 5 ، 6 ، 12 ، 14)

مجلة البحث العلمي (الأعداد 1، 2، 3، 6، 7، 8، 10، 25، 26، 27، 29ـ30)

- مجلة الايمان (الأعداد $\frac{8 - 9}{2}$ ، $\frac{4،5،6،9}{3}$ ، $\frac{10}{5}$

- مجلة المناهل (الأعداد 2، 5، 6، 8، 9، 10، 11، 17، 22)
مجلة العرب التي تصدر بالسعودية (السنتان 3، 4)
- النشرة العلمية للكلية الزيتونية بتونس (عدد 1)
- مجلة كلية الآداب بالرباط (العددان 1، 8)
- مجلة كلية الآداب بفاس (العدد 1)
- مجلة الأصالة الجزائرية (العددان 19، 24)
- المجلة المصرية (العدد 87)
- مجلة الحياة الثقافية التونسية (عدد ماي 1980)
- مجلة العربي (الأعداد 146، 213، 214، 215، 228)
- مجلة هسبريس (بالفرنسية) المجلدات 5، 8، 18، 19)
- الموسوعة الاسلامية (بالعربية) (ج 1) (دائرة المعارف الاسلامية)
- الموسوعة الاسلامية (بالفرنسية) (ج 1، 3)
- دائرة المعارف للبستاني ط 1876 (ج 1) ، ط 1958 (ج 2)
محاضرات المجمع العلمي بدمشق (ج 3)
الكتاب الذهبي (مجموعة بحوث) صدر عن القرويين في ذكراها المائة بعد الألف .
أعمال ندوة ابن خلدون كلية الآداب بالرباط 1979 .

4 ـــ المراجـــــــــــــــــــع بالفرنسيـــــــــــــــــــة :

1 - Benchekroun (M.B.A)

- La vie intelletuelle marocaine Rabat 1974.

2 - Blachére (R)

- Extraits des principeux géographes arabes du Moyen Age Paris 1932.
- Fès chez les géographes arabes du Moyen Age; Hespéris, 81 p: 41-48.

Brunchvig (R)

- Deux récits de voyage inédits en Afrique du Nord au XV siécle paris 1936.
- La bérbérie orientale sous les Hafsides... à la fin du XV siècle Paris 1940-1947.

Ferrand (G)

- Relations de voyages, Paris 1914.

Leclerc (L)

- Histoire de la médecine arabe, Rabat 1980.

Pérès (H)

- Relations entre le Tafilalet et le Soudan à travers le Sahara du 12 au 14 siècles.

Prémare (A. louis de)

- Les notes de voyage d'Ibrahim b. Ali-hadjdj an-numayrri lyon 1978.

Sanguinetti (B.R) et Défremery

- Voyage d'Ibn Battuta Paris 1969.

De Slane

- Voyage dans le Soudan par Ibn Battouta. Journal asiatique mars 1843.

Walcknaer (C.A)

- Recherches géografique, Paris 1821.

فهرس الجزء الثاني

الفهرس المفصل للجزء الأول

الباب الأول
الرحلة ودوافعها في العصر المريني

الباب الثاني
الرحالون وفن الرحلات

تصويبات

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
32	6	عقليتهم	عقيلتهم
58	5	نظافر	تظافر
77	11	يصرخ	يصرح
82	5	الطريق	الطريقة
87	14	وتبينوا	وتبينوا
145	20	زمامة	زمانه
158	6	بجمع	يجمع
188	12	لا	له
188	13	الوسيطة	الوسطية
193	1	شيلام	إيلام
194	13	الأبيات الخمسة من بحر المتقارب يكتب كل بيت تحت الآخر	
207	18	الرواية	الراوية
208	21	ولمكن	ولم يكن
216	9	يكتب كل بيت من الأبيات الثلاثة تحت الآخر	
231	12	بالحجار	بالحجاز
234	3	تأتي	تأتّى
243	1	الشيبابي	الشيباني
250	هامش 6	نفاطة	نفاضة
287	21	طرفه	طريقه

ـ هذه التصويبات تخص الجزء الأول ، فالمرجو تصحيح هذه الأخطاء في أماكنها ، مع الاعتذار سلفا .

رقم الايداع القانوني : 1990/339
تم طبعه بمطابع عكاظ
12 زنقة أبو نواس حي الليمون – الرباط

الثمن 60 درهما